

قرة العين حيدر
نهر النار
FIFA WORLD CUP
Qatar2022
28.11.2022
@ketab_n
ترجمة
أ.د. مجيب الرحمن

قرة العين حيدر

نهر النار

ترجمة

أ. د. مجيب الرحمن

مراجعة

أ. د. ذكر الرحمن

© دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PK2200.Q89 A71125 2019

Hyder, Qurratulain, 1927- 2007

نهر النار: رواية / تأليف قرة العين حيدر ؛ ترجمة مجيب الرحمن ؛ مراجعة ذكر الرحمن. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2019.

627 ص. ؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: آ گ كا دريا

تدمك: 0-662-37-9948-978

1- القصص الهندية- مترجمات إلى العربية- القرن العشرين. 2- القصص العربية- مترجمات من الهندية- القرن العشرين. أ- رحمن، مجيب. ب- رحمن، ذكر. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الهندي:
آ گ كا دريا

قرة العين حيدر

River of Fire: Aag Ka Darya by Qurratulain Hyder



www.kalima.ae

ص.ب، 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف، 579 5995 2 +971






نهر النار

قائمة المحتويات

مقدّمة

تطرح رواية «نهر النار»، للكاتبة الشهيرة في شبه القارة الهندية «قرة العين حيـدر»، تجربةً جديـدةً وفريدة في الروايـة الهندية، على تنوع لغاتهـا وبيئاتها. ولقـد تناولت الكاتبـة -من خلال مؤلَّفها هذا- تاريخَ شـبه القارة الهندية لما يقرب من ألفين وخمسمائة عام، وأودعته في ثوب روائي، معتمدة في ذلك على تجـارب فنية حديثـة. تنبئ الرواية عن سر اسـتمرارية الثقافة الهندية الخصبة، كما تكشـف عن أهم مكوِّناتها التي شكَّلت الشخصية الهندية المتميزة على مرِّ العصور.

فمـن خـلال تقنيـات القـص الحديثـة، كتيَّـار الوعـي وفلسـفة الزمـن، رصدت الكاتبة -عبر أربعة عصور في التاريخ الهندي: البوذي، والهندوسي، والإسلامي، والاستعمار البريطاني وما بعده- مصائرَ أربع شخصيات رئيسة: غوتام، وتشـامبا، وكمال، وسيريل. وتظهر شـخصية غوتام -أولاً- كطالبٍ متجـوِّلٍ في جامعة الغابة في شراوسـتي إبان القـرن الرابع قبل الميلاد، وتظهر معه شخصية تشامبا التي تجسِّد المرأة الهندية عبر العصور. أما شخصية كمال، فتظهر في العصر الإسـلامي، إذ يحكي عبر مذكراتـه ما قام به وأنجزه الحكَّام المسـلمون إبـان القرون الوسـطى في الهند. ويظهر سـيريل بدوره مجسـداً ما مثَّله الاسـتعمار البريطاني في الهند. وتتقاطع حكايات الشخصيات على مدى

عصور مختلفة؛ حكايات حب وهيام وصراع الملوك من أجل السيطرة على السلطة. وفي ثنايا الأحداث، تقدم لنا الكاتبة صوراً مبهرةً عن تشكل الثقافة الهندية الفسيفسائية المشتركة، والمشكلة من العناصر الهندوسية والبوذية والتركية والمغولية. وأخيراً، تقدِّم لنا الرواية السياق التاريخي لنشأة الصراع الطائفي الذي أدى في نهاية الأمر إلى كارثة تقسيم الهند لدولتين قوميتين: الهند وباكستان، وما لهذه الحادثة من آثار وتداعيات خطيرة ومدمرة على الثقافة الهندية المشتركة.

يمثل تناسخ شخصيات الرواية، في كل عصر من عصور التاريخ الهندي، تناسخ الأرواح في الفلسفة الهندية، ووحدانية الطبيعة الإنسانية في خضمِّ الاضطرابات القومية والدينية، فالكاتبة قرة العين حيدر تؤمن إيماناً قوياً بمحورية الثقافة الهندية المشتركة، وتعد تنوعها من أجمل روافد الحضارة التي هي بمثابة النهر المتدفق.

يتساءل كمال في خضمِّ الأحداث التي قادت إلى تقسيم البلد: إذا كان أسلوب الحياة الهندي يتكوَّن من الثقافات التركية والمغولية والهندوسية والبوذية، فلماذا أخذ حزب الرابطة الإسلامية يشكك في جدوى هذه الثقافة؟

كما توجه رواية «نهر النار» نقداً لاذعاً للأصولية الهندوسية والإسلامية التي نخرت في جذور كيان الثقافة الهندية المشتركة، ومثلت الخسارة العظمى لها.

ومن الناحية الفنية، تقدم رواية نهر النار تجربة مثيرة، إذ وظفت الكاتبة تقنيات عديدة في سرد الأحداث: كالرسائل، والمذكرات، والأمثال، وتيار الوعي، مقدمة رؤيتها الحزينة عن تآكل الزمن. إن الرواية تتسم بأسلوب غنائيٍّ جميلٍ، ورغم عرضها للتاريخ الهندي في قالبٍ روائي، فإنها تحمل في

طياتها ما يكفي من عنصرَي التشويق والإمتاع.

ومما لا مراء فيه أنَّ رواية «نهر النار» ثرية ثراءَ الهند بفلسفاتها وأفكارها وتنوعها الديني واللغوي والثقافي، وهي فوق ذلك رثاء لضياع تلك الثقافة الغنية المشتركة في الهند قبل تقسيمها. وبحسب رأي النقاد، فإن رواية «نهر النار» تحمل في الأدب الهندي المكانة نفسها التي تحملها رواية غابريال غارسيا ماركيز «مئة عام من العزلة» في الأدب الناطق بالإسبانية.

ويسعدنا أن نقدِّم للقارئ العربي عملاً روائياً أصيلاً من الأدب الهندي، يساعده على فهم كيفية تشكُّل الخصوصيات الحضارية والثقافية في الهند، الممتدَّة عبر العصور، والعوامل التي لعبت دورها في إحداث الصدع والتشقق في صرح الثقافة الهندية المشتركة، وما نتج عنها من تداعيات خطيرة ومؤلمة على المجتمع الهندي المعاصر.

1

عصر الطاووس

كانـت هـذه أوّل حـشرةٍ وليدةٍ يراهـا غوتام في هذا الموسـم من حشرات نبات المطر، إنّها أجمل حشرات المطر، فلقد كسـاها الله ثوباً مخملياً أحمر. لطالما عرفـت بعروس «إندرا» إلـه الغيوم. أخذت تزحف على شريطٍ عشـبيٍّ، بيد أنّ عاصفة رياح شرقيّةٍ دحرجتها إلى الأرض الموحشـة. أمسكها غوتام برفقٍ مستعيناً بغصنٍ، ووضعها على كفّه. تتكاثر حشرات بنت المطر على الأعشاب بحلول موسـم المطر. من أين تظهر هذه الحشرات الخلابة اللون والشـكل؟ وأيـن تختفـي؟ مـا أقصر أجلهـا! إنّها لتعيـش أياماً هـي جُلُّ عمرهـا في هذه الدنيا!. كانت الحشرة الوحيدة، وقد بدت وحيدةً حقاً في هذه الغابة المترامية الأطراف. هاهي تجلس مسترخيةً بصمتٍ في كف غوتام، فلربما كادت أقدام حيوان أو عابر سبيلٍ تدوسها، وتخط نهاية حياتها.

وضعها غوتام جانباً، وصنع سـفينةً من ورقة شـجر بانيـان. يمرُّ جدول مياه الأمطار بجذوع شجر البانيان التي يجلس عليها غوتام. أتاح لحشرة بنت المطـر أن تنزلـق إلى السـفينة الورقية فوق جـدول الماء الـذي كان بمثابة بحر بالنسـبة لها، إذ لابـدَّ أن يبدو جدول المـاء لمخلوقٍ متناهـي الصغر كالمحيط. «وداعـاً يا عروس إنـدرا» قال غوتام بعد أن حملت الأمواج السـفينة الورقية بعيداً عنه. نظر إلى السـماء ثم جمع أمتعته وحقيبته القماشـية واستأنف رحلته.

لاحظ بنت المطر الحمراء الأخرى على العشب الأخضر تتقدم ببطء من مكانٍ إلى لا مكانٍ حيث يحدث أن يطأ عابرٌ هذه الكائنات الصغيرة الجميلة المسكينة عن غير قصد.

سار غوتام بحذرٍ عبر الرقعة الخضراء حتى وصل إلى المسار الطيني. إنّه متعبٌ الآن وها قد وصل. غوتام نيلامبار، طالبٌ في السنة النهائية في جامعة الغابة في شراوستي، سلك دربه راجلاً من شراوستي إلى ساكيت حرصاً على المزيد من العلم. كان يستمع إلى محاضرات عالمٍ بلغ من العمر مائة عام، أبحر فيها في علم الكونيات حتى أحسّ أن رأسه يفيض بالنجوم. إنها فترةٌ جديدة تمثل البداية في كلّيته، وهو في طريق عودته إلى موطنه شراوستي، كان المطر ينهمر بشكل متقطع، فتوجَّب عليه التوقف من حين لآخر تحت الأشجار.

برغم عناء السفر لم يكن مسموحاً له كطالبٍ أن يستخدم القوارب أو المركبات أو المظلات ولا أن يحمل نقوداً معه، ما اضطرَّه إلى أن يتسوَّل طعامه من أهل القرية المحترمين، وينام تحت الأشجار. هذه الحياة الشاقة قد تشبه حياة ناسك «جايني»، بيد أنّ غوتام لم يكن ناسكاً جاينياً ولا راهباً بوذياً. لم يكن حليق الرأس بل أتاح لعقدة الشعر فوق رأسه - وهي علامة على كونه برهمياً- بأن تمتزج مع خصلات شعره اللامعة. لقد كان فخوراً بوسامته ومعجباً بنفسه، ولم يكبح أنانيته، إذ لم يجد سبباً ليفعل ذلك.

ذات مرة قال له صديقه أكليش المقيم في المدينة إنّه كالطاووس يرقص في الغابة وحيداً دون أن يثني عليه أحد. وها قد غدا غوتام وحيداً بحقٍّ، لا يحيط به إلا الأساتذة المشايخ والعلماء البارعون والطلبة المتحذلقون. لطالما أحبَّ أن يرقصَ، ويرسُمَ، ويصنعَ تماثيل من الطين، فلقد سافر ماشياً على قدميه إلى كاشي ذات مرّةٍ ليتعلم رقص شيفا. لم تكن لديه أدنى رغبةٍ في أن

يصبح رجل دينٍ مثل والده. أراد أن يطلع على أسرار «ساراسفاتي» بوصفه فناناً مبدعاً، وعلى أسرار الكون مثلما تفعل حشرات بنت المطر بطريقتها البدائيّة البطيئة - لا بد أنها تملك تصورها الخاص عن الكون! - وبما أنه كان الابن الوحيد لكبير كُهّان شراوستي، فقد أُرسل إلى الكلية وهو ولد شاب، وعاش هذه السنوات عاكفاً على إلهة العلم.

لقد حان شهر «بهادون»[1]، فبدأ يتكرر هطول الأمطار. وصل إلى ضواحي ساكيت، وجلس على ضفة نهر ساريو العشبية، وبينما كان يتلو الآيات والأدعية بخشوع، وينظف قدميه الملطختين بالطين بالماء لامس شيء ما أصابع قدميه. سمع صوت خلاخل وأساور زجاجية وضحكات امرأة. امتزجت ضحكات النسوة بأصوات الأساور، هذا مادار في خلده قبل أن تطفو أكاليل الياسمين الثرّة، وتلامس أصابع قدميه تليها أزهار المانوليا. هل يرسلن لي رسائل زهرية؟ فكّر في نفسه بشيء من الغرور، وألقى نظرةً خاطفةً باتجاه الأزهار التي جاءت إليه، لقد كان مكاناً للاستحمام، حجبته عن الأنظار شاشةٌ من الخيزران. استرق غوتام نظرةً من خلال شبكةٍ وحبس أنفاسه. ثمة اثنتان من الفتيات الجميلات وجواريهن الداكنات يتأهبن للاستحمام في الصباح الباكر، تراءت إحداهما بعيني ظبي، وراحت تتأهب لخلع تاجها الذهبي. لسن فتيات خليعات يسعين لإغراء شخص غريب بأكاليل الزهور، بل سيّداتٍ شريفاتٍ خلعن أكاليلهن من الزهور قبل الاستحمام.

كانت إحداهما ذات بشرة ذهبية وعينين مستطيلتين، لو رآها شاعر لما تردّد بوصفها «ميناكشي»[2] أي السمكيّة العينين. وبينما أخذت تزيل أزهار

(1) أحد شهور السنة الهندوسية التقليدية ويمثل انطلاق موسم المطر.

(2) ذات عيني السمك.

مانوليا من شعرها المضفور، وترميها في الماء، حملت المرأة من الطبقة الدنيا مظلّةً أنيقةً وسلّةً من الزهور اليانعة. كانت عيناها كعيني بقرةٍ، ويصحّ تسميتها «إلاكشي» - أي صاحبة عيني البقرة - فيما بدت بشرتها كالطين أو ربّما أقرب لتمثالٍ من الطين.

ارتدت الفتيات البيضاوات أوشحةً حمراء كحمرة بنت المطر، وسراويل تبلغ حدّ الركبة. هن عرائس «إندرا»، تحيط بهن غيوم كثيفة محملة بالمطر! كانت أذرعهن وأرجلهن العارية محمّلةً بأساور وخلاخيل ذهبية. أدرك غوتام أنه قد دخل إلى حوض الاستحمام الخاص بالعائلة الملكية. لا بد أن قصر الملك يقع بالقرب منه.

أحس بانجذاب كبير في نفسه نحو الفتاة ذات العينين الشبيهتين بعيني السمكة، فقد كانت فاتنةً ومثيرةً وذات أثر مغناطيسيّ، بل كان ثمة شيء أثيري فيها، إذ غمرته نشوةٌ مؤقتةٌ بمجرد النظر إليها. ولكنه سرعان ما استعاد صوابه حين أدرك أنّه عازبٌ، وأنه لا يجوز له أن ينظر إلى النساء حتى يتخرج في الكلية، فيغدو حراً بعد ذلك في اختيار طريق حياته، حينها إما أن يصبح ناسكاً أو رب أسرةٍ. إنني لم أُخلق لأبقى عازباً إلى الأبد، أسرّ لنفسه. بيد أنّ بقاءه وراء شاشة القصب وقتاً أطول كان محفوفاً بالمخاطر، إذ يُمكن أن يكتشفه أحد، وهو يسدد نظراتٍ غراميةٍ إلى النسوة الملكيات، فيجلب العار لكليته.

كانت أزهار الكادامبا تتلألأ مثل المصابيح الحمراء الصغيرة الموضوعة وسط أوراق الكادامبا القلبيّة الشكل، وكان «كريشنا بانسالي»، إله الغابة، يعزف المزمار تحت أشجار الكادامبا، فبدت الرياح الشرقية كأنها تنشر نوتات مزمَاره عبر الدهور، وتهزّ الأغصان، وتراءت قطرات المطر الساقطة كعنقودٍ من الماسات الصغيرة.

وبينما رقص طاووس تحت شجرة داك المشتعلة، وتفتحت أزهار المانوليا بأكملها أخذ ملاح وحيد يغنّي في مكان ما فوق بقعة الماء الممتدة. تلألأت السيدتان البيضاوان كالقمر الشاحب في ضباب النهر. كان المشهد أشبه بالغابة المثاليّة من «العصر الذهبي» الذي سمع عنه غوتام. خرج على مضضٍ من مخبئه، وغمر نفسه بالماء المتدفق بسرعة. ملأت موجات نهر ساريو الهادئة نفسه بطمأنينةٍ عميقةٍ،وبدأ يسبح حتى وصل إلى الضفة الأخرى. سمعت الفتيات الثلاث صوت الرشاش، وشاهدن شاباً رائعاً يخرج من الماء مثل صورةٍ فضّيةٍ تخرج من أمواج الحلم، ثم يختفي في الضباب. «لعلّه طالبٌ بائسٌ مسكينٌ يسعى للعبور»، عقّبت كوماري تشامباك ذات العينين السمكيتين بتعاطفٍ.

«كيف خمّنتِ ذلك؟»، سألت البنت ذات العينين الظبائيتين.

«لم يستأجر القارب».

«لماذا لا يُسمح لهم باستخدام القوارب حتى في الأحوال الجوية السيئة؟»سألت جامونا، الخادمة.

«لجعلهم أقوياء وشديدي القدرة على الاحتمال، وليتمكنوا من الجلوس تحت أشجار البانيان، واكتساب المزيد من الفلسفة دون كللٍ أو مللٍ»، أجابت تشامباك بحدة، ونزلت إلى النهر.

لاحظت البنت الظبائية العينين المرارة في صوت رفيقتها وتنهدت. لقد أزعجها منظر الطالب المرتدي الثوب الأبيض أيضاً. فشقيقها، ولي العهد، طالب أيضاً ولم يعد لبيته من تاكسيلا منذ ثماني سنواتٍ. انتظروه بفارغ الصبر، وصلّوا لعودته الآمنة. في هذه الأثناء لم يبق لدى تشامباك، ابنة رئيس الوزراء، أيّ خيارٍ سوى مناقشة مسائل الفكر مع العلماء الصينيين الزائرين.

كانت قد وعدت الأمير بأنها سوف تنتظره، ورفضت خاطبين كُثُر، وأخذت تتحول سريعاً إلى خادمةٍ ساخطةٍ متقدّمةٍ في السن. لن يبقى أمامها خيار إلا أن تصبح ناسكةً أو راهبةً بوذيّةً، ارتعدت الأميرة لهذه الفكرة.

الرجال الذين يغادرون بيوتهم في رحلاتٍ طويلةٍ تَنتظر عودتَهم في موسم المطر بفارغ الصبر نسوةٌ خلفوهن وراءهم، هذا هو مغزى أغاني المطر. بيد أنّه لم يرجع بعد، حتى في موسم المطر هذا في شهرَي «ساون» و«بهادون». ترى كم سيكسب شقيقها من العلم، استغربت الأميرة، فسواء حصلتَ على حكمة ثلاثة عوالم أو بقيتَ جاهلاً مثل هذه الجارية جامونا سوف تموت مثلما يموت الجميع، فلماذا تضيع وقت شبابك الثمين في الجلوس تحت الأشجار وتتعذب؟ يجب أن لا أشعر بالاكتئاب في هذا الصباح الباكر، رفعت صوتها قائلةً: «حالما أصل البيت سأجرّب تسريحة شعرٍ جديدةٍ». «قبل أيام رأيت بعض النساء المتعجرفات من باتاليبوترا، يرتدين عمائم تشبه المراوح مثبتة على جانب واحد من الرأس، نساء المدن الكبيرة يعتقدن أن نساء المدن الصغيرة تعوزهن الأناقة والذوق الرفيع». غيرت تشامباك أيضاً موضوع الحديث: «يقول أبي ثمّة مشكلةٌ سياسيةٌ تختمر في باتاليبوترا، لذا أتين إلى هنا».

بدأت السماء تمطر رذاذاً.

حدَّقت كلتاهما بحزن في الجانب الآخر من النهر، كان الباحث المجهول قد اختفى وراء ستار متحرك من المطر.

وصل غوتام إلى منتصف النهر. التفت برأسه لإلقاء نظرة أخيرة على الفتاةِ التي تزينت بأزهار تشامباك، ثم أخذ يسبح بكامل قوته، حتى وصل إلى الضفة الأخرى، حيث كانت طيور الغرانيق تقف حزينةً مبلّلةً بماء المطر. نشر عباءته المبللة على شجيرةٍ لتجفّ. كانت الشمس آخذة في الظهور. ذهب

إلى القريـة الواقعة على ضفاف النهر، وهي قرية صغيرة لمربي الطواويس التي يصنعون من ريشـها مراوح. وقف غوتام في البيت الأول على جانب الطريق وقـرع الباب، خرج أحد أفراد العائلة الذي بدا مَرِحاً ومرتاحاً لرؤية ناسـك في اللبـاس الأبيض. صاح قائـلاً: «رام دايا، ثمة عالم برهمي، ليس واحداً من ذوي الزيّ الزعفرانيّ..». كان تاجراً ثرثاراً، استمر في الثرثرة وهو يخرج من البيـت «أنا أصدر مـراوح مصنوعة من ريش الطاووس يا سيدي. السـوق في تراجـع هـذه الأيـام منذ أن انطلقـت هذه الحركـة الجديـدة للتخلص من الكماليـات والرجـوع إلى الغابـة. أرجـوك أن تدعو لي، فقد كانـت مراوحي تصـدر إلى بلـدان أجنبيّـةٍ، وعندما سـمعت طرقةً على البـاب ظننت أنه أحد هـؤلاء، كل هـذه المفاهيـم الجديدة عن المسـاواة، وانعـدام الطبقيّـة وغيرها والتوجـه إلى «نبذ الدنيا» يضرُّ بنا. حتى الفتيات يحلقن رؤوسـهن ويتوجهن إلى الغابـة. هـذا ما يحدث عندما تعلم النسـاء، يبدأن في البحـث عن «نِرفانا» (السعادة القصوى).

خرجـت زوجـة رب البيـت المسـن، الطفلة، تحمـل صينيّة قصـبٍ مليئةً بالأرز والعدس والشعير المطحون وقطعة من السكر الأسمر. وضع الباحث كل ما قُدّم له في حقيبته القماشـية. لمسـت الفتاة قدميـه، فردد الباحث كلمات الدعـاء لها... «رزقتـك الآلهةُ المواشيَ وأولادها والحصـاد الوافي... ومراوح الطاووس». وبما أنه لم يكن مسـموحاً له بـأن ينغمس في محادثة غير ضرورية مـع أهل القـرى أو البلدات، فقد سـار نحو قرية صانعـي الأواني الفخارية. أعطـاه خزّافٌ وعـاءً طينياً جديداً وقبسـاً مـن النار، فحفر فرنـاً في الأرض، وغلى أرزه وعدسه في آنيته الفخاريّة، ثم تناول طعامه ونام قليلاً، بعدما حث خطـاه مـن جديد. لقد أمضى عدّة أيام يتنقل بعنايـةٍ في الغابات التي انتشرت

فيها النمور، وهي مسكن قبائل جوند. عاش على الفواكه البرية ونام تحت الأشجار. كان لديه متسعٌ من الوقت لحفظ المحاضرات التي سمعها في ساكيت حول النجوم، كان رأسه يعجُّ بمباحث وخطابات حول مواضيع مختلفة. لحسن حظّه أنّ هذا العام هو الأخير في كلّيته.

تمـّددت ظلال أشجار سال عندما وصل إلى ضفة نهر ساريو الأخرى وتوجب عليه أن يعبر هذا النهر مرة أخرى. تقع قرية شراوستي على الجانب الآخر. غاص في النهر وعبر إلى الشاطئ الآخر حيث مسكنه، التقط عدداً من «التفاحات الخشبية» الناضجة المتساقطة على العشب، فلاحظ وجود مزارٍ صخريٍّ على ضفة النهر، ربما يستطيع أن يقضي الليل هناك.

كان معبداً مهجوراً لإلهة أمٍّ تخصُّ بعض القبائل. دخل المعبد ونشر عباءته على الأرض، ولكونه وحيداً فقد اعتاد التحدّث إلى نفسه بصمتٍ؛ لقد تعبتُ جسمانياً ومللتُ من العلم أيضاً، لقد أرهقتني الحكمة. لا بد لي أن آخذ قسطاً من الراحة هنا الليلة قبل بداية روتين المعبد من جديد. انحنى على جدار المزار الشبيه بالكهف خائفاً من الهدوء داخل المكان الضيق. يقول «ريغ فيدا»: في البداية كانت الذات التي ظهرت في شكل «الرجل»، نظر الرجل حوله ولم يجد أحداً إلا نفسه فقال: هذا هو أنا، لذلك بدأ يفكر في «أنانيته»، لقد كان وحيداً، وعندما يكون المرءُ وحيداً يرتعب من نفسه، لذلك توقف عن الخوف، ولكنه لم يكن سعيداً، لأن الوحدة تنطوي على الحزن، والحزن مخيف أيضاً.

لّما يظهر «برهما» (الله) - الذي لا شكل له ولا وجه - على شكل إنسان آخرٍ، يصبح المرء حذراً. لماذا لا يثق المرء بالآخرين؟ هم أيضاً براهما.

يجب ألا أخاف من وحدة روحي، ثم استحضر الأوبنشاد. داخل مدينة براهما، التي تمثل جسد الإنسان؛ ثمة قلب في داخله بيت صغير كزهرة

اللوتس التي تحتوي على الشيء الذي يبحثُ عنه ويسعى إلى اكتسابه، الشيء الذي وُجد في العالم الكبير وُجد في هذا العالم الصغير. إنّهُ يسرح بعيداً رغم أنّه جالسٌ، يذهب بعيداً رغم سكونه، يحرك كل الأشياء، إنّه ليس إلا الفرح، ومادون الفرح كل ما عليها فانٍ وزائل ولكنه سرمديّ. ذلك هو براهما أو ما وراء المعرفة...

سمع صوتَ أقدامٍ، ثم خَيم صمت مطبق ثانية، ثمّة شخصٌ اختلس نظرة من وراء الحائط. أَطلق حصان صهيلاً من مسافةٍ قريبةٍ، مما جعل غوتام في حالة تأهب.

«أنا أقول، من أنت؟» صوتٌ مجهولٌ سأل بحذرٍ وبلهجة مثقف، لعله باحث متجول آخر، لعله هو.

«إنه أنا فقط، أي اسم يمكن أن تعطيه للروح البشرية؟» صاح غوتام من جديد على نحوٍ أكاديمي.

«الأسماء ضرورية للتمييز. إذا كنت إنساناً، ولست شبحاً نارياً فلا بُدَّ أنك تملك اسماً!» بدا ذلك الرجل شخصاً مجادلاً مثله.

«تكلم عن نفسك فلربّما كنت شبحاً يطارد هذا الثقب الصغير المخيف. لماذا هذا المكان مخيف جداً حتى قبائل «بهير» هجرته؟ أما هذا الجسد، إذا كان يجب أن تعرف اسمه، الذي يستحق أن يُنسى، فهو غوتام نيلامبار، أجاب، محاولاً التظاهر بالتواضع.

«حسناً... انزل أيها الأخ غوتام نيلامبار إلى الأرض من السموات الزرقاء حالاً، لقد تعبت من الوقوف على هذه الصخور».

«اصعد للأعلى. ليس الجرف زلِقاً»

«المرتفعات يمكن أن تكون زلقة»، جاءه الرد.

«هل أنت واحد من أولئك الذين يرتدون ملابس صفراء اللون؟»

«لا... أنـا لسـت إلا واحداً متعاطفاً مع الحركـة. على أي حال، ليس ثمة إجابة محددة عن أي سـؤال أيّهـا الأخ غوتام». «ثمة سـت إجابات صحيحة لكل سـؤال. هل أنت راعي بقرٍ جايني؟ تعال يا سيدي، وسنناقش كل هذا، ونحـن نحتـسي مشروبـاً بارداً. إنّنـي طالبٌ فقـيرٌ لا يمكنني أن أقدم سـوى تفاحة خشبية على العشاء، سأصنع فنجانين من أوراق البانيان وأعطيك مياه شـعير باردة لإرواء عطشـك، يمكنني أن أصنع أكواباً أنيقـة جداً من أوراق الشجر مثلما تعلم».

من هو؟ تسـاءل غوتام. ثمة السوفسـطائيون واللوجسـتيون والملحدون والملـوك والأمـراء السـابقون الذيـن يتحركـون في ضـوء القمـر كفلاسـفة متجولـين. اتّبع أمير كابيلا فاسـتو تقليد نبذ الدنيا أيضاً، فقد أضاف فلسـفة أخرى جديدة إلى مملكة الفكر الواسـعة التي ازدهر فيها اثنان وسـتون نظاماً فكريّاً. اثنان وسـتون نظاماً للفكر! ومع هذا يتخبط المرء في وحدةٍ موحشـةٍ، هاهو الخوف يراود غوتام ثانيةً.

2

المسافر اليوناني

أخيراً أتى شابٌّ متألّقٌ طويل القامة أبيض اللون، يرتدي ملابسَ مضحكة: سترة بيضاء تبلغ الركبة، وحزاماً، وصندلاً جلديّاً ذا أربطة التفت حول رجليه المتينتين، وهذّاباً يجره وراءه. بدا وجهه المحلق مألوفاً على نحوٍ غريب. وقف هناك تحت أشعة الشمس الغاربة وقد توهَّج وجهه مثل بعض الكائنات السماوية التي نزلت من «إندرالوك» مسكن الآلهة.

«هل أنت حقيقي؟»، سأل غوتام نيلامبَر.

ابتسم الغريب ابتسامةً غامضةً «نعم أنا غريب، اسمي هاريوس سانكاريوس وأنا في خدمتك». انحنى الرجل حتى خصره بطريقة غير مألوفةٍ. بدا غوتام حائراً، ثم قال: «أوه، يافانا!» إذ لم يسبق له أن رأى «أجنبياً حقيراً» من قبلُ.

«أنا من إيونيا، أشتغل في مجال النقل البحري»، أخبره اليوناني بمرحٍ. بدا غوتام فارغ الذهن، وقد انتابه شعور بأنه أحد القرويين السفهاء.

«أنا لست قطباً من أقطاب النقل البحري اليونانيين الذين ربما سمعت عنهم»، حاول هاريوس سانكاريوس أن يُطَمْئِن الطالب الذي ينحدر من هذه المنطقة المتخلفة إذ بدا له مرتبكاً. لم يسمع غوتام قط عن الأقطاب اليونانيين في مجال النقل البحري.

«لـديّ قارب شـحن صغير أحضرته مـن الخليج للإبحار في نهر السـند، عهدت بمسؤوليّته إلى طاقم فينيقيٍّ، وقررت استكشاف المنطقة نحو الشرق، لهذا اشـتريت حصاناً من سَكيثيان وَ... هل يمكنني الجلوس؟ ذهبنا أولاً إلى تاكسيلا...».

«إذن سـبق لك أن ذهبتَ إلى تاكسـيلا! أتوق كثيراً للذَّهاب إلى تاكسيلا» صرَّح غوتام وكأنه مفتون بها.

«تناولْ شـيئاً من هذا». أخرج اليوناني الفواكه الجافة من حقيبته الجلدية. «إننـي أجنبيٌّ مـزدرىً، أجل! ولكنك لن تخرج من طبقتـك لو تناولت معي هـذا، إنّه غيرُ مطهوٍّ فقد أُحضِرَ من بسـاتين غاندهارا مباشرة!» لمع خاتَمٌ من المـاس في يده اليمنى، فأخفاه سريعـاً في ثنايا ثوبه، وضحك بعصبيّةٍ. «الناس صريحـون جداً في هـذا البلد. لقد سـافرتُ عبر التلال والوديـان، ولم يعترني خوفٌ، ليس ثمّة قطّاع طرقٍ أو لصوص».

ظلَّ غوتام صامتاً، وبدأ يحدق باهتمام أكبر في وجه اليوناني الوسـيم الذي أثَّر فيه الطقس، وجعل وجهه وجهاً استثنائياً. إنه يشبه الفتاة الظبائيّة العينين ذات الإكليـل الذهبـي التـي رآها قبـل أيّـام في المغطس الملكـي بالقرب من ساكيت. «أنت تتحدث اللغة المحلية بطلاقةٍ» قال ذلك بشيء من التردد.

«نعم، لقد سافرتُ حول العالم، ويمكنني أن أتكلم العديد من اللغات»، قـال يافانا غيرَ مُكـتَرِثٍ. على الرغم من أنه كان أكبر سـناً، فإنه بدا كأخٍ توأمٍ للفتاة التي وضعت إكليلاً على رأسها. كان غوتام مرتبكاً فقد لاحظ انزعاجَ اليوناني المتزايد وضيق صدره، فصاح «انظر هنا يا سيدي هاريوس مهما كلّف الأمر، لقد رأيت سـيدة ممتلئة الجسم ترتدي تاجاً تُشبهك، أليس هذا غريباً؟ لهذا السـبب لا أسـتطيع أن أنسى وجهها، لا يمكن أن تكون قريبة لك، أنت

يوناني، وهي أميرة راجبوت. على أي حال، هي فتاة تُشتَهى بصريح العبارةِ».

احمرّ وجه اليوناني. «أنت تقصد صاحبة السمو الملكي، الأميرة نيرمالا..».

تحدّث بغطرسةٍ ولهجةٍ قارسةٍ، نظر حوله، لقد أدرك أنّه تصرَّف بغباءٍ.

ابتسم غوتام، وهو ما زال يحاول فهم الموقف. فجأةً أدرك وقال منتصراً: «يا سيدي، اسمح لي أن أقول لك: أنت لست يونانيّاً، أنت الأمير هاري شانكار المعروف باسم الأمير كوشال ديش المفقود منذ زمنٍ».

بدا اليونانيُّ الزائف خائفاً. «من فضلك لا تخبر أحداً عني، ألتمس منك...». تلاشت غطرسته الملكيه وهيبته الدوليّة التي تصنَّع بها قبل دقائق معدودة.

استمتع غوتام نيلامبار من منطقة شراوستي المتخلفة بهذه القوة الجديدة التي اكتسبها، وفاق بها وليّ العهد. «حسناً»، قال «ولكن فقط إذا أوضحت لي لماذا أصبحت هارباً، لماذا تتنكر كمسافر يوناني؟ أخبرني، أو...».

«أو؟»

«سأخرج توّاً وأبلغ طبّال القرية. وسوف يذيع الخبر أن الأمير قد عاد ويختبئ في...».

كان للتهديد مفعوله. «لا... لا تفعل ذلك. أرجوك» ضمَّ الهاربُ كفَّيه بكل تواضع.

تقمّص غوتام الآن دور المستجوِب. السلطة تغيّر شخصاً في لحظةٍ. «لقد أرسلك الملك إلى تاكسيلا للدراسات العليا، أليس كذلك؟»

«بلى»

«وأنت - أعني صاحب السمو الملكي - وقعتَ في براثن صحبةٍ سيئةٍ وبدأت ترتاد أوكار الإثم، أليس كذلك؟

«لا. كنت في صحبة مبشرين بوذيين رائعة وهم في طريقهم إلى سهول شعب الحصان - توروكشاس. لقد هدوني إلى الطريق السريع للخلاص، وبرغم ذلك، لم أكن على عجلة من أمري لأصبح راهباً. انظر كيف تركت هذه الفتاة المغنولية ذات العينين السمكيتين ورائي...».

«فتاة! يبدو أن الفتاة دائماً هي أصل كل المشاكل»، قال غوتام مؤيداً كلامه.

«... لذلك لم أتمكن من الوصول إلى قرارٍ. وأخيراً، جعلني العالم أتخلّى عن ذلك». واصل الأمير كلامه بصوته الحزين الجذّاب. «اعتدتُ أن أعيش في غرفةٍ صغيرةٍ مصنوعةٍ من الطوب تشبه الكهف في ساحة تاكسيلا. كنّا نتناول الأكل في قاعة طعام حيث حاضر الأستاذ آشاريا فيشنو شارما حول النظرية السياسية مراراً وتكراراً. لقد وضع قانون الأسماك: الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة. كل ما نحتاجه برأيه هو إمبراطوريّة، فلقد ولى زمنُ الممالك الصغيرة».

«كان ثمة بعض الإيرانيين في تاكسيلا. قالوا إن ملوكهم طوَّروا نوعاً من الملكيّة الرائعةً حقاً. واجهتني معضلةٌ، إذ لو بقيتُ في عالم الملوك المتكالبين على السلطة وأمراء الحرب والساسة لتوجَّب عليَّ أن أقتل البشر، وأنا الآن لا أريد أن أقتل حتى الحيوانات. تركتُ الجامعة، وشرعتُ في رحلةٍ طويلةٍ. أبحرتُ في نهر السند، وتجولت في جبال الباختايين ذوي العيون الزرقاء وما وراءها. يتباهى البراهمة في الشمال الغربي بأنهم يستطيعون أن يتتبعوا نسبهم إلى الحكماء الذين ألفوا الأناشيد الفيدية عندما عاشوا في جبال أريانا[1] قبل انتصار محاربي إندرا على شعب هاريوبا الداكن البشرة. لقد بدا كل هذا

---

(1) أفغانستان المعاصرة.

حديث العهد - عهد الآلهة والأبطال - بل يشعر المرء أنه أقرب إلى المصدر حين يعيش في خاشترام...».

«ما هو ذلك؟» سأل غوتام منزعجاً.

«الشمال، في اللغة الإيرانية - أريانيام خاشترام. وحين كانت تلك الترانيم الفيدية تُرتَّل هناك كان بإمكانك أن تسمع رياح الشمال المدمرة ورعد الإله رودرا ذي الوجه الأحمر. جلسُت حول نيران البدو الذين يرتدون الفرو، وسمعت قادة القوافل يروون ملاحم أبطال تورانيين، سهراب ورستم. سمعت عن الحروب اليونانية الفارسية الممتدة لقرون؛ وفتوحات الأباطرة الإيرانيين. لقد أعلن داريوش الأول، ملك الملوك: «أنا داريوش، إمبراطور الأباطرة، ربّ هذه الأرض. الإيراني، ابن الإيراني، والآري، ابن آريا... يسمّي ملوك الفرس لغتهم أرياني».

«لنسلم أن هذا الأمر أي أمر الآري مربحٌ. نحن آريون أيضاً، ألسنا جدّ متفوقين؟» استقر غوتام في جلسته. «هذا يدل على أن ثمة أناساً نبلاء مثلنا ومثل الإيرانيين، وأناساً أدنى منزلة؛ إنه قانون الجزاء قانون «كارما»[1]».

أنا لست متأكداً بأيِّ حال، كان المعلم فيشنو شارما يتحدث عن دفة السيادة. هيمنت دفّة السيادة الفارسية على كل الأصقاع. وقد فتح الآخمينيون أيضاً المناطق الشمالية الشرقية لسابتا سيندو، وصرّح الإمبراطور زيريكس ملك الملوك معلناً: هذه هي الأراضي التي كانت تُعبدُ فيها الآلهة، لقد هززتُ أسس معابدهم بمساعدة أهور مازدا، ونحت هذا على ألواحٍ حجريّةٍ».

واصل هاري شانكار قائلاً: «لقد هزم اليونان الفرسَ أخيراً، وأحرقوا قصر ملك ملوك دارا برسيبوليس العظيم. وهاجم الإسكندر سابتا سيندو.

(1) قانون العمل والجزاء.

إنها مفارقةٌ غريبةٌ! الرجال هم المدمرون وهم الباحثون عن المعرفة في الوقت نفسه. لقد تأمّلتُ في سرّ اللغات. لاحظ أنّ لغتنا السنسكريتية ولغتهم الفارسية ترجع إلى أصلٍ مشتركٍ. راميشنا هو راميشهم، كلمة «غؤ» في لغتنا هي «غاو» في لغتهم، وهلم جرّاً. وبعض اللغات مختلفة تماماً، كيف حدث هذا؟»

«خلال رحلاتي لقيت أناساً من سوغهديا وكابودوشيو وثيسالي. لقد قابلت الناس الذين اخترعوا كل أنواع الخطوط. إنهم يكتبون على أي شيء تقع أيديهم المضطربة عليه: يصنعون أوراق البردى، ويكتبون على الرقّ، وجلد الجمال، وعظام الأغنام أيضاً، يرسمون صوراً للكلمات على جدران من الجرانيت، وينحتون الكلمات على الحجر، ويكتبون على ألواح من الطين، ثم يخبزون كلماتها، ويكتبون الرسائل على قطع من الطين المخبوز، ويحفظونها في مظروفات طينية».

«لماذا؟ أخبرني هذا التاجر العبريّ ذو الشعر الطويل، بأن إلاههم أيضاً نقش أوامره على ألواح حجرية!».

«تعلمت بعض الخطوط الآرامية في تاكسيلا، وخاروشتي، الكلمات تبدو قاسيةً مثل نهيق الـ «خَر» أي الحمار في اللغة الفارسية».

«لا تقل ذلك!» أعجب غوتام أيّما إعجابٍ بمغامرات الأمير المتغيّب وإنجازاته العلمية.

«ثمّ أدركت أيضاً أن الكلمات قد خلقت الكثير من الارتباك، وأدت إلى سوءِ فهم وسفك دماء وحروب، لذا توقفت عن الإيمان بها».

تأمّلَ غوتام لدقائق. «أما زلت تستخدم الكلمات، إنها تقوم بالربط. كيف يمكنك الوصول إلى الفكر النقي ما لم تستخدم الكلمات؟ المعنى هو الجوهر»،

أجاب بقوّةٍ. الآن أصبح مرة أخرى المُناظِر الجامعي. «لذلك، فالكلمة وغير الكلمة عالَمان مختلفان تماماً، ومن خلال التركيز على الكلمة يمكنك الوصول إلى غير الكلمة...».

«أنا كذلك غير الكلمة»، أجاب شانكار بغطرسةٍ.

«الكلمة أبديّة!» أكّد غوتام. «حرف «م» سيتضمن دائماً صوت «م» وليس صوت «ف». الصوت خالد، نتذكره حتّى بعد مضي مدة طويلة على سماعه، إنه يتزامن مع الكلمة ولا يمكن إبادته».

قال الأمير: «إذن أنت لا ترفض الفيدا لأنها كلمات، ومن ثم فهي أبدية».

«بالضبط تماماً، المادة هي الـ«براهما»، والفيدات تمثل «براهما» في شكل الكلمات».

جلس الأمير مرة أخرى وقال: «اسمع يا شاب، لا علاقة لأي شيءٍ بشيءٍ سوى وجوده العابر. كلّ شيءٍ آنيّ وزائل، وكلّ شيءٍ ألم. سارفام دوخام؛ الجسد والروح كلاهما فان. الإنسان كالشمعة ينطفئ ولا يترك إلا سلسلةً من الأحداث والأحاسيس. كانت تغني لي لحن «سيري راغا» و«بهيراف» في حديقة القصر. كانت نوتات ألحانها تلاحقني أينما ذهبت، في الرياح والأمطار والمياه الجارية... هذه النوتات أعادتني إلى هنا».

استمع غوتام بعنايةٍ، ثم قال: «يمكنك وضع نهايةٍ للكلمات، لكن اللحن سيبقى، فالنوتات أزليّةٌ. وأعتقد أيضاً أنّك غبيٌّ جدّاً. لو كنتُ مكانك يا سمو الأمير، لعدتُ إلى القصر الملكي. لماذا تعاقب نفسك للأبد، من غير أدنى سببٍ؟ إنّ العالم جميلٌ وممتعٌ للغاية». نظر غوتام إلى الأعلى، سمع رفرفة الأجنحة، طارت بعض الطواويس لتنام على أغصان شجرة الخبز التي تقبع فوق المزار المقدس..

كان هاري شانكار غارقاً في التفكير.

«صاحب السمو الملكي»، ذَكَّره غوتام بلطف، «كنتَ تحكي لي عن هذه السيدة الشابة التي كانت تتزين بالزنابق وتغني.. إذا كان بإمكاني أن أضيف اثنين إلى اثنين فأعتقد أنني قد رأيتها أيضاً في مكان الاستحمام في ساكيت: ميناكشي الشهوانية». أراد أن يقول ذلك ولكنه قاوم إغراءه. لقد تعرض بالفعل لغضب الأمير عندما ذكر البنت ذات التاج، كانت هذه لعبةً غريبةً حقّاً...

«آه، نعم». توقف الأمير هاري ونظر باستغراق إلى خاتمه الماسي. «كان من المفترض أن أتزوجها، لقد أعطتني هذا الخاتم كعهد منها. فكّرتُ أنه يجب عليّ أن أعيد الخاتم إليها، وأحررها من وعدها تماماً مثلما حررني بوذا من كل العبوديات البشريّة. لذلك قررت أن أعود إلى المنزل بصفتي شخصاً مجهول الهوية، وأردّ الخاتم إليها. اشتريت لباساً يونانياً من تاجر إيراني وجئتُ إلى هنا، قطعتُ منتصف الطريق إلى المدينة، ثم عدلتُ عن الفكرة، فكرت أن والدي ربما يمسكني. سوف أجبرُ على الزواج منها لأحفظ النسل وأخوض الحروب، لا... لن أفعل ذلك، ولهذا السبب سأذهب مباشرة إلى جيفان فيهار التي تقع وراء شراوستي، وهناك سأرتدي اللباس الزعفراني، وسينتهي الأمر عند ذلك». أخذ نفساً عميقاً بعد هذا الاعتراف الطويل.

«هل تقدر على نسيانها؟»

«آمل ذلك»

ذهبت الطواويس للنوم. صنع هاري شانكار لنفسه وسادةً من أوراق الشجر. سحب غوتام رداءه الأبيض إلى وجهه، وتحوّل نحو الجدار. ظلّا مستيقظين لبعض الوقت ثم أدركهما النوم.

رأى غوتام في منامه كابوساً، رأى إلهة المزار المقدس السابقة تتحول

إلى فتـاةٍ مزيَّنـةٍ بالزنابق، ثم إلى عجـوزٍ قبيحة المنظر ذات ابتسـامةٍ خاوية من الأسـنان. قالت «أنا من فايشـالي..». سـقطت فاكهة الخبـز تزامناً مع صوت الارتطام بالأرض الحجرية. اسـتيقظ غوتام وبدأ يرتعش، أما هاري شانكار فـكان يغطّ في نوم عميـقٍ. رأى غوتام بعض «الشـاندال» (الذين يعملون في المحرقـة) يحملونَ جثّةً نحو المحرقة. تملكه الخوف، فلم يسـتطع النوم ثانيةً، لم يرغـب في أن تطارده تلك العجوز الشـمطاء، جلـس في زاوية وراح ينتظر الصبـاح، ثم خطر بباله... إذا كنت تسـتطيع بطريقةٍ ما أن ترى مقدّماً صورة حبيبتـك في شـيخوختها، فإنك لن تريـد الوقوع في الحب، ربـما تدور تعاليم البوذيين حول هذه الحقيقة.

اسـتيقظ الأمـير هـاري شـانكار في الفجر، بدأ بعـض البراهمـة الغرغرة بصـوت عـالٍ على ضفة النهر في الأسـفل، وغـرّدت الببغاوات على أشـجار الجوافـة، في حـين أخذت الطواويس تغادر الأشـجار، وجلس غوتام متربّعاً على الأرض في مواجهة الشمس المشرقة.

قفـز عـلى قدميه وسـأل هـاري مسرعاً «سـيدي، هنـاك حلّـت الراقصة الشهيرة التي تدعى أمرابالي تلك التي عاشت في فايشالي...».

«توقف عن التفكير في النساء».

«هل توقفتَ؟» سأل غوتام بوقاحة، وعاد إلى عبادته للشمس، لقد كان مستاءً من تواصله مع الطبيعة، نهض مرةً أخرى وأردف قائلاً: «يقولون إن المومس التي تدعى أمرابالي حاولت إغواء تلميذ بوذا الرئيسي، أناندا. عاهدت نفسها على ذلك كنوعٍ من التحدي».

«كلّ مـا حـدث أو لم يحـدث في المـاضي لا يهمنا مطلقـاً، فلنبـدأ رحلاتنا المستقلة».

وصلوا إلى حافة النهر.

علّق الأمير قائلاً: «نهر ساريو شفّافٌ للغاية، فإذا رميت عملةً معدنيّةً يمكنك رؤيتها في مجرى النهر».

فأجاب غوتام: «لا أحمل مالاً يا مولاي».

أخرج هاري شانكار عملة فارسية من محفظته ورماها في النهر. إنها تتلألأ على الرمال الرمادية. «آه! هناك حصان عربي رائع!» قال الأمير هذا، وقد فكّ رباط حصانه الأسود من جذع شجرة النيم. وفي اللحظة التالية مرَّ على غوتام، وصاح بفرحٍ: «أنطلق الآن نحو حياتي الجديدة، سوف أراك ثانيةً يا صديقي العزيز. أتمنى لك كل الخير والتوفيق...».

ظلَّ غوتام واقفاً على الضفة، وقد فاجأه رحيل الأمير المفاجئ. نظر إلى السماء الملبّدة بالغيوم، واتجه نحو الطريق المؤدية إلى شراوستي.

3

بستان الحكماء

تقع شراوستي على الضفة الجنوبية لـنهر رابتي الذي تحرسه في الشمال سلسلة جبال هيماوات ذات اللون الوردي والأزرق. كانت مدينة كبيرة مقسمة إلى مناطق منفصلة حيث عاش فيها الناس من طبقاتٍ مختلفةٍ ومارسوا مهن أجدادهم. كان للبلطجيين واللصوص نقاباتٌ وقوانين خاصّةٌ. كان الناس يستمتعون بالحياة، وكان المهرجون والمشعوذون يعرضون أداءهم في الأسواق والمهرجانات الملونة مع الكثير من المرح، أما المحظيات فيعزفن على الأعواد المزخرفة، وهن على نوافذهن، والفتيات يبعن أكاليل زهور الياسمين من الباب إلى الباب. كان القمار الهواية المفضلة للجميع.

عاش صانعوا عربات النقل والخزافون وحائكو السلات من الطبقات الدنيا في الأكواخ خارج الضواحي. وكان «الشاندال» أدنى الجميع مرتبةً حتى أنّهم أدنى مرتبة من المنبوذين (*الشودرا*) الذين ينتمون إلى الطبقة الخامسة، وقد قُدّر لهم أن يحملوا جثث الموتى. لم يكن مسموحاً لهم أن يرتدوا إلا الملابس المنزوعة عن الجثث لأنّ «عملهم» لم يقرر خلاف ذلك.

وصل بوذا إلى شراوستي منذ حوالي مائة وخمسين سنة من ماغاد، وأسس مقامه في منطقة جيتفان القريبة. آمن به الكثير من المنبوذين، فخرجوا من دائرة المنبوذين. كان التحوّل في غاية السهولة، لذلك استاء الكهنة الأقوياء

من طبقة البراهمة منه استياء شديداً.

لقد ورث غوتام تحيّزاته ضد الفلسفة البوذية، وكان قد تجادل مع الأمير هاري شانكار بوصفه برهمياً أرثوذكسياً. لقد سمع العديد من المباحث والخطابات عن البوذية فصار ضليعاً في الفلسفة البوذية، ليجادل بعلمه الرهبان البوذيين. بعد مغادرة الأمير هاري، جمع غوتام أمتعته وحقيبته القماشية واستأنف رحلته.

بدأ الخط الأفقي لشراوستي يلوح له. دخل البوابة ووصل إلى ساحة البلدة، وبعد قليلٍ صار أمام قصر والده المصنوع من الطوب والأخشاب، الذي يعرف باسم «بيت الفيل»، بسبب رؤوس الأفيال المنحوتة الموضوعة على جانبي البوابة. أحسّ غوتام برغبةٍ شديدةٍ في نفسه لدخول بيته ولقاء والديه، ولكن ليس مسموحاً له أن يلتقي بعائلته حتى يتخرج في الكلية. مضى غوتام في طريقه مكسور الفؤاد إلى أن حلّ الغسق. كانت دكاكين الخمور وبيوت القمار تدوي بأغان بذيئة، وكان أحد المشعوذين يلتهم جمراً حياً، ويصفّق له المتفرجون العاطلون. تبختر الفتيان على شارع الجاريات. خرج مسرعاً من الحي واتجه نحو الكليّة. كان الأمير قد اختفى، ولكنه مازال ملاحقاً من كثيرين. بدا له أن الأمير والبنت تشامباك تآمرا لمطاردة غوتام المسكين. شعر غوتام بالإرهاق الذهني، وبدأ يعاني من الألم في ساقيه.

أخيراً وصل إلى كوخه المتواري خلف النباتات المتعرّشة المزهرة. لقد كان هذا ملجأه ومملكته التي احتوت على عدد من القدور والمقالي وفُرن، وبعض الملابس غير المخيطة معلقة على العوارض الخشبية. كانت أدوات الرسم الخاصّة به والتماثيل غير المكتملة مكدّسةً بعنايةٍ في إحدى الزوايا. اغتسل في النهر الذي كان يجرى تحت نافذته، ودخل غرفته بإحساسٍ مفعمٍ بالخفّة

والانتعاش، ولكنّه ما إن استلقى على قطعة من الخيش ونام حتى بدأ يحلم بالسيدة تشامباك.

نهض في الصباح وهو يشعر بالغضب من نفسه، لقد أغوتني امرأةٌ وأميرٌ هاربٌ. كان يجب عليّ أن أكون قوياً مثل شجر البلوط الذي لا يمكن لكل العواصف أن تهزّه. وبذا قرر العودة إلى دراسته بجديّةٍ والتحضير لامتحانه النهائي.

وغدا حريصاً على الالتزام بحضور الفصول الدراسيّة التي كانت تعقد في الهواء الطلق كل عام من منتصف شهر مارس إلى منتصف يوليو، واتبع قواعد «البراهماشاريا»[1] الصارمة بكلّ دقّةٍ. نهض قبل شروق الشمس، ونظف أسنانه بغصينٍ يانعٍ من شجرة النيم، واستحمّ في النهر، وصلّى في بستان أشجار أشوكا. في أشهر الخريف تطير طيور الغرانيق واللقلق من التبّت، ثم تعود إلى الشمال في الربيع. بإمكان المرء أن يرى طائر الغرنوق أو مالك الحزين يقف على ساقٍ واحدةٍ كأنّه غارقٌ في التأمل على ضفّة النهر عند الفجر، لذلك أصبح الرجال «المقدسون» الزائفون يُعرفون بمصطلح «باغلا بهاغات»[2].

---

(1) هو العازب الذي يتبع شريعة البراهما أي خالق الكون التي تقتضي ممن يتبعونها أن يبقوا عازبين ويكرسوا أنفسهم لتعلم الفيدا والتبشير بها. وهي تمثل إحدى المراحل الأربع للحياة في الفلسفة الهندوسية التي تبتدئ من الطفولة وتمتد إلى خمس وعشرين سنة. وتنطوي قواعد البراهماشاريا على الاهتمام بالنظافة، واللاعنف، وبساطة العيش، والتركيز على التحصيل العلمي، والتأمل، والعزوف عن ممارسة الجنس، والامتناع عن تناول الأطعمة غير النباتية والكحول.

(2) كلمة «باغلا» في اللغة الهندية تعني طائر مالك الحزين، و«بهاغات» هو الشخص الذي يتظاهر بشيء، يُطلق «باغلا بهاغات» على الشخص الذي يتصنع التدين ويتظاهر بالسذاجة ولكنه على نقيض ذلك.

اتَّبع روتين «الأشرَم[1]» كلّ يوم بصرامة منذ عشر سنوات. سيبلغ عامه الرابع والعشرين قريباً. في الصباح الباكر ليوم التخرج سيُحَبس في حجرةٍ «حتى لا تُهان الشمس بمواجهة كائن أشد منها لمعاناً. من الآن فصاعداً، يجب أن تشرق الشمس مع الإشعاع المستعار من العالم». وفي المساء سيخرج العالِمُ من حجرته، ويخلع ثيابه البيضاء، ويلف جلد الأيل الخاص به، وينزع خيطَه وأمتعته ووعاء التسول الخاص به، سيُؤخذ على متن عربة إلى جمعية العلماء البراهمة ويُقدَّمُ أمامهم كـ «بانديت» (عالم) مقتدر كامل الأهلية. وفي حفل التخرج سيقرأ الأستاذ نصيحة من الأوبنيشاد بعنوان «نصيحة إلى الطلبة» التي تقول:

قُل الحق، قم بواجبك، احترم أستاذك ووالديك وضيوفك، وتصرف كما يجب
على البرهمي أن يتصرف، هذه هي القاعدة، هذه هي النصيحة الحقيقية للفيدا.

وبعد ذلك سيخرج إلى العالم، ويتزوج، ويصبح ربّ أسرةٍ.

ذهب العديد من شباب طبقة «الشاتريه» إلى إندرابراستها، وانضموا إلى جيش الكورو والبانشال المحاربين. كانت الحروب قائمة على قدم وساق؛ أينما وجدت السلطة وجد الصراع، كان للملوك والقادة كهنةٌ تابعون لهم، وهم بدورهم كانوا سياسيين ماهرين. لم يكن غوتام يرغب في أن يصبح أحد رجال الدين المتصنعين (باغلا بهاغات). إذا كان قلبه غير راغب في الكَهانة ماذا سيفعل بعد التخرج؟ أيتسكع كابن رجل غني؟ يجب أن ينحت

(1) معتزل ديني أو معتزل خاص بحكيم أو فيلسوف، مسكن جماعة روحية

الحجـر، ولكن النحـت لم يتطور بعد إلى فنٍّ مزدهرٍ كـي يتّخذه حرفةً له. لقد كان مسـتقبله غير مؤكد، وفوق ذلك يحبّ امرأةً لا يعرف شخصيتها، حقيقةً كان غوتام يائساً من أمرها.

لقد جاء الخريف. وفي إحدى مسـاءات شهر «كارتيك» اللطيفة الذهبية، بينما كان يجلس مكتئباً خارج كوخه سـمع حفيفاً بجانبه في العشـب. نظر إلى الأعلى، فرأى راهباً (بوذياً) طويل القامة بارز الملامح يقف أمامه.

«مرحباً! مرحباً!» قفز الشاب على قدميه بسعادةٍ.

«*أوم مـين بادم هوم*» (الجوهرة في قلـب اللوتس) رتَّل الراهب الآيةَ، ثم ابتسم له ابتسامةً مبهجةً.

«جوهرةٌ في قلب وعاء المتسول..». قال غوتام بروح الدعابة، لأنّه لاحظ خاتم الماس يلمع في وعاء تسوّل الراهب.

«بالضبط تماماً! «هل يمكنك أن تسـدي لي معروفاً؟» سأل الزائر بصوتٍ خافتٍ.

«نعم، سموُّك، أقصد قداستك»

«انظر هناك»...

استدار غوتام طاعةً له. كان خط النهر مُضاء بموكب من المشاعل.

«لقـد جاء الملك لرياضة صيد الفيلـة. لابد أنّها جزءٌ من الوفد المرافق له، وباعتبـارك بانديتاً (عالِماً) سـيكون من السـهل عليك الوصول إلى المعسـكر الملكي. اعثر عليها في أقرب وقتٍ وأعِدّ الخاتم لها نيابةً عني».

فكّر غوتام سريعاً وقال: «سأنفّذ أمرك بشرطٍ واحدٍ يا سيدي».

«يـا للبرهمي الدَّاهية! قبل أيّامٍ أطلقتَ تهديـداً بإبلاغ قارع طبول القرية. ما هذا الأمر؟»

«هل لي أن أقع في حبها على نحو ما؟ إنني أحلم بها كل ليلة».

مرَّت سحابةٌ على وجه الراهب. وأجابه بمرحٍ: «لا بأس... أعطها هذا الخاتم الآن من الأخ هاري أناندا، وانقل لها بركاته. يمكنك أن تنال بركاتي لأي نوع من المستقبل تريده لنفسك». أعطى الراهبُ غوتامَ الخاتمَ ويداه ترتعدان. ربط غوتام الخاتم في عقدة صنعها بزاويةٍ من عباءته، وطواها في الـ «دوتي»[1]. كان الراهب في عجلةٍ من أمره للعودة. رافقه غوتام على مضمار ركوب الخيل. ظلا صامتين برهةً من الزمن.

كسر الراهب الصمت قائلاً: «هل سمعت أيّ محاضراتٍ جيّدةٍ في الآونة الأخيرة؟»

«لا. لقد تغيبتُ عن الدروس لعدّة أسابيع. أنا قلقٌ جدّاً إزاء الوضع العالمي».

ابتسم هاري أناندا بحنانٍ. «ما هو حجم عالمك عزيزي؟»

«المكان الذي أعيش فيه هو عالمي، وأنا مهتمٌّ به».

«ماذا حدث؟»

«أذهب إلى المدينة كل يوم في جولاتي للتسوُّل، أسمع شائعاتٍ. لديَّ صديقٌ اسمه ويمليشوار يعيش في شراوستي، يصمم الحلى الفاخرة. أحياناً أقوم بعمل الرسومات له. لقد ذهب إلى باتاليبوترا في شأنٍ من شؤونه التجارية، يقول إنّ العاصمة مليئةٌ بالاضطرابات. لقد صار الملك دان مبغوضاً من قبل شعبه، فقد فرض المزيد من الضرائب على الملح والسكر وحتى الحطب. علاوةً على ذلك، فإنّ معلمك تشانكيا وفيشنو شارما من تاكسيلا قد وصلا إلى هناك».

(1) لباس أبيض كالإزار، ولكنه غير مخيط يلف عند الخصر، مازال سائداً في الهند.

أجاب الراهب، وهو يقفز فوق بركةٍ ضحلةٍ: «كان لابدّ أن يحضر إلى هنا»، وأضاف: «إذا أراد المرء أن يستولي على السلطة يجب عليه أن يكون في العاصمة».

«تُصرف أموالٌ كثيرةٌ على الدّفاع، ولكن الدّفاع ضدّ من؟ إن ساكيت ومادهيا ديش مقاطعتان ضعيفتان في ماغاد، يقول ويمليشوار إنّ مَلِكَنا نصف ملك، وليس ملكاً كاملاً، لا أحد يساعده، فلقد اختفى وريثه وابنه الوحيد. لم أخبر ويمليشوار عنك».

«أحسنتَ».

«ألا تهرب من الواقع؟ في وقت حرج مثل هذا، كان يجب أن تكون بجانب والدك المسكين. انظر، لقد كان ماغاد دائماً بلداً مثيراً للفتن، حارب أهله حتى الرب كريشنا في الحرب العظمى. إنهم يحبّون العنف... لقد قتل ملكهم أجاتشاترو أباه».

«هذه الأشياء تحدث في العائلات المالكة»، علّق الراهب دون تحيّز.

«أعتقد أن هذا هو سبب ظهور الأميرين مهافيرا وسيدهارثا في تلك الأرض؛ للتبشير بالسلام»، تابع غوتام. «لكنني تساءلت دائماً، كلاهما عاش ودعا في المنطقة نفسها، لكنهما لم يلتقيا قط».

«هذا أحد تلك الأشياء»، أجاب الراهب وكانا قد وصلا إلى حافة غابة الكلية. «إذن وداعاً يا صديقي الحبيب»، قال بمرح.

«ما أجملك! أنت ترسلني في مهمّةٍ محفوفةٍ بالمخاطر، ولستَ قلقاً على الإطلاق. ماذا لو تمّ القبض عليّ، وجرى استجوابي من قبل والدك المحترم؟

«دعك من المستقبل. أعتقد أنها سوف تحميك، أنا أعرفها. فكّر في فرصة الحصول على مقابلة سيدة أحلامك!»

«ثمـة شيءٌ آخر يا سـيدي عليـك الاعتناء به. لقد أصبحـتُ من المؤمنين باللاعنـف إلى حـدٍّ مـا. ماذا سـأفعل إذا اندلعـت الحرب بين كوشـال ديش وماغاد؟»

«أفعالنا هي نتيجة أفكارنا».

«كيف نجد أنفسـنا هنا في هذه اللحظة مـن الزمن؟ هل نحن مجرد نتيجة لأفكارنا؟»

«أفعالنـا»، أجـاب هـاري شـانكار بصـبر، «هـي بداعـي الـضرورة، أو الحـادث، أو تحـدث بسـبب طبيعتنـا الخاصة. المرء ليـس حراً، ومـن ثم فإن المسؤولية عديمة المعنى».

«ألا يمكنك أن تكون أقل غموضاً؟»

«لقد تنبأ الرجل المسـتنير بأنه سـيأتي زمنٌ سـتهلك فيه دولة باتاليبوترا في النار والفيضانات والحرب. ليست الحياة وأمجادها سوى حلم عابرٍ...».

قـال غوتـام: «في هذا المحيط اللامتناهي من الأحـداث، أنا وأنت عائمان مثل أوراق الخريف الطائشة. هل أنا مسؤولٌ عما حدث قبلي؟»

«لا يمكـن تحديد الوقـت. كلّ شيءٍ مجرد حلم وسـوف ينتهـي»، أجاب هاري أناندا.

«كان آلارما قد قال لبوذا المستقبلي: نحن أصدقاء سعداء، لأننا نتطلع إلى الزملاء من النسـاك مثلك. العقيدة التي أعرفها، أنت تعرفها، والعقيدة التي تعرفها أنا أعرفها أيضاً. لندعو معاً أن نكون مشرفين مشتركين على الصحبة. أخبِرني عن اللّاعنف»، قال غوتام.

على مسـافةٍ بعيدةٍ من هنا في نادي القرية، بدأ الشاعر المحلي ينشد الأغنية الشعبيّة حول الحرب العظمى.

«الوقـت، بالنسـبة لهـذا الشـاعر الشـعبي في القرية قـد قُسِّـمَ عموماً إلى قسمين: العصر الذهبي وعصر الشر. لقد ربط الإنسان نفسه بمفهوم خاص للوقـت، على الرغم من أنه مطروحٌ للخلـود، وهو معلّقٌ في الوقت ومربوط بعجلـة نار..». لاحـظ الراهب. «الآن، اسـمحوا لي أن أعود إلى مُسـتقري. أتمنـى لك كل الخير والعافية». ابتعـد بسرعة واختفى مع غروب الشـمس، تاركاً غوتام يشعر بالحيرة والانزعاج مرة أخرى.

عاد غوتام إلى كوخه، وفي طريق عودته رأى أضواء سـاطعةً وراء بسـتان أشجار ماهوا. لقد أقاموا مخيماً، والرياح تغيّر ذبذبات الأصوات.

دخـل كوخـه وتربع على حصـيرةٍ. كان تصوّر لقاء تشـامباك مثيراً للغاية وغير متوقع.

لماذا تملك النسـاء مثل هذه السـلطة على الرجال؟ تساءل غوتام في نفسه. لقد حلَّ بوذا هذه المشكلة أيضاً: تجنبهن. كان قد أفاد تلميذه الرئيسي أناندا:

«لا تنظر إليهن».

«ولكن إن وقع نظري عليهن صدفةً يا سيدي؟»

«لا تتحدث إليهن».

«وإذا بدأن بالكلام معنا؟»

«ابق على حذرٍ تامٍّ».

الحياة مليئةٌ بالمفارقات، فكّر في تصريحات الحكماء المتناقضة حول النساء. المـرأة لا يمكـن أن تكون طاهـرةً أبداً، هي أصل كلّ شرٍّ، وكذلك سـطحيّةٌ. السيدات من العوائل الجيّدة يتميزن عن المحظيات بملابسهن وحليهن. لقد جـاء الشرّ إلى حيّز الوجود بسـبب الخلق. المـرأة تنجب، لذلك هي أصل كلّ خطيئـةٍ. المـرأة جائعةٌ للحب، لذلـك لا يمكن الوثوق بهـا. وعلى الرغم من

مواضع نقصها، يمكن أن تكون فاضلةً وفيّةً وصاحبة تضحياتٍ. يتوجّب احترام المرأة، لأنها ترمز إلى القوّة.

ثمة الزوجات اللاتي أحرقن وهن على قيد الحياة مع أزواجهن الموتى. كان ساكياموني قد أفاد أناندا أن المرأة غبيةٌ وحسودةٌ وشرّيرةٌ. لذلك ترك تلميذه المفضل أناندا حبيبته سونداري. والآن ترك هارى أناند حبيبته تشامباك. لا يجد العقل تفسيراً لذلك. لماذا تُترك النساء مثل مرضى الجذام، ما خطيئتهن؟

في الصباح ذهب إلى الصف الدراسيّ المُقام في الهواء الطلق. لقد بدأ المعلم بالفعل محاضرته.

قال المعلم: «هذا هو، وهذا ليس كذلك». أومأ الطّلاب برؤوسهم.

«الشخص الذي يجب أن يولد مراراً وتكراراً، عليه أن يجتاز مسار أسلافه».

«لقد شكك ساكياموني في وجودٍ ذاتيٍّ محدودٍ. ربّما هذه الظروف المختلفة للوعي، سيدي»، قال غوتام ونهض من الأيكة.

كانت أنشطة الأشرم قائمة على قدم وساق، ونار القرابين مشتعلةً على منصّةٍ، تُكرَّم الآلهة الفيدية والحكماء القُدماء وسط ترتيل الآيات الفيدية بصوتٍ عالٍ. ويحصل على بركات آلهة الذكاء والذاكرة من خلال تقديم القرابين الناريّة.

مرّت مجموعةٌ من طلاب الطّب. خرج غوتام من المَنسك. لقد كان قلبِه يعاني من عذابٍ عظيم، وعقله في شكٍّ، أما روحه فلم تكن على المسار الصحيح. أفاد الأوبنشاد أنه بالنسبة لمن سعى لنفسه ولروحه والده ليس والده، ووالدته ليست والدته، العالم ليس العالم، واللص ليس اللص،

والقاتـل ليس القاتـل. ينبغي ألا يكـون لديه أي اهتمام بالخـير أو الشر، لأنه انتـصر عـلى كل أحـزان قلبه... ظـلّ غوتام يتسـكع وحيداً طـوال اليوم على الطريق.

مرّ أسبوعٌ. لم يملك غوتام الشجاعة لأداء هذه المَهمّة، لعلّها كانت مهمّة سـفيهٍ. كان الرّاهب قد نقل المسـؤولية إلى شـخص أبله بدهاءٍ. إنّ المسؤولية ليـس لهـا معنىً في نظـر الراهب. بدأت تـراود غوتام الشـكوك في كل شيء. في الليـل أزعجه البعوض، ونغصت الضفادع والصراصير عليه نومَه. كانت أصـوات الضفادع الصّاخبة تُشـبه البراهمة حين يردّدون الأناشـيد والآيات الفيدية في انسـجام تامٍّ. أنا مجرّد ضفدعٍ، أسرّ في نفسـه، مبالِغاً في الشفقة على ذاته. حدث أن أيقَظه ويمليشوار المنكود بالطريقة ذاتها صبيحة يومٍ ما.

«جئـت في المسـاء إلى المخيم لأعرض تصاميم مجوهـراتي وبعضَ الجواهر على السيدات الملكيّات، بيد أنّ الحرّاس لم يسمحوا لي بالدخول».

أخذ غوتـام صديقه إلى الهواء الطلق، ليتناولا وجبـة الإفطار من الفواكه الطازجـة والحليـب. وفي أيكـة المـوز قطـف الفيـل الصغير الأليـف والأثير لـدى المعلم بعـض الموز من أجلهما، وقدم لهما راعـي الآشرم الحليب. أمضى الصديقان وقت الصباح يمشيان على العشب، ويناقشان مسائل السياسة.

4

الآرياني، إلهة الغابة

كانت المراكب الملكيّة راسيةً على الرصيف. أعلمهم المسؤولون عن الطرق بأن المطر ينهمر بشدّةٍ فوق التلال، لذلك كان على الملك أن ينتظر، فأقيم المخيم في بستان أشجار الـ ماهوا، على مقربة من مَنسك الأستاذ بوروشوتام. عادت الغابة إلى الحياة. بدأ رجال الحاشية الملكيّة يتنقلون على المسارات التي كانت حتى الآن مَسكناً للغزلان والخنازير البرية أو لطالبٍ في نادر الأحوال يمر بها غارقاً في التفكير. وصل تجار شراوستي مع بضائعهم، وكان المنشدون والغجر يحاولون جذب الجمهور إليهم بأغانيهم وألعابهم البهلوانية.

في صباحٍ لطيفٍ، خرجت الأميرة نيرمالا معها قوس وسهم لصيد الغزلان، وقد كانت برفقة الآنسة تشامباك، ابنة رئيس الوزراء. ساد الهدوء التام في الحقول. جاء صوت أغنيةٍ مؤرّقةٍ طافياً على مهبّ الريح. توقفت تشامباك تحت شجرة الكادامبا، وقطفت أوراقها واحدة تلو الأخرى.

«سيّدة الغابة...» مرَّ طالب يغني هذه الأغنية في طريقه إلى الآشرم، كان غوتام وويمليشورا يمشيان على مسارٍ جانبيٍّ. غنى الطالب أغنية «سيدة الغابة» لإرضاء «أرياني»، إلهة الغابة المراوغة:

سيّدة الغابة

التي تبدو أنها تختفي عن الأنظار على بعدٍ.
لماذا لا تأتين إلى قريتنا؟
حتماً إنك لا تخافين الرجال؟
انضمّ غوتام إلى المغني.
في المساء تسمع سيدة الغابة
مثل صوتٍ يبكي من بعيد،
أو كصوتِ ارتطام شجرةٍ ساقطةٍ.
هي تأكل ثمار التوت الحلو
وتستريح حيثما يروق لها
معطرةً بالبلع والعطر
أمّ كل الأشياء البرية...

تراجع صوت المغني على بعدٍ. توقّف غوتام بالقرب من شجرة مانجو كبيرةٍ. «لا تقف تحت شجرة عند زوال الشمس أو الغسق» كانت والدته تنصحه، «فقد تخطفك بعض الجنيات اللعوبات».

«من هو؟» هتف غوتام. اختبأ الصديقان بسرعة بين أوراق الشجر الخضراء. «من يقِفُ تحت شجرة الكادامبا، أهو إلهٌ أم جنّيةٌ أم ياكشي[1]؟»

ظهرت الآنسة تشامباك فجأةً أمامه، تحمل في يدها غصناً من الكادامبا تستقصي منظر الخريف وقد بدت تسريحة شعرها متقنة، وارتدت الصداري والسارونغ ذا اللون الأخضر اللامع، وقلادة ذهبية مرصعة بسبعة خيوطٍ ذهبيةٍ، وحزاماً ذهبياً على خصرها، تراءت تشامباك كفتاة من عالم غير حقيقي.

(1) ياكشي هي روح أنثوية، وتعدُّ رمز الخصوبة في المعتقدات الهندوسية والجاينبية والبوذية.

«ما أجمل منظر ياكشيني!» غمغم غوتام في حيرة واستعجاب. «جنيّة الشجر، ما أجمل منظرها! إلهة الغابة!!»

فجأةً صرخت «الإلهة» فسقط الغصن المورق من يدها. زحف جمعٌ من النمل الأحمر على ساقيها العاريتين فأزالته بالهزّ، ثم جاءت رفيقتها الملكية نيرمالا ذات عيني الظبي مهرولةً. تيسر لغوتام أن يشاهدها عن كثبٍ أيضاً. لماذا تصبغ دائماً حاجبيها باللون الأزرق؟ السيدات يعملن بوجوههن أشياء مذهلةً. ربطت حول خصرها قماشاً من الحرير، ووضعت جزءاً منه على كتفها الأيسر، كان هذا يسمى الساري.

«ليس ثمّة ظبيٌ يا عزيزتي تشامباك. هيا نذهب»، قالت بلهجةٍ قويّةٍ. شقتا طريقهما إلى الأمام، وخلخالاهما يجلجلان. كان الجنود المسلّحون يرافقونهما، ويتبعونهما عن بعدٍ.

«إنّها أميرةٌ، أما الأخرى فهي رفيقتها وحسب. لنغادر قبل أن يُقبضُ علينا. انظر إلى رجال الأمن هؤلاء برمّتهم! لماذا ترتديان هذه الكميّة من الحلي الذهبية حينما تأتيان في رحلة صيد؟» قال ويمليشورا متذمّراً.

قال غوتام لصديقه بهدوء: «لا تقلق، سأشفع لك، سأذهب الآن إلى المخيم، لا أحد يستطيع أن يمنعني بحكم طبقتي ومنزلتي».

بدأ يركض نحو المخيم. أصيبت قدماه بكدماتٍ أثناء جريه على الأرض ذات الأشجار الخفيضة سعياً منه لاختصار الطريق. وصل إلى مدخل المخيم بالفعل عندما وصلت الفتاتان.

«هل لي أن أحصل على قليل من الأرز يا سيداتي الطيبات»، قال غوتام برزانةٍ مصطنعةٍ. دخلت الأميرة التي ارتدت الساري مباشرةً إلى الخيمة، ثم وضعت قوسها وسهمها جانباً، في حين بقيت الفتاة ذات أزهار المانوليا

جالســة على حافة خزانٍ أحمر قرب الخيام الملكية، نظرت إلى الطالب باهتمامٍ، لقد كان الطالب يلهث.

هؤلاء عدّاؤون كبار وسبّاحون ماهرون أيضاً، فكّرت في نفسها بإعجابٍ. هذا هو الفتى الذي رأته يغوص في نهر ساريو قبل بضعة أشهر. كان شعره المموج الذي يصل إلى كتفيه وعباءته البيضاء القطنيّة يتدفقان في رياح النهر القوية، وهو يقف هناك تحت السماء الصافية. كم يشبه هذا الشاب إله الغابة.

«الأرز وبعض العدس أيضاً» كرّر غوتام بوقاحةٍ، وقد أحاطته الزهور والسناجب، بدا الآن كأرنبٍ ناطقٍ من البانشاتانترا يتوسل إلى جزرة. لم يكن التشبيه مناسباً، ولكنه كان مضحكاً ما جعل تشاماباك تنفجر ضاحكةً، لقد شعرت فجأة بخفة روح وسرورٍ في نفسها لسببٍ غير معروف.

كان مبتهجاً. ضحك بصوتٍ عالٍ لا يليق بالباحثين. فحص نفسه وبدأ: «أدعو الآلهة أن...».

قاطعته بسرور. «هل كنت تبتهل إلى إلهة الغابة قبل قليل... أيها البانديت؟»

«نعم. ظننت أنك «أرياني»، إلى أن رأيت النمل يزعجك!»، أجاب دون تردّدٍ، حتى فوجئ بجرأته وعدم تمسكه بالرسميات.

«إذن أنت غوتام نيلامبار من جامعة الغابة في شراوستي! لقد سمعت عنك».

«أعطني هديتي من فضلك. تأخرت عن صلواتي» قالها على عجلٍ، إذ مرّ بهما حارس.

أحضرت له الحبوب خادمةٌ ذات بشرةٍ داكنةٍ باسمةً. تلك هي السيّدة التي كانت تحمل المظلّة التي رآها في المَغطس.

أخذ الأرز في حقيبة التسوّل، وكرر الدعاء الرسمي، ثم خرج مسرعاً من حَوش الخيزران.

كيف يستطيع أن ينجز مهمته؟ كيف يمكن لـ«براهماشاري» مسكين أن يعطي خاتماً من الماس لابنة رئيس الوزراء؟ ماذا لو قبض عليه؟ ألا يخلق ذلك مشكلةً كبيرةً له؟ أنا بالفعل غارقٌ لأذني في مشاكل تتعلّق بالمرأة أسرّ لنفسه بحزنٍ وأسىً، وهو عائد عبر الغابة الكثيفة.

في صباح اليوم التالي ظهر مرةً أخرى. علِم أن الملك خرج لصيد الثيران طوال اليوم. كانت الملكة سمينةً كسولةً تقضي معظم أوقاتها في الخيمة نائمةً، في حين تقوم نساء الحاشية بالأعمال المنزليّة. قضت تشامباك ونيرمالا اليوم جالستين بجانب خزان اللوتس تعلّمان الببغاوات وطيور المينا التي يملكنها تكرار مختلف العبارات. كانت تلك هواية جميع السيدات من الطبقة العليا. داعبت نيرمالا وتشامباك بعضهما بعضاً من خلال الطيور المتكلّمة. «انهضي أيتها الكسولة»، «اغربي عن وجهي، نيرمالا»، «اصمتي، تشامباك».

أدركهما غوتام تعلّمان طائر المينا الجبلي الجديد. «قولي، تشامباك حمقاء»، قالت نيرمالا للطير. «أوه»، حين رأت غوتام ضحكت بخجل. ابتسم «البراهماشاري» الشاب. «قد يكون لدي بعض الأرز و...».

«أنت تماماً مثل ببغاواتنا. أنت تكرّر العبارة نفسها يوماً بعد يوم. ألا تعرف أيّ كلماتٍ أخرى؟» سألته تشامباك مازحة.

«لا يُستحسَن أن ننغمس في محادثة غير ضروريّة مع العامة، وخاصّةً الإناث».

سألت نيرمالا: «هل تتدرّب لتصبح كاهناً؟»

«نعم، حقاً».

«هـل يمكنـك أداء بعـض الطقـوس بسرعـة لإحضـار شـقيقي الأمـير هاري؟»

«أجل، أستطيع. يجب أن آتي إلى هنا يوميّاً في وقتٍ معيّنٍ، إذا أحضرتِ لي جميع المكونات النادرة المطلوبة لطقس «هافان»[1]».

«أكيد»، قالت بحماس. أدرك كم من السهل خداع النساء في هذه الأمور.

«يجب أن أطلب هذه الأشياء من المدينة» أخبرته نيرمالا.

«ثمـة شيء يدعى «موهيني» يجذب الناس، أحضريه لي أوّلاً»، قال غوتام بلهجةٍ سلطوية بعض الشيء.

«موهينـي! هـذا ما يسـتخدمه «التانتريك» (المشـعوذون)، وأنت لسـت تانتريكاً، هل أنت؟» سألت تشامباك بشيء من الارتياب.

«لا، لا» قـال بجدّيةٍ. أنا على وشـك الوقوع في مشـكلة، يجـب أن أغادر الآن. «سـيداتي الكريـمات... لقـد حان وقـت دروسي»، قال وهـو ينظر إلى ظلال الأشجار. «أراكن غداً».

خرج من بين الزهور البرية مثل جنّيٍ، واختفى شيئاً فشيئاً، قالت تشامباك لنفسها وهي تفكر فيما إذا كانت ستعثر على «الموهيني» في هذا الفتى الجذّاب.

في اليـوم التالي اضطـرّ إلى الانتظار عند خزّان اللوتـس بانتظار المكونات المطلوبة ذات القوة الغامضة التي سـتُجلب من سـاحرٍ في شراوستي. أمضى اليوم في التحدث إلى تشامباك.

ضحكا وتحادثا، أنشـدت تشامباك ألحانها المفضلة. ظلت نيرمالا حزينة،

---

(1) طقس مقدس في الهندوسية يتم بموجبه تقديم القرابين للنار المقدسة، ويؤديه واحد أو عدد من الكهنة. تُضرم النار في مكان معين لهذا الغرض ويقوم الكهنة الذين يحيطون بالنار المضرمة بشحذ النار بإلقاء الزيت عليها أثناء ترتيل الترانيم والآيات الفيدية المقدسة. ويعتبر الهافان من الطقوس الدينية المقدسة ويتم تنفيذه لأغراض كثيرة (المترجم).

ربما لأنها كانت قلقة حيال شقيقها المفقود.

في المساء عاد الخدم من شراوستي خالي الوفاض. لم يتمكنوا من العثور على المكونات المطلوبة.

«هل لك أن تجرب شيئاً من علم النجوم؟» سألته نيرمالا بلهفة. رسم غوتام بعض الخطوط على الأرض، وقال: «لقد عاد الأمير من تاكسيلا وهو في مكانٍ قريبٍ من هنا. سأجري المزيد من الحسابات غداً». كانت تشامباك قد وعدت بغناء لحنِ «سري» غداً. لا عجب في أن هاري شانكار قد أربكها بالموسيقى!

في اللّيل ذهب إلى ضفة النهر لينام على الرمال الباردة. كان غارقاً في الحب حتّى أذنيه، أما هي فلم تكن لا مبالية أيضاً. ربّما عوّضها عن الأمير الهارب، لم يكن وحيداً بأيّ حالٍ. أغلق عينيه وأحسَّ بالضوء والهواء مثل سحابةٍ... لم يكن وحيداً في قصر نور البراهما (الإله). لقد نزل كائنٌ ضوئيٌّ من مكانٍ ما، هو رفيق امرأةٍ تغنّي لحن «سري». بدا وكأنّ رونق الكون كلّه قد انبثق منها. بعد وقتٍ طويلٍ ذهب غوتام للنوم بهدوء ولم يرَ أحلاماً.

نهض مع شروق الشمس، واستحمَّ في نهر رابتي، وكالعادة تحسّس بيده الخاتم المربوط بخصره، غير أنه أصيب بصدمةٍ كبيرةٍ، إذ لم يكن الخاتم موجوداً. لقد كان يبحث عن الفرصة المناسبة لينقل خبر الأمير المحزن إلى السيّدتين، ماذا يفعل الآن وقد ضاع الخاتم. شرع في بحثٍ محمومٍ عن الخاتم على الرمال، وفي المياه الضّحلة، والشجيرات. سيكون من المستحيل العثور عليه في الغابات الكثيفة التي كان يتجول فيها طوال هذه الأيام. أحسّ بالضعف وجلس. لا فائدة، السعادة قصيرة الأجل! ظهر الراهب هاري أناند في حلمه وقال ضاحكاً: «ألم أقل لك ذلك يا غبي؟»

لربّما سُرق الخاتم حين كان غارقاً في النوم، إذ يوجد الكثير من المتسكّعين واللصوص حولهُ، جاءوا من شراوستي على أمل الحصول على غنائم من فريق الصيد الملكي. وقع نظره على أحد صيادي السمك وهو يلقي شبكته في الماء على الضفة الأخرى. ومض شعاع الأمل في نفسه. أحمق! لكن الآمال عادةً ما تكون حمقاء. تذكّر قصّة شكونتالا عندما سقط الخاتم الذي منحها إيّاه الملك دوشيان في النهر، فابتلعته سمكة اصطادها أحد الصيادين، وباعها للمطبخ الملكي، حيث عثر على الخاتم ثانيةً. اتّجه غوتام نحو المخيم ماشياً على قدميه. ذهب مباشرة إلى المطبخ وسأل إحدى الخادمات بلهفةٍ «هل طبخت أيّ سمكةٍ اليوم... أعني. هل..»

«اسمع، ماذا يجري هنا؟»، تقدم حارس وسأل «من أنت؟»

«طالب برهمي»، جاءه الرد.

«برهمي يطلب الطعام المطبوخ؟ من ذا الذي تحاول خداعه؟» قال الرجل القويّ البنية بصوتٍ كالرّعد. انعقد لسان غوتام، ولم يستطع أن ينبس ببنت شفةٍ. «لقد جاء العديد من المحتالين والمجرمين من المدينة متنكرين كطلّابٍ ورهبانٍ، لسرقة الأشياء من الخيام». أمسك الحارس القوي البنية بذراعي غوتام وأحضره أمام الأميرة، وهي جالسةً بجانب خزان اللوتس تصبغ أصابع قدمَيها بالطلاء، فظهر عليها الفزع.

«عاشت الأميرة...!» هتف الحارس: «لقد قبضنا على هذا الرجل وهو يتسكع في ظروف مريبةٍ بالقرب من المطبخ. ربّما أرسله ملكٌ عدوٌّ لنا لدسِّ السمِّ في الطعام الملكي».

«لقد ارتكبت خطأً!» صرخت الأميرة بسخطٍ، «إنّه كاهننا الخاص، يأتي كلّ يومٍ لأداء طقوس معينة. سامحنا من فضلك أيُّها الكاهن المحترم».

خرجت تشامباك من خيمتها.

قال غوتام متجهّماً: «أودُّ التحدُّث إليكما على انفرادٍ».

أمرت نيرمالا الجميع بالمغادرة، ونشرت حصيرةً لغوتام ليجلس عليها. أخذ نفساً عميقاً وروى القصة بأكملها بدءاً من لقائه بالمسافر «اليوناني». لاحظ غوتام الأسى بادياً على الفتاتين المسكينتين اللّتين أخذتا تذرفان الدموع على سماع القصّة، وانضمت إليهما جامونا، خادمتهما والمؤتمنة على أسرارهما، وطفقت هي الأخرى تنتحب بهستيريا. حاول أن يطمئنهن. «ربما يعود... إنه مازال راهباً مبتدئاً، يمكنه أن يخرج من دائرة النظام. وأعتقد أنه لم يخرج تماماً من أثر سحرك أيتها الأميرة تشامباك».

في كافة القصص والحكايات الشرقيّة تُصوّر بنات الوزراء ذكيّاتٍ حكيماتٍ حصيفاتِ الرأي، ولم تكن تشامباك مستثناةً من هذا. مسحت تشامباك دموعها وأنفها، ثم قالت بهدوء: «هل نسيَ الأمير الراهب ما قاله سكياموني لـ ماهاماتي؟» نهضت وأعلنت: «يا ماهاماتي، مثلما يبلغ أحدٌ الكمال في فنون الدراما والرقص والموسيقى وعزف العود تدريجيّاً، كذلك لا يصبح أحدٌ قدّيساً بين ليلةٍ وضحاها!»

خيّم الصمت في الأرجاء.

«فقدتُ الخاتم»، قال غوتام في النهاية. «أنا آسف».

«أنا لست آسفة»، أجابت تشامباك برزانة. «كل هذا حدث بسببي. كل ما حدث لا يمكن تلافيه. ألا تتفق معي يا مينا؟» سألت طائر المينا.

«حسناً! حسناً!» صرخ طائر المينا.

5

قمر الخريف

مثلما تهزّ الرياح العشب
أداعب عقلك،
كي تشتاق إلي
ولا تغادرني...

استحضرت تشامباك قصيدةً وهي تنتظر لغوتام. لم يأت منذ أيّامٍ. لقد أرسله هاري إلى هناك لإبلاغ رسالةٍ، أدى واجبه وغادر. وقفت بجانب الخزّان، كانت مشوّشة الذهن، أحسّت أنها تعرضت للخيانة مرةً أخرى، كما لو أن خيانة هاري لم تكن كافيةً.

دخل عدد من الراهبات، وكانت آثار الطمأنينة بادية على وجوههن؛ *إذ قبلن دخول هذا الحقل طواعية* كنّ سائراتٍ على طريق اللاعودة. لقد تغلبن على عالم الرغبات. كيف ولماذا؟ كان الدير الذهبي يقع على مسافة قصيرة من المخيّم. تركت تشامباك قفص طائر المينا في زاوية الحوض، وتبعت الراهبات اللواتي تخلو وجوههن من التّعابير، ويمشين على الطريق في المدينة بأوعية التسوّل المليئة بالأرز، بعضهنّ أميراتٌ. أصبحت شراوستي أعظم مركز للراهبات البوذيات، وكان الدير هو المركز الرئيسي.

اختلط ضباب النهر مع أشعة الشمس المحتضرة. لهذا السبب سمي دير الضباب الذهبي. وصلت تشامباك إلى المبنى المغلق، واختفت وراء أحد الأبواب. دخلت الراهبات، أضاء شخصٌ ما مصباحاً طينياً في الفناء الأمامي، ظهر ظل في الممر. لاحظ راهبٌ وجود تشامباك.

ذُعرت المرأة الشابة. انعطفت فرأت أضواء شراوستي البعيدة، طمأنها منظر مسكونةٍ بشريةٍ لأن الراهبات لسن كالبشر، هنّ من نوعٍ مختلف تماماً. نظرت إلى الأضواء البعيدة مرّةً أخرى، فبدا لها الآن أن المدينة كلّها اشتعلت.

بدا أن الراهبة أدركت مخاوفها لأنها بدأت تتحدث بسرعة. كانت تكرر الكلمات الرهيبة في خطبة النار:

«كل الأشياء، أيها الكهنة، تشتعل. أيها الكهنة... العين تشتعل؛ والأشكال تشتعل، والبصيرة تشتعل، والأذن تشتعل، والأصوات تشتعل، والجسم يشتعل، والمواد تشتعل، والعقل يشتعل، والأفكار تشتعل: كلّها تشتعل بنار العاطفة، بنار الكراهية، بنار الغرام، والولادة والشيخوخة والموت والرثاء والبؤس والحزن واليأس، كلها تشتعل بالنّار... النّار... النّار... الجسم كالبيت الذي يشتعل بالنار، ولكنّنا نواصل الحديث! نستمر في الحديث حتى تلتهم ألسنة النار البيت كلّه.».

ثم بدأت المرأة تنشدُ أغنيةً:

تلوحين لي من صوب الأشجار العطرة
تكلّلك الزهور،
وحيدةً في الظل
تقفين...

عذراء جسورةٌ أنت
دونها رفيق...
ألا تخشين إغواء الغواة؟

«لا»، أجابت تشامباك باختصار.

ألا تعلم أن «مارا» نصب كميناً ليصطاد قلوب البشر الضعيفة.

«أنا لا أخشاه»، قالت تشامباك وهي تحدّق في وجه الراهبة الشابّة الرائعة.

«في سالف الأزمان كان ثمة فتاةٌ تشبهك كثيراً، تجلس تحت شجرةٍ في بستان السال، وفجأةً ظهر لها «مارا» طائراً في الهواء وقال: تلوحين لي من صوب الأشجار العطرة... تكلّلك الزهور..». استأنفت الراهبة غناءها وانقشع الظلام إثر لمعان البرق المفاجئ الذي أضاء السماء من الأفق إلى الأفق، وفي لمح البصر، رأت تشامباك أن دير الراهبات القديم قد اختفى، وفاحت رائحةٌ غريبةٌ غمرت العالم حيث كان موسم الربيع في قلوب العشاق، وعزف رعاة البقر ذوو العيون السوداء على مزاميرهم عند ضفاف الأنهار الظليلة، ورَنّت أزقة القرية بالضحكات الشبابية حيث خرجت فتياتٌ صغيراتٌ ليعبدن إله الغابة. بدا أنّ العالم قد خلق من أجل الوقوع في الحب، فالحبُّ قوّةٌ، والزّهدُ عجزٌ وبؤسٌ.

اختفى البرق في الأفق، فعاد الظلام، وتابعت الراهبة حديثها: «لكن الحبّ لا يدوم سوى لحظةٍ، بل هو مجرّد لحظةٍ من الزمن السرمدي. الأحلام وظلال الزهور والحب الجسدي، كلها تشترك بشيءٍ واحدٍ... إنها تتلاشى مع ضوء القمر. في بادئ الأمر كانت «أوبالافانا» تشاطرك الأفكار... هل تعرفين قصتها؟»

«لا».

«إنّها بلون اللوتس،ولدت في هانسافاتي في عهد بادما أوتارا بوذا، وولدت من جديد في شراوستي في زمن بوذا كابنة أمين الصندوق. انضمّت إلى النظام بدلاً من الاقتران بأحد الخاطبين الأثرياء الوسيمين...».

«هل كان هناك عددٌ من البوذيين؟» قاطعت تشامباك الكلام في حيرةٍ. تجاهلت الراهبة سؤالها واستمرت. «أصبحت أوبالافانا ضليعةً خاصّةً في قوّة التحول الصوفيّة، إنها ليست سواي.. أنا هي أوبالافانا! وفي هذه الليلة الموافقة للثالث عشر من قمر الخريف أتمّ المائة والخمسين عاماً». تلاشى المتحدّث العفريت في الظلال.

كانت تشامباك مذعورةً، أمسكت الأغصان بأصابعها، فسقطت الأوراق. «اهربي، اهربي..». حدّثت نفسها، بيد أنّ الفضول تغلّب على ذعرها، فمشت على أصابع قدميها نحو القاعة الرئيسية، حيث كان الأسوأ بانتظارها. كانت هنالك راهبةٌ تُعرف باسم الأخت ناندا، راقصةٌ سابقةٌ، تقود جوقة إنشاد:

انتبهي يا ناندا!
المحيط الفاسد الموبوء نجسٌ!
أجبري قلبك على التفكير في ما لا يصلح للرؤية...!
انظري يا ناندا...
إنّه المحيط الفاسد... الفاسد.....الفاسد...

ارتفعت الأصوات وأصبحت أكثر فظاعةً. أحست تشامباك أنها حاضرة في ممّر «الوقت»: هذه الأخوية الشراوستية التي أسّستها السيدة غوتامي

براجاباتي بين تلك النساء باركها الإله بوذا بنفسه عندما مرَّ بهذا النهر قبل قرنٍ ونصف قرن. كنّ يبحثن عن نهاية الوجود: نساء ضعيفات لم يكن هدفهن في الحياة إلا مضاجعة الرجال وإنجاب الأولاد، منهنّ: الأميرات الفخورات، وبنات الجنرالات، وحتّى ربّات البيوت، لقد أصبحن جميعاً جزءاً من «عجلة الوقت».

أأنا سيدة بالنسبة إلى هذه الأمور أم أنا رجل؟ ما الذي لا أمثّله إذن؟ هكذا تحدثت سميدا التي تعيش في بستان السفسطائيين. قيل إنها كانت تتحدث مفتونةً مغرورةً بجمالها مع الفتيان الواقفين على أبواب العاهرات كصيّادةٍ ماكرةٍ، تلتهم فضائل الكثيرين. لقد خرجت لتوّها تتسول حليقة الرأس ترتدي الزيّ الأصفر.

أما كوندال كيشي مجعدة الشعر فقد قامت بجولةٍ في البلاد، وفي يدها غصنٌورديٌّ، وراحت تجادل الحكماء مزهوّةً بذكائها قبل انصرافها إلى حياة التواضع والورع. كانت تشاماباك قد سمعت عن هؤلاء النساء أثناء إقامتها في المخيم. وبدأت تغني على الفور:

العالم كله يحترق
العالم كله في لهيب
السماوات تهتزّ بالزلزال...

ردّدت الراهبات بنغمةٍ سوداويّةٍ:

لقد جاء إلى الوجود لسببٍ ما
وسيفنى لسببٍ ما...

هبّت رياحٌ شديدةٌ بدّدت الغيوم ثم توقفت. خرجت تشامباك، فتراءى لها القمر كوجه راهب هادئ حليق الرأس.

«تشامباك، ارجعي، ارجعي...».

سمعت طائر المَينا يناديها. حمل غوتام قفص الطائر، في حين وقفت نيرمالا بجانبه. صاح طائر المينا «تشامباك البلهاء!».

«لقد كنت هناك وما وجدت شيئاً»، قالت بصوتٍ غائرٍ.

كانت نيرمالا تقول: «إنها مسكونةٌ بالأشباح».

«كان غوتام بانديت قد وصل للتو عندما رأيناك تسيرين خلف الراهبات، فتبعناكِ. يقول غوتام إنّها منطقةٌ خطرةٌ معروفةٌ بعقاربها وثعابينها. تعالي معنا».

لقد حضر إلى هنا، بيد أنّها استاءت من هذه العلاقة بين الأميرة والبانديت غوتام. هل أنا غيّورةٌ؟ شقّت طريق العودة معهما بهدوءٍ.

تساءلت نيرمالا بصوت عالٍ: «كيف تعيش هؤلاء النساء الضعيفات في مكانٍ مرعبٍ مليءٍ بالظلال الهامسة؟» «أعتقد أنّ بعضهنّ كنّ ضحايا للظروف. لقد رأيت بعض الراهبات الشابّات الجميلات هناك».

«يمكن للفتيات الشابات أيضاً سماع الدعوة!» اعترض غوتام. «على أي حالٍ معظمهن يصبحن مقوسات الظهر مع تقدم السنّ».

«نعم، إنه مفجعٌ. لقد رأيت راهبةً عرجاء».

«حسناً، هذا هو ما تدور حوله تعاليم بوذا؛ فهمُ مدى الحزن وعمقه».

سألت نيرمالا: «لماذا لم تأتِ طوال الأسبوع الماضي؟»

«لقد ذهبت إلى جيتفان فيهارا لأخبر الأمير السّابق بأنني أدّيت المهمّة ما خلا البند المتعلّق بالخاتم، بيد أنّه لم يكن موجوداً هناك؛ لقد ذهب لإلقاء

المواعظ بين طبقة «تشاندال». انتظرت هناك بضعة أيّامٍ، لكنّه لم يحضر. ربما ذهب إلى أبعد من ذلك. على أي حالٍ حيثما كانوا سيعودون لقضاء موسم الأمطار في الأديرة. لا بدّ له من العودة باكراً جدّاً. أنا متأكّدٌ من أنّه سيزور ساكيت، ويبارككم جميعاً».

سُحقت الأوراق الصفراء تحت أقدامهم. اصطحبهما إلى المخيم. «تعال غداً لتدشين مهرجاننا بأورادك»، قالت تشامباك بفتورٍ قبل دخول خيمتها. لاحظ غوتام التغيير الطفيف في نبرتها... إنّهنّ نساء!

لقد نال هذا التلميح من الأمير هاري، إذ يمكنك أن تعيش حياتك متنكراً كمسافرٍ يونانيٍّ، وناسكٍ، وغُندورٍ، وراقصٍ، ولن يعرف أحد مطلقاً حقيقة شخصيتك.

كان يستخدم ركناً من أركان كوخه كـ «اسْتُدْيُو» خاصٌّ به، يأخذ منه المادة المطلوبة، ثم يجهّز نفسه في هيئة «نتراج» الصوفية. كان جسم «شيفا» (الإله) أصفر اللون مثل أوراق الخريف، مغطّىً بالرماد، وكان يرتدي جلد الفيل، ويلمع الهلال على رأسه. نادراً ما كان يضحك. رقص الرقصة الكونيّة فتحوّل الوقت إلى محيطٍ من النور...

يمكن سماع صوت أجراس الرقص وأنابيب القصب والطبول عن بعدٍ حين يحتفلون بـ «شاراد بورنيما».

فيما أخذت تشامباك تنشد نغمة تشايا، لحن الظلال، كان الخدم يغدون ويروحون حاملين أباريق الخمر، فقد كان الملك مولعاً بقدحه.

دخل «نتراج» قاعة المعبد (ماندب)، وهو يعزف على طبله الصغير، فبُهت الجميع. كان ذلك مسرحاً من الدرجة الأولى، وكان سكان شراوستي مشهورين بأدوارهم المسرحيّة. كان دونما شكٍّ راقصاً من المدينة. خمّنت

تشـامباك ونيرمالا هويّته، واندهشـتا عندما انفجر «نتراج» في رقصة «ساندیا تانداف».

رقـص بجنـون إلى أن قُـدّم العشـاء عـلى أوراق المـوز. أوت النسـاء إلى مسـاكنهنّ. اعتـبره راجـان فناناً بـارزاً من شراوسـتي، وأجلسـه بجانبه على العـرش. تنـاول غوتام اللحـم المشـوي، وشرب كوباً وراء كـوب من النبيذ القويّ، كما شرب الملك وبطانته حتى الثمالة.

صاح أحد رجال الحاشـية الملكية: «يا سـيدي، يتردّد حكيمٌ برهميٌّ شابٌّ على المخيم، وهو يقول إنَّ الأمير موجودٌ في المنطقة المجاورة».

وفي غمرة نشـوته حـوزق غوتام وانتحب: «سـوف أخبركـم الحقيقة... أصبح سس سس سـيّدك هكذا... هكذا... متسوّ... متسوّ..... متسوّلاً، يحمل وعاء تسوّلٍ هكذا...».

استشـاط الملـك غضباً. كيف يجرؤ عـلى هذا! «اطردوه مـن هنا. اخرج! اخـرج!»، نهض مـن مكانه، وضرب الأرض بقدمـه وصرخ. في هذه الأثناء خـرج غوتام. حمله اثنان من الخدم خارج القاعـة، وألقياه بالقرب من خزان اللوتس. كانت تلك نهاية غير مشرّفةٍ دونما شك.

الشـمس تغـرب خلف التـلال. «انهضوا! انهضـوا، يا جماعة الكسـالى»، صاح طائر المينا في قفصه.

فتـح غوتام عينيه وضغط على صدغيه. كان قفص الطائر ملقىً على درج الخزان.

لسعته نحلةٌ في أنفه فجلس بفعل الصدمة. حاول التفكير بإمعان، ثم كرَّر عـلى نحوٍ دراميٍّ، «أين أنا؟» كما لو كان واقفاً على خشـبة المسرح. نظر حوله مرّةً أخرى، لا خشـبة مسرحٍ... لا أضواء مركّزة.. لا احتفالات بل وحشـة

كاملة. كان يعاني من صداعٍ رهيبٍ. هل بلغ مرحلة الصفر (العدم) في فلسفة البوذيين؟

استعاد وعيه ببطءٍ. لقد رقصَ وخالط الأسرة الملكية، وأكلَ كميّةً كبيرةً من اللّحم، وشرب الخمر، فعل ذلك كلّه في تتابعٍ سريعٍ.

كان قد استمتع كثيراً في الحفلة، ولو سنحت له فرصةٌ أخرى سيكرّر ذلك. لقد كبُرَ بين عشيّةٍ وضحاها، وصار سيد العالم. لَعَنَ الأعمال الصالحة التي لم تكن إلا وهماً من الأوهام. وبرغم ذلك لم يستمتع مرّةً قطّ بصحبة امرأة تجمعه بها علاقة حميمة.

أنثى. أيتها الأنثى! أين هي؟ أصيب بصدمةٍ عنيفةٍ أخرى. لقد ذهبت، وغادر الجميعُ.

صرخ طائر المينا: «تشامباك، ارجعي، يا تشامباك.....». نظر غوتام، ما من أحدٍ حوله. خمش رأسه في حيرةٍ قبل أن يرى صيَّاد فيلةٍ قادماً نحوه.

«ماذا حدث. أين أولئك؟» سأله غوتام.

«لقد خدعهم رئيس لصوص شراوستي. الآن يمكننا القول بشيءٍ من الفخر: إن من يمارسون هذا الفن القديم من أبناء مدينتنا تفوّقوا على أولئك المشهورين من كاشي!»

«لم أفهم!»

«انظر، بينما كان الملك يتناول عشاءه حضر تلاميذ رئيس اللصوص إلى هنا الليلة الماضية وصاحوا: لقد نجا محتالٌ من قبضة الصيّادين، وهو يتّجه إلى المخيم!» فترك الفريق الملكيُّ كلَّ شيءٍ وراءه وأسرع إلى النجاة. ركب الجميع القوارب وساروا في اتجاه مجرى النهر بأقصى سرعةٍ نحو ساكيت...».

«ثمّ ماذا؟»

«شرعت جماعة اللصوص في أعمال النهب؛ نهبوا الخيام في لمح البصر وعادوا»

«بينما كنت أغطُّ في نومٍ عميقٍ!» قال غوتام.

«أهذه هي مايا...؟»

«لك أن تستنتج يا سيدي». هزّ الصيّاد رأسه.

«هي بحقٍّ زعيمة اللصوص مايا (مايا معناه وهم، وهو اسمٌ للمحتالة الشهيرة)! هل تحتاج إلى أي مساعدةٍ يا سيدي؟ أنت لست راقصاً في حقيقة الأمر، أليس كذلك؟»

«لا. أنا أيضاً مُشَعْوِذٌ. أنا بخيرٍ. اجمع بعض البذور لهذا المخلوق المسكين».

«نعم ياسيدي».

جاء الصياد بحفنةٍ من الدخن من بين أنقاض المطبخ الملكي، ثم استأذن للمغادرة.

التفت غوتام إلى طائر المينا.

«إذن، سيداتك الملكيات تركنك، لتموت من الجوع والعطش؟ كان بإمكانهن إيقاظي قبيل مغادرتهن...».

حدّق الطائر في وجهه بعينيه الصغيرتين البراقتين. لم يستطع أن يحكي له القصة الحقيقيّة، فبينما كانت تشامباك ونيرمالا تهرولان نحو الرصيف حاولتا إيقاظه.

«شاستري المسكين. لقد رقص كثيراً في أمسية البارحة حتى أغمي عليه»، لاحظت نيرمالا بتعاطف.

«أغمي عليه! لقد أغرق نفسه في الكحول، استسلم للإغراء كليّاً. قد ينتهي به الأمر إلى أن يصبح خليعاً، تماماً مثل أخيك الذي استسلم لإغراء ما يسمّى راهباً. لقد انتهى به الأمر إلى أن يكون مجرّد متشردٍ، لا هنا ولا هناك».

ألقت تشامباك خطابها القصير بوصفها ابنةً حكيمةً للوزير، ثم أضافت: «استيقظ ياعزيـزي غوتام قبل أن يسـحق حيوانٌ مجنونٌ جمجمتـك الفيّاضة بالذكاء».

واصل نومه الثقيل.

«لقد غطّ الشخص الذي كان مستيقظاً في النوم، وهبّ الذي كان نائماً من نومه..». قالت تشامباك.

«تشـامباك، هـذا الرجـل المسـكين في براثن المـوت وأنـت تتفوهين بهذه الكلمات المبتذلة.»، صرحت نيرمالا.

«تعـالي معـي» صاح كبـير الـوزراء، واصطحـب كلتـا البنتـين إلى الميناء الصغير.

عادت نيرمالا إلى الوراء، وتركت قفص المينا قرب غوتام.

«أيقظـه بسرعـة يـا مينـا. ردِّد كلمـة استيقظ»، «اسـتيقظ، يـا جماعـة الكسالى...»، ركضت مرّةً أخرى لتنضمَّ إلى بقيّة الحاشية الفارّين...

غسـل غوتـام مكياجـه في الخـزان، وأعطى المينـا قليلاً من المـاء، ثم أخذ القفـص. وفي طريق العودة إلى الأشرم أدرك أنه لم يخسر كل شيءٍ بعدُ. كانت هـذه آخر فترة دراسـية له. في يوم حفل التخرج، سـيأتي والـده بفخرٍ ليأخذه معه. سـيكرر المعلم عبارة الوداع الرسمية: قم بواجبك وقل الحق. سيذهب إلى البيت، ويضع الكحل في عينيه، ويرتدي لباس الحرير والصنادل الجلدية، ويمشّـط شـعره بمرحٍ بمشـطٍ مصنوعٍ من ريش النيص. سـيتجول في أنحاء المدينـة في مركبتـه الخاصة، مثلما يليق بشـابٍّ صاحب مركزٍ ونفوذ. سـيزور سـاكيت وسـيعرف ما إذا كان رئيس الوزراء سيرسـل خِطبـة زواج ابنته إلى والده الغنيّ الوجيه، رئيس كهنة شراوستي...

6

سودارشان ياكشيني

عفريت الشجر... ما أحلى المنظر!

أصبح طائر المينا صديقه الجديد. قال له: «انظر يا مينا، لقد غضبت مني تشامباك، لأنني عندما قابلتها آخر مرّةٍ خارج الدير لم أكن أعلم أنه سيكون لقاءنا الأخير. ماذا أفعل؟»

قفز المينا في القفص، وبقي صامتاً.

«حسناً. لنرسم صورتها، هل تريد رؤيتها مجدداً؟ سأرسم صورة لها من أجلك». جمع مواد الرسم وأخذ الاستعدادات اللازمة. طحن الطوب، وحوله إلى مسحوق أحمر، ثم خلط مسحوق النّيلة مع الماء لإعداد اللون الأزرق. أعدَّ اللون الأصفر والبرتقالي من الكركم والزعفران، ثم جمع الأعشاب المطلوبة من الغابة، وغلاها حسب الوصفة من أجل صنع اللونين الأخضر والأبيض والألوان الأخرى، وحاول أن يستحضر صورة تشامباك.

نشر قطعةً من الحرير الصيني الأبيض على لوحٍ من الحجر، ثم أخرج فرش الطلاء المصنوعة من ذيل السنجاب. بدأ بإعداد مخطّطٍ، عينَي السمكة. توقّف وتساءل: المعنى ليس له محطّةٌ محدّدةٌ. يمكن تحقيق معنى واحد من خِلال رموزٍ مختلفةٍ، ويمكن فهم الرموز كمحطّاتٍ مختلفةٍ. إنها لا تقيّد المعنى. الصورة ليست مجرّد ألوانٍ، إنها روح الفنان. يمكن للمشاهدين أن يدركوا أهمية الشيء من مجرّد إشارة، لا يمكن للعين إلا أن ترى الألوان

الموجودة على الصفحة، مثل الشعر الذي هو مجرّد تعبيرٍ عن الصوت الداخلي للشاعر. ولا يوجد للحساسية أي تعريف دقيق.

لا يوجد للمطلق شكل محدد؛ إنه عصيٌّ على الفهم، إنه ليس مفهوماً فكرياً. كان «براهما الإله» كائناً يمكن مقارنته بالشكل، وكان الضوء مصدر هذا الشكل، شكله الحقيقي. «سواروب» كان شكلاً لأشياء أخرى كثيرةٍ هي «فيسواروب».

وضع غوتام فرشه باضطراب. الفكر هو مجرّد فكر. الشخص الحقيقيّ هو الحياة نفسها، وليس رمزاً للحياة. إنّ انجذاب المرء لها يقوم على العاطفة. إذاً كيف يمكنني تقديم الفكر النقيّ؟ لا أستطيع أن أظل نزيهاً أو محايداً. التركيز هو الفنّ الحقيقي للفنّان، ولا يمكنه أن يبقى تاماً أو كلياً. الشكل النقي الذي يعني تصوّر الشيء الموجود في حدّ ذاته كامنٌ في الشيء، وهو التركيز الحقيقي. كيف يمكن تجاهل السمة الشخصيّة لشيء ما؟

خلال الأيام القليلة التالية صنع لوحات، ثم حطّمها، وصنع تماثيل بالصلصال الأحمر، ثم حطَّمها. أخيراً نجح في رسم ملامح الفتاة البارزة مع غصن الكادامبا، الفتاة الممتلئة نحيلة الخصر، عريضة الوركين التي كانت تحني غصن الشجرة الغريبة، تماماً مثلما فعلت تشامباك حين شاهدها قبل بضعة أسابيع.

حكم المنظرون عليه بقسوةٍ، لم يمدحه أحدٌ لما فعل. لم يعلّق غوتام عليه شيئاً. لقد تخلّى عن طريق الفلسفة، ولم يستطع أن يخبرهم عن حقيقة التجربة الجماليّة وكيفية اكتسابها والتعبير عنها. كيف يمكن له أن يحلّ الصراع بين «روب» (الشكل) و«أروب» (اللاشكل)، و«بهافا» (الوجود) و«أبهافا» (اللاوجود)؟. أراد فقط أن يصوّر لغز الشكل البشري في صورة الصلصال

والحجـر. مثّلـت التجربة الجمالية الخالصة فرحةً بحتة؛ إنهـا مثل البرق، غير قابلةٍ للقسـمةِ، تظهر ذاتياً تماماً مثل تصوّر الفنان الذي هو متأصّلٌ في تصوّر «ويشـواكارما» العـالم بكل شيء، إذ كانت صورته (سـواروب) رمزاً للكون كلّه، وُجد الناظر في الروح أو الذات.

صورة العالم تمثل الذات التي رسمت على لوحة الذات. اكتسبت ماهيتها من الوجود الأول، والتصور الأوّل، والحياة الأولى، واستوديو القلب الذي احتوى على جميع الصور، وجميع الخيالات، حيث اتحدّت الصور كلها، وظل الضـوء نفسـه يمر من خلال زجاجات متعددة الألـوان، وقد صُنِع كل ذلك باسـتخدام الجمال والحقيقـة، فنتجت قطعـةٌ فنيّةٌ كاملةٌ كما ظهر مسـارٌ كاملٌ للمبدع والناظر، الذين يعرفون يمكنهم أن يدركوا ذلك.

لقـد لقَّـب الفتـاة التي تحمـل غصـن الكادامبـا «سودارشـان ياكشـيني -عفريـت الشـجر، مـا أحلى المنظـر»! كانت الصـورة لا تـزال ضبابيّةً وغير منسـابةٍ كالنحت في القرون اللاحقة. لكنّه اسـتطاع من خـلال صورة الفتاة التـي تحمـل غصن الكادامبا أن يحقّق نوعاً من التـوازن والهدوء والتكامل. لم تكـن مصقولة، ولكـنّ القوة انبعثت منها. كان غوتـام فرحاً جداً، لأنه تمكن مـن صنع تمثـالٍ كهذا، فقرّر صنع المزيد من التماثيـل. ذات ظهيرةٍ رفع قفص المينا وسـافر بحماسةٍ إلى شراوسـتي، ليتحدّث مع صديقه أكليش عن عمله. الآن يرغب في صنع بعض التماثيل المستقلّة، ويريد مناقشة التّقنيات الجديدة مع أصدقائه الرسّامين.

عاش أكليش في وسـط المدينة. عندما وصل غوتام إلى هناك وجد استوديو صديقه مكتظّاً بالحرفيين والفنانين. وضع القفص على النافذة واستشعر التوتُّر في الهواء، كما لو أن شـيئاً فظيعاً قد حدث. لم يتحدث إليه أحدٌ. سُـمِعَت طرقةٌ

على الباب؛ دخل رسّامٌ ملتحٍ متوحّش المظهر وهو يلهث، قال بصوتٍ أجشّ: «أيّها الأصدقاء، خذوا لوحاتكم وفِرُّوا بأرواحكم» جلس ليستعيد أنفاسه. «لقد اندلعت الحرب، لقد احتلّ جيش تشاندراغوبتا المغرور بلدنا. سيُدمَّرُ هذا البلدُ في غضون أيّام قليلةٍ. لقد انتهى وقتك يا أخي غوتام، سيلغي الموت في النهاية جميع الصراعات بين الشكل واللاشكل والوجود واللاوجود».

«لقد وصل الجيش الإمبراطوريّ الجديد من ماغاد. لا يريد رئيس الوزراء تشانكيا أي وجود للإقطاعيين الضعفاء حوله، لذا قُتل راجان وجميع رجاله».

«جميعهم؟» شعر غوتام بالضّعف، فلم يستطع إتمام سؤاله. «إنّه قانون الأسماك. سمعت أن بعض السيّدات الشابات سبحن عبر النهر بطريقةٍ أو بأخرى، وفررن إلى أرض بانتشالا، فأرسلت مجموعة من الجيش الإمبراطوري لملاحقتهنّ». نهض الرجل ليذهب.

«إلى أين أنت ذاهب؟» سأله غوتام بوهنٍ.

«إلى الحرب. أنت لن تشارك في الحرب، طبعاً، لأنّك أصبحت، كما علمتُ مؤخرّاً من المؤمنين بعقيدة اللاعنف الجديدة في الديانتين الجينيّة-البوذيّة».

«هل ندع أنفسنا تُقتل باسم اللاّعنف؟» سأل أكليش غوتام المُنَظِّر بقلقٍ.

عبر غوتام الغرفة، وقال بصوت عالٍ: «قل لي لماذا يُعدُّ بعض أنواع القتل جيّداً والآخر سيئاً؟ لا شأن لي بالملك ناندا، وفيشنو شارما وتشاندراغوبتا، هل يجوز لهم أن يجروني إلى نزاعهم...؟» لم يسمع أحد كلامه، لأنهم هربوا من الباب الأمامي، أصبحت الغرفة خاويةً في لحظاتٍ، فخرج هو أيضاً.

ارتفع ضجيجٌ مفزعٌ من جهة السّوق في الأسفل. لقد تعرضت المدينة لهجوم جحافل الأفيال والعربات الحربيّة الثقيلة، وفي غضون لحظاتٍ تحوّل

ميدان السـوق إلى سـاحة معركةٍ. نادى غوتام أصدقاءه. ضاع صوته وسـط نهيـم الأفيال، وقعقعة السّـهام والسّـيوف. وقـف مذعـوراً في الشرفة لبرهةٍ يرقب المشـهد الرهيب. كانت جثث أصدقائه الفنانين مطروحةً على الشـارع الرئيسي.

مشـى غوتام بخطى قصيرة. أخذ سـيفاً من قبضة محـاربٍ ميتٍ، وباشر القتال.

خـارج المدينـة، هبّت رياحٌ بـاردةٌ بهدوءٍ من جهة أشـجار تفـاح جيتفان ويهارا المزهرة. الطبيعة لا تكترث أبداً بالشؤون البشرية.

قاتـل غوتام أمـام منزل أكليش، قتل عـدداً من جنود مشـاة ماغاد إلى أن أصابـه رمـحٌ فأغمـي عليه. اسـتعاد وعيه عنـد بـزوغ الفجر في هـذه المدينة المحترقـة التي امتلأت حاراتهـا بجثث القتلى والمحتضريـن. تصاعد الدّخان مـن مبنى أمامه. أحس غوتام بألم شـديد في يديه النّازفتين، نظر إليهما، فوجد أصابعه مبتورةً.

كانـت سـوجاتا تمدُّ الكثير من النـاس في المدينة بالحليـب، وهاقد جاءت اليوم كي تقدم الحليب للجرحى، لم يكن ثمة أحد من زبائنها على قيد الحياة. جاءت إلى تشوك المطلّ على بيت الفيل الذي دمّره الحريق. قُتِلَ رئيس الكهنة وزوجته في الحريق. كان اسـتوديو أكليش قريباً، سـمعت سوجاتا طائر المينا يصرخ، «ارجع، ارجع». كان المنظر مرعباً. ثمة طائرٌ صغيرٌ نجا من المجزرة. صعدت الحلّابة، فـرأت القفص المزخرف على النافذة، ثم عثرت على غوتام مِستلقياً على الدرج، وهو لا يزال يتنفس.

«أود الذهاب إلى الآشرم»، قال لها بضعفٍ بعد أن ضمَّدت جراحه.

«أصبـح غوروكـول مهجـوراً، يـا سـيّدي، لقد فـرَّ الجميـع. أنـا حلّابةٌ

متواضعةٌ، ولكن لن تخرج من «طبقتك» إذا بقيت في منزلي حتى تتحسّن حالتك. لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان في هذه الحالة، سنعالجك بالأعشاب وبما لدينا».

رافق الحلّابة إلى قريتها، وبقي معها حتى التأمت جروحه. كانت سوجاتا تخدمهُ مثل جاريةٍ مخلصةٍ، فأدرك خطورة الوضع. كان باستطاعته أن يتّخذها خادمةً لكنّه لم يفعل. قال لها ذات صباحٍ: «فلنذهب ونرى ما حدث لكوخي الصغير. تسقط القصور، وتبقى المساكنَ المتواضعة سالمةً كما تعلمين». ذهب إلى الصومعة الصامتة، فوجد لوحته «سودارشان ياكشيني» مقلوبةً بين كومةٍ من الأنقاض. لحسن الحظ، لم يطلها أيّ ضررٍ. استعان بشقيق سوجاتا ليضع اللّوحة على عربة الألبان ويحملها إلى شراوستي. وقفوا أمام أنقاض بيت الفيل. كان يحلم بإحضار تشامباك إلى هنا في عربة زفافٍ. رفع التّمثال ووضعه في زاوية مدخل القاعة. حدّق التمثال في وجهه بعينيه السمكيتين الخاليتين. حسناً يا سيّدتي العزيزة، سأجول العالم بحثاً عنك. لديّ إحساس بأنّك مازلتِ على قيد الحياة، فربّما أعثر عليك في مكانٍ ما، وحتى ذلك الحين، احذري من النمل الأحمر، فقد يزحف على ساقيك مثلما زحف ذات مرة عندما وقفتِ تحت شجرة كادامبا! مسح دمعةً من عينه.

سألته سوجاتا، «هل هي إلهةٌ تعبدها، يا سيدي؟»

«نعم»، لقد كذب، لأنه لم يعد يؤمن بالآلهة والإلهات. «نعم، هي «أرياني»، إلهة الغابة، لكنّها تخاف البشر، وتهوى العيش في أماكن مقفرةٍ».

قدمت سوجاتا تحيتها إلى تمثال تشامباك، ثم خرجا من البيت المدمَّر.

ودَّع سوجاتا في تلك الليلة المظلمة. أخذ قفص طائر المينا وعبر نهر ساريو على متن قاربٍ.

7

رجل الطيور على التقاطعات

لقد أضحى غوتام طوافاً في الآفاق، يبحث عن تشامباك ونيرمالا. عمَّ الخراب والدمار البلاد كلها. كان الناس المنكوبون بالحرب يعطونه صدقات بكل سرور، ويطلبون منه البركات. كان يريهم يديه المبتورتين ويقول: «تكشف الأصابع حركات رقص شيفا. إنها تعزف على العود والمزمار، وترسم، كما تصنع الرماح والسهام والسيوف. أسأل الآلهة ألّا يمنحوكم الحصاد والذرية إذا واصلتم صنع الرماح...».

ذات مرةٍ قال هذا لزوجة الجنرال من سلالة موريا التي خرجت من منزلها لتعطيه صدقةً. فزعت من سماع لعنه، فأغلقت الباب في وجهه بقوة.

ربما أشتهر في القريب العاجل كشخصٍ نَزِقٍ مهووسٍ، فكّر في نفسه بكآبةٍ، يبدو أن الجميع يحبّون الحروب. إنّهم لا يتعلّمون الدروس قط، ولا يندمون أو يتحسّرون. ماذا يجب عليَّ أن أفعل الآن؟ بدا أن هذه هي مشكلته الأبدية.

رَحَلَ من مكانٍ إلى آخر، وجلس على التقاطعات طمعاً في العثور على تشامباك ونيرمالا بين المارّة. اشتهر بين الناس باسم رجل الطّيور على التقاطعات. استمر طائر المينا يصرخ: «عودي، عودي»، حتى طال به الزمن فهرم وضعفت قواه. لقد فشل في مهمته. أصبح هادئاً جداً، وراح

يضع منقاره في ريشه في معظم الأوقات. وعندما مات انفطر قلب غوتام، إذ انقطعت صلة الوصل الأخيرة التي تربطه بتشامباك.

تشاندرا غوبتا موريا، الملك الذي يحمل شارة الطاووس الملكي أصبح الإمبراطور الأول لدولة «بهارات» أي الهند. لم يكن أحد أولئك «المنحدرين من الشمس أو القمر»، لأنّ أمّه كانت منبوذةً، وقد تربّى على أيدي الرعاة، وتدرب على يدي فيشنو غوبتا في تاكسيلا حيث عُدّ ضمن الشباب الأكثر احتمالاً للنجاح. كان ألكساندر العصامي قد غزا شمال غرب الهند، فجهّز تشاندراغوبتا جيشاً له وطرد اليونانيين من أرض الأنهار الخمسة «البنجاب»، الاسم الذي أطلقه عليها الفرس في العصور اللاحقة. هزم تشاندرا غوبتا أيضاً الملك ناندا القديم من باتليبوترا، واحتلّ جيشه ممالك أصغر. سبق أن قال ساكياموني، البوذا: «النصر يولّد الكراهية، لأن الشعوب المقهورة تنام مع الحزن، ولا أحد فوق النّصر والهزيمة والسعادة إلا الذي يحبّ السلم».

بدأ فيشنو شارما رئيس وزراء تشاندرا غوبتا موريا، المعروف باسم تشاناكيا، يطبّق نظريّاته:

الشيء الوحيد الذي يجب تجنبه في السياسة هو ارتكاب الخطأ. لقد أنشأ إداراتٍ مستقلّةٍ للمعادن، والريّ، والتجارة، والضرائب، والشؤون الخارجية، والدفاع، والمراعي، والمسالخ. انضم البراهمة الفاشلون، والحلّاقون الأذكياء، والمنجّمون، والمحظّيات بكلّ سرورٍ لدائرة الاستخبارات المنشأة حديثاً. تسكَّع الجواسيس مرتدين زيَّ الرهبان الهندوس للتجسُّس، وزاروا بيوت العاهرات والمقامرين، وظلّوا على إلمام بما يقوله الشعب في الأسواق. سبق أن قال مانو: إن الشعب لا يشعر بالأمان حيث يمشي على الأرض دجّالون من ذوي الوجوه السوداء والعيون الحمراء.

ثمّة تغييراتٍ سريعةٍ حدثت في شخصيّة غوتام المتشرد. أصبحت الموضة وتسريحات الشعر الجديدة تحظى بالقبول بين الجمهور، وصارت ألفاظ اللغة المحكية تظهر بشكلٍ جديدٍ، وازدهرت التجارة. لم يتمكّن غوتام من الاتجار بأيّ شيءٍ سوى علمه، ولكن لم يُسمح له بأن يتقاضى أي رسوم من تلاميذه. تجنب صحبة المفكّرين والسفسطائيين، وظلّ يعيش على الصدقات، ويبحث عن تشامباك في أديرة الراهبات البوذيات والأسواق العامّة ومدن العساكر الجديدة لجيش الملك موريا المنتصر، فبدا له كأنّ الأرض قد ابتلعتها.

أثناء تجواله صادف عدداً من الفرسان من فارس، هربوا من إيران بعد غزو الاسكندر، وعاشوا في أرض الأنهار الخمسة لسنواتٍ عديدةٍ. التقى بأحدهم على الطريق السّريع بالقرب من مدينة أهيشاترا، تحدّث بلغةٍ أجنبيّةٍ، وتمكّن غوتام بصعوبة من فهم ما قال له الفارسي الأسود الطويل ذو اللحية المجعّدة.

«لقد جئنا إلى الهند من إيران لكسب العيش».

«أين تقع الهند؟» سأله غوتام.

«هذا البلد الذي تعيش فيه!» أجاب الفارسي متعجباً، ثم قال: «اسمع، لغتك الأدبية ولغتنا متشابهتان تقريباً، إلا أننا نستخدم حرف «هـ» محل «س». أنتم تستخدمون لفظة «سابتا» ونحن نستخدم كلمة «هافتا»، أحياناً الكلمات هي نفسها تقريباً، مثلاً عندكم نامو وعندنا نماز.

«نعم» شعر غوتام بالملل. لقد سمع كل ذلك من هاري شانكار. «التّماثل في اللّغات لا يمنع الناس من القتال وكراهية بعضهم بعضاً». غيّر الموضوع لأنه سئم منه، ولاحظ معطف الفارسي الطويل والبيجامة والأحذية الجلدية، فعلّق قائلاً: «إنك تحمل أشياء كثيرةً على جسمك!»

«نعم، الطقس حارٌّ جدّاً هنا. سوف نخلع هـذه الملابس عندما نصل إلى باتليبوتـرا. أنـت تعرف أنه توجد نشـاطات بنـاء مكثفـة في باتليبوترا. نحن مهندسـون معماريّـون من برسـيبوليس التي دمرت حرقاً، لكنّنـا واثقون من الحصول على وظائف في باتليبوترا!» قال الفارسي وانصرف.

لاحـظ غوتام مسـاء ذلك اليوم جوقةً مسرحيّةً جوّالـةً تنصب خيامها في مـكانٍ مفتوحٍ بالقرب من أهيشـاترا. لقد بلغ منه الإرهـاق والتعب مبلغهما لكثرة السـير والتسـوّل. أدرك أنه لم يفعل أيّ شيءٍ طيلـة حياته. أصبح البلد حافلاً بالرجال والنسـاء الذين أصيبوا بالشـلل في الحرب الأخيرة وقد باتوا متسـولين. هل سـينتهي بي المطاف كواحـدٍ منهم؟ ذهب مبـاشرةً إلى المسرح وقـال: «أودّ أن أقابل مديـرك». أخذه الفتى إلى امرأةٍ رائعةٍ تجلس على سريرٍ، تصبغ نعالها بالصباغ الأحمر، اسـمها أمبيكا، الممثلة الرئيسة ومالكة الشركة. نظـرت إليـه برغبةٍ جامحـةٍ دونما حياءٍ. كانت سـيّدة العالم وشـغوفةً بالجسـد الذكوري.

حـاول غوتـام أن يسـتغلّ سـحر شـخصيّته فقال: «أنـا ممثّـلٌ عاطلٌ عن العمـل، خسـرت كلّ شيء في الحـرب..»، ثـم راح ينتحـب. «هـل يمكنني الانضمام لجوقتك يا سـيدتي؟ تعلمين أنّني كنت أرسم وأنحت. ولكن....». فجأةً نشر يديه المبتورتين أمامها «أستطيع أن أمثّل جيداً».

عـلى الرغم من أنّها محظيّةٌ محنّكةٌ وسـيّدة أعمالٍ واقعيّـةٌ، وقعت أمبيكا في حبّـه، فأصبح غوتام الممثل الرئيسي وعشـيقها في آنٍ واحدٍ. أدرك أنّها أعطته دور البطولة، فلقد كان شديد الوعي بسلطته على النّساء. أصبح متكبراً يوماً بعـد يـوم، بيد أنّـه كان صريحاً جداً في أقوالـه، وربّما وُشي بـه لزوجة الجنرال موريا. كانت أمبيكا قلقةً، فقد أشار مرّةً أو مرّتين إلى سياسات رئيس الوزراء

الجديد فيشنو شارما، المعروف باسم تشاناكيا كاوتيليا بطريقةٍ ساخرةٍ.
حذّرته أمبيكا قائلةً: «لا تهاجم السلطات من خلال مسرحيّاتك، فقد تتورط في مشاكل»، ولكنّه لم يبال. ومن ثمّ قالت له أمبيكا: «سمعت أنك راقص جيد. علِّمني الرقص أيضاً».

«*أعلّمك*؟ هل ما زلت تحتاجين إلى شيء أعلمك إياه، أيتها السيدة الضليعة بكلّ شيءٍ؟» قال غوتام بلهجةٍ ساخرةٍ. لقد أصبح شخصاً مريراً ساخراً، وأحبّ أن يؤذيها. بدت كئيبةً، فتأسّف لها. إنّها فتاةٌ مسكينةٌ، لقد قدّمت لي وظيفةً، وها هي تعتني بي وتقوم على خدمتي كما لو كنت أميراً وليس متشرّداً، وأنا أستهزئ بها طول الوقت بلا سبب. إنها ليست مسؤولةً عن سوء حظّي. سألها بنبرةٍ أخفّ، «من قال لك إنني أستطيع أن أرقص؟»

«بعض الممثّلين من كاشي حضروا إلى هنا قبل أيّام. قال أحدهم إنه شاهدك تقوم بعرض «رقص شيفا» في مهرجان ملكي في شراوستي، قبل الحرب بفترةٍ وجيزةٍ».

«من يكون؟ أين هو؟ هل يمكنني مقابلته؟» سأل غوتام بقلقٍ. ربّما يعرف هذا الممثل مكان وجود تشامباك.

«لا علم لي به» أجابت أمبيكا بنبرةٍ هادئةٍ. «لقد غادروا في جولتهم». اعتادت أمبيكا على تحمل مزاج هذا الرجل المتقلب المضطّرب سريع الاهتياج، عشيقها الشيطاني.

«غوتام»، تابعت بهدوءٍ «لقد قمنا برحلات كثيرة في المحافظات، فلنذهب إلى باتليبوترا».

«نعم، دعينا نفعل ذلك»، أجاب غير مكترثٍ.

8

المسرح في باتليبوترا

أدت جميع الطرق إلى قاعة المسرح الجديدة ذات السقف المنحدر، حيث جاءت جوقةٌ مسرحيّةٌ من أهيشاترا إلى العاصمة المورياوية. انتشرت شائعاتٌ أنّهم سيقدمون أداءاً تمثيلياً ملكيّاً. لقد كانوا رائعين. وصلت القصص حول بطل الجوقة الأسطوريّ إلى المدينة بشكلٍ فعليٍّ. لقد قالوا، إن الممثّل غوتام نيلامبار، ممتازٌ ورائعٌ جدّاً، فهو طويل القامة، داكن البشرة وسيمٌ، ومطرب ممتاز، وممثّلٌ مسرحيٌّ رائعٌ، إنّه باختصارٍ يفوق الوصف. عشقته النساء بحكم عادتهنّ في الخلط بين وسامة شخص وموهبته. إنّهن مولعاتٌ بالمشاهير والشعراء والموسيقيين والممثّلين.

اكتظت القاعة في الليلة الأولى بالمشاهدين، وحضر عددٌ قليل من اليونانيين بين الجمهور، أخذوا يتطلّعون بشوقٍ لمشاهدة أحدث مسرحيّةٍ هنديّةٍ. كانوا قد بقوا في الهند بعد أن غادر ألكساندر البلد، وتبعوا تشاندرا غوبتا إلى باتليبوترا. اكتظّت القاعة بالنساء من جميع الأعمار والطبقات بينهنّ الأميرات وربات البيوت والشابّات العذارى، توافدن إلى القاعة بالعربات، أو سيراً على الأقدام لرؤية البطل الشهير المحبّب إلى القلوب.

كانت أمبيكا الممثّلة الأشهر في عصرها، وحينما زيّنت وجهها بمسحوق أوراق الكاستوري الصفراء المطحونة، ووضعت على عينيها اللوزيتين الكحل

المصنوع من السمن النقي وسناج المصباح أثارت موجةً من الإعجاب. كانت تنتمي إلى طبقة المحظّيات أو طبقة «الويشيا» أي العاهرات؛ كانت والدتها وجدتها راقصتين في البلاط الملكي. تتمتّع سيدات طبقة «الويشيا» بمنزلةٍ خاصّةٍ. لقد ألّفت كتباً حول كيفيّة سحر الرجال وطرق إغرائهم، وتم تدريب بعضهنّ كجاسوسات، ولُقبن بـ«ويش كانيا» أي عوانس السم، إذ يربّين على السمّ بشكلٍ بطيء حتّى تصبح قبلاتهن قاتلة للعدو. كانت أمبيكا ساحرةً دون أن تكون «ويش كانيا» خطيرةً. حصلت على تدريبٍ مكثّفٍ في الفنون التمثيلية. وبوصفها عاهرةً من الدّرجة العليا وفنّانةً متميّزةً فإنها كانت تقوم بتسلية وجهاء المدينة وأمراء الحرب والنبلاء.

قال الذين ينشرون الإشاعات إن غوتام تعامل معها بفظاظةٍ، وغازل النساء الأخريات، وشرب الخمور باهظة الثمن، وارتدى ملابس القطن الموصليّ الأجود من وانغا وملابس الحرير من كاشي، وارتدى الحلى من اللؤلؤ والماس، وعاش عيشة الأمراء على حساب أمبيكا الثريّة. لقد استغلّها دونما حياءٍ. لم تُنسج الفضائح والحكايات عن غوتام من الخيال، ففي الواقع، أصبح رجلاً منحطّاً وشرّيراً. تخلّى عن بحثه عن تشامباك منذ زمنٍ طويلٍ، واستقرّ مع أمبيكا، وعاش معها نوعاً من الحياة المنزليّة الزائفة. أصبح خليعاً في منتصف عمره، وظهر الشيب في بعض خصلات شعره، مما جعله أكثر جاذبية من ذي قبل.

كان غوتام في باتليبوترا هذه الليلة أمام جمهورٍ آخر مفتونٍ به. خرج مِن جناحه الخاص وفقاً للتقليد المسرحيّ، وبدأ حواره مع الممثّلة الرئيسية حول موضوع المسرحيّة. حدّق الحشد فيه مذهولاً. ضحك بصمتٍ لأنّهم لم يستطيعوا مشاهدة المسرح الداخلي قط.... تماماً كما لا يمكن للمتفرجين

مشاهدة المنظر وراء الستار.

ثم حدث ما حدث؛ ففي موجةٍ من الإثارة غير المتوقعة، أخرج يديه المشوّهتين.

دُهشت النساء، وصُدمت الفتيات ذوات المزاج الرومانسي، وثارت ضجّة في القاعة، لأنّ البطل المشهور حزين الوجه كانت أصابعه مشوّهة. كان يبقي يديه مخفيتين بعنايةٍ تحت عباءته، وخاصّةً اليسرى. في هذه الأمسية المشؤومة، وقع نظره على شخصٍ ما بين الجمهور. لقد أزعجه المنظر كثيراً لدرجة أنّه استدار حول نفسه سريعاً، فانزلق شاله، التقطته أمبيكا بسرعة، ووضعته على كتفه... كان لا يزال مذهولاً مما رآه.

جلست تشامباك في الصف الأمامي، مرتديةً لباساً من الحرير الأرجواني، والحلي الذهبيّة. كانت برفقة صبيٍّ صغيرٍ وخادمةٍ. حضرت لمشاهدة الأداء الأوّل للممثّل المشهور في العاصمة، ورؤية أمبيكا التي اشتهرت بأنها عشيقته الغيورة...

عندما أبصرت يديه المشلولتين، انهمرت الدموع الحارقة من عينيها. ومن خلال ضباب عينيها شاهدت وميض وجه غوتام مثل شمعةٍ شارفت على الموت. وقف مبهوتاً للحظة، ولم يستطع الكلام، جمع حواسه وحدّق في وجه السيدة مانوليا مرة أخرى.

كانت المرأة التي بحث عنها طيلة هذه السنين متربّعةً على الأرض معها طفلٍ يجلس بجانبها، أصبحت ربّة منزلٍ وأمّاً ناجحةً مغتبطةً. لم تعد مثاليّةً أو خياليّةً، بل مجرّد كهلةٍ متزوّجةٍ معتدّةٍ بنفسها، بدت عليها أمارات سيّدةٍ في منتصف عمرها «شيفا- يا شيفا»- (إلهي يا إلهي)

أنا أعي تفاعل الزمن المقامر المضحك مع الوهم،
لذلك أستأنف تمثيل دوري في المسرحية

بعيداً عن أضواء المسرح بكت تشامباك بهدوءٍ متظاهرةً بأنّها متأثرةٌ بخطاب البطل. لقد تخلّى الأمير هاري شانكار عن العالم، ومع ذلك لم يستطع التخلي عنه تماماً. عاد غوتام نيلامبار إلى العالم لكي ينساها وربما بقي ناسكاً في سويداء قلبه. لم تستطع تشامباك أن تتخلى عن عالم الرغبات، ولم تتمكن من الاستمتاع به أيضاً. هل يمكن للراهبات المقدّسات في شراوستي أن يفهمن ترتيلة الأخت تشامباك الصامتة؟ ألم تصبح أكثر حكمة من الأخت أبَلوانا المحيطة بكلّ شيء؟ لأنّها خضعت لتحوّلٍ في نفسها: فقد فعلت ما هو مطلوبٌ من امرأةٍ عامّة، وقبلت «مصيرها».

بعد انتهاء المشهد الأول، همست إلى الخادمة التي جلست بقربها. نظرت جامونا حولها خِلسةً، ثم خرجت من القاعة.

«ثمّة خادمةٌ تودّ مقابلتك»، قالت أمبيكا لغوتام في الغرفة الخضراء.

«من هذه؟» سأل بلطفٍ. تلاشى انزعاجه، وتحوّلت لهجته القاسية جذريّاً. كانت أمبيكا مذهولةً من هذا التغيير المفاجئ وغير المعتاد، لأنّها لاحظت هدوءاً غير عاديٍّ على وجهه.

«ربما شيءٌ عاديٌّ رسالةٌ من إحدى معجباتك»، قالت وبدأت تحضّر مكياجها للمشهد التالي.

خرج غوتام، فرأى خادمةً داكنة البشرة أسفل الدّرج. طأطات رأسها تحيّةً له وضمّت كفّيها. تحدّثت بدلالٍ ونقلت الرسالة. «أرسلت لك سيدتي تحيّاتها وتود مقابلتك بعد انتهاء المسرحية».

لقـد عـرف بشيءٍ مـن القلق من أرسـلها. وقف سـاكناً للحظـةٍ، ثم نزل خطوة وقال: «لا... بلّغي سـيّدتك بالنيابة عن هذا الإنسان: الشخص الذي كان مسـتيقظاً غـطّ في النوم، والـذي كان نائماً هبَّ من نومـه فجأةً... فكّري في أولئـك الذين يسـهرون طول الوقت. علاوةً على ذلك: أنا الآن مسـتيقظٌ تمامـاً، وعلى الرغم من أن المسـار حادٌّ مثل حافّة الشـفرة، فلا شيء يمكن أن يحول دون مسـاري الآن. وبعد... هل نسـيت سـيّدتك التعليمات القائلة إن كلَّ الرجـال الآخرين بالنسـبة لزوجـةٍ وفيّةٍ مثل الظـلال؟ يمكنك الذهاب الآن يا سـيّدتي اللّطيفة. أدعو الآلهة أن...» منع نفسـه من تلاوة دعاء البركة. لقد استعاد سريعاً أسلوب الزهّاد.

ركضـت الخادمة وخلخالها يجلجل، ثم عادت بعد بضع دقائق، لم تتفاجأ حين رأته واقفاً في المكان ذاته وراء الستار.

قالت منحنية، «تقول سـيدتي: أصبت، أيّها الحكيم! جيّدٌ أنّك استيقظت. وعلاوةً على ذلك، تتسـاءل السـيدة تشـامباك مـاذا تعرف عن تفـاني المرأة يا سـيّدي الكريـم؟ ومع ذلك، فـكلّ شيءٍ على ما يرام كما تقـول لأنّه لا يمكن لأحدٍ أن يثلم طرف الشفرة. الآن يمكنك أيضاً أن تذهب، وهي تودعك».

توقفت جامونـــا قليلاً، وأضافت: «طلبت مني سـيّدتي أيضاً أن أخبركم بأنه قُبِضَ عليها بعد الحرب من قبل الفاتحين وأُحضرت إلى هنا...».

نظـر غوتام إليها بعنايـةٍ فعرفها؛ إنها جامونا الخادمـة الملكية، التي حملت المظلة لتشـامباك ونيرمالا عندما رآهما في المـرة الأولى قبل زمنٍ طويلٍ في ذاك الصبـاح الممطـر على ضفـة النهر قـرب أيوديـا، وفي وقتٍ لاحـقٍ، لَقي هذه السيّدة في المعسكر الملكي قرب شراوستي. ابتسمت ابتسامةً واهنةً وأضافت «صاحـب السـعادة، لقـد أخذوني أنـا أيضاً أسـيرةً عندما نهبـوا القصر. لقد

أحضرونا جميعاً إلى باتليبوترا، وأُجبرت السيدة تشامباك على الانضمام إلى حريم أحد الوزراء الكبار. انظر يا سيدي، إنّه الآن في جولةٍ خارج المدينة. سيدتي تودُّ مقابلتك في الخفاء لبضع لحظاتٍ...».

في هذه الأثناء، أخذت جامونا تلعب دور الوسيط التقليديّ على خشبة المسرح، دور الوسيط بين البطل والبطلة في ظلّ هذه الظروف المأساوية المتغيّرة.

«لأجل أيامنا الخوالي» تذرعت جامونا.

فكَّر بسرعةٍ. هل ينبغي أن يذهب ويلتقي بهذه المرأة المتزوجة السمينة، ويزيد من شقائها وفي الوقت ذاته يحطّم عالم أحلامه؟ «لا»، قال بحزمٍ وإيجازٍ. «عزيزتي جامونا، ليس ثمة أزمانٌ قديمةٌ وجديدةٌ، ثمة فقط الزمن السرمديّ الذي هو أيضاً لحظة».

ركضت المرأة مرّةً أخرى إلى القاعة ورجعت بالإجابة: «تقول السيّدة مانوليا: إن حضرتك بكامل مجدك وثقتك بنفسك قد تقدّم فلسفاتٍ عظيمةٍ، بيد أنها الآن، في هذه اللحظة، بعد تلقي هذا الردّ منك، أصبحت هي المستنيرة، لأنّها أدركت الحقيقة الأسمى؛ ومفادها أنّ الشقاء الأكبر هو أن أولد امرأةً من جديدٍ، ولا سيما أنّ جمالها وشبابها لا علاقة لهما بالخلود!»

ظلَّ غوتام صامتاً. لقد دمَّرت الرسالة كل الحجج. سأل فجأةً: «وأين الأميرة نيرمالا حفظها الإله؟»

«إذا سنح لسيادتك الذهاب إلى دير الضباب الذهبي بالقرب من جيتفان، فربّما تجد هناك سيدةً عجوزاً متغضّنة الوجه حليقة الرأس جالسةً تحت شجرة التفاح الخشبي، تسبّح للآلهة على سُبحتها. هذه هي الأخت نيرمالا، راهبةٌ بوذيّةٌ، وإحدى الأخوات الشهيرات في شراوستي. أثناء

عمليات القتل في أيوديا هربت إلى إندرابرستا، وبقيت هناك بضع سنواتٍ في حريم أحد الأشخاص. ساعدها بعض الرهبان على الهروب والوصول إلى جيتفان ويهارا حيث كان شقيقها، الأمير هاري شانكار السابق، يقيم هناك في ذلك الوقت».

«شيفا! شيفا!»

«أجل... حقّاً، يا سيّدي، لا يمكن للمرء أن يتوقّف عن التأمّل في لعبة النرد التي تسمّى الحياة. قبل أيام، أخبرنا راهبٌ متجوّلٌ أنّ الأخ القسيس هاري أنندا من جيتفان ويهار قد توفي ودفن هناك. والآن لا بدّ لي أن أستأذنك يا سيدي خشية أن تتأخّر عن دورك القادم في المسرح». تراجعت جامونا إلى الخلف، واختفت بين الحشد تاركةً الممثل الشهير مشدوهاً.

9

الـنهـر

حالما فرغ غوتـام من التمثيل غادر خشبة المسرح مسرعاً دون أن يلقي نظـرةً على جمهوره. عـاد إلى الغرفة الخضراء الصامتة فخلع ثيابه الحريريّة غير المخيطـة ذات الزخارف، وأزال مكياجه. لم تكن أمبيكا قد عادت بعدُ. غطّى نفسه سريعاً بغطاءٍ قطنيٍّ أبيض وتسلّل من الباب الخلفي.

كم كـان سهلاً عليه أن يترك أمبيكا أيضاً، لقد اعتبرها مجرّد امرأةٍ. استحثّ خطاه عند الوصول إلى ممرٍّ جانبيٍّ، وتوجّه لأقرب بوّابةٍ للمدينة. كان متوتّراً، مثل سـجينٍ هاربٍ من السـجن، نظر إلى الوراء من حينٍ لآخر ليتأكد إن كان ثمة أحد يلاحقه، ولكن، كما يبدو، لم يلحظ أحدٌ راهباً في لباسٍ أبيض، يحاول أن يشـقّ طريقه في حشـدٍ متدافع في العاصمة على الجبهة النهريّة. كان شـارع البنـات الراقصات مضـاءً بالمصابيـح، وكان المحتالون والمشـعوذون ورجال البلدة مجتمعين في أوكار القمار. لاح سور القصر الإمبراطوريّ الخشبي البعيد تحـت ضـوء القمـر في ليلةٍ صيفيّةٍ. تبسّـم غوتـام وفكّر في نفسـه: في مثل هذه اللّحظـة ربّما يلعـب الإمبراطور لعبة الشـطرنج مع رئيس الوزراء تشـاناكيا. لمحتـه امـرأةٌ من المدينة عن كثبٍ إذ مرّت به، فخيّل لـه أنّها ربما تعمل في دائرة المخابـرات في مكتب رئيس الوزراء، الذي يوظـف المحظيّات الذكيّات، ظنّ أنّ هذه المرأة ربّما تؤدّي واجبها في تلك المنطقة فقط لا غير.

تساءل غوتام في نفسه: السؤال الذي ينبغي أن يُطرح على تشاناكيا العظيم، هو: من يتجسس على من؟

كان الحرّاس يسيرون جيئةً وذهاباً حول الأسوار. يتخلل أسوار مدينة باتليبوترا أربعةٌ وستون باباً، فأيّ واحد منها يقودني إلى وجهتي؟

مازلتُ زاهداً وخليعاً، ومفكراً أحمق، ومتسولاً ونبيلاً، لقد جربّت كل هذه الأحوال. والآن ربما وصلت، رغماً عني، إلى مرحلة الرهبانيّة التي لا يرغب فيها المرء بالحياة أو الموت.

واصل رحلته، ومر بمدنٍ عديدةٍ وقرى جميلةٍ مثل الطاووس. قال في نفسه: أين ملاذي الأخير؟ أحس بعزلةٍ غريبةٍ لم يشعر بمثلها قطّ. وطمأن نفسه بأنه ليس ثمّة ما يدعو إلى الخوف. لقد لازم الأرض، والأرض هي أمّه التي ما زالت تسانده. استنشق رائحة الأعشاب الطيّبة، وأحس ببرودة الأحجار، وبقوة التربة تحت قدميه، فمدَّ ذراعيه ولمس الهواء.

مضت عدّةُ أيّامٍ، واصل طريقه، انحنت أمامه النباتات الغريبة والأغصان المزهرة، واصطحبته الطيور وهي تغنّي بمرحٍ. كانت السماء ملبّدةً بالغيوم، وقطرات المطر تتغنّى بألحانٍ رنّانةٍ وتتساقط على بتلات اللوتس. كانت شالات الفتيات المزارعات ترفرف في الريح، وهنّ يغنين جالساتٍ على الأراجيح تحت الأشجار الخضراء الداكنة.

ركب سفينةً قادمةً من إحدى المدن القائمة على ضفّة النهر، ثم نزل منها في ساكيت. سقطت قطرةٌ من المطر على أهدابه. كانت السّحب السوداء ترعد في الأفق، غلبته نشوةٌ غريبةٌ، فأحس أن الأنهار الهائجة تهيج في قلبه، وأن الشلالات الشجيّة أحدثت نغماتٍ موسيقيّةٍ في نفسه. عندها وجد «إندرا» واقفةً بجانبه، فتساقطت الأمطار على وجهه مثل الشلال، فهمس أنشودته إلى «رودرا»...

شأنَ قائد المركبات الحربية
يضرب خيوله بالسوط
ليجدّ سيرها قُدماً،
هل هذه بشرى قدوم المطر،
زئير الأسد يسمع من بعد،
الزئير والرعد يزرعان البذور
طِر إلى هنا في عربتك الساحقة!
لتُسوّي الجبال والتلال والوديان.

أمطرت السماء طوال الليل، ولما وصل إلى نهر ساريو انقشعت السحب، وطلع الصبح. انحنى على الأرض المبللة، فرأى الفراغ الواسع حوله، وكان كالعادة شخصاً وحيداً منفرداً بذاته: المرء الأزلي. أحس أنّه كان داخل الإله، وغدا جزءاً من الإله، بل كان هو نفسه إلهاً. هبّ واقفاً وقوّم جسده وردد بهدوء:

إلهي...
أنت النّار والشمس،
أنت الريح والقمر،
أنت السماء المرصّعة بالنجوم...
أنت براهما..
أنت الماء..
خالق الكون أنت...
المرأة والرجل أنت...

أنت الفتاة الشابة،
أنت الرجل العجوز الذي
يمرّ بنا على هراوته
اتكأ كل مولودٍ
يولد بنور وجهك...
أنت الذبابة الزرقاء الداكنة،
والببغاء أحمر العينين أنت،
أنت السحابة العاصفة وأنت المحيط،
ثمّة طائران
صديقان حميان
على شجرة يجلسان...
أحدهما يلتهم ثمرةً،
وصديقه عاجزٌ...
مشلول الجناح
كذلك هو الإنسان
على الشجرة نفسها استكان
حزيناً... واجماً...
من عجزه حيران...

ولكن الذي ينظر إلى رضا المصدر، ويعترف بعظمته، ينجح في إنهاء حزنه، كذلك الذين يعرفون «الواحد الأبديّ» لريغ فيدا راضون. وحينما يطلع النور، عندئذٍ لا يبقى نهارٌ ولا ليلٌ، لا وجودٌ ولا عدمٌ. لا يبقى شيء

إلّا الإله شيفا النور السرمديّ، هو الذي ينبثق من «سافيتري» التي ولدت الحكمة، ولا يمكن إدراك جمالها، ولا يمكن وصف شأنها، فهي موجودةٌ داخل القلب.

ينوب إليك الفرد مرتجفاً
يا إلهنا الذي لم يولد
أيها الإله رودرا،
ألوذ بك لتحميني
الطائر الوحيد في العالم أنت
كشمس الأصيل
تسير... تتوارى في البحر.
لا طريق لرحلة الإدراك تلك
إلا بعبور البرزخ
نهر الموت...
لا طريق آخر لمعرفتك
أيها الإله...

تدفقت المياه دون انقطاع تحت قدميه المتقرّحتين. رفع رأسه. لقد فاض نهر ساريو بمياه المطر، وعاد أخيراً. الآن يمكنه أن يزور دير الضباب الذهبي، ويلقى الراهبة نيرمالا إذا نجت من وحشة الظلال المتهامسة، ومن ثمّ يمكنه أن يعود إلى «الآشرم» الخاص به، لقد رأى العالم.

حين وصل إلى ضفة النهر، سمع شخصاً يصرخ في ذعر، «ماهاراج!» (الملك العظيم) «ماهاراج!» حذار، قد تنزلق، الطين هنا خطير».

تراجع عن مكانه، رأى فتاةً من القرية تجلس على الدّرجة السفلى من المغطس، تملأ قربتها بالماء.

أجابها بلطفٍ، «سأكون حذراً، أريد أن أعبر النهر وأذهب إلى الطرف الآخر قبل أن تبدأ الأمطار بالتساقط مرة أخرى».

«لن تجد السفينة في مثل هذا الجو».

«لا مشكلة، يمكنني أن أعبر النهر سابحاً».

«تريد أن تسبح في هذا النهر الهائج؟»

«لا ضير في المحاولة أيّتها السيدة الطيبة». رفع يده اليمنى ليبارك الفتاة المزارعة ثم ردّد: «فلتهبك الآلهة الحصاد الموفور والذريّة الطيبة...».

لقد أصبح الطقس لطيفاً جداً، وراحت طيور المانجو تغرّد على أوراق الشجر. تساقطت حزمةٌ من أزهار أحد الأغصان على قدمي غوتام، فالتقطها ورماها في النهر. حملتها الأمواج على الفور إلى مكانٍ بعيدٍ. بعد ذلك وثب إلى المياه، وبدأ يسبح ضدّ التيار.

وصل إلى منتصف النهر، فقد دفعه تيار مائيٍ قويٍّ، وحمله قريباً من الشاطئ الآخر. كان يكافح بضراوةٍ ضد الأمواج، ولكن التيّار كان أقوى. وأثناء كفاحه في مياه النهر، رأى صخرةً تطفو على سطح المياه. كانت هذه الصخرة جزءاً من الأحجار التي استخدمت في معبد أهل القبائل القديم حيث لقي السائح «الإغريقي»، وأمضى فيه ليلته. أمسك غوتام طرف الصخرة. كان يلهث منهكاً، أغمض عينيه، وتشبّث بالصخرة. كان «الزمن» يدفع التّيار إلى الأمام، ولكن يبدو أن امتداد الماء غير محدود في كلّ مكانٍ. شعر بالأمان للحظةٍ وهو متشبث بجزءٍ من الصخرة. لقد كانت الصخرة صخرةً في السابق،وستبقى صخرةً في المستقبل أيضاً. لكنه لم يستطع التشبّث

بها أكثر من ثوانٍ بأصابعه المشـوهة، مرّت أمواج نهر سـاريو الغاضبة بغوتام نيلامبار.

وصل السّـيد عبـد المنصور كـمال الدين إلى شـاطئ النهر بسرعـةٍ كبيرةٍ. كان نهر سـاريو يتدفّـق أمامه على نحو مهيبٍ. يوجد عـلى الطّرف الآخر من الشاطئ صفٌّ من الأكواخ، بعض الدراويش في ستراتهم المرقعة، يتوضّؤون لصلاة الفجر ويتنقلون بينها.

10

عجائب الهند وحكاياتها الغريبة

تلفَّت الفارس الأشقر ذو العينين الزرقاوين حوله بشموخ. ترجّل عن حصانه. كان طرف عمامته الطويل الفضفاض يدلّ على أنه خرّيج إحدى الجامعات، وعلى الرغم من كونه باحثاً، فإن لباسه لا يوحي بأنه فقير. كان شاباً مميزاً يناهز الثلاثين، سعيداً جدّاً بنفسه. قاد أسطوله من الخيل، لُقِّبَ حصانه بـ «طوفان»، إلى حافة مياه النهر، ووضع سيفه على الأعشاب. لم يَخَش أحداً، فهو ينتمي إلى الطبقة الحاكمة. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن من المسلمين المحليين الأصليين؛ كان أجنبياً، أتى من الأراضي التي يطلق عليها في الهند «ولايتية» أي الأجنبية، تقع وراء سلسلة جبال هندوكوش وجبال بامير البعيدة، حتى الحصان الذي قدم عليه كان أجنبياً.

بينما روى الحصان المسمى «طوفان» عطشه، خلع صاحبه عمامته ومعطفه الفارسي القصير، ثم طوى أكمام قميصه المصنوع من الكتان الذي يسمى «كورتا» بالتركية، ورفع سرواله الفضفاض ذا النمط الوسط آسيوي قليلاً، كما خلع حذاءه المدبّب ذا الكعب العالي، وانحنى أمام ضفة النهر ليتوضّأ. خبا ضوء النجوم، وبدأت أجراس المعبد ترن في مكانٍ ما بعيد. غسل الشاب وجهه وذراعيه وقدميه ثلاث مرّاتٍ، ثم مسح رأسه بالماء ونهض. بسط منديله الكبير المصنوع من الحرير المشيّد في زاويةٍ من المسرح الهابط الذي

يواجـه الغـرب، ولبـس عمامتـه، وبدأ يـؤدي صـلاة الفجر مثـل الدراويش المقيمين على الطرف الآخر من النهر.

وبينما كانت الأشـجار تهمهم بأغنية الطيور، فرغ الفارس من أداء صلاة الفجر. لبس حذاءه مرّةً أخرى. إنَّ عدم ارتداء المرء لباساً مناسباً حتى لو كان في غابة نائية يعدُّ من العادات السيئة.

كان حصانـه يرعـى في الحقـول، أمّـا هو فقد تنـاول فطوره الـذي يجهزه الصوفيـة للفقـراء على جانـب الطريق أو في محطّـة البريد حيث كان السـعاة الملكيّـون يبدّلون الأحصنة. على أي حال، يجب أن ينتظر هنا ليودّعها. قالت إنهـا تجيئ إلى هـذه الغابة في الصبـاح الباكر لتجمع الأزهار، كـي تقدمها إلى الأصنام التي تعبدها، لقد خرج مسرعاً من فندقه ليلقاها. نظر إلى نهر ساريو بقلـقٍ، جلس تحت شـجرةٍ محمّلةٍ بثمار المانجو اليانعـة. كان أصحابه من أهل الديانة نفسها يطلقون عليها ثمرة الجنة، أتباع الإسلام يشكرون الله على نعمه كـما يفعل اليهود التلموديـون في كل موقفٍ من مواقف حياتهم، إذ يعدُّ العالم بأسره مائدةً واسعةً تشهد بنعم الله وآلائه التي لا تعدّ ولا تُحصى.

مرّت سـفينةٌ تحمل مطربي الأغاني التعبّدية الهندوسـية في الصباح الباكر، وهـم يـردّدون دعاءً كتبه كبير داس، النسّـاج الذي عـاش في مدينة بناراس، ونال شـهرةً بوصفـه صوفيّاً. لم يجد أي أثر لتشـامباواتي بعـدُ، فقرر أن يتكئ على الشـجرة، وطفـق يتأمّل هذه الظاهرة الصوفية. معظـم المتصوّفة ينتمون إلى طبقة العمال، مثل منصور الحلاج الذي كان يتاجر بالصوف القطني. كان المِتصوّفـة في الهنـد رجـالاً متواضعين مشـغولين بجذب عامّة النـاس إليهم. ذكّره هذا بكتابه الذي يكتبه عن هذا البلد. بدأت الشـمس تشرق، ففكّر أنه قد ينظر في مسـّودته، وهو ينتظرها، فأخرج قلماً ومحبرة وكرّاسـةً ذات جلدةٍ

مغربيّـةٍ نصـف صفحاتها بيضاء. فتح الكرّاسـة وبدأ يتحسّـس هنـا وهناك، وواصل القراءة...

1

أنـا، عبد المنصـور كمال الدين من مدينة نيسـابور، أبدأ باسـم الله الرحمن الرحيـم كتابة رحلتي هذه التي سـمّيتها «*عجائب الهند وحكاياتها الغريبة*».

وقـد ذكـرت في المقدمـة كيف أن والـدتي السـيّدة المحترمـة النبيلـة الشريفة المنحـدرة من أصول ساسـانية ملكية تزوجت والدي الصيـدلي العربي الذي استقر في خراسان. وبما أن والدتي فخورة جداً بأصولها الفارسية (وهو موطن ضعـفٍ يشـترك فيه جميع مواطني البلد)، فقد رغبـت في أن أدرس في مرو أو بلـخ أو هرات أو حتى أذهب إلى سـمرقند، وأنضـم إلى مرصد في ألوغ بيغ، ولكنّني كنت مولعاً أكثر بعلم التاريخ وعلم اللغة. وفي ذلك الحين زار بغداد أسـتاذٌ من تونس كان قد تتلمذ على يد أحد طلاب العالم الكبير ابن خلدون، فغادرت نحو العراق، وبعد فترةٍ من الزمن نِلتُ شـهادة التخرج، وحصلت على العمامة كعلامة على التميّز العلمي.

التقيت في تلك الفترة بجماعةٍ من الأندلس ذوي عيون سوداء، جاؤوا من غرناطـة في رحلة حـج إلى مكّة، وقد تنقّلوا بين المدن حتـى وصلوا إلى بغداد بحثـاً عن الرزق. كانوا يقيمون في الرباط،وينتمون إلى الإخوان الأندلسـيين المتصوفـين الذين يملكون نُزُلاً على شـاطئ نهر دجلة الغـربي. طالما التقيتهم في مطعـمٍ قريبٍ مـن النهر. كانوا يتحدثـون فيما بينهم باللغة الإسـبانية التي تحـوي كثيراً مـن الكلمات العربية، كما كانوا يكتبون الإسـبانية بالخط العربي، ويتباهون بأمجادهم وإنجازاتهم الماضية. ولكن لم يكن لديهم شيء يقدمونه في

العهد الحاضر. ذات مساءٍ قالوا: «كنّا معلمين لأوروبا النّصرانية المظلمة على مدى سبعة قرونٍ، كان طلابها يتردّدون إلى جامعات قرطبة ومالطا وأشبيلية، أو يسافرون إلى الجامعات المسلمة في صقلية...».

جابهتُه مستفهماً: «هل منع ذلك كلّه النّصارى من محاربتكم؟ وكيف ساعدكم فكر ابن عربي الفلسفي الديني؟ وهل حقق ذلك السلامَ والأمنَ بين النصارى والمسلمين؟ الحقيقة، أيها الأصدقاء، أنّ سياسة القوة لا تهتم أبداً بالتصوف والعلم وما إلى ذلك». كنت قد درست علوم ابن خلدون، كما أعجبتُ بأفكار ابن تيمية المناهضة للتصوّف والتشيع، يقدّم كلا الجانبين حججاً قويّةً على هذا السؤال. أنا شخصياً، بوصفي ابناً لأمٍّ شيعيّةٍ أجدني منجذباً إلى عقلانيّة المعتزلة، وقد أحرجني دوماً صراع المذاهب المختلفة والمتناقضة.

بدا الأندلسيون غير سعداء، فظلّوا صامتين. ومما زاد الطين بلّةً أنّ شخصاً متملّقاً (يطلق عليهم دائماً المتملقين) من المشرق العربي، وقد كان أحد معارفي، جاء وانضمّ إلينا. فأحضر مالك المطعم الإغريقي الطعام له. كان عددٌ من اليهود يجلسون بالقرب منا يتكلّمون عن مستودعاتهم الجديدة في الأناضول، فطرأت لي فكرة، وقلت في نفسي: بما أنّ هذا العهد هو عهد الأتراك، لِمَ لا أذهب إلى غرناطة، وأُعلِّم اللغة التركية هناك»؟ سألت شخصاً من المشرق العربي إن كان قد سمع عن سفينةٍ جيّدةٍ تحملني إلى شواطئ الخلافة الإسبانية.

«الأندلس»!، ردّد الرجل في استعجابٍ، ثم قال: «ذلك البلد الآن يعيش في خضم اضطراب سياسي، وبسرعةٍ أكثر مما تتوقع، قد يحلّ الصليب محل الهلال. انس ذلك». مال إلى الأمام، وهمس بغمزة مرحة «إذا أردت أن تعرف

أخبرك: نحن النصارى في صعودٍ في الغرب، والأتراك والسلاجقة والمماليك والعثمانيون في الشرق. يقيم الأتراك في الهند مملكةً تلو أخرى منذ ثلاثة قرونٍ على الأقل. اذهب إلى الشرق، صديقي، فقد ضيعتم الأندلس للأبد».

أحسستُ بغضب شديد، إلاّ أنني بقيت صامتاً. ربما بكى أصدقائي الأندلسيون على هذا الكلام.

«الهند»، واصل الفينقي «هي أرض المستقبل. وقد صارت مصر بالفعل أكبر مستوردٍ للقطن الهندي. جميع الأوروبيين والإيطاليين والفينيسيين يريدون التجارة مع الهند. استمعوا إلى هذا البحّار القديم أنّو دوميني سنة العفو 1476 بعد الميلاد. في السابق صنع علامة الصليب ومضى قُدُماً: «إذا كنت في الثانية والعشرين من عمرك وذهبت الآن إلى هناك حيث تزدهر التجارة والصناعة ازدهاراً هائلاً فإنك ستصبح ثرياً في وقتٍ قليلٍ». لوّح بيده المكتنزة التي كانت تلمع بالخواتم الماسيّة من غولقنده! لقد عدت تواً من غوجرات. يمكنك أخذ الطريق السريع إلى الشمال».

أجبته بحزمٍ مشابهٍ «أنا لست بتاجرٍ، معظم التجار الخراسانيين يذهبون إلى الهند، أعرف فقط نظريات ابن خلدون، وفلسفة الرازي، والمواضيع المتعلّقة بها، وهي لا تدرّ مالاً وافراً».

«لا بأس، علمتُ أنّه توجد بعض الكليات في السلطنات الجنوبيّة: في مدينة ملتان ولاهور وجونفور وغيرها. وعليه أرى أنه يمكن أن تعيّن أستاذاً في إحدى الكليات، كما يمكن أن تعيّن قاضياً في إدارة بعض سلاطين الهند».

انعكست أضواء المدينة على نهر دجلة، ثمة بيانات لشهود عيان حول المجزرة التي وقعت في المدينة، حين تلوّنت مياه هذا النهر باللون الأسود بسبب حبر عشرات الآلاف من الكتب التي رماها المغول الوثنيون في النهر،

بعد أن هدموا مكتباتها. سقطت أثينا مرة أخرى مع سقوط بغداد في عام 1258م من التقويم النصراني، ولم نتمكن قط من التعافي بعد هذا التاريخ.

والآن بفضل الله، دخل الإسلامَ حتى الأشداء من الناس كالتّتار والخان من جميع أنحاء روسيا، كما تقول أمّي فقد قامت إيران بتحضيرهم لذلك. ومع أنّ المغول في الشرق الأقصى بدأوا يعبدون الحجرة العملاقة عن غوايةٍ، فإننا نجد في آسيا الوسطى وأرض الأفغان أن أتباع بوذا قد قبلوا الدّين الحقيقي منذ زمنٍ طويلٍ.

وبعد مغادرة الفينقي قال أحد الأندلسيين في حسرةٍ: «هل تعرف يا أخي كمال، أن قاضياً من طليطلة كتب ذات مرّةٍ أنّ الهنود والإغريق والروم والعرب والإيرانيين هم الذين زرعوا المعرفة، في حين كان الناس في شمال أوروبا همجيين وغير متحضرين، وأنه سوف يأتي زمنٌ يحكم فيه هؤلاء الهمجيّون العالم كلّه».

كان الحديث عن ضياع الأندلس مؤلماً للغاية. غادر الأندلسيون الغرباءُ المساكينُ المكانَ متجهين إلى الرباط، بعدها رجعتُ إلى سكني غارقاً في فكرة الرحيل إلى الهند من جديدٍ.

سبق لي أن قرأت كتاب البيروني والإدريسي، وكذلك نظرتُ في موسوعة ابن سينا في الدراسات الطبيّة والجسديّة الصوريّة، وقرأتُ كتاب البيروني عن الجغرافيا الرياضية. كانت كتب الرحّالة الأوائل مثيرةً، لكنّها قديمةً، وكذلك خرائط العالم الملونة التي أعدها علماء الجغرافيا والفلك الأوائل من العرب والفرس. لقد ركدت المعرفة والعلوم العربية، وحذونا حذو الإسبان في تمجيد الماضي. اشتريت إسطرلاباً وساعةً منقولةً من دكان يبيع مستلزمات السفر. وبما أن الناس يواصلون الخروج في رحلات طويلة، فإن الأسواق

تزخر ببضائع السفر، لأجل ذلك، دهشت في أولى رحلاتي إلى الهند، حين علمت بأن الهندوس لا يخرجون من الهند خشية فقدان الهوية الطبقيّة، مهما يعني لهم ذلك، على الرغم من أنني قرأت أنّ الهندوس والبوذيّين القدامى كانوا يخرجون في رحلاتٍ بعيدةٍ طويلةٍ، حاملين معهم معرفتهم أينما ذهبوا.

اتجهت من السوق إلى سكرتارية المحافظة، حيث أخبروني بأنه منذ عهد محّمد بن تغلق، يتمّ التحقق من مستندات كافة الأجانب بشكل دقيقٍ في محطّات التفتيش الحدودية في الهند. بينما كنت أتحدث إلى المسؤول الأرمني، طارت حمامةٌ وجلست بذكاء على مكتب الكاتب: «رسالةٌ من فخامة السّلطان المملوكيّ من القاهرة». ابتسم النصراني الأرمني. أتمنى أن تمتد شبكة مراسلات الحمامة هذه إلى مدينة نيسابور، كي أتمكن من إخبار والدي بوصولي قريباً.

2

تعجُّ مدينة نيسابور بالشعراء، وهم عادةً ناقمون على العالم الأوسع. يجتمعون معاً في الحانات لانتقاد الحكومة ورجال الدين الذين يتواطؤون مع السلطات الحكومية، وهذا أحد أسباب شهرة المتصوفة المناهضين للحكومة لدى الشعراء.

ذات مساءٍ اصطحبني شاعرٌ، وهو ابن عمتي، إلى وكره المفضل، حانة يديرها زرادشتي متوعّك ذو أنفٍ معقوفٍ كمنقار صقرٍ، وكان عبدة النّار الشبان «موغ بتشا» أو أبناء «ماغي» يقدّمون الخمور. سألني أحد أبناء ماغي «ألست شغوفاً ببنت العنب»؟ (لسوء الحظّ، فالحال كما كان في زمن الإغريق القدامى، الكثير من الناس في إيران يميلون إلى هذا الاتجاه أيضاً). أجبته

بالنفي. كان مرتادو الحانة الجالسـون على السّجاد يقتبسون كثيراً من قصائد حافظ، والناس يدخّنون الأفيون في وكرٍ قريب.

راحت جاريةٌ شركسيّةٌ جميلةٌ ترقص. يؤكّد القرآن وأحاديث النبي محمّد أنّ إعتاق الرقيق يجلب الثواب، لأن العبيد أيضاً يستحقّون أن ينالوا الحريّة. وقد يصبح بعضهم ملوكاً... كان يتم تدريب الرجال من الرقيق من منطقة القوقاز ليصبحوا جنوداً، وفيما بعد امتلكوا قوةً، وأنشأوا عائلات سياسيّة. انظروا إلى ملوك الهند من الرقيق والمماليك في مصر!

لاحظ الزرادشتي القديم الخانة بعينيه المقنعتين. لقد شهد مدّ الوقت وجزره مثل الفينقيين. لقد جعلني الزرادشتيون الإيرانييون حزيناً دائماً. فيما مضى كانوا أسياد هذه الأرض، أما الآن فقد انحسر دورهم وأصبحوا بائعي خمورٍ، وفرّ البقية إلى الهند حاملين معهم نارهم المقدسة مثل اليهود الذين كانوا في وقتٍ ما يتنقّلون من بلدٍ إلى آخر حاملين معهم تابوتهم. في العصور الأخيرة، فرّ متصوفونا ومفكرونا إلى الهند مع كتبهم لتجنب الاضطّهاد على أيدي المغول الوثنيين الغزاة. ترمز الحانة في الشعر الفارسي إلى الفكر الحر، وأبناء ماغي هم السقاة، أما التركي الوسيم الشجاع فبات كنايةً عن الحبيب المتحجّر القلب. هكذا نرى في دلهي أنّ السادة والأفغان حلّوا محلّ التركي الوسيم الرائع.

لقد كانت محطّات القوافل الدوليّة في مدينة نيسابور تعجّ بمجموعةٍ مدهشةٍ من الأجناس والأعراق، فنجد فيهم الروس الأقوياء الذين يرتدون الفراء، والتركمانيين المتبجّحين ذوي القبعات المصنوعة من الفراء، والجورجيين أصحاب الخنجر السعيد. أما الصينيّون ذوو المعرفة فيتاجرون في اليشم والحرير والأواني الخزفية. كانت قوافل الجمال والحيوانات من كافة

الأشـكال تغادر في جميـع الاتجاهات، وتُحمَّـل بالبضائع وحقائـب الركاب. بدت كما لو أنّ سـفينة نوحٍ وبرج بابل قد طويا في شـكلٍ واحدٍ، كانت ضجة الصرّافـين مرهقـةً للأعصاب. حجـزت مقعداً في السرج على جملٍ من آسـيا الوسـطى غريب المظهـر. قال لي أبي: «اطلب أشـقّاءك وإخوتك من أعمامك أيضاً، حينما تنال وظيفةً في الهند».

3

اشـتهر الإيرانيون بالتسـميات الرائعة، فأطلقوا اسـم «روس» على ذلك الجـزء من الأرض الذي يقع وراء أوكسـوس حيث يلمع نهـر أولغا، وكلمة «روشن» بالفارسية تعني الضوء. في حين أطلقوا على المنطقة التي جئت منها بعد رحلةٍ طويلةٍ شـاقّةٍ من ماوراء معـبر خيبر «بنج-آب»، أي أرض الأنهار الخمسة. كما أنّ الإيرانيين أطلقوا اسم «الهنود» على سكان الهند، وسموا البلد «هندوسـتان» ولفظة «هندو» تعني السّـواد بالفارسـية. قال حافظ شيراز في بيتـه الشـهير المتواتر كثـيراً، «يمكننـي أن أتخلى عن سـمرقند وبخارى مقابل الغمزة السوداء على خدّها!».

لم يكن الكفّار في هذه المناطق سـوداً، بل كانوا سـمراً ذوي عيونٍ شهلاء. مضينـا في رحلتنا نحـو الجنوب، فأصبحت الشـمس أكثر حـدّةٍ، رأينا هناك بعـض الهندوس. بعد عبـور محطّات قوافل الجمال، وصلنـا إلى مدينةٍ صغيرةٍ تعـرف بـ كيتهال، وهـي مدينةٌ صغيرةٌ مغـبرّةٌ تقع في الطريـق إلى دلهي. وفي مدينـة لاهور، انضم مسـلمٌ من بنجاب إلى القافلـة، وأصبح صديقاً لي. كان يسافر إلى دلهي في مهمّةٍ تجاريّةٍ. أقمنا ليلتنا في محطة القوافل المحلية، في المساء ذهبـت إلى الخارج للتنزّه برفقة صديقـي من بنجاب، ومررنا ببركة ماءٍ حيث

كان عددٌ كبيرٌ من النساء الوثنيّات يستحممن، وهن يغطّين أنفسهن بلباس طويلٍ غير مخيطٍ، لا ينظر إليهنّ أحدٌ..

جـذب انتباهي مكانٌ قفرٌ رمـاديٌّ، مغطّىً بنباتات القرّاص والأشـواك. لقد سـاد جو حزين في المنطقة، ومرّ بنا راعـي أبقار، فأخبرني أنّ مسرح حياة الملكة السلطان رضية قد وصل إلى نهايةٍ مفاجئةٍ في غير أوانه في هذا المكان.

بـدأت أفكّـر في مسرح الحياة، فـشرح لي رفيقي أنه لا يعـدو كونه مسرح الحيـاة الغامـض. أعجبني هـذا التعبير الذي اسـتخدمه مزارعٌ غـير مثقّفٍ. أليست حياة الجميع مسرحيّة غامضة؟ قال لي صديقي الخبير في الهند: «حتى الهنود غير المثقّفين لديهم عقليّةٌ فلسفيّةٌ، إنهم يؤمنون بفلسفة الـ«كارما»[1]». حكى لي كذلك عن رضية، الملكة الرائعة التي أحبّت أن تُلقّب بـ«السّلطان» عوضاً عن «السّلطانة». لقد اغتيلت في ظروف مأساويّةٍ عندما كانت تستريح تحت شـجرةٍ مع زوجها في طريقها إلى دلهي. قُتلـت في هذا المكان بالتحديد، الـذي نقـف فيه، قبـل مائتي عام. كان مجلسـها الوزاري المتكـون من أربعين وزيراً يسـتنكر سياسـاتها المسـتنيرة. قال راعي الأبقار: «كانت تحظى بسمعةٍ جماهيريّةٍ واسعةٍ عندنا نحن جماعة الزط والكهوكار».

قـال صديقي مـن بنجاب: «كان قتلهـا انتصاراً سيّء السـمعة لمعارضيها الذيـن قالـوا إن اللصوص هـم الذين قتلوهـا، لكنّ الحقيقـة أن اغتيالها كان بدوافع سياسيّةٍ».

واصـل راعي الأبقار حديثه «كانت السـلطان رضية تريـد إلغاء الضّريبة

(1) كارما (باللغة السنسكريتية: कर्म) وتعني العمل أو الفعل. هي مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية والبوذية واليانية والسيخية والطاوية. ويشير إلى مبدأ السببية، ذلك أن النوايا والأفعال الفردية تؤثر على مستقبل الفرد.... وترتبط الكارما مع فكرة الولادة الجديدة في الديانات الهندية.

التـي كنا نحن الهندوس ندفعها مقابل الخدمة العسـكرية، مهلاً.....». دخل كوخـه القريـب، وأتى بعملةٍ فضيّـةٍ. «وجدتها هنا في الحقـول، خذها كهديّة تذكاريّة».

أخذت العملة منه، وشـكرته بأسلوب المجاملة الفارسية، وقد بدا دهشاً إذ لم يتعود على تلقّي كلمات الشـكر على أي صنيعٍ. نظرتُ إلى العملة بعنايةٍ، فوجدتُ اسـم السـلطان رضية منقوشـاً على أحدِ وجهيها، أما الوجه الآخر فيحمل صورة للإلهة الأنثى.

قـال راعـي الأبقـار بسـذاجةٍ ومضى مـع جاموسـه: «هي صـورة الإلهة لاكشمي».

استغربتُ من أمر هذه السيدة التي عرفت كيف تحكم إمبراطورية واسعة وشـعباً ينتمـي إلى ديانات مختلفة مناهضاً للأتراك عمومـاً. لقد كانت تنحدر مـن أصول الملـكات التركيّات الإيرانيّـات القويّات، بيـد أنّ العالم لا يعرف عنهنّ إلاّ القليل.

وضعـت العملـة في جيبـي، وعـدت إلى الـسراي. لقد بـدأت الهند فعلاً تعلّمني الكثير من الدروس.

كانـت دلهـي أو دِلّي مقراً لبهلول لودهـي الملك الأفغاني الأوّل في شـمال الهنـد. ونظراً لكونها عاصمة الهند، فهي دائـماً موطنٌ للمؤامرات والأحزاب السياسـيّة والشـائعات. يجتمـع الكتّـاب العاطلـون عـن العمـل والشـعراء الباحثـون عـن الرعايـة الرسـميّة في حاناتهـا ومطاعمهـا، ويناقشـون أمـور السياسـة. كانـت الهجمات المتواترة التي يشـنها ملوك جونفـور تعتبر مصدر إزعاجٍ مستمرٍّ، على الرغم من ذلك فإن الحياة تمضي.

صادفـتُ واحـداً من معـارفي القدامى المتصوفـين من مدينة نيسـابور في

حشدٍ من المتعبّدين، فأخذني إلى سكنه الذي يقع في مجمّع التكية. وهو كشكٌ جميلٌ مصنوع من الحجر الرمليّ الأحمر. قال لي الدّرويش باسماً: «لقد أقام ابن بطوطـة هنا أيضاً». بعد ذلك أخبرني بأنه كان يقيم في سـكنٍ كبيرٍ للمتصوّفة في مدينة جونفور في الشرق، عاد منها بعد أيّام قليلةٍ. لقد بدا لي أنه موجودٌ في الهند، كما هو في أفريقيا الشماليّة والأراضي التّركيّة.

ثمّـة شـبكةٌ مزدهـرةٌ فعّالـةٌ للمتصوفّـة توفـر دور الرعايـة، والمدارس، والمطابـخ المجانيـة التـي يُنفق عليها مـن المنح الأرضيـة التي يعطيهـا الملوك والنبـلاء. في زمـن السـلطان فـيروز تغلـق، كان في مدينة دلهـي وحدها مائة وأربعون تكية، ربما ازداد عددها الآن.

«لمـاذا لا تذهـب إليها؟» لقد أصبحت العاصمـة الأكاديمية الجديدة لهذا البلـد، كـما باتت مركزاً لامعاً للثقافة العاليـة. الآن يوجد فيها جامعةٌ، وعددٌ لا يحـصى من الكليـات، كما يعيش فيها الآلاف من العلـماء والكتّاب. يتوافد الجميع إلى مدينة جونفور التي يُعدّ ملكها موسيقاراً شهيراً. يعتقد السّلاطين في جونفور أنّ أنسابهم تنحدر من النبيّ، والله أعلم بهذا الأمر. إنّهم يزوجون بناتهم من الدّراويش السادة. ويمكن لسيّدٍ شابٍ واعدٍ مثلك أن يتزوّج أميرةً مـن جونفور في يومٍ مـن الأيام، إذا حالفك الحظ. أنا أعرف الملك، وسـوف آخذك معي للقائه».

11

مدينة جونفور الجامعية

تقـدّر أجـرة عربة النقل من دلهـي إلى جونفور بـ تانـكا[1] بهلولية واحدة. إلا أنّنـي كنت قـد ابتعت حصاناً عربياً رائعاً سـمّيته «طوفـان». أما صديقي الدرويـش الفارسي فركب بغله المتواضع، كونه رجلاً فقيراً. وعلى هذا الحال مضينا معاً في اتجاه الشرق.

اشـتهرت مدينة جونفور كسـلطنة الـشرق أو المملكة الشرقيّة. أُسِّسـت قبل نحو سـتة وسـبعين عاماً على يد الملك سرور الذي كان رقيقاً في السـابق ومحافظـاً لإحـدى الولايـات، ولقـد انتهـز فرصة اسـتيلاء تيمـور على دلهي وأعلن استقلاله.

قـال صديقـي الدرويش الذي يركـب بغله بجانبي عـلى الطريق: «أعمال هـذا السـلطان وتصرفاته رائعةً جـدّاً، وطريقته في العمل بسـيطةٌ دقيقةٌ. كلّما فقدت الحكومة المركزية سـيطرتها على المحافظات، قامت المحافظات بحشد قواتها العسـكرية وحصلت على دعم بعض المتحالفـين، وهم في الغالب من زعـماء راجبـوت الهندوس، ومـن ثمّ تعلن اسـتقلالها. إثر ذلـك تحصل على أمـر ملكي من خليفة الإسـلام الرمزي الذي يعيـش في القاهرة. ووفقاً لأمر الخليفـة الملكي، يصبح حاكمها نائب الخليفة، وتُقرأ خطبة الجمعة باسـمه في

---

(1) عملة تانكا هي سلف الروبية الهندية الحالية، التي صاغها بهلول لودهي.

المسـجد الجامع وفي جميع المسـاجد التي تقع تحت سـيطرته، بدلاً من أن تُقرأ باسم الملك الحاكم في دلهي. ويمكنه عندئذٍ أن يصوغ عملته، ويرسل سفراءه إلى الخـارج. وسـوف يتّخذ الألقـاب الفاخرة التي اتخذها الملـوك الإيرانيّون القدامى، ويستمرّ الحال على هذا المنوال، حتى تحلّ محلّه سلالةٌ أخرى.

«لو كان ثمة ملكية في الإسـلام، لوُضِعَ بالتأكيد قانون يقضي بحق الابن الأكبر في الإرث، لكن الثابت هو أن الأبناء يحصلون على حصص متسـاوية في ممتلـكات آبائهـم. أمـا إذا كان الأمر يتعلق بالعرش الملكـي، فمن المعقول أن يتحارب جميع الإخوة فيما بينهم من أجل الحصول على العرش الملكي».

أخـذ الزاهد نفسـاً عميقـاً، وأضـاف قائلاً: «تقـع مجازر كبـيرةٌ من أجل السيطرة على العرش الملكي». في مدينة جونفور ورث الملك سرور في الحكم ابنـه بالتبنّي، مبارك شـاه، ثم اسـتولى على العـرش أخوه إبراهيـم الذي كان ملكاً جيّداً، إنه ابن أخ خضر خان، مؤسـس أسرة «السـادة» الزّائفة في دلهي. كان جيـش إبراهيم شـاه يتكون مـن الكتائب المميزة لراجبـوت والعراقيين. وهؤلاء السـلاطين من مدينة جونفور مدمنون على شـّن الهجمات على دلهي، إذ يقومون بها بشكلٍ منتظم جداً.

لّمـا اقتربنـا مـن مدينة جونفـور، دُهشـتُ كثـيراً بمنظرها الجميـل: قبابها العالية، ومناراتها الرفيعة، وقمم معابدها الذهبية التي لاحت من بعيدٍ.

حكى لي صديقي النّاسـك الذي كان معي: «حينما خرج السـطان فيروز شـاه لمحاربة السـلطان سـكندر في بنغال، توقّف هنا، وأسّـس هذه المدينة». كان إبراهيم شـاه مؤسساً فذاً؛ يمتلك كتيبةً كبيرةً من أفيال الحروب، ترعاها جماعـةٌ مـن الجرّاحين البيطريـين. حين هاجم دلهـي، طلب السـيد الملك منه الأمـان، وزوّج ابنتـه بي بي راجـي من الأمـير محمود خان ابـن الملك إبراهيم

شـاه. توفي أبوها، فتخلى أخوها غير المؤهل علاء الدين عالم شـاه عن حكمه لبهلـول لودهي. وحينما أصبح محمـود خان ملكاً، قالت له بي بي راجي: «إذا لم تهاجم أنت دلهي، سـأقود الجيش بنفسـي، لأن ذلك العرش ملك لأسرتي، لقـد كان أخي غبياً إذ ترك العـرش». ومن ثمّ قام محمود بمحاصرة العاصمة في الوقت الذي ذهب فيه السلطان بهلول بعيداً إلى سرهند. كانت عمة بهلول بي بي ماسـتو هي المسـؤولة عن القلعة. وكان القليل من أعضاء أسرة لودهي موجودين بداخلها. طلبت بي بي ماسـتو من النساء أن يرتدين أزياء الرجال، وأرسـلتهنّ إلى الأسـوار، فَلُحـن من بعيدٍ كما لو أنهنَّ جنـود، ومن ثم طلبت من الرجال القليلين الموجودين داخل القلعة أن يواصلوا إطلاق السـهام بين فينة وأخرى على الأعداء لإشعارهم بأن القلعة محصّنةً ويدافع عنها الرجال.

«عاد السـلطان بهلول إلى دلهي، وانتهت المعركة الناشـبة بسـبب ارتباكٍ، كانـت بي بي ماسـتو لا تـزال تحـرس القلعـة، وحـين وصلهـا نبـأ أن الجنود الشرقيـين بدأوا يهربون، سـألت الرسـول فيما إذا كان الجنـود يهربون صوب خيمة ملكهم أو في اتجاه مخيماتهم، فأجابوها: صوب مخيماتهم، يا سيدتي. وبناءً عـلى ذلك أصدرت أمراً بأن تُدقّ طبول الحرب فوراً. وقد أزعجت أصوات طبـول الانتصـار في الحرب قـوات الشرقـيّ كثيراً. عـاد محمـود الشرقي إلى جونفـور، لكنـه هاجم دلهي مرةً أخرى قبل وفاتـه دون أن يحقّق نجاحاً. بعد ذلك نَصَّبت بي بي راجي ابنه المفضل بهيكان ملكاً باسـم السلطان محمد شاه. ولعـل الأمير وُلِـدَ نتيجة دعوات كثـيرة إلى الله، ووُضع في ذمـة أحد الفقراء كرمـزٍ للقرابين. انظروا ماذا صنع مع أسرته لما صار ملكاً! كان مزاجه سـيئاً، وأصبح حاكماً فظيعاً. أما بي بي راجي فكانت بارعةً في إدارة شـؤون الدولة، وكانت تتمتع بقوة سياسية كبيرة على غرار أمهات السلاطين الأتراك، وتحبّ

ابنها محمد شاه حبّاً جمّاً، وفي الوقت نفسه كانت تخافه بسبب استبداده. ولما اغتال أخاه الأمير حسن، قال لأمه: يا أمي! سيواجه أبناؤك الآخرون المصير ذاته إذا لم تتوقفي عن التدخل في أموري».

«كانت بي بي راجي تقيم في مخيم عسكري في إيتاواه، فعقدت اجتماعاً طارئاً مع نبلائها، وفصلت محمد شاه من الحكم، ونصّبت ابنها الصغير حسين حاكماً. في ذلك الحين أصبح ثمة ملكان في جونفور، فتحارب الأخوان. كان محمد شاه رامي سهام مميزاً، لذلك لما أراد أن يرمي أعداءه بسهامه، وجد سهامه غير مجديةٍ، لأن أمه جرَّدتها من رؤوسها الحديدية. في النهاية قُتل محمد شاه».

«حسين شاه موسيقارٌ مميّزٌ، ورث مملكةً كبيرةً، تمتدّ إلى حدود البنغال. الآن يمكنه أن يستريح ويكرّس أوقاته للموسيقى، غير أن زوجته، بي بي خونزه، مثل أمه بي بي راجي، فهي ابنة أخ بي بي راجي علاء الدين شاه، ألحّت على حسين شاه أن يستولي على دلهي».

بدأ رأسي يدور لمّا سمعت هذا الهراء. ومع ذلك شعرت بأنني بدأت أفهم السياسة الهنديّة. يريد الجميع أن يستولوا على دلهي، ولتحقيق هذا الهدف يبرمون التحالفات، وينقضونها أو يستبدلونها، ثم يخوضون الحروب.

دخلنا عبر بوّابة المدينة، فدهشت بعظمة المباني وفخامتها، شيّدت على غرار المباني المصريّة. بدأت أشعر بأن حياة الملوك والملكات الذين يعيشون داخل هذه القاعات النبيلة حافلةً بأنواع الدراما، والمآسي، والانتصارات. يتمثّل شغفهم الأكبر في حيازة القوة وتحقيق المجد، حتى ولو للحظاتٍ عابرةٍ. أقمت في أحد الفنادق العديدة التي شيّدها الملك الفاضل إبراهيم. كان كلّ سراي يضم حديقةً وبئراً ومسجداً ومطبخاً مجانياً، كما يوجد فيه

موظفون ومطبخٌ للمسافرين الهندوس على حدةٍ.

كان جلالة الملك محارباً، لكنّه اشتهر أيضاً باسم السلطان حسين «نايك» أي الفنّان التمثيلي، وقد ألّف عدداً من الألحان («راغاس» و«راغيني» أشبه بالمقامات عندنا). وسمّى ألحانه «الخيالات» التي تعني الأفكار في اللغة العربيّة. تُعدُّ مدينة جونفور وغواليار مركزين كبيرين للموسيقى الكلاسيكيّة اليوم، فثمة زيارات متبادلة واسعة بين أعلام الموسيقى في المدينتين. على عكس بهلول لودهي في دلهي كان السلطان حسين مزهوّاً بنفسه كالطّاووس. لقد كان شغوفاً بالنساء والخمور، أطلق عليه في زمانه لقب «الفنان الأعظم» نظراً لبراعته في الموسيقى الكلاسيكيّة الهنديّة وعبقريّته الإبداعيّة. لعلّه أوّل ملكٍ في العالم يحمل لقب الفنّان التمثيليّ. كان بلاطه يضمّ كوكبةً من الموسيقيين المشهورين الذين كانوا يعيشون في حي مثيرٍ للاهتمام، يطلق عليه «دهاري تولا»، لفظة «دهاري» تدل على اسم الطبقة، وكلّ شخصٍ في الهند ينتمي إلى طبقة معينة، أما طبقة «دهاري» فكانت تضم أشخاصاً من الهندوس والمسلمين.

ذات يومٍ بعد الظهيرة، أخذني مرشدي الفارسي إلى جنّت محل المطل على فلوور تانك أو خزان الزهور. بعد الخضوع لتشريفاتٍ كثيرةٍ، مثلنا أمام الملك، فوجدنا جلالته جالساً على مسندٍ يستمع إلى لحن طبلةٍ. لا يمكن لأحدٍ أن يتصوّر كيف تمكّن هذا الموسيقار اللطيف من السّيطرة بالقوة على محافظات أوريسا وغواليار والمقاطعات العديدة الأخرى في سلطنة دلهي. وقد برز إبراهيم الشرقيّ أيضاً ملكاً قويّاً مثل جدّه. أخبرني الناس أنّه هاجم دلهي بجيشه الضّخم وأفيال الحرب عنده منذ سنتين لا أكثر. طلب بهلول لودهي بتواضعٍ أن يُسمح له بالبقاء في دلهي كمحافظٍ للشرقيّ، فأجابه الملك

حسين شاه بغطرسةٍ «اذهب إلى الجحيم»، لقد حارب الأفغان ضدّه بكل شراسةٍ، ونكث الكثير من العهود مع اللودهيين في سعيه الحثيث إلى اكتساب القوّة الإمبراطوريّة.

لم ألتق قطّ بأيّ ملكٍ من قبل. لقد بدا ملكاً جليلاً متغطرساً، على الرّغم من أنّه بدا سعيداً لّما رأى شهادات تفوقي في اللغات العربيّة والفارسيّة والتركيّة والإغريقيّة الكلاسيكيّة. تقدَّم مساعدٌ له إلى الأمام، فقال له جلالة الملك شيئاً ما باللغة الهنديّة المحليّة، ثم التفت إليّ وقال: «والآن يجب عليك أن تتعلّم لغةً أخرى، أيها الشاب؛ اللغة السنسكريتية، لديّ عملٌ مهمٌّ سأكلّفك به». كنت في ذلك الوقت عاجزاً عن الكلام، ولم أكد أصدّق أذني لّما سمعت ذلك.

باختصارٍ، عُينت مشرفاً على الخطّاطين والنسّاخين في دار التدوين، والتحقتُ أيضاً بمكتب الترجمة. وقد منحوني رداء الشرف التقليديّ ودواةً فضيّةً وقلماً، لتوكيد تعييني. طَلبتُ أن أذهب إلى سكرتارية القلعة، لأحصل على أوراقي. لقد راقت لي جميع هذه الأمور التي أثلجت صدري. ومثل الملك فيروز شاه تغلق الذي رعى ترجمة عدد كبير من الأعمال السنسكريتية إلى اللغة الفارسيّة، كان الملك حسين شاه شغوفاً بالكتب القديمة أيضاً.

ولأجل ذلك، يسعدني اليوم، أنا كمال الدين، أن أدوّن لصالح الأجيال القادمة بأنني أعيش في ظلّ حكم السلطان حسين شاه الشرقي الذي يتحكّم في مجريات الليل والنهار، ويبني المدن على أساس العدل، ويعدّ خاتم حكمه مثل خاتم سليمان، كما أنه فائق الجمال مثل داريوس، وأنا ذرّةٌ من الغبار استضاءت من نور الشمس التي تعرف بالملك الجليل لسلطنة الشرق، والحمد لله على ذلك.

سعر السوق اليوم: كلغم من القمح بتانكا واحدة (التانكا: عملةٌ هنديّةٌ قديمةٌ)، 6, 18 كلغم من السمن النقي بتانكا واحدة، 111 كلغم من الأرز بتانكا واحدة. فلو كسبتَ تانكتين كلّ شهرٍ، بإمكانك أن تعيش عيشةً هنيئةً، لذلك نرى السكّان سعداء، ولديهم متسع من الوقت لممارسة هوايتهم الكبرى ألا وهي الدين. تزدهر الآن طوائف المتصوّفة والبهاكتي بينهم، وتزخر المدينة والأرياف بمختلف الزهاد الرائعين الذين يذكرونني بالدراويش المتنقلين في البلد الذي أتيت منه. أما القلندريون من الطريقة المداريّة الصوفية فيعيشون مع ممارسي اليوغا.

يطلق على هذه المدينة الفاخرة، جونفور، اسم «شيراز الهند». تحتضن المدينة عدداً كبيراً من الكليّات والمدارس، كما يوجد فيها أكثر من ألف عالم دين بارز، يأتون إلى المسجد الجامع في أيّام الجمعة في عرباتهم الفاخرة. ويبدو علماء الظاهر هؤلاء - علماء المعرفة الظاهرية- مزهووين بأنفسهم، في حين يبدو علماء المعرفة الباطنية -علماء الباطن- المتصوّفة أناساً متواضعين يرتادون المسجد سيراً على الأقدام، وقد استأجرت سكناً في حيّ هؤلاء العلماء من المدارس الفكريّة المختلفة. لقد بنى الملك إبراهيم شاه وزوجة ابنه، بي بي راجي، معظم هذه المباني الضخمة.

أثناء دراستي السنسكريتيّة، اطلعتُ على منظومة شعريّةٍ كتبها فيديا باتي تهاكور، ذكر فيها أن المسلمين في جونفور أتراك، وذكر أيضاً أنهم يسلّمون بعضهم على بعض، وينادي بعضهم بعضاً بـ «أباي» أي صديقي، كما أنهم يشربون الخمور كثيراً، ويقرأون الكتب. بهذا الأسلوب وصف عاصمة إبراهيم شاه: «في ديوانه، يرفع الفقراء العرائض إلى الملك الفاضل، ويحصّلون ما قدّر لهم أن يحصّلوه. قصره يضم نافورة مياهٍ لعامّة الناس،

وحمّاماتٍ، وزخارف كثيرة، ومرايا كبيرة، يتجوّل سبعةٌ وعشرون حصاناً في العربة الشمسيّة حول البرج، وهي تضرب الأرض بحوافرها. ولا أدري ما الذي يوجد داخل القصر.

ولا أدري أنا كمال الدّين أيضاً، ولكنّني محظوظٌ إذ تيسّر لي رؤية الحدائق الخاصّة بالنساء.. وخزّان الزهور ما هو إلّا بحيرةٌ اصطناعيّةٌ بُنِيَت على شكل زهرةٍ عملاقةٍ من الحجر الأحمر، وهي تُعدّ آيةً في الهندسة المائية الجوفية، إذ تضمّ فوارات مياه آليّة وأفاريز طافية على المياه. ثمة أدراجٌ منفصلةٌ للرجال والنّساء يغتسلون عليها. تحيط البحيرة مبانٍ ملكية تسمى روشن محل وجنّة محل تمتد إلى بوابة قصر بي بي راج الحمراء. أما الملكة الأمّ فهي ليست سياسيّةً ذكيّةً فحسب، بل هي أيضاً سيّدةٌ مثقّفةٌ، إذ أسست كليّةً ومسجداً خاصاً بالنساء، وقد رُبط مجمّع الحجر الأحمر بـ«محل سارا» ذي البوابة الحمراء عن طريق نفق، كي تتمكّن السيدات من المرور بذلك المكان جيئةً وذهاباً دون مانعٍ..

لقد وقعتُ في الحبّ؛ ففي أحد الأيّام بعد الظهيرة، حين كنتُ مشغولاً بدراسة القواعد السنسكريتيّة في المكتبة، دخلت جاريةٌ جورجيّةٌ، وسلّمتني ورقةً صغيرةً،أرسلتها رقية بانو بيجوم، من أقارب السّلطان، تعيش في روشن محل، تذهب إلى كليّة النساء داخل البوّابة الحمراء كلّ صباحٍ. لمحتها ذات مرة على درج سلَّم روشن محل الكبير، وهي تسرع الخطا نحو طريق النفق. تفيد الورقة بأنها تريد نسخةً من ديوان الروداكي. أرسلت إليها ورقةً كتِبت فيها: أنّني مستعدٌّ دائماً لخدمتها، وبأنّني خادمها المتواضع.

تتكون هيئة التدريس في كليّتها من العوانس التقيّات ذوات الأصول الملكيّة. لم يتزوّجن لأنهنّ لم يجدن رجالاً أكفاء أو رجالاً ذوي حسبٍ مماثلٍ.

كانت أرامل الحرب الشابات والعجائز يوجدن بأعدادٍ ليست بالقليلة. تتزوّج الأرامل الشابّات من جديدٍ في أسرع وقت. ويطلق على المعلّمين «مولانا جي»، أو «أستاذ جي»، وقد يأتي بعض المعلّمين الطّاعنين في السن والمصابين بالخرف من الكليّات المحليّة إلى الكليّة أحياناً لإلقاء محاضراتهم. معظم الطالبات من بنات النّبلاء. في المرّة التّالية عندما أرسلت إليّ سيّدتي الباحثة رسالةً تطلب فيها منّي كتاباً معيّناً رددت عليها: أنت تعلمين أيّتها السيدة الجميلة أنّ ليلى والمجنون كانا زميلين في الفصل إبان طفولتهما، ومن المؤسف أنّه في شريعتنا تدرس الفتاة مع الفتيان في مدرسةٍ بالمسجد إلى أن يصبح عمرها تسعة أعوام، فلو كنّا أنا وأنت حضرنا المدرسة نفسها.. وإلخ. وهكذا بدأنا نتبادل الرسائل.

ثمّ تواعدنا والتقينا بفضل الفتاة الجورجية الذكية، ماريا، التي رتبت اللقاء. التقينا في المساء في زاويةٍ صامتةٍ معزولةٍ داخل حديقة روشن محل الخلفيّة. وقفت الجارية خلف شجرةٍ لتنبه بانو عند قدوم أيّ شخصٍ. كانت بانو بنتاً ذكيّةً وجميلةً، جلست برزانةٍ على بعد مسافةٍ فوق حافّة الفوّراة.

دارت المحادثة حول الأمور الأكاديميّة والفكرية؛ حدّثتُها عن الباحثات في إشبيلية وقرطبة، وهي بدورها أخبرتني عن المقرّرات الدراسيّة في كليتها. كانت تلبس لباساً أزرق سماويّاً مصنوعاً من الحرير الناعم البناراسي. سألتها عن الاسم الذي يطلق على هذا الحرير، فأجابت قائلة: «غلبدن»، فقد كان لدى الملكة الأم، بي بي راجي، سيّدةٌ مؤهّلةٌ ذات ثقافةٍ واسعةٍ تقوم على خدمتها تدعى غلبدن، فأعطت اسمها لهذا الحرير.

فجأةً أُضيء المصباح الكبير في بيت البوابة، فاضطررتُ إلى المغادرة سريعاً. يعدّ هذا المصباح أعجوبةً أخرى من عجائب مدينة جونفور، فهو يحتوي على

بعض المكونات التي تجعله يضيء آلياً عند غروب الشمس، وبسبب وجود هذا المصباح، يطلق على سكن السيدات الملكيات روشن محل أو قصر النور.

كنت أعمل في دار التدوين الواقعة في قصر الأربعين عموداً داخل القلعة، تضمّ هذه المنطقة المكاتب الإداريّة، وتقع بالقرب من مقرّات الجيش والثكنات. لقد بنى الملك إبراهيم شاه قصر الأربعين عموداً أيضاً، وربما هو القصر ذاته الذي وصفه فيدياباتي في منظومته الشعريّة. أما حسين شاه فيعيش في جنّة محل المطلّة على بحيرة الورد.

وفي وقتٍ لاحقٍ، أثناء لقاءاتنا السرية، تحدثت بانو كثيراً عن أسرتها المميّزة. وطبعاً أنتجت الأسرة شخصيّتين مميّزتين: إحداهما إبراهيم شاه، والأخرى حفيده حسين شاه.

قالت بانو: «إنّ الصداقات والتحالفات بين الملوك متقلّبةً». واستطردت قائلة بلهجةٍ غاضبةٍ: «ولمّا كانت الأمور تجري على أحسن ما يُرام، دبَّر بهلول لودهي بنفسه زواج بي بي خونزى- بنت علاء الدين شاه الملك الأخير لسلالة السّادات في دلهي- من ملكنا حسين شاه. والآن بعد أن أصبحت ملكة جونفور، وإمبراطورة العالم، نسيت المعروف الذي صنعه لها «الباتان» صاحب القلب الكبير. إنها دائماً تحثّ زوجها على الإطاحة بحكم السلطان بهلول الذي أحسن إليها. وهكذا فإنّ ابن عمّي حسين شاه يقضي نصف وقته في محاربة دلهي، بدلاً من تأليف الألحان الموسيقية».

نبَّهتُها قائلاً: «قد يُعد كل ما تقولينه خيانةً للملكة، وربما تخبرها هذه الفتاة الجورجية بحديثك، فهي تنتمي إلى عالم المؤامرات البيزنطيّة».

«لقد تأقلمت ماريا جيّداً مع الوضع الهنديّ، وهي لا تستطيع نكران فضل شخصٍ عليها، فضلاً عن أنها خادمتي الشخصيّة».

كانت بانو تعيش داخل مجمّع روشن محل السكنيّ. كان أبوها مقرباً من الملك، لذلك كان ولاؤه الأساسيّ للملك حسين شاه، وليس لزوجته. وبعد قضاء فترةٍ من الزمن في الهند، لاحظت أنَّ روابط الدّم والطّبقة والانتماءات الإقليميّة وفضل الناس بعضهم على بعضٍ أمورٌ لها أهميّةٌ كبرى في العلاقات الشخصيّة والجماعيّة، ولكنّنا نرى أن روابط الدّم صارت عديمة الجدوى في سباق السعي إلى إحراز السلطة.

«المعلومات التي أشاركها هنا معلوماتٌ عامّةٌ، فالكلّ في هذه المملكة يعرف أنّ جلالته غارق لأذنيه في حب زوجته الجميلة الملكة خونزى، وينفّذ كلّ ما تطلبه منه».

12

حسين شاه نايك

أمضينا الكثير من الأوقات بعد الظهيرة إبان موسم الصيف في السقيفة، وكنّا نسمع هديل طيور المانجو حين ينام الجميع في القصر. في بعض الأحيان، كان بإمكان شخصٍ ما أن يسمع ألحان «رابسودي» الساحرة في وقت الظهيرة، تخرج من غرف الملك كلّما أقام جلالته في روشن محل. في الحقيقة كانت هذه الموسيقى بالنسبة لنا حارسةً للوقت، وفي الفترة التي كان الملك يعزف فيها الموسيقى، كنّا نجلس في زاويةٍ منعزلةٍ في السّقيفة، وما إن تتوقّف الموسيقى حتى تتسلّل بانو. وهكذا فإنني تعرفت على كثيرٍ من الإيقاعات التي ألفها هذا الرجل الاستثنائيّ.

حدث مرّةً أن كتبت قصيدة غزلٍ باللّغة الفارسية لبانو، وبعد ذلك كتبت قصيدةً باللغة العربية على غرار القصائد الأندلسية العربية التي كتبت قبل خمسمائة عام. حكيتُ لها عن عصر الرومانسيّة والفروسيّة في الأندلس التي حكمها المسلمون، كانت بانو منبهرةً بهذه الحكايات. الشيء الذي أدهشني كثيراً هو أنّ المسلمين الهنود لا يعرفون شيئاً عن الغرب، فهم يعيشون في غابةٍ مسحورةٍ أعدّوها لأنفسهم، وقد استولت عليهم الغابة البدائيّة الأبديّة. لقد حاولت كتابة بعض الأبيات باللّغة الهنديّة، وهي مزيجٌ من اللّغات تتكون من كلمات براكيرتية وفارسية وتركيّة وعربيّة، يتحدث بها عامّة الناس في

سـهول الغانج الهندية. يستخدم المتصوّفة والرهبان الـ «بهاكتيون» أيضاً هذه اللّغـة ليدعـوا النـاس إلى طريقتهم في الحـب، ويحرّروهم من سـيطرة رجال الدين. ولكن علماء الدّين المسـلمين، وعلماء الدّين الهندوس كانوا يتحالفون ضدهم. إنّهم حاليّاً يسـتهدفون الصوفيّ المشهور باسم كبير داس، وهو نسّاج ثيابٍ فقيرٌ من كانشي، يطلق عليه المسلمون اسم «ميان كبير».

قالـت بانـو ذات مرّةٍ بلهجةٍ حـادّةٍ: «نحن أيضاً من السّـادة مثلك. إن ما يروج له أعداؤنا، وهو أن جدّنا الملك إبراهيم شـاه كان يحمل المياه في خدمة خواجـه جهان ملك سرور الذي أسّـس هذه المملكـة الشرقية لهو هراء، وقد أشاعوا عنه أنه كان أفريقيّاً. فهل تُرانا نشبه الأحباش؟»

أدركتُ ما أشارت إليه بانو. فهمتُ تلميحها، وابتسمتُ لنفسي، وتخيّلتُ لنفسي مسـتقبلاً زاهراً بصفتي زوجاً لإحدى بنات بيـت الشرقيّين الأقوياء. سـأتصل بوالدي وكافّة أعضاء الأسرة في نيسابور، وأطلب منهم المجيء إلى هنـا. الآن أمضيـتُ نحو أربع سـنواتٍ في الخدمة الملكية، وأنـا ضمن رجال حاشية الملك الصغار، يحثني الأصدقاء على الزواج.

قالت لي بانو ذات مساءٍ: «انظر، لا أريد أن أكون مثل العوانس الخبيرات المدرّسـات في مدرسة النساء. أرجوك أن تسرع في الأمر وترسل خطبتك إلى أبي».

في طريقي إلى البيت، التقيت صديقي القديم الزاهد الفارسيّ الذي يعيش في مسـكنه في الغابـة، نـادراً ما يـأتي إلى المدينة. كان في صحبته شـابٌ وسـيمٌ يحمل مسـتلزمات السـفر وهراوةً، قدَّمنا صديقي الفارسي بعضنا إلى بعض، إنه ينتمي إلى ميتهيلا، بيهار، وقد جاء من باتان في غوجرات. قلت له: «أنت صـوفيٌّ وباحثٌ متنقّلٌ»، فأجابني سـاخراً: «وأنت مؤرّخٌ في البلاط الملكي». دُهِشت لنبرته العدائية.

شرح لي الفارسي مُسالماً: «ينتمي هذا الأخ إلى الطريقة الصوفيّة الجشتية».

وبينما كنا نمرّ بالحشود المتزاحمة في السوق الرئيسيّة قال الشابّ: «إذن، هل أنت من المؤرّخين الذين يكتبون أنّ سلطانهم قتل الملايين من النّاس في مهمّات كذا وكذا العسكريّة؟ لو كان الأمر كذلك، ووصل عدد القتلى إلى هذا الحدّ، لكان البلد خالياً من الناس الآن». مررنا بالسّوق حتّى وصلنا إلى مطعمٍ شهيرٍ تديره طبّاخةٌ مميّزةٌ تدعى لادو. كان المطعم مكتظاً، فجلسنا بالقرب من مدخله، جاءت فتاةٌ لتسجّل طلبنا من الطعام، نظر إليها الشاب من ولاية بيهار، ولمّح إليها بالموافقة. ذكرت الفتاة قائمة الطّعام المتوفّرة في المساء، فطلبتُ بلاو «أرز بالدجاج» وقورما وخبزاً، ردّدت الفتاة الطّلب بصوتٍ عالٍ إلى أمّها. التفتُّ إلى الضيف، وقلت له: «نعم أنا أؤلف كتاباً في التّاريخ، لكنه ليس كتاباً في التاريخ الرسمي، بل مذكّراتي الشخصيّة».

كان لا يزال يفكّر في بنت الطّاهية الفاتنة، قال وهو يغمز برموشه الطّويلة: «ربما شاعرنا فيدياباتي رأى نساءً مثلها، أليس كذلك؟ ففي قصيدته المدحيّة للككم السلطان إبراهيم شاه يثني كثيراً على نساء جونفور ذوات عيون زهرة اللوتس، حيث تلمع قمم معابد الهندوس الذهبية وتتألق، ويجلس السّلطان في شرفته، ويتلألأ وجهه مثل البدر مسروراً بالنظر إلى الجموع السّعيدة تحته».

أجبته باستخفافٍ: «لقد قرأت القصيدة، كنت خائفاً من أن أتباهى بمعرفتي الجديدة بالشؤون الهنديّة التي اكتسبتها بجديّةٍ. حينما شنّ الملك أرسلان الهجوم على ميتهيلا، طلب راجا كيرتي سينغ مساعدة سيّده الأعلى السلطان إبراهيم، لقد وصف الشّاعر في القصيدة جنود جيش الشرقي الضخم كأنّهم أزهار لوتس منتشرةٍ في بحيرةٍ، وهذا التشبيه يبدو تشبيهاً غريباً وغير مألوفٍ. إنّه مقارنة حشدٍ من الجنود بزنابق الماء».

تلا ذلك سجالٌ أدبيٌّ، وفي أثناء ذلك أعرب الدّرويش الفارسيّ عن آرائه المناهضة للملكيّة.

«لقـد قال حافظ إنّ ألغاز شـؤون الدولة يعرفها فقط أنوشـيروانُ العالِم. حافظ! أنت مجرّد متسوّلٍ تجلس في زاويةٍ، لا تُحدث ضجيجاً»! ذكَّرتُه بذلك.

«ولأجـل ذلك اخترنا العيش في الغابة، فنحن نتبع تقاليد أبي ذرّ الغفاريّ صحابيّ الرسـول، إذ بلغ تذمّره من أمور السّياسـة حـدّاً دفعه إلى ترك المدينة حينما بدأ الحكّام يتصرفون مثل الملوك الساسـانيّين. هل تعرف أنّني نصحتُ السلطان حسين بالإقلال من الحروب، ولكنه تجاهل نصيحتي، فتوقّفت عن ارتياد القصر».

بقيـت زوجـة صاحب الحانة جالسـةً خلف منصّـة التّنـور الضّخم، تعدُّ عمـلات تنـكاز وجيتـال، وتتنازع مـع الزبائـن. كان المسـاء عاديّـاً وهادئاً، الشـوارع في الخارج مزدحمة مثلما وصفها الشـاعر فيديا باتي «محيط من البشر دخلوا أسواق جونفور المتألّقة». خاطبني الفارسيّ مرّةً أخرى قائلاً: «اسمعني أخي كمال، الأسـواق كلّها تضج بالشائعات سـمعت أنّ البطل الأعلى مقبلٌ على شن حملة جديدة على الأفغان الحكام في دلهي، فهل هذا صحيح؟»

«في الحقيقة، لم أسمع شيئاً، لأنّني منهمكٌ في كتبي»، لم أضف أنّني منشغلٌ بعلاقتي الغراميّة مع بانو إلى حدٍّ أغفلني عن كلّ شيءٍ. جاء ابن الطباخ بإبريقِ ماءٍ وإناءٍ لنغسل أيدينا فيه، ووضع الآخر الطشت والكؤوس الصينيّة أمامنا عـلى طاولةٍ منخفضةٍ، ثـم أتى بصينيّةٍ مدوّرةٍ كبيرةٍ مليئـةٍ ببلاو الأرز معطّرةٍ ولذيـذةٍ. قال الدرويش الإيراني «أها» وهو يهجم على الدّجاج المشـويّ، «في آخر مرّةٍ عندما وصل الملك حسـين شـاه إلى شواطئ نهر جمنا–وكانت مهمته الثالثة، وحملة الشرقي السابعة على دلهي– أسرع المسكين بهلول شاه إلى مقبرة

بختيـار كعكي القائمة في مهرولي، ووقـف بجانب قبر الصوفيّ الزاهد، ودعا طول الليل. وعند طلوع الشّـمس جاء رجلٌ غريـبٌ أعطاه هراوةً، وقال له: لقـد جـاء عدد كبير من الخراف إلى بوابة دلهي، اذهب إليها وادفعها بعيداً من هنا».

تنفّـس الدّرويـش الصّعـداء، وقال: «حقّـق بهلول الانتصـار في الحرب، وهو رجل طيب ولطيف».

تناولنا الطعام في صمتٍ، وراح الصوفيّ الجديد يقضم الكفتة بتردد.

سألته بضيق: «ما المشكلة، لماذا لا تأكل؟»

فأجـاب بنـوعٍ من الخجل: «انظر يـا أخي! أرجو أن لا يسـوؤك إن قلتُ إنّني أصلاً أنتمي إلى الطريقة الصوفيّة لمخدوم جهانين جهان غشت...».

«إذن ماذا؟»

«لقـد كتـب في ملفوظاته أنه ذات مـرةٍ كان يقيم في تكيّـة في دلهي، حيث أرسـل إليه أحد وزراء السلطان فيروز تغلق وجبة عشاء، فأكل منها، وكتب أن أدعيته في تلك اللّيلة لم تصل إلى الملأ الأعلى، لأنّه أكل الطعام الذي أرسله إليه أحد رجال الملك».

«إذن ماذا؟»

فأجاب قائلاً: «أنت أيضاً من أهل الولاء للملك».

«نعم، وأنا أيضاً من السادة مثل الملك».

هنا انتهى الكلام، وبدأ الشـاب يأكل في صمتٍ وهدوءٍ. أعتقد أن هؤلاء المتصوفة مجانين.

كان ذلك وقت المسـاء من يوم الأربعاء، ولما وصلت إلى سـكني، قرّرت شراء ورقـةٍ حمراء معطّـرةٍ عاديّةٍ لكتابة طلب يدها للزواج. سـوف أشـتريها

من متجر قرطاسية بجواري، وسأكتب عليها رسالةً رائعةً. وفقاً للتقاليد، فإنّني سوف أوجّه هذا الخطاب إلى والد بانو، وأقول فيها إنه نظراً لعدم وجود والدي في الهند، أتجرّأ أن أطلب منكم أن تقبلوني زوجاً لابنتكم، وألتمس منكم أن تشرفوني بذلك. هذه هي اللغة المعهودة في طلب الزواج. في الصّباح التالي، ذهبت إلى المكتبة، وجلست أمام مكتبي، ورحت أفكر في التعابير الجميلة الحقيقيّة لكتابة طلب الزواج، الذي سأرسله إلى والد بانو يوم الجمعة، وفي تلك اللّحظة بالذات جاء خادمٌ.

«جلالة الملك يطلبك على الفور».

كان الملك جالساً في غرفة الموسيقى الخاصّة به، يعزف على آلة الطبل. دخلت غرفته، وسلّمت عليه بطريقة المجاملة المعتادة، فهزّ الملك رأسه وابتسم، ما جعلني أرتاح، ومع ذلك فقد شعرت بشيء من القلق.

سألني جلالته: «هل أحرزت أي تقدم في دراستك للغة السنسكريتية؟»

فأجبته قائلاً: «قليلاً، يا صاحب الجلالة».

«لقد اطّلعت توّاً على خبرٍ يفيد بأنّ بعض العلماء الهندوس في أيودهيا يملكون رسالةً قديمةً جدّاً حول الموسيقى الكلاسيكية، اذهب إلى هناك فوراً، وابحث عن كلّ شيءٍ يتعلّق بتلك المخطوطات، واطلب مساعدة العلماء الهندوس في فهم النصوص. عليك أن تغادر الآن».

انحنيت أمامه مرّةً أخرى، وعدتُ مسرعاً.

13

تشامبافاتي: التصوف المجازي

تزخر الهند بالميثولوجيا (الأساطير) والفولكلور (القصص الشعبيّة) وقصص الزوجات العجائز. وقد رأيت في أيودهيا قبل أيّام قبراً غايةً في الطول تحت شجرةٍ مورقةٍ. أخبرني مسلمٌ محّلي بلهجته الأودهية المحلية، مؤكّداً أنّ هذا قبر النّبي شيث عليه السلام، ابن النبي نوح عليه السلام. كيف يمكن أن يُدفن النبي شيث في أيودهيا؟

قال المسلم المحلي: «حسناً، لقد حدث الفيضان الهائل هنا. قل نعم».

قلت: «نعم، لكنّه حدث في العراق، وما إلى ذلك، في تلك المناطق...».

«هل حدث ذلك في العراق فقط؟، لقد غرق العالم كلّه في ذلك الحين. قل نعم».

«نعم».

«توقّفت سفينة نوح على جبل جودي، أليس كذلك؟ حسناً، لقد كان ذلك المكان أيودهيا بالتحديد».

جادلته قائلاً: «ولكن أين الجبل هنا؟»

«ربّما كانت توجد جبالٌ قبل آلاف السنين، وقد تتغيّر الملامح الماديّة لمكانٍ ما، لذلك نجد أنّ تيّار الماء قد غيّر مساره بالقرب من قريتي. يقول الهندوس إنه حدث فيضان في زمن مانو، لذلك أقول إنّ مانو قد يكون هو النبي نوح كما تعرفون».

توقّفتُ عن مجادلته، ففيما مضى استغربت وجود قبرٍ طوله تسع ياردات في جدة، يعتقد بأنّه قبر الأم حواء التي أعطت اسم جدّة أو الأسلاف لميناء تلك المدينة.

حسناً، والله أعلم.

ذهبت للقاء أحد البراهمة الحكماء، وكنت أعيش في السراي المنظّم الذي أقامه إبراهيم شاه، في ساعات الصباح أذهب إلى بستان مانجو يملكه هذا العالم الهندوسيّ الذي يناقش معي النصوص السنسكريتية، وهو يجلس على مسافةٍ آمنةٍ خوفاً من التلوّث. كنت أجد هذا الأمر مهيناً للغاية، لكنَّ السيِّد الرَّسول فرض على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ طلب المعرفة حتّى لو استدعى الأمر السفر إلى الصين لتحصيل العِلم. تقع الهند في الطريق إلى الصين، وقد يتصرَّف البوذيّون في الصين على نحو أكثر غرابةٍ، ومثلما قال الأمير خسرو: توجد لكلّ بلدٍ تقاليده الخاصة به.

لهذا العالم الهندوسيّ أختٌ صغيرةٌ جذّابةٌ ذكيّةٌ وقعت في حبّها. وقد أمكنني التحدّث معها بشكلٍ مناسبٍ باللهجة الأودهية التي تعلّمتها، لأنها تدرس على شقيقها أيضاً.

هذه الفتاة تشامبافاتي فاتنةٌ للغاية، ومختلفةٌ تماماً عن بانو، بعيدةٌ عن الزّخرفة والزّينة، فلا حلي ولا مكياجٌ ولا حريرٌ ولا أقمشةٌ مطرّزةٌ، تغطّي جسمها بقماشٍ قطنيٍّ غير مخيطٍ، وتمشي حافية القدمين. إذا طلبتُ كوباً من الماء تأتي به في فنجان طينٍ، وتضعه على الأرض، ثمّ تعدو مسرعةً إلى كوخها المجصّص بروث البقر. لم أرَ الأميرات من طبقة راجبوت، ربّما يختلفن عنها، ولكنهنّ يرتدين الحجاب.

لابدّ من الاعتراف بأنّ المرء ميّالٌ إلى التنوّع، أخاف أنّني ربّما نسيت

الأميرة بانو تماماً. هؤلاء النساء الكافرات فاتناتٌ على طريقتهن وكذلك وفيّاتٌ خجولاتٌ مطيعاتٌ، يعبدن أزواجهنّ كما لو كانوا أنصاف آلهةٍ؛ ويلمسن أقدامهم كلّ صباحٍ إظهاراً لطاعتهنّ لهم، ويضعنهم في مستوى أرفع، وينشدن الأغاني ثناءً عليهم. هكذا يجب أن يكون الأمر. لقد طوّرنا هذا التصور عن المرأة في الأندلس، وقدّمنا فكرة الرومانسيّة والفروسيّة إلى بقيّة أنحاء أوروبا؛ الفرسان الشجعان الذين يحاربون من أجل الحفاظ على شرف نسائهم، والشعراء الشباب الذين يدندنون على العود في ليالٍ مقمرةٍ، فيما تجلس المرأة على شرفة ذات عريشة. هنا تبدو الأدوار معكوسةً؛ الرجل هو المحبوب الذي تتوق إليه المرأة، وتنتظره دائماً. وهذا بالتأكيد يبدو مغرياً جدّاً...

انتظرتها بخفة رغم أنها قد لا تأتي أبداً. قد لا تكون الفكرة سيّئةً لو أنقذنا روحها، وأرشدناها إلى طريق الإيمان الحقيقي، ولكن..

أغلق كمال كتابه، ونظر إلى السماء. إنه وقت الظهيرة، والهواء دافئ. بدأ الكتابة ثانيةً، أنا لست مبشّراً، لقد جئت إلى هنا لخدمة جلالة الملك، ولإتمام المهام بسرعة... سألتها في أحد هاته الأيام بشكلٍ غير مباشرٍ ما إذا كانت تريد أن تعيش في بيتٍ بالمدينة بجوار بحيرة الورد في جونفور، فسألتني بغموضٍ كذلك: «ماذا سأفعل هناك، أألعب الشطرنج، وأعلّم الببغاء وطيور المينا كيف تقول صباح الخير؟»

فجأةً سمع حفيفاً بين الأعشاب الطويلة، فرفع رأسه. لقد وجدها واقفة أمامه مثل عفريت الأشجار، تضحك مثل الريح.

«أَ أنت باق هنا حتى الآن. خلتك غادرت إلى مدينة بهرايتش».

«انتظرتك طول النهار لأودعك»

«لماذا؟ ألا تريد أن ترجع؟»

«جلالـة الملك مشـغول جـداً في حروبه، وعـليَّ أن أذهـب إلى الجبهة مع تقريري».

«أنتم الأتراك تواجهون وقتاً صعباً، وتحاربون دوماً».

«أنا لست من الأتراك».

قالت في نبرة مؤكدة: «جميع المسلمين أتراك».

تذكّـر كـمال مـرةً أخـرى قصيـدة «كيرتيلاتا» التـي وصف فيها الشـاعر فيدياباتــي مسلمــي جونــفور قائــلاً: «يسلّم الأتراك بعضهم على بعض، ويشربون الخمور، ويتخاطبون بالصديق، ويقرؤون الكتاب»

لاحظت تشامبا سيف كمال ملقىً على الأعشاب.

قالت بلطفٍ: «اطرحه في الماء، وخذ راحتك أيها الجندي».

بدا منزعجاً فقال: «أنا لست جندياً، أنت تعرفين ما كنت أقوم به بصحبة أخيك؟ هل أشهرت خنجري؟»

«ثم لماذا تحمل مثل هذا الشيء المخيف؟»

«السيف زينة الرجل. هل رأيت محارباً قطّ من راجبوت؟»

«لستُ سعيدةً بالمحاربين الراجبوتيين أيضاً».

«إذاً بمن أنت سعيدةٌ؟»

«سانت كبير»

«من؟»

«سانت كبير من كاشي»

«أعرفه، وقـد أمضى بعض الوقت في صحبة المتصوّفة البارزين من مدينة جهـوسي وجونفور، سـمعت أنك تغنـين أغنية كبير مع المغنـين المعجبين به.

ولكن احذري، لا يليق بفتاةٍ شابّةٍ أن تمضي وقتها في مثل هذه الأمور، وتترنّم مع أولئك الحمقى الذين يلبسـون قلنسـواتٍ برتقاليّةً. إنّهم أشخاصٌ غريبو الأطوار؛ نجد فيهم الأبطال والقلندريين والرهبان وآخرين».

احمرّ وجه تشـامبا، وقالت: «لا تسـخر من الرجال المقدّسـين، قد ينقذك هـؤلاء يوماً مـا من أوهامـك. والآن اركب هذا الحصان السريـع، يا كابتن، عفواً أيها الباحث!»

فأجابها بسـخريةٍ قائلاً: «لقد أصبحت راهبةً كذلك»!

«لا... سأتزوج، وسيقع المريخ إذا لم يكن قويّاً في بيتي».

«ماهـذا الهراء الذي تقولينه؟ كيف سـيأتي المرّيـخ إلى بيتك؟ هل تعلمين أنّـك إذا تزوجـت مـن رجـلٍ في مجتمعك، ومـات، إما أن يحلقوا رأسـك أو يهجرونـك بقيّـة حياتك التّعيسـة مثل المنبـوذة، أو قد يلقونـك حيةً في محرقة جنازتـه بعد تزيينك كعروسٍ، ويضعونك عـلى ظهر الحصان، ويذهبون بك إلى محرقة الجثث على وقع ضرب الطبول. أولاً سيحرقونك حيّةً، وبعد ذلك سيعبدونك كالإلهة الأنثى «ساتي»».

«إذا كان هذا قدري، فليكن».

«اسمعيني، يلزمني أن أشرح لك كمعتزلي».

«ماذا تعني بمعتزلي؟»

«لا تقلقي، انتبهي، أنا أؤمن بالإرادة الحرّة،كما قال ابن رشد».

«من؟»

«ابن رشـد الأندلسي، يقول ماعدا الدّين السـماويّ، يجـب أن يُخضع كلّ شيء للفحص على أساس علميٍّ».

«الوحي تجربةٌ صوفيّةٌ أيضاً!»

نظر إليها كمال بذهولٍ، وقال لها: «أنت ذكيّةٌ جدّاً»

«لا، الحقيقة هي أنني أسمع بكل دقّةٍ ما يناقشه أخي وأصدقاؤه المثقّفون، ولا عمل للعقل في التجربة الصوفية».

«وهل مررت بتجربةٍ صوفيّةٍ؟»

التقطت بعض الأزهار وقالت: «تعتبر طائفة الآلهة رادها وكريشنا غامضةً، وعلى أي حالٍ كلّ شيءٍ بيد القدر».

«لا، يمكنك أن تختاري هنا والآن، إذا وافقت على الزواج منّي، فإنك ستجدين شخصاً مثيراً في هذه الحياة، وكمسلمةٍ ستأمنين الآخرة».

«إذا كنت قد تزوّجتك في حياتي السّابقة، فسأتزوجك الآن أيضاً».

«هذا القول هراءٌ، الحقيقة أنّه توجد حياةٌ واحدةٌ وموتٌ واحدٌ فقط، وبقيّة الأمور قائمة على الافتراضات».

«إذا كانت روحي وتقاليدي كذلك، فسأصبح مسلمةً وأتزوّجك».

جمعت مزيداً من الأزهار، في حين بدا هو مهزوزاً.

«لا أعرف عن وجود التقاليد أو عدم وجودها، أريد أن أعرف فقط هل ستنتظرينني؟»

تخيّل أنه رآها تهزّ رأسها، لكنّه لم يكن متأكداً من ذلك، فقد سقط وابلٌ من زهور ماغنوليا بينهما ما شكّل ستاراً زهرياً اعتبره فألاً جيّداً، وفكّر أنّه من الأفضل أن يترك هذا الأمر عوض الانخراط في المجادلة معها لوقتٍ أطول.

حزم حقيبة سرجه وسأل: «لماذا تأخرت في المجيء؟ عليك أن تذهبي قبل أن يصل القرويّون إلى هذه الطريق».

ثـمّ تذكر أنّ أحداً قال له: إذا طرحت عملةً في مياه نهر ساريو الشفّافة، يمكنك أن تراها ملقاةً في قاع النهر. على الفور أخرج عملة تانكا فضيّةً صاغها

حسين شاهي، ورماها في النهر، فرآها تلمع في الطين الأزرق الرمادي النّاعم على عمق عدّة أقدام في الأسفل، فابتسم مثل تلميذ مدرسة، ثم التفت نحو تشامبا.

وقفت هناك دون حراك تحت شجرة ماغنوليا مزهرةٍ، بدت حزينةً وغارقةً في التفكير. لقد عكست هيئتها تلك صورة النساء التقليدية في أغنية المطر الهنديّة، حيث يسافر المرء في رحلةٍ بعيدةٍ، ويترك زوجته وحيدةً غير راضيةٍ، وكذلك لحن «ملهار» الذي تغنّى فيه حسين شاه نايك بحياة الآنسات التعيسات...

«سأعود قريباً إن شاء الله، أودعك في أمان الله العظيم وحفظه ورعايته» صاح باتجاهٍ معاكسٍ لتيّار الهواء، ثم انطلق بعيداً دون أن ينظر إلى الوراء.

لقد أصبحت الحياة معقّدةً حقاً.

14

الموكب

مضى شـهرٌ كاملٌ على الدّمار الواسـع الذي حلّ. كلّ شيء كان هادئاً على نحـوٍ مرعبٍ. أنار ضوء القمر التصميـمات المزيّنة الباهتة على فرش بيتٍ غير مسقوفٍ؛ رمح ثلاثي الشعب، وزهرة اللوتس، والعجلة، و«عمود النار»... ماذا يقصد الرجال في المناطق النّائية بهذه الرموز. اسـتغرب كمال ذلك وراح يتثاءب، ثم جلس على رأس الفيل المصنوع من الأحجار.

دوّى صوتٌ كصوت الشّـبح مـن أعماق الصمت كما لـو أنَّ العربات تمرّ عبر الشارع المقفر في الخارج. وقف الأشخاص الغرباء في العربات القديمة، كانـوا يرتدون أقراطاً ذهبيّـة. توقفت العربات أمامه، حـدّق الرجال بكمال، وقد لمعت أسـنانهم مثل الفوسـفور في الظـلام. ظهرت المـرأة الحجرية ذات العينين السمكيتين، وبدأت تغنّي بلغةٍ غير معروفةٍ.

ظهر شـبح في الباب المكسـور، وأعلـن بصوت أجش: «ظهـر القمر بين الرجال، إنه إمبراطور أرض آريا».

كيـف يمكنه أن يوجد هنا الآن؟ فرك كـمال عينيه. هذا الملك الكافر غادر الدنيا قبل ثلاثمائة سـنةٍ من مولد النبي عيسـى، لقد أصبح راهباً جينياً، وقتل نفسـه بالجوع. لكنّه وقف الآن هنا بين أقواس المباني السـاقطة مبتسماً. في هذه الأثنـاء اشرأبّ شـخصٌ آخـر بعنقه فـوق أكتـاف تشـاندراغوبتا، ووثب إلى

الخارج. خاطب هذا الرجل كمالَ بلطفٍ وقال: «اسـمي أشوك بيريا دارشان، الإمبراطـور، في يـومٍ من الأيّام حكمتَ جميع أنحـاء الهند، ولما توفيت، لم أكن أملـك إلّا واحداً ونصف من «آملا». فتح قبضته، ثم رمى حبات من الزيتون الهندي أمام كمال، بعد ذلك بدأ هجوم الأشباح في كامل قوّتها...

نزلـوا مـن عرباتهـم، وتعلّقوا بالعـوارض الخشـبية، وصعـدوا الأعمدة وتشـقلبوا في بركة الماء المظلمة في الساحة. كانوا يغرّدون مثل الطيور، تحلّقوا حول كمال، ورقصوا أمامه، وهم يغرّدون...

«أنا بهارت موني، اشتهرتُ بقوانين الرقص والدراما».

«فيشنو شارما، إذا أردت المشورة بشأن السياسة».

«راجا بهوج».

«أنا غانغوا، مستخرج الزيت».

«ترعد السّحب في السماوات المظلمة، كالي داسا».

«بهاوا بهوتي».

«بهارتريهـاري، كما قلت: إن العالم كلّه مـسرحٌ، ونحن الممثّلون فيه. أنت ممثّلٌ وأنا ممثّلٌ، ههه- ههه».

مرّ بنا الكاتب المسرحي شـودراك، بصمتٍ في عربة الطين، واحتشد عددٌ من النساء الجميلات، يجلجلن بخلاخيلهن، فظهرن كملكاتٍ..

«الأميرة راجيشواري... تفوّقتُ على الباحثين الصينيين»

«فرابهافاتي»

«راتنا فالي» تزيّنت هذه السيدة بمكياج ثقيل، وبدت مدلّلةً.

رفع الملك هارشا - كاتب المسرح الذي كان جالساً في زاويةٍ بهدوءٍ، وقلمه خلـف أذنيه - عينيه لمّا سـمع صوت ممثلته الشـهيرة، وقـال: «كانوا يطلقون

علينا اسم السيد بريتهوي والابه... الأثيرين عند آلهة الثروة والأرض...».

بقيت المرأة الحجرية ذات العينين السمكيتين مجهولة الاسم، وواصلت غناءها..

فجأةً دوَّت قعقعة السّيوف، وأضاء الفناءَ لمعانُها الرّهيب، وسقط وابلٌ من الرؤوس المقطوعة.

كانوا يصرخون: «نحن من طبقة راجبوت من «تشانديلا»!، ونحن من جماعة باغيلاس، ونحن ننتمي إلى جماعة راتهورس، كنّا نتحارب فيما بيننا، جاء الهون، وتلاهم الأتراك!، راح يقفز كلٌ منهم على رِجلٍ واحدةٍ. مثلما ذهبنا، سوف تذهبون أنتم أيضاً...». كان معظمهم مقطوع الرأس، أنشدوا ملحمة البَطَلين الأسطوريين آلها - أودال بأعلى أصواتهم.

أحسّ كَمال أن طبلتي أذنيه تمزَّقتا، فتح عينيه وهو يرتجف، فرأى أن الصبح قد أشرق في الأفق، وفي الخارج رأى بعض المزارعين ذاهبين إلى حقولهم مرحين، وهم ينشدون ملحمة البطلين الأسطوريين آلها - أودال. نظر كمال حوله بسرعةٍ، وقد أصابه ارتباكٌ شديدٌ من الأمر، إذ لم يكد يعي أين هو الآن، حاول أن يجمع شتات أفكاره المضطّربة كثيراً، فرأى أنه في مدينة بهرايتش. كان نائماً في وحشة شراوستي، رأى رؤيا مليئةً بالشخصيات الغامضة التي قرأ لها وسمع عنها. للمتصوّفة أحاديث كثيرةٌ عن الرؤيا وحقيقتها.

فرك عينيه مرّةً أخرى، وبدأ يتأمّل - يا الله. كان وحيداً في مدينة مقفرةٍ تحيطه بها الأشباح القديمة من كلّ جانب. يعجز العقل عن التّفكير في مثل هذه المناسبات.

ما هذه الرؤيا، هل هي رؤيا مُتَبصِّرة؟ أم تراها محض كابوسٍ؟

في حالةٍ كهذه، قد يساعدني الشيخ محيي الدين بن عربي... نعم، ذلك

الأندلسي الذكي قد ينقذني. لقد تناول هذا الفيلسوف الصوفيّ الشهير موضوع الخيال الإبداعي بإسهابٍ، وقال: إن الشّخص الذي لا يملك خيالاً نشطاً، لا يمكنه الوصول إلى صلب الموضوع...

هل افتتاني بتشامبافاتي جعلني أميل إلى التصوّف؟ وهل أنا في حاجةٍ إلى مرشدٍ غير مرئيٍّ، ذلك المتحدّث الصامت عند ابن عربي؟ أم أحتاج إلى مستشار ومرشد؟ أو شيخ حيٍّ؟ كان حائراً جداً، فكّر في أداء صلاة الحاجة. بعد هذه السنوات الطوّيلة، استحضر رقيةً علّمته إيّاها أمّه الشيعيّة في طفولته. رفع سبابته اليمنى بعد أن ربط عمامته، ولوّح بيده اليمنى سبع مرّاتٍ حول رأسه، وقرأ ما يلي: السيّد الرسول إمامي، وفاطمة فوق رأسي، وعليٌّ على جانبي الأيمن، والأئمّةُ والصحابة على جميع جوانبي، ثم ردّد الدعاء لنيل عون عليٍّ: ادعِ عليّاً، مُظهر العجائب، ادعِه للمساعدة وانتظر...».

خرج من القاعة غير المسقوفة بعد تحصين ذاته وطمأنة نفسه، فوجد حصانه الوفي الأسود واقفاً في الخارج مشدوداً إلى عمود، وهو يصهل، لعلّه كان يقول فلنغادر هذا المكان يا سيّدي بأسرع ما يمكن! ربت على جسم الحصان، وأعطاه بعض الأعشاب ليأكلها في فطوره، ثم ذهب إلى ترعةٍ، وهو غارق في التفكير، ليتوضّأ كالمعتاد، ويؤدّي صلاة الفجر.

طلعت الشمس. وبينما كان كمال يمرّ بغابة أشجار «داك» التي أحاطت الأبراج البوذية، رأى ناسكاً هندوسيّاً من عبدة الإله شيفا، يحوم حول قبرٍ قديم. حام الناسك حول القبر مرّةً ورفع رأسه، فرأى عينيه الحمراوين، وخصلات شعره الأشعث. ظهرت على وجهه الرهيب علامات من الرّماد الأبيض. كان قد ارتدى جلد النمر الأحمر، وبدا كما لو أنه ظهر من كابوس البارحة. لست في حاجة إلى أن أخاف هذا التانتريك الهندوسي، حدّث كمال

نفسه، لكنّه ماذا يفعل هنا... يبدو كما لو أنه يتهامس مع أحدهم.

تحدّث اليوغي بصرامةٍ بعد أن رأى عمامة المعلّم التي يلبسها كمال، وقال: «مولانا! ارجع إلى المدينة على الفور، ولا تماطل، ستأتيك أخبار سيئة».

كان كمال ساخطاً، فقد ظن أن هذا الشخص يحاول أن يجرّب شعوذته عليه. كان يعرف أنّه يجب ألا يزعج التانتريكيين الهندوس الأقوياء، لذلك سأله بلطفٍ: «بابا! ماذا تفعل هنا، بالقرب من هذا القبر؟» (تحمل الكلمة التركية -الفارسية «بابا» معنى الأب على وجه العموم لتدلّ على الرجال المقدّسين الهندوس).

«لا تسأل الأسئلة».

«لا، عليك أن تخبرني بذلك، هل تتواصل مع الأوراح التي فارقت الحياة؟»

«لدينا علاقاتٌ فيما بيننا، وتوجد لدينا قنوات تواصل، لا تحشر أنفك في شؤوننا، عليك أن تغادر من هنا».

ثمة اعتقاد يعرفه كمال، وهو أن المتصوفة الزهّاد يديرون شؤونهم الروحية غير المرئية الخاصّة بما يتلاءم مع المراتب والدرجات، وما إلى ذلك، كما توجد نساءٌ ناسكاتٌ رفيعات المستوى يشكّلن جزءاً من الحكومة الغامضة التي يُعدّ فيها خواجة أجمير الملك الأعلى وسلطان الهند. هل هذا النّاسك الهندوسيّ يتواصل معهم أيضاً؟

سأله كمال مجادلاً: «فأنت كنت تتحدّث مع هذا الرجل الطيّب الذي دُفِنَ هنا قبل أربعمائة سنةٍ؟ هل تعرف من هو ذلك الشخص؟» عندئذٍ حدّق به اليوغيّ بغضبٍ، وبدا منزعجاً. واصل كمال حديثه بطريقةٍ متهورة إذ استولى عليه ذهنه العقلاني. «لقد كان أحد الجنود في جيش سالار مسعود التطوعي،

الذي كان يتألف من بعض الشباب المغامرين من أفغانستان أو جورجيا أو أذربيجان. وقع اشتباك هنا مع سوهال ديف الذي ربما قُتل في المعركة، ودُفن هنا أيضاً. أنا مؤرّخٌ، لذلك أملك هذه المعلومات».

رفع اليوغي يده بجدٍّ وقال: «أنت شابٌّ أحمقٌ جاهلٌ متعجرفٌ، اذهب من هنا! ستجد رسولاً ينتظرك بالخبر السيئ»، كرّر هذه الجملة، وأدار ظهره. تلاشت شجاعة كمال، وتملّكه الخوف من جديدٍ.

«تعال معي يا بني! لنغادر، لا أحد يهتم بنا هنا»، قال الشابّ لحصانه، ثم ركبه وانطلق بسرعةٍ.

في طريقه إلى المدينة وجد الهواءَ لطيفاً رائعاً. لاحظ أنّ قطرةً من المطر سقطت على وجهه. حاول أن ينسى لقاءه مع الراهب الهندوسيّ، ألقى نظرةً على المنظر البهيج الأخضر. كان موسم الأمطار قد حان، وتخيّل تشامبافاتي جالسةً على أرجوحةٍ في بستانها، تغنّي أغاني المطر.

موسم المطر! يا للسحر الذي يلقيه تنوّع المواسم على المرء في هذا البلد! كلّ شهر يتميّز بموسيقاه وألوانه وروائحه، فثمة شهر «ويساك» الأصفر الذي تزهر فيه نباتات الخردل، وكذلك شهرا «جيت» و«آساره» الحاران تتساقط فيهما فواكه التفاح الخشبي من الأشجار الواهنة، ومن الشهور الهنديّة التقليديّة شهرا «سروان» و«بهادون»؛ شهرا المطر، وأيضاً شهرا «كووار» و«كاتاك» حين يلقي ضوء القمر في فصل الخريف بظلاله على الأرض، فيملؤها باللون الأصفر الرائع. لم يكن هذا البلد موطنه الأصليّ، ومع ذلك ما كان بمقدوره أن يتجنّب سحر الفصول.

فكّر كمال مرّةً أخرى في أمر اليوغي الغريب، ولماذا كان معظم الرهبان من عبدة الإله «شيفا» متقاربين بعض الشيء مع المتصوفة في الإسلام؟ هل

هو بسبب إيمانهم بوحدانية الله؟ حسناً، فكر في نفسه، لقد اطّلع على ما يكفي من القصص الغريبة في الهند. شكراً للإله، سأعود غداً إلى نزل المكتبة الملكية المريح في جونفور.

«واأسفاه! واأسفاه!، يا مولانا كمال، لقد خسرنا الحرب!» صرخ الفارس أوداي سينغ راتهور في اضطرابٍ من شرفة دار الضيافة في السراي حينما دخل كمال المساحة المربّعة. صُدِم لمّا سمع الخبر، فكر أنّه ربّما هذا هو الخبر السيّئ الذي تنبّأ به اليوغيّ في الصباح. بدأ جبينه يتصبّب عرقاً بارداً، هرع راتهور إلى الأسفل، وترجّل كمال عن حصانه، كان الفناء مكتظاً بحشدٍ من الناس، والخيول تصهل. بعض النساء ينتظرن، وهنّ يلعنَّ بصوتٍ عالٍ. لمع البرق في السماء.

اشتكى بعضهم بحزن قائلاً: «إن زحل في منزل سلطاننا، دائماً قلت لا، ولكن لم يسمعني أحد». أفسح الجمهور الطريق لمسؤولين دخلا قاعة السراي الكبيرة.

سأل كمال بصوتٍ واهنٍ: «كيف... كيف؟»

أخرج راتهور خنجره وقال: «هكذا». دُهش الباحث. جلس راتهور على سريرٍ، ورسم خريطة لساحة الحرب على الأرض الطينيّة بطرف سلاحه.

قال بحدّةٍ: «انظر، كنا هنا... في رافري، وهو مكان استراتيجيٌّ جدّاً، شنّ الثعلب القديم بهلول الهجوم علينا من هذا المكان... فانسحبنا، كانت الأم حانقةً علينا كثيراً...».

سأل كمال بحماقةٍ: «أمّ من؟ بي بي راجي؟»

«ليس الأمر هكذا يا أحمق، قد تتقلب بي بي راجي في قبرها. الأمّ هي نهر

جمنا، فقد اغتاظ وفاض، ولما حاولنا عبوره، جرفت المياه معظم أفراد جيشنا دفعةً واحدةً، وغرق الجميع».

«اتجه جلالة الملك نحو مدينة غواليار للحصول على إمداداتٍ عسكريّةٍ من أتباعه، وفي الطريق هاجمنا قطّاع الطرق، اللّصوص المشهورون من وادي تشامبال، فسرقوا ما بقي من جيش الشرقيّ، بما في ذلك المؤن والمال وكلّ شيءٍ. أمدّنا ملك غواليار بالقوّات، فحاربنا على الجبهة الأخرى في كافلي، وخسرنا الحرب أيضاً. حرس ملك ريوا السّلطان حتى وصل إلى مدينة جونفور، وهنا غزا الأفغان المدينة وحاصروا قصر روشن محل».

بينما كان الفارس راتهور يعدد قائمة الكوارث، راح كمال يلهث.

«الملكة خونزى والنساء...».

«ماذا حدث لهن؟»

«وقعن أسيرات في الحرب، ونُقلن إلى دلهي»، شحب لون كمال لما سمع هذا الخبر. كان راتهور صديقاً قديماً لكمال، وكان مطّلعاً على علاقته الغرامية مع رقية بانو بيجوم. توقّف للحظاتٍ، وبدأ يقرأ خريطته بتركيزٍ شديدٍ، لكنّه في الواقع كان يحاول أن يجد كلماتٍ مناسبةً ليواسي الرجل المولع بالكتب الملكيّة. وبوصفه رجل أعمالٍ مقداماً، كان بإمكانه أن ينصح هذا الشابّ الحالم أن يشقّ طريقه إلى دلهي محارباً، حتى ينقذ الفتاة الجميلة التي وقعت في محنةٍ، لكنه يعرف أن المسكين كمال ليس جسوراً. لذلك سأله ببساطة: «هل لي أن أذهب، وأجيء بها لك؟» وضع يده على مقبض سيفه، وفتل شاربه ووقف.

تأوّه كمال قائلاً: «لا، لا!»، كيف تستطيع ذلك؟ لا يمكن ذلك».

«حسناً»، جلس مرّةً أخرى، وقال: «لا تقلق، إنَّ طبقة الباتان مثل طبقة

راجبوت التي ننتمي إليها، لديهم شعورٌ عميقٌ بالشرف، وهم يعاملون النساء باحترامٍ مثلنا. لقد رافقت الملكة خونزى جلالة الملك إلى الجبهة في الحرب الأخيرة، ووقعت أسيرةً، فأرجعها الملك بهلول بفروسيّة. علاوةً على هذا، أنت تعرف جيّداً كم يكرّم الباتان جماعة السادة أمثالكم، حتى أنهم لا يتزوجون من نساء السّادة، لأن ذلك يعني عدم احترام أهل بيت النبي. تُعرف أسرتنا الملكيّة بأنها من جماعة السّادة أيضاً، لذلك فإنّ الأميرة بانو آمنةً. قد يزوّجونها بعالم دين مسكينٍ ينتمي إلى جماعة السادة، ويطلبون منها أن تدعو لهم مدى حياتها...».

اجتمع حشدٌ من النّاس، وبدأوا يستمعون باهتمام شديدٍ إلى التقرير الفظيع البيّن للعداوات. طردت الطاهية سليطة اللّسان الجمهور، وجاءت بغداءٍ ساخنٍ لكمال الذي فقد شهيته، وراحت تحثه على الأكل، قائلة:

«تعال يا مولانا! فهذه ليست نهاية العالم؛ لن تتمكن الفيضانات، ولا قطاع الطرق، ولا أي كارثةٍ أخرى من القبض على الملكة أو تثبيط عزم ملكنا المجبول من الصوان. اسمعني إنّ العرش في دلهي ينتمي إلى أسرة والد زوجته، لذلك فهو الأحق فيه، كما أن ملكنا ابن ملك، ومقترنٌ بابنة ملك. من هو هذا المغرور بائع الخيول، بيلو خان، المتزوّج من ابنة صائغ؟ ربما استعار مالاً من أبيها لإدارة الأعمال التجارية المتعلّقة بالإسطبلات قبل أن يهرب معها».

انفجر الجمهور بالقهقهة، كانت الطبّاخة تشير إلى هيامافاتي الملكة الجميلة زوجة بهلول لودهي، أم الأمير الجميل إسكندر. لقد كان الملك حسين شاه ذو الشخصية الجذابة ملكاً محبّباً لدى رعيّته، وكانوا من مؤيّديه المخلصين.

شطب الجندي من طبقة راجبوت بعض النقاط من خريطته، وهزّ رأسه

بحزنٍ: «وهكذا تراجعنا إلى الشّمال، كان جلالة الملك يخيّم هنا بالقرب من بهرايتش، وقد أرسلني لآخذك إليه، يريد أن يعلم إذا ما تمكّنتَ من فكّ مغالق تلك الرسالة القديمة عن الموسيقى...».

لقد نزل جيش الشرقيّ المهزوم على ضفّة نهر رافتي الفيّاض. تقع في الأفق البعيد في تلك المساحة الخضراء والضباب الماطر، صومعة جيتافان البوذية، التي بقيت مدفونة تحت الرمال المتنقلة والطين ألفَي عام. كان البوذا قد أقام فيها مرّةً، وعلّم الناس أموراً حول عدم ثبات الأشياء.

على أي حالٍ نحن نعيش في الحاضر، ولدينا الكثير من القضايا لنحلّها.

رفع عبد المنصور كمال الدين الستار عن الخيمة الملكيّة ذات اللون القرمزيّ التقليديّ. وبصفته سيداً، لم يحوجه البروتوكول إلى الانحناء أمام الملك. فقال منتصباً: «السلام عليكم يا جلالة الملك».

وضع حسين شاه آلة الموسيقى «تامبورا»، وبدا سعيداً جدّاً بنفسه، كما لو أنه نجح في تأليف لحنٍ موسيقيٍّ مميّزٍ. قال بمرحٍ: «وعليكم السلام يا مولانا!، كيف نحن في هذا الصباح؟ هل استطعتَ فكّ مغالق النصّ الموجود في أيودهيا؟»

15

شاعر وموسيقار

ومن بهرايتش، اتجه حسين شاه وفرسانه نحو مدينة قنوج. استطاعت الملكة خونزى الفرار من دلهي، وانضمّت إلى زوجها في ساحة الحرب، كانت منطقة الحرب مثل بلدةٍ صاخبةٍ تضم: الأسواق، والفنانين، والمطاعم، والمطابخ المتنقّلة، بالإضافة إلى الأطبّاء، والجرّاحين، وعددٍ كبيرٍ من الحيوانات. انضمّ كمال إلى جيش الملك الذي كان يتحرّك، وبدا دهشاً حيال مثابرة الإنسان وصموده. هزم الأفغان حسين شاه المسكين كرّةً أخرى في المعركة التي دارت بالقرب من ملتقى نهر غنغا ونهر كاليندي. وفي عام 1484، استولى بهلول على جونفور، ونصّب ابنه باربك على عرش الشرقي، مما جعل حسين شاه يفر إلى ولاية بيهار القريبة.

وفي بادرة سخاءٍ مميّزةٍ، سمح له بهلول لودهي بأن يحتفظ بأرضه الملكيّة في مديرية مرزافور. جمع حسين شاه قوّاته ثانيةً، وهاجم اللودهيين، لكنه انهزم من جديدٍ.

كانت بنت حسين شاه قد تزوجت أميراً من البنغال، ابن السلطان علاء الدين حسين شاه في منطقة غور. وقد ساعد ذلك السلطان قريبه المنكوب، والتمس من الهارب أن يقبل إقطاعيّةً في مديرية بهاغلفور، ويعيش فيها كملك منفي، كما سمح له أن يصدر عملات باسمه، فقبل حسين شاه ذلك.

وقد ذهب الكثير من خدمه إلى لكهناوتي حيث وجدوا عملاً في البنغال.

تجادل كمال مع نفسه: هل يجدر بي أن أبقى هنا، وأكون جزءاً من هذا المجتمع العسكري حتى لو لم أكن مقاتلاً، أم هل ينبغي أن أغادر من هنا؟ هل أغادر؟ إلى أين؟ إلى نيسابور؟

بدا له اسم نيسابور غريباً، إذ بات يعتبر نفسه هنديّاً، وليس أجنبياً البتة. كيف له أن يكون أجنبيّاً وهو يمضغ التنبول مثل ذكر الماعز، ورجال طبقة راجبوت الأوفياء يتناولون أوراق التنبول معه، ويحلفون بأنهم سيموتون دفاعاً عن حسين شاه؟ يعرف هذا التقليد بـ «أداء اليمين بتناول ورق التنبول».

كانت ثقافة مضغ التنبول ثقافةً جيّدةً، وقد أحبها، بيد أنّه لم يكن يريد أن يحارب على الرغم من أنه يحمل السيف. لقد عاش كمال في ذلك العصر الإقطاعيّ الذي سادت فيه الحروب الإقطاعيّة العالم برمّته: في الغرب، وآسيا، وأوروبا، وروسيا، والصين، واليابان. كان الرجال يحبّون أن يقتل بعضهم بعضاً، فأين المفر، ليس ثمة مكان يمكنه أن يلوذ به غير ملاذ المتصوّفة؟

توفي بهلول لودهي عام 1489م، فخلفه ابنه الجسور المغامر إسكندر الذي كان فخوراً، وصارماً ومختلفاً عن أبيه المحبوب بين الناس. كان رؤساء طبقة راجبوت في المملكة الشرقية من المؤيدين الأوفياء لحسين شاه، وقد رفضوا دفع الضرائب لحكومة لودهي تحت قيادة رئيس القبيلة جوغا.

كان إسكندر صيّاداً ماهراً ورياضيّاً بارعاً، ذات صباح حين كان يلعب البولو جاءه الرسول بنبأ ثورة طبقة راجبوت من جيش الشرقي، فرمى عصا البولو، وأمر قادة جيشه بالاستعداد، وقال لهم: «سوف نتّجه إلى جونفور على الفور».

«يا سيّدي، أنت لم تتناول فطورك بعد».

ردَّ عليـه قائلاً: «سـوف أتنـاول فطوري في جونفور». وصلـوا فعليّاً إلى مدينة جونفور في مدّةٍ قصيرةٍ جدّاً، استغرقت عشرة أيّامٍ فقط.

كان جوغا زعيم الثورة قد فرغ لتوّه من الاستحمام، وحين جلس لتناول الطعـام أنبأه رجاله بأن إسـكندر غاضب وسـيصل قريبـاً إلى بوابات المدينة، فوقـف جوغـا مسرعاً، ولبس ملابسـه المبلّلة، ثم مضى في اتجاه قلعة حاكمه حسـين شاه في بيهار، فطارد إسـكندر جوغا المسكين طوال الطريق، وأرسل مكتوباً إلى حسين شـاه قائلاً:

سيّدي،
أرجوكم أن تسلّموني هذا الرجل جوغا.
مع الشكر والتقدير
إسكندر. آر
المخيّم، مكان ما في بيهار

فردّ عليه حسين شاه بما يلي:

أودّ أن أفيـدك بأنّ جوغا من خدمي كـما كان أبوك الرّاحل خادماً لي، لكنّه كان جنديّاً، وإن كان شخصا عاديّاً، حاربتُ معه بالسيف وأنت طفلٌ أحمق، لذا لا أودّ أن أستخدم سيفي، وسوف أضربك بحذائي، اغرب عن وجهي.

لم يكد السلطان إسكندر لودهي يصدّق عينيه لمّا قرأ هذا الردّ، فقال أسِفاً:

«حينما يقبل المرء على الدمار الكليّ، فإنه يفقد صوابه».

تعارك حسين شاه مع إسكندر بمساعدة إقطاعيّيه الهندوس في ساحة الحرب بالقرب من تشنار، وعلى الرغم من أنّه انهزم، لم يستسلم.

لم يطق كمال تحمّل المزيد من سفك الدماء، لذا هرب من كوهال غنج في صمت. لقد ظل شعب حسين شاه يدعمه حتى في معاركه الأخيرة ضدّ إسكندر عامي 1492 و1494، وأخيراً واجه هزيمةً عام 1500، وعاد إلى بهاغالفور وهو يبكي على مدينة جونفور الرائعة التي حوّلها إسكندر المنتصر إلى ركام. دمَّر إسكندر جونفور في الشرق، وبنى مدينةً جديدةً عرفت باسم آغرا في الغرب.

مات حسين شاه في كوهال غنج عام 1505. وبعد سقوط مدينة جونفور، انتقل مركز الموسيقى الكلاسيكيّة الهنديّة إلى غواليار، رغم أنّ المنطقة الممتدّة من جونفور إلى قنوج وكالفي وفيدياتشالس برمّتها مافتئت تعرف بـ «المنطقة الحسينيّة للألحان».

قال عليٌّ: «العالم تافهٌ مثل عطسة ماعز».

لن يبدو أي شيء منطقياً بعد الآن، لم تعد تناقضات الطّبيعة الإنسانيّة تحيّرني. سلطان لودهي شاعرٌ حسّاسٌ جيّدٌ، يكتب قصائد الغزل الرائعة متّخذاً الاسم المستعار «غل رخ» - وجه الوردة- وهو اسمٌ مناسبٌ ومطابقٌ لمسمّاه، فقد كان رجلاً وسيماً جداً. يرى المتصوّفة أنّ الجمال الإلهيّ ينعكس في المظهر الجيد، لذلك وقع صوفيٌّ في حبّه، فألقى إسكندر هذا المسكين في السِّجن على الفور، لأنّه كان عالماً يعيش بين العلماء، كما كان مسلماً محافظاً، إلا أنّه لم يكن ملتحياً.

لقد كان مهتمّاً بنشر التعليم، ومع ذلك أتى إلى جونفور، ودمَّر جامعة

المدينة الشهيرة وكليّاتها. وبينما كانت الكليات تتعرّض للتدمير، جلس إسكندر لودهي، الخبير التربوي، في مقرّه يناقش المقرّر الدراسيّ الجديد لأطفال المدارس مع مستشاريه.

وقد أمر بأن يدمّر مجمع قصور البحيرة الوردة، ويسوّى بالأرض بدافع الثأر، لم يترك شيئاً إلا دمّره، حتى أنّه أمر في إحدى نوبات جنونه بتدمير المساجد، لكنّ العلماء منعوه من ذلك.

لقد سقطت بغداد مرةً أخرى مع سقوط جونفور. وأنا، عبد المنصور كمال الدين، أعيش لأرثي ضياعها مثلما بكيت المحرقة التي وقعت في بغداد قبل ثلاثة قرونٍ تقريباً. ولقد رأيت اندثار حضارةٍ ليبراليةٍ كبيرة هنا في الهند. إن المغول الكفّار هم الذين دمّروا بغداد، مثلما فعل الملك إسكندر المسلم هنا بمدينة جونفور.

لم يكن إسكندر مؤيداً للمساواة مثل أبيه الراحل، وقد عزز شوكة الملكيّة وفخامتها. وبسبب تزمّته، منع دخول النّساء إلى أضرحة القدّيسين؛ لأن ذلك يؤدّي إلى الفساد بحسب زعمه. إضافةً إلى ذلك فرض حظراً على الاحتفال بالعرس السنوي لـ «سالار بابا» من بهرايتش معتبراً إياها عبادة مقابر، كما منع عبادة الإلهة الأنثى سيتلا ديفي، إلهة «مرض الجدري». انفجر غضباً، وأمر بتدمير معابد الإلهة الأنثى هذه قائلاً: «كيف يمكن أن يُدعى مرض معدٍ بالإلهة»؟ لقد شرح الناس له أن مرض الجدري يعدُّ تجسيداً لغضب الإلهة الأنثى كالي، لكنّ إسكندر لم يقبل بهذا القول. ولعلّه أراد أن يثبت لإخوانه من الأفغان أنه ليس متأثّراً بأمّه الملكة هيمافاتي.

آه، مدينة جونفور! كم كانت هذه المدينة متحررةً في الماضي. كانت النساء يذهبن إلى الكليّة والمساجد التي كانت تضم صالات وقاعات منفصلة

لتجمّعات النساء الدينيّة مثلما هو الحال في الغرب وآسيا الوسطى. والآن أسمع بأنّ علماء الدين المسلمين والعلماء الهندوس من مدينة كاشي يحاولون إقناع إسكندر بأن يعلن كبير داس زنديقاً...

يعدّ إسكندر ملكاً رائعاً من ناحيةٍ؛ فقد بسط الأمن والرخاء في الأرض، وبسَّط الشؤون الإدارية، وعَيَّن عدداً كبيراً من الرجال المجتهدين من طبقة «كائستها» في المكاتب الحكومية. وقد علموا اللغة الفارسيّة سريعاً لإدارة شعبة الإيرادات، وغيرها. نجح إسكندر أخيراً في إلحاق الهزيمة بعدوّه التاريخي حسين شرقي. لم يكن إسكندر مولعاً بالموسيقى، ومع ذلك سمح بعزف نوعٍ واحدٍ من الألحان على المزمار في نوبت خانه أي بيت الطبول- المركز الحسيني!

وأعتقد أن هذا الأمر يحمل شيئاً يدركه العاقل، فهو راعٍ للمثقفين، ومع ذلك أمر بإحضار الباحثين من ديوان الشرقيِّ أمامه، وربطهم بالحبال المصنوعة من «عمائمهم الدالة على تفوقهم». وقد نُفِّذ أمره فعلاً، وأنا سعيد لأنّني لم أكن بينهم، ولكنني أفكّر هل يليق بي أن أكون سعيداً بالهروب، بعد أن خذلت كبار العلماء ونظرائي، تاركاً إيّاهم يتعرَّضون للإهانة؟ وهل يليق بي أن أحتفل بجبني، وأطلق عليه اسم «حب السلام»؟ ألم يكن من واجبي أن أخرج سيفي من غمده، وأحارب في شوارع جونفور؟ عدت إلى مدينة باتنا، وبحثت عن النجاة في الخمور والموسيقى، لكنّني سمعت في صوت أوتار الكمان حشرجة الموت، فنظرت إلى الرّاقصات الجميلات، ورأيت الموتى من النساء مبتسماتٍ.

لقد خلقت الأصوات بتنوّعها، بما فيها كلمات الأغاني الغريبة، وجمل اللغات الميتة المعقدة دوّامةً من الضجيج في رأسي. كنت لغوياً شهيراً، والآن

أتمنّى أن أنسى كافّة اللغات وأصبح بلا كلمةٍ.

أين معلّمي ومرشـدي غير المرئي؟ اسـتحضرتُ أغنيةً لكبير داس تغنّت بها تشامبا مرةً «*ويضرب طبل الوداع للنّفْـس ليلاً نهاراً...*».

توقّف عن الكتابة وأغلق كرّاسته. لم يكتب فيها منذ سنواتٍ طويلةٍ، وقد أدرك الآن أنّـه لم يبـق شيءٌ يكتـب عنه. دفـع أجرة الغرفـة في النّزل، ثم حزم أمتعته، وغادر نحو الواجهة المائيّة. كانت السفن متجهة إلى شرق مدينة باتنا وغربها، ومازال باسـتطاعته الذهاب إلى غور، والعمل في دار تدوين سلطان البنغـال، الـذي كان قـد طلـب ترجمة الــ*مهابهارتـا* والأعمال السنسـكريتية الأخرى إلى اللغة الفارسية، كما يمكنه أن يشكو أمام الملك قائلاً: «أنا مترجمٌ ولغـويٌّ عاطـلٌ عن العمل»، ولكـن هل يقبل الملك أن يوظّف منشـقاً خذل سيّده؟

دفعه شـخصٌ ما بكوعه بخشـونةٍ من الخلف وقال: «يا رجل! ابتعد عن الطريـق! ألا ترى أنّنا نحمل محفة الزفاف فوقنا؟» دفعته الحشـود حتى وجد نفسه واقفاً أمام رجلٍ يبيع التذاكر.

سأل الرجلُ هذا البائسَ رثَّ الحـال قائلاً: «أين تريد أن تذهب؟»

قـدّم كـمال إليه كيسـه المخمليّ وأجـاب: «إلى لا مكان، أعطنـي التذكرة، وخذ كيس النقود هذا».

قلندر مجنون. أعاد بائع التذاكر كيس النقود إلى كمال، وسـمح له بركوب السفينة.

جلـس كـمال في ناحيةٍ مـع متاع رحلتـه الذي ضـمّ كتابه الـذي لم يكمله بعـدُ «*عجائب الهند وحكاياتها الغريبة*». فجأةً تملّكته رغبةٌ شـديدةٌ بأن يرمي الكتاب على متن السّـفينة، لكنّـه تذكر المبدأ القرآنيّ؛ القائـل بأنّ القنوط كفرٌ

بـالله. كان يغفـو مـن حين لآخـر، وينظر إلى الحشـد المتنـّوع من المسـافرين، ومـع ذلـك لم يـدرِ وِجهته. كانت السـفينة في طريقهـا إلى برايـاغ البعيدة عن مدينـة كاشي. نزل العديد من المسـافرين من السـفينة في مدينـة باتنا، وصعد آخرون إلى السـفينة بواسـطة الدّرج المتحـرّك. كان من بين المسـافرين الجدد بعـض الشـباب الأثرياء، ومجموعةٌ مـن الرهبان، بالإضافـة إلى علماء بوذيين بملابسـهم الزعفرانيّة، لقـد كانوا دائماً منعزلين عن النـاس. أخيراً لقي كمال بعض الرهبان البوذيين في بيهار.

انشغل الشباب الأغنياء من مدينة باتنا بلعبة الشطرنج، وانهمك التاجران مـن مدينـة كاتهياوار بدفتر الحسـابات السـميك، وكان المشـاركون في حفل الزواج يغنّون بشكل صاخب، أما العروس فقد انشغلت بالبكاء..

«اسـمعيني يا تشـامبافاتي، يمكنـك أن تختاري هنـا والآن إذا وافقت عـلى الزواج مني، سـتجدين شـخصاً لطيفـاً في هذه الحياة، وسـوف تكونين آمنةً في الآخرة».

«إذا كانـت أعـمالي وتقاليـدي كهـذه، فإننـي سـأصبح مسـلمةً وأتزوجك...».

«سواء أكانت التقاليد موجودة أم لا، هل تنتظرينني؟»

ضحكت ضحكتها الفضية، وغابت في ضوء القمر.

كان بعض الأشخاص يعزفون على أوتار العود. فرك كمال عينيه وقد غدا منذ وقتٍ طويلٍ ضحيّة الهلوسة وأحلام اليقظة. كانت تشامبا قد غابت عنه، رفع رأسه فرأى ناسكاً هندوسيّاً طويل القامة قويّاً، يرتدي لباساً أبيض يقف أمامـه. كان يعزف على عـوده بيده اليسرى، ذلك أن يـده اليمنى بلا أصابع. لقد بدا من طبقة تهاكور وليس ناسـكاً هندوسيّاً، ربّما يتجسّس لصالح الملك

إسكندر. كان يعرف أن كمال أحد المسؤولين الموثوقين لدى حسين شاه نايك، وقد أكّد شكوكه سؤال الناسك الهندوسي له بصوتٍ أجشٍّ: «هل أنت مولانا كمال الدين من جونفور؟»

هزّ رأسه موافقاً، وكان قلقاً جداً، ولم يشأ أن يُجرَّ إلى تلك الحظيرة المخيفة التي يُحارب النمورُ فيها الأسودَ.

جلس الراهب على لفيفةٍ من الحبال وقال: «لا داعي للخوف، أنت مصيبٌ في تخمينك. لقد كنتُ ضابطاً في جيش لودهي، لكنّني الآن أتجسس لصالح الإله، وقد حاربت ضدّكم في معركة كالبي، وخسرتُ أصابعي». بسط يديه أمام كمال الذي بدا دهشاً.

«مررت مع كتيبتي المنتصرة بمدينة أيودهيا التي كانت تعيش فيها...».

سيطر الوجل على قلب كمال، وبدأ يفكّر هل هذا الرجل يملك معرفةً بالغيب مثل ذلك الراهب من شراوستي الذي كان من عبدة الإله شيفا؟

«قُتل أخوها المدنيُّ في الحرب، فباتت وحيدةً في هذا العالم، على حدّ قولها، فجاءت إليّ، إذ ظنّت أنّني قائدٌ عسكريٌّ من الجيش الشرقيّ. لم تتمكن الفتاة الحمقاء من التمييز بين الأزياء العسكريّة والرايات. قالت إنك وعدتها بالعودة، لذلك تسكّعت في الغابة بحثاً عنك. ولكن لم تأت أي بجعةٍ أو سحابةٍ سوداء برسالتها إليك...».

«ثم قالت لي: ارم هذا السيف في النهر أيها الجندي!، ألم تقتل الناس بأعدادٍ ترضي جشعك؟»

«صدمني هذا الحديث، وقد كنت مقاتلاً بالفطرة، كوني من طبقة تهاكور، ومن عبدة الإلهة الانثى دورغا بهافاني، لكنّني الآن إنسانٌ مختلٌف. قالت لي: اذهب إلى كاشي، وكن برفقة القديس كبير داس. لذلك اخترت طريق الرهبانيّة،

وأعيش هنا معظم الأوقات. وأنا أطلب منك أيّها الرجل الواهم أن تذهب إلى كاشي أيضاً قبل أن يمضي الوقت».

فجأةً وقف الجنرال السابق وغادر، ولم يتحدّث مع كمال مرّةً أخرى.

تدفق نهر غنغا كعادته، واستمرّت السفن في الإبحار على سطح مياهه الذهبيّة الزرقاء، بما فيها المراكب الحكومية، والسفن التجاريّة، وقوارب الصيد... وانتفخت أشرعتها بأثر ريح المساء عند غروب الشمس، وبدا أنّ آلاف البجعات المتأهبة للطيران متّجهةٌ إلى الشمال المثلج. ارتفعت أصوات الأغاني من الزوارق والقوارب، بما فيها ترانيم اليوغيين وأناشيد الدراويش. أبحرت السفن التجاريّة صوب أسواق البلد الكبيرة محمّلةً بالأقمشة القطنيّة من غوجرات والبنغال، والحرير والديباج من مدينة كاشي، والمصنوعات اليدويّة من دكن أي الجنوب، وسافر الناس من المناطق النّائيةِ عبر النّهر الواسع بمن فيهم الرهبان البوذيون من التبت وكشمير، والسيّاح العرب، والمعماريّون، والفنّانون من شيراز، والراقصون الجاويّون، عمّ السلام والرّخاء، وازدهرت أرجاء البلد تزامناً مع حكم السلطان إسكندر لدلهي آنذاك وكان كلّ شيء في العالم على ما يُرامُ.

ذات مساءٍ، جلس كمالُ قرب الرّاهب البوذيّ الوحيد الذي يرتدي الزيّ الأصفر، فرفع الراهب البوذي عينيه. كانت تلك ليلة «ويساكها فورنيما» أو يوم ميلاد البوذا. ولد «غوتام سيدهارتها» في هذه الليلة قبل ألفي عامٍ في جبال الهيملايا، وفي ليلة البدر الأخرى من فصل الربيع اكتسب المعرفة. تراقِص القمر على الأمواج، وتلألأت أشعّته على وجه الراهب البوذي.

تساءل كمال بصوتٍ عالٍ: «كيف يمكن للمرء أن يحرّر نفسه من أفكاره؟»

فأجاب بلا انفعالٍ: «لا يمكن للفكرة أن تعرف نفسها، ولا يمكن لها أن

تذهب إلى الخارج وحدها، وليس ثمّة إلهٌ خارج الكون، ولا ثمّة كونٌ خارج الإلـه، ولا فـرقَ بين الصّحيح والخطأ، لكنّ المطلـق فوق كلّ شيءٍ، وهذا هو الصمت».

عاد كمال إلى زاويته وقد بدت عليه أمارات الحزن الشديد،. رست السفينة بجانـب أكمةٍ جميلـة المنظر. لاحـت حجرةٌ رماديّـةُ لتكيّةٍ من خـلال أغصان شجرة فاكهة كيرني. حمل كمال حقيبته ونزل من السفينة. صعد الأكمة ووصل إلى التكيّـة التـي تعود للمتصوّفة من الطريقّة الجشـتيّة. كانـت محاطةً بالحقول الخضراء حيث عمل بعـض المريدين كمتطوّعين، وزرعوا المحاصيل الغذائيّة للمطابـخ الجماعيّة. كانت المقـبرة تعود لأحد المتصوّفة، أما المدرسـة الملتصقة بالمسـجد فقد غارت وراء الأشجار المتسـلقة المورقة، مما أوحى بوجود مكانٍ آمنٍ كبيرٍ يوفّر ملاذاً للمتصوّفة.

16

كمال بين أصحاب الثّياب المرقّعة

تذكّر كمال أصدقاءه المتصوّفة من مدينة جونفور الذين كانوا يتحدّثون عن الطريقة الجشتيّة في الحب والجمال والألحان. كان يسمع غناء القوّالي من داخل التكيّة. كان شعر أمير خسرو الشهير -*من الصعب عبور الطّريق إلى البئر*- يشكّل جزءاً من أسطورة الريف الهندي الأسطورية، وفي هذا الـ «قوالي»، اكتسب البيتُ دلالةً روحيّةً.

دخل كمال بحذرٍ، وخلع حذاءه، ثمّ جلس على العتبة. كان معادياً بعض الشيء للمتصوّفة، على الرغم من قوله: «أفضل أصدقائي من جماعة الصوفية».

وأخيراً انتهى الغناء المفعم بالنّشوة. كان ناظر النزل شيخاً طيّباً محترماً، استقبل المسافر المرهَق بمودّةٍ وترحابٍ، وسأله عن حاله، فانفجر كمال بالبكاء فجأةً.

«الستّار» هو أحد أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، إذ إنّه يخفي برحمته أخطاء العباد وعيوبهم المشينة والمحرجة. وبحسب اعتقادات المتصوّفة فقد أعطى اللهُ سيّدنا الرسول قماشاً أو خرقةً تدلّ على السلطة الروحيّة ليلة معراجه من القدس إلى الملأ الأعلى، وقال له: «أعطها لأحد أصحابك

الذي سيعطيك هذه الإجابة»، ثم همس الله بالإجابة إلى الرّسول. وعند عودته إلى الأرض، سأل النبيّ محمّدٌ صاحبه أبا بكرٍ ماذا سيفعل لو وجد هذه الخرقة؟ فأجاب أبو بكرٍ بأنّه سينشر الحق في العالم، وأجاب عمر بأنّه سيقيم العدل، وقال عثمان إنّه سينهي الفقر. وأخيراً سأل عليّاً فأجابه بما همس به الله إلى الرسول، قال إنّه سيكتم عيوب الناس المشينة عن إخوانهم، فأعطى له لباس الولاية الذي يدلّ على المكانة الروحية المتميّزة، وأعطى الخرقة لابنه الأكبر، الإمام الحسن، الذي أعطاها بدوره للحسن البصري أحد المتصوّفة الأوائل في الإسلام. وانتقلت الخرقة الرحمانيّة الرمزيّة إلى كبار المتصوّفة في العصور اللاحقة.

يكنّى علّيٌّ وليَّ الله، ويعني صديق الله، وهو يعتبر عين التصوّف ومنبعه في معظم الطرائق الصوفيّة، ولا سيما في الطريقة الصوفيّة الجشتيّة. وفي السلسلة الصوفيّة، يعين مرشدٌ أحد مريديه خليفةً له عند وفاته، ويعطيه خرقة الإرادة أو لباس المريد الصادق، ويرث الخليفة نسخة قرآن المرشد، ومصلاه، وقلنسوته، وعمامته، ومسبحته، ووعاء التسول الرمزيّ، وخفّه. ويتم الحفاظ على هذه الأشياء بوصفها آثاراً مقدّسةً، وقد تصبح الخلافة وراثيّةً أحياناً. أنشئ بيت الطريقة الجشتية هذا من قبل مخدوم جهانين جهان غشت أو السائح في أنحاء العالم الذي غرس أيضاً شجرة الكيرني هذه في القرن الماضي.

هل هذا هو الملاذ الذي يمكنني أن أواري فيه ذنبي كمنشقٍّ؟

لقد أعطوني غرفةً في هذه المساحة المربّعة، وأصبحت بذلك خادماً لهذا المرشد، وسأواصل كتابة تعليماته في كرّاستي إن شاء الله. وأنا سعيدٌ بأنني لم أطرحها في النهر.

الدراويش المتجولون يجيئون ويروحون، وهم يرتدون الملابس المرقّعة

تيمّناً بسنّة السيّد الرسول الذي كان يصلح ملابسه ويرقعها لتواضعه وفقره.

أذكر ما قالته تشامبافاتي: إنه في يومٍ ما سينقذني هؤلاء الناس من أوهامي...

لم يكن النزلاء في التكيّة رهباناً، إذ لا مجال للرهبانيّة في الإسلام. كان معظمهم أرباب أسر جاءوا للإقامة فيها لمدّةٍ قصيرةٍ، وكان المرشد كذلك رجلاً متزوجاً، تعيش أسرته في بيتٍ صغيرٍ قرب المقبرة. كان المتصوّفة يتميّزون بثقافة الكلام، فأحبّوا الكلام وانشغلوا بالكلام. تكلّموا عن الرّسول، وعليّ، والمتصوفة الكبار، وعلّموا الناس بالأمثال والحكايات. كان أحد المريدين يدوّن كل ما يتحدّث به المرشد، لِتُجمع الكتابات لاحقاً على شكل ملفوظات المرشد. قرأ كمال العديد من كتب السيرة في مكتبة التكيّة، وقد أعجبه ما قرأه في كتاب «*ملفوظات مخدوم جهانين جهان غشت*»، ورد فيه أنّه بعد غزو تيمور، لاقت موضة المغول قبولاً واسعاً في دلهي، وبدأ الصفوة في دلهي يعقصون شعورهم بشكل ضفائر على الطريقة الصينيّة!.

وبصفته خادماً للمرشد، أخذ كمال على عاتقه تهوية مرشده، وغسل أيدي الضيوف، وتقديم الطعام لهم، كما ساعدهم في المطبخ أحياناً. إن حدث لتلميذٍ وتصرّف بأنانيّةٍ، عيّنه المرشد مشرفاً على أحذية الزوار. كان المرشد يقلّد خصال السيّد الرسول في تواضعه وضيافته وسماحته. قبل المتصوّفة من الطريقة الجشتيّة الهندوس أيضاً مريدين لهم، وكان المرشد ومريدوه من غير المسلمين يحملون منديلاً في أيديهم، وكان المرشد يحثّ الأتباع حديثي العهد علَى ترديد العبارة التالية معه: «من الآن فصاعداً، سأبتعد عن الشرّ، وأعيش حياةً طاهرةً»، بعد ذلك تستقبل الجماعة المريد الجديد، وتُوزّع الحلوى. بيد

أنّ المريد كان يواصل العبادة على طريقته.

في أحد الأيام بعد الظهيرة عقد المرشد نقاشاً طويلاً شرح فيه فكرة تجلّي الإله عند ابن عربيّ الأندلسيّ. ألف الشيخ الأكبر، شيخ الشيوخ، محيي الدين بن عربي مائة كتاب حول المواضيع الميتافيزيقية (الماورائيّة) والميتانفسيّة، وقال إنّ جميع التّجارب الروحية لها صلاحيتها وشرعيّتها. وبعد أن فرغ من المحاضرة، التفت المرشد إلى كمال وقال له: «اذهب إلى كاشي والتق بـ«ميان كبير» قبل فوات الأوان».

«يا سيّدي، لقد قال لي راهبٌ هندوسيٌّ لقيتُه على متن السفينة أن أفعل الشيء نفسه».

أشرق وجه المرشد وقال: «أعلم ذلك».

لم يُدهش كمال الدين الذي كان متشكّكاً في وقتٍ ما بهذا الأمر، لأن الاستبصار أو كما يسمّيه المتصوفة «الضمير المستنير» يمثّل ظاهرةً نفسيّةً عامّةً، ومع ذلك سأل كمال زميلاً له: «لماذا يريد حضرته أن أذهب إلى كاشي، وألقى كبير داس؟»

فأجابه الرّجل: «قد يمثّل ذلك خطوةً إضافية في تقدّمك، إذ تبدو مضطّرباً، لأنك ربما فقدت عزيزاً، وقد تجد بعض الطّمأنينة في هذه الرحلة».

غادر كمال مرشده، وودّع أصدقاءه الجدد، وخرج مرّةً أخرى باتجاه مدينة بناراس. وبعد عبور قرىً عديدةٍ وصل إلى غابةٍ خصبةٍ، حيث وجد مجموعةً من الراهبات الهندوسيّات من أتباع الإله فيشنو من البنغال في طريقهنّ إلى مدينة ماتهورا، يقضين بعض الوقت جالساتٍ تحت ظلّ شجرةٍ عطريّةٍ. بعيداً عنهن كان الرهبان الهندوس ينفخون في المحارة. وطيور الحجل البرية تغرّد بين الأعشاب، وتفوح منها الأغاني الملحّنة مثل البخور الذي يصنع من

شجرة الماهو. جلس كمال على حافّة حوض المياه، وهو يستمع إلى الأصوات المنبعثة من الغابة.

أحسّ بأنه كان في حالة من الصمت، وأنّ الأصوات التي سمعها انعكاساتٍ متنوّعةٍ لذلك الصمت، لقد دخل في عالم عجائب المتصوّفة. كان هذا الصمت مطلقاً، فأصغى بكلّ حواسّه. كانت الهندوسيات من أتباع الإله فيشنو ينشدن أغنية جايديو غوسوامي من منطقة بردوان في لحن «بسنت»:

«انتظرت رادها الجميلة... طيلة فصل الربيع في غابة كريشنا. كريشنا كثير النسيان. أعرف أين يتلكأ كريشنا أيام الربيع الأولى. حينما تحمل الّريح الآتية من طرف الغابة الصندل العطر في جناحيها، تأتي بالعطر المسروق من أعراش القرنفل، وفي الغابات يطنّ النحل، ويترنّم طائر الوقواق بحبه على الناي».

«أعرف كيف أمضى كريشنا أيامه ولياليه، إنه يرقص مع الراقصين، ولا يفكر في رادها. انظري أيتها المرأة، كيف يمضي كريشنا ساعات الفراغ هذه، وقد تزيّن بحليٍّ ذهبيّةٍ، ووضع على رأسه تاجاً من زهور الغابة، وأخذ يضحك ويمرح كثيراً في صحبة راعيات الأبقار اللواتي يرقصن ويغنّين ويلعبن ويلهون، وهو يمضي فصل الربيع في عالم الأحلام».

تَسَكَّع كمال في الغابات بصحبة طيور السنونو ومهري بحثاً عن تشامبا، ثم عاد إلى نهر غنغا مارّاً بأشجار التفاح الورديّة، ربّما تكون إحدى الهندوسيات من أتباع الإله فيشنو اللواتي كنّ ينشدن أغنية جايديف. ترمز رادها إلى نشوة الرّوح التي نجحت في اكتشاف المعنى الحقيقيّ للحبّ الذي كتب عنه الباحث الصوفي الإيرانيّ، روز بهن. رادها هي الرّوح البشرية

التواقة إلى الاتّحاد مع الذات الإلهية، وهو ما يطلق عليه الصوفيّة الفناء في الله.

أجاب قرويٌّ لمّا سُئل: «هي تشـامبافاتي من أيودهيا، تركوها وحيدةً بعد الحـرب، ولم يكـن ثمّـة أحدٌ يهتمّ بهـا، لذلك انضمّـت إلى الراهبـات اللواتي يعبدن فيشـنو، لقد ذهبت إلى بيرنداباان»، وأضاف بنبرةٍ واقعيّةٍ: «يا سـيّدي، تصبح النسـاء راهبات بلا رجـالٍ، ويصبح الرجال رهباناً بلا نسـاءٍ...». ثمّ مضى في سبيله.

وصـل كمال إلى بناراس. تقع مدينة شـيفافوري عـلى الضفّة الأخرى من النهر حيث توهّجت قمم معابدها الذهبية بضياء الشمس، وقد رنَّ عددٌ هائلٌ مـن أجراس المعبـد في آنٍ واحدٍ. كان الهواء مثقلاً برائحـة البخور، وتفتّحت الأزهار المهداة للمعابد، وعمّت الطرق الضيّقة، في حين اسـتحمت الحشود من الرجال والنساء في المغطس. تعدّ مدينة كاشي مدينةً أزليّةً!

ثمة قريةٌ صغيرةٌ للنسّاجين المسلمين على طرف الغابة. مرّت بهم مجموعةٌ من القلندريين «المداريين» غريبي الأطوار، انضمّ كمال إلى حشـد الأشخاص المتواضعين الذين كانوا في طريقهم إلى بيت كبير المرشد.

أقـام في مدينة كاشي مع أتباع القديس الشـاعر، وتغنّى بترانيمه واسـتمع إلى خطبـه. كان الاتجـاه التوفيقيّ عنـد كبير يذكّر كمال بمولانـا جلال الدين الرومـي الذي عـاش في تركيا قبل مائتي عامٍ. جميعهم يقولون الشيء نفسـه، لكن ذلك لا ينفع الناس كثيراً.

حدثـت أمـور مثيرة إبان حكم إسـكندر لودهـي، فلقد ولد طفلٌ باسـم نانـاك في بنجـاب في بيت طبقـة خاتري، وقـدّر له أن يؤسّـس دينـاً توفيقيّاً، سـماه المسـلمون «ناناك شـاه فقير». وللعلم فإن كلمتي «شاه» و«سلطان» في المعجم الصوفيّ تدلان على العظمة الروحية، إذ يعد المتصوّفة أو الزهاد ملوك

العالم الروحي. لم يكن المتصوّفة في الهند معروفين لدى علماء الدّين شأنهم في ذلك شأن الرهبان الكاثوليكيين في أوروبا المعاصرة. كان رجال الدّين الهندوس، والعلماء المسلمون مستائين من كبير داس، فتقدّموا بعرائض إلى السلطان إسكندر لمعاقبة هذا النسّاج المهرطق الذي ضلل الناس بحسب اعتقادهم، ونتيجةً لذلك، طلب السلطان إسكندر من الشيخ كبير أن يرحل عن بناراس.

ذهب كمال على الفور إلى ميناء النهر بعد رحيل كبير داس عن مدينة بناراس، وأبحر نحو البنغال، لأنّه أراد أن يلتقي بصوفيٍّ بارزٍ من أتباع الطريقة السهروردية في تشيتاغونغ، وهكذا صار كمال درويشاً متنقّلاً.

كان المتصوّفة الدّعاة من الطّريقة السهروردية مقبولين ولاسيما بين الطبقات الدنيا من البنغال، وقد أقام كمال في تكاياهم شهوراً، وبأمرٍ من أحد مشايخ الطريقة السهروردية باشر التّرحال من جديدٍ.

17

المغنون الشعبيون من البنغال

بـدا الناس جميعـاً مغنـين في البنغـال. ردّد القاصّون الحكايـات الخياليّة، وتغنّـى الملّاحون وسـحرة الثعابـين وصيادو الأفيـال بأناشـيدهم الملحميّة، لقد أنشـدوا ترانيم عن الله ومحمّد الرسـول ورادها كريشـنا. شهدت الحركة الفايشـنافيّة ازدهاراً كبيراً. جدّف كمال بقاربه من تكيّة إلى أخرى وهو يغني. ثمـة منحدراتٌ خطيرةٌ تتخلل النهر في تشـيتا غونغ؛ أنهـارٌ عريضةٌ متعرّجةٌ، ومسـاراتٌ جبليّـةٌ مظلّلـةٌ بأزهـار رادهـاكالي، وأشـجار البونسـيانا. كانت المساجد ومعابد التانتريكيين متواريةً خلف بساتين القصب.

حدث مرّةً أن مرّ كمال بمجموعةٍ من المطربين ينشدون قصيدة ألّفها رجل يدعى نظام السـارق. لم يكن كمال قد سـمع قطّ بهـذه القصيدة التي تتحدث عن الرسـول، كان كاتبها قاطع طريقٍ سـيئ السّـمعة، عـاش في هذه المنطقة قبل قرنٍ من الزمن، وتحوّل إلى رجل سـلام على أيـدي المتصوّفة من الطّريقة السـهروردية حتـى غـدا صوفيّـاً راهبـاً. جلس كـمال بالقرب من المنشـدين واستمع إلى ما يلي:

لو لم يأت الرسول،
لما وجدت مملكة الله في العوالم الثلاثة،

ليحيا عبد الله،
لتحيا آمنة الطيّبة،
لتحيا المدينة،
ليعش جميع النساك، ولتحيا فاطمة أم العالمين،
والآن أنحني أمام بريندابان،
ليحيا الإله كريشنا،
العاشق الأزلي للسيّدة الجميلة رادهي،
أقدّم احترامي وتقديري لطوائف المسلمين كافّةً،
وأركع أمام مسجد المرشد الكبير في نوفارا،
ومسجد الهرماني على الجانب الأيسر،
لقد مرّ الزاهد الكبير بهذه الأماكن ذات مرّةٍ..
ها أناأتقدّم إلى الأمام... أصل إلى سيتا غات،
حيث أركع لأصلّي أمام قدوة الفضائل النسائية،
سيتا ديفي،
ليحيا سيّدها راغوناته
ليحيا... وليحيا... وليحيا...

ابتسم كمال ابتسامةً عريضةً، لقد كانت هذه القصيدة إحدى عجائب الهند وقصصها الغريبة التي ربّما سيذكرها في رحلته، لكنّه توقّف عن كتابة مذكّراته منذ زمنٍ بعيدٍ، وفقد كرّاسته أثناء تجواله.

نسي الناس أبا المنصور كمال الدين، الموظّف في المكتبة الملكيّة لمدينة جونفور، ولم يعد أيّ أحدٍ يعرف هذا الرجل ذا العينين الزرقاوين والبشرة

السمراء والشعر الأشيب، الذي يجلس مصغياً إلى قصّة كانتشان وقد ضجر من أحد المنشدين، أو يكتب قصّةً شعبيّةً باللّغة العربيّة...

سمع القصص والحكايا الشعبيّة عن نساء القرية المسلمات، وتخيّل الكثير من المشاهد عن الماضي البوذيّ الرائع في البنغال، وعن الأيام المشرقة لملوك فالا وسينا التي كانت أرض الأمراء التجّار الذين أبحرت سفنهم ذات الشكل الطاووسيّ في الأنهار الكبيرة. والآن يغَيِّر الكثير من عبدة غوتام بوذا والإله تارا ودورغا دينهم على أيدي المتصوّفين.

تزوّج فتاة من طبقة المنبوذين اسمها سوجاتا ديبي، ولم يجد حرجاً في انتمائها إلى طبقة المنبوذين، سمّاها العالم المسلم الذي عقد نكاحهما «آمنة بي بي». راح كمال يزرع الأرز في قطعة أرضٍ خصبةٍ. ثمة بركة مياه أمام كوخه المصنوع من القصب مغطّاة بأزهار اللوتس، تسبح الأسماك الملوّنة الصغيرة في مياهها. وحينما كان قوس إندرا يلوح في السماء بعد المطر، يجلس كمال في شرفته الصغيرة، ويعزف على الآلة الوتريّة أناندا لاهيري التي تعني أمواج السّعادة.

كان الغجر وشعب البنجارا يحملون البضائع التجاريّة من مكانٍ إلى آخر في عرباتهم التي تجرّها الثيران، وقد أخبروا كمال بأنّ السلطان حسين شرقي مات. لقد كان رجلاً فذّاً مؤثِّراً، بل إنّه لأعظم من الحياة ذاتها! لقد كان في مستوى يوليوس قيصر. هل يتذكره الناس من أجل موسيقاه أم تراهم يتناسون إنجازاته في الموسيقى أيضاً؟ إن الناس في هذا البلد لا يحفظون أسماء الفنّانين، غير أن أعمالهم تبقى خالدة. من هو ذلك النحات الذي نحت تمثال «الفتاة مع جذع شجرة كادامبا» الذي رآه كمال في زاوية البيت القديم المحترق في شراوستي؟ أما عنه هو فلقد أصبح كاتب قصص شعبية، فضلاً

عن أنه جمع الأناشيد المجهولة الهوية في البنغال، وقد قال ذات مرّةٍ إن النّاس سيذكرونه باسم مولانا كمال مؤلف كتاب تشامبافاتي عن الحكايات الرمزيّة الصوفيّة، مثلما يذكرون مولانا داؤد الذي ألف كتاب تشاندين، لكنّه لم يتمكن من تأليف الكتاب.

لقد توفّيت آمنة، وغدا ولداه، جمال وجلال، مهندسين معماريّين. صارت لكمال لحيةٌ طويلةٌ، وتتناثر خصلات شعره الأبيض على أكتافه وهو يكتب أناشيده عن المرشد والمعرفة جالساً في كوخه الجميل المصنوع من القصب بالقرب من قرية سونارغاون.

في عام 1525م، وقع اضطرابٌ آخر في دلهي، إذ انهزم السلطان إبراهيم لودهي ابن إسكندر لودهي أمام الملك الجديد ظهير الدين بابر من آسيا الوسطى الذي دعاه شخص من راجبوت يسمى رانا سانغا للإطاحة بالملك لودهي. قال له جلال ابنه الأكبر إنه يريد الذهاب إلى دلهي لتشييد المباني للمغول، فلم يرد عليه كمال بشيء. فقد ساح في الأرض، ووصل إلى وجهته، والآن أبواب العالم مفتوحة أمام ابنيه، والخيار في أيديهما.

أطاح شير خان بالسلطان غياث الدين من البنغال، واحتل عرش مملكة غور. شير خان من منطقة ساهاسرام في بيهار، تثقف في جامعة جونفور. انخرط في السياسة، وقرر الاستيلاء على السلطة في دلهي، لذلك نشبت حربٌ ضروسٌ بين شير خان وهمايون ابن بابر.

بدأ الملوك يتّخذون ألقاباً فخمةً مثل «شهنشاه» أي ملك الملوك، والإمبراطور. وقد اختار حكّام العالم الإسلامي لذواتهم كافّة مظاهر العظمة والأبّهة وألقاب ملك الملوك الساسانيين المهزومين من إيران والأباطرة البيزنطيين. وهكذا كان الحاكم المغوليّ يلقّب بـ«شهنشاه»، شأن داريوش

الذي ادّعى أنّه سيّد الأرض منذ طلوع الشمس إلى مغربها...

دخل المغول الجبابرة مدينة غور، فَصُكَّت العملة باسم الملك المغولي العظيم. وسحرت البنغال - التي كانت تدعى غور - الإمبراطورَ، فسمّى مدينة غور مدينة الجنّة.

تذكّر كمال الدرويش الفارسيّ القادم من دلهي الذي جاء معه قبل زمنٍ طويلٍ إلى مدينة جونفور للمرّة الأولى. لقد أخبره ذلك الناسك عن هذا كله؛ عن مسألة تغيير العملات من قبل السلالات الحاكمة، وأسماء الأماكن. رأى كمال كل هذا بأمّ عينه، وكان شاهداً عليه، وكتبت الأصابع المتحرّكة حول.....

وفي غضون عامٍ، هاجم شير خان البنغال، ودفع المغول الجبابرة للعودة إلى دلهي. نشبت حربٌ مروّعةٌ بين البتان شير شاه سوري والمغول، وصار شير شاه فيما بعد ملكاً رائعاً، وإدارياً قديراً، فقد بنى الشوارع الرئيسيّة، وأنجز الأشغال الكبيرة لعامّة الناس. لقي ابن كمال الأكبر مصرعه وهو يحارب في شوارع مدينة غور. ذات ليلةٍ وصل جنود الملك شير شاه إلى كوخ كمال وقالوا له: «لقد غادر ابنك المهندس المعماريّ جمال إلى دلهي للانضمام إلى الحكومة المغوليّة. أيها الخائن! سنقتادك إلى مدينة غور، ونرمي بك في السجن».

مضى كمال نحو الباب متعثراً، يحمل مصباحاً في يديه المرتجفتين. رأى الجنود الصاخبين وهو حائر، تقدم الجنود نحوه بشكل خطر. لقد بلغ كمال المسكين خمسة وثمانين عاماً من عمره. تشبث بالباب، وعلى الرغم من ضعف قواه البدنية فقد ظل صامداً. لم يكن يحمل سيفاً يدافع به عن نفسه، حاول كمال أن يتأمل ما يقوله هؤلاء الناس المروعون. قالوا له إنهم سيأخذونه إلى

مدينة غور ويسـجنونه هناك. حاول أن يفهم سبب هذه العقوبة، وتساءل في نفسـه عما فعله ليسـتحق هذه المعاملة، فهو لم يكن في نزاع مع الأفغان أو مع المغول. تمنّى فقط أن يتركوه وحيداً. لقد تعاملوا معه بطريقة فظة، ولم يفكروا في أن العيـش بحد ذاته في هذه الحياة بالنسـبة له أصبـح متعباً جداً. هذا البلد بلده، ولد أولاده هنا، وزوجته الحبيبة مدفونة هنا، وقد بذل كل قواه في جعل هذه الحقول تتفتح بالزهور، كما قضى سـنوات في إثراء اللغة التي يتحدث بها هؤلاء الناس، كتب الأغاني، وجمع القصص، وسـيواصل العيش هنا، لذلك لا يحق لشخص أن يقول إنه أجنبي أو خائن.

دفع جنود شـير شـاه هذا العجوز المترنـح، ومضوا به وهـم يضحكون. سـقط كمال عـلى عتبة البـاب. وببطء تمتـم الآيـة القرآنية من سـورة الفجر، «يـا أيتها النفـس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية»، ثم لفظ أنفاسـه الأخـيرة في هـدوء تام، وهو مسـتلق هنا في تلـك الليلة المظلمـة، أي في ليلة «أماواس»[1].

كانـت دلهي تسـمى «أندرابراسـتها» في أيام المهابهارتا، حوالي 1000 سـنة قبل الميلاد، ولعل الإله كريشنا عاصر النبي الملك داؤد. يا جمنا! كم مر عليها مـن أزمان طويلـة. في أيام الأتراك بـدأت مدينة «دِلي» (دلهي) لـراي باتهورا تُعرف باسم تغلق آباد، واليوم تُعرف باسم شاهجهان آباد. وهذا الاسم يثير الدهشة في محاكم أوروبا البالية، لقد شهدت التجارة والصناعة ازدهاراً كبيراً تحت حكم المغول، وتنافسـت الدول المسـيحية فيما بينها على التجارة مع بلد «المغور الكبير».

وبسـبب افتقار الراجبـوت إلى الرُّكُب، نجحت أمـواج راكبي الأحصنة المتعاقبـة الذين جاءوا عبر معبر خيبر في الاسـتيلاء عليهم، وبالمثل، فبسـبب

(1) الليلة المظلمة/ غير المقمرة، أي الليلة قبل يوم ظهور الهلال.

افتقار المغول إلى السفن الحربية، تمكن الإنجليز من اقتحام الهند عن طريق البحر.

أصبحت البنغال سوقاً كبيرة للتجار الأوروبيين. وقد ضم الملك أكبر هذه السلطنة، وتوسعت إمبراطوريته إلى جميع أنحاء الأراضي الهندية. وبعد مرور سنوات على هذه الحال، أخذت الإمبراطورية المغولية في الانحطاط، فأعلن المحافظون المغول المعروفون بـ «نواب ناظم» في محافظة البنغال استقلالهم عن الحكم المغولي. لقد أعطى الله للنبي سليمان حق الحكم على البرّ والبحر، كما كان ملكاً على الجن والشياطين، والطيور والحيوانات، التي كان بإمكانه التحدث معها، وكان أيضاً أغنى رجل على الأرض. ذات مرة قال لله: «يا الله أريد أن أدعو جميع مخلوقاتك إلى مأدبة عشاء في بيتي»، فأجابه الله قائلاً: «افعل ما شئتَ». حُضِّرت مائدة كبيرة، فجاءت سمكة من البحر وأكلت مأدبة الطعام كلها. قال الله لسليمان: «يا سليمان! أنا فقط أستطيع إطعام جميع خلقي». لا يعني هذا المثل أن سراج الدولة، النواب الحاكم في البنغال، ادعى أنه يشبه الملك سليمان قط. بدا واضحاً أن قانون تشانكيا من تاكسيلا بدأ ينفذ مرة أخرى. خرج «حوت» باسم أدميرال واتسون من البحر، ووثبت أمام سراج الدولة سمكة صغيرة لأن مير جعفر السلطعون غدره، وابتلع واتسون وكلائف لويد سراجَ الدولة المسكين دون أن يقولا له: شكراً لك.

بعدها اكتظت الممرات المائية المهمة في البنغال بالسفن التجارية الإنجليزية، وصار الإنجليز أسياداً جدداً أقوياء في الهند.

هبت ريح قوية هزت السفينة، فراح قائد القارب يجدف بكامل قوته. وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن الوقت الذي تجتاح فيه الأعاصير البلد مثل غضب الإله في الأسطورة العبرية، فإنَّ الشاب سيريل أشلي كان مضطرباً،

لذلـك حمل الفانـوس الوامض، وقرر مسـاعدة العجوز الأسـمر المسـكين، وقف وصرخ قائلاً: «ألو! عبدول، اسمعني...».

كان الإنجليز يسـمون جميع المسلمين من الطبقة الدنيا باسم عبدول. لقد مثّـل ذلك إحـدى عاداتهم الدالة على غطرسـتهم بعد انتصارهـم في الهند. لم يهتموا قط بنطق أسماء الأشخاص الأصليين بشكل صحيح.

كان قائد السفينة الضعيف يحمل شخصين من الإنجليز على السفينة عبر نهر فادما الذي يشبه المحيط في عرضه. رفع رأسه.

«اسمي مولوي أبو المنصور كمال الدين أحمد»، أجاب بوقار.

إنه اسـم طويل حقـاً على هذا المخلـوق الصغير الضعيـف. أثار الجواب ضحكة سيريل المرحة.

«أنا سعيد بلقائك يا مولوي! هل لي أن أساعدك في تحريك المجاديف؟

بدا الملاح دهشاً. كان هذا الإنجليزي يتكلم باللغة البنغالية، وبدا لطيفاً. قال في نفسه: حسناً، ثمة أنواع من البيض.

فرد عليـه قائلاً: «شـكراً لك يا سـيدي! الله رباني، وسوف أنجز مهمتي بعونه».

أعجـب سـيريل بإجابته، فسـأله بعد توقـف: «أنت مولوي (عـالم دين) فلماذا تقود قارباً في مثل هذا الطقس السيء؟»

ربـت الرجـل على بطنه المجعد وقـال: «لهذا الشيء، بعـد معركة فلاسي، أُغلقت الكتاتيب سريعاً».

تمتم سيريـل قائلاً: «أوه! لقد ولج المياه الخطيرة دون وعي منه»، لم تكن سمعة الإنجليز طيبة لدى مسلمي البنغال المهزومين المفصولين من الحكم.

لم يتكلم أبو المنصور، وصرف تركيزه على المجاديف.

نظر سيريل إلى ما تحت سقف حصيرة السفينة، لا يوجد فيها إلا ما يحتاجه الملاح أبو المنصور في عالم البحر، فثمة فانوس دخاني آخر، وقدور، ومقالي مستخدمة، وشيشة جوز الهند معلقة على الجدار. بدا له أن البرتغاليين حولوا كافة السكان الأصليين إلى مدخني تبغ. عاد سيريل إلى مقعده، فوجد صديقه وشريكه في التجارة، بيتر جاكسون، يغط في النوم. كيف ينام هذا الرجل بسرعة في أي مكان يريد، وهو شخص مبتهج، وغير حساس، ومكتف بذاته، من نوع شخصية هوغارثيان.

وللحظةٍ استغرب سيريل أشلي موقفه. ما الذي يفعله هنا؟ لقاؤه صدفة بهذا الرجل الذي جاء به من شوارع كامبريدج ولندن، ووضعه، وهو العملاق، بين الأقزام السمر في أرض الخيال هذه التي تسمى البنغال. يقيم سيريل هنا منذ عشر سنوات. كانت سنة 1797 على وشك الأفول، وسندخل قريباً القرن التاسع عشر، رائع.

توقفت الرياح، وبدأ الملاح الهزيل بإنشاد أغنية صوفية رقيقة كنوع من أداء الشكر. لقد وصلوا بالسلامة إلى رصيف الإقطاعي غريش تشاندرا روي، الذي منح لقب «راجا» أي الملك مؤخراً.

18

سيريل أشلي من كلية سيدني ساسكس، كامبريدج

كان عمره يناهز اثنتين وعشرين سنة عندما نال درجة البكالوريوس في الفنون. تخرّج في باحة الكلية المغطّاة بأشجار اللبلاب ليواجه العالم. لقد كان طالباً ذكيّاً وشاعراً واعداً. كان أبوه كاهناً معوزاً مسؤولاً عن رعيّة قريةٍ في منطقةٍ نائيةٍ هادئةٍ تقع في سري. أكمل سيريل دراسته على نفقة منحةٍ دراسيّةٍ مقدّمةٍ من عمدة البلدة. ودّ لو أصبح مدير مدرسةٍ، وكرّس وقت فراغه لكتابة الشعر، لكنّ والده نصحه أن يختار مجال القانون.

ووفقاً لذلك، انضمّ سيريل أشلي بعد تخرّجه في كامبريدج إلى نقابة محامي الجمعيّة الشرقيّة في «ميدل تمبل»، حيث كان الصحفيّون والأدباء يجتمعون في المقاهي في شارع فليت المجاور لمناقشة القضايا الدوليّة، والحروب الدّائرة في الدول الأجنبية، وبحث قضايا الأتراك والروس والهنود. لقد بدأ العالم ينفتح أمامه، فتزايدت الرّحلات وراح الناس يتوافدون بعدد أكبر إلى العالم الجديد، وإلى الشرق، مما خلق فرصاً رائعة لكسب الأموال الطّائلة، ولا سيما في الشرق المتخلف، الذي سادته فوضى سياسيّةً. كانت روسيا مشغولةً باحتلال أجزاء كبيرة من الإمبراطوريّة الأوروبيّة الخاضعة للدّولة العثمانيّة. غدت الهند دولةً صناعيّةً غنيّةً في عهد حكم المغول، إذ باتت تصدّرُ منسوجاتها وبضائعها الفاخرة إلى أوروبا. لكنّ وتيرة التجارة الأجنبيّة بدأت تنهار بسبب المشاكل

السياسيّة النّاشئة، ليس في الهند وحسب، بل في إيران وتركيا أيضاً.

قال الناس لسـيريل لمّا وصل المقهى المفضّل لديه للمشاركة في المناقشات المحمومة: «لقد بات الوضع جيّداً جدّاً بالنسبة لنا، فقد تمكنّا من التّغلب على الضفـادع والرجال من البلدان النامية. وبعـد انهيار قوة المغول المركزية، غدا الجميع في الهند يروم الاسـتيلاء على السّلطة في دلهي. لقد نجحنا في مخطّطاتنا إلى حـدٍّ كبـيرٍ». أخبره صحفـيٌّ بذلك ذات مسـاء، وقدّمه إلى شـخصٍ نبيلٍ يدعى بيتر جاكسـون، بدا كما لو أنه خرج لتوّه من لوحات الرسام هوجرت، فقد كان بديناً، في بداية منتصف عمره، يشـّع ثقةً ذاتيّةً ونجاحاً. بسط الرجل أصابعه السّمينة التي كانت تلمع بالخواتم...

وضحك قائلاً: «هذه الماسات من منطقة غولقنده!».

كان قد التقى بتاجر جاء من قاسم بازار الواقعة في البنغال لقضاء إجازةٍ، وقد أخبر سـيريل، وهو يحتسي قهوة جنوب أمريكية في نبرةٍ رتيبةٍ قاسيةٍ، عن آلاف الجنيهات التي ربحها هناك جراء متاجرته بصبغة النيلة.

سأل التاجرُ سيريل ذات مساءٍ: «ماذا تريد أن تفعل أيّها الشاب؟»

«أريد أن أذهب إلى أمريكا، وأنشيء مكتب محاماة في نيويورك».

«خسرنـا أمريكا، يا صديقي!، وكسـبنا الهند في الوقت نفسـه تقريباً. ثمة نوعٌ من العدالة الشعريّة في هذا الأمر، أليس كذلك؟، اذهب إلى كلكتا، وإذا اسـتخدمت عقلك، سـتجد أوعيةً من الذهب، وسـتصبح ثريّاً حتّى قبل أن تلفظ اسم بيتر جاكسون!».

الهند! لم يكن سـيريل قد فكر فيها، فسـأل: «ألا يستاء السكّان الأصليّون منا؟»

«بعضهـم يسـتاء منّـا، وبعضهم الآخر لا يسـتاء. إنهـم متشرذمون. وقد

صار الكثير منهم حلفاء لنا. وجدنا بينهم أشخاصاً أصبحوا أصدقاء لنا، وقفوا معنا ضدّ شعبهم لتحقيق مكاسب شخصية. أصبحت البنغال سوقاً كبيرةً لنا، وهي تضج بالمدن الجديدة التي تسمى بازار بالإنجليزية، هذه البازارات وتلك... تسود هذه الأيام اقتصاديّات البازار ونظام داستاك أو نظام إلغاء الرّسوم على البضائع الإنجليزيّة، ولنا اليد العليا في الهند بفضل أناسٍ مثل كليف وهاستينغز».

مضى بيتر يخبره عن نظام إلغاء الرسوم على البضائع الإنجليزية، وشبكة التجار «الماروارِيين» الذين يتصرفون كالسماسرة لصالح الإنجليز. دُهش سيريل لسماع كلّ ذلك، ولم يفهم شيئاً البتة.

قال له بيتر جاكسون: «انظر! أريد شخصاً ذكيّاً ذا ثقافةٍ واسعةٍ مثلك ليكون شريكاً لي في أعمالي».

فأجابه سيريل مبتسماً، «دراسة الشاعرين فيرجيل وهوراس قد لا تساعدك في أعمالك المتعلّقة بنظام داستاك بأيّ شكلٍ من الأشكال».

«اسمع! الشعر لا يجلب لك مالاً، كما لا يمكن لأيّ امرئٍ أن يصبح محامياً بارزاً؛ ربما يحتاج الأمر إلى أن تكدح لسنواتٍ في الغرف المظلمة كي تستطيع إنجاز شيءٍ يذكر».

أخيراً نجح السّيد جاكسون في إقناع سيريل بالسّفر معه إلى الهند، وبدت له دراسة مادّة القانون أمراً مملاً للغاية. ذهب به صديقه الجديد للقاء صديقه الآخر المدير في شركة الهند الشرقيّة.

أعجب به المدير. وفي الأسبوع التالي تلقّى سيريل رسالة تعيينٍ كعميلٍ لشركة جون المحترمة. وأخيراً، جاء اليوم الذي اشترى فيه سيريل أشلي تذكرة سفرٍ على متن السّفينة المهيبة أندیامان، وأبحر من مدينة تيلبوري.

سرعان ما شعر بالألم لمغادرته إنجلترا لمّا بدأت جروف دوفر البيضاء تغيب في الأفق. لقد ودّع هذا الفردوس الذي عاش فيه الشعراء: كوفر، وبوب، وغري وغنّوا فيه، وأنتج فيه غينزبرة ورواينولدس لوحاتها الفنيّة. محا الزمن والمسافة مشهد تيرنر الغارق في الشفق، وأزهار الرّبيع في الطرق الريفيّة، وصوت أجراس كنيسة القرية، وألحان موسيقى الصالون الكلاسيكيّة المنبعثة من البيوت الإنجليزية الفاخرة.

لم يشهد هذا المكان الذي يشبه الجنّة ازدهاراً كهذا من قبل، فقد شيّدت القصور، وتدفّقت الثروات من كندا والبنغال وأمريكا الجنوبية. ووجدت الموضات الجديدة طريقها إلى الرّواج، وأصبح الفقراء أثرياء، والأثرياء غدوا أكثر ثراء. لقد سيطرت على أذهان الناس فكرةٌ واحدةٌ فقط، ألا وهي المال، والمال، والمال. خرج سيريل أشلي الذي كان شغوفاً بالآداب، باحثاً عن الثّروات. سيهزّ العالم الفقير شجرة الباغودا[1] التي يُضرب بها المثل، وستتناثر العملات الذهبية منها، أو قد يُقتل في شجار مع أحد رؤساء القبائل، ويُدفن في مقبرة غير مجهولةٍ في غابةٍ.

ارتجف سيريل لما فكّر في إمكانية حدوث ذلك. كان قلقاً مما يخبّئه المستقبل لزملائه المسافرين من التجّار، وأعضاء المجلس الأعلى في كلكتا، ورئيس القضاة في مدراس، ومجموعة من الفتيات العازبات البسيطات من الأسر الشريفة اللاتي يسافرن مع مرافقيهنّ أملاً في البحث عن أزواجٍ طيّبين في الهند؟ سرد الكابتن على مائدة العشاء حكايات الحروب مع حيدر علي. كان التجّار الإنجليز من مدينة باتنا ودكا يتحدّثون فيما بينهم حول الأمور التجارية.

---

(1) اسم عملة هندية ذهبية.

دخلـت السـفينة خليـج بسـكاي، وكان الجميـع يتباحثـون أمـر الثّـورة الفرنسـية. أخـبره «الأشـخاص المجربـون في الهند» عـن كافـة القضايا التي تحدث في أوده وموسـوري وآركوت، وكلها أسـماء غـير مألوفةٍ لأذنيه. لكنّه سرعان ما أصبح بارعاً في تاريخ الثلاثة قرون الماضية. رأى السّود لأوّل مرة على شـواطئ أفريقيا. كانت لوحات عصر النهضة تظهر العبيد السـود بأنهم قصيرو القامة يقفون في زاويةٍ، وكان السـود كلهـم عبيداً لديهم، أما الأتراك فجميعهم شرسون، والعرب أفظاظ، وضم العالم هؤلاء جميعاً.

انتبهوا! فلننزل! كانوا قد رأوا منارة كولابا.

مومباي!

الهند!

قبـل قرنٍ ونصفٍ مـن الزمان، كان موظفوا الجـمارك في الحكومة المغوليّة يتصرّفـون بغطرسـةٍ مع الأوروبيـين القادمين إلى ميناء سـورت. لكنّ الزمن تغـيّر، الآن ترفـرف رايـة شركة الـشرق الهنديـة بكامل وقارهـا وهيبتها على الميناء. نزل المسـافرون من السـفينة وهـم يصفّرون، ومعنوياتهـم عاليةٌ، وما لبثوا أن أحيطوا بحشـدٍ من الرجال السّـود قصيري القامـة، وبدأوا يحملون صناديـق مقصـورات الإنجليز الثقيلة على رؤوسـهم. ولمّا كانت لجاكسـون صلاتٌ واسـعةٌ مع النّاس، اسـتأجر عربةً وقال للحمّالين: «نذهب إلى سكن رئيس القضاة في المحافظة، مالابار هيل».

تقـع بيـوت البارسـيين الأثرياء عـلى جانبيّ الطريـق شـديدة الانحدار. ارتـدت النسـاء القويّات من طبقة ماراثا السـاري الأرجواني، رحن يمشـين برشـاقةٍ على الرمال، ويبعـن جوز الهند. كانت مالابار هيـل مغطّاة بالأزهار الإسـتوائيّة اللامعة، أزهرت الورد الزّاحفة عـلى منزل الإنجليز الأثرياء ذي

الطابقين المرصوف بالبلاط الأحمر والخشب. توقّف المطر قبل قليلٍ، جاء المضيف إلى الشّرفة ليرحّب بهم.

تساقطت قطرات المطر من أوراق شجرة الموز وجوز الهند، وهم يحتسون الشاي المستورد من الصين، ويجلسون في شرفةٍ جميلةٍ. قال المضيف أثناء المحادثة: «بعض النساء من المنطقة الأوروبية الآسيويّة جميلاتٌ جدّاً، لكن لا ترتكب حماقة الزواج من فتاةٍ سوداء قطّ إلّا إذا كانت تنتمي إلى عائلةٍ نبيلةٍ. يمكنك اتخاذهنّ محظيّاتٍ. لقد تزوّج بعض ضباط الجيش الإنجليزي بنساء مسلمات ذوات مكانة اجتماعيّة رفيعة، ولكن ليس ثمّة حظٌّ وافرٌ لكلّ امرئ».

خرجوا في المساء في نزهةٍ طويلةٍ بالعربة، وشاهدوا مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي الخضراء تمتد من ميناء أبولو بندر إلى القلعة ومنها إلى منطقة تشرتش غيت. كانت أحواض المياه الصّغيرة الصافية تفور بين مجموعةٍ من أشجار جوز الهند.

قدّم رئيس قضاة المنطقة سيريل إلى أخوين بارسيين يملكان شركة تصنيع سفن، يتحدثّان الإنجليزيّة بطلاقةٍ. اصطحبه الأخوان البارسيان إلى مدينة سُورت ليرياه المصنع. قال له تاجرٌ من غوجرات: «كانت هذه المدينة مزدهرةً أكثر من لندن، لكنّ شيفاجي ماراثا نهبها مرّتين».

مرّوا بعد ذلك بمسجدٍ رائعٍ أبيض، أطلق عليه مضيف سيريل، العامل الإنجليزي، كنيسة المسلمين، ثمّ رأى مجموعةً من النساء ذوات عيون لامعة من منطقة غوجرات يمشين حاملاتٍ أباريق لامعةً على رؤوسهن، وقد بدا المنظر ساحراً.

كان سيريل أشلي معجباً بنساء الهند.

لقد عاد إلى مومباي، وراح ينتظر سفينةً قادمةً ستحمله إلى مدينة مدراس. كان يسافر وحيداً، وسينضم إليه بيتر جاكسون في كلكتا لاحقاً. ظهرت قباب المساجد البيضاء، وقمم المعابد اللامعة بين بساتين أشجار جوز الهند المحيطة بالقرى التي يسكنها مسلمو «موبالا» والهندوس من طبقة النايـر والبراهمة. مرّوا بمنطقة غوا، المستعمرة البرتغاليّة، ثم مرّت السفينة بساحل كوروманديل. وثبت مجموعة من الضفادع الصاخبة على متن السفينة في منطقة بونديتشيري. أخبروا سيريل بكلّ ابتهاجٍ بأنّ السيد تيبو ليس عضواً في نادي اليعاقبة فحسب، بل أرسل أيضاً تبرّعاتٍ إلى الثوّار الأمريكيين، «إنه بالتأكيد أوّل ملكٍ حديثٍ للهند».

أظهر سيريل اهتماماً بالأمر، لأنّه كان ملماً بفولتير وروسو، ولكن لم يظهر زملاؤه البريطانيون الموجودون على متن السفينة أي اهتمام بالأمر. رست سفينة أندياماان في ميناء مدراس الذي ستبحر منه بعد أسبوعٍ، نزل سيريل منها، واستأجر غرفةً في فندق في منطقة وايت تاون، ثم زار قصر والاجاه لإمير آركوت وكنيسة القسيس توماس. في اليوم التالي ضلّ طريقه، فألفى نفسه في منطقةٍ يسكنها الأوروبيّون الآسيويون. مشى على الطريق، فرأى حانةً تدعى المصباح الصينيّ، تقف على عتبتها فتاة شابة. كانت فاتنةً بشكلٍ مذهلٍ. نظرت إليه وابتسمت بحزنٍ فريدٍ. كان ثمّةَ امرأةٌ جالسةٌ على كرسيٍّ تقشّر الأرز. أقبل إليه صبيٌّ على استحياءٍ، وقال له بكلماتٍ إنجليزيّةٍ غريبةٍ. «صباح الخير، يدعوك أبي إلى بيتنا، لتتناول المشروب».

لقد حذروا سيريل من لقاء الأشخاص ذوي الدماء المختلطة، لذا شكر الطفلَ بطريقة مرتبكة، ومضى في سبيله. رأى بعد فترةٍ الفتاة الأوروبيّة الآسيويّة الفاتنة تخرج من بيتها، أخذت تمشي أمامه بخطىً سريعةٍ. التفتت إلى

الوراء، وابتسمت ابتسامتها الحزينة ثانيةً. كانت عيناها الواسعتان سوداوين لامعتين مثل عيون النساء اللاتي رآهنّ في منطقة غوجرات ومالابار، لقد كانت الفتاة جميلةً فلم يستطع أن يتجاهلها. أسرع ولحق بها وقال:

«إلى أين تذهبين أيتها الفتاة الجميلة؟»

خلع قبعته بألقٍ وكياسةٍ، وردّد السطر الأول من أغنيةٍ شعبيّةٍ كورنوالية. لقد كانت المناورة ناجحةً، فقد توقفت الفتاة وضحكت. سمع سيريل هذه الأغنية في مهرجان ريفي في بلده، ورأى أنّ البيئة هنا أيضاً ريفيّةً، ولكنّها استوائية. لم تكن شقراء بل سوداء البشرة. فأجابت قائلة:

«أنا ذاهبة إلى البئر يا سيدي اللطيف».
«هل أصطحبك أيتها الخادمة الجميلة الشقراء؟»
قالت: «افعل ذلك إن أردت يا سيّدي الكريم»

ثم سألته، «هل أتيت من لندن، يا سيّدي؟»
«كيف خمّنت ذلك؟»
«جاء بعض البحّارة إلى حانة والدي مساء أمس».
«أها... إذاً لا شكّ أنّنا في طريقنا إلى كلكتا. هل سبق أن زرتِ تلك المدينة؟»

أجابت بتلقائيّةٍ، «لا، لم أزرها يا سيدي! نحن أصلاً ننتمي إلى مدينة مدراس، وجدّي إنجليزي. نزل هنا مثلك، ولم يعد إلى بلده البتّة. كان يقول إنّه جاء إلى الهند بحثاً عن شجرة الباغودا، ولكنه لم يجدها، إذ لم يواته الحظّ، ثم تزوّج نصرانيّةً من تامل نادو وفتح حانوتاً.

أثّرت فيه قصّة جدّ ماريا كثيراً، وخيّل إليه أنّه ربّما يلقى المصير نفسه.

«فلنجلس هنا. إنّ حرّ الشمس لا يطاق». مضى نحو كرسيٍّ بجانب باب الكنيسة. تردّدت قليلاً، وعدّلت وشاح الدانتيل الأسود على رأسها، ثم جلست طواعيةً. كانت المسبحة تتدلّى من معصمها القوي الدّاكن، وقف أمامها بوقار واتزان بالغين مثلما يليق برجلٍ إنجليزيٍّ. نظرت إليه الفتاة، وكانت تنتظر منه أن يتحدث مرّةً أخرى، لكنه جلس وتكلّم قليلاً. فجأةً حدث شيءٌ غريبٌ لذهن سيريل الذي كان على وجه العموم يعمل بشكلٍ طبيعيٍّ. ربما حدث ذلك بفعل الشّمس الحارقة (كما ظنّ في السنوات الأخيرة)، فقال لها دون أن يشعر بما يقوله: «أنت أجمل فتاةٍ في العالم، أريدك أن ترافقيني إلى مدينة كلكتا».

«أوه! لكنّ ذلك ليس ممكناً يا سيّدي».

«لم لا؟»

التقطت ورقةً من الأعشاب الطّويلة المحيطة بالكرسي، ثم أجابت وهي غارقةٌ في التفكير: «سيقتلني والدي إن فعلت ذلك. أنت تبدو إنجليزيّاً حقيقيّاً، وقد لا ترغب في رؤيتي بعد اليوم، كثيرٌ من المسافرين أمثالك يمرّون بمدينة مدراس».

أحسّ سيريل أنّ قصته قصّة حب جارفٍ من أوّل نظرةٍ. فقال لها بانفعالٍ شديدٍ: «اسمعي أيتها الخادمة الجميلة»، وردّد سطر الأغنية الكورنوالية:

«ماذا لو وضعك على الأرض، يا خادمتي الجميلة».

فأجابت،

«سوف أنهض مرّةً أخرى يا سيّدي اللّطيف!»

رجع في تلك اللّيلة إلى بستان جوز الهند في المدينة التي يقطنها الأوروبيون الآسيويون، وعاد إلى ذلك المكان في الليلة التالية وما تلاها من الليالي، وفي اليوم الرّابع أبحرت سفينته باتّجاه كلكتا.

وبينما كان يستعدّ لمغادرة حانة وايت تاون، دار بخلده أنّه كان متهوّراً إلى حدٍّ لا يوصف، إذ لا يمكنه أن يتزوّج فتاة تدعى ماريا تيريزا من مدينة مدراس التي يقطنها الأوروبيون الآسيويون. برزت حقيقة ما نصحه به بيتر جاكسون، وهي ألا يرتكب حماقة الزواج من فتاةٍ سوداء؛ لم يتقدّم لخطبة ماريا حتّى الآن، لكنّ هذه الفتاة مثل النساء الهنديات الأخريات، بدأت تعتبره سيّدها. ولما ذهب إلى بستان الكنيسةِ ليودّعها، أذهله ما رآه؛ فقد وجدها تنتظره، وهي تحمل حزمة من الملابس، وتبدو مستعدّة للذهاب معه إلى كلكتا، فأقنعها بكل قوّته الخطابيّة ومفرداته الشعريّة بأنّه غير مسموح للنساء السفر على متن تلك السفينة الخاصة، كما أقنعها بأنّه سوف يرسل لها شخصاً يأتي بها فور وصوله إلى كلكتا، ثم أتبع وعوده بالأغنية الكورنوالية،

«ماذا لو أنجبت منك طفلاً أيتها المرأة الجميلة»

فأجابت،

«سأحمله يا سيدي اللّطيف»

«ماذا ستفعلين لنحت الصليب لطفلك أيتها المرأة الجميلة؟»

طبعاً، بالتأكيد ماذا ستفعل لنحت الصليب لو أنجبت طفلاً؟ راح يتصبّب عرقاً، فهو ابن قسيس، غير عاصٍ. أمضى لياليه على متن السفينة

مضطرباً. سمع على مائدة الطعام أخباراً مزعجة أخرى من الكابتن عن الحروب الدائرة مع تيبو صاحب على اليابسة. مرّةً أخرى تملّكته فكرة مقتله في بلادٍ غريبةٍ، وقد قلل خوفه من الموت الوشيك شعوره بالذنب تجاه الفتاة المختلطة الفقيرة التي أغراها، ثم هجرها في بستان النّخيل في مدراس.

وصلت السفينة إلى ميناء دايموند، فاستأجر سيريل سفينةً، ومع هبوب الريح في المساء، انتشرت في الفضاء زمجرة نمور خافتة وعويل أبناء آوى في الغابات البعيدة. كانت مدينة كلكتا بعيدةً حتّى الآن. أغلق سيريل عينيه، وحاول أن يتخيّل فندق إلدورادو الذي سيصل إليه أخيراً. مدينة كلكتا هي مدينة الذّهب، وتعتبر لندن الشرق. بدأ الليل يرخي سدوله على العالم. كان القمر السّحري في سماء البنغال يبحر معنا، والبحارة يغنّون بلغاتهم الغريبة بحزن بالغ.

اقتربوا من جاردن ريتش، كانت مدينة كلكتا غارقةً في ضوء القمر الواضح على الشاطئ الأيمن، وكان التجار ينتظرون عملاءهم الجدد في الميناء. خرج سيريل من بين الحشد المتنوّع، يتبعه بنغالي يتحدّث اللغة الإنجليزية الممزوجة باللّغة المحليّة، واستأجر له عربةً، وبدأ يتصرّف كعميلٍ له، ثم ذهب به إلى فندقٍ تديره امرأةٌ إنجليزيّةٌ.

كان ماركيز ويلسلي، إيرل مورنينغتون، يقيم في بيلفيدير في علي بور، أما مكاتب سيريل فتقع في مبنى الكتّاب، وكان الهنود والبرتغاليون والأرمن والأوروبيون الآسيويون يعيشون في بليك تاون. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى وجد سيريل شجرة الباغودا الخاصّة به، فاشترى منزلاً رائعاً مؤلّفاً من طابقٍ واحدٍ يطلّ على النهر، وبدأ يتاجر بصبغة النّيلة في الأماكن

الريفية. علّمه كتّابه المسلمون اللغة البنغالية والفارسية، وانضم إلى المجتمع الراقي في كلكتا. كان حمّالو محفّته يرتدون لباساً أحمر، وحملة صوجانه يحملون عصاه الذّهبية، يتقدم محفّته حاملو المصابيح وقت خروجه في اللّيل، ومصفّف الشعر يعتني بمساحيقه والزيت العطري والشعر المستعار الذي لديه، وصاحب الشّيشة يعدّها له بعد الوجبات، وموظّفا المكتب الأوروبي الآسيوي جوزيف لورانس وبابو يديران مكتبه. اتّخذ بابو اسم «سركار» وهي كلمةٌ فارسيّةٌ تعني «رئيس الأعمال». صادف الكثير من البنغاليّين الهندوس الذين يحملون ألقاباً فارسيّةً تدل على مناصب آبائهم في عهد الحكم المغولي، فألفى ألقاباً مثل مازومدار، وتعلّقدار، وقانون غو أو «منفذي القانون». لقد بدا له كلّ شيءٍ في هذه الأرض وكأنّه ينتمي إلى طبقةٍ أساسيّةٍ أو فرعيّةٍ.

كانت المنازل الخارجيّة التابعة لمنزل سيريل مكتظّةً بأناسٍ من الطّبقة الدّنيا مثل: البستاني، وقاطع الأعشاب، وسائس الخيل، وحامل المياه، وعامل تنظيف الثياب، والحرّاس، وكانوا جميعهم من الهندوس. أما الحلّاق والخيّاط، والخادم، والطبّاخ الذين يعملون لديه فمن المسلمين، وكذلك الملاحون الذين يعملون على بارجته الخاصّة، في حين ينتمي هو إلى الطّبقة العليا من الإنجليز الكبار. إنّه سيريل أشلي بعينه الذي كان يتجوّل في طرق كامبريدج الصامتة حاملاً ديوان الشاعرين بليك ودون في يده، ويكتب أبياتاً بطوليّةً وهو متكئ على جسر سوروز. أخذ يحصي نقوده بعد تناوله البطاطس المهروسة في الحانات المتواضعة.

اهتزّت السفينة في مياه نهر بادما المضطربة، وكان ذلك وقت الأعاصير الرّهيبة. رفع سيريل أشلي المصباح مذعوراً، وشعر بأن الملّاح يواجه صعوبةً

في التجديـف، ومـع ذلك بـدا صابراً هادئـاً، إذ اعتاد مواجهـة الطّقس الحادّ والفيضانات والعواصف وكافّة أشـكال الكوارث الطبيعيّة. حاول سـيريل أشـلي إيقاظ صديقه بيتر جاكسـون الذي زحف تحت سـقف الحصيرة وغطّ في النوم.

19

تقاليد الهندوس والمسلمين المقيتة

كان الأمير الشاب، مع موكبه من الأفيال، ينتظر سيريل أشلي وبيتر جاكسون على رصيف الميناء. لقد قدّم أكاليل الزّهور إلى الضيفين واستقبلهما بحفاوةٍ، وأرسل السيّد الأعلى[1] بنفسه إنجليزيين ممثلين من كلكتا لحضور الاحتفالات، أما قائد السّفينة أبو المنصور وسفينته فقد غابا عن الأنظار في ظلام النّهر الواسع.

في إحدى الأمسيات الخلّابة من شهر تشرين الأوّل، في بيت الأمير الذي يقع مقابل خزان كبير والمبنيّ على الطراز الجورجي، والذي تنشر فيه الموائد على الشّرفة الواسعة، ليتناول عليها الحكام الإنجليز وجباتهم، لم يروا أيّ امرأة، فالنساء هنا يحتجبن بصرامةٍ. جلس سيريل على كرسيٍّ مريحٍ، ومدّد رجليه كي يخلع الخدم حذاءه. لقد سافر الموظّفون العاملون في بيته على متن سفينةٍ أخرى، وبدأوا يؤدّون مهامهم.

تعالت من بعيد هتافاتٌ تعبديّةٌ هندوسيّةٌ رهيبةٌ «هاري بول» و«هاري بول»، كانت الكلمات مفهومةً وواضحة في هدوء اللّيل، فصرخ الأمير لرجاله: «كيف تجرأ هؤلاء على فعل هذا في مثل هذه السّاعة المقدّسة؟ ألا يعرفون بأنني سأقيم حفلةً؟ من هو ذلك الشخص؟» همس مستشار الأمير

(1) الحاكم العام.

له: «يا سيّدي! لقد توفي زوج بنت بهاكشي رادهي تشاران مازومدار». وقد كان هذا الشيء نذيرَ شؤمٍ، ممّا أقلق الأمير.

جاء شابٌّ يسعى وهو يصرخ: «النّجدة! النّجدة! أيّها السّيد الشّجاع!» أقبل لاهثاً وسقط على رجلي سيريل. كان الأمير غاضباً، فاستجوبه سيريل بلطفٍ: «انهض، وأخبرني عن الأمر؟»

«يا سيدي، سمعت تواً بأن سعادتك قد حضرت اليوم، أرجو منك أن تنقذ أختي... وإلّا سيحرقونها حيّةً...».

التفت سيريل إلى مضيفه وقال: «أوه! لا، لن يحدث هذا، ما الأمر؟ ما الذي يجري هنا أيّها الأمير؟»

تهيّأ الأمير ليقول شيئاً، لكنّ الرّجل قاطعه، وقد شجّعه حضور الرجل الأبيض على مقاطعة الأمير الإقطاعيّ القويّ.

«أرجوك أن تصطحبني وتنقذ حياتها!»

قال صديقه الفيلسوف والمرشد بيتر بصوتٍ أجشَّ: «لاتفعل شيئاً على عجالةٍ، وتذكّر حالة جوب تشارنوك». لكنّه تجاهل النّصيحة ونهض ليذهب.

اعترضه الأمير قائلاً: «حضرتك! أين تذهب في هذه الساعة؟ الطّريق سيّئةٌ»، لكنّ سيريل نحاه جانباً، ونزل السلّم الفخم، ثم ركب المحفّة، وطلب من الشاب أن يركب معه، وأمر حاملي المحفّة أن يركضوا بأسرع ما يمكن نحو القرية. امتزج الهتاف التعبديّ «هاري بول!»، «هاري بول!» الآن بقرع الطبول.

قال سيريل للشاب: «نعم، الآن أخبرني. ما الأمر؟»

«اسمي برافولا كومار، يا سيّدي! أنا الابن الوحيد لباكشي رادهي تشاران مازومدار، ونحن فقراء جدّاً، كما أنّنا أسرةٌ سيّئة الحظّ. استحوذت

الإلهة الأنثى سيتالا ديبي على أختي الكبرى...».

سـأله سيريل وكان دهشـاً جداً، «من استحوذ عليها؟ من؟» خيّل إليه أنّ هذا العالم مليءٌ بالألغاز المعقّدة، فأسرع برافولا ليشرح له: «يا سيدي! كانت تعاني من مرض الجدريّ».

اصطدمـت المحفّة بعثرةٍ كبيرةٍ، فأمسـك سـيريل باب المحفّـة بقوة، كان حاملو المحفّة يركضون بسرعةٍ على شـاطئ النّهر، ولاحظ سـيريل أن الأمير أرسـل جنوده المسـلّحين وراءه، وأخـذوا يمرّون أمامه عـلى ظهور خيولهم. قبل سـنواتٍ إبان انتفاضة الرهبان كان سـفر الإنجليز دون سلاحٍ في المناطق الريفيّـة خطراً بسـبب انتفاضـة الرّهبان، ورغـم أنّ الأمور قد هدأت نسـبيّاً الآن، فإن حدوث مثل هذه المشـاكل ممكن. واصل سـيريل النظر من خلال شـباك المحفّـة، وهو غارقٌ في التفكير، وظهر للعيـان مجموعةٌ من الفقراء من طبقة «ساتيافير- ساتيانارابن».

حدق الولد برافولا في شـاطئ النّهر، وقـال بحزنٍ: «يقول والدي يمكن للمـرء أن يـرى أحياناً في مثل هذه الليالي الهادئة سـتيافير[1] ذا الشـعر المجعد وهو يضع معجون خشـب الصّندل على جبينه، ويحمل الناي في يده، ويمشي عـلى جانب النّهر، كثيراً مـا كان والدي يقول لو لقي هذا الإله الخاصّ في أيّ وقتٍ، فإنه سيسأله لماذا أصابته كلّ هذه المصائب. ولكن أنت يا سيدي، قال برافولا ببلاغةٍ، بالنسبة لي بمثابة تجسيد لـ ساتيافير- ساتيانارابن».

شـعر سـيريل بعدم الراحـة، فهو لم يعتد بعـد الغلوّ والمبالغـة الشرقيتين، مـرّت مجموعةٌ من المتصوّفين المسـلمين، وهم يجلجلون بسلاسـلهم، لمّا رأوا

(1) القصة الشعبية البنغالية لشخصية السيد خضر الصوفية لدى المسلمين الذي يعتقد الناس بأنه مثل القديس كرستوفر يرشد المسافرين الذين يضلون طريقهم. وهو دائماً يلبس ملابس خضراء، ويراه الناس يمشي على ضفاف النهر الموحشة بعد مغيب الشّمس.

موكب شركة الشرق الهنديّة يتجه نحو محرقة الجثث ردّدوا بنبرةٍ حزينةٍ «الله حي، الله حي». بدا هؤلاء الرجال ذوو القامات الطويلة والملابس السوداء بالنسبة لهذا الباحث عن الكلاسيكيّات من كامبريدج مثل جوقةٍ يونانيّةٍ تنذر بالشّؤم.

نظر برافولا إليهم وضحك ساخراً، ثم أضاف: «هؤلاء يأتون إلى قريتنا أيّام الخميس منذ أسابيع عديدةٍ ماضيةٍ، ولكنّ أمّي لا تستطيع أن تعطيهم شيئاً فجرارنا فارغة من الحبوب كجرار الجميع بسبب المجاعة. لقد تنبّأ هؤلاء الرجال المقدّسون بأن إحدى أخواتي ستصبح من الطبقة العليا، وبأنّها ستجد رجلاً ثريّاً ومميّزاً عما قريب. ولكن حدث العكس يا سيدي، عانت أخواتي الكثير من المصائب والمآسي، وأختي الكبرى التي أصيبت بمرض الجدريّ واعتبرت منحوسةً، تزوجت من مزارعٍ، لكنّه توفي. والآن لا يرغب حتى الفقير في أن يتزوجها. يوجد بديلان لذلك، إمّا أن تتزوج من شجرة أو من رجلٍ على وشك الموت كي تزال وصمة العنوسة عنها، وتصبح أرملةً».

كرّر سيريل دهشاً: «تتزوج من رجلٍ على وشك الموت؟»

هزّ برافولا رأسه وقال: «هذا يحدث أحياناً، ولكن أبي رفض كلا الخيارين».

فكّر سيريل في الأمر بعقلانيةٍ، وقال: «توجد لدينا أيضاً في إنجلترا حالات زواجٍ على فراش الموت بهدف الحصول على الممتلكات»، ثمّ سأل، الباحث من كامبريدج والمستشرق المستقبلي، المواطن الشاب: «هل توجد لدى المسلمين مثل هذه التقاليد المقيتة أيضاً؟»

«لا أعلم يا سيدي، لكنّني علمتُ أنّه يوجد تقليدٌ بين الأرستقراطيين

المسلمين، إذا لم يجدوا شخصاً كفوءاً، فإنّهم يزوجون العانس بكتابهم المقدس».

توقّفَ سيريل مرّةً أخرى، وفكّر بحصافةٍ في أن المعتقدين بالباباوات يرسلون كثيراً من الفتيات غير الراغبات في أوروبا ليصبحن عرائس لـ «عيسى»، وتساءل عن أخت برافولا هل هي تلك الأخت المنحوسة...؟

«نعم، ففي العام الماضي وافق عجوزٌ ثريٌّ لديه زوجتان على الزّواج منها، وتوفّي في الليلة نفسها، والآن يريد ولداها من زوجها أن يضعاها في اللّهيب كي لا تحصل على نصيبها من الممتلكات».

لقد وصلوا دار الحداد. ساد الصّمت لما رأى الحشد إنجليزيّاً طويلاً شابّاً يخرج من المحفّة، وفجأةً تذكّر سيريل تحذير بيتر جاكسون. أنقذ جوب تشارنوك، مؤسّس مدينة كلكتا امرأةً من محرقة الجثث وتزوّج منها. تمتم لنفسه «أنقذني يا إلهي! فقد ألقيت نفسي في وضعٍ خطيرٍ». إلّا أنّه صرخ دون أن يتردد لحظة: «أوقفوا هذا العمل الفظيع».

توقّف هتاف «هاري بول» وقرع الطّبول على الفور، وتقدّم أكبر أولاد زوج الأرملة إلى الأمام، ووقف واضعاً يديه على خصره، وراح يحدّق في وجه السيّد الأبيض بتحدٍ. «لقد هزمنا النوّاب والأمراء عندكم» قال بيتر سيريل أشلي.

لكنّ الرجل ردّ عليه صارخاً، «لا يمكنك أن تتدخل في معتقداتنا وممارساتنا الدينية، إذ لم يتدخّل المغول فيها، وكذلك لم يفعل الحكّام والملوك. ألغى الإمبراطور المغولي أورانغ زيب تقليد إحراق الأرملة، فانظروا ما ذا حدث، ضاعت إمبراطوريّته».

زجر سيريل قائلاً: «لقد طردنا الملوك والسلاطين والحكّام. لقد وجدوا

منا ما كانوا يستحقّونه، وأنت تعلم بأنّه لا يوجد أيّ أثرٍ لذلك الشخص المستبدّ الجاهل الأحمق، سلطان سراج الدولة».

أقبل عجوزٌ يبكي من بين الظّلال مسرعاً وقد تورمت عيناه من البكاء، فقال باكياً: «يا سيدي! لا تقل أيّ شيءٍ ضد عالي جاه»[1]. كان الرجل العجوز أبا الأرملة سيّئة الحظ.

خاطب برافولا سيريل بنبرةٍ منكسرةٍ قائلاً: «أرجوك يا سيّدي أن تعفو عنه لعدم احترامه لك. كان يتولّى مسؤوليّة مهمّة في نظام حكم السلطان سراج الدولة، لقد أصبح بعد الهزيمة في معركة بلاسي طائشاً إلى حدٍّ كبيرٍ».

زاد الارتباك سوءاً، وكان سيريل قلقاً، فأراد أن يغادر المكان بأسرع ما يمكن، وإلّا فقد يضطر إلى أن يفعل ما فعله جوب تشارنوك.

سمع صراخ الأرملة. كانوا يجهّزونها مثل عروس لتصحب سيدها وزوجها إلى العالم الآخر. كانت تصرخ بشكلٍ هستيريٍّ في يأسٍ يجمّد الدماء في العروق، وبدت صرخاتها مثل صرخات جحيم دانتي. شعر سيريل بقشعريرة تسري في جسده، فصاح قائلاً: «سوف أقوم بمصادرة ممتلكاتك»!

«من أنت؟، وما صلاحياتك؟ أنت لست حتى محصّل ضرائبٍ في هذه المقاطعة، أنت مجرد مزارع نيلة؟»

ولكنّ الأمير صرخ قائلاً: «السيد سيريل أقوى وأهم من محصل الضّرائب، وقد أرسل إلى هنا نائباً للحاكم العام»، ثم لوّح برسالة وصلته من مقر الحكومة بكلكتا.

قال سيريل كاذباً: «سوف أقوم بمصادرة أراضيك، يجري العمل على

---

(1) «عالي جاه رئيس الوزراء» كان ذلك اللقب الرسمي لنائب ملك البنغال، الذي يمنحه الملوك المعول.

تشريع قانونٍ جديدٍ ضدّ هذا التّقليد البشع». ومع أن ما قاله كان كذباً فإنه أثّر فيهم، فشرف إحراق الأرملة في العائلة لا يعادل خسارة الممتلكات.

رُبطت الجثّة بحمّالةٍ وحبل، ثم رفعت على أكتاف حاملي النّعش، ومضوا بها نحو النّهر. تاركين الأرملة وراءهم. أطلق جنود الأمير المسلّحون الرصاص في الهواء، وعاد سيريل أشلي وموكبه إلى بيت الأمير.

20

مجمع البحرين

قال بيتر لسيريل في اليوم التالي، وهما جالسان على مائدة الفطور: «يا رجل! لقد كان مساء رائعاً مليئاً بالمغامرة».

لزم سيريل الصّمت، فقد أحزنه ما حدث البارحة. لقد أتى من بلدٍ يحكمه القانون ويسوده الاستقرار، ولم يرَ ههنا غير الفوضى والصراع والتمسّك اللامعقول بالتقاليد. من أين نبدأ الإصلاحات الاجتماعية في هذا المحيط المليء بأشكال اللامساواة؟ سمع ضوضاء ونظر من النافذة، فوجد والد الأرملة بالباب يطلب السّماح له بالدخول. تعرّف عليه وقال: «اسمحوا له بالدّخول».

دخل خادم إلى الغرفة وقال: «يا سيدي! باكشي رادهي تشاران نصف مجنون».

«لا بأس، اطلبه».

دخل الرجل الغرفة متعثّراً، وكان يرتدي ملابس بالية مهترئة من العهد المغولي، وبدا أنّه ارتدى اللباس للمناسبة باعتباره سيّداً محترماً في العهد القِديم. كان اللباس رديئاً جدّاً، فأحسَّ سيريل بغصّة في حنجرته.

قال الزائر مطأطئاً رأسه: «جئت لأشكر جلالتك من أعماق قلبي وروحي لإنقاذ حياة ابنتي».

فأجاب سيريل على نحوٍ متقطّعٍ باللّغة البنغاليّة: «أنا سعيدٌ بأنّني استطعت فعل ذلك»، ثم طلب منه أن يجلس. لقد جاء باكشي بورقةٍ صغيرةٍ مطويّةٍ مطرّزةٍ قدّمها بشكل رسمي إلى الإنجليزيّ الشاب.

فتح الرّجل حقيبته المخمليّة ببطءٍ، وأخرج كتابين مخطوطين، ثم قال: «يا سيّدي! لقد جئت بهذا الإرث الغالي كرمزٍ لامتناني الدائم لكم، وقد سمعت بأنّكم مهتمون بالأدب الشرقيّ، ودرستم اللغة السنسكرتية والفارسية والأردية أيضاً».

أجاب سيريل بتواضعٍ، «نعم، بالتأكيد، وأنا أحاول أيضاً أن أدوّن قاموساً للغة البنغالية - الإنجليّزية إن وجدتُ راحةً من واجباتي الرسميّة».

«بسبب ذلك أقدّمها إليكم، وأعلم بأنكم سوف تثمنّونها، وقد تترجمونها إلى اللّغة الإنجليزيّة، فهذه الترجمة الفارسية للكتاب الهندوسي المقدس «أوبانيشاد»، ترجمها الأمير المغولي دارا شكوه ابن الملك شاهجهان، إلى اللّغة الفارسية بمساعدة رجال الدّين الهندوس من مدينة بناراس المقدسة، وهي نسخةٌ نادرةٌ، كان جدّي خطّاطاً في دار التّدوين لنائب الملك علي وردي خان في منطقة مرشد آباد».

«وهذا الكتاب، يا سيّدي! كتاب الأمير المغولي الشهير المسّمى «مجمع البحرين» دوّن فيه دارا شكوه مبادئ التصوف الإسلاميّ والفلسفة الهندوسيّة، وهذا الأمير هو ابن الملك شاهجهان الأكبر، كان ينتمي إلى الطريقة القادريّة الصوفيّة ويعدّ نفسه متصوّفاً».

ضحك بيتر جاكسون بسخريةٍ وقال، «نعم؟»

سأله سيريل وهو يقلّب أوراق الكتب بإعجابٍ: «وهل تريد حقّاً أن تتخلّص من هذه الكتب؟»

همس بيتر بصوتٍ خافتٍ: «خذها، يمكنك إرسالها فيما بعد إلى المتحف البريطاني». قبل سيريل الهديّة بسعادةٍ وامتنانٍ صادقين. اندفع الأمير غيريش تشاندرا روي، ليلمس قدمي العجوز وقد دهش سيريل بذلك.

قال الأمير، «هو أستاذي، علّمني اللغتين السنسكريتيّة والفارسيّة في مدرسة القرية».

قال سيريل: «سمعت أنّه كان جنديّاً في جيش سلطان سراج الدولة، وحارب في معركة بلاسي».

أخذ العجوز نَفَساً وقال: «تلك قصّةٌ طويلةٌ يا سيّدي! وأنا رجلٌ عجوزٌ من بقايا العصور الغابرة».

لقد شعر الأمير بعدم الارتياح في تلك اللّحظة، وتمنّى أن يغادر الرّجل الصّريح غريب الأطوار بأسرع ما يمكن، فقد كان شديد الولاء لأولئك الحكّام المخلوعين منذ زمنٍ طويلٍ، ولا يستطيع نكران فضلهم. لا يمكن للأمير أن يكون فظّاً معه، لأنّ أعرافهم تملي عليه بأنّ الأستاذ بمثابة والده وبمقام الإله، ولا يمكن للإنجليز أن يستوعبوا هذه الأمور، وخاصّةً جاكسون الذي كان تاجراً وموظّفاً في الشّركة فضلاً عن أنه مستبدٌّ جشع يختلف كثيراً عن سيريل العالم اللّطيف.

لقد انضمّ الأمير لنظام الحكم الجديد، تاركاً أشخاصاً مثل رادهي تشاران مازومدار وراءه، إذ اعتبرهم من بقايا التّاريخ. أخبر سيريل أن أستاذه في عهد شبابه كان يعمل في قسم الحسابات العسكريّة في حكومة علي وردي خان، واصطحب جيش حفيد السلطان سراج الدولة إلى ساحة الحرب المنكوبة في بلاسي. فشل باكشي في التصالح مع حكومة شركة جون المحترمة. «لقد أذاعوا أنّني مجنون، لأنّني أقول الحقيقة، وأقول كلاماً لا يريد

الناس أن يسمعوه. حسناً، ربّما أصبحتُ شخصاً غريب الأطوار، لكنّني يا سيدي! لست مخبولاً».

عندئذٍ سأله سيريل «كيف يمكنك أن تضمر الولاء لحكّامٍ ينعتونكم بالكفّار؟»

«كيف أصبح شخصٌ مثل الأمير وفيّاً لكم إلى هذا الحدّ. هؤلاء يسمّوننا الهمجيين ويتعاملون معنا كأناسٍ أرذال. أمّا أولئك الحكّام فلم يفعلوا ذلك؛ كنّا متساويين معهم، وكانوا يشاركوننا ثقافتنا، لقد كان السلطان علي وردي خان والناس في بلاطه يحتفلون معنا بعيد الألوان الهندوسي لمدّة سبعة أيّامٍ متتاليةٍ. كانوا يملؤون مائتي خزّانٍ في مرشدآباد بالمياه الملوّنة، ولم يرسلوا ثروة البلد إلى الأراضي الأجنبيّة. كنّا ندير الشؤون الإدارية في عهد حكومتهم، ونتولّى المناصب العليا».

«كيف كنتم تابعين للمسلمين لسبعة قرونٍ؟ الشيء الوحيد الذي يفسّر ذلك هو أن الهنود يرضخون للسّلطة والقوّة الحاكمة».

ردّ عليه رادهي تشاران قائلاً: «كانت حكومة عالي جاه علي وردي خان تضمُّ عدداً كبيراً من الوزراء والجنرالات الهندوس».

سأل بيتر جاكسون: «صحيح، ولكن لماذا انقلب العديد من الإقطاعيين الهندوس ضدّهم، وتحالفوا معنا؟»

تكلّم العجوز مثل حكيمٍ وكأنه لا يحدّث أحداً قائلاً: «تحمل كلّ مرحلةٍ من الزمن العابر منطقها، ودوافعها واعتباراتها».

هنا بدا الأمر كأنّه نقاشٌ يجري في مقهى شارع فليت، وبدأ سيريل يستمتع به، لأنّه وبيتر كانا في نهاية الأمر ناجحين فيه، وقولهما في الموضوع سيعتبر القول الفصل.

واصـل بيتر قائـلاً: «تآمر الإقطاعيـون الهندوس ضدّ علي وردي بسـبب الضرائب الباهظة التي فرضها السلطان، أليس كذلك؟»

أجابه رادهي تشـاران بلطفٍ: «وهـل أعفيتمونا من الضّرائب. لقد صار لزامـاً على عـلي وردي خان أن يفرض ضرائب باهظةً من أجل تمكين جيشـه ومحاربـة رجال طبقـة ماراثا الغزاة، أمـا أنتم فتفرضـون الضّرائب حتى على حفلات زواجنا».

ردَّ عليه بيتر قائلاً: «ألم يدمّر رجال ماراثا البنغال العزيزة عليكم في هجومٍ إثر آخر، ألم يفرضوا عليكم ضريبة ربع الإيردات الرّهيبة...، ونقل الأثرياء من طبقة ماهاجان وجاغات رأسمالهم عبر النهر خوفاً من هجمات ماراثا. لقد هاجر الكثير من السكّان إمّا إلى شرق البنغال وغربها أو إلى كلكتا هروباً من هجماتهم. وهذا هو أحد أسباب استنجاد شعب البنغال بنا».

جابهه رادهي تشاران قائلاً: «أعفاكم الشاب سراج من دفع الرسوم الجمركية، لكنكم قابلتم معروفه بفرض الضّرائب الباهظة على البضائع التي تخرج من أراضيه، ولمّا بدأتم بنهب «هوغلي»، كتب سراج إليكم: لقد نهبتم شعبي... أنتم من تسمون أنفسكم نصارى، لو رضيتم بالإقامة هنا كتجّارٍ، فإنني سأعيد إليكم كافة امتيازاتكم، لكنّ الحرب عواقبها دائماً كارثيّةً. إنّكم توقّعون على اتفاقية السلام معنا، ثم تنقضونها، وتحلفون بالإنجيل. لا يوجد لدى ماراثا إنجيلٌ، لكنّهم يوفون بعهودهم».

أشـعل بيتر سـيجارته وقال باسماً: «حسناً، لقد سُـوِّي كلّ ذلك أخيراً في عامِ 1757، وكان انتصاراً شـهيراً، وحرّرناكم من نير المسـلمين السود، وأنتم تنكرون فضلنا عليكم».

قـال رادهي تشـاران بحـزنٍ بعد صمـتٍ: «كانـت منطقة بلاسي بسـتاناً

لأشجار المانجو، وكانت الأشجار مزهرةً في ذلك الوقت، الطبيعة لا تكترث بالأمـر كثيراً. أصبحت البنغال في هـذه الأيام غابةً، وكانت في وقتٍ ما أغنى محافظات الهند. لقد احتكرتم التجارة، وها أنتم تفرضون الضّرائب على الملح والزّيت وكافّة المأكولات، وسفنكم التّجاريّة تحمّل المواد الغذائيّة التي غابت عن البـازارات، وباتت المجاعة تتربص بالبلد، لقد تضخّمت أسـعار المواد، ولا نملـك مـا نأكله. لمـاذا تصرفّت أنـا بطريقةٍ غير إنسـانيّةٍ وزوّجـتُ ابنتي الشابّة من شخصٍ أكبر سنّاً منّي؟ لقد كان ذلك فقط من أجل إبعاد شخصٍ كنّـا نطعمه. صادروا الأراضي التي أملكها بعد معركة بلاسي بسـبب ولائي للسلطان سراج الدّولة. بقيت لدي قطعة أرضٍ صغيرةٍ تكفل أولادنا، وبعد إغلاق مصانع المنسوجات، راح الحرفيّون والنسّاجون العاطلون عن العمل يتوافـدون إلى القـرى للعمـل في المزارع». بعد ذلك مسـح العجـوز دموعه، ولزم الصّمت.

التفت الأمير إلى سـيريل وهمس لهُ: «أعتذر إليكم يا سيّدي أن سـمعتم مثل هذا الكلام الفظّ من أستاذي. أرجوكم أن تساعدوا ابنه في الحصول على وظيفة في كلكتا، سيجلب ذلك له راحة البال».

في المساء أجرى سيريل مقابلةً مع برافولا كومار، وعرف أنّه تعلّم في مدرسة الهندوس ومدرسة المسلمين في القرية، ويعرف قليلاً من اللغة السنسكريتيّة، والفارسية، والحساب. طلب منه سيريل أن يأتي إلى كلكتا مع والديه وأخواته، ويعمل مشرفاً على مستودعه، كما طلب من بيتر جاكسون أن يعطي برافولا مبلغاً من المال يكفي لرحلة الأسرة إلى كلكتا، ويرتّب إقامتهم في المنازل الخارجية للمستودع.

بعد ذلك كرّس سـيريل نفسه للاستمتاع بالاحتفالات التي ضمّت دورةً

للراقصات والألعاب الناريّة في مقر إقامة غيريش تشاندارا رواي. كان الأمير يعلم بأنّ العازب الشابّ مولعٌ بالفتيات الراقصات المحليّات، لذلك دعا أفضلهنّ للرقص.

إلى السيد

رئيس تحرير صحيفة كلكتا غازيت

تحيّةً واحترام... أمّا بعد...

لقد درست الأدب الكلاسيكيّ في كلّية سيدني ساسكس في كامبريدج. وتعلّمت هنا في غضون العشر سنواتِ الماضية اللّغة السنسكريتيّة والفارسيّة. وقد قدّم لي أحد الأشخاص مؤخراً مخطوطةً من القرن الـ17 ترجمة الأمير المغولي دارا شكوه سيّء الحظّ للكتاب المقدس أوبانيشاد إلى اللّغة الفارسيّة، وأرغب في ترجمته إلى اللّغة الإنجليزيّة.

تجري الأمور على ما يرام حتّى الآن. ومع ذلك، فإنّ الشّيء الذي يحتاجه هذا البلد المتخلّف هو التعليم الإنجليزيّ، ولا أعرف متى ستقرّر الحكومة ومديرو شركة الشرق الهنديّة المحترمة إلغاء تدريس اللّغة الفارسيّة وإدخال الإنجليزيّة كلغةٍ رسميّةٍ في المناطق الهنديّة التي نحتلّها ونحكمها الآن. أؤمن بأنّ تفوّق أوروبا على الشعوب الآسيويّة قد تقرّر لجميع الأزمنة القادمة، لمّا انهزمت الإمبراطوريّة الفارسيّة أخيراً في حربها الطّويلة مع الإغريق في معركة سالاميس سنة 470 ق.م. إن انتصارنا في معركة بلاسي في الهند عام 1757م لهو مثال جديد على ذلك. قريباً سنسمع عن نهاية عدوّنا اللّدود الأخير... سلطان تيبو من ميسور، ومن ثم ستكون الهند كلّها ملك أيدينا.

أبتعـد عـن الموضـوع هنا، ففـي أحد الأيّام، بينما كنـت أسـافر في المناطق الريفيّة، رأيت بنفسي منظراً رهيباً لأرملةٍ يحكم عليها أهل زوجها بالإعدام عنوةً. ومن حسـن الحظّ أنّي تمكّنت من التدخّـل في الأمر. لابدّ من تشريع قانـونٍ على الفور يحظـر تقليد إحراق الأرامل المقيت، فـما تحتاجه الهند هو القيـام بالإصلاحـات التي قمنا بهـا في أوروبا إبان القرن السـادس عشر. ولكن نظراً إلى التعقيدات والأوهام المتجذّرة فيهم، فإنه لا يمكن لشخص أن يتخيّل حدوث ذلك هنا. لقـد أصبحت الإمبراطوريّة الرومانيّة برمتها نصرانيّـة، ودُمـرت معابـد الروم في أوروبـا كّلها، وشـيّدت الكنائس على أنقاضهـا. إنّنـي لا أتوقّع أن يتخّـلى المواطنون عن أديانهم بشـكلٍ جماعيٍّ، ولكنّـه مـن الـضروريّ أن يتعلّمـوا على الأقـل بعض أفـكار الأخلاقيات النصرانية...

إنجليزيّ مخلص

21

النّائب سيريل أشلي وزوجته

عـاد اللورد كورنواليز، الحاكم العام، إلى الهند. وانتشرت الشـائعات بأن سيريل أشلي قد يرسل إلى محافظة لكناؤ، لكنّه لا يزال عازباً.

بعـد معركة بلاسي، تخلّت الإلهة الأنثى لاكشـمي عـن رجالها، ودخلت بيوت الإنجليز. لقد كسـب الدبلوماسيون والتجّار الإنجليز ثرواتٍ ضخمةٍ أثنـاء إقامتهم في مرشـد آبـاد وفيض آباد وفي لكناؤ حاليـاً، وقد أُطلق عليهم في إنجلـترا «النوّاب». كانوا يدخنون الشيشـة، ويشـاهدون الرقص الهندي، ويشاركون في صراع الديوك، وتوجد لديهم محظيّات.

أنقذ سـيريل أشـلي بنت باكشي رادهي تشاران مازومدار من الحرق حيّةً. حاولـت الهروب، ولكن أهل زوجها أعادوها، ثم حلقوا رأسـها، وأعطوها سـاريين قطنيين خشـنين بلا أطرافٍ، لم يعطوها أيّ مبلغٍ، أخيراً أرسلوها مع مجموعـةٍ مـن الأرامل التّعيسـات إلى مدينة بناراس البعيدة، حيث ستمضي هـؤلاء النسـاء بقيّة حياتهـن يردّدن الأدعيـة والسُـبحات في أيديهنّ. جرفت السـيولُ بنـت رادهي تشـاران الكبرى، واصطحبـت سـوجاتا، أصغر بناته وأجملهـن، أمّهـا وأخاهـا برافـولا كومـار إلى كلكتـا للعيش في مجمع السـيّد جاكسون وأشلي. رفض العجوز رادهي تشاران الذّهاب، ومكث في القرية. ذات يومٍ لمّا جاء السيّد سيريل لمعاينة مستودعه، رأى سوجاتا ديبي، كانت قد

جاءت بعلبة الطّعام لأخيها إلى المكتب. مرّةً أخرى تملّكته طبيعته الرومانسيّة، فوقع في حبّها. وفي اليوم التالي طلب من برافولا كومار أن يحضر.

ووفقاً للأعراف الاجتماعيّة السائدة في ذلك الوقت، يجوز للمرء أن يتّخذ النساء المحليّات كمحظيّاتٍ أو زوجاتٍ بمقتضى القانون العام، ويعطى لها اللّقب الهندي المحترم بي بي، السيّدة. قال سيريل لموظّفه الشاب: «أريد أن أسألك، هل ترغب أختك في أن تقيم معي في بيتي بصفتها «بي بي؟»

كان برافولا كومار ممتناً لسيريل كثيراً، فلم يستطع رفض الطّلب، وكان يعلم أيضاً أنّ السيّد سيريل رجلٌ مهذب، ولا يريد أن يستغلّ مكانته، وبدا له أنه يهتمّ بأسرة باكشي. كانت سوجاتا فتاةً حالمةً، ولم تكد أمّها تصدّق حظّها السّعيد. لقد تحققت تنبّؤات المتصوّفة المسلمين، ووجدت سوجاتا رجلاً ثريّاً مميّزاً.

حُوِّل الجزء الخلفيّ من منزل سيريل الكبير إلى دارٍ للنساء. وصلت سوجاتا في عربةٍ مع ممتلكاتها المتواضعة لتعيش برخاءٍ بصفتها زوجة سيريل بمقتضى القانون العامّ. تعلّمت قليلاً من الإنجليزيّة، وغدت تلبس الفساتين، والأحذية ذات الكعب العالي، وعاشت محتجبة بعض الشيء. كان يسمح بوجود السيّدات المحليّات، ولكن المجتمع الراقي الأبيض لم يقبلهن. كانت الزّوجات القوقازيّات النقيّات هنّ فقط «الزوجات المكرمات».

كان سيريل زير نساءٍ نوعاً ما، في حين بدت سوجاتا زوجةً غيورةً، لذلك فقد نشب جدالٌ بينهما. استعانت سرّاً بساحرٍ لإقصاء منافِساتها، ولكن لم يعمل السحر الأسود عمله. واصل سيريل بناء علاقاته الغراميّة، حتى أنّه كان يتمتّع بصحبة الرّاقصات والمحظيّات، ولم تستطع سوجاتا أن تفعل أيّ شيءٍ إزاء هذا الأمر بوصفها زوجةً هنديّةً متمسّكةً بالحجاب.

يعرف سيريل جيّداً نوع الحياة التي يخبّئها المستقبل لأولاد سوجاتا فيما لو أنجبتهم. ماذا ستفعل لمعيشتهم؟ ظلّت الأغنية الشعبيّة الكورنوالية تطارده حتى اللحظة. لم ينس ماريا تيريزا من مدراس تماماً. لقد كان على درايةٍ بحقيقة أنّ الذريّة الناتجة عن هذه العلاقات مآلها إلى دور الأيتام بعد وفاة آبائهم البيض، إذ سيصبح الأبناء طبّالين، أما البنات فسيعملن مربيّاتِ أطفال أو بائعات هوى، فهل تعمل ابنته السّمراء ممرضةً في بيت الطّبقة الرّاقية الإنجليزيّة، وتغني تهويدات «بي بي بانتينغ» و«هوش-أيه- باي؟»

بيتي سيدة تلبس خاتماً
وجوني طبّالٌ يقرع الطّبل للملك.

يا إلهي! أليس عندنا نظامٌ طبقيٌ مقيتٌ أيضاً؟ فهل يتزوّج من إيلنور هوغ- برينتوود التي جاءت من إنجلترا في الشهر الماضي بحثاً عن زوج هنا؟ كيف يمكن مقارنة هؤلاء النسوة الشاحبات غير المشوّقات بنساء الأرض الغريبة الجميلات.

كانت سوجاتا جميلةً جدّاً حتّى أن سيريل أراد تكليف بعض الرّسامين الإنجليز المميّزين برسم صورتها على غرار توماس هيكي الذي رسم صورة زوجة وليم هيكي. ثمة الكثير من الرّسامين البارعين الذين كانوا يعملون في الهند في ذلك الوقت. ولقد أصبح زوفاني شهيراً لرسمه صورة السيدة غوريو، زوجة الجنرال كالاودي مارتين، لقد خلّد جيمس ويلس، وتشارلز سميث، وفرانسيسكو رينالدي، السيّدات الجميلات زوجات الأوروبيين البارزين في فيض آباد ولكناؤ وكلكتا. وفي يوم ما ستنظر الأجيال القادمة بإعجابٍ إلى لوحة سوجاتا مع تعليقٍ مكتوبٍ عليها «سيدة النّائب سيريل أشلي - 1797».

لقد كانت حياته حافلةً بالارتباطات، وكان وقته موزّعاً بين حفلات الرّقص في بلفيدير، ومآدب الفطور لدى الحاكم العام، وحفلات الموسيقى في شارع هاستينغ، وتناول الطّعام في فيلات جاردن ريتش. كان يشاهد أداء أوتواي وشيردان على المسرح، ويمضي الأمسيات في عزف آلة هارمونيكا في لال بازار، وكان يخرج في الرحلات المليئة بالمغامرات في المناطق الريفيّة، إذ كانت ممرات الماء البنغالية مفتوحةً أمامه. كان يشعر أحياناً كما لو أنه في بلاطٍ روسيٍّ، والمئات من مزارعي النيلة هم من العبيد المزارعين لديه.

كانت القوارب الضّخمة تحمل بضائعه عبر أنهار دهاليشواري وكارنافولي ومادهوماتي، وراية حكومة شركة الهند الشرقيّة المحترمة ترفرف على أسطول القوارب الكبير في دكا التي كانت في زمن ما تنتمي إلى المغول والسلاطين والأمراء.

مضى خمسة وعشرون عاماً، ولم يجد سيريل حتى الآن سيّدةً بيضاء مناسبةً، وليس لديه وريث يرث أوعيته من الذهب والفضة، بدأ الصّلع يظهر في رأسه، وظهر له كرشٌ. حتى وإن أنجبت سوجاتا الأطفال، فإنّهم لا يستطيعون أن يرثوا الملايين من أموال أشلي. لقد فقدت جمالها، وساءت حالتها، فغدت ربّة بيتٍ مزعجةٍ. لا يمكنه أن يتخلّى عن سوجاتا الفقيرة العجوز كونه رجلاً محترماً، ومع ذلك لا يستطيع أن يعيش معها. كلما ذهب إلى لكناؤ في مهمّةٍ رسميةٍ، أمضى بعض الوقت في صحبة تشامبا جان، المرأة المشبوهة المعروفة في تلك المدينة الملوّنة. كانت فطنةً وذكيّةً، تنشد قصائد الغزل المفضّلة لديها بالفارسيّة والأردية. كانت تنسيه همومه، على الأقل في ذلك الوقت بالتحديد.

كان عليه أن يسافر إلى منطقة أوده مرّةً أخرى في موسم صيف عام 1823،

لكـن مشـكلة المزارعين بـدأت تظهر في مقاطعـة ناديا، لذلك لا يسـتطيع أن يغـادر البنغـال. وصـل مكتبه في يوم رائـع من أيام فصل الرّبيع، وهو يشـعر بحزنٍ أكثر من ذي قبل، توجّب عليه أن يطّلب عقد اجتماعٍ فوريٍّ مع موظّفيه التّابعين له لمناقشة الحرب المقدّسة التي يخوضها المتعصّبون من المسلمين ضد الإنجليـز. حدّثته نفسـه وهـو يتمرّغ في رثائهـا: لقد فـاض كأس حزني: رنّ الجـرس، لأنّه كان يحتـاج إلى تقرير المخابرات الأحدث بشـأن أنشـطة علماء الحركـة الفرائضيّـة، وبينما ظهر حاجبه مثل الجنّيّ أمامـه، وقال له باقتضابٍ: «يا سيدي الرئيس». وقف جنّيٌّ آخر على الباب.

«صباح الخير يا سيدي! هل تسمحون لي بالدخول؟»

رفع سيريل رأسه دهشاً، إذ بدا الرجل جديداً عليه، فقال له: «أأنت ذلك الرجل الذي أرسله السيد ألكوت إليّ؟»

«نعـم يا سـيدي!، اسـمي جي ايـن دوت، انضممت للعمـل أمس قبيل الظّهيرة».

«حسـناً، أنـت تعرف القوانين والأحـكام الخاصّة بك، أخـبرني منذ متى وأنت تعمل في الخدمة الحكوميّة؟»

«منـذ ثـلاث سـنواتٍ يـا سـيّدي!، انضممت للخدمـة فـور نجاحي في امتحان أف إيه»

«لماذا لم تكمل شهادة البكالوريوس أوّلاً؟»

«سـيّدي! إنّ ظروفي الماليّة لم تسـمح لي بمتابعة دراسـتي، كما أنني أساعد أبويَّ الفقيرين اللّذين يعيشان في ميمن سينغ».

ابتسم سيريل، فهذا الشّخص مولع بالتحدّث بالإنجليزيّة شأنه شأن كافّة الموظّفين الحكوميين الآخرين، وسوف يكون ناجحاً في حياته. «حسناً دوت!

يجب عليك أن تحضر الفصول المسائيّة، كي تحصل على شهادة البكالوريوس. سوف أتحدث مع مدير كلّية الهندوس».

أعرب الشابُّ عن سعادته قائلاً: «نعم، يا سيدي!، شكراً جزيلاً لكم.».

كان سيريل يجيد الحكم على النّاس، وقد تعامل مع كافة أنواع الهنود أثناء إقامته لمدة ستّةٍ وثلاثين عاماً في هذا البلد. لقد أعجبه الولد دوت، وكان يثق فيه، ذات مرة احتاج أن يرسل شاحنةً مليئةً بالوثائق إلى الحاكم في لكناؤ، ولكنه لا يستطيع أن يرسلها عبر البريد العاديّ، لذلك لابدَّ من إرسالها في البريد الخاصّ. دعا موظّف مكتبه الجديد بعد أيّام إلى غرفته، وطلب منه أن يحجز مقصورةً في سفينةٍ متّجهةٍ إلى مدينة إله آباد، وأن يأخذ معه الحاجب غلام علي، ويغادر لأوده في أقرب وقت ممكن.

لم يكد الشابّ يصدّق حظّه السّعيد، فقال: «نعم يا سيّدي!، حسناً».

«استأجر مركبة الجياد من بيني غات في إله آباد، لتنقلك إلى لكناؤ».

همَّ بالمغادرة، وقال: «حسناً، يا سيّدي!»

«انتظر قليلاً، لقد جئت بقاموس جونسون، كي تحسّن لغتك الإنجليزيّة، وتقرأه خلال سفرك».

التقط الولد المجلّد عن رفّ المدفأة، وغادر المكان قائلاً: «نعم، يا سيّدي!، شكراً لك». تبادل الإنجليزيان المرؤوسان الموجودان في الغرفة النّظرات. بدا أشلي العجوز غريب الأطوار، يرعى الموظف الحكومي. الآن يمكن للشاب أن يزور الأماكن، وقد خلف برافولا كومار مشرفه السّابق على المستودع المدير الأمريكي لدى السيّد جاكسون وأشلي.

أشعل سيريل سيجارته، ولاحظ ردّ فعل زملائه الجدد، وتذكّر كورنواليز الذي كان يتذمر دائماً من ميله غير المنتظم لتكوين صداقات مع أشخاص

محليـين. لقـد اكتسـبت الشّركـة الآن سـلطة سياسـيّة، وتغيّرت السّياسـات القديمـة، ومـع ذلك كان سـيريل حاكماً من المدرسـة القديمـة، التي ترى أن الهنود شعبٌ مرؤوسٌ.

سـيريل أشـلي يخاف فكرة الموت، وقد نصحه أطباؤه بأن يتوخّى الحيطة، ويقلّـل مـن تنـاول الخمـور ومن حزنـه. فكر في أنّـه قد يموت مثـل الجنرال كلاودي مارتـين مـن لكنـاؤ الذي غـادر هـذا العالم عـام 1800 تـاركاً ثروته الضّخمـة وراءه لتعليـم الأطفـال الأوروبيـين، تـزوج ذلك الفرنـسيّ امرأةً مسـلمةً محليّـةً، وقد تبنّى ابناً مسـلماً ربما اسـمه ذو الفقار مارتـين، ولكنهما لم يرثاه.

أغلق عينيه بكسلٍ. لنبدأ من البداية، عليه أن يسرع إلى منطقة ناديا لإخماد ثورة المزارعين المسـلمين، وعليه ثانياً أن ينهي همومه بالخمور الفرنسـيّة التي تقدمهـا تشـامبا جان في لكناؤ، وبعـد ذلك لابدَّ أن يتّجـه إلى إنجلترا للعودة بعروسٍ إنجليزيّةٍ جميلةٍ، ولكن ماذا سيفعل مع سوجاتا ديبي المسكينة؟

عـاد غوتام نيلامبار دوت إلى غرفته في منطقة مانيكتالا، وبدأ يجهّز نفسـه بحـماسٍ، في وقت متأخّرٍ من المسـاء، سـمع وقـع أقدامٍ، فخـرج إلى الزّقاق، حيث وجد سيدة حزينةً تقف أمامه.

سـألت بلغـةٍ إنجليزيّـةٍ متقطعة: «هل اسـمك نيلامبـار؟» كانت ترتدي لباساً إنجليزيّاً فاخراً وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ.

فأجابها بلطفٍ قائلاً: «نعم يا سيّدتي!»

«وأنا سوجاتا ديبي، زوجة السيد أشلي».

دُهش غوتام من الأمر، بل لقد أُحرج نوعاً ما. سـمع بأنّ للحاكم زوجة مخلصة جميلة تقيم في منزل النسـاء الخاصّ. فجـأةً بدأت المرأة تتحدّث باللّغة

البنغاليّة بسرعةٍ. «لقد سمعت بأنّ السيّد معجبٌ جدّاً بك، ويريد إرسالك إلى لكناؤ».

فهزّ رأسه وهو لا يزال حائراً.

«هل سمعت عن تشامبا باي؟»

«تشامبا باي؟، لا، لم أسمع عنها، من هي؟»

«هي مومس شهيرةٌ في لكناؤ، وسيدي متيّمٌ بها، ينفق عليها مبالغ باهظةً كلّما ذهب إلى هناك، ولا يهتّم بي، فأصبحت وحيدةً في العالم، لقد كان أبي معتداً بنفسه كثيراً. توفّي جراء الصّدمة لّما سمع بأنّني أعيش مع السيّد سيريل، أما أمي فتوفيت مؤخّراً، وزوجة أخي لا تستقبلني في بيتها، فأين أذهب؟»

راحت تبكي، فاضطرب نيلامبار. مسحت دموعها وتحدّثت مرّةً أخرى قائلةً: «قل لتشامبا باي، لديك المئات من المعجبين، والسيّد بالنسبة لك ليس سوى عجوزٍ ثريٍّ أحمق. أما أنا فليس لديّ شخصٌ آخر في العالم كلّه. خدمته لمّدة خمسةٍ وعشرين عاماً، وهو يعرف ذلك. إنه يرقص مع الإنجليزيّات الجميلات في حفلات الرّقص، وإن تزوّج إحداهنّ، فلن تستطيع تحمّل مزاجه وغرابة أطواره ليومٍ واحدٍ، ولكنّني تحملت ذلك. وها هو يطرحني الآن مثل حذاءٍ قديمٍ، أعيش في بيته مثل خادمةٍ. لقد سحرته تشامبا، وسخّرت السّحر الأسود ضدّي».

حاول غوتام إقناعها: «تشامبا... أيّاً كانت هي... فإنّها ليست موجودةً هنا، يا سيدتي! إنها تعيش بعيدةً في لكناؤ، فلا تقلقي».

«ألا تعرف أنّ السيد سيغادر إلى لكناؤ في وقتٍ قريب، وسيشغل منصباً كبيراً هناك؟ وقد طلب منّي أن أعود إلى أخي، قال إنّه أودع مبالغ كثيرةٍ في البنك ستساعدني في شيخوختي. أنا أسألك يا بنيّ! هل المال كلّ شيءٍ في

الحياة؟ سيستأنف صداقته مع تشامبا مرّةً أخرى حالما يصل إلى هناك على أساسٍ شبه دائم... هل ستخبرني بما ستقوله لك تلك العاهرة بعد عودتك من أوده؟ لعلّ السيد يأخذني معه إلى لكناؤ، عندئذٍ سأهتم به حتى وفاتي».

بدا الوضعُ ميؤوساً منه، فصمت غوتام في حين كانت تنتظره ليقول شيئاً، أجاب بعد صمتٍ: «سوف أقول لها ذلك».

انصرفت فجأةً مثلما جاءت، وقد حيّر الأمر غوتام. ومضَ لباسها الأبيض الفاتح في ظلمة الزّقاق الضيّق للحظةٍ، ثم اختفت عند الزّاوية. فرغ غوتام من حزم أمتعته، وجلس على حصير القصب ليقرأ كتاب شكسبير.

22

مملكة الأحلام

في البيوت المطليّة باللون الأبيض ذات السقوف المسطّحة والأبواب المطليّة، والأكواخ الطينيّة المبنية من القشّ، والمباني الشّبيهة بالقصور المبنية من الطّوب الأحمر كانت الأمّهات الشابّات يربتن على أطفالهنّ في أسرّتهم الملوّنة ويغنّين: *نم يا طفلي هادئاً... أبوك قائدٌ لسبعة آلاف جنديٍّ، وجدك نائب الحاكم العام*[1]. ويغنّي الناس تهويدةً مماثلةً ومعاصرةً في إنجلترا: «*نم يا طفلي، أمّك سيّدة، وأبوك فارس*».

كانت الإمبراطوريّة المغوليّة مقسّمةً إلى اثنتين وعشرين محافظةً، وكان منصب حاكم المحافظة أو نائب الملك يعدّ أعلى المناصب في المحافظة، ويمكن لشخص عاديٍّ أن يكون حاكم المحافظة لو أثبت أهليّته لهذا المنصب. بعد وفاة الملك أورانغ زيب في عام 1707، أصبحت الحكومة المركزيّة ضعيفةً، ومرّةً أخرى أصبح نوّاب الملك أكثر قوّةٍ. جاء برهان الملك من نيسابور الواقعة في إيران، وتمّ تعيينه نائباً للملك في منطقة أوده عام 1719، إلا أنّه توفي في عام 1737، ثم عين صفدر جنغ ابن أخيه وزوج ابنته الذي عيّنه الإمبراطور أحمد شاه سابقاً مستشاراً إمبراطورياً، حاكماً لأوده، وعين الأمير نافال راي نائباً له. ولقد تميز عهد صفدر جنغ إذ لم يكن لديه محظيات، كانت النّائبة صدر جهان زوجته الوحيدة، برز ابنهما شجاع الدولة قائداً عسكريّاً قويّاً،

(1) لا يزال الناس يغنون هذه الأغنية ومثيلاتها في ولاية أوترابراديش في مناسبة الولادة وحفلات الزواج.

إلّا أنه انهزم أمام الإنجليز في منطقة باكسر عام 1764م، وحين دمّر نادر شاه مدينة دلهي هرب كتّابها وشعراؤها والفنّانون والحرفيّون إلى مدينة فيض آباد عاصمة حكم شجاع الدّولة.

لقد كان رئيس الوزراء موسيقاراً، فوظّف اثني عشر ألف موسيقار ومطرب. والكثير منهم كانوا يتبعونه على ظهور خيولهم عندما يخرج للصّيد. كان الفنّانون من الأكاديميّة الملكيّة في لندن ومائتا صانع أسلحة من الفرنسيّين يعيشون في مدينة فيض آباد ويعملون فيها. لم يأت زمنٌ في التّاريخ البشريّ حلّت فيه الفنون الجميلة محلّ صناعة الأسلحة. جعل آصف الدّولة ابن شجاع الدّولة وخلفه مدينة لكناؤ عاصمة حكمه عام 1787م.

ولّما وقعت المجاعة الكبيرة في أرض الهند من البنغال إلى أوده، شيّد آصف الدولة «إمام بارا» في المدينة لخلق فرص عمل للشّعب. وقد شُيِّد في اللّيل كي لا يشعر الفقراء المكرّمون من الشّعب بالحرج حينما يراهم الناس في النّهار وهم يكدحون مثل العمّال. وبنى كفاية الله المهندس المعماريّ الذي ينحدر من دلهي لإمام بارا أكبر قاعةٍ في العالم دون عمدان، وكانت متاهات الممرّات الأرضيّة المحيّرة للعقول تعدّ أعجوبة الهندسة المعماريّة.

كان رئيس وزراء أوده قد حظر قتل القردة تقديساً للإله هانومان، إله القرود لدى الهندوس، وكان العديد من الملوك المغول يحتفلون بعيد دوسهرا أو عيد الأنوار، وكذلك هولي عيد الألوان بشكلٍ رسميٍّ في القلعة الحمراء بدلهي، في حين كان عيد الألوان وباسنت عيدين رسميّين في لكناؤ. كانت النّائبة باهو بيجِوم، أم آصف الدولة تأتي إلى لكناؤ من مدينة فيض آباد للاحتفال بعيد الألوان، أما راج ماتا تشاتار كونوار، أمّ سعادت علي خان الحاكم الخامس، فقد بنت معبد هانومان الشهير في علي غنج بمدينة لكناؤ، ووضعت الهلال فوق قبّته.

أسّس رئيس الوزراء ثقافةً جمعت أبرز عناصر الحضارتين: الهنديّة والإيرانيّة. وتكّون المجتمع من شعبٍ مهذّبٍ ومحبٌّ للمرح. وقد عاش في هذا العالم الإقطاعي المتّسم بالفروسية: العلماء، والشعراء، والقاصّون، والموسيقيون، والكتّاب، والفرسان، والبارونات، والممثّلون، والمشعوذون، والطبّاخون، والخطّاطون، والمطرّزون، وأبطال السّباحة، ومطيرو الطائرة الورقية، ومصارعو الدّيوك، وأصبحت البراعة الشديدة والمذاق الجيّد في الفنون الدّقيقة سمة الحرفيّين. وكانت الهندسة المعماريّة في لكناؤ تذكّر الزوّار الأوروبيين بموسكو ودريسدن وقسطنطينية.

في يوم «نوروز»، مارس 1823، دخلت عربة غوتام نيلامبار دوت بوّابة المدينة في عيش باغ، وقدّم أوراقه في نقطة التّفتيش. ختم حرّاس الملك غازي الدّين حيدر ترخيص المرور لنيلامبار. لقد أصبح رئيس الوزراءالحاليّ في المدينة سلطاناً. شعر غوتام بفرحٍ غريبٍ عندما رأى مناطق في البلد حتى الآن يحكمها أمراء محليون. دخلت عربته ضواحي المدينة الخضراء وقت الصباح الباكر، كانت عربات الإبل ذات الطابقين محمّلةً بالمسافرين القادمين. بدأت الحياة تدبُّ في المدينة الرائعة. مازالت ثمة قطعة خشب تحترق تحت شجرة البيبال التي يجلس أمامها راهبٌ عجوزٌ القرفصاء غارقاً في التأمّل. يقوم خلف الشّجرة معبدٌ للإلهة كالي مضى عليه ألف سنةٍ. لف نيلامبار يديه عن غير قصدٍ تحية للمعبد حين مرّت عربته به.

يقع مقرّ المكتب الحكومي في قلعةٍ على جانب النّهر على الطراز الأوروبيّ، بناها رئيس الوزراء المرحوم، سعادت علي خان، واشتراها الإنجليز في بداية القرن، قيل لغوتام في بيت الحرّاس إن المحافظ الحاكم خرج للغداء مع شخصٍ نبيلٍ يدعى النّائب كامّان في غوا غنج.

ورث أبـو المنصور كمال الدين علي رضا بهادور الذي كان يعيش مترفاً في العاصمة عقاراً صغيراً يسمّى نيلامفور يقع في إحدى مقاطعات مملكة أوده. لقد كان شـخصاً وسيماً متزوّجاً يناهز عمره السادسة والعشرين عاماً. وكان أيضاً أحد المعجبين بالمغنّية المشـهورة، تشـامبا جان، ولكنّهـا لم تكن خليلته. أخـذ الرجـل الرومانـسيّ النّبيـل يوجّه آخـر أبياتـه الغزليّة إليها بشـكلٍ غير مباشرٍ، نشرت مجموعة صغيرة من قصائده قبل فترة وجيزة، وكانت تشـامبا ستنشـد أشـعاره الغزليّة في تلـك اللّيلة. أخذ النّائب كامـان يتطلّع إلى الحفلة المسـائيّة مثل أيّ شـاعرٍ أو كاتبٍ ماهرٍ ناشـىءٍ، وراح يفكّر كيف سيسـتقبل الخـبراء المتخصّصـون أشـعاره الأخـيرة، إذ لم يقرأ أحدٌ أشـعاره قطّ، سـمح لتشامبا بأن تضيف إليها الموسيقى، وتغنّيها في سهرة تلك اللّيلة.

بعد أن غادر المحافظ الحاكم، نظر المضيف الشـابّ إلى السـاعة الفرنسيّة التي كانت تدقّ فوق رفّ المدفأة في غرفة الاسـتقبال في ريجينسي، وهو ينتظر بفارغ الصّبر مغيب الشّمس.

في المسـاء قدّم غوتام الحقيبة المختومة المليئة بالأوراق باسـم السـيد أشلي إلى المحافـظ الحاكم في بيـلي جارد. في اليوم التالي همس لموظّف المكتب المحليّ قائلاً: «هل تعرف... أين تعيش المرأة المعروفة بتشامبا؟»

«هل تقصد قاتلة العالم - قاتلة البشر؟»

ابتسم منشي هاري شانكار بسخريةٍ. ربّما خيّل إلى أحدٍ ما بأنّ هذا الموظف الحكوميّ من كلكتا يهتمّ بالأدب الإنجليزيّ فقط.

أجابه غوتام بشيءٍ من القلق: «يجب أن أقدم لها رسالةً عاجلةً».

«أها، ربّما أرسـل السـيد أشـلي هذه الرسـالة، لقد أصبح سـيّدك ضحية لسهام الصيّادين الكبار!».

لزم غوتام الصّمت.

أرسل منشي على الفور ساعي البريد إلى شارع العطور، ليعلمها بأنّ الموظّف السكريتر من كلكتا قد أرسل إليها رسالةً بواسطة موظّفه. كرّر ساعي البريد هذه الكلمات على مسمع المرأة العجوز عند مدخل بيت تشامبا، ثم أخبرت المرأة تشامبا بما قاله، وهي في حمّامها، إذ قالت لها إن موظّف شركة بهادر جاء من كلكتا ليلقاها، ثم عادت العجوز بردّ المحظيّة الرسميّ: «أنتظر من أعماق قلبي زيارتك الميمونة، وأرجوك أن تحضر السّهرة هذه اللّيلة».

قال هاري شانكار لغوتام بسخرية: «بعد أن تقدم لها رسالة أشلي لا تعد بسرعةٍ، امكث هناك، واستمتع بغنائها الرائع. إنّك محظوظٌ، وهي عادةً لا تدعو حثالة القوم أمثالك وأمثالي إلى حفلاتها».

حقّاً إنّه لوضعٌ صعبٌ، وأنا في مأزقٍ، قال لنفسه باللّغة الإنجليزيّة، وهي لغةٌ ساعدته على التفكير بوضوح، وبما أنّه كان محبّاً للدكتور جونسون، فيمكنه أن يسمّي الأشياء بمسمّياتها.

فاح شارع العطور بروائح عطور صيفية ناعمة، وقد وقفت المحفّات والعربات في باحة بيت تشامبا ذي الطابقين والواجهة الزجاجيّة. استقبلته امرأةٌ عجوزٌ في الدّاخل بابتسامةٍ من ثغرها الخاوي من الأسنان. حال هذه المرأة ثقيلة السمع كان في يومٍ ما كحال هذه المرأة المغنية، وقد نقلت رسالة غوتام بطريقةٍ خاطئةٍ إلى تشامبا. ارتدى غوتام لباس تشوغا الرسميّ على الطّراز المغوليّ، فظنت العجوز خطأً أنّه أحد التّجار الأمراء الجدد الهندوس أو إقطاعي من البنغال، فقادته إلى الطّابق العلوي، وذهبت به مباشرةً إلى المسند الذي جلس عليه ضيف الشرف النّائب كامان، وقد أحاط به أصدقاؤه المقرّبون. جلس غوتام في زاويةٍ ونظر حوله.

كان صالـون تشـامبا جـان يلمع بالمصابيـح ذات أشـكال اللّوتس، رأى غوتـام وجوهـاً غريبـةً تنعكـس في مرايا بلجيكيّـةٍ طويلةٍ مذهّبـة الأطر. من هؤلاء؟ وماذا يفعلون هنا؟ وأين سـيذهبون؟ وكم سيسـتغرق هذا الاجتماع في الغرفة؟ كان الرّجال يتحدّثون بنبراتٍ ليّنةٍ مضبوطةٍ وهم يناقشـون بعض تقنيـات الغزل الأردي المعقّـدة، لبس غوتام أفضل ملابسـه المطرّزة، ارتدى قلنسوةً مثل العمامة، فهو ينتمي إلى مجتمع تأثّر بشكلٍ كبيرٍ بثقافة «النّواب» في مرشـد آباد. ومع ذلك أوحى توتّره بأنّه أجنبي. كبح الجمهور جماح فضولهم تجاه الشخص الجديد.

قـال له الأرسـتقراطي ذو المظهر المحترم أثناء المحادثة: «لقد سـمعنا عن عظمة إقطاعيّـي البنغال، ففي أيّ وادٍ أخضر من ذلك الفردوس الهنديّ تقع ممتلكاتك؟»

أجاب غوتام في أرديّةٍ مكسرةٍ قائلاً: «ليست لديّ ممتلكاتٌ يا سيّدي!، أنا موظّفٌ صغير أعمل لكسب عيشي في حكومة شركة جون الموقّرة».

واصل النّائب تدخين الشّيشـة، وقال: «أفهـم ذلك». كان غوتام متوتّراً، ولا يعلـم أنّ الاسـتغلال الاقتصـادي لمنطقة أوده من قبـل الشّركة قد جعل فـورت وليم غير محبـوب في لكناؤ، ومع ذلك ارتبط ملـك أوده بصداقة مع أسياده الإنجليز.

دخـل الموسـيقيون، وسـلّموا عـلى الحضور، ثـم وقفوا في شـكلٍ نصف دائـرة، تبعتهم امرأةً فاتنةً في الثلاثين من عمرها. انحنت برأسـها، وسـلّمت على الحضور، ووقفت أمام الموسـيقيين، ثمّ طلب منسّقها إذن ضيف الشّرف لتبدأ تشامبا باي أداءها.

هزّ النّائب كامان برأسه، وأُنجز الأمر كلّه بشكلٍ رسميٍّ.

لمع خاتم أنفها الماسيّ لماّ بدأت قصيدة المديح النبوي وأهل البيت والأئمة الاثني عشر. أتبعتها بنشيد غزلٍ كتبه المرحوم سيف الدّولة. وبعد نهاية إنشاد الشّعر الملكيّ، بدأت تشامبا تشدو بقصائد غزليّة لكمال رضا بهادور، فقوبلت بجولة من التّصفيق والاستحسان وكلمات التّقدير والتسبيح لله، وراح الشاعر الشّاب يسلّم على الحضور.

همس غوتام للشّاعر وسأله: «ما ذا تعني سبحان الله»؟، أصبح الشاعر صديقاً للزائر البنغالي، فأجابه قائلاً: «ذلك يعني الحمد لله، نحن نحمد الله على كلّ شيءٍ جيّدٍ في الحياة، نحمده على أنّه أنعم بالجمال والصوت الرّخيم على هذه المغنّية»، وأضاف بتواضعٍ قائلاً: «ونحمد الله أيضاً على أنه أنعم عليّ بموهبة قرض الشعر».

سلمت تشامبا على المستمعين مرّاتٍ عديدةً لهتافهم بالثناء. أعجب غوتام ببيئة الصالون المنشّطة. كانت هذه الغرفة بمثابة دفيئةٍ لنباتات غريبة تلمع فيها تشامبا مثل زهرة المانوليا المتوهّجة.

انتهت الحفلة الموسيقيّة وفقاً للأعراف قبل أن يرفع المؤذّن أذان صلاة الفجر، وغادر الضّيوف. كانت الغرفة مليئةً بالشّموع الميتة وألسنة اللّهب الوامضة، تساءل غوتام في نفسه: في مثل هذا المكان المتّسم باللياقة، كيف له أن يكون فظّاً، ويحاصر تشامبا برسالة سوجاتا ديبي؟ اتّخذ قراره بعد برهةٍ، وبدأ يبحث عن حذائه.

فجأةً استحضر قصيدة «*السّيدة الجميلة بلا رحمةٍ*». يضمّ المجتمع العالميّ في لكناؤ المهندسين الإيطاليّن والفرنسيّن، وصانعي الجعة الأسكتلنديين، والتجار الأرمن، واليهود، والكاشميريين، والإيرانيّن، والتّجار من غوجرات. وقد حضر بعضهم حفلات لتشامبا الموسيقيّة. لاحظت القادم

الجديد، كان يبدو متوتّراً لسببٍ ما، ويبحث عن حذائه عند المدخل بقلق. طلبت من الخادم أن يقدّم إليه حذاءه، تقدّمت إليه وخاطبته بلطفٍ وودٍّ قائلةً: «آمل يا سيّدي أن تكونوا قد استمتعتم بموسيقانا الهنديّة».

رفع رأسه وحدّق فيها، ثمّ تمتم قائلاً: «نعم، بالطّبع استمتعت بذلك. أنت تغنّين ببراعة أيّتها السيّدة».

كرّرت الجملة التقليديّة، وهي تسلّم عليه بخفّةٍ قائلةً: «شرّفتم ذرة الغبار هذه عديمة الفائدة، يا سيدي!». ثم أضافت جملةً تقليديّةً أخرى: «هذه الجارية سوف تسجد لكم لو تفضّلتم بزيارة هذا البيت المتواضع مرّةً أخرى».

بدا مرتبكاً إزاء المبالغة اللّغوية، وفكّر في قرارة نفسه، لعل هذه المرأة تظنّ بأنّني إقطاعيٌّ جديدٌ ثريٌّ من البنغال، أو ربّما سمسارٌ ثريٌّ من قاسم بازار، يجب عليّ أن أخبرها بأنّني مجرّد ترسٍ في عجلة القوّة الهائلة لشركة جون. ألم يخبرها بريد منشي هاري تشانكار بذلك؟

واصلت تشامبا حديثها بهدوءٍ: «سيّدي! هذه السيدة سوف تقوم على خدمتك كما تشاء عندما تأتي إلى هنا ثانيةً»

دُهِشَ غوتام، فأسرع رئيس الموسيقيين، عازف البيانو، لدى تشامبا، يشرح الأمر: «يا سيّدي! الخدمة في لغتنا تعني الترفيه عن زبائننا بالموسيقى والرّقص. وبناءً على الآداب والمراسم المتّبعة لدينا، لا نستطيع أن نكون وقحين إلى حدّ إطلاق عليها كلمة التّرفيه، فنستخدم كلمة الخدمة، والسّيدة باي تريد أن تقول لسعادتك ببساطةٍ إنّها ستغنّي لك أغنيتك المختارة».

كان أهالي لكناؤ المغرورون يعتبرون بقيّة العالم غير متحضّرٍ، لقد استمتعت تشامبا بلقاء هذا الهمجيّ الجذّاب ذي العينين اللّامعتين. ودّعها غوتام بسرعةٍ، وعاد إلى مقرّ الحكم. كان المجمّع المترامي الأطراف الموجود

فيه يضمّ قاعات رقص، وصالات الطعام، ومستشفى، وبساتين قائمة على بضعة أفدنةٍ من ريجينسي إنجلترا، وهو يشبه وسط مدينة بغداد في الأيّام الأخيرة لهارون الرّشيد.

لم ير غوتام امرأةً قطّ مثل تشامبا جان، إذ كانت النّساء من الطّبقة العليا في كلكتا يلتزمن الحجاب على نحوٍ صارم، وإذا حدث وذهبت هندوسيّةً لتقوم بغطسةٍ مقدّسةٍ في نهر جانجا، فإن محفّتها تخفض في الماء. لم يكن عدد المومسات قليلاً في هذه المدينة، فضلاً عن أنهن ينتمين إلى جميع الأعراق فمنهنّ: اليهوديّات، والأوروبيّات الآسيويّات، والأرمنيّات. لقد رآهنّ عن بعدٍ، أما تشامبا فكانت مومساً على الطّراز الكلاسيكيّ، تستمتع بسلطتها على الرّجال.

بدأ يتعرّف على مدينة لكناؤ شيئاً فشيئاً. ذهب إلى مكتب آغا مير، رئيس الوزراء الشّهير في المملكة، وقد رأى فخامة الملك في بلاطه، وهو يصطحبه بصفته ساعي بريد من فورت وليم. أصابته الدّهشةُ لمّا وجد الملك يتحدّث الإنجليزية بطلاقةٍ، ولم يكن غوتام يحمل فكرة المستبدّ الشرقي متعاطي الأفيون.

كانت النّساء في مدينة لكناؤ ذكيّاتٍ محبّاتٍ للمرح، وحتى النّساء الأرستقراطيّات لم يعزلن بشكلٍ كاملٍ وراء جدران قصورهنّ، إذ كنّ يخرجن في نزهات، ويرتدين الحجاب، ويشاركن في المهرجانات. ومع ذلك لم يكن المجتمع مختلطاً. كانت المومسات مثل فتيات الجيش الرّاقصات اليابانيّات يقدّمن ترفيهاً راقياً إلى النّبلاء من الرجال.

أخذ غوتام يتأمّل: لماذا لا تتمتع نساؤنا بالحريّة التي تتمتّع بها النساء الإنجليزيّات؟ لماذا مثلاً لا يمتطين الخيول مثل الإنجليزيّات؟ وقد سأل هاري شانكار عن ذلك ذات صباحٍ، وهما في طريقهما إلى رامنا.

فأجابه هاري شانكار بحدّةٍ: «طبعاً، لقد قمن بذلك، فالملكات مثل: كارناواتي، ودورغاواتي، ورضية سلطان، وتشاند سلطانه ارتدين الدّروع، وقدن جيوشهنّ في الحروب».

«آه، لكنّهنّ ملكات. لماذا لا تركب زوجتك الخيل وتذهب إلى ديلكوشا؟»

بدا هاري شانكار مستاءً. «الحجاب رمزٌ للمكانة، ولا تعيش النّساء العاملات وحدهنّ في عزلةٍ. لدينا جماعة الفرسان من النّساء التّركيات والأفريقيّات يحرسن دار النّساء الملكيّة، ويمكنك أن تراهنّ، وهن يقدّمن العرض العسكريّ أمام ماتشي بهاوان في أوقات الصّباح، وزوجتي ربّة البيت تهتمّ بالحجاب، واسمها غريه لاكشمي...». بدا أنّ هاري شانكار لم يعجبه أن يأتي ذكر زوجته أثناء المحادثة، فقال بشكلٍ قاطعٍ: «لا حريّة للنساء، هكذا تحدّث مانو ماهاراج».

ألحّ عليه غوتام قائلاً: «كيف أصبحت النساء الأمريكيّات جريئاتٍ وجسوراتٍ، وهنّ يعبرن المحيط، ويأتين إلى كلكتا ليعلمنّ نساءنا المحليّات؟»

فأجاب هاري شانكار بإخلاصٍ: «يحملن دوافع خفيّةٍ، ويردن أن نصبح نصارى. انظر إلى البابا هيبر والبقيّة يزورون لكناؤ من وقتٍ لآخر».

جابهه غوتام بشدّةٍ قائلاً: «حسناً، لكن فكّر في مصيبة أراملنا الشابّات، لا ألومهنّ إن أراد بعضهن أن يصبحن نصرانيّاتٍ».

قال هاري شانكار بمرحٍ: «هاها، انظر إلى تشامبا جان، لم تحرق نفسها، تحرق الرّجال بنظرةٍ واحدةٍ فقط!». كانا يعبران نهر غومتي على متن سفينةٍ، وفي هذه الأثناء كان جلالة الملك يزور محميّة رامنا الملكيّة للحياة البريّة لمشاهدة مصارعة الكباش، فبدا الأمر كأنّ سكان لكناؤ كلّهم يركبون السفن الملوّنة قاصدين رامنا، كأنّ مهرجاناً أقيم على المياه، في حين كانت الموسات

اللواتي يرتدين ملابس جميلةٍ يبحرن في قوارب النّزهة.

صاحت تشـامبا بمرحٍ من على متن سفينةٍ على شكل حورية البحر قائلةً: «شـكراً لشركة الشرق الهنديّة». كانت تقف بالقرب من مقدّمة السّـفينة مثل تمثالٍ رومانيٍّ مكسـوٍّ بسـتارٍ أبيض. وكان شـالها المصنوع من القطن الموصلي يرفرف في هواء النّهر.

خلع غوتام قلنسوته وردّ قائلاً: «صباح الخير يا آنسة جان، كنّا نتحدث عنك قبل قليلٍ».

همس له هاري شانكار قائلاً: «عليك أن تخاطبها باسم بي صاحبة، هكذا يخاطب النّاس المحظيّات ذوات المكانة الرفيعة هنا». واصل هاري شانكار حديثه في نبرةٍ سعيدةٍ: «إنّها تغنّي للملوك، وتملك فيلا، وقد وهبها النّائب كامان بستاناً خارج المدينة تربّي فيه الأرانب وبعض الغزلان، وأظنّ أنه قد يعجبها إضافتك إلى حديقة حيواناتها».

طلبت تشـامبا جان من طاقمها أن يقرّبوا سـفينتها من قارب كتبة شركة الشّرق الهندية، ثمّ قالت: «تعال أيّها السيد، لا تخجل، اركب سفينتي. ساعده يا سيّد منشي...».

وثب الرّجلان إلى سفينتها المزخرفة، أصبح غوتام أكثر توتّراً، فقد حاول اثنـان منحطّان من سـكّان لكنـاؤ الإيقاع بشـابٍّ يتحلّى بالأخـلاق. راحت تشـامبا تغمز، على نحوٍ متآمر، هاري شـانكار الذي كان سـعيداً للغاية. فيما بدا أن كليهما يستمتع كثيراً.

تبيّن لغوتام أن تشـامبا من النسـاء أمثـال: أمرافالي، ودليلة، وسـالومي، وثيـودورا. لقد كانت معجبةً به كثيراً، فهـي تعرف كيف تختار الرّجال كونها بارعـةً في هـذا المجـال. إنّها حقّاً من ذلـك النوع من المحظيّـات اللّواتي كتب

عنهن دامودار غوبتا في كتابه.

سألت غوتام قائلةً: «لماذا لم تأت بعد ذلك المساء»؟ أزاحت بدلالٍ خصلة شعرٍ سقطت على جبينه، إذ سرّح شعره على غرار تسريحات عصر الريجنسي، وارتدى المعطف والبنطال.

وقبل أن يفكّر في الإجابة، وصلت السّفينة إلى مرسى رامنا، فنزلت على اليابسة تتبعها خادماتها، وقالت: «أسرعوا، لقد وصل جلالة الملك بالفعل»، مشت تشامبا بسرعةٍ، لأنّه كان لزاماً على المتفرّجين أن يصلوا الساحة قبل أن يأخذ الملك مكانه في الشّرفة. شعر غوتام بأنّه وجد الفرصة لنقل رسالة سوجاتا ديبي إليها، فجرى نحوها ولحق بها، ثمّ قال بتسرّعٍ: «أيّتها السيّدة!، يجب عليّ أن أقول لك شيئاً في غاية الأهميّة».

«تعال مساء الغد، هذا المكان لا يليق بالتّصريحات الغراميّة».

فردّ قائلاً: «أستميحك عذراً، لا وجود في حياتي لـ...لـ...»، ولكنه أمسك نفسه عن قول كلامٍ فظٍّ، إذ كان ثمة حشدٌ من الناس يحاصرهم من كلّ جانبٍ على شاطئ النهر. لحق بها غوتام وسألها: «هل تعرفين السيد سيريل؟»

أجابت بسرعةٍ: «نعم، بالطبع أعرفه». تغير مزاجها، وبدت غاضبةً إذ لم تكن تحبّ أن يرفضها أحد.

«وهل تعرفين أن لديه زوجةً؟»

قالت بغطرسةٍ: «إما أنّك ساذجٌ أو أحمق بسيطٌ أيّها السيّد السكرتير. جميع النبلاء الذين يأتون للقائي لديهم زوجاتٌ، ما المشكلة في ذلك؟ أهذا ما كنت تريد قوله لي على عجلٍ؟ لا تضيّع وقتي» ومضت نحو الساحة بسرعةٍ.

23

وداعاً لمدينة كاميلوت

شعر غوتام بالنّدم، يجب عليه أن يعتذر إليها، ويخبرها عن سوجاتا ديبي. ستدمّر تشامبا المسكينَ سيريل أشلي كونها مهووسةً بالرّجال. لقد كان معجباً بسيّده، لذا يجب عليه أن يسعى لإنقاذه. علم في مقرّ المكتب الحكوميّ أنّ السيد أشلي سيأتي قريباً، ربّما بصفته محافظاً جديداً، فقرّر أن يخبر النّائب كامان بذلك. لقد كان النبيل الشاب يعرف بأنّ سيريل أشلي حريفه.

ذهب غوتام للقاء صديقه في ظهيرة أحد الأيّام قال له: «أنت تعلم يا حضرة النّائب إن لم تتخذ إجراءً الآن، فإنّ السيد سيريل سيسيطر على زمام الحكم». أخبر كمال رضا بهادور عن حال سوجاتا، وفكّر الشاب للحظاتٍ ثمّ قال: «سوف أطلب من تشامبا أن تقيم لنا حفلةً موسيقية في منزلها داخل الحديقة الأسبوع القادم حيث يمكنك أن تتحدث معها دون إزعاج».

أمر كامان بإحضار قلمه ومحبرته، غير أن خادمه عاد ليقول له: «يا سيّدي!، لا أستطيع أن أجد قلم ريشةٍ جديدٍ، لقد استهلكتم الأقلام كلّها أثناء كتابتكم الأشعار الغزليّة».

«اذهب واشتر مخزوناً جديداً من الأقلام والقرطاسيّة على الفور» أجاب كامان، فغادر الرجل على الفور.

ابتسم غوتام نيلامبار ابتسامةً عريضةً قائلاً: «يا حضرة النّائب، قد تضيع

تشامبا بسبب الحاجة إلى القلم، ولدينا مثلٌ في الإنجليزيّة يقول ضاعت المملكة بسبب الحاجة إلى المسمار».

ضحك كمال رضا قائلاً: «كسبنا مملكةً هنا بسبب الحاجة إلى الكرسيّ أيّها السيّد نيلامبار». جاء الخادم بالشيشة الجديدة. أصبح غوتام شخصاً ظريفاً في مدينة لكناؤ، فبدأ يلبس لباس أنغارخا المصنوع من القطن الموصلّي، ويضع على رأسه قبّعة دوبالي. لقد قرّر أن ينغمس في الملذات، بعد تلك المواجهة التعيسة مع تشامبا وهما في طريقهما إلى رامنا. ولم لا؟ يمكنه أن يركب سفينتين معاً، إحداهما هندية والأخرى إنجليزيّة.

سأله غوتام وهو يمضغ التنبول قائلاً: «يا سيّدي النّائب، كيف كسبتم مملكةً بسبب الحاجة إلى كرسيٍّ؟»

«انظر! حتّى الآن، يُعين حكّام منطقة أوده بشكل رسميّ كرؤساء وزراءٍ للهند - الحكّام النواب، وكانوا يدينون بالولاء الرمزي للأباطرة المغول الضعفاء في دلهي. ومنذ زمن الملك جهانغير، توَّجَبَ على الدبلوماسيين الإنجليز أن يقفوا بين الحضور أمام الإمبراطور المغوليّ في الدّيوان الخاصّ في مدينة آجراه ودلهي. لم يكونوا من أصحاب المراتب العليا التي تؤهلهم للجلوس على الكرسي مثل محافظي الولايات، والجنرالات، وكبار الشخصيات الأخرى في الإمبراطوريّة. وبعد أن أصبحت شركة الشرق الهنديّة الحاكمة الفعليّة على أرض الهند، غدا متوقّعاً للورد مايرا، الحاكم العام في الهند، أن يجلس على الكرسي في البلاط الملكي، لكنّ الملك أكبر شاه جعلِه يقف بين الجمهور كالعادة، مما أغضب اللورد، فطالب محكمة شركة الشرق الهندية برفع مكانة رئيس الوزراء في منطقة أوده إلى مكانة ملك كامل السّلطة، بهدف تقليص حجم الملك المغولي المسكين الضعيف. الآن غازي

الدين حيدر هو ملك منطقة أوده، وبهذا يحكمنا الآن ملكان، أحدهما في دلهي، والآخر في لكناؤ...».

جاء الخادم بقلم الرّيشة الجديد.

«والآن أسألك أيّها السيّد غوتام مثلما كان يسأل بيتال من فيكراما في نهاية كلّ قصّةٍ، بصفتك مفكّراً ناشئاً هل حدث كلّ ذلك بمحض الصّدفة أم كان مقدّراً، أم حدث من أجل حماقةٍ أو غطرسةٍ أو كرامة الملك الرمزيّ المجروحة المسكين أكبر شاه الثاني، أم أنه حدث بفعل دهاء الإنجليز، أم ساعد الحظّ السعيد غازي الدين حيدر؟»

فكّر غوتام للحظةٍ ثمّ أجاب: «حدث ذلك بسبب تلك الأمور كلّها».

«صحيح»!، كتب كامان ملاحظةً إلى تشامبا يطلب منها أن تنظّم أمسيةً موسيقيّةً في منزلها داخل الحديقة في تاريخٍ معيّنٍ.

التقى بها غوتام بعد انتهاء السّهرة الموسيقية في المنزل داخل الحديقة، وسرد لها القصّة المملّة نوعاً ما حول وضع سوجاتا ديبي.

أصغت له باهتمامٍ، ثم قالت: «قل لي، حتى وإن لم ألتق السيد سيريل، فهل يفيدها ذلك؟ يبدو من الأمر أنّه فقد الاهتمام بها؟ أعرف الرّجال، إنهم منحلّون أخلاقيّاً، بعضهم يجد الفرصة لخيانة زوجته، وبعضهم الآخر لا يجدها. وتلك السيدة المسكينة ليست متزوّجةً منه بشكلٍ قانونيٍّ». تنهدت تشامبا بتعاطفٍ، وقدّمت له ورقة التنبول، ممّا يدلّ على أنّها تخلصت من الموضوع.

زارها غوتام مرّاتٍ عديدةٍ في منزل الحديقة، وتحدثا لساعاتٍ طويلةٍ، كانت تشامبا متحدّثةً رائعةً، وهو يبحث عن نساءٍ مثقّفاتٍ ذكيّاتٍ، وقد عثر على إحداهن في لكناؤ، لم يغرها قط ليضاجعها.

قال لها بشموخ: «صداقتنا صداقةٌ عذريّةٌ».

فردّت عليه ساخرةً: «صداقةٌ عذريّةٌ؟! على حذائي!!. أنت إنسانٌ جبانٌ. لكن ليكن الأمر كذلك».

توقّف عن زيارتها نهائيّاً، وأدرك أنّه لا جدوى منها، فكّر في الأمر فوجده من إحدى سخافات الحياة، نلتقي مع الأشخاص المناسبين في الأمكنة غير المناسبة. لقد قالت برزانةٍ وهي تطعم أرانبها: «فليكن الأمر كذلك».

اقترب موسم الأمطار، واستعدّ غوتام نيلامبار للعودة إلى البنغال، خرج جميع أصدقائه في مقرّ المكتب الحكوميّ إلى الباب ليودّعوه، ربطت خادمةٌ شريطاً مخمليّاً صغيراً في ذراعه اليمنى ليبقى في أمان الاثني عشر إماماً. كان عليه أن يركب السفينة في كانفور.

ودّع مدينة لكناؤ بقلبٍ حزينٍ، ولمّا وصلت عربة الخيل إلى نقطة التّفتيش، قال لسائق العربة على الفور: «فلنذهب إلى الساحة أوّلاً، أريد أن أشتري بعض العطور لآخذها معي إلى البيت».

فهم غانغا دين، سائق العربة الأمر، فقاد العربة نحو شارع صانعي العطور، وتوقّف أمام بيت تشامبا جان.

دُهشت لرؤيته وقالت: «جئت أخيراً»

«لا، أنا ذاهبٌ، إنّني في عجلةٍ».

«جميع الناس يبدون في عجلةٍ، لا أعرف ما الّذي يريدون تحقيقه».

«جئت لأودّعك، سعدتُ بلقائك».

سلّمت عليه بلطفٍ قائلة: «هذا لطفٌ منك».

«أنا أعتذر إليك مرّةً أخرى على ما بدر منّي من وقاحةٍ أحياناً».

«لا عليك. لقد أدركت أنا أيضاً أنّني لستُ إلا مغنيةً بكلّ الأحوال،

أعجبت بك لأنّك كنت مختلفاً، وللجديد دائماً جاذبيّةً».

«كنت إنجليزيّاً مزيّفاً وحسب».

«لا بأس بذلك، لدينا ملكٌ إنجليزيٌّ مزيّفٌ، يلبس مثل الملك وليم الرابع، يتزوّج الإنجليزيّات، حتى أنه يجهز نماذج صور مقابر الحسن والحسين في إنجلترا».

نظر إليها غوتام بصمت. إنها شابّةٌ حسّاسةٌ وذكيّةٌ للغاية. سيتركها هنا وحيدةً مع أفكارها في هذه الغرفة المليئة بالمصابيح الفضيّة والستائر الدمقسيّة، وسيعود إلى جحره الصغير الرّهيب في مانيكتالا، ليعيش وحيداً مع بنات أفكاره.

«قلت إنّك إنجليزيٌّ زائفٌ».

«نعم، وأنت تلتقين بالإنجليز الحقيقّيين، هذا يذكّرني بوضع سوجاتا ديبي. أرجوك مرّةً أخرى أن تأخذي معاناتها بعين الاعتبار عندما تلتقين بالسيد أشلي في المرّة القادمة».

«أوه! لا تبحث في ذلك الموضوع المملّ ثانيةً. كن لطيفاً، فمن الذي يفكر في معاناتي عندما يلتقيني؟»

«أأنت حزينةٌ؟ سمعتُ بأنّك بلغت قمّة السعادة بوصفك أفضل المغنيّات في لكناؤ».

«وهل أنت سعيدٌ لكونك شابّاً ناجحاً؟ كنت أجدك دائماً في مزاج تأمليٍّ».

«حسناً، لديّ مشاكلي، وأحاول أن أبني حياتي، وأجد مكاناً لنفسي تحت الشمس أو كما يقولون».

«بالطبع!، حتى إن كنت تفكّر في التحكم بقدرك، فإن القدر في النهاية هو الذي يقرّر حياتك».

توجهت نحو الشرفة ونظرت إلى الخارج، فرأت موكب زفاف يمرّ بالمكان، ثمة مسرحيّة كوميديّة تمثل على مسرح العربة، وأظهر المشعوذون حيلهم على إثرها. كانت الأوركسترا تعزف ألحاناً سعيدة على «مسرحٍ متنقّلٍ» آخر، تتبعها محفّة العروس المزخرفة.

قالت تشامبا بصوتٍ مرتفعٍ: «إنّها فتاةٌ محظوظةٌ»، وعادت إليه بعد بضع دقائق.

تعاملت معه بشكل رسمي مثلما لقيته أوّل مرّةٍ: «حسناً، يا سيّدي! عليك ألّا تؤجّل مغادرتك، فأنت لا تنتمي إلى هذا المكان، لابدَّ أن تصل إلى كلكتا قبل أن تفيض الأنهار. لا أحزنك الله إلا على الحسين. هذه هي الطريقة التي يُبارك بها بعضنا بعضاً في هذه المدينة، ولقد كررت هذه الجملة لأنّي اعتدتها، فأنت لا تعرف الحسين ولا الحزن. وداعاً».

طأطأت رأسها، وابتسمت ابتسامةً واهنةً، ثم غابت وراء ستار دمشقي.

قاد غانغا دين العربة إلى الشارع الرّئيسي، نظر غوتام إلى مشهد الشارع المزدحم. وبينما كان الرجال البواسل يتبخترون في الطرق، مرت كتيبة النساء السود العسكرية. كانت المحتالات يتسكّعن في الأزقّة، فيما تجمع متعاطو الأفيون في أوكارهم. كم يبدو العالم رائعاً! أطلق عليه شكسبير اسم المسرح، وردّد بهارتري هاري الشيء نفسه.

خرجا من السوق، فوجدا الشارع الرئيسّي مليئاً بعربات الجمال، والخيول، والأفيال، وكراسي سيدان. كان الراهب العجوز لا يزال جالساً تحتِ الشّجرة خارج باب المدينة، وثمة قطعةٌ من الخشب تحترق أمامه. نزل غوتام من العربة، ومشى إلى معبد الإلهة الأنثى. كان يعرفها حتّى اللحظة في شكل الإلهة كالي، ولكنها ظهرت الآن على شكل جوغ مايا، أو الوهم، أيضاً.

خاطبه الراهب قائلاً: «أتغادر في عجلةٍ، أيّها المسافر!»

«من الحماقة يا أبتي أن يبقى المرء طويلاً على شواطئ السراب، مدينتك هذه مدينة أوهام. لقد فتحت الإلهة جوغ مايا أذرعها العشر للإيقاع بي، لكنّها تركتني أذهب، وها أنا أعود سالماً الآن».

قال الراهب: «اسمع يا بنيّ، لا يسلم منّا أحدٌ. إنّنا دمىً طينيّةٌ صنعها الخزّاف، ونحن نتكسر دائماً. لا تثق بقوّتك إلى هذا الحدّ». أخذ حفنةً من التّراب بيده وقال: «انظر كم تبدو عطرةً! خذ حفنة التراب هذه معك، وضعها في معبد الإله جوغ مايا في مدينة كاتاك...».

تردّد غوتام، وظنّ أنّ هذا الشخص التانتريك قد يكون هندوسيّاً، وهو على أي حالٍ فقد إيمانه بدين أجداده بسرعةٍ.

«خذها، إنها ذرّةٌ من مدينة لكناؤ، احملها معك، وسوف يطاردك سحر هذه المدينة للأبد. تظن أنك خرجت من متاهة إمام بارا آصفي، لكنّك مخطئٌ في ظنّك، اذهب...».

قال له سائق العربة: «كان هذا العجوز الراهب قائداً في جيش جلالة الملك شجاع الدولة، وقد اختار الرهبانيّة بعد هزيمتنا في منطقة باكسر...».

فكّر غوتام، يوجد تقليدٌ غريبٌ آخر في هذا البلد؛ بعد هزيمة الحلفاء الهنود في باكسر، ارتدى النّائب قاسم مير في البنغال لباس الفقراء المتصوّفة، ولكن ما الفائدة من ذلك؟

مع حلول الليل، نزلا في نزل بناه راجا تاكيت راي، وزير المالية الشّهير لآصف الدولة. أثار الحرّاس المسلّحون الذين يرتدون زيّ الشركة تعليقاتٍ كثيرةً في النزل. «هذا الموظّف الحكومي في طريقه إلى فورت وليم، اسألوه متى ستقوم شركة الشرق الهنديّة بتخفيض ضرائبنا، ربّما يعرف ذلك».

حـاصروه في فنـاء النـزل، كان معظمهـم مزارعين لديهـم مطالـب، وهم في طريقهـم إلى لكناؤ. كم يبـدو هؤلاء الرجال أبرياء ورائعين! شـعر بحزنٍ لمغادرته منطقة أوده.

أخـذت المصابيـح تومـض وتنطفئ في الهـواء. كان غوتام مرتبـكاً، فراح يفكّر في الأمر ويحلّله. لو كانت الفوضى تسود الهند قبل مجيء البريطانيّين، لما ازدهـرت التجارة والصناعة إلى درجـةٍ جذبت القوى الأوروبيّة. صحيحٌ، لم يكـن لدينا قانون روماني، ولكن هل اتّبع الإنجليز القانون لمّا نكثوا عهودهم مع الحكّام الأصليّين؟

بينما كان غوتام مضطجعاً على سريره، سـمع حفيف أوراق شـجرة النيم عنـد المدخل. كانت زوجة صاحب النزل سـليطة اللسـان مشـغولةً في طهي الطّعـام ليلاً لسـعاة بريد ملـك أوده، الذين وصلوا يحملون الرسـائل الملكيّة إلى دلهـي. علـم غوتـام في لكناؤ بأنّ مراسـلات شـجاع الدولـة كانت تصل إلى محكمـة رئيـس الوزراء من فيض آباد إلى مدينة بونا في مدّة أسبوع واحد. بالطّبع لم يكونوا متخلّفين وغير أكفاء كما ادّعى الإنجليز. ولكن لماذا تخلّفنا؟ لأنّنا جبريون، لقد استسلم الملوك وعامّة الناس، وكذلك الرّهبان، والفساق، جميعهم استسلموا لأقدارهم.

وبينـما راحـت ظـلال سـعاة البريـد تتنقل عـلى جـدران المسـاحة المربّعة تملّكتـه فكرة كيف أنّ الأوروبيين أصبحـوا عقلانيين، وهم ما زالوا منفعلين ومتخلّفـين. بدا الإنجليز دهشـين؛ يقولون إن السـكّان الأصليّين كانوا أكثر سـعادةٍ تحـت حكـم ملوكهم المجانـين ممّا هم عليـه الآن. ولكـن ربّما لم يكن هؤلاء الملوك مجانين إلى هذا الحدّ طبعاً...

شعر بالحزن لمّا أدرك أن هذه هي مملكة أوده الخيّالية، وهذه هي مدينة

كاميلوت، التي قد لا تصمد طويلاً، لأنه يعرف قوّة ودهاء الحكومة التي يعمل لصالحها في فورت وليم. بعد وفاة سعادت علي خان، باتت سلطنة أوده الحالية مهزلةً. ولكن شموع هذه المملكة احترقت من أعلاها وأسفلها، باعثة ضوءاً أخّاذاً...

24

شجرة الباغودا

12 سبتمبر، 1825

حضرة السيّد المحترم/

أصرّح بأنني ماريا تيريزا توماس، صاحبة «شجرة الباغودا» المرخص لها في الشارع الأرمني. يسعدني إخبارك بأنني فتحت دكان شاي في حارة راني مندي حيث يُقدَّم أفضل مشروبٍ صينيٍّ إلى الشّخصيات البارزة من كلكتا، وأنا أرسل هذه الرسالة والهدايا المتواضعة إلى مكتبك في فورت وليم كي لا أسبب حرجاً وريبةً، لأنها غير ضروريّة من وجهة نظر السيّدة أشلي التي تعاني من وضعٍ خطير في حياتها العائليّة.
وكما قيل، لا يلدغ مؤمنٌ من جحرٍ مرتين، إذ حدث عندما جئت إلى كلكتا لأوّل مرّةٍ قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، أن أرسلت إليك رسالة بواسطة ساعي البريد، غير أن زوجتك المحلّية قدمت له رشوة، وأخذت الرسالة منه، وقد اتّضح أنها لم تعطك تلك الرّسالة قط. أرسلت إليك الرسائل فيما بعد عن طريق البريد، لكّنها اعترضتها وهدّدتني بعواقب وخيمةٍ عن طريق جواسيسها المحلّيين، وبما أنّها من عبدة الإلهة كالي، كما تقول، فقد هددتني بالقتل بواسطة المشعوذين إذا حاولت الاتّصال بك مرّةً أخرى. تخلّيت عن

فكرة الاتّصال بك، ولم يكن ذلك بسبب قلّة احترامي لك، ولكنّني ظننت أن الأمر لا يستحقّ كلّ هذا العناء، وأعني بذلك أنّ سعادتك أجلّ من أن يقتل شخصٌ ما من أجله.

جئت إلى هذه المدينة من مدراس لما كان عمر أينابيلا يناهز عشرة أعوام. لقد توفّي والدي، كما توفّي أخي الوحيد (في الحرب ضد السيد تيبو في سيرينغاباتام). وبعد وفاة أمّي، باع شريك والدي الأمريكي حانتنا. ومن ثمّ انتقلنا إلى كلكتا. افتتح العم أراتوم أرام أرتوم حانة خمر في الشّارع الأرمني وسماها «شجرة الباغودا». ثمّ افتتحنا حانةً للجعة في شارع بو بازار، ووظّفنا العديد من الفتيات الأوروبيّات الآسيويّات للترفيه عن الرّجال. لم أتزوّج بسبب ضغط الظّروف، وعشت حياةً منحلّةً. أمّا أينابيلا فهي جميلةٌ. لا أريدها أن تكبر في بيتٍ فاحشٍ. (إنّها ابنتك يا سيّدي، لكنني لم أؤكد لك هذه النقطة، فربّما لا تصدّقها)، وقد ألحقتها بالصّليب المقدّس في المنطقة الفرنسيّة لتشاندرناغور، ولم أخبر أحداً في كلكتا عنك. أمّا العم المسكين آراتون، فقد كان يعرف القصة كاملة. ذهب إلى دكا بغرض التّجارة وتوفّي هناك. لقد أخبرت أينابيلا بالأمر، لكنها لم تبد أيّ رغبةٍ في لقائك. إنها تنتمي إلى العائلة المقدّسة، لكونها صاحبة عقل مؤمن. لقد ارتدت الحجاب مؤخّراً في عمرٍ يناهز خمسةً وثلاثين عاماً، وتعرف بالأخت إيليزا للصّليب المقدّس. لقد بدت عجوزاً حزينةً لّما ذهبت لزيارتها السّنة الماضية، حبست نفسها في دير الرّاهبات، وانقطعت عن العالم القذر الذي يسيء معاملة النّساء أمثالنا. تصلّي أينابيلا لنجاتك. ربما تجد أملاً ضئيلاً في النجاة، كونك بروتستانتيّاً، وقد يعفو الإله عن شخص شرّيرٍ مثلك، لأنّ ابنتك القدّيسة، حتّى لو أنها غير شرعية، تدعو لك ليلاً نهاراً.

أمّا عن سبب كتابتي هذه الرّسالة إليك الآن، فذلك من أجل مناسبةٍ

سعيدةٍ، فقد كان بعض الصّحفيّين من مرتاديّ دكّان الشّاي لديّ يتداولون بكثيرٍ من الحماسة والإثارة خبر فوزك بوسام الفروسيّة وأيضاً خبر زواجك من امرأةٍ أرستقراطيّةٍ مثل الفرس (لا أقصد الإهانة يا سيّدي، أنا أذكر فقط ما كان الصحافيون يقهقهون به وحسب)، وبأنك عدت إلى كلكتا بأمانٍ، وربما يتمّ إرسالك في أقرب وقتٍ كمحافظٍ في محكمة ملك أوده، ومن أجل تهنئتك بهذه الأشياء الرائعة التي تحدث لك (بما في ذلك وفاة زوجتك المحليّة بلدغة حيّة -فقد ساعدتها كثيراً- عذراً يا سيّدي)، أرسل إليك صندوق شاي من آسام، وقوارير شراب. لا حاجة إلى أن تشكر لي على ذلك...

رفع الله منزلتك أيها السيّد سيريل، ها، ها.

مع خالص التقدير والاحترام

ماريا تيريزا

من «شجرة الباغودا»

انتهى سيريل من قراءة الرّسالة، فخلع نظّارته، وفقد وعيه مؤقتاً. أحسّ بدوارٍ، ارتجفت يداه وهو يمزّق الرّسالة إلى قطعٍ صغيرةٍ، أحنى رأسه وجلس صامتاً، كما لو كان في تأمّلٍ عميقٍ، رغم أنّه لم يُصَلِّ قط في حياته، بالنسبة له مازال البنك في إنجلترا أكثر أهميّةٍ من الكنيسة.

نهض عن مقعده، ومشى داخل الغرفة، ثم توقّف أمام مرآةٍ عليها قبّعةً ونظر إلى نفسه. هسهس بصوتٍ عالٍ «فأرة»، فدخل الخادم بسرعةٍ مع الهراوة.

«أين هي يا سيدي؟»

«ماذا؟»

«الفأرة».

أصبح السيّد، الذي قتل النّمور، خائفاً من الفأرة إلى درجة أنّه راح يرتجف. بحث الخادم تحت الطّاولة وفي أنحاء الغرفة الواسعة عالية السّقف.

«اخرج، يا لئيم»، صاح الرّجل بالأردية بنبرةٍ بيهاريّةٍ، وهو يضرب الفرش بهراوته.

خلال تلك الفترة ضبط سيريل نفسه وقال: «لا عليك، يا عبدول، لقد خرجت للحظةٍ، ثم اختفت».

«يا سيّدي، نحتاج إلى قطّةٍ جديدةٍ في المكتب، لقد أصبح القطّ توم عجوزاً».

«نعم، نعم، الآن يمكنك الذهاب، يا عبدول».

عاد الحاجب، لكنّه ظلّ مضطّرباً.

جلس سيريل على كرسيّه وأغلق عينيه. اقشعرّ بدنه حين تخيّل أنّ ماريا تيريزا قد ترسل نسخاً من رسالتها إلى الصحف في كلكتا. لقد اختارت الوقت المناسب للظّهور بعد ستّةٍ وثلاثين عاماً من أجل ابتزازه. أحسّ أن قلبه يتفتت.

ذهب عبدول مباشرةً إلى خادم السيّد الخاص، جوزيف لورنس.

«يتصرّف السيّد على نحوٍ غريبٍ، أشعر بأنّ صحّته ليست على مايرام».

أسرع جوزيف، العجوز الوفيّ، نحو مكتب سيّده، حيث رأى صندوق الهدايا الذي أرسلته ماريا على رفّ المدفأة، كما لاحظ الرّسالة الممزّقة على الطاولة، ففهم الوضع في لحظةٍ. لقد سمع عن ماريا تيريزا مؤخّراً لّما انتقلت إلى دكّان الشاي الموقّر في حارة راني منذي. لقد التقى بها، وتعاطف معها

كونه ينتمي إلى الأوروبيين الآسيويّين. قالت بهدوءٍ: «قدّر لي أن أعاني، ولكن لماذا سمحت لنفسي بأن يغريني هذا الشخص؟ الآن أعي أنَّ جميع الرّجال يتصرّفون مثل سيريل أشلي، فلماذا ألومه وحده؟»

وبناءً على طلب جوزيف لورانس، احتفظت بقصّتها سرّاً. لقد شعر بأنّها امرأةٌ نبيلةٌ حقّاً، ولن تفكّر أبداً في ابتزاز السيّد سيريل. ها هو خادمها قد حمل صندوق الهدايا والرّسالة إليه في الصّباح. تمنّى في تلك اللّحظة لو أنّه أخبر سيريل عنها، وأنقذه من هذه الصدمة الكبيرة. على أي حالٍ، يحتاج السيّد الآن إلى مشروبٍ قويٍّ جدّاً. وبينما أخرج لورنس زجاجة اسكوتش من الصّندوق المفتوح، حدّق فيه الفارس الجديد في ذهولٍ.

لم يلبث طويلاً حتّى أعلن قائلاً: «جوزيف، أنا ثملٌ مثل اللّورد»، ثم أغمي عليه.

جسّ جوزيف لورانس نبضه، فبدا طبيعيّاً، ثم أمر بإحضار الدكتور ماكغريغور رئيس الأطباء في فورت وليم.

جاء الطّبيب العجوز ماكغريغور وهو يقود عربته بسرعةٍ قصوى. كان شخصيةً بيكويكيّةً مرحةً وبسيطةً في محيط فورت وليم. فحص الرّجل الكبير الغائب عن الوعي، بعد ذلك حُمِل إلى الأريكة.

قال للورنس، وهو ينظر إلى قارورة الخمر الجديدة من أسكتلندا: «إنّ السيّد سيريل بخيرٍ، لقد حدث له ذلك بسبب الإرهاق، وهو يحتاج إلى استراحةٍ كاملةٍ».

انضمّ السيّد سيريل إليهما بعد بضع دقائق وقال: «آه، مرحباً يا دكتور!، مساء الخير، تعال نتناول الخمر. خذ الكؤوس يا جوزيف!، وانضمّ إلينا، ورتّب الأمور بسرعةٍ».

أقامـوا حفلةً صاخبةً في المكتب. صعد سـيريل على طاولتـه، وراح يغنّي أغنيةً شعبيّةً كورنواليّةً بأعلى صوته.

«ماذا لو وضعتك على الأرض، يا خادمتي الجميلة».
لتجيب: «سأقف مرّةً أخرى يا سيّدي اللّطيف!»

تناول الدكتور ماكغريغور اللازمة الشّعرية بحماسةٍ وردّد:

قالت: «يا سيّدي»، قالت: «يا سيّدي».
قالت: «سوف أقف مرّةً أخرى يا سيّدي اللطيف!»

قـال الموظّفـان وهما يعـبران الممر: «إنّهم يحتفلون بمناسـبة فـوز الموظّف الكبير بلقب الفارس».

وثب سيريل من فوق الطّاولة، وبدأ يرقص رقصة الجيغ.

قطع كعكٍ حارّة
واحدةٌ بفلسٍ واثنتان بفلسٍ
قطع كعكٍ حارّةٌ
وإذا لم تعجب ابنتك
أعطها لابنك...

مضى ينظم شعراً ويقول:
ابنتي مقدّسةٌ
قطع كعكٍ حارّةٌ
لا يمكنها أن تحب قطعة كعكٍ حارّةَ

وأمّها طائشةٌ، تدير وكراً
واحدةٌ بفلسٍ واثنتان بفلسٍ

سالت دموعه على خدّه وجلس. انشغل الدكتور ماكغريغور بشرب الخمر، ولم يلاحظ حزنه. واصل سيريل البكاء بصمتٍ. لن يلتقي بحبيبته الأولى ماريا، ولن يزور ابنتها الحزينة التي غدت امرأةً في منتصف عمرها منعزلةً عن العالم. سوف تنجب له زوجته النبيلة وريثاً أو وريثةً شريفةً.

مسح وجهه، ووضع نظّارته على رأس أنفه مثل معلّمٍ، ثم خاطب جمهوره قائلاً:

«الرجاء اقلبوا الصفحة رقم 0، 0، 0».

فأجابت جماعة السكّيرين معاً: «نعم، يا مولاي»، الصفحة رقم 0، 0، 0».

وقف سيريل وألّف تهويدته الخاصّة:

الطّفل يتأرجح
على شجرة الباغودا
مهدك أبيض
ومستقبلك مشرقٌ...
أمّك سيّدةٌ
وأبوك فارسٌ

غنّى الطّبيب وموظّف المكتب الأغنية. فجأةً أعرب سيريل عن إحباطه وقال: «أيّتها الأخت إيليزا من الصّليب المقدّس، صلِّ من أجلنا نحن المذنبين..»، ثمّ مشى مترنحاً نحو الأريكة، وألقى بنفسه عليها.

أنجبت السيدة أشلي ولداً، وقد عمده أسقف كلكتا كـ سيريل إدوين

ديريك أشلي، وكان الحاكم العام وامرأته الأبوين الروحيين له.

بعد مدّةٍ، استقال غوتام نيلامبار من وظيفته الحكوميّة. نال درجة البكالوريوس في الآداب، وأصبح أستاذاً في مدرسة براهمو سماج. وذات يوم بينما كان غوتام جالساً في مكتب براهمو سماج يطالع الصحف اليوميّة، إذ رأى عنواناً ينعى السّيد سيريل أشلي الذي وافته المنيّة عن عمرٍ يناهز خمسة وستين عاماً، فغلبه الحزن، وقال إنّ سيريل كان إنساناً نادراً، وليس له نظيرٌ في هذا الزّمن.

لقي سيريل حتفه في منزل الدّائرة المنعزلة في زاويةٍ نائيةٍ من مقاطعة بيهار. كان قد عاد على ظهر الخيل بعد معاينة مزارع صبغة النّيلة الخاصّة به، خلع خادمه حذاءه، ثمّ غيّر ملابسه واغتسل لتناول العشاء، شرب الخمر كالعادة عند المساء في غرفة الاستقبال، حيث شعر فجأةً أنّه سيموت.

همهم بشيء لكنّه لم يستطع أن يدعو أحداً: «هل ثمّةَ شخصٌ أصيب بسكتةٍ قلبيّةٍ خطيرةٍ، وتوفي بصمتٍ على كرسيّه المريح».

دفن السيد سيريل في مقبرةٍ أوروبيّةٍ صغيرةٍ في المقرّ الحكوميّ بالمقاطعة القريبة. كان قد تقاعد قبل سنواتٍ من خدمة الشركة، وأخذ يقضي معظم أوقاته في قراءة الأعمال الكلاسيكيّة باللّغة الفارسيّة والسنسكريتيّة. أصبح مضطرباً بعد ذلك الصباح المنكوب في فورت وليم في سبتمبر 14، 1825، وقد نسب أصدقاؤه وأتباعه حزنه إلى زواجه السيّء.

نشرت الصحف في وسط البلد مقالاتٍ مطولة تمجّد المتوفّى، فقد كان أحد مؤسّسي الإمبراطوريّة، ومستشراقاً بارزاً، وشخصيةً محبّبةً إلى عامّة الناس، وأُغلقت الجمعيّة الآسيويّة الملكيّة وكلية فورت وليم ليومٍ واحدٍ، وعقدت حفلات تأبين بصفةٍ خاصّةٍ في كنائس كلكتا ولكناؤ.

أبحرت زوجته الحزينة إلى إنجلترا مع إدوين ديريك أشلي الصّغير.

25

سفر الدموع

تـولّى ناصر الدين حيدر عـرش لكناؤ خلفاً لـغازي الدّين حيدر، وكان مثلـه مترفـاً ومتبهرجـاً. بلغـت حكايـات حلّاقـه الفرنسيّ دي راسـيت من الشّـهرة بحيـث يمكـن أن تكتب عنـه أوبرا بعنـوان «حلاق لكنـاؤ»، فهو لم يكـن أقلّ خبثـاً من فيغارو، بطل الأوبرا الفرنسـيّة «حلّاق إشـبيلية»، كما أن جاريتـه دهانيـا ميهري اكتسـبت أيضاً نفـوذاً قويّاً. كان الملك قـد أطلق على زوجهـا لقب «الملـك ميهرا». رحل في عهده العديد مـن نبلاء البلاط الملكيّ إلى إنجلترا، وصار بعضهم ماسـونيّين. تميزت لكناؤ باحتضان حلبةٍ عصريّةٍ لسـباق الخيول وملاعـب التّنس تدعى «غيند خانه» (خانـات الكرة). وبعد وفاة ناصر الدين، ورث مُلكه خلفاء مثل: محمّد علي وأمجد علي، كانا متديّنين وغير متحمّسين.

عـلى أنّ واجد علي شـاه، الملك العـاشر لمنطقة أوده، أصبح أسـطورةً من الأسـاطير الحيّـة، حبَّبَ نفسـه إلى الشـعب في صـورٍ مختلفةٍ مثـل: «أختر بيا» أي «أخـتر الحبيب»، و«جان عالم» أو «روح العالم»، كما كان موسـيقاراً بارعاً مِثل حسـين شاه نايك من جونفور، وسلطان باز بهادر من مالوه، أَلَّف ألحان «تهومـري»، و«داد رس» (أصنـاف الموسـيقى الهنديّة الكلاسـيكيّة). وأتقن رقصة «كاتهاك»، أحد أشـكال الرقص الهنديّ التقليديّ، وأوجد رقصة باليه

سمّاها «راس ليلا» أو «راهاس»، كان يرقص فيها مرتدياً زيّ الإله الهندوسيّ كريشنا. وبمناسبة «جوغيا ميلا» أو المهرجان الصوفي، أو مهرجان الربيع الذي كان ينعقد في قيصر باغ، لبس الجميع اللباس الأصفر كدلالةٍ على لون الخردل، وارتدى هو الأردية الصفراء من المغرة، التي يرتديها النّاسك الهندوسيّ، وألبس راقصته المفضّلة لباس النّاسكة. لقد عمّ المرح والفرح السنة كلّها، وهام النّاس بملكهم «روح العالم»، الذي كان يخرج بين العامّة يتقدّمه فارسان يحملان صناديق، يضع العامّة فيها شكاواهم، ويعالج الملك كلّ شكوى بنفسه.

في يناير من عام 1856م، عيّن السير جيمس أوترام، المندوب السّامي الجديد لشركة الهند الشرقية بلكناؤ، وطالب الملك واجد علي شاه بإخلاء العرش متّهماً إيّاه بأنه ليس صالحاً للحكم. أُعطيت جيوش الشّركة سبع ساعاتٍ للإطاحة بحكومة لكناؤ إذا لم يرضَ الملك بالتخلّي عن العرش. لم تُجدِ نفعاً مجادلة أمّ الملك، الملكة كيشوار، الحادّة مع السير جيمس، وتحتّم على واجد علي شاه أن يتنازل عن عرشه. رأى معظم البريطانيين أنّ إخلاء العرش الإجباريّ كان ظلماً، وقد أشار عليه مستشاروه أن يرفع قضيّته إلى لندن، وانتشر عند الشّعب الهندوسي دعاء بالصيغة الآتية: «يتوجّه الملك الوقور إلى لندن، فلينصره الإله راما».

تقرّر نفيه إلى كلكتّا، فراحت الجماهير المنكوبة تولول باكية حين صعد الملك السّابق مركبته الشهيرة بـ«باد بهاري» أو نسيم الرّبيع متّجهاً إلى مدينة كانفور. خيّمت الكآبة على المدينة. ألحّ عليه راجه جوالا براشاد مدبّر الدولة، ومير منشي الكاتب الرئيسي، وراجه دولت رائي شوق لمرافقته في رحلته، ولكنّه أمرهم بالبقاء في لكناؤ، لأنهم لم يعودوا قادرين على السفر لكبر سنّهم.

لم يستطع كذلك الميرحسن «اللندني»، الّذي تزوّج إنجليزيّةً بريطانيّةً صاحبته إلى لكناؤ، وكتب عنها كتاباً غدا من الكتب الأكثر مبيعاً في إنجلترا، مرافقة الملك بسبب عاهته، بل رافقه عددٌ كبيرٌ من أقاربه الملكيّين ورجال بلاطه وخدمه إلى كلكتا. وعقب تخلّي الملك عن العرش، ذهب وزير الماليّة، مشير الدولة معين الملك الماهارجا بال كرشنا جسارت جنغ ومجموعةٌ أخرى إلى مقرّ المندوب السامي، وعُهِدَ إليهم بأمور الضبّاط الإنجليز. بيعت ممتلكات الملك ونفائسه بالمزاد العلني، كما بيعت أفياله وخيوله ومواشيه. يُذكر أنّه حينما جيء بأفياله للمزاد، غرفت بعضها التّراب بخراطيمها، ونثرته على رؤوسها، وكانت الدموع تنهمر من عيونها. سأل المسؤول: «هل ثمّةَ التهابٌ في عيونها؟» فأجاب الفيّالون أنهم لم يعهدوا أفيالاً قطّ تتصرّف بهذه الطّريقة.

نُقل الملك على باخرةٍ من كانفور إلى إله آباد، وأثناء رحلته التمس منه كاشي نريش ملك كاشي الماهارجا إيشوري براشاد نارائين سينغ، حليفه الوفيّ أن ينزل في مدينة بناراس ويستريح فيها لبضعة أيّام. وعند وصوله إليها، استقبله الماهارجا مع كامل التّشريفات كالسّابق. مكث الملك في بناراس أربعة عشر يوماً. وفي الثّالث عشر من مايو، وصل موكبه الحزين إلى مدينة كلكتا، واستؤجر له قصرٌ اقتناه ملك بردوان في غاردن ريتش.

لم يكن «أختر بيا» قد تعافى من صدمة نفيه القسريّ. لقد أنهكته مشقّة السّفر من لكناؤ إلى كلكتا بالباخرة أولاً، والقطار والعربة ثانياً، وأصابه المرض، ممّا جعله يعدل عن فكرة الذّهاب إلى لندن. ولكنّ أمه الملكة كيشوار، أرملة الملك أمجد علي شاه، كانت سياسية محنّكة وقويّة الإرادة، إذ عقدت العزم على السّفر إلى بريطانيا وعرض قضية الخلع غير الشرعيّ لابنها

أمام البرلمان البريطانيّ، ولقاء الملكة فيكتوريا ذاتها.

قبل هذا بكثير، تحدّثت النّائب بهو بيجوم أم آصف الدولة وارين هاستينجز. كانت هي الأخرى شاعرةً مجيدةً، اشتهرت بمقولتها عن الدّموع «تمّر قافلة القلب بطريق الماء». كان الموكب الملكيّ على أهبة الرحيل، وقد ضمَّ صاحبة الجلالة بادشاه بانو الملكة كيشوار، نائب تاج آراء بيجوم، وإلى جانبها ابنها الأصغر الجنرال سيكندر هشمت، والأمير حامد علي ابن الملك السابق، والوكيل مسيح الدين خان، ومجموعةٌ من النبلاء، والجاريات، والخدم. ضمت القافلة مائةً وعشرة أفرادٍ بين رجلٍ وامرأةٍ ركبوا سفينة إيس-إيس- بنغال في منتصف اللّيل بتاريخ الثامن عشر من يونيو عام 1856م. ودّع القافلة حشد كبير، تجمّع على الرّصيف، وهو يذرف الدموع، ويذوب حزناً. لم يكن لدى أحدهم ذرّة أملٍ في نيل العدل من محكمة مجلس إدارة شركة الهند الشرقيّة.

وحين مرّت السفينة بقصر متيا برج، وقف الملك السّابق، البالغ سبعاً وثلاثين سنةً، على شرفة الطابق العلويّ يلوّح بيديه، ويودّع أمه وأخاه وابنه وداعاً باكياً.

لقد كانت رحلةً حزينةً.انزوت الملكة كيشوار وجارياتها في مقصوراتٍ منعزلةٍ. عُقدت في بعض الأحيان مجالس، أنشدت فيها المطربات مراثي للإمام الحسين ذات ألحان كلاسيكيّة. ظنّ الطاقم الإنجليزي أنّهنّ يغنّين أغاني حزينة. سقط صندوق الملكة الأم الذي يحوي جواهرها النّفيسة في البحر، ولم يُعثر عليه قطّ. ربّما تعرّض للسرقة. كانت الرحلة مشؤومةً.

اتّجه موكب الملكة كيشوار من السويس إلى القاهرة، واستأجروا هناك فيلا إبراهيم باشا. وفي اليوم العاشر، غادروها صباحاً بالقطار، نحو الإسكندرية

التي وصلوا إليها مساء اليوم نفسه، حيث التحق بهم هورموزجي البارسي، أمين الصّندوق الملكيّ. ومن هناك، استقلّت القافلة سفينة -إيس إيس- إندوس، التي رست في ميناء ساوثهامبتون في العشرين من شهر آب. استقبل عمدة المدينة الموكب استقبالاً ملكيّاً. نزلت الملكة الأمّ من السفينة في محفّةٍ مصنوعةٍ من الذهب والفضّة، يرافقها خواجه سراي (مخصيّون ملكيّون). أسدلت الستائر على جانبيّ الممرّ المفروش بالسجّاد والمفضي إلى العربة. كان الميجور بيرد، الصّديق الخاصّ لواجد علي شاه، الذي تقدّم الموكب الملكيّ، موجوداً على الرّصيف، فطلب إلى الملكة أن تصافح العمدة عبر ستائر العربة المعدنيّة. تعالت هتافات «مرحى» «مرحى» من آلاف المشاهدين المحتشدين.

تكوّنت حاشية الملكة من: مهرّج البلاط، والطّهاة، والخدم، والخادمات، والكنّاس الملكيّ «مانسا» ومعهم خمسمائة صندوقٍ، احتوى بعضها مواد غذائيّة خامّ، وتوابل لطهي الوجبات الهنديّة في إنجلترا. نُقلت القافلة إلى فندق رويال بارك. ألقى الميجور بيرد، الذي رجع إلى وطنه إنجلترا الليبراليّة بعد زمنٍ، خطاباً يفيض بالحماس، وقد اجتمع أمامه حشدٌ من الجماهير.

«سيداتي وسادتي! إنّ صاحبة الجلالة ملكة أوده الأمّ، وهي في الستين من عمرها، تجشّمت مشاقّ رحلةٍ طويلةٍ رغم كبر سنّها طلباً للعدل في بريطانيا. وبوصفي إنجليزيّاً أميناً، يجب أن أخبركم أنّ ابنها كان صديقاً وفيّاً لنا. أمدّ شركة جون بقروضٍ هائلةٍ، لم تسدّدها الشركة قطّ. أخبروني هل كنتم ستفرحون لو أنّ الإمبراطور الفرنسيّ أو أيّ ملك أقوى من الملكة فيكتوريا نكث عهده وخلعها عن العرش؟»

«لا، أبداً»، صرخ الحشد..

في الثاني والعشرين من شهر آب، جاءت مجموعةٌ من السّادة والسيّدات

من ألبيون إلى الفندق. عقد الأمراء مجالسهم في قاعة الرقص، ولعب الميجور بريندون والميجور روجرز فيها دور المترجمين. وفي الثلاثين من الشهر نفسه، وصل الموكب الملكيّ إلى لندن بالقطار، واستأجروا «هارلي هاوس» للإقامة. تجاهلت الحكومة قدوم الملكة الأمّ، ربّما لأنها لم تُعجب بخطاب الميجور بيرد في ساوثهامبتون، إذ كان اللّندنيّون محبّين للإنصاف، ولم يستحسنوا الطّريقة التعسفيّة التي جرى بها خلع ملك أوده. في الحادي عشر من شهر تشرين الأوّل عام 1856م، لقي الجنرال ميرزا سيكندر حشمت الملكة فيكتوريا في «كريستال بالاس».

وفي السادس عشر من يناير عام 1857م، اتّجه الأمراء برفقة مسيح الدّين خان والميجور بيرد وآخرين إلى «البيت الهنديّ» في مسيرة تكوّنت من خمس عرباتٍ. اكتظت أرصفة الشوارع بالمتفرجين. استقبل الوفدَ موظفون إنجليز، رفعوا قبعاتهم تقديراً لهم. ذهب الأمراء إلى المتحف الهنديّ، ومن ثمّ إلى حيث اجتمعوا مع مدراء شركة الهند الشرقيّة، وتناولوا معهم مأدبةً. طالبهم مسيح الدين خان أثناء المأدبة بإثبات التّهم التي وجهها الجنرال ساليمان، المندوب السامي السابق في أوده إلى واجد علي شاه: «إذا ثبتت براءته، وتماديتم في تبرير عمليّة الضمّ، سنرفع القضية إلى برلمانكم». أضاف مسيح الدين خان، ولكن لم يأتِ أيّ ردٍّ من المدراء.

في الحادي والعشرين من يناير عام 1857م، أقام الأمراء حفلة عشاءٍ فاخرةٍ في «هارلي هاوس»، حضرها أصحاب الجلالة الإنجليز. راحت الأموال تنفد بسرعةٍ، فاضطّرت الملكة الأمّ إلى بيع قلادتها بمائتي ألف روبيّةٍ لأحد اللّوردات الذي اشتراها لعروسه.

ذهبت جلالة الملكة كيشوار للقاء الملكة فيكتوريا. استقبلتها ثماني نسوةٍ

إنجليزيّاتٍ، عشن في الهند ويتحدّثن الأردية. ارتدت الملكة الأمّ فستاناً مصريّا عادياً اشترته من القاهرة، ورافقها ابنها وحفيدها والمندوب مسيح الدين خان. صافحت الملكة فيكتوريا الأمراء، واستفسرت الملكة الأمّ عن رحلتها. فردّت الملكة الأمّ: «ليس لنا عهدٌ برحلةٍ مائيّةٍ من قبلُ، ولم نبحر حتّى في نهرنا الصغير الحلو غومتي، وها قد قطعنا سبعة بحارٍ لطلب العدالة لابني».

لم يعجب الملكةَ فيكتوريا حديثُ الملكة الأمّ. على أنّها أعربت عن تعاطفها مع ما مرّت به الملكة الأم كيشوار من مشاقّ السفر، وأسرعت إلى تغيير موضوع الحديث قائلةً: «لديّ عشرة أبناء، لم يتجاوز بعضهم مرحلة المهد، أكبرهم ابن ثلاث عشرة سنةً، وهو أمير ويلز. أتأذنين له بالدخول؟»

«بالتّأكيد، سيروقنا أن نراه»، ردّت الملكة الأمّ.

أُستدعيَ أمير ويلز، وحين حضر برفقة مربّيته، أجلسته الملكة كيشوار بلطفٍ قربها، وعملاً بالعادة الملكيّة الشرقيّة، خلعت عقدها الماسي، ووضعته في عنق الوريث البريطانيّ. تدلت من وسط العقد زجاجةٌ احتوت عطراً نادراً. وعند استفسار الملكة فيكتوريا عنها، أفادتها الملكة كيشوار: «في بلدنا حين يهمّ الضيف بالعودة، يُتحف بزجاجة عطرٍ».

أخطأ المترجم في ترجمة ما قالته الملكة، وخيل للملكة فيكتوريا أن الملكة كيشوار تهمّ بالمغادرة، فقالت لها: «ربّما تعبتم كثيراً. لكم أن تأخذوا بعض الرّاحة هنا قبل أن تغادروا، وسنلتقي ثانيةً ونتحدّث في وقتٍ لاحقٍ».

عرضت القضيّة أمام البرلمان. ولكنّ اللورد دلهاوزي الذي كان قد عاد إلى وطنه عقب ضمّ الولايات الهنديّة إلى حكومة بريطانيا، أبدى عجزه عن المثول أمام البرلمان والإجابة عن تساؤلات أعضائه بسبب توعّكه. لقد رأت غالبية أعضاء مجلس العموم أنّ ضمّ ولاية أوده كان عملاً غير شرعي،

ولسوء الحظّ، نشبت ثورةُ الجنود في معسكر ميراث في التاسع من شهر أيّار عام 1857 م، ما قلب الأمور رأساً على عقب.

وفي قصر متيا برج في كلكتا، ما كاد الملك السابق واجد علي شاه أن ينتهي من صلاة الفجر، حتّى اعتقل وسُجن في قلعة وليام. علَّق شعبه السابق على ما حدث قائلاً: «سُجن يوسف كنعان في مصر فرعون».

وفي بريطانيا، أثارت الأخبار، التي حملتها البرقيات من الهند، عن مجزرةٍ بحقّ الرجال والنساء الإنجليز على أيدي الثّوار ردود فعلٍ غاضبةٍ، واختلفت آراء العامّة إزاء الزوّار الملكيّين، فقد ظنّوا أن هؤلاء كانوا وراء تهييج الثّورة في الهند. عندها أدركت الملكة الأمّ أن الوضع صار خطيراً، وميؤوساً منه، فرحلت إلى فرنسا، ومنها قصدت زيارة مكّة عن طريق مصر، ولكنّها مرضت فيها مرضاً أودى بحياتها.

لم تكن العلاقة بين بريطانيا وفرنسا تتّسم بالمودّة، ذلك أنّ الأولى طردت الثانية من الهند. أرسلت الحكومة الفرنسية برقيّةً إلى مكتب الخارجيّة البريطانية تخبرها أن جلالة الملكة فاضت روحها على أرض فرنسا، وبما أنّها كانت ضيفتها، ستودّعها بجنازةٍ رسميّةٍ. لم يأتِ ردٌّ مقنعٌ من وايتهال، ولاقت الملكة التي ماتت بقلبٍ محطّم وداعاً يليق بها من الحكومة الفرنسيّة. طوّح الحزن بحشمت علي حتّى لم يعد يطيق المشي في موكبها الجنائزيّ، فأجلسه رئيس الوزراء الفرنسيّ في عربته. شيّعت جنازتها جموعٌ هائلةٌ مرتدية لباس الحداد، ولوّحت آلاف النّساء الفرنسيّات بمناديلهنّ السّوداء من شرفاتهنّ. دُفنت الملكة كيشوار في ساحة السفارة التركيّة بمراسم تكريم ملكية كاملة.

كان موت الملكة المفاجئ صدمةً قضت على حياة ابنها الجنرال سيكندر حشمت الذي كان يعاني من المرض منذ زمن. مات سيكندر حشمت في

فبراير عام 1858م، وخُصّ هو أيضاً بمراسم جنازة رسميّة، ودُفن في فناء المسجد داخل السفارة العثمانيّة. الغريب في الأمر أنّ ابنة الأمير توفّيت كذلك وهي في العام الرابع من عمرها، ولحقت بأبيها وجدّتها في الدّار الآخرة. الجدير ذكره أن بيجوم حضرت محل، كنّة الملكة كيشوار كانت في الواقع قد أعلنت حرباً ضد حكومة الشركة بلكناؤ قبل ثمانية أشهر، وكانت وراء تحريض شعوب منطقة أوده بأسرها على حمل السلاح ضدّ البريطانيّين.

26

الملكة وفرسانها

في ظهـيرة أحد الأيام ذات الطقس اللطيف من شـتاء عام 1868م، جلس رجلان أنيقان، في أواخر الستّينيات من عمرهمـا على مقعدٍ قرب البحيرة في كلكتـا، يتبـادلان الحديث في هـدوءٍ. ارتـدى الرجل الأكبر عباءة كشـميرية مزركشـة، أمّا صديقـه فبدا أكثر أناقة في بذلته التويديّة، وشـابه الأشـخاص الذيـن سـمّاهم البريطانيّون تهكّـماً «السـادة الشرقيّين المسـتغربين». بعد فترة طالت خمسـةً وأربعين عاماً تقريباً، التقـى الصّديقان قبل أيامٍ صدفةً في حفلة موسيقى هنديّة في منزل النّائب بهادر من مرشدآباد.

«عندما نُفِيَ «سـلطان العـالم» من لكناؤ، كنتُ في زيـارة للعراق والمنطقة العربيّـة التركيّـة، وقـد قـرأتُ في جريدةٍ مصريّـةٍ في المدينة المنـوّرة نبأ مغادرة الملكة كيشـوار من الإسـكندرية إلى إنجلترا. وبما أنّني كنـت أمتلك من المال مـا يكفـي، أسرعت إلى الإسـكندريّة وركبت أوّل سـفينةٍ كانت على وشـك الإبحار إلى سـاوثهامبتون. وفي تشرين الأوّل عـام 1858م، عدت من أوروبا لأجـد لكناؤ على غير ما عهدتها، وكذلك لم أجد أثـراً لبيتي». واصل الرجل في العبـاءة الكشـميريّة الرماديّة مضيفـاً: «هدموا مناطق واسـعة من المدينة، وفرشـوا سبعة شوارع عريضةٍ من أجل تسـهيل تنقّل القوات بسرعةٍ. لديهم مهندسـون، وخبراء عسـكريّون، وأخصائيّو ألغام، كما لديهـم أحدث أنواع

الأسلحة، ووسائل الاتّصالات التلغرافيّة، والأطعمة المعلّبة للجنود، وشبكةٌ من رجالنا الذين تجسّسوا علينا لصالحهم.

كانت أعداد جنود بيجوم حضرت محل هائلةً، وكانوا مفعمين بالحماسة وحبّ الوطن، ولكن ينقصهم التّدريب والتنظيم، ولم يكن لديهم سوى البنادق العتيقة، ورغم ذلك، تمكّن الجنود من تحرير أوده في أقلّ من شهرٍ بمحض شجاعتهم. كان «جان عالم» (لقب ملك أوده السابق) قد أقام في بناراس أثناء رحلته إلى كلكتا بطلبٍ من ملك كاشي الماهارجا إيشواري براشاد ناراين سينغ الذي نثر بتلات الورد على ممرّات الملك وصاحب العربة الملكيّة مشياً إلى قصره. حيث قدّم حسب العرف هدية للملك الذي لمسها بيده وردّها إليه قائلاً: احتفظ بها، فإنّي لا أستطيع أن أبادلك التحف كالمعتاد».

«مكثت بيجوم حضرت محل، رئيسة زوجات سلطان العالم واجد علي شاه في لكناؤ، وعقدت اجتماعاتٍ مع مستشاريها العسكريّن في بيت العذارى.....».

«في بيت... من...؟» سأل غوتام بدهشةٍ.

«عذارى.. بكرٌ... نساءٌ لم يلمسهنّ أحد. كانت بادشاه بيجوم، رابّة الملك ناصر الدين حيدر (زوجة أبيه) قد عيّنت ثلةً من العوانس ذوات النّسب العالي للاعتناء بأداء طقوس شهر محرّم في الإمام بارة، ولزم أن تكون الفتيات بكراً لم يطمثهن أحد. امتلأت لكناؤ بالعيون البريطانية، ولكنّ ناصر الدين حيدر كان داهيةً، فقد بنى داراً تحت الماء، تقع قرب «تشاتر منزل»[1]، عقد فيها اجتماعاته الوزاريّة السريّة. لقد كان حريصاً على التحرّر من السّيطرة

(1) عقب عام 1947، تمّ العثور خلال عمليات الحفر على متاهةٍ تتكون من ممرّاتٍ تحت الأرض قرب تشاتر منزل. أفضت الممرّات ربما إلى الدار المذكورة تحت الماء.

البريطانيّة بأسرع ما يمكن. وقد أشيع أنّ الدّار بنيت لعذارى يتعذّر الوصول إليهنّ. نجحت حيلته، وراح يلتقي في ذلك المخبأ بالعلماء والوزراء، ويتباحث معهم بسريّةٍ تامّةٍ. وافته المنيّة في سنٍّ مبكّرةٍ. وقد شُوّهت سمعته فأشيع عنه أنه كان معتوهاً أبله مع أنّه أنشأ مرصداً عصريّاً، ومستشفى، ومدرسةً إنجليزيّةً، ومطبعةً، كما ركب باخرةً دخانيةً في نهر غومتي.

لاطف السيد البنغالي شاربه الرمادي دَهِشاً.

«عقدت بيجوم حضرت محل أيضاً لقاءاتها الوزاريّة في هذا المكان المخفيّ المنيع».

«حسناً، إنّ تحت السّماء أشياء أخرى ما عدا......».

همهم السيّد المثقّف، ولكنّ النّائب استمرّ قائلاً:

«اضطرمت الثّورة في الأسبوع الثاني من شهر أيّار، وهزمت جنود الملكة الإنجليز في شينهات، قرب لكناؤ في الثلاثين من يونيو. لاذ الإنجليز بمقرّ المندوب السامي وبقوا محاصرين فيه مائة وأربعين يوماً».

استعاد السيد البنغالي ذكرياته فكرّر: «آه، المندوب السامي». لقد عمل في شبابه كاتباً لبضعة أشهرٍ عام 1823، واشتغل في شينهات، حيث اقتنى النّائب منزلاً وسط الحديقة. لم يشأ أن يفكّر في كلّ ما قد حدث لتشامبا جان أو للمنشي شانكار.

أردف الشابّ الدّمث: «تُوّج برجيس قدر، ابن بيجوم حضرت محل، وهو في الرابعة عشر من عمره والياً في غياب أبيه المخلوع، وعيّنت الملكة نفسها وصيّةً عليه، وعيّنت الماهارجا بال كريشنن وزيراً للماليّة، منذ حاز الإنجليز السّلطة السياسيّة في شرق الهند، أصبحت كلمة «الحكم للشركة» إحدى النعرات الشعبيّة التقليديّة «الخلق لله، والملك للسلطان». ولكن الآن،

أسقطها المنادون والطبّالون، وأُلغيت جملة «الحكم للشركة»».

توفي بيشوا باجي راو الثاني المنفي في بيثور بالقرب من مدينة كانفور عام 1851م. أرسل ابنُه المتبنّى وكيلَه بعريضةٍ إلى إنجلترا، يلتمس فيها معاشاً. كان وكيله، عظيم الله، رجلاً مرموقاً عصامياً. ذكر أنّ أمّه عملت مربيّةً، وأنّهُ اشتغل خادماً، ولكنّه انكبّ على تعلّم اللّغة الفرنسيّة والإنجليزيّة وأتقنهما كتابةً ونطقاً، وأصبح معلّماً في مدرسة بكانفور، إذ كان دمثاً ووسيماً، فاحتفت به سيّدات الطبقة الأرستقراطيّة الإنجليزيّة في لندن. غير أنّه فشل في مهمّته، ولقيت عريضة «نانا صاحب» رفضاً من محكمة المدراء. انصرف عظيم الله إلى كانفور، وظلّ يتسلم رسائل حبٍّ من السيّدات الإنجليزيّات.

أعلن نانا صاحب استقلاله، واختار لنفسه لقب «بيشوا بهادور». وفي هذه الفترة، طُبِّق القانون الهندوسيّ الجنائيّ الذي نصّ على بتر أعضاء المجرمين. لقد حاصرت قوات نانا راؤ الإنجليز في المدينة بقيادة عظيم الله، وكان قد التقى في أوروبا برجال الدّول من فرنسا وروسيا، وتابع استراتيجيات الدولة العثمانية الحربيّة في القسطنطينية، ممّا مكّنه من أن يصبح مستشار قائد الثورة «دنكا صاحب».

«استرد الإنجليز مدينة كانفور وفجّروا قصر نانا صاحب ومعابده. ولم يسعه إلا أن يلجأ مع أسرته إلى معقل الزعيم المحلي بفتح بورتشوراسي، الذي يقع بين مدينتي كانفور وإله آباد. لقد أرسلت الملكة الوصيّة على العرش وزير الحروب الملك جاي لال سينغ نصرت جنغ لإعادته ومرافقته إلى لكِناؤ، وأشرفت بنفسها على إعادة تنسيق القصر الزجاجيّ وتزيينه «شيش محل» لبيشوا، وقد استقبل بإحدى عشرة طلقة عند وصوله إلى لكناؤ، ولكنّه تذمّر لأنها من المفروض أن تكون إحدى وعشرين طلقة».

تمدّدت ابتسامةٌ ساحرةٌ على شفتيّ غوتام.

واستمر النّائب: «أخبرته جلالة الملكة أن التحيّة من إحدى وعشرين طلقةً مخصّصة للملوك الزائرين. لقد أنفق خمسة وعشرين ألف روبيّةٍ في الوليمة المعدّة له، وبلغني أنّ الملكة بيجوم حضرت محل بعثت له أيضاً حلّة شرفٍ، وسيفاً، ومجوهراتٍ، وفيلاً مزركشاً بهودج من الفضّة....».

اتّسعت عينا غوتام وهمهم قائلاً: «أما كان الأولى بزمن الحرب الحدّ من هذا البذخ؟»

«كان ذلك مراعاةً لما اشتهرت به لكناؤ من اللّباقة والضيافة، يا نيلامبار صاحب!».

«لا غرو إذن أنّ أناسكم قد خسروا الحرب»، علّق السيّد البنغالي.

فتح النّائب علبته الفضيّة، واستخرج منها ورق التنبول، في حين أشعل صديقه سيجارةً، واستأنف كلامه:

«أقيمت حفلة عيد ميلاد برجيس قدر، وتخللها قدرٌ من الجعجعة والاهتمام. لبست في هذه المناسبة بعض النسوة الإنجليزيّات من أسرى الحرب الفساتين اللكنوية، وخضبنّ أكفهنّ بالحنّاء....».

«ولكن ظننت أن الإنجليز كلّهم كانوا تحت الحصار في ريزيدنسي.... أليس كذلك؟»

«لا.. ليس جميعهم، يا نيلامبار صاحب... الحقيقة هي الضّحية الأولى في الحرب....».

«في السادس عشر من سبتمبر، اقتحم كولن كامبل واللورد كلايد مدينة لكناؤ بجيوشها، فاستدعت الملكة النّبلاء الإقطاعيّين لنجدتها، فجاء الفرسان المقاتلون على خيولهم من كل الأنحاء، بينهم الملك ديبي بخش سينغ

من *غوندا*، والملك سوخ درشن لال مادو سينغ من *أميتهي*، ورانا بيني مادو سنغ بهادر من *بيسوارا*، والملك مان سينغ من *شاه غنج*، والملك هانوانت سينغ من *كلاكنكار*، والملك غولاب سينغ، وغيرهم الكثير. اجتمعت كوكبةٌ من أحفاد الشمس والقمر...واحتشد كذلك البارونات من سلالة الشيوخ *والباثان من نانفارا، ومليح آباد، وسنديلا، ومحمد آباد، وبتوامايو* وغيرها».

«كانت بيجوم حضرت محل تتردّد إلى خطوط المواجهة أثناء المعركة على الفيل أو في المحفّة، حيث أبلى المقاتلون بلاءً حسناً دفاعاً عن المدينة. وفي الخامس والعشرين من فبراير عام 1858، حين اندلعت حربٌ شعواء في عالم باغ، ركبت بيجوم الفيل، وشاركت في الحرب بنفسها، وقاتل الملك مان سينغ من شاهغنج في عالم باغ ببسالةٍ، فأعجبت به بيجوم حضرت محل، ولقّبته بابنها، وخلعت عليه خمارها، إضافةً إلى حلّة الشرف الرسميّة، كما قُتلت لاكشمي بائي، وهي ابنة البرهمن في ساحة الحرب في غواليار».

«لقد قاتلت بشجاعةٍ لا تقلّ عن شجاعة الرجال. وقد حكى لي في فرنسا رجلٌ فرنسيٌّ ظريفٌ، كان يعمل بائع حلويّاتٍ في لكناؤ، عن الملكتين الجسورتين: لاكشمي باي، وحضرت محل؛ كانت لاكشمي باي مثل جان دارك... مثلها تماماً. كرّر كلامه وعيناه متّسعتان، كما أخبرني رجلٌ فرنسيٌّ، يدعى هنري، أن القسّيس الفرنسي البابا جوزيف صار تلميذاً للمولوي أحمد الله شاه، وأصبح يسمّى يوسف علي شاه».

«أغار البيض على قيصر باغ بالقذائف. كان الجنرال جيمس أوترام قد عادِ إلى الهند، وأقام في الخيمة في لكناؤ مع اللورد كلايد، قائد القوّات الأعلى. أرسل جيمس أوترام إلى سيّدات الأسرة الملكية مطالباً بإخلاء القصر الملكيّ، لأنّه ينوي تناول فطوره فيه في العاشرة صباحاً. وحين تبيّن للملكة أن لكناؤ

على وشك السقوط، ألبست ابنها جرجيس قدر اللّباس الأخضر الطقسيّ الـذي يلبسه فقير الإمام الحسين عادةً. كشفت النسوة رؤوسهنّ، ونثرن شعورهنّ، ووقفن تحت السماء في منتصف اللّيل، يستغثن ويصرخن: يا علي!، يا حسين!. كان ذلك الطّقس يُمارس في أشدّ الأحوال كرباً...»

تنهّد السيد دوت المثقّف:

«ما أشدّه من كربٍ وما أعظمها من كارثةٍ!».

«قُتلت السيدات الحبشيات في معركة سيكندر باغ. كانت الملكة في بيجوم كوثي أي قصر الزوجة، حين طلب منها مستشاروها مغادرة المدينة، فغادرتها في الحادي عشر من مارس عام 1858، في محفّةٍ، رافقها رانا بيني مادو سينغ، ثم تلتها حاشية بلاطها وجنودها. سيطر البريطانيون على لكناؤ حين كان كوكب المرّيخ القاتل آخذاً في الصعود. وعلى امتداد فترة الثّورة، توهّج المرّيخ في اللّيالي مثل قطعة جمرٍ حمراء أو عينٍ محتقنةٍ بالدّماء... لا بدّ أن تكون لمحتَه يا نيلامبار صاحب!»

«كان نزوحاً هائلاً، إذ تبع الملكةَ نصفُ سكان المدينة. وحين وصلت جلالتها إلى بوندي في مقاطعة بهرائتش، بدا المكان وكأنّه نسخةٌ مصغّرةٌ من لكناؤ في زمن أمنها. مكثت الملكة فيها مدّة أحد عشر شهراً، وظلّ الجنرال كلايد يخطّط طوال فترة مكوثها للإغارة على الموكب الملكيّ في بهرائتش، كما ظلّ الفرسان يحاربون البريطانيّين في الأرياف. قُتل المولوي أحمد الله شاه في شاهجهانفور في الخامس من يونيو عام 1858م، قُطِّع جثمانه أشلاء، وأُحرقت في ساحة كربلاء المحليّة، حيث ضرائح الإمام الحسين في العاشر من شهر محرّم، وعُلّق رأسه المقطوع على باب مقرّ الشرطة».

«أحمد الله شاه كان المقاتل الوحيد الذي أحبط مخطّطات اللورد كلايد

مرّتين، وقد اعترف الجنرالات البريطانيون أنّه كان محبّاً حقيقياً لوطنه، وجنديّاً باسلاً، ولم يقتل الأبرياء قطّ».

«كان الملك بيني مادو سينغ قد وصل إلى حصنه في شانكارفور، ومنه أبلغ اللّورد كلايد أنّه مستعدٌّ لتسليم حصنه إليه، لأنّ الحصن ملكه، غير أنه لا يستطيع أن يسلّم نفسه لأنّ نفسه ملك للملك. وفي الوقت نفسهِ، كان نانا راؤ والآخرون قد لمّوا شملهم وتجمّعوا من جديدٍ في غابة نانفارا. وحين زحفت جيوش اللورد كلايد إليها، اختفوا داخلها. طاردتهم جيوش اللورد كلايد من أدنى المنطقة إلى أقصاها، وفجّروا كلّ حصنٍ وجدوه في طريقهم، شأنهم شأن الكلاب والأرانب في الرّياضة، التي رأيت الإنجليز يمارسونها في بلدهم، حيث كانوا يخرجون مرتدين المعاطف الحمراء، ويصطادون الأرانب المسكينة بكلاب الصّيد. كان اللورد كلايد هنا سيّد الصّيد، يتبعه الجنود في معاطفهم الحمراء، ولكن لم يكن ثمة أرانب، بل لاقوا رجالاً ذوي أفئدة كأفئدة الأسود».

«لم تكن بيجوم لتقبل الهزيمة. نُشر إعلان الملكة فيكتوريا الشهير في أوّل تشرين الأوّل عام 1858م، فأصدرت ملكتنا أيضاً إعلاناً مضاداً له، تحدّث فيه بطريقةٍ منطقيّةٍ تصريح الإمبراطورة البريطانيّة نقطةً بنقطةٍ».

تنحنح النّائب، ثم أردف بعد صمتٍ قصيرٍ: «صرّحت الملكة في الفرمان أن الإعلان الإمبراطوريّ ينّص على أن العقود والاتفاقيات التي أبرمتها الشركة أصبحت بأسرها مقبولةً لدى الملكة فيكتوريا، ولكن يجب أن يدرك الشّعب الخِدعة بدقّة وحذر، فقد اغتصبت الشّركة الهند كلّها، وإذا جرى قبول هذا الوضع كما هو فما الجديد إذن؟ سبق أن تبنّت الشركة الملكَ الشاب لبهارات فور ودعته ابنها، ومع ذلك احتلّت منطقته، واقتادوا ملك بنجاب إلى لندن».

«وطردوا بيشـوا باجي راؤ من مدينة بونا، وحبسوه مؤبداً في كانفور. ولا يخفى على أحدٍ خيانتهم للسـلطان تيبو، كما حبسـوا ملـك بناراس في آغرا. ما أبشـع نفاقهم! فمن جهةٍ شنقوا النّائب شمس الدين من فيروز بور، جهاركا، ومن جهةٍ أخرى، نزعوا قبعاتهم احتراماً وتحية لجثمانه».

«بالمناسـبة يا نيلامبار صاحب ! أتذكّـر أن أوترام عاد إلى وطنه في إجازةٍ، حينـما كنّـا في لنـدن. وبلغني خلال مكوثي هنـا أنّه قدِم ذات يـوم إلى «هارلي هـاوس» في بذلته العاديّة، يحمل مظلّةً ملتفّـةً كأيّ رجلٍ لندنيٍّ عاديٍّ، وأخبر الجنرال سيكندر حشمت أنه أوترام الذي أخذ لكناؤ منه، وأنه حضر للقائه. سـأله الأمـير أن يجلـس، غير أنه ظـل واقفاً بمقتـضى البروتوكـول، ذلك أن الجنرال سيكندر كان أميراً من الأسرة الملكيّة...... إذن، عما كنت أتحدث؟»

«عن فرمان بيجوم».

«فرمـان بيجـوم... آه نعـم...! لقد صرّحت الملكـة بيجوم حضرت محل أن تلـك الأحـداث وقعت في المـاضي، ولكن حتّى في وقتنا الحـالي، لم يراعوا الاتّفاقيـات والمواثيق، ورغم كونهم مدينين لنـا بملايين الروبيات، اغتصبوا أرضنا بحجة سوء إدارة الحكم، واستياء الشعب، إذ لم يكن الشعب، حسب حجـة الإنجليز، راضياً عن ملكه واجد علي شـاه، والواقـع أنّه لم يحظ حاكمٌ قـطّ بشـعبية وولاء وتضحية بالأنفس والنفائس بما حظينـا به نحن في الآونة الأخيرة!».

«نصَّ إعلان الملكة فيكتوريا على أن المسيحيّة وحدها الدين الحق. ولكن مـا علاقة إقامة العـدل بصدق دينٍ أو بطلانه؟ تسـاءلت بيجـوم، وأضافت في نهايـة الفرمـان أن الإنجليـز لم يحدثوا للهنـود فرصاً للوظائـف أفضل من وظائـف بناء الشـوارع وحفر القنوات، فإذا لم يسـتطع النـاس أن يتبيّنوا ماذا

يعني ذلك؟ فلا خير فيهم».

بدا غوتام مذهولاً، فلم يسمع بهذا الإعلان المضادّ قطّ. أوشك النّائب على إنهاء حكايته الشجيّة.

«ما انفكّ فرسان الملكة يقاتلون الإنجليز في القرى والأرياف، حتى تمكن اللورد من ملاحقة رانا بيني مادو سينغ، ونانا راو، وبالا صاحب، وجوالا براشاد، وخان بهادور خان، وممّو خان إلى حدود نيبال، حيث اجتازوا نهر رابتي ودخلوا نيبال. على أنّ ملكها رانا جنغ بهادر رفض مساعدتهم، لأنه تعهّد بالولاء للعرش البريطانيّ. وهنا أُعْدِمَ الملك جاي لال سينغ، وزير حرب الملكة بيجوم، بجانب جوالا براشاد».

«كتب نانا صاحب، وهو في ديو غره، رسالةً بالأردية إلى الرّائد ريتشاردسون، وختمها بلقبه «بيشوا بهادر»، يخبره فيها أنّه يؤثر اعتناق موت الشرف على قبول شروط الاستسلام. حملت الرّسالة تاريخ الثاني والعشرين من رمضان عام 1275هـ».

«وخاطب رانا بيني مادو سينغ الذي كان يخيّم معه في ديو غره جنوده: إنّي أغادر إلى جبهة الحرب، ولكن أطلب منكم أن تلازموا الملكة بيجوم، وأن لا تهجروها أبداً. ثم جاء بكلّ ما احتفظ به من المجوهرات والأموال وكوّمها أمامهم قائلاً: «من كان منكم يريد المال، فليأخذه ويرحل، وأمّا من يتمنى موت الشرف فليرافقني. رافقه مئتان وخمسون جنديّاً، حاربوا كتفاً بكتفٍ جنود غورخا من الجنسية النيباليّة حتى لقوا حتفهم واحداً تلو الآخر. أُخذ رانا على حين غرّةٍ، وأصيب بطلقةٍ في ظهره».

«وأمّا عظيم الله خان بشخصيّته الجذّابة وطلاقته الفرنسيّة، ورانا راو، وأخوه بالا صاحب، فقد توفّي الثلاثة بمرض الملاريا وسط غابات السّهول

المطريّة، وهذا هو بعينه ما خطّطه له الجنرال كلايد».

«مُنحت الملكة بيجوم حقّ اللجوء في نيبال، وما زالت تعيش فيها، وقد أصبح مشاهير الإنجليز يشيدون بجرأتها وجاذبيّتها التي جعلت منطقة أوده كلّها تأخذ السّلاح بإشارةٍ منها».

صمت النّائب كتّمان وهو يحدّق في خاتمه الفيروزيّ، كان حجر الفيروز الكريم يرمز إلى الانتصار.

27

بخت خان، اللورد الحاكم العام

مـرّ بهما موظّفٌ يحمل سـلّماً نقّالاً في طريقه لإضـاءة مصابيح الغاز. راقبه العجوزان في صمتٍ. وبعد وقفة صمتٍ ممتدّةٍ اسـتأنف النّائب كمّان حكايته المؤلمة:

«واللّافـت أنّه على الرّغم من انتصارهـم السّـاحق، ما انفكّوا خائفين من شـعبية «سلطان العالم» الواسعة، وإلّا لماذا أقدموا مؤخّراً على هدم جناحه في قيـصر باغ، حيث كان يجلس، ويشرف عـلى «جوغيا ميلا» المهرجان الصوفي مرتديـاً لباسـه الأصفـر؟. فُتح مهرجان باسـانت هـذا العام لعامّة الشـعب فاحتشـد مواطنـو لكنـاؤ في الجنـاح بعـددٍ كبـيرٍ يبكـون ذكراه. لقد أمسـت السلطات الآن تشوّه سـمعته متّهمةً إيّاه بالخلاعة والمجون، ولكن أؤكّد لك يا نيلامبار صاحب، أنّه ليس بفاسقٍ، ولم تفته صلاة فجرٍ قطّ».

ظـلّ غوتام ملتزمـاً الصّمت. إن أموراً كهذه من المسـائل الحسّاسـة التي تخصُّ عقيدة شخصٍ، وولائه الشخصيّ العاطفيّ، ثمّ قال بتردّدٍ:

«أيّهـا النّائـب صاحب! تبـدو أعرافنا، كتعـدّد الزوجات وكثـرة الحريم، شاذّةً للغرب».

«كلّهم منافقون! لديهم عشـيقاتٌ وأولاد غـير شرعيين، أما عندنا فحتّى أولاد الجاريةِ يحظون بحقٍّ معيّنٍ في الميراث».

«على أي حال تمكّنوا من احتلال لكناؤ، ودمّر الجنود من غورخا، والسيخ، والهايلاندر الثالث والتسعين، المدينة كلّها، ونهبوا قصر بيجوم والإمام بارات، وأضاءت الثريّات الضّخمة، التي كانت تتلألأ سابقاً في الإمام بارا في حسين آباد، كنيسة لكناؤ الجديدة. دفع الجنون الإنجليز إلى تدمير نصف المدينة. حُوّلت الإمام بارا الآصفيّة إلى ثكناتٍ عسكريّةٍ، ونُزعت أسلحة المناصرين للحكم الملكيّ. وضع جيش الملك هانومانت سينغ من مقاطعة هردويي سلاحه، ولكنه رفض مثل بيني مادو سينغ قبول الهزيمة مؤكّداً: جيشي كان مديناً بالولاء لي وقد استسلم. أمّا أنا فأدين بالولاء للملكة الأمّ بيجوم حضرت محل، وليس لي أن أذعن لكم، ولكم أن تقتلوني. وفي الحال قتلته فرقة الإعدام رمياً بالرصاص». مسح النّائب دمعةً كانت على وشك السّقوط، وأضاف بلهجة فخرٍ: «لقد كانوا أبناء راجبوت أوده من سلالة الشّمس والقمر».

زمّ دوت بابو شفتيه، وقال بتردّدٍ: «أيّها النائب صاحب! لا بد أنك سمعت عن تشارلز داروين...».

فرد النّائب وقد اكتنفت نبرته بعض الحدّة: «بالفعل سمعت عنه. إنّ سلالة الشمس والقمر استعارةٌ، بل إن جميع الأساطير يا صديقي العزيز هي كنايةٌ عن الحقائق الخالدة».

«سافرت إلى فرنسا في موكب الملكة كيشوار، والمسكنة تتملّكني، وبسبب نشوب الثّورة، لم يستطع رستوغي[1] الخاصّ بي أن يبعث لي حوالةً مصرفيّةً من لكناؤ. وبما أنّ الأسرة الملكيّة الهاربة نفسها كانت تعاني من مشاكل جمّة، فقد وجدت نفسي أنا أيضاً مفلساً متشرّداً في شوارع باريس».

(1) هو المحاسب من أسرة بنيا (التجار) الذي كان يتعهّد حتى عهد قريب بإدارة شؤون المسلمين الاقتصاديّة.

«قدَّمنـي هنـري، الـذي كان يعتنـي بتوريد مـا يلزم إلى حفلات الشـاي الخاصّة بي في لكناؤ، إلى بعض الشـباب الفرنسـيّين، الذين كانوا يدرسون في المدرسـة الشرقيّة، فبدأت أدرّسهم الفارسيّة في دروسٍ خاصّةٍ. وقد حجز لي أحدهم تذكرةً في سـفينةٍ فرنسـيّةٍ متّجهةٍ إلى الهند، وهكذا تمكنت من العودة إلى لكناؤ عن طريق بونديتشـيري. مثلما رويت لك سـابقاً فإنّ المدينة تحوّلت إلى أنقاضٍ. تخبّطتُ مذهولاً في ممرّاتها المقفرة، أبحث عن أقاربي. وذات مساءٍ جلست منهكاً وسط أعمدةٍ، وأقواسٍ مهدَّمة، أتذكّر مرثيةً نظمها الميرزا رفيع سودا، رثى فيها مدينة دلهي عقب تعرّضها للنهب والسّلب على يدَي أبدالي:

البوم تنعب هنا، وقد كنّا نسمع فيها لحن هندول قبلا.
ولا يسعك أن ترى فيها إلّا الضوء ليلاً.
مثل ضوء المصابيح أو عيون أشباحٍ تشبه الغولا.(1)

«أخـيراً، اكتشـفتُ أنّ عائلتـي خرجت من المدينة في أثنـاء النّزوح الكبير عقـب رحيل بيجوم حضرت محل، وتمكّنت من الوصول إلى معقلٍ صغيرٍ لنا في نيلام بور، فذهبتُ إليهم فوراً، وانتقلت بهم إلى متيا برج».

«أصبحتُ الآن أحوّل بصري كلما رأيت شجرة تين الهند ولحاها المتدليّة، لأنها تذكّرني بالجثث المتدليّة من الأشـجار على جانبيّ الطريق. حين رجعت إلى الهنـد، كان مهرجان الشـنق في أوجه. أُعدم سـبعة وعشرون ألف مسـلم شـنقاً في دلهي وحدهـا. وجرى شـنق آلاف الهندوس والمسـلمين في كانفور وإلـه آباد وغيرهما. نصبوا المشـانق في لكناؤ صفاً على جانب الشـارع، وكان الجّـلادون يشـنقون عليهـا عـادةً نحو أربعـين أو خمسـين شـخصاً كلّ يوم،

(1) غول بياباني، (آغيا بيتال) عفاريت صحراوية يعتقد أنها لا ترى للعيون في الليالي حالكة السواد سوى عيونها الملتهبة.

ويتركـون الجثث تتدلّى حتى تُحضر الدفعة التالية. أُعدم الكثير لمجرّد شبهة ضلوعهم في الثّورة. كما قتل الكثير من المشـاهير بشـدّهم إلى فوّهات المدافع وتفجيرهم قذفاً».

«ولم يتردّدوا حتى في شنق بعض العجائز، كما صلبوا عزيزن بي بي، محظيّةً حاربـت بجانـب الجنود في كانفور. وعـلاوة على هذا، قُتل الشـاعر الأردي الإمام بخش وأبناؤه رمياً بالرّصاص. ما أبشـع ما فعله الرّائد هدسـون، فقد قدّم رؤوساً مقطوعة لأميرين من المغول على طبق ملك الهند المسنّ!». وأخذ صوت النّائب يرتجف.

لاح الاكتئـاب عـلى وجه صديقه. ماذا بوسـعه أن يقول له؟ لا يسـتطيع حتـى أن يبـدأ في تخمين عمق معاناتـه. لقد فقد حضـارةً بأكملها، ومع ذلك يقف في قفص الاتهام كالجاني.

كان غوتـام ملـمّاً إلمامـاً تامّـاً بروايـة الثّـورة التـي روّجـت لهـا الصّحافـة الإنجليزيّـة في الهنـد، وقد انتـشر نبأ حصار ريزيدنـسي بلكناؤ، واتّخـذ طابعاً أدبياً أسـطوريّاً في إنجلترا والهنـد البريطانيّة، ولا بدّ من الاعتراف بأنّ ما أذيع مـن بطولة الجنرالات والجنود البريطانيين، وشـجاعة الطّلاب الأوروبيّين في الكلّيـة اللامارتينيـة بلكناؤ، ومجـزرة العائلات الإنجليزية عـبر مناطق شرق الهنـد، وإغراق السّـفن التي حملت الإنجليزيّات وأطفالهـّن غدراً في نهر غانغا قبالة كانفور... وما إلى ذلك لم يخل من الصّحة.

كان غوتـام قـد اطّلع على مذكرات السـيدات الإنجليزيّـات التي نشرتها مجـلات لندن خلال عامـي 1857 و1858م في قاعات المطالعة المكتظّة في مكتبة كلكتا العامّة. غصّت الرّفوف بالرّوايات والقصائد والذكريات العامّة الواردة مـن إنجلترا. أما في غرف التّدخين في النوادي الخاصّة، وردهات الاسـتقبال

التّابعة للخطوط المدنيّة عبر أنحاء البلاد، وفي حانات قاعات الطعام في المعسكرات، فقد تحدّث المدنيّون والمحاربون السابقون عن تجاربهم المروّعة. تحدّثوا عن ولاء أتباعهم وشجاعتهم، وعن خدّام منازلهم وجنودهم الهنود، كما رووا الحكايات عن همجية الثوّار. وبعد حيدر علي والسّلطان تيبو، بدأت غيلانُ تانتيا توبى، وكنور سينغ، ودنكا شاه تلاحق الهندَ الإنجليزيّةَ.

إلى أيّ مدىً يمكن للمرء أن يعرف؟ تساءل النّائب نقلاً عن الشاعر الهندي الشهير الميرزا سودا. كيف لغوتام أن يعلم عن شعراء الأردية من أمثال سودا ومير ونظير وإنشاء وعن شعرهم السياسيّ الصّريح الذي كتبوه عقب انتشار النّفوذ البريطانيّ في الهند، وعن مصحفي أيضاً، الذي تحدّاهم علناً في شعره: «ما أبشع مكر الإنجليز! سلبوا الهند ثروتها ومجدها». من سمع بهم في بريطانيا؟ يستطيع اللورد بايرون أن يغني بجزر اليونان، ويحرّض الغرب، ويحارب الأتراك الرّهيبين. لقد حظي الإغريق بالإعجاب جراء حرب استقلالهم، أمّا ثورة 1857 الهنديّة، فأدينت باعتبارها عصيان المتمرّدين المحليّين.

شدّ النّائب خيط محفظته الصّغيرة، وأخذ قضمةً من تبغ المضغ.

«اليوم ونحن في عام 1868م، من يعرف شيئاً عن الصّحافة المحليّة المعادية لبريطانيا في فترة ما قبل الثّورة؟ في الحادي والثلاثين من مايو 1857، تحدّث جريدة *دلهي الأرديّة* صحيفتين إنجليزيتين: أين «*إنغلش من*» و«*ذي فريند أوف إنديا*» من تبجّحهما؟ حان الوقت لأن تريا أنّ المحلّيين الذين نعتوا بـ «الأغبياء» قد هزموا البريطانيين المتعالين الأقوياء».

«قُتل العاملون المسيحيّون في جريدة «دلهي غزيت» الإنجليزيّة حين كانوا يطبعون أخبار اندلاع الثّورة في مدينة ميراث، ودُمِّر مكتب الجريدة،

فتوقّفت عن الصدور. وفي يونيو عام 1857م، صاغ الزّعماء دستوراً ديمقراطيّاً باستخدام المصطلحات الإنجليزيّة، وعُين قائد القوات الأعلى الجنرال محمد بخت خان لشغل منصب اللّورد الحاكم العام. تكوّنت قيادته العليا من الجنرال طالع يار خان، واللواء شيو تشاران سينغ، والجنرال ثاكر، واللواء جيو رام، واللواء ميشرا، والجنرال سيداري سينغ، واللواء ميجور هيرا سينغ، والرّائد غوري شانكار، كما أصدر قائد القوّات الأعلى مرسوماً أمر فيه جميع الوحدات العسكريّة بالمشاركة في العرض العامّ عند الساعة الرابعة مساءً في الرابع عشر من أغسطس عام 1857م.

كتبت صحيفةٌ أرديةٌ أخرى: «يجب أن لا يتسكّع جنودنا في شوارع العاصمة، لأنَّ مياه دهلي تولّد الخمول، فما إن تخرج للنزهة في نواحي المسجد الجامع وتشاندني شوك وداريبا، وتتذوّق حلويّات مثل «لادّو» و«قالا قند» لدى بائع الحلويّات غانتي والا، حتى تشرع في أخذ الأمور بتهاونٍ.

«... لقد كلّف برجيس قدر، ملك أوده اليافع، والمولوي أحمد الله الشهير بدنكا شاه، حاكمَ غوراكهبور والمسؤولين الإداريّين جميعاً بإرجاع الملكة السيخيّة، أمّ الماهارجا بنجاب داليب سينغ المخلوع، من نيبال بأدبٍ واحترام، وإعادتها إلى عرش «خالصا» في مدينة لاهور. لكن رانا جنغ بهادر أحبط هذه الخطّة».

نشرت صحيفة «سراج الأخبار» باعتزازٍ التعميمات الصّادرة من بلاط القلعة الحمراء، ودأبت على تغطية كلّ المهامّ اليوميّة التي يقوم بها الإمبراطور الفعّال الواعي. وفي شهر يوليو عام 1857م، غيّرت الصحيفة اسمها إلى «أخبار ظفر»، وفي الثاني عشر من يوليو من العام نفسه، نشرت خبراً مفاده أن: «بعض الإنجليز تنكروا بأزياء نساء الهنود «لهانغا»، وهربوا في عربةٍ يجرّها

ثورٌ إلى منطقة قرب مقاطعة جهاجر. فكيف كان سقوط الجبابرة وهؤلاء هم الّذين لم يكلّفوا أنفسهم حتى عناء هزّ الرأس إذا حيّاهم رجلٌ هنديٌّ؟!»

كان مقت الشعب الهنديّ للإنجليز على أشدّه، كونهم متغطرسين وعاملوهم بازدراءٍ، وممّا زاد الطّين بلّةً محاولتهم المسَّ بعقيدتهم بدهن خراطيش البنادق التي حملتها قوّات الشرطة الهندية بشحم البقر والخنزير، وإرغامهم على قطعها بأسنانهم. لقد كان هذا، بالطّبع، السّبب المباشر لاندلاع الثورة، ولكن تضافرت عواملُ أخرى كذلك، تجسدت فيما مارسه الإنجليز من استغلال اقتصاديّ، وفرض ضرائب مرتفعة، وخلع الملوك والزّعماء، ممّا تسبّب في ارتفاع معدّلات البطالة، إضافةً إلى مس البعثات التنصيريّة بعقائدهم الدينيّة، واعتداءات لفظيّةٍ لا تراعي مشاعرهم. راح الاستياء يتصاعد ويتراكم بمرور السنين، وأخيراً تفجّر مقتهم المكبوت في كارثة 1857م المروّعة، لينتهي بهم إلى هدفٍ واحدٍ: «قتل الإنجليز والحفاظ على الدّين والعقيدة». شهدت دلهي أثناء الثّورة فارسةً مسنّةً بلباسٍ أخضر، تحارب كتفاً بكتفٍ مع الرّجال، وهي تصرخ الدّين! الدّين!». ذكرت الصّحافة الأرديّة أنّ الملك منحها حصاناً آخر.

كان المولوي محمد باقر رئيس التّحرير في صحيفة «دلهي أردو أخبار»، وقد التمس تايلر، عميد كلّية دلهي، الملجأَ لديه، فأجاره في بيته، وجعله يتنكّر بزيّ امرأة هندية حين وصل الغوغاء يبحثون عنه لقتله. وعند هروبه من الباب الخلفيّ، أعطاه تايلر رزمةً من الأوراق متوسّلاً: «إذا استرجعنا دلهي من جديدٍ أعط هذه الأوراق لأوّل بريطانيّ تلقاه». لقد ظفر به الغوغاء وقتلوه ضرباً.

خلال أشهر الاستقلال تلك، تمّ الحفاظ على نظام البريد بين لكناؤ ودلهي

بشكلٍ ممتازٍ، وظلّت الجرائد الأسبوعيّة الأردية تصدر بانتظامٍ، وأرسلت بيجوم حضرت محل وكيلها إلى جلالة الملك بهادور شاه الثاني بهديّةٍ تتكون من مائةٍ وخمسين ألف روبيّةٍ، بالإضافة إلى تاجٍ ومجوهراتٍ.

نشرت الصحف الأردية تقارير دقيقةً عموماً عن جبهات القتال كلّها، وذكرت في ابتهاجٍ أخبار قتل الإنجليز وإحراق منازلهم وممتلكاتهم. وفي جلسة الاحتفال بنجاح الثّوار في استعادة آغرا، التي نظمت في القلعة الحمراء، عزف الموسيقيون الهنود على الآلات الموسيقيّة الغربيّة. على أنّ فترة النشوة والاحتفال لم تدم طويلاً.

بعد معركةٍ حاميةٍ، تمكّن الإنجليز من استعادة دلهي في مارس عام 1858م.

أوفى المولوي باقر بوعده، فردَّ الحزمة التي تركها لديه تايلر إلى عقيدٍ بريطانيٍّ. كان تايلر قد كتب فيها باللاتينيّة أنّ *«المولوي باقر لم يحاول إنقاذي»*. وفي الحال قُتل المولوي باقر دون محاكمةٍ بطلقة رصاصٍ من فرقة الإعدام. عاش ابنه محمد حسين آزاد ليؤلّف كتاب تاريخ الأدب الأردي الشهير بـ«آباب حيات» أي ماء الحياة.

أبلغ اللورد كانينج، أوّل نائبٍ للملك في الهند البريطانيّة، المجلس أنّ الصّحافة المحليّة كانت ضالعةً في تحريض النّاس على التمرّد قبل عام 1857م، وبالنّتيجة، فُرضت الرّقابة الشّديدة على الصحف المحليّة. ومع ذلك، نشرت الصحف الأردية بضع قصائد مثيرةً للعواطف، تبكي دمار دلهي ولكناؤ. أصبحت العاصمة المغوليّة السّابقة تسمى «دلهي المرحومة». لقد نظم بهادر شاه وواجد علي شاه، الملكان المخلوعان، قصائد تقطر دموعاً ومراثي تتفطر لها القلوب. وكان ميرزا غالب يودّع أحزانه في رسائل يبعثها إلى أصدقائه.

ومن جهةٍ أخرى، راح بعض الشعراء الأرديين ينشرون قصائد في مدح

المحافظين ونوّاب الملك. كان غوتام غارقاً في التفكير: لا تبديل لفطرة الإنسان أبداً؛ سيظلّ الناس يكرهون بعضهم بعضاً، ويتحاربون، إذ يستحيل المرء وحشاً ضارياً أثناء الحرب. وفي حربنا هذه، يسيطر الدّين والعنصريّة على الجانبين. صرَّح اللورد كلايد عقب هزيمة الإنجليز في تشينهات بلكناؤ: «أنّه لمن العار الجسيم علينا، لأن العالم المسيحي كلّه يراقبنا».

شملت الثورة الجيش البنغاليّ، ولكن بقيت فئة «بادرالوك»، وهي فئةٌ مثقّفةٌ من البنغاليين وملّاك الأرض الجدد، موالين لبريطانيا. انتمى غوتام نيلامبار دوت إلى فئة «بادرالوك» المرموقة من كلكتا، وكان لديه اعتقاد بأنّ الثورة كانت وهميّةً غير مجديةٍ، لأنّ هؤلاء الملوك والملكات كلهم لم يتوخّوا منها إلا استعادة عروشهم المسلوبة، ومع ذلك فإنهم غدوا رموزاً للاستقلال وقوّاد حربٍ وطنيّةٍ واسعة النّطاق. تبقى الحقيقة مبهرةً، فقد نقل الإنجليز الهند عقب عام 1857م إلى العصر الحديث، هكذا فكّر غوتام.

من اللّافت للنظر أنّه ثبت فيما بعد أنّ بعض الحكايات الشّائعة عن سلوك الهنود الهمجيّ ضد السيّدات والأطفال الإنجليز كانت إمّا مزيّفةً أو مبالغاً فيها بشكلٍ كبيرٍ. ولكنّ البربريّة التي اقترفها الإنجليز انتقاماً تفوق التصور، ولم تسمح حتى لمناصري الإنجليز مثل غوتام أن يستسيغوا ما فعلوه خلال تلك الأيّام المرعبة، فلقد أعدموا كلّ من انبرى لهم عشوائيّاً حتى قبل إقبال المحليين على قتلهم. وقد كشفت السّلطات البريطانيّة آنذاك أنّ المسلمين ذهبوا إلى المشانق، ولاح الفخر والاستهزاء على وجوههم. أمّا الهندوس فكانوا غير مبالين كأنهم ذاهبون في رحلةٍ طويلةٍ.

اختلس غوتام نظرةً إلى صديقه الذي جلس جامداً غارقاً في التفكير. سُرَّت الصحافة الإنجليزية بنشر كرتونات الجنرال بخت خان والسخرية من

لقبـه «اللورد الحاكم العام»... ولكـن ألم يحطّم انهزامه آمال الكثيرين؟ للمرّة الأولى، أحس غوتام بأنه يقدّر مشاعر الثوّار المحليّين، ووجهة نظرهم ومدى صدمة النّاس من أمثال النّائب كمال الدين علي رضا بهادور من نيلام فور.

حـلّ الغروب، وتسـللت الـبرودة إلى الفضـاء. نهض النّائـب على قدميه وودّع صديقـه: «مـع السـلامة نيلامبـار صاحـب! سـأحدثك حـين نلتقـي ثانيـةً عـن العامين اللذين قضيتهما في إنجلترا وفرنسـا. ولا بـدّ أن أخبرك أن الإنجليـز أنـاسٌ طيّبـون في بلادهم، ولكن مـا إن عبروا قناة السـويس حتى استحالوا أناساً من النوع الآخر».

صعـد النّائـب عربته التي يجرُّها حصـانٌ، واتّجه إلى متيا بـرج، حيث كان واجد علي شـاه البائس قد أنشـأ لكناؤ مصغرّةً في منزلٍ سـمّاه «رادها منزل». شـاهد غوتام العربة الصغيرة تختفي وراء الضّبـاب المتراكم. مرّ به الزمارون مـن الهيلاند، يعزفـون النغمة الأسـكتلندية المحببة لديه. قريباً سـتبدأ كلكتا تجهّز نفسـها لموسم عيد ميلاد المسيح الشهير، فترة السلام البريطاني! ما لبث أن استتبّ القانون والنّظام من جديدٍ في الهند.! السّلام! ما أحلاه! فلقد أثبت ذلك أيضاً ما طرحه داروين في نظريّة البقاء للأقوى!!!

28

تشامبا بائي، تشودراين (زعيمة) لكناؤ

صورة التقطها مشكور الدّولة عام 1868

ذات يوم، أبلغ البستانيّ بابو غوتام نيلامبار دوت حين عاد من اجتماعٍ، أنّ النّائب كمَان من متيا برج حضر، وقد غادر للتوّ بعد أن انتظره فترةً. اندفع بابو دوت إلى الخارج، وأجال بصره في الشّارع من أقصاه إلى أدناه، وألفى رجلاً طاعناً في السنّ، يرتدي قميص موسلين أبيض نقيّاً، ووضع على رأسه قلنسوة صغيرة من الموسلين مطرّزة بدقّةٍ، أخذ يبتعد عنه ببطءٍ متكئاً على عصاه، وقد وقفت عربته في زاوية الشّارع. سارع دوت بابو يناديه للعودة فتوقّف الرّجل المسنّ.

«يا، نيلامبار صاحب! يسعدنى أن أراك، وقد يكون هذا لقاؤنا الأخير. هذا لعلمك».

«ولكن لماذا أيّها النّائب صاحب؟ فنحن نادراً ما نجتمع، وعادة أكون مشغولاً للغاية».

قاد الضّيف المرموق إلى بيته المكوّن من طابقين، ودخل الرّجل النّبيل صالة الاستقبال المبهرجة المكسوّة بورق الجدران، وقال:

«جئت لأودّعك يا صديقي. أريد الذّهاب إلى كربلاء مرّةً أخرى وأحبّ أن أموت فيها، ولكن أكره في الوقت نفسه أن أفارق ملكي وهو في المنفى».

شدّ غوتام حبلاً من الحرير فرن الجرس. حضر خادمٌ وقال باقتضاب:

«الشاي». كانت ابنته تعزف مقطوعةً إنجليزيّةً على البيانو في الطابق العلويّ.

«أيّها النائب صاحب، ستسعد بمعرفة أنّ ابني مانورنجن سيلتحق بكلية كانينج بلكناؤ كأستاذٍ في القانون»، أبلغه غوتام.

«ماشاء الله! ماشاء الله! رائع جدّاً». أعرب النّائب صاحب عن فرحه، وظلّا يتحدّثان لبعض الوقت، وبعد هنيهةٍ من الصّمت، قال النّائب صاحب:

«ها قد جئت لك بهديّةٍ تذكاريّةٍ من زمننا الضّائع». أخرج النّائب صاحب بعد قليلٍ صورةً داكنةً من جيب صدريّته، ومدّها إلى دوت صاحب. لبس المضيف نظّارته التي كانت بعدساتٍ دون إطار. لم يستطع تمييز الوجه، فقلب الصّورة وقرأ ما كان مكتوباً خلفها: «*تشامبا بائي، تشودراين. صورة التقطها مشكور الدولة، بقيصر باغ، لكناؤ 1868م*».

نظر غوتام في الصّورة من جديد.... كانت الصورة لامرأة وقورة، ترتدي زيّ «غرارا» فضفاضاً، تجلس على كرسيٍّ فخمٍ وتدخّن الشيشة.

لاحظ النّائب كمان سحابة كآبةٍ كثيفةً تغشى وجه صديقه. «أجل، نيلامبار صاحب، هذا كلّ ما في الأمر. هذا ما يفعله الزّمن «المحتال القديم» مع نساءٍ فاتناتٍ».

«وماذا تعنى «تشودراين؟» تساءل غوتام باكتئاب.

«حسناً، أمست رئيسةً المحظّيات أو زعيمتهن في لكناؤ، وهي في أواسط عمرها، وكانت تلك مكانةً مرموقةً في أوساطهنّ، إذ تعني الزّعيمة التي تعالج مشاكلهنّ، وتسوّي نزاعاتهن، وقراراتها ومراسيمها ملزمة لهنّ. تمتعت تشامبا جان بإذن الدّخول إلى البلاط الملكيّ أيضاً، حيث كانت تُستقبل بحفاوةٍ. وإذا بالكارثة تحل، فقد تعرّض بيتها للنّهب أثناء الثورة، وقُتلَ زبائنها الأثرياء، فاضطرّت للعيش في غرفةٍ مستأجرة، وكسدت سلعتها. لم

تطق تشامبا جان تحمّل صدمة دمار لكناؤ، فعاقرت الخمر.

لقد أصدرت الإدارة البريطانيّة الجديدة مرسوماً طالبت بموجبه المحظيّات جميعاً بتسجيل أسمائهنّ والحصول على تراخيص من البلديّة. وأجبرن جميعاً على التقاط صور لهن وإلصاقها بتراخيصهن، كما أرغمن على عرض أعمارهنّ وأسعارهنّ على الأبواب. كان ذلك غايةً في الشّناعة، واعتبرنه مهيناً جدّاً، إذ لم تكن غالبيتهنّ من المومسات، بل بالأحرى كنّ فنانات ممثّلات. على أي حالٍ، تعيّن عليهن الامتثال للمرسوم، فعرضن أنفسهن للتصوير في استوديوهات مشكور الدّولة».

«لم تعد تشامبا جان المسكينة تُعتبر ضمن تلك الفئة، ولكنّها كانت الزعيمة، فعرضت نفسها للتصوير، وأعطت إحدى الصور لأحد أصدقائي كان متّجهاً إلى كلكتا، قائلةً له: «أعطي هذه لبابو صاحب بتحيّاتٍ متواضعةٍ منّي».

«لم تستطع أن تتذكّر اسمك، لأنها كانت تشكو من فقدان الذّاكرة، وقد أعطاني صديقي هذه الصّورة، ظناً منه أنّني ربّما أعرف من الذي تعنيه».

بدا غوتام مضطرباً. وواصل النّائب كمان بأسىً:

«انتهى الأمر بالمسكينة نهايةً سيّئةً مثل الكثير من المحظيّات. وقد بلغني أن أقاربها والمتطفّلين حولها سلبوها حتى آخر فلِس تملكه. وبعد ما أقلعت عن الكحول، أخذت تتعاطى الكوكايين، وبالنّتيجة آل أمرها إلى التسوّل».

«تسوّل؟»، كرر غوتام في فزعٍ.

«نعم يا نيلامبار صاحب، لقد ارتفع مستوى بعض المحظيّات إلى مستوى الملكات، وسقط الأمر بالأخريات إلى الاستجداء. هذا هو الحظّ».

ساد الصمت لفترةٍ وجيزةٍ. ثم سأل غوتام:

«أما زالت حيّةً؟»

«نعم، لقد سمعت أنّها تتخبّط مع المتسوّلين الآخرين في محطّة تشاد باغ. سبق أن بلغني أنّها كانت تنتظر أيّ قطارٍ قادمٍ من كلكتا، وتتفرّس في وجوه المسافرين، ومنذ أن أصابها العته، لم تعدْ تفعل ذلك. هذا آخر ما سمعته عنها من أبناء عمّي في لكناؤ». تنهّد النّائب تنهّداً عميقاً وواصل: «كنت سأحضر لك الصورة من قبل لولا أنّي قرأت في الصّحف أنّك في إنجلترا منذ مدّةٍ». تنهّد النّائب كمان ثانيةً، وخاطب صديقه قائلاً: «إن زرت لكناؤ مستقبلاً، لا تحاول البحث عنها. فلا ينبغي لك المساس بأحلامك. والآن لا بدّ أن أستأذنك في الرجوع. مع السلامة يا نيلامبار صاحب».

بعد إيصال النّائب صاحب إلى عربته، عاد المضيف إلى صالة الاستقبال. وضع صورة تشامبا بائي خلف رفٍّ، ونظر حوله لا يدري ماذا يجب عليه أن يفعل الآن. كان قد حقّق نجاحاً باهراً في حياته، كما وعد تشامبا بائي يوم غادر لكناؤ عام 1823م. لقد أصبح صاحب دار نشرٍ وطباعةٍ ناجحةٍ، وزوجته تنحدر من أشرف أسر براهمو في كلكتا، وقد أنجب منها خمسة أولادٍ، كما أصبح عضواً بارزاً في جمعيّة «بادرالوك» الإنجليزيّة الطّابع. ماذا كان يمكن للحياة أن تمنحه أكثر من ذلك؟

جال في أنحاء الغرفة. اصطفّت رفوف الكتب على الجدران. الكتب والمزيد من الكتب ونسخ صحف ومجلّاتٍ في القانون فضلاً عن الملفّات والتقارير وقرارات اللّجان والمؤتمرات المختلفة. كانت توجد مشاكل في كلّ مكانٍ، وأوجد حلولاً لها.

أحقّاً وجد حلولاً لها....؟ أحسّ بالغصّة في تلك الغرفة الخانقة. أضيئت

المصابيح الغازيّة الباهتة في الشوارع، وخرج إلى الحديقة. تلك هي الليالي التي يستطيع أن يسمع المرء فيها حفيف مرور الغيلان الخانقة. تمدّد كلبٌ على حافّة الحوض. لو كان غوتام يؤمن بتناسخ الأرواح، لظنّ أن الكلب ليس إلّا روحاً ملعونةً لشخصٍ ما. عاد إلى الداخل، واستخرج قصائد تورو داتر من خزانةٍ دوّارةٍ وقرأ:

أيّها الصدى الذي أعكّر صفوه
بشجوني وصيحاتي الحزينة
يأتي هو..... فأسمع صوته عن بعدٍ،
أو أنت الذي جاء ردّه هكذا؟
أصغ! إنّه يدعو إلى السّلام! ولكن عبثاً وسدىً.
فمن أَحببناهم ومن فقدناهم لن يرجعوا أبداً.

أغلق الكتاب، ثم أمسك بيده تقريراً صادراً عن اللّجنة المختارة المشتركة التّابعة لمجلس العموم. وبعد أسابيع، قرأ في الصّحف أن النّائب كمال الدّين علي رضا بهادور من متيا برج توفي بهدوء وهو نائم.

29

الشمس تغرب وتشرق على نهر غومتي

ترجّل رجلٌ قصير القامة أنيق اللّباس من مقصورة الدّرجة المتوسّطة، يحمل حقيبة سجّادة. بادر إليه حمّالٌ وأخذ حقيبته. نزل العديد من الإنجليز وبعض العائلات الأوروبية -الآسيويّة من مقصورات الدّرجتين الأولى والثانية الخاصّة بالأوروبيين. اصطفّت محفّاتٌ مغطّاة بالكامل على الرّصيف، وقف بجانبها حاملوها من أجل نقل السيّدات المحجّبات اللواتي ينزلن من مقصورات النّساء. كان حرّاسٌ «أوروآسيويون» ومفتشو التذاكر يتجوّلون جيئةً وذهاباً على الأرصفة المزدحمة. سار الحمّال بالسيد جي- إين- دوت إلى موقف السيارات خارج المحطّة، ونادى بأعلى صوته: «لاكشمان! تعال إلى هنا».

بقي رجلٌ عجوزٌ جالساً على مقعد السائق في عربة «فياتون» التي يجرّها حصانان، في حين قفز شابٌّ منها وحيّا القادم الجديد بأدبٍ بالغ: «حاضر».

أخرج السيّد جي- إين -دوت عنواناً لمكانٍ ما عند نهر غومتي. لقد درس ابنه مانورانجن دوت القانون في كلية كانينج في أمين آباد، وعاش على الطرف الآخر من نهر غومتي. عاد لاكشمان إلى مقعده بجانب السّائق.

«سيّدي قادمٌ من إله باد؟» امتلأت عاصمة المنطقة الشماليّة الغربيّة الجديدة بالرجال البنغاليّين الذين اشتغلوا في الدّوائر الرسميّة.

«لا، بل من كلكتا».

من هو الرجل؟ سأله العجوز هامساً، فردّ لاكشمان:

جنتلمان شابٌّ دمثٌ من كلكتا.

هل يمكن أن أتحدّث إليه؟

استدار لاكشمان إلى الخلف وقال: «سيّدي، عمي غانغا دين يستأذنك للحديث معك. إنه يعاني من ثقل السمع، فقد تحتاج إلى رفع صوتك».

غانغا دين! قرع الاسم باب ذكرى باهتةٍ لدى غوتام نيلامبار دوت، ولكنّه فكّر أنّه كان اسماً شائعاً بين طائفة الخدم في لكناؤ.

بالطّبع. أذن له غوتام «واسأله هل سبق له أن قاد عربةً في زمن غازي الدّين حيدر».

نقل لاكشمان سؤاله إلى العجوز، فأجاب:

«لا يا سيدي! لقد كنت أحد حاملي المحفّات في فرح بخش أوّلاً، وفي قيصر باغ تالياً. ومنذ هجر عربة «نسيم الربيع» للملك المخلوع الحديقة، سكنها الخريف».

سلّم لاكشمان قيادة العربة إلى صاحبه العجوز وحاول شرح كلمته:

«سيّدي، يعني أنّه منذ غادر «سلطان العالم» في عربته المعروفة بنسيم الربيع...»

قاطعه السيد غوتام مستعجلاً:

«نعم، نعم، أنا أفهم».

كان قد سمع كلّ تلك الميلودراما والشعر من صديقه النّائب كمان حتّى وافت المنيّة ذلك الأرستقراطي المسنّ. كان يعرف أن أهل لكناؤ وحتى عامّتهم غير المثقفين ينطقون بلسانٍ أدبيٍّ فصيحٍ، ولكن ما أدهشه هو أنّه حتّى مجزرة 1857م لم تتمكّن من تغييرهم. وبدأ يشعر بعدم الارتياح حين أدرك

أنّ العجوز غانغا دين مثل النّائب كمان يبكي بصوتٍ خافتٍ. ظلّ غوتام مناصرًا للعقلانيّة طيلة حياته، وساقه التعليم الإنجليزيّ إلى الاعتقاد بأنّه لكي يستطيع المرء أن ينجو ويحيا لا بّد أن يكون أقوى. فلينظر إلى الشّرق كلّه الذي يبكي ويذرف الدّموع ويتعامل بالعاطفة. زمّ شفتيه كعادته.

سوّى غانغا دين ظهره وتوسّل بالأردية الرسميّة: «سيّدي، ابعثني إلى كلكتا من فضلك، فإنّ جلالة الملك يعيش هناك».

ضحك لاكشمان: «سيّدي، لا تقلق من طلب عمّي العجوز غانغا دين، إنّه يكرّر الطّلب نفسه من كل شخص ينزل في المحطة قادماً من كلكتا؟»

وسأل غوتام الفتى:

«هل يبكي دائماً على هذا النحو؟»

«في بعض الأحيان. المدينة تكتّظ بمثل هؤلاء المسنّين. وليس هذا بشيء، فلدينا فرقٌ تمثيليّةٌ تتنقل من قريةٍ إلى أخرى، تعرض مسرحيّة «إندرا سابها»، ويذرف النّاس الدّموع عند مشاهدتها إحياءً لذكرى الملك السابق. كنتُ صغيراً جدّاً حين حلّت الكارثة، ولا أتذكر شيئاً سوى أنّ الإنجليز عندما دمّروا «ماتشي بهاوان» قصر الأسماك، هزّت الانفجارات مدينة لكناؤ كلّها، وارتجفتُ مثل الجرو، وظللت أصرخ وأصرخ. وقد قالت لي أمّي إنّ العديد من النسوة الحوامل تعرّضن للإجهاض، ومات الكثيرون نتيجة سكتاتٍ قلبيّةٍ».

سرت قشعريرةٌ في جسد غوتام. سأله لاكشمان: «أما زال الملك على قيد الحياة يا سيّدي؟»

أومأ غوتام بالإيجاب. كان نابضاً بالحياة، مكبّاً على قرض أشعارٍ مفعمةٍ بالحزن في متيا برج، في حين توفّيت بيجوم حضرت محل الشقيّة في نيبال عام 1869م.

توقّفت العربة بفعل هزة بعد أن خرجت من رحاب محطّة السكك الحديدية، وصاح السّائق: «لِمَ لا تبتعد عن طريقي يا «كيس العظام»؟!» تنحّت امرأةٌ عجوزٌ، دثّرت نفسها بغطاءٍ رثٍّ مهترئ، ومدّت يدها المجعّدة مكررة على نحو آلي: «باسم عليٍّ الحلو أعطنا بيسة (فلساً).... ولن ينالك غمٌّ أبداً سوى الغمّ على الحسين». كرّرت العجوز المتسوّلة الدّعاء الشائع في لكناؤ، التي تقطنها أغلبية الشيعة من المسلمين. «لا أعطاك الله حزناً إلّا على الحسين. أسألك فلساً... فلساً واحداً فقط».

تجمّد غوتام نيلامبار. تذكّر ما أخبره به النّائب كمان عن تشامبا جان... تشامبا جان التي صارت متسوّلةً، تتخبّط في محطّة السكك الحديديّة في انتظار المسافرين القادمين من كلكتا. ارتعش إذ تخيّل أنّ تلك المتسوّلة ربّما تكون تشامبا. هل كانت هي؟ سوّى نظارته الطبية وحدّق خارج العربة. كانت تقف بجانب الطّريق كأنّها شبحٌ.

مال لاكشمان إلى الوراء وهمس له من مقعده: «لا تمنحها شيئاً يا سيدي. إنها مدمنة على الكوكايين، وتضايق كلّ مسافرٍ على هذا النحو، وتنفق كلّ ما تظفر به على الكوكايين».

استخرج غوتام قطع النقود الفيكتوريّة من محفظته، فاتسعت حدقتا عيني المتسولة عندما رأت فجأةً لمعان النقود الفضيّة، رفعت رأسها لتنظر إلى السيّد الأسمر القابع في العربة. امرأةٌ معدمةٌ، بلا أسنانٍ، تنتظر في محطّة السكك الحديدية عودة رجل كهل إليها. لم تستطع التعرّف على السيد المسن الكريم الذي بدا أصغر بكثيرٍ من عمره، لأنّه حظي بالثراء، ولم تعكّر صفوه مسائل شخصيّةٍ، وعاملته الحياة بلطفٍ.

هزّت رأسها قائلةً: «لستُ بحاجةٍ إلى الكثير... القليل فقط... ما يكفي

جرعتي اليوميّة».

أعطاها روبيّةً فأمسكتها بقبضتها بإحكام، وانفجرت قائلةً: «سيّدي، أطال الله عمرك حتّى تحتفل بزواج أبناء أحفادك! لقد دمّرتني أيّام الثورة. أيا راعيَ الفقراء.... أيّام الحكم الملكيّ كنت أمتطي فيلاً أملكه. بارك الله فيك».

ضرب لاكشمان الحصان بالسّوط، فانطلقت العربة، وراح يقهقه: «ملكت فيلاً! إنّها لمسوّغاتٌ رائعةٌ صاغها النّاس من أيام الثورة. يزعم كلّ من هبّ ودبّ أنه كان ذا نفوذٍ قبل عام 1858م».

حدّقت تشامبا في الروبيّة في عتمة المساء، ثمّ تسلّلت إلى شارع فرعي، ووقفت أمام وكرٍ لتعاطي الأفيون، حيث جلس المدمنون، وهم يحنون رؤوسهم بين ركبهم في زوايا شبه مظلمةٍ.

نظر غوتام إلى الوراء، فرآها تقف تحت مصباح الشّارع، ومازالت تحدّق في الروبيّة. التمع شعرها كأنّه شلّال من الفضّة، وغطت وجهها التّجاعيد، وترهل جلدُ يديها. اكتست «غراراً» ثخينة مرقعة، وامتلأ دثارها المبطّن بالثّقوب.

أسند رأسه إلى المسند وأغلق جفونه. أين يرتحل الجمال بعد ما ينسلخ عن وجه فاتنةٍ؟ هل يحوّل كبر السنّ المرأة إلى نوعٍ مختلفٍ؟ وبينما ينال الرجل المسنّ الاحترام، تُزدرى المرأة العجوز وتُسمَّى عفريتةً؟ لماذا لم أركض خلفها وأطلب منها الجلوس بجانبي في العربة، وأسير بها إلى البيت؟ لماذا تركتها واقفةً وحدها تحت مصباحٍ غازيٍّ؟ رغم سعة ثقافته، وحصافة عقله، وطول خبرته المادّيّة، أدرك غوتام أنّه لا يملك إجاباتٍ مقنعةً عن تلك الأسئلة؟ أحسّ بانفعال شديد، واشتاق للهواء الطلق، في حين واصلت العربة فيكتوريا مسيرها إلى بادشاه باغ. كانت أسماء الجنرالات الإنجليز الذين

افتتحـوا لكنـاؤ قبل عشريـن عامـاً مكتوبةً عـلى اللّافتات بجانب الشـوارع الجديدة المضاءة بالمصابيح الغازيّة.

لاحت فيلا سنغاري والي أو فيلا الكستناء المائي على الضفّة الأخرى من نهر غومتي. أقام بابو مانورانجن دوت في الطابق الأرضيّ بوصفه مسـتأجراً، في حين سكن ملّاكها «رائي زاده» أبناء رائي الطّابق العلوي. إنهم أبناء رائي مهتاب تشـاند، أحد النبلاء في بلاط النّائب سـعادت عـلي خان، حاكم أوده الرّابـع. عبرت عربـة نيلامبار دوت الجـسر، واتجهت إلى الشـارع غير المعبد بمحـاذاة ضفّـة النهر. وبعـد بضع دقائـق، دخلت العربـة بوّابـة الفيلا التي اكتسـت مظهراً عتيقاً. وقد أُطلق عليها اسـم الكسـتناء المائي ثلاثي الزوايا، إذ استُلهِمَ من أبراجها الصّغيرة الثلاثة. لم يخبر غوتام ابنه بقدومه، فقد أحبّ أن يفاجئهم.

في تلك اللّيلة، عقب خلود منورانجان دوت وزوجته وأولاده إلى النوم، خـرج غوتـام من الغرفة وتأمل النهر. وبعد لحظةٍ سـار على دربٍ ترابيٍّ. لاح معبد الإله القرد هانومان بوضوحٍ بين أقواس الجسر، وقد نامت القرود على أشجارٍ فوقه. لاحقته آغيا بيتال (العفاريت الصحراويّة)، أشباحٌ من ذكرياته بعيونها الملتهبة. لقد شـهد الكثير، فماذا تبقى له ليشهده. النّهر ينساب، قامت عـلى ضفّتيـه بيوتٌ لها أسـماء، ينام فيها أناسٌ لهم أسـماءٌ كذلك. لقد شـيّدت بعض البيوت من الحجر، لأن الأحجار كانت منتشرةً على الشـاطئ. الوقت يجـري، بل الوقـت محبوس داخـل الأحجار. تصاعـدت ألسـنة اللّهيب من المحرقة. من يدري كم شخصاً ماتوا اللّيلة؟

واصل غوتام السّير. محرقة الجثث قبالته. رقصت كالي إلهة القوّة والخوف في المحرقـة، كالي التـي تضمّ الكـون بأسره في ذاتها في نهايـة دورانه. وحدهم

أولئكَ الذين قهروا شهواتهم، يستطيعون أن يعبدوها دون خوفٍ، أو كما قال الناسك بزيّه الأحمر من كالي غات:

«تُحرق الشهوات كلّها في المحرقة. وكالي التي هي فوق العقل والبيان، تحوّل الكون في اللاشيء، في الخلاء إلى شكل «بوران» الذي يمثّل الضّوء والسّلام...».

«كالي التي ملبسها السّماء، بل هي السّماء نفسها، لأنّها بلا حدودٍ. طاقاتها بلا نهايةٍ، وإنّها أسمى من مايا (المادّة)؛ لأنّها هي التي استحالت مايا وأنشأت الدنيا».

«في المحرقة قامت كالي على جسد شيوا الأبيض. شيوا هو الأبيض لأنّه المظهر الذي يدمّر شياطين مايا وإيغو، ولا يتحرّك لأنه لا يناله التّغيير. كانت كالي تعبيراً عن تغييره. شيوا لا يتغيّر بل هو موجودٌ في كلّ ظاهرةٍ. رقصت كالي في دخان اللّهيب. كانت هي دورغا وتارا ودوماتي. المحرقة هي أكبر حقائق الحياة..».

لسنواتٍ طويلةٍ بقي غوتام جزءاً من جماعة الـ «براهمو»، ولم يستطع أن يحرر نفسه من أثر كالي. ولكن لم يقدّم له أحدٌ إجاباتٍ عن تساؤلاته. وقف على الجسر يراقب خفوت اللّهيب المتصاعد من محارق الجثث، ثم عاد أدراجه إلى فيلا سينغاري والي، فيلا الكستناء المائي.

30

الجسر

لما دقّت السّاعة الخامسة صباحاً، استيقظت سيّدة المنزل، وأيقظت وصيفتها النّائمة على حصيرةٍ قرب باب غرفة النوم: «أسرعي؛ فمدرسة نيرمال العزيزة ستفتح اليوم، وستحضر سيّارة لوري إلى هنا قريباً لتقلّها». فركت مهري عينيها، وهبّت واقفةً تلفّ شعرها الطوّيل في لفّةٍ، ثم أسرعت كالإوزّة إلى صنبور الماء. كان عليها أن تملأ الدّلاء النحاسيّة بالماء، وتضعها في الحمّامات، وتجهّز أدوات الحلاقة لسيدها وابنه هاري شانكار الأخ، ثمّ تعد الشاي. ها قد طلع يومٌ آخر.

بدأت الطيور تغرد في الحديقة المليئة بالأعشاب. مرّت عربةٌ يجرّها ثورٌ. جاء اللبان بدلائه المصنوعة من الألمنيوم والمتدليّة من مقبض درّاجته. توجّهت سيّدة الفيلا إلى غرفة المعبد «ثاكور دوار» في البرج الشرقيّ. كانت الغرفة دافئةً لا هواء فيها، تبعث شعوراً غريباً بالاختناق كما في موسم الأمطار. انتصب الإله كريشنا في هيئته المعروفة، ممسكاً بنايه النّحاسيّ داخل المعبد النحاسيّ الصّغير فوق الهيكل.

كانت هذه الفيلا المكوّنة من طابقين لأبناء رائي من منطقة إبراهيم بور، قد شهدت أيّام رفاهية ورخاء، ولكن الآن باتت مقفرة ومهجورةً. كانت ثمة عدّة أسرّةٍ مصفوفةٍ على طول جدار الرّدهة في الطابق العلويّ، وثمة زهريّةٌ

صينيّةٌ تتوسّطها شجرة تولسي وضعت على السّقف المحاذي للرواق المطلّ على النّهر. نامت صبيّتـان مراهقتان بهدوءٍ تحت صورة كاهن حليق الرّأس مكتنز الجسم من آلهة غورخناث.

وثمة فتىً في التاسعة عشر من عمره تقريباً، يغطّ في النّوم في البرج الثالث المواجه لـ«موتي محل»، وقد طنّت مروحةٌ منضديّةٌ فوق طاولةٍ بجانب سريره. كانت نوافذ البرج الأربعة كلّها مفتوحةً، فملأ النّسيم اللّطيف جوَّ الغرفة المزدحمة، التي اكتظّت رفوفها المدمجة بالكتب الإنجليزيّة والفارسيّة والأرديّة، وتناثرت على السجّادة القطنية البالية جرائد إنجليزيّة وأرديّة عديدة. كانت مجلّة «بينغوين نيو رايتينغ» الفصلية والمجلّات الفصليّة الأخرى الصّادرة من كلكتا مكوّمةً في زاويةٍ. تدلّت ربطات العنق من مضارب التّنس، في حين كانت صناديق كرات التّنس محشوّةً بالجوارب، وقد زيّنت الكورنيش لوحةٌ تحمل صورة جواهر لال نهرو الوسيم. مثّلت الجدران معرض صور جماعيّة للاتّحاد الجامعيّ في الفترة ما بين 1938-1940م. كان بينها صورٌ لشابٍّ يمسك بكأسٍ في صورةٍ، ويمثّل دور ماكبث في أخرى، ويجدّف في سباق الزّوارق الجامعي في ثالثةٍ. وفوق رفّ الموقد، علّقت صورةٌ جماعيّةٌ باهتةٌ لطاقم الموظّفين والطلّاب من كلّية الحقوق التّابعة لجامعة كانينج (تعرف الآن بجامعة لكناؤ). ظهر والد الشاب في الصفّ الخلفيّ مرتدياً معطفاً طويلاً، وقبّعةً مخمليّةً مدوّرةً سوداء يلبسها السادة الهنود، تسمى «بابو كيب» أوقبّعة السّادة، له شاربٌ متهدّلٌ مثيرٌ للضحك، ووقف خلف أستاذه المرحوم مانورانجن دوت، ابن المصلح الاجتماعيّ المعروف غوتام نيلامبار دوت من كلكتا. بدا دوت بابو محدّقاً في الكاميرا، ويداه على رأس عصاه الفضيّة. لقد أقام أيضاً في فيلا الكستناء المائيّ كمستأجرٍ، التقطت هذه الصورة عام 1898م

حين تقاعد دوت بابو من وظيفته التدريسيّة المرموقة.

كانت صورة منشي مهتاب تشاند، سلف رائي زاده معلّقةً في صالة الاستقبال في الطّابق الأسفل، وقد تضاءل لمعان طلائها، ظهر جالساً على كرسيٍّ مطليٍّ بالذّهب، وقد ارتدى الحلّة الرسميّة من بلاط النّائب الوزير سعادت علي خان، وتدلّت ستائر مخمليّةٌ منمّقةٌ في الخلف.

كان البرج الثالث يستخدم كغرفة موسيقى.

شكّل ذلك البيت بؤرة الكون بالنسبة لسكّانه، فمنه شُيعت جنائز الأحبّة، وإليه زُفّت محفّات العرائس. شهد احتفالات الأعياد وولادة الأولاد، ونشبت فيه نزاعاتٌ، وجرت تسوياتٌ، ودوّت ضحكاتٌ، وتصاعد منه بكاء. ليست هذه الأحداث حكراً على بيتٍ خاصٍّ. يراقب البيت المشهد بصمتٍ، ولا يصغي أحدٌ إلى ما يحكيه دون أن ينطق، ويظلّ دائماً في سباقٍ مع الزّمن الذي يتحدّاه: لنرَ إلى أيّ مدىً تستطيع أن ترافقني وتستمر بمراقبتي؟ لا ينبس البيت ببنت شفةٍ. تطير السنوات، وتتكرّر المواسم، ويبقى البيت راسياً مثل سفينةٍ صغيرةٍ جسورةٍ في نهر الزّمن، كثيراً ما تجرفه موجةٌ عارمةٌ فيختفي إلى الأبد.

بنى ذلك القصر منشي مهتاب تشاند الذي نال لقب «رائي»، وكان ممّن صرفوا الرّواتب للجيش في حكومة النّائب سعادت علي خان، وقد سكنه الآن ابن حفيده، وهو محام يتقاضى أقلّ من متوسّط الرّاتب الشهريّ، له ابن واحد، اسمه هاري شانكار وابنتان: لاج ونيرمالا. كان ينفق معظم أوقاته في سياسة حزب الكونغرس، ويشارك في الحفلات الشعريّة، ويكتب المقالات العلميّة عن الشّعر الأردي. نال بعض الأرباح من قطعة أرضٍ زراعيّةٍ، اقتناها في مقاطعةٍ قريبةٍ. لم تنل الأسرة حظاً من الرّفاهية والازدهار في الأيّام

الحديثـة الأخـيرة، ومع ذلـك فقد ظلّـت محتفظـةً بلقبها المـوروث الفخري «رائي» بثقةٍ تامّةٍ.

في تلـك اللحظـة كان نائـماً داخل ناموسـيّةٍ فوق السّـقف المكشـوف من الـرواق المطـلّ على النّهـر، المحـاذي للردهة الخلفيّـة. أيقظه صـوت قبقاب زوجتـه الخشـبيّ. تلك كانت عادتها المزعجـة الوحيدة، ففـي الصّباح الباكر مـن كلّ يومٍ، تعكّر نوم الجميع بأنشـطتها الصّاخبة المتعدّدة من فتح الخزائن، وإغـلاق النّمليّـة، والتنقّـل من غرفةٍ إلى أخـرى بقبقابها الخشـبيّ، ثمّ تدخل غرفـة العبادة، وتبـدأ في تلاوة الكتـاب المقدّس الهندوسي بصـوتٍ جهوريٍّ يوقظ الجميع بلا استثناءٍ.

كان تريلوتشـان مستعدّاً لتنظيف الغرف. طوت الوصيفة جامونا ميهري الفُرش، وقالت للصبيّة: «اصحي يا بنت! عليك حضور الدّروس الصباحيّة منذ اليوم». هبّت الصبيّة هبوب العاصفة، واسـتخرجت سـاعة يدٍ من تحت مخدّتهـا، وصاحـت بنبرة طلّاب مدرسـةٍ إنجليزيّةٍ: «يا إلهـي.. لقد أصبحت السّاعة الخامسة!».

تقلّبت الأخت الكبرى لاجواتي في فراشـها، وفتحت عينيها بكسـلٍ، ثم نظرت إلى النّهر. كانت قد بلغت الثامنة عشر تقريباً من عمرها، وتعلّمت في كلية إيزابيلّا ثوبورن التي ستفتح قريباً بعد العطلة.

ظهر أخوهما هاري شانكار من غرفته في البرج يجرّ شبشبه، وأطلّ على النهر والجسر الذي يربط العالم الخاصّ لهذه الدّار والنّهر بالعالم الخارجيّ الأوسع، الذي ينتمي إليه أيضاً. مدّ يديه وتثاءب، ثمّ تناول منشفةً على كرسيٍّ،واتّجه إلى الحمّام يهمهم بأغنية المطرب باهاري سانيال. خرجت الأخت الصغرى من غرفتها مرتديةً زيّها المدرسيّ: البلوزة البيضاء والسترة

الزّرقاء الدّاكنة والحزام الأحمر. ناولتها جامونا ميهري كأساً من الحليب وتفّاحةً، وإذا بسيّارة المدرسة المارتينية الثانوية للبنات تنفخ البوق. اكتظت السيّارة تقريباً بالبنات الإنجليزيّات ذوات الوجوه الورديّة. طلعت لاجواتي من الشّرفة، فأطلّت مراهقةٌ برأسها المجعّد من السيّارة وصاحت: «أهلاً أختي، سأزورك في المساء».

أتـت جامونـا ميهري بـكأسٍ آخر من الحليـب وموزتين للابـن الوريث هاري شانكار عقب مغادرة السيّارة، فشرب الحليب وقذف الموزتين مندفعاً إلى الخـارج اندفـاع عدّاءٍ يجتـاز كل العقبـات. علّق كتبه وكراريسـه بمقبض درّاجتـه بابتهـاج، وانطلـق في اتّجـاه الجامعة. بـدأت قباب مبانيهـا وأبراجها الفخمة من الحجر الأحمر تنبلج عن ضباب الفجر رويداً رويداً.

31

الأمير غولفام من بادشاه باغ

في المســاء حين اختفت الشــمس وراء أشــجار التفّاح الــوردي، وصلت عربتــي، فيكتوريــا، جســر موتي محــل. في هــذا الوقت كنت أنهــي دروسي في كلّية ماريز للموســيقى الهنديّة، لأجد أحياناً ســائق العربة غانغا دين يســتدير ويسألني: «هل بودّك أن تذهبي إلى فيلا سنغاري والي؟»

مــن هذه النقطة ســأحكي هذه الحكايــة. قالت طلعت وهــي تسرد قصّة أسرتها لزميلاتها ذات مساء في موسم الشتاء، وقد جلسن قبالة مدفأةٍ في شقةٍ بشــارع جانــز وود في لنــدن. حدث ذلك عــام 1954م. بدأت طلعــت: تتعدّد طــرق سرد القصّــة، فكيف لي أن أبدأ؟ لا أدري من هي الشّــخصيات الأكثر أهميــة. من أين انطلقــت الحكاية؟ وما نهايتها؟ من كانــت البطلة؟ كيف كان دورها؟ من كان البطل؟ من هو السامع ومن هو القاصّ؟ كان شقيقي الكبير كمال يقول لي: إنه سيجلس يوماً ما، ويحسم كلّ هذه الأمور، ولكنه لم يستطع حتّى الآن أن يحسم أمره.

نعــم، أودّ أن أذهــب، كنــت أقــول لغانغا دين، فيــدور بعربــة فيكتوريا، ويســير بها في شــارعٍ غير معبّدٍ تفرّع من حيث انتهى الجسر. كان هذا الشارع غير المعبّد يسمّى شارع ضفّة النّهر لإضفاء الفخامة عليه. كان يسوده الهدوء عــادةً، وقد وجدت محرقة الهندوس على بعدٍ منــه، وانعكس على صفحة الماء

القصر الفضّي المعروف بـ«موتي محل»، و«تشاتر منزل» ذو القبّة الذهبيّة، والإمام بارا الخاصّة بالشاه نجف. انساب النّهر بهدوءٍ تحت أدراج تلك البنايات الملكيّة. كان يمرّ فيه زورقٌ بين حينٍ وآخر، فيقطع سكوته السائل الأخضر. كان معبد هانومان تحت الجسر، لذلك امتلأ المكان بالقرود اللّعوبة المقدّسة. وعلى مسافةٍ قصيرةٍ، شُيدت فيلا الكستناء المائي، سميّت بذلك لأبراجها الثّلاثة. هبطت أدراجها كذلك إلى ماء النهر.

ذات مساءٍ عندما وصلتُ إلى فيلا الكستناء المائيّ، ألفيتُ عمّات لاج يفصّلن فستان عرسها. سألتني إحداهن: «متى سيقام زواج أختك؟»

اعتراني الارتباك، لأنّ أمر زواج أختي تهمينة المقبل من ابن عمي عامر رضا تعرّض لبعض المشاكل.

والآن أسلّم دور الحكي لأخي كمال، وهو سيواصل الحكي...، وتولاه كمال للتوّ:

كان السير ذكي رضا، والد عامر رضا ابنَ عم والدي الأكبر، وكان عامر الطّفل الوحيد من أبويه. عقب الحرب العالميّة الأولى، كثر في الهند عدد اللّاجئين من وسط أوروبا وروسيا. والمدام نينا التي هجرت زوجها ووظفت كحاضنة لعامر واحدةً منهم، توفّيت زوجة رضا والدة عامر بعد أشهرٍ قليلةٍ من توظيف نينا كحاضنةٍ. ولم يثر موتها أيّ ريبةٍ بحدوث مؤامرة، إذ إنّ عمّتي فاطمة أيضاً توفّيت بسبب حمّى التيفوئيد. نُقل عامر إلى بيتنا غولفيشان في لكناؤ.

كان في السابعة من عمره ومن الصعب تهدئته والتخفيف من حزنه، لذلك نقله السير ذكي إلى سويسرا لتعليمه هناك، ظنّاً منه أنَّ تبديل البيئة بالكامل سيساعد الطّفل على أن ينسى أمّه. لم يكن مستغرباً أن تستمرّ المدام نينا في الوظيفة، ولكن بصفتها سكرتيرةً للعمّ ذكي في إله آباد. لم يكن ليتزوّج

منها بـأي حالٍ، عـلى الرغم مـن أنّ ثقته بها كانت كبـيرة. كانـت كاثوليكيّةً رومانيّـةً، ولم تتمكّن من الحصول عـلى الطّلاق من زوجها الروسيّ المهجور. كان العـمّ ذكـي يعهـد رعاية أمور البيـت إلى المدام كلّما اتّجـه إلى أوروبا للقاء ابنه. وفي صيف عام 1935م، حين كان في سويسرا، أصابته جلطةٌ قضت عليه. وعقـب وفاته، اختفت المدام نينا بجلّ ما امتلكه عمّي من أشـياء ثمينة في إله آباد، ولم يتمّ العثور عليها قطّ.

عـاد عامر رضا إلى الهند في عام 1936، وقد كبر وغدا شـابّاً فاتناً يبلغ ثماني عـشرة سـنةً من عمره. سـافر أبـواي إلى بومباي لاسـتقباله في ميناء بالارد، وحين وصل إلى بيتنا غولفيشـان احتضنني أنا وطلعت بذراعيه وراح ينشج، كـما قبّل تهمينـة على خدّها مثلـما يفعل الأقـارب في الغـرب، وفوجئ لرؤية الحمرة المتسلّلة إليها حياءً.

على أي حالٍ، صرنا جميعاً شـغوفين به، وبذلنا كلّ ما في وسـعنا لإراحته، كي لا يشعر أبداً أنّه يتيمٌ لا بيت له. في الواقع كان يتيماً وثرياً، فقد كان شريكاً في ملكيّـة حصّـةٍ كبيرةٍ مـن الممتلكات المشـتركة المملوكـة لأسرة رضا. كان يدعـى بهيّا صاحـب أو الأخ الكبير بوصفه كبير أبنـاء الأسرة. أمّا أنا فأدعى بهيّـا فقط. لم يكن للعمّ ذكي شـقيقٌ أو شـقيقةٌ، وقد أغلق بيتـه في إله آباد منذ وقـتٍ طويـلٍ، وانتقل حوذيه غانغـا دين بعربته فيكتوريـا إلى لكناؤ لخدمتنا. عندما انحنى لمس قدميّ عامر، ورجع إلى الوراء بسرعةٍ.

كان قـد ترعـرع في المنـاخ الأوروبي، فبدأ بمـرور الأيام، يتنامى شـعوره بالاغـتراب في البيئة الهنديّـة، ولكن لم يتحدث بذلك قـط، ولم يدرك الأهمية التـي نعلقهـا على العلاقات العائليّة، وفوق كلّ ذلك، لم يسـتطع أن يقبل أمر الزّيجـات المدبـرة. وعندما عرف أنّ أبويه المرحومين حسـما مـع أبويَّ زواجه

مـن تهمينة بعد بلوغهما سـن الـزّواج، أحرجه النّبأ حتـى لم يقوَ على الرفض، ربّما لأنه كان يعيش معنا.

بـدأ ينكمـش تدريجيّاً في قوقعتـه، فقد كانـت الأحداث التـي عانى منها بعـد وفاة أمه وقضائه سـنوات طويلة في منفـاه الأوروبي، واختفاء المدام نينا بثـروات أبيه الذي وثق بها، والآن خطبتـه غير المرغوب فيها، قد جعلته هذه الأمـور كلهـا شـخصاً انطوائيّـاً. بكى بصمتٍ عـلى أبيه الذي دفـن في مقبرة لوثريّةٍ مغطّاةٍ بالثّلوج في جبال الألب.

ذات مـرّةٍ زار عامـرٌ ضريح أمّـه في كليان بور، وبـاح لي بأنّه أدرك كم هو مهـم للمـرء أن يتوفّى في بـلاده، وأن يظفر بقطعة أرضٍ لقبره حتى لا يشـعر بالغربة في الآخرة. كان قد اكتشف عن طريق الأحزان نوعاً من حب الوطن.

انضمّ إلى الكلّية المارتينيّة التي أتعلّم فيها أنا وهاري. لقد أنشأتها مؤسسة القائد كلاودي مارتين الخيريّة في لكناؤ عام 1848 لتعليم الطّلاب الأوروبيّين، وصار يتعلم فيها أولاد الطّبقات العليا الهنديّة كذلك. لم يكن لي شقيق أكبر، لذلك أحببت ابن عمي عامر حبّاً يستأثر به الأبطال، حتّى أنّني كنت أستعمل أشياءه المستخدمة بزهوٍ. كان يتكلّم الإنجليزية بنبرةٍ فرنسيّةٍ فضلاً عن أنه زير نساءٍ بالفطرة. ومع ذلك، فإنّ صديقه الوحيد ونجيّه الموثوق كان الحوذي غانغا دين، ربّما لأن ذلك الخادم المتواضع كان يمثّل صلة الوصل الأخيرة التي تربطه بطفولته وعائلة أبيه المحطّمة.

أدركـت أختي تهمينة أنّه لا يعيرهـا اهتماماً، وقد منعها كبرياؤها أن تبوح له بِما تُكِّنه له من حبٍّ صادقٍ عميقٍ. أليس مقرراً أن يتزوّج منها في المستقبل؟

درسـت تهمينـة في المدرسـة الثّانوية المارتينيّـة للبنات التي تتربّـع على تلّةٍ خضراء عبر النّهر، وقد أقيمت في قصرٍ إنجليزيٍّ كأنّه من العصور الوسطى،

يحيط به خندق، يسمّى «خورشيد منزل»، بناه النّائب سعادت علي خان المستغرب لملكته خورشيد زادي. كنت أرى تهمينة أحياناً تقف أمام إحدى نوافذ القصر، تتحدّث إلى بعض زميلاتها، وقد ذكّرني ذلك كلّه بايرن ووالبر اسكات.

تدرّج عامر رضا في الجامعة، التي اشتهر رحابها ببادشاه باغ أو حديقة الملك، أنشأها الملك ناصر الدين حيدر عام 1828م. واشتهر عامر فيها بـ «شاهزاده غولفام من بادشاه باغ» ويعني الأمير الوسيم في حديقة الملك.

في الحقيقة، لم يكن بالغ الذّكاء، كان كل هدفه أن يصبح أشهر وأبرز طالب في الجامعة، ومع ذلك بقيتُ معجباً به أشدّ الإعجاب إلى أن كبرتُ وحلّ محلّه جواهر لال نهرو.

ثمّ دخلت تشامبا باجي، يعني تشامبا الأخت، المشهد، وعقّدت حياتنا البسيطة. كان عامر رضا خطيب أختي تهمينة ولكنه فُتِنَ بحبّ تشامبا أحمد، وبعد تخرّجه في كلّية كانينج انضمّ عامر إلى البحريّة الهنديّة الملكيّة. بلغ من الأناقة والرّوعة بحيث لم يستطيع أن يعيش مدنيّاً عاديّاً أو تاجراً هنديّاً. فإذا قدّمتَ تشارلز بوير، الممثّل الفرنسيّ في بذلةٍ رسميّةٍ، لا تكون النتائج إلّا مدمّرةً. استجابت تشامبا أيضاً لمفاتحاته اللّطيفة، وتدريجيّاً، تعمّق الحبّ لدى الطّرفين. وكلّما أتوا على ذكرها الآن، ضحكت تهمينة ضحكةً جوفاء، وارتسمت على وجه هاري شانكار الغباوة، إذ كان يشعل السيجارة، وهكذا أضحت تشامبا باجي دخيلةً علينا.

كان هاري هذا نذلاً، فهو كان على علم بحبّي لتشامبا منذ الطّفولة. كان يحرّض عامر في الخفاء: «لقد حقّقت انتصاراً يا سيّدي، ولكن يوجد أشخاصٌ أعرفهم يظنّون أنهم يستطيعون جذب انتباه تشامبا باجي»، ثمّ

ينطلق ليعلن له بإخلاصٍ أنّ الفتيات مثل تشـامبا يملأن الجامعة، ولا يمكن مقارنتهـنّ بتهمينـة. كانَ هـاري قلقاً بشـأن تهمينـة التي أصبحـت أخته على رباط «راكهي»، وهو سوار من الخيط تربطه الأخت على معصم أخيها دعاءً لأمانـه. والواقـع أنّ كلينـا أنا وهاري ننحـدر من الرّيف، حيـث لم تزل هذه التقاليد والقيم العتيقة قوية جداً.

لم تكـن تشـامبا مـن فئتنا، فقـد كنّا ننحـدر من خلفيّـةٍ واحـدةٍ. ارتبطت عائلة هاري شـانكار وعائلتـي بصداقة قويّةٍ منذ أجيالٍ، أمّا تشـامبا فتنحدر من بنـاراس، انضمّت لكلّيـة إيزابيلا ثوبورن في البكالوريـوس عام 1941م. تخرّجت تهمينة بدرجة الماجستير عام 1944م، وفي صيف ذلك العام المشؤوم ألغيت خطبتها الممتدّة منذ صباها لعامر.

هل يسـعني يا ترى أن أرسـم لكم صورةً كاملةً عـن الزّمن الذي وقعت فيـه كلّ تلك الأحـداث؟ ثمّة أشـياءٌ كثـيرةٌ..... البناية الملكيّة قـرب البوّابة في حديقـة الملك التي تحولـت إلى مكتب بريد الجامعة.... مرور البسـتانيّات بخلاخيلهـّن المجلجلة. عاشـت الملكة قدسـيّة محل في بادشـاه بـاغ، وحملت بستانيتها مسحاة مقبضها مرصع.

وقد قال مير[1]:

سألتُ كم للوردة من البقاء؟
فاستمعت البراعم وتبسّمت.

اعذروني على انحرافي عن الموضوع. أين كنتُ؟ كنت أحدّثكم عن حفلة التّخرج. كما ترون ليس بوسع أحدٍ أن ينقل إلى المستمعين فضاء بيئةٍ معيّنةٍ

(1) الشاعر الأردي الشهير مير تقي مير (1722–1810) أحد الشعراء الأربع الأعلام بالأردية.

بكلّ ملابساتها وتفاصيلها وإيحاءاتها، فلا فنّانَ ولا رسّامَ ولا كاتبَ يستطيع أن يقوم بذلك. أودّ جذب انتباهكم إلى هذه التّفاصيل مثلاً: أضيئت مشكاةٌ عاديّةٌ في اللّيالي في كوّةٍ بوّابة بادشاه باغ..... تلتقط عجوزٌ ترتدي «لهانغا»، أحد أنماط لباس المرأة، أحمر فاكهة التّمر الهنديّ من شارع فيض آباد، ودهسها قطارٌ عابرٌ قرب تقاطع السكك الحديديّة..... يشبه نورعلي طبّاخنا السّابق علي بابا، وكان ينشد قصيدة *خلف باري* رغم أنّه لم يكن مثقفاً.

هـا أنا جالسٌ في شرفةٍ مرتفعة في قاعة بينيـت، أبثّ لكم مباشرةً أحداث حفلة التّخرج.... كانت المعاشب الخضراء محاطةً بسياج أزهار القنا الصّفراء والحمراء. اختلطت ظلال المباني من الحجر الأحمر، وملابس الساري الملوّنة، والفسـاتين المطرّزة بالخيوط الذهبيّة التي ارتدتها المدرّسـات، وذابت كلّها في ضوء الشّمس الضبابيّ. إنّ الوقت يطير، يمكنني أن أسمع حفيف جناحيه.

شـغّل الفتى المسـؤول عن سـجلّات الموسـيقى، أغنيـةً سـينمائيّةً جديدةً لباهاري سـانوال وبثهـا عبر مكبّر الصـوت. «*من الذي أسـمع دويّ صوته هنـا في أعـماق قلبـي والرّكب على وشـك الرّحيـل*». بُثت هـذه الأغنية على وجه التحديد تكريماً للمطرب والممثّل الشـهير مـن كلكتا. جلس في الصف الأوّل مرتديـاً قميصاً حريريـاً ومئزراً أبيض بنغالي التصميـم. وبينما انغمس في الحديث إلى أصدقائه من هيئة تدريس كلية ماريز، رحت أسمع الأغنية:

ما هذه الأصوات التي تصل
إلى آذان القلب ساعة الرحيل.

تتابعـت قوافل الشـباب المتفائلين ليتسـلموا شـهاداتهم قبـل أن يدخلوا أسواق الحياة.

والآن أسلّم الميكروفون لصاحبي هاري شانكار:... ألو... ألو.... ما أخبارك؟... ألو... ألو... ارفع صوتك...

يردّ هاري شانكار: «ألو... أنا هاري شانكار.... هاري شانكار رائي زادا، مثيل كمال وذاته الثانية، الأخ الوحيد للاجوات ونيرمالا وعميل الأخت تشامبا، ولكن تكمن في داخلي شخصيّةٌ هامّةٌ تتداول أدواراً كثيرةً... كيف أستهلّ ومن أين أدخل؟ كلّ هذه الأمور مذهلةً للغاية».

توافد الخرّيجون الجدد من كلية إيزابيلا ثوبورن، يتقدّمهم عميدهم وهيئة التدريس الأمريكيّة. لبسوا القبّعات والعباءات وفي الواقع كانوا جميعاً يشعون أناقة.

حضر الرّئيس الجديد حبيب الله، يرافقه الأساتذة الكبار، الّذين باتوا بالفعل أساطير حيّة في الأوساط الأدبيّة الهنديّة.

أمام عيني، واصل هاري شانكار، مشهد حفلة التخرج، يغمره شعاعٌ لطيفٌ ينبثق من شمس الشّتاء. تألّقت تهمينة بقبّعتها وفستانها. قريباً سيحلّ المساء، وستتوجّه الفتيات باختيالٍ إلى شارع حضرت غنج لالتقاط صور في استوديو «سي. مالز». كان هذا الطقس أيضاً أحد الطقوس السنويّة، ففي كلّ سنةٍ، تزحف حشودٌ من المتخرّجات إلى هذا الاستوديو حيث تلتقط صور لهن. وعلى مدار السّنة، يظهر السيّد سي. مال الطّويل الوسيم واقفاً عند مدخل الاستوديو، مرتدياً بذلته السوداء بأناقته المعهودة، على ياقته زهرة قرنفل. كان يقف في بوّابته الزجاجيّة بهيئةٍ توحي بمظهر الاستوديو في باريس، ولعلمك فإن لكناؤ كانت تسمى باريس الهند، كما أن استوديو مالز قدّم في الماضي وايتويز (Whiteways) في شارع حضرت غنج، مأوى بيجوم حضرت محل سابقاً.

تهمينة أخت كمال كانت صديقة أختي لاجوات الحميمة. وحدث أن تآمرتا مع بعضهما أحياناً لإحراجنا وتعذيبنا بطلباتٍ متنوّعةٍ: «الله! يا أخي هاري شانكار، أرجوك أن تحصل لنا على تذاكر عرض رقص «سادانا بوس» في معرض «مايفير».... من فضلك خذنا للتنزّه على جسر واترلو... الرّجاء تحديث بطاقتي المكتبيّة....».

أذكر أنّني كنت ذات مساءٍ على وشك المغادرة متّجهاً إلى حضرت غنج، فرأيتهما رابضتين في شرفةٍ مطلّةٍ على النهر. لاحظتاني كذلك، فصاحت إحداهما فوراً: «مرحباً هاري، امض بنا لنتجوّل. نودّ أن نتفرّج على مصابيح الغاز»، فأجبت صارخاً:

«دعك من هذا، فأنا على موعدٍ هامٍّ في المقهى، ولا بدّ من الوفاء به». وأضافت لاج: «لا تنس أيضاً إحضار الساري الورديّ من عند الصباغ، ليس عليك إلّا أن تنعطف في طريقك إلى أمين آباد».

ركبت درّاجتي وإذا بي يتملّكني إحساسٌ بالحزن. فجلوسهما على درابزين، وأقدامهما متدلية، ينبئ بالهشاشة والعجز رغم التّظاهر بالشجاعة والتمسّك بمظهر المرأة الجديدة. صاحت تهمينة عاتبةً:

«هيّا اصرخ في وجهها. هذه المسكينة ليست إلّا ضيفة في بيتك لشهرين آخرين فقط». ثمّ انفجرت بشكلٍ مأساويٍّ تنشد أغنية زفافٍ نظمها أمير خسرو[1]:

«لماذا زَوَّجتني في أرضٍ أجنبيّةٍ أيا أبي!»

منذ ستّة قرونٍ ماضيةٍ، كان النّاس يتغنّون بهذه الأنشودة الحزينة في شرق

(1) أمير خسرو الشاعر الصوفي والموسيقار البارع من القرن الرابع عشر، كان قد تتلمذ على أيدي نظام الدين أولياء الصوفي الراعي لدلهي.

الهند وقت مغادرة العروس بيت أبيها. استمرّت تهمينة في الإنشاد: «يا أبي نحن طيورٌ في فناء بيتك، وسنسافر إلى البعيد... ونحن بقراتٌ في حقلك، نهجره حين تقرّر أنت...».

مسحت لاجوات دمعةً.

«يا أبي! منحتَ أخانا قصراً من طابقين ومنحتني مكاناً لا أُنس فيه».

أسرعُت إلى قيادة درّاجتي هرباً من العواطف التي داهمتني أنا أيضاً، لاحقتني الأنشودة إلى أن غادرت الباب. ربّما كانت تهمينة تفكّر بمستقبلها المحفوف باللايقين بسبب اقتحام تشامبا باجي المفاجئ حياة خطيبها.

تزوّجت لاج عام 1943م، وسافرت إلى دلهي. وبقينا نضطلع بشؤون تهمينة وطلعت ونيرمالا.

كثيراً ما كانت طلعت تزور بيتنا مساء، حين تنصرف من كلّية ماريز. جالساً قرب نافذة غرفتي في البرج أراقب عربتها تهبط المنحدر، وفي مثل تلك اللّحظة بالذّات، كان كلّ شيءٍ يبدو هادئاً يخيم عليه صمت مطبق، يتّسم بالحزن ويفوح بالعطر. كنت أصغي لموسيقى النّهر الصامت وقلبي يملؤه الحزن. لقد وصف مير أنيس[1] الوقت البنفسجيّ بأنّه الوقت الذي يتوقّف فيه النّهر عن الجريان.

«الوقت وقت الغروب وقد توقف النّهر المنساب».

كان كمال، ذاتي الثانية، يخبرني في بعض الأحيان أنّ ساعة الغروب تجعله هوِ الآخر يشعر بالاكتئاب، إذ كان يعاني من حساسيّة مفرطة. كما أن إفراط الجمال يزيده توتّراً، كنت أعرف ماذا يقصد بذلك.

---

(1) الشاعر الأردي الشهير (1805–1874م).

استأنف كمال حديثه: عند عودتنا إلى لكناؤ من رحلتنا الترفيهية، توقّف القطار أوّلاً في محطّة سانديلا القريبة من لكناؤ في صباحٍ باكرٍ باردٍ يغلّفه الضّباب، ووصلت إلينا أصوات بائعين مألوفة يبيعون حلوى لادّو المشهورة من سنديلا. وثمة رجالٌ من الأرياف يرتدون سراويل فضفاضةً، ومآزر بيضاء نقيّةً، وستراتٍ بيضاء، وقبّعاتٍ ذات طبقتين، يتجوّلون في انتظار القطار التالي. كان الرّصيف مفروشاً بالحصباء الحمراء النّاصعة من الآجر الطينيّ عالي الجودة. وثمة محفّاتٌ عديدةٌ مصطفّة في انتظار السيّدات المحجّبات بشكلٍ دائم. وقد أحيطت المحطّة بأشجار مزهرة وحدائق أشجار المانجو، التي تبعث هدوءاً تامّاً لا يقطعه إلّا صياح بائعي لادّو.

في يوليـو - يوليو من عام 1944م حين كنّا ننصرف من موسـوري، توقّف القطـار في محطّـة سـانديلا كالعـادة، فدلـف بائـع لادّو إلى نافـذ المقصـورة: «سيّدي، هذه الحلويات في انتظار أن يتذوقّها سيادتك».

«هل هي طازجة»، سأل هاري شانكار في محاولةٍ لمضايقته.

«أقسم بشرفي يا سيّدي، فهذه سانديلا». أجاب البائع باعتزازٍ يخيّل إليك كأنّها الجنّة. اشترينا منه وعاءً فخّاريّاً مغطى بمناديل ورقيّة حمراء.... ثم تحرّك القطـار. كانـت عروسٌ قرويّةٌ تسـير ببـطءٍ إلى باب المحطّة تبكـي بحرقة، في حين بدا عريسـها مبتسـماً، يرتدي لباسـاً أصفر كصفرة الكركم، يتبعه حشدٌ من مرافقيه المرحين. همهم هاري شانكار مفكّراً:

«آمل أن يتمّ زواج نيرمالا قريباً مثل زواج لاج». لقد تسلمت الآن مهمّة لاج، وراحـت تمطـره بوابل من النصائـح: لا تلاحق البنـات، لا تدخّن، لا تفعل هذا ولا تفعل ذاك وهلمّ جرّاً.

فأنّبته قائلاً: «لا بد أن تخجل من نفسك. تتمنّى أن تبتعد نيرمال أيضاً

عنك عاجلاً لكي تتمتّع أنت بحياتك دون أن يراقبك أو يمنعك أحد».

فقال هاري شانكار: «لدينا اعتقادٌ شعبيٌّ قديمٌ بأنّ من يقف تحت شجرةٍ بمنتصف اللّيل أو النّهار تتملّكه روحٌ تسكن تلك الشجرة. وثمة اعتقادٌ شعبيٌّ آخر شائعٌ بين المسلمين أنّ رجلاً حسن المظهر قد تمسّه الجنيّة فيفقد صوابه، وأيضاً إن صعدت فتاة عذراء إلى السّقف لتجفيف شعرها بعد الاستحمام قد يغرم بها جنيٌّ ضالٌّ ويستحوذ عليها».

جاء في أوبرا «إيندرا سابها» الأرديّة التي ألّفها آغا حسن أمانت، أنه بينما كان أمير الهند «غـولفام» نائماً على سقف قصره الواقع في أختر ناغار، الاسم الأدبي لمدينة لكناؤ، عاصمة واجد علي شاه «أختر»، مرّت به حورية خضراء من بـلاط الملك إيندرا السماوي. عشـقت الحورية الأمير غــولفام وأمرت باختطافه، فاستشاط الملك إندرا غضباً، وطردها من بلاطه، وألقي الأمير في بئر على جبال القوقاز. لبسـت الحورية ثوباً مُمَغَّراً، وتحولت إلى ناسكة. كانت نهاية الأوبيرا سعيدة.

لقـد مثّـل واجـد علي شـاه بنفسـه دورَ الملـك إنـدرا. وبعدئذٍ بـدأ يُطلق مصطلح «غــولفام» على كلّ شاب فحلٍ وسـيم، أي «وردي الوجه». سمّي ابن عمي عامر أيضاً «أمير غـولفام من بادشاه باغ» أو «غـولفام غولفيشان».

لعب عامر التّنس مقابل كبار اللاعبين في الهند مثل غوث محمد والسـيّدة خانـم حاجـي، وأصبـح قائد نادي الـزوارق، كما انضـمّ إلى الكتلـة المتقدّمة فـترة وجيـزة. كان يبحـث عن دعم عاطفـيٍّ وربّما وجده لدى تشـامبا أحمد، إذ سِرعان ما شـاع في المقهى الهنديّ في حضرت غنج أن الحورية الخضراء قد اختطفت غـولفام.

من هنا تولّى كمال مهمّة السرد: عذراً، كنت أحدّثكم عن عامر وتهمينة.

لقد استدعيت أنا وهاري على عجل من موسوري إلى البيت لإقناع تهمينة بالقبول. كان قطار «دون» السّريع يمر بضواحي مدينة لكناؤ، لقد تمدّدت منطقة عالم باغ واسعة الأطراف خارج القطار العابر، وتلألأت خطوط السكك الحديديّة في المطر. دخل القطار محطّة تشاد باغ، وكان قلبي ينقبض قليلاً كلّما دخل القطار تشاد باغ – لقد وصلنا إلى المنزل.

قال هاري شانكار من مقعده: «لدينا موعد تدريبٍ في محطّة الإذاعة غداً. اذهب إلى سكن الأخت تشامبا وأعطها النّص». بعد هنيهةٍ من الصمت تساءل: «ما الّذي جعل تهمينة تفعل ذلك؟ أعني لماذا رفضت أن تتزوج «الأخ الكبير»؟»

نظرت إليه بغضب. كان كلّ ما يجول في خاطري يصل إلى ذهنه بشكلٍ من أشكال التّخاطر. لم أستطع أن أتخلّص من هذا الرجل بأيّ طريقةٍ. كان هو ذاتي الثّانية غير المرئيّة.... كان قريني. لقد انقبض قلبي.

كان قدير ينتظرنا في سيارتي في الرّواق. أنزلت هاري في فيلا الكستناء المائيّ واتّجهت إلى بيتي.

خيّم الصّمت وكأنّ شمعة الذّاكرة قد انطفأت. انزاح الظّلام شيئاً فشيئاً، وعاد كمال ليتحدّث: وصلت إلى غولفيشان ورحت أتنقل من غرفةٍ إلى أخرى في ذلك البيت الغارق في صمتٍ غريبٍ، وأنا أتخبط. لم أدر كيف أسأل تهمينة عن سبب رفضها، فقد كنت أعرف السّبب مثل الآخرين.

أمسكت بالنصّ الإذاعيّ وذهبت إلى سكن الأخت تشامبا في تشاند باغ. وجدتها جالسةً في معشبٍ صغيرٍ تحت مظلّة الحديقة، في حين جلس ابن عمّي عامر على كرسيٍّ من الخيزران، حين رآني هبّ واقفاً على قدميه.

«أهلاً كمال. متى وصلت؟»

«للتوّ....».

«عليّ الإسراع... لا بد لي من الوصول إلى مكانٍ ما». اندفع بسرعةٍ إلى الباب، ثم ركب سيّارته الرياضيّة الحمراء وغادر. بدا مصدوماً. لا بدّ أن أمراً رهيباً قد حدث في غولفيشان.

جلستُ مرتبكاً: «أختي هذا دورك». سلّمت لها أوراق البرنامج الجامعيّ الفكاهي «هاوابور» الذي كنّا نكتبه ونذيعه بين حينٍ وآخر من محطّة الإذاعة لعموم الهند، بفرع لكناؤ.

«ومن جاء بهذا العنوان؟» سألت بنزقٍ.

«طلعت، تلك الكاتبة الواعدة في إطارها المحليّ كما تعرفين».

«ملائم جدّاً! أنتم هوائيّون»، قالت متهكمةً.

«تعنين ثرثارين يا سيّدتي!»

«حسناً، أنا لا أتقن الإنجليزيّة، فلم أدرس في المدرسة اللامارتينيّة. إلى جانب ذلك، أنتم جميعاً تؤمنون بتفوقّكم على الجميع، أليس كذلك؟ تلقّيت هذه العبارة من الأعلام مثلكم».

واصلت كلامها بإنجليزيّتها الهنديّة. كانت حانقةً، فلم يسعني إلّا أن أودّعها.

بثت الإذاعة أغنية غيان فاتي باهتناغار، صديقة طلعت. تدفّق صوتها خارج البيت، وتموّج في ضوء الشمس. هل ما زال في الحياة شيءٌ من اليقين والهدوء ونوعٌ من الأمل؟

استأنفت طلعت الحديث من حيث تركته: هبطت العربة المنحدر، ثم سارت على الدرب الترابيّ، ودخلت رحاب فيلا الكستناء المائيّ. توقّفت قليلاً ثم قالت لكمال: «ألا ترى أنّ هذا كلّه بلا جدوى. ماضيّ الشخصيّ لا

يهم أحداً سواي. ولا ينبغي أن يكون للآخرين أي شأن به».

«مثل اللّصوص المؤمنين، دعونا آلهتنا ولكنّهم خذلونا».

أُغلق مطبخ لصوصنا، فحاولتُ الدّخول بحذرٍ إلى ملتقى الضّوء والظلام، أفكّر بمسمّياتٍ جديدةٍ لمصطلحاتٍ مثل الإله المهندس المعماريّ الذهبيّ بارجا باتي، أو مثل آدم وحوّاء. شارك كمال في الحديث رافعاً وجهه:

والآن غدوت لا أذكر شيئاً. تطفو السنوات الماضية أمامي كفقاعات الصابون. تتألّق الأضواء ليلاً على الطّريق الممتلئة بماء الأمطار، ويمرّ القمر فوق المداخن النّائمة منزلقاً إلى البحر. تصفر الريح العاتية منتشيةً في القفار الجنوبيّة، وتحوم طيور اللّيل على المياه الهادئة الدّسمة في الموانئ المتموّجة.

تمر الحشود، وتبحر الزّوارق في الأنهار المعتمة، وأنا على الشّاطئ.

يجب أن أبحث عن سفينةٍ، سفينةٍ انطفأت مصابيحها، تستعدّ لاقتحام البحر القاتم بهدوءٍ، سفينةٍ تتّجه إلى مكانٍ يغمرني فيه شعورٌ باطنيٌّ أنّه لا يوجد شخصٌ قد يقول لي: مرحباً بك في بيتك يا كمال رضا...!

32

رشاش الورد

مدينة لكناؤ، يوليو 1939.

أضـاءت المصابيح القوارب العابرة تحت الجسر. كانت طلعت ونيرمالا في تلك اللحظة تناقشـان دروسهما الموسيقيّة جالستين في رواق فيلا الكستناء المائي. الأسـتاذ سـورج بخش أوشك على الحضور، ولكن نيرمالا لم تنته بعد من التمرين على لحنها «لكشـان»، وبينما هما على هذا الحال وإذا بـ تريلوشـان يصعد إليهما ليخبرهما بقدوم الأستاذ: «لقد وصل الأستاذ الكفيف».

تسلّق الأستاذ سورج بخش الدّرجات بخطىً ثابتةٍ واثقةٍ. كان شابّاً كفيفاً تخـرّج في كلّية ماريز، يرتدي دائماً معطفاً ذا مربّعاتٍ. يقطع الطريق من بارود خانة إلى دار نيرمالا لإعطاء محاضرته سيراً على قدميه. حين يمشي يحرّك رأسه من جانب إلى آخر بشـكلٍ يوهم أنّه يشـاهد مناظر متواريةٍ عن العيون. دخل الرّدهـة فانحنت نيرمـالا للمس قدميه، وهي عادةٌ يمارسـها صغار الهندوس تحيـة لكبارهم وإجلالاً لهم. اسـتفسر من طلعت بلطفٍ عـمّا تعلّمته في ذلك المسـاء في مدرسة تعليم الموسـيقى. أجابت طلعت عن استفساره، وودّعتهما متمنيّةً لهما ليلةً سعيدةً، ثم نزلت الدّرجات.

وجـدت غانغا دين جالسـاً على المصطبة يدخّـن لفّة من التّبغ والسّـعادة تغمره. نبذ عقب سيجارته بعد أن دخنها، ثم قفز إلى مقعد السائق في عربته،

وعندما عبرت العربة البوّابة، تناهى إلى مسمعها صوت نيرمالا وصوت الأستاذ سورج بخش يتصاعدان بالتناوب، ويخترقان صمت المساء. كررا -أي الأستاذ والتلميذة - الفقرة «آد أننت، آنت، نيت»». (وترالألحان) كم هي سرمديّةٌ أسرار الصوت!.

تقع فيلا غولفيشان في منتصف الطّريق بين إزابيلا ثوبورن وكرامت حسين. غُرِسَتْ في حديقتها الأزهار، وأطلق عليها اسم غولفيشان بالفارسيّة ويعني رشّاش الورد.

انسابت قناةٌ صغيرةٌ بمحاذاة سياج الرّحاب بدءاً من المدخل الأمامي وصولاً إلى الحديقة الخلفيّة، حيث التحقت بحجيرةٍ إسمنتيّةٍ احتضنت محرّك بئر الأنبوب. وعلى مقربةٍ منها يقع بيتُ الدمى، المبني من الآجر أصلاً لتهمينة التي باتت تحمل شهادة البكالوريوس. ورثته عنها طلعت، وقد بقي شامخاً رغم محاولات المشاغبين كمال وهاري لتحطيمه. منذ عهدٍ قريب توقّفت طلعت ونيرمالا عن اللّعب بالدّمى، وعندما كانتا تلعبان لعبة «بيت - بيت»، تجيء دمى نيرمالا كالضّيوف. وفي المرّة الأخيرة حين أقامت طلعت حفلة «هوند كوليا»، هاجمها الشّريران ودمّرا الموقد الصغير، فحطّما القدور والمقالي المصغّرة. «لماذا دمّرتما مطبخي؟»، سألت طلعت بعينيها الدامعتين، فأجاب هاري:

«لمجرّد المتعة!»

«أنتما أيّها الشقيّان! أما تستحيان من إرهاب البنات الصغيرات العاجزات؟» اندفعت تهمينة إلى الخارج صارخة وراحت تطاردهما، وهي تحمل مضرب الهوكي في يدها.

ركض التلميذان وهما يضحكان بصوت مرتفع. لقد أفسد كمال وهاري

بسبب حب أمّهما الشديد لهما، فأصبح يخيّل إليهما أنهما يملكان الدّنيا. كانا يسطوان على بساتين الجوّافة، فيرسل أبواهما المحبّان تعويضاً إلى ملّاكها في اليوم التالي. وذات ليلةٍ، نزعا لوحات الأسماء القابلة للفصل عند مداخل الفيلّات المجاورة، ووضعاها على مداخل لا تمتّ إليها بصلةٍ. وفي أحد الأيام انطلقا للنزهة على ظهر جمل. أما الآن وقد انضمّا إلى الجامعة فإن روحيهما المائجتين بالحماس وجدتا فرصةً في شكل حركة الاستقلال «انقلاب زندا باد» أوليحيى الانقلاب.

دخلت العربة فيكتوريا رواق غولفيشان، فأسرع خادمٌ إليها، وحمل دفّ طلعت إلى الداخل. جلس كمال خلف الرّدهة منكبّاً على إتمام واجبه المنزليّ المدرسيّ، في حين جلست بيجوم رضا وسلفتها الأرملة القرفصاء على سرير الصلاة تحت قوسٍ بين العمودين، تسبّحان بالمسبحة. صفت جرار المياه المكلّلة بالياسمين على حواملها في ناحيةٍ. لم تكن الثّلاجات قد وصلت إلى معظم البيوت الهنديّة آنذاك. مرّت تهمينة على الممرّ الذي يربط الدار بحجرة المؤونة والمطبخ، يتبعها حسيني الطبّاخ، يحمل سطلاً خشبيّاً من البوظة.

اكتسى المشهد المنزليّ ملمحاً هادئاً. كان كمال أيضاً صامتاً على غير عادته مركزاً في دروسه الرياضيّة. اقتربت طلعت منه وسألته بتردّدٍ: «تبدو جدّيّاً للغاية، ما الّذي يشغلك؟»

«اغربي عن وجهي»، صاح كمال.

وبّختها أمّها: «دعيه يدرس».

«نعم! وأحضري لي قليلاً من الآيس كريم»، أمر كمال شقيقته.

دخلت عربة تانغا يجرّها حصانٌ إلى الرواق، وزحفت مجموعةٌ من أبناء

العمومـة المسـافرين بحقائبهـم. تتابعت تحيّات مشـبعةٌ بالـسرور، ثم اتّجهوا جميعاً إلى غرفة الطّعام. سيخلدون إلى النوم بعد الطعام في الخارج، السيّدات في الرّدهة الخلفيّة، والرّجال في المعشـب الأماميّ، كلّهم داخل الناموسـيّات البيضاء. توضع القلل المغطّاة بالكؤوس المرادابادية من مدينة هنديّة مشهورة بتصنيع الإناء بجانب كلّ سريرٍ. وإن أمطرت السّماء فسينبري الخدّام في حمل الأسرّة والفرش إلى الرّدهات.

كانت الحياة وديعةً آمنةً، لا تشوبها أوجه اللّايقين.

ظلّ الأقارب يتردّدون إلينا طوال الوقت، وأحياناً يمكثون معنا لشـهورٍ. في نهاية المعشـب الخلفي انتصب كوخٌ صغيرٌ أنيق، يسـكنه السّـائق قدير مع زوجتـه، وبمحاذاته امتدّت مبـان خارجيّةٍ يقيم فيها الطّباخ، والسـلاحدار، وسـائس الخيـول، والبسـتاني، والوصيفات مـن مختلف الأعـمار والأطوار. وكانت منطقة الخدم مفصولة بأشـجار التّوت. كان البسـتانيّ رام أوتار يعلّق منجله في بعض الأحيان بجذع أحد الأشجار، ويحملق في السماء متأمّلاً، كما كان يحدث أصواتاً غريبةً من حلقه لتخويف الببغاوات وإبعادها عن أشجار المانجو والجوّافة.

عـاش عامل النظافة خـارج الفيلا في الجانب الخلفيّ منهـا، وتراءى محلّ بائع أوراق التنبول والمعبد على مسافةٍ. كانت الطّالبات المسيحيّات من أصل هنـدي مـن كلّية إيزابيلا ثوبورن يـزرن بيوت عمّال النظافـة كلّ صباح أحدٍ، ويوزّعـن الحلويـات والصّور المقدّسـة، وينشـدن الترانيم الميثوديّـة بالأرديّة بألحـان إنجليزيـة. تكاثـرت الفيـلات مثـل غولفيشـان في أسـفل الشـارع، عاش أناس من النمط ذاته في غاية الأناقة. اقتنى كلٌّ منهم سـيّارةً، ودرّسـوا بناتهـم في المدارس التبشـيريّة وكلية إيزابيّـلا ثوبورن، في حـين جاهد بنوهم

لاجتياز اختباراتٍ تنافسيّةٍ، تؤهّلهم للانضمام إلى سلك الخدمات التعاقديّة الإمبراطورية.

وبينما سمّي طباخ غولفيشان «حسيني»، معظم الطبّاخين يسمّون بهذا الاسم، أطلق على عمال النظافة اسم «ناثو»، في حين كان السلاحدار يلقّب بـ«عبدل»، والسائس بـ«غانغا دين». عُرف الكمانيّون في المقاهي اللّيلية بـ«طوني»، وحمل الآباء أسماء مثل: «سيّد تقي رضا»، أو «آفتاب تشاند راي زادا». (كلّ الآباء سواءٌ في الحكايات أو في الحياة، يقولون إنّ الحكايات تعكس حياتنا، لهذا السبب يمكن اطلاق قصصٍ خياليّةٍ لا حصر لها، أليس كذلك؟)

ينحدر السّائق قدير من مقاطعة ميرزا فور في أقصى الشّرق. راودته يوماً فكرة شراء كاميرا، فاشترى عدداً كبيراً من مجلّات التصوير الإنجليزيّة، وظلّ يضايق الجميع في غولفيشان ليقرأوا عليه قائمة الأسعار. كان في قرارة نفسه يطمح إلى شراء كاميرا، فادخر من أجل هذا الهدف بانتظامٍ طيلة سنوات، وقد تمكّن من ذلك أخيراً في أحد الأيّام، فاشترى بمائةٍ وخمسين روبيّةٍ كاميرا إلى جانب حامل ثلاثيّ، وستارة خلفية، وأجهزة أخرى، ثم أنشأ مع زوجته استوديو صغيراً في فنائه الذي يحيط به سياج من البامبو، وراح يصور بكثرة؛ التقط صوراً لا حصر لها لتهمينة وعامر وكمال وطلعت وكلّ من كان في غولفيشان بما في ذلك القطّ. كان ذا نزعة رومانسية، ولم يكن أحدٌ يجرؤ على معارضة آرائه: عزفت تهمينة على القيثار في خلفيّةٍ جرى فيها طلاء قصرٍ، وظهر كمال بشكلٍ رديءٍ بجانب الطّاووس والإوزّ والنّافورة... كانت تهمينة غارقةً في التفكير تمسك بقلم.... في حين كان كمال يقف بجوائزه وكؤوسه التي فاز بها في مناقشات الكلّية.... بدا عامر أنيقاً وهو يمسك

بمضرب التّنس... تستند الأمّ والعمّة زبيدة إلى الأرائك.... وتبدو لاج ونيرمالا في ثياب رادها وكريشنا.... انكبّ هاري شانكار بوقارٍ على كتابٍ سميكٍ..

كانت كلفة هذه الصّور، التي هي بحجم بطاقة البريد، قرابة خمس آنات (تتكون الروبية الواحدة من ست عشرة آنة)، اشتراها منه أصحابها بثلاثة أضعافها. قضى الزوجان أوقات فراغهما في غرفةٍ معتمةٍ من دارهما. وفي أحد أيّام الصّيف الحارّة عندما غرق الجميع في النّوم، تصاعد صوت قدير من كوخه يغنّي أغنية هندية فلكلورية. وبينما كان يدقّ جردلاً خالياً من البنزين، وهو جالس على عتبة الغرفة، يغنّي بطربٍ، كانت زوجته قمر تحيك الكروشيه رابضةً في زاويةٍ. وما إن لمحت أحداً يهبط من الفيلا إليهما حتّى غطّت وجهها بلباسها، الساري، فربّما يكون الزائر رجلاً، وبدأت تجهّز ورقةً من التنبول لضيافة الزائر. كانت جميلةً وجذّابةً، تنحدر من شرقيّ ولاية أترا براديش، المقاطعة نفسها التي تنتمي إليها أمّ نيرمالا. كانت أحياناً تدعى إلى فيلا الكستناء المائيّ، وكلّما زارت السيّدة رائي زادا فيلا غولفيشان، تستدعي قمر النساء إليها، فكانت تصعد إلى الشّرفة برشاقةٍ مرتديةً سارياً قطنياً خشناً، وتعلن خلاخيلها الفضيّة من بعدٍ عن قدومها. كانتا - السيدة رائي زادا وقمر النساء - تمضيان ساعاتٍ طويلةً تتحدّثان بسعادة بلهجتهما المحليّةُ من شرق الهند.

كان قدير وقمر النساء من أولاد الفلّاحين، وقبل أن يصبح قدير سائقاً، كان عضواً متحمّساً لاتّحاد الفلاحين، يدعو إلى استخدام عجلة الغزل في القرى. في ذلك الحين، كان جواهر لال نهرو خرّيج كامبردج، ابن موتي لال منكبّاً على اجتثاث النّظام الإقطاعيّ، وقد انتقل من قريةٍ إلى أخرى يخاطب

الجماهير. من أدرى بمساوئ النظام الإقطاعي من قديرٍ الذي تكبّد مرارته لسنواتٍ؟

لذا حين انغمس كمال وأصحابه في نقاشاتٍ موسّعةٍ على معشب غولفيشان، حاول أن يظلّ قريباً منهم متذرّعاً بحيلة ضبط المروحة المنضديّة حيناً، أو تقديم المشروبات الباردة حيناً آخر، لكي يستطيع التوصّل إلى كنه تلك النّقاشات المتعمّقة. قتل أباه رجالُ الإقطاعيّ ضرباً حين عجز عن تسديد ضرائب الأرض التي حدّدها اللورد كورنواليز وفق نظام ثابتٍ قبل مائةٍ وخمسين عاماً، وطُردَ من بقي من أسرته من قطعة الأرض تلك، فسافر قديرٌ إلى كلكتا مضطراً حيث توظّف عاملَ تنظيف في مرآبٍ للسّيارات، وظفر لاحقاً بوظيفة سائقٍ، في حين ظلّت عائلته في القرية تعاني من الجوع.

أطلق حزب المؤتمر الوطني حركة «لا ضريبة»، التي انتشرت في الأرياف كالنّار في الهشيم. وتحزّب الإقطاعيّون وملّاك الأراضي مع الحكومة ضد الفلّاحين وحزب المؤتمر. لم يستطع قديرٌ فهم ما كان يجري في المدن. أكّد كمال ورفاقه أن السّبب الحقيقيّ لاضطراب النّاس وانتشار الانحلال بينهم هو الوضع الاقتصاديّ السائد، على الرغم من أن الحكومية أضفت عليه صبغة الصّراع الطائفيّ بين الهندوس والمسلمين سعياً لإلهاء الجماهير عن السّبب الجذريّ، وتبيّن قديرٌ ما كان يجري.

كانت قمر النساء تأتي إلى الفيلا، وهي تحمل ابنها الصّغير إلى جانبها، وتنضمّ إلى جلسة البقبقة الخافتة الطّويلة في غرفة بيجوم، حيث تتمدد أمّ طلعتِ على السرير، وهي تقرأ مجلّةً نسائيّةً أردية، في حين تستند العمّة زبيدة مع أي زائرةٍ إلى كنبة صلاةٍ أو سريرٍ ذي قوائم أربع، مع وجود صندوق فضيّ كبير مزخرف من التنبول مفتوحٍ أمامهنّ، لتستقبلها إحداهنّ:

«آها! زوجة السّائق! اجلسي».

كانت قمر النساء تسلّم عليهنّ بأدبٍ، وتقرفص على السجّادة، ثمّ تقدّم لها إحداهنّ ورقة التنبول. في الرابعة عصراً، يرجع كمال وتهمينة وطلعت من دروسهم، حينها تنبض الفيلا النّاعسة بالحياة. طقطقت فناجين الشاي في صالة الطّعام، وقُدّم فنجانٌ لقمر أيضاً. في تلك اللّحظة تقريباً، كان قدير يعود بتقي رضا بهادور من المحكمة الرئيسيّة الّتي اعتاد أن يزورها كلّ يوم تقريباً. شكّلت الدعاوى القضائيّة ضدّ ملّاك الأراضي الآخرين أو الأقارب من عائلتهم الممتدّة التّسلية المفضّلة لأصحاب العقارات. وعند سماع صوت اقتراب السّيارة، كانت قمر النساء تسرع إلى تغطية رأسها ثم تنصرف إلى كوخها حاملةً ابنها النّائم.

كانت لقمر النساء صديقة أخرى إلى جانب السيدة رائي زادا، رام دايا، وهي زوجة البستاني الصّغيرة. ومثل الوصيفات الأخريات المتحضّرات في غولفيشان، لم تكن رام دايا متعجرفةً، ولم تغنّ أغاني سينمائيّةٍ مثل مربيّة طلعت سوزان. فهي تنحدر من طبقة البستانيّين وتنتمي إلى منطقة قمر النساء ذاتها. ومثل قمر النساء، تزوجت وهي لم تكد تبلغ الثّانية عشرة كان زوجها رام أوتار أكبر منها بعشرين سنة كاملة. عندما أحضرها رام أوتار من قريته، ترجّلت من عربةٍ صغيرةٍ ملتفّةً بسارٍ أحمر ياباني الصّنع، والدموع تنهمر من عينيها. جيء بها داخل الفيلا لعرضها أمام السيّدات، لكي تنحني وتسلّم عليهنّ، ذهبت قمر النساء إليها لاحقاً في أحد البيوت الخارجيّة، وبدأت تتحدّث معها بلغتهما المحليّة الشرقيّة لتخفّف عنها.

كان السائق غانغا دين أرملاً في منتصف العمر، يحبّ عربته فيكتوريا، ويستصغر سيّارة قدير ذات اللون الفضيّ من طراز شيفروليت. كانت عربة

فيكتوريا من العربات القليلة التي بقيت في لكناؤ تمثّل نهاية عهد الترّف القديم. وقد تنامت أهمية غانغا دين فجأةً حين نشبت الحرب، وخضع البنزين لنظام التّقسيط، فكان يسخر من قدير مرحاً: «لماذا لا تقود سيارتك الفارهة الآن يا سيّدي؟ انظر إليّ، لا يقلقني أمر الألمان، ولن يصمد «هتلر وتلر» أمام عاصفة عربتي».

33

قصر وارين هاستينغز بهادور

قبل امتحان الصف السّابع بأيّام، أصيبت طلعت بالتهابٍ رئويٍّ مزدوج، وحطّمت فكرة تخيّل ضياع سنةٍ كاملةٍ آمالها، ولكنّها في أثناء فترة تعافيها، كانت تتّكئ إلى مسندٍ وتصدر أحكاماً للجميع كالملكة. حصل كمال من مكانٍ ما على عارضٍ سينمائيٍّ قديم وبعض مقاطع الأفلام الصّامتة القديمة لتسليتها. تألّقت ظلال الأعوام السّابقة على الشّاشة، ولكن لم يستطع جان هارلو وتشارلي تشابلن وزبيدة وسلوتشنا الترفيه عنها. لعب هاري شانكار دور المهرج، وحاول محاكاته، لكنّه فشل في إمتاعها.

ذات صباحٍ، داهمها هاري من نافذة غرفة الصباح الكبيرة، وتكلّم بلهجة الممرضات الأوروبيّات من كلية الملك جورج الطبية:

«كيف تشعرين اليوم؟»

«سيّئة الحال». قالت طلعت بنزقٍ.

«تات... تات».

«هاري، لماذا تبتسم هذه الابتسامة العريضة؟» تساءلت طلعت مرتابةً.

«عوض أن نخسر سنةٍ، سنكسب ثلاث سنواتٍ الآن؛ سنذهب إلى مدرسة «ماستر صاحب» الأستاذ المحترم في يوليو 1940م، ونحضّر للثانوية اليابانيّة كطالبيّ انتساب، وبعد سنةٍ فقط سنكون في كلية «إيزابيلا ثوبورن» عام 1941م...».

حركت طلعت رموشها: «مدرسة تاتيروالا على شارع بارو». قفزت من سريرهـا، وبدأت ترقص بفـرح، لكنّها توقفت فجأةً واسـتفسرت بارتيابٍ: «بحكم معرفتي بك، أظن أنّ في الأمر مفاجأة. أليس كذلك؟»

«لا مفاجـأةً، أقسـم بـالله». قال مثل طالـب مدرسيٍّ، ثم قفـز خارجاً من النّافذة نفسها.

اجتاحت اليابان ما قبل الحرب أسـواق الهند البريطانيّة بسلعها الرّخيصة التي شملت الحرير والجورجيت، فبدأت الأشياء الرّخيصة تعرف باليابانيّة، كما أطلقوا على شهادة الثانويّة للبنات دون «ميتري كيوليشن» الصفّ العاشر الياباني.

كان ماستر صاحب استاذاً محافظاً من طبقة كائستة الهندوسيّة، أسّس مدرسةً قبل عامٍ في منطقةٍ سكنيّةٍ راقيةٍ هادئةٍ تقع على شارع بارو من لال باغ، وما إن سمعت نيرمالا أنّ طلعت ستلتحق عاجلاً بكلّية إيزابيلّا ثوبورن عبر طريقٍ مختصرٍ، حتى أعلنت حرباً ضدّ عائلتها، وبالنتيجة، تمّ سحبها من المدرسة اللامارتينيّة، وانضمّت إلى الثانوية اليابانيّة.

في لكنـاؤ، التاريـخ هو مسـألة الأمس. تقع كلية لامارتينـير في قصر الجنرال كلاودي مارتين «كونسـتانتيا»، تسـمى المدرسـة اللامارتينية للبنات «خورشيد منـزل». كـما حُوّل مرصد الملك ناصر الدّين إلى بنـك. ترتبط هذه المباني أوروبيّة التّصميـم بالعهـد الـذي مُنح فيه النبـلاء الإنجليز ألقاباً فخمةً مـن بلاط الملوك المعاصرين في دلهي ولكناؤ، الّذين لم يكن لديهم خيارٌ لفعل أكثر من ذلك، مثل: «الأمِير كورن واليز»، و«عظيم الشأن مدار المهام سركار كامبني انغريز بهادور»، و«سـيف الملـك الجنـرال مارتـين»، و«عـماد الدولـة أفضـل الملك جـان بيلي»، و«صاحب بهادور أرسلان جنغ»، و«أشرف الأمراء اللورد مايرا» وهلمّ جرّاً.

كان وارين هاستينغز جسارت جنغ، نائب الحاكم العام بهادور لمعقل وليام في البنغال قد اشتهر لدى الجمهور بـ «هاستان بهادر، حاكم البنغال الإنجليزيّ»، وقد تمّت محاكمته لاحقاً في إنجلترا لأعماله السيّئة. كانت أمّ شجاع الدّولة النّواب سادي جهان، وزوجته بهو بيجوم، من النسوة المرموقات. أنشأت بهو بيجوم قدر قسم الدّراسات العليا في قصرها الواقع في فيض آباد. ابتز منها هاستينغز ملايين الروبيّات كونها ناصرت الماهارجا تشيت سينغ حاكم باناراس ضدّه، واستدعت السيّدات الإقطاعيين والحكّام لنجدتهنّ في مواجهة الحاكم العامّ. تعرّضت الكتائب الخاصّة بالسيدات من الأسرة الملكية لبربريّة قوّات الحاكم العامّ، التي انهالت أيضاً على جنود النّسوة المتحدّثات بالأرديّة بالسّياط لترغمهنّ على تسليم الكنز والثروة.

ينحدر ماستر صاحب من أسرة النّائب بهو بيجوم من فيض آباد. وقد بلغه من كباره أنّ هاستينغز احتجز السيدات من الأسرة الملكيّة في هذا القصر نفسه في لكناؤ، لذلك استأجر هذه الدّار الكبيرة المتداعية من ملّاكها المعاصرين لافتتاح مدرسةٍ فيها. وعكف فيها ماستر صاحب على تجهيز الطّالبات لاجتياز امتحان الثانويّة التابعة لجامعة باناراس، وتمكّنت البنات فيها من التّسجيل في الموسيقى الهنديّة أو علم النبات عوضاً عن الرياضيات. امتدّ سورٌ من سيقان البامبو مغطّىً بنبات نجمة الصباح السّميك، وأحاط بالرّحاب مانحاً هذه المدرسة الرّائعة اسمها «مدرسة تاتير والا».

وفي غرة تمّوز - يوليو عام 1940م، أخذت طلعت صديقتها نيرمالا التي كانت تفيض حماساً من فيلا الكتسناء المائيّ، وذهبتا في عربة غانغا دين إلى مدرستهما الجديدة. كان ماستر صاحب رجلاً نحيلاً في الأربعين، في رجله عرجٌ، يتمتّعُ باحترام وحب تلميذاته وآبائهنّ. كانت زوجته تدرّس علم

النّبات. قبل استهلال المدرسة صباحاً، اجتمعت البنات في حجرةٍ واسعةٍ قرب البوّابة، وأنشدن أنشودة الشاعر إقبال الأرديّة «بلدنا الهند أجمل من العالم كلّه». كان ماستر صاحب واقفاً في ناحيةٍ ويصغي إليهنّ، وقد ارتسمت الرّزانة على وجهه. كان عضواً متحمّساً مخلصاً في حزب المؤتمر، ومثّل الاتجاه الوطنيّ السّائد الذي تبنّاه غاندي.

كان للحركة الوطنية الحديثة جانبٌ آخر يفرض وجوده على المواطنين، إذ بدأ بعضهم يتحدّثون علناً عن إحياء الثّقافة الهندوسيّة القديمة ومجد الإسلام الآفل. كيف يمكن تحديد الثقافة الهنديّة؟ هل كانت هذه المحاولة مكيدة من الهندوس لاستبعاد المسلمين؟ هل الهندوس هم الهنود الأصليّون؟ هل كان المسلمون دخلاء وغزاة، ويجب معاملتهم بهذه الطريقة؟

لم يسأل أحدٌ قمرَ النساء وراما دايا من ميرزابور عن رأيهما بشأن هذه الأمور. تداخلت خصائص الثقافة الهندوسيّة - البوذيّة - الجاينيّة من العهد القديم، والثّقافة التّركية - المغوليّة - الإيرانيّة من العصور الوسطى، والثقافة البريطانيّة من العصر الراهن، فتكون نسيج حضارةٍ هنديّةٍ غنيّةٍ استحال فصل خيوطها بعضها عن بعض، وقد تسببت محاولات الشوفينيّين المنصهرة في بوتقة القوميّة المتطرّفة لتطهير الثّقافة في نشر الاضطراب وسوء الفهم، إلا أنّ الوئام الطائفيّ في لكناؤ كان يعتبر من الأمور المفروغ منها، إذ لا يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك.

ترعرت طلعت ونيرمالا في بيئةٍ هنديّةٍ بريطانيّةٍ مختلطةٍ سادت في بيوت الطبقة الوسطى العليا، فاندمجتا بشكلٍ سريعٍ في البيئة الهنديّة - الأودهية لمدرسة ماستر صاحب بالسهولة ذاتها التي اندمجتا بها في مناخ المدرسة اللامارتينيّة ذات الصّبغة الإنجليزيّة البحتة، ولم تتصادم قطّ ثقافة ماستر

صاحب الهنديّة - الفارسيّة مع متطلّبات دينه الهندوسيّ الأرثوذكسيّ. ما زالت فتاةٌ من طبقة كائسته تأتي في عربة ذات ستائر يجرها حصان. وبمناسبة عيد «فيشواكارما»، وهو عيد هندوسي، يحتفي فيه الهندوس من الطّبقات المختلفة بعبادة أدوات أعمالهم وتجارتهم، وطبقة كائسته هي إحدى الطبقات التي تعبد أدوات العلم من المحابر والأقلام وحواملها، والتي ما زالت أدوات مهنتهم.

كانت طلعت التي ترتدي فستاناً في الثالثة عشر من عمرها، وهي صغرى البنات الثلاثين من عائلات لكناؤ القديمة، نصفهنّ مسلماتٌ ولكن معظمهن لم يتحجبن، وتعلمن الموسيقى بوصفها إحدى مواد الدراسة. كان الوقت يتغير بسرعةٍ. درّس ماستر سورج بخش الموسيقى، وعزفت طلعت الدفّ.

كان مولوي صاحب أستاذ الأرديّة والفارسيّة رجلاً ضعيفاً من لكناؤ القديمة. حصل على شهادة المولوي والفاضل، ومصطلح «المولوي» يفيد معنى عالم وليس رجل دينٍ. إنّه من طبقة الـ«بانديت»، طبقة العلماء الكهنة الهندوس من كشمير، هاجر آباؤه من كشمير إلى لكناؤ في أوائل القرن التّاسع عشر طلباً لرعاية الحكام النوّاب. وقد أنجب مجتمع بانديت الكشميري عدداً كبيراً من شعراء الأرديّة والرّوائيين والمحامين والأطباء. كان المولوي يدرّس الأرديّة التي أعدّ فصولها الدراسيّة المولوي ماهيش براشاد، رئيس قسم الأرديّة والفارسيّة في جامعة بانارس الهندوسيّة. وعندما مرض المولوي كول، طلب ماستر صاحب من هاري شانكار، كان طالب ماجستير في الفارسيّة آنذاك، أن يدرّسها مكانه. وشرع هاري شانكار بعد بضعة أيّام في التّدريس بكلّ جديّةٍ واهتمامٍ، وبدأ يعرف بالأستاذ الصغير أو المولويَ صاحب الصّغير. ارتاعت الفتيات خوفاً من حنقه وانضباطه.

افتتحت بوّابة قديمة وسط صف من المحلّات الإنجليزيّة في المركز التجاري بحضرت غنج، على مقبرة، الذي يقع داخل ساحته الرّباعية ضريح أمجد علي شاه، والد واجد علي شاه. لقد حولت الإمام بارا إلى كنيسةٍ مؤقّتةٍ حين احتلّ الجنرال أوترام المدينة عام 1857م، وأدّى اللورد كانن الصّلوات في حرمها. رُدّت الإمام بارا بعد مرور بعض الوقت إلى المسلمين الذين استأنفوا إنشاد مراثي الإمام الحسين فيها، وأضافوا إليها الحداد الصّامت على ضياع المملكة. وكان العديد ممن اعتنقوا المسيحيّة قد احتلّوا الفناء حين كان الإمام بارا يُستخدم ككنيسة، فظلّ أولادهم وكذلك المستأجرون المسيحيّون الجدد يعيشون في المباني الخارجيّة الواقعة في السّاحة الرباعيّة.

وخلال شهر محرّم، عقدت مجالس في الإمام بارا، رُويت فيها أحداث شهادة سبط النبي صلّى الله عليه وسلم الإمام الحسين، وأُنشدت قصائد المراثي. سكنت الأسر المسيحيّة الفقيرة غرف الطابق التحتانيّ، وتعهّدت نسوتها، خلال الأربعين يوماً من الحداد، بأشغالٍ عابرةٍ تتمثّل بالسّهر على أحذية النوّاحين وجمع التبرّعات. ازدهرت كذلك جاليةٌ بيضاء من الإثنيّة الأنجلو - هنديّة في لال باغ، وكان لها نادٍ خاصٌّ في حضرت غنج. اشتغلت العديد من الفتيات الأوروبيات-الآسيويات الشّقراوات كراقصاتٍ محترفاتٍ لرقصة كاتاك، ممّا يدلّ على أنّ الثقافة التي نشرها واجد علي شاه ما زال لها دويٌّ في لكناؤ. لقد عاشت إحداهنّ مع أبويها في فيلا على مقربةٍ من مدرسة تاتير عُرِفت بروزي.

وفي موسم المطر حين غنّت الطالبات أغاني شعبيّة «غور ملهار» في الدّروس الموسيقيّة فوق حجرة البوابة، وتراقصت قطرات الماء على الأعشاب خارج المبنى، بدا العالم مترعاً بسوائل الموسيقى، وجاءت الرّيح الشرقيّة إلى

الغرفـة البرجيّـة بأصوات خلاخيل (جانجـروس) روزي التي كانت تتمرّن علـى الرقص في دارها. كان أسـتاذها قد تتلمذ على شـامبو ماهاراج من بيت كالكا بيندا دين لواجد علي شاه.

اتّجهـت طالبات الثانويّة إلى باناراس في مارس - مارس عام 1941م. جاء كمال وهاري شـانكار إلى محطّة تشـاد بـاغ لتوديع أختيهما وقـال كمال مرحاً: «امضيا أنتما وسـنلحق بكما لزيارة الأماكن السـياحيّة بأسرع ما يمكن عندما نفرغ من الامتحانات، فلطالما رغبنا في زيارة سارناث».

«بلغنـي مـن مصـدرٍ موثـوقٍ أنّ جامعة بانـاراس تحتضن بعـض الإناث الفاتنات الفائقات الجمال». قال هاري شانكار وهو يغمز.

أنبت نيرمالا أخاها الكبير. «بماذا سـتفكّر طالباتك المسكينات لو وجدن أستاذهنّ الشابّ يتفوّه بمثل هذه العبارات؟»

اسـتدار هاري شانكار نحو الطّالبات اللّواتي اجتمعن فوق المحطّة وأخذ يـشرح برزانةٍ بعض النّقاط الهامّة عن شـعر ميرزا غالب لاختبارهنّ بالأدب الأرديّ.

34

سيارة رولز رويس للماهارجا

(ملك الملوك)

نظرت تشـامبا أحمد خارج نافذة مكتبة كلّية بيسـنت. كان الوقت صباحاً والطّقس حارّاً مغبرّاً من أبريل. هبّت زوبعةٌ على بعد مسافةٍ، وتناثرت أوراقٌ صفراء تسـاقطت من الأبنوس الـكاذب. تراقصت ابتسـامةٌ مفعمةٌ بالحيويّة على شـفتيّ السّـيدة إيني بيسـنت في لوحتها الزّيتيّة المعلّقة مباشرةً فوق رأس أمين المكتبة المتجهّم الذي بدا مرهقاً.

وداعا سيّدة بيسنت. إن فزتُ بالدّرجة الأولى فلن أزور هذا المكان ثانيةً، قالـت تشـامبا بهدوءٍ وتلـت صلاتها بسرعـةٍ: «اللهمّ إنّي أسـألك بحقّ محمّدٍ وآل محمّـدٍ أن تمنحني الدّرجة الأولى في امتحان الثانويّة المتوسّـطة في الفنون، آمين». ثم أردفت بعجلةٍ: «اسـم أمي نفيسـه بيجوم». لطالما لُقّنت أنّ الملائكة الذين يحملون الدّعاء إلى العرش يحتاجون إلى اسم أمّ المتوسّل.

أعادت صديقتها ليلا بهارغوا كتبها إليها، وقالت لها وهما تهبطان الدّرج: «قدمـت ابنة عمي كوسـوم من لكناؤ لحضور امتحـان الثانويّة، وقد تعلّمت في ذلك المكان العجيب الذي يدعى مدرسـة «تاتيروالا» لماستر صاحب. هيا نذهب إلى الجامعة لنلقاها».

على مرتفعٍ يحيط به فسـطاطٌ واسـع الأطراف، كانت الطّالبات من صفّ الموسـيقى النظريّة يهمهمن بإجاباتٍ قبل تسـجيلها في الكرّاسة. لقد وصلت

الهمهمة إلى الخارج حيث وقفت تشامبا وليلا تحت شجرة المانجو المزهرة تنتظران قدوم كوسوم كوماري بهارغوا. اشتدّ لهيب الشمس، وقالت ليلا بحسرةٍ: «هذا هو الوقت الذي يتّجه فيه السّعداء إلى هضبة موسوري».

لم تنبس تشامبا بكلمةٍ، وقد تعلّمت الرّضا بنصيبها، سنةً تلو أخرى، قضت الصيف تتجشّم لفح الحرّ وعصف الغبار في الحيّ المكتظّ نفسه في مدينة باناراس، تقدّمت كوسوم إلى الفسطاط المحاط بالستائر.

ينحدر والدا تشامبا من طبقة الموظّفين الأرستقراطيّين. كان أبوها محامياً، ينتمي إلى المنطقة الشرقيّة من مرادآباد، مارس مهنته القانونيّة في مسقط رأس زوجته. كان النّاس في أسرة أمّها أفضل حالاً من أبيها نسبيّاً. تشامبا ابنتهما الوحيدة، وقد تلقّى أبوها بالفعل طلباتٍ عديدة للزواج منها. لم يكن لتشامبا عهدٌ بمدرسة «كانوينت» (مدرسة تبشيريّة)، ولم تتعلّم التزلّج بالعجلات. كان والد تشامبا مهتماً، ولو قليلاً، بسياسة الرابطة الإسلاميّة، فقد سافر بصفةٍ خاصّةٍ للقاء الأمير أحمد خان، ملك محمد آباد، عندما زار مدينة باناراس، إذ كان الملك يموّل حركة باكستان الجديدة.

شكلت باناراس مركز الحركة الإحيائيّة الهندوسيّة كذلك. لم تعر أم تشامبا الطموحة السياسة أي اهتمام، كان جلّ همّها إرسال ابنتها إلى كلية إيزابيلا ثوبورن في لكناؤ. ذلك أن مكانة الفتاة الاجتماعية سترتفع بين عشيّةٍ وضحاها إذا انضمّت إلى هذه الكلّية الأمريكيّة التبشيريّة، لذلك توافدت عليها بنات الطبقات العليا من أنحاء الهند كلّها ليدرسن فيها. أما والد تشامبا فكان يريدها أن تلتحق بكلّية البنات المسلمات في علي جراه، غير أن نفيسة بيجوم عارضته بشدّة وتمسكت برأيها: «لا، ابنتي ستلتحق بكلّية إيزابيلّا ثوبورن كبنات الملكة فول كنوارِ وبيجوم صاحب من بيلاري».

مرّت سيارة الملك كاشي الرولز رويس دون إثارة ضجيج، كأنّها مركبة شمسية. نزل منها شابّان متهلّلان جالا بناظريهما في الأرجاء ببهجةٍ. أحدهما متوسّط الطّول، والآخر طويلٌ بهيّ الطلّة ذو شعرٍ مجعّد. كلاهما كانا حسن المظهر، وبدا أنهما معجبان بنفسيهما. بالطبع، كانا غريبين في الرّحاب. وضع الشابّ الجميل إصبعه في جيب بنطاله، وبدأ يصفّر بصوتٍ خفيضٍ تماماً مثل شابٍّ إنجليزيٍّ. وقع نظرهما على فتاةٍ جميلةٍ ترتدي سارياً أبيض، تتحرّك تحت شجرة المانجو. توقّف الوسيم عن التّصفير، وقد أدرك كلاهما أنّها تراقبهما باهتمام أيضاً، فصرفا نظريهما مرتبكين. بدت الفتاة مبتهجةً، إذ علت شفتيها ابتسامةٌ خفيفةٌ. انضمّت إليها فتاةٌ شابّةٌ أخرى، تحمل مهواةً من أوراق كرّاسةٍ.

غطّى الشابان أنفيهما العاليين بالمناديل وقايةً من غبارٍ ذرّته الرياح. قفزت فتاتان نحيلتان، ترتديان فستانين، فوق أدراج المرتفع خارجتين من الفسطاط واندفعتا إليهما، صرخت إحداهما وهي تلهث: «أخي، يا أخي هل تستطيع أن تتخيّل قاعة امتحانٍ يهمهم كل من فيها، وهم عاكفون على كتابة إجاباتهم؟» كانت هذه البنت نحيلةً وشاحبة اللون، تشبه الشاب الأسمر، الذي خاطبها نيرمالا. أما البنت الأخرى بلونها الورديّ وشعرها الرقراق فهي أخت الشابّ الجميل. تحدث الأربعة جميعهم باللكنة الإنجليزيّة الأصليّة بطلاقة. انحنى السائق في حلّته أمام الفتيات، وفتح باب سيارة الرولز رويس الملكية.

اختفت المركبة الشمسية في ضباب الظّهيرة اللامع. انصرفت لِيلا بعد لقاءٍ قصيرٍ مع كوسوم، وراحت تحدّق في وجهي الشابّين بنظرةٍ حادّةٍ طويلةٍ.

«ليس لصاحب السمو أبناء أو أبناء أخٍ أو أختٍ، فمن الشخصان؟» تساءلت لِيلا.

فردّت تشامبا بحشمةٍ: «من المتسكّعين».

«لا همّ يقلقهما ولا غمّ يؤرّقهما، كأنّهما يملكان العالم».

قالت تشامبا لصديقتها بصرامةٍ: «هذا مفعول سيارة الرولز رويس، لو أنهما جاءا بعربة حصانٍ لما أعرتهما نظرةً ثانيةً».

لقد فرغتا للتوِّ من دروس برنارد شو، فهما طالبتا أدب إنجليزيّ.

«وقفا هنا بثقةٍ وهيبةٍ كهيبة قيصر وأنطونيوس».

«اسمعي يا كليوباترا، لقد أفسدت الشمس عقلك، فهما ليسا إلّا فتيين متغطرسين من الأسرة الملكيّة السمراء، يخيّل لهما أنّهما وصلا بالخطأ إلى مدرسةٍ محليّةٍ».

«البنتان أيضاً تفيضان بالفرح والمرح».

«الأربعة ليسوا إلّا أطفالاً مدلّلين تعلّموا في المدارس الإنجليزيّة الواقعة بين الجبال، من فصيلة مختلفة تماماً. لا همّ لنا بهم. كفاك حسداً».

هنا غيّرت ليلا الموضوع قائلةً: «اسمعي يا تشامبا! دعتنا أختي هذه إلى مسرحيّةٍ موسيقيّةٍ، ستمثّلها مجموعةُ طالباتٍ من مدرسة تاتير والا. كوسوم أيضاً تنوي الانضمام إلى كلية ماريز في لكناؤ».

ظهر العبوس في وجه تشامبا. كلّية ماريز للموسيقى الهندية، كلية كالوين تعلقدار، الكلّية اللامارتينية، كلية كانينج، مدرسة لاريتو كانوينت، كلّية إيزابيلّا ثوبورن، كلّية كرامت حسين للبنات المسلمات - الدّائرة الذهبية....

ها هي دنيا لكناؤ السحريّة، يسكنها مثل هؤلاء الأناس الرائعين الذين رأتهم حالاً. فجأةً انتابتها موجةٌ من الشعور بالاستياء والإحباط. كانت متضايقةً من صديقتها لِيلا، بنت أستاذ معوز، أبهرها بريق الشابين الفاتنين.

لقد كانت في طريقها إلى البيت حين مرّت عربة حصانها بالأسواق الصّاخبة، ووجدت نفسها تقارن حياتها المتواضعة بفخامة حياة من يسكنون

في الشّـوارع الفاخـرة. سـلكت العربـة دربـاً جانبيّـاً، ثـم توقّفت عنـد بيتٍ بسـيطٍ. أنا أعيش في هذا المكان، حدّثت نفسـها مستسلمةً. ما أشدّ خيبة أمل هذين الشـابّين المغرورين اللذين أُعجبا بمظهرها، لو شـاهداها في هذا الحيّ البرجوازيّ الصّغير! من يكونان؟ يمكنها أن تلقّن لِيلا السـاذجة دروسـاً في عدم جدوى الحسد، ولكنّها هي نفسها تطلّعت في سرّها إلى كل مباهج الحياة لنفسها.

35

الأغنية الأخيرة لواجد علي شاه

في باناراس أقامت جماعة ماستر صاحب في فيلا فاخرةٍ ذات ثلاثة طوابق من الطّوب الأحمر، تُحيط بها حديقةٌ مهجورةٌ، نوافذها محميّةً بالقضبان الحديديّة السّميكة، وبُنيت شرفاتها وأدراجها الحلزونيّة من الحديد المطاوع. انتصب الحارسان الخشبيّان بعيونهما التي تشبه الصحون، وشاربيهما المسننين الحالكين يحرسان المدخل الأماميّ. كانا يلبسان قبعتي «سولا»، وقد صبغت بذلتاهما العتيقتان بالأزرق الفاتح، وحملا بندقيّتين من الخشب، فجسدا بذلك فن لكناؤ ما قبل عام 1857م.

مالكة الفيلا أرملةً برهميّةً متديّنةً، تعيش في الطّابق الثالث، واشتهرت باسم «بندتاين» زوجة بندت العالم الهندوسي. في عام 1856م بينما كان الملك سلطان العالم واجد علي شاه في طريقه إلى كلكتا، مكث في باناراس، ومنح مضيفه الماهارجا إيشواري برشاد ناراين سينغ مبلغاً كبيراً من المال لغرضٍ خاصٍّ. كان عازفو النّاي «شاهنائي» تقليديّاً في باناراس من المسلمين، يوظّفهم كهنة المعابد أحياناً لعزف النّاي امتثالاً لطقوس إيقاظ آلهتهم في الصّباح. لقد أنشأ الملك المخلوع صندوقاً خيريّاً للعازفين، كي يعزفوا في المعبد الرئيسيّ كلّ صباحٍ، كهديّة فراق من عائلة ملكية أنشأت لآبائهم ثقافةً مشتركةً راقيةً خلال حكمهم مئة وستة وستين عاماً لهذه الأرض.

جلست طالبات الموسيقى الهنديّة تحت شجر تمر الهند في الحديقةِ يتدرّبن للامتحان. ذات صباح هبطت الأرملة القصيرة بندتاين وناولت طلعت نسخةً قديمةً من كتابٍ قائلةً: «انظري يابنتي، حينما وصل جان عالم إلى هنا، أعطى بعض مقطوعاته النّادرة، مقطوعات «ثمري»، لجدّي الذي كان عالماً متبحّراً في الموسيقى الكلاسيكيّة». تهلّلت أسارير طلعت، وفتحت الكتاب المهترئ بحذرٍ شديدٍ. ثمّة خطوطٍ بالهنديّة والأرديّة منقوشةً عليه. «احتفظنا به بعنايةٍ، إنه هديّةٌ غاليةٌ جداً». قالت بندتاين، وهي تستردّ الكتاب من يد طلعت ثم انصرفت راكضةً.

وعند وقت الطّعام، نشرت مائدةٌ على الأرض في إحدى القاعات، فدخل طبّاخٌ برهميٌّ برفقة مساعده النّحيل يحمل دلواً نحاسيّاً مملوءاً بالروب. راح الطبّاخ الرئيسيّ ميشرا يغرف الرّوب من الدّلو بالمغرفة، ويسكبه في أكواب البنات النحاسيّة من علٍ حتى لا يتسخ، إذ تنحدر البنات من طبقاتٍ مختلفةٍ وديانات متعدّدةٍ. قدّمت الأكلات النباتيّة على أوراق شجرة الموز.

وعندما بدأت الامتحانات وقفت زوجة ماستر صاحب عند المخرج، تراقب رسم طلب الفأل بالزّيت، والعدس، والسّمك، والروب، فتلك هي الأعراف التقليديّة التي تلمّح إلى الفأل الحسن، مارسها الهندوس والمسلمون على حدّ سواءٍ. نظرت كلّ طالبةٍ عند عبورها المخرج، وهي في طريقها إلى قاعة الامتحان، إلى انعكاس صورتها في إناء الزّيت، وفي هذه الأثناء توضع قطرة من الروب على جبهة كل واحدة منهن. وقد كرّرن جميعهنّ كلمتي «الروب والسمك». يرمز السمكُ إلى الحظّ السعيد، فلقد زُينت شارة حكّام أوده الملكية بصورة سمكتين متواجهتين، كما أنهما كانتا تنقشان بجلاءٍ على أبواب مبانيهم.

وصل كمال وهاري شانكار صباح امتحان الموسيقى النّظرية، وحين خرجت طلعت ونيرمالا من الفسطاط رأتاهما يقفان أمام سيارة الرولز رويس الفاخرة، وقد وجها نظراتهما إلى شجرة المانجو، في حين أن اهتمامهما بالطّبع مركز على فتاةٍ شابّةٍ ترتدي سارياً قطنياً، ذات سحنةٍ سمراء بسمرة الذّهب. لقد كانت جميلةً حقّاً. ألقت التلميذتان نظرةً خاطفةً عليها، ثم جرتا نحو اللّيموزين. أقام كمال وهاري عند رئيس وزراء المقاطعة الأميريّة الواقعة في الجهة الأخرى من نهر غانغا، وقدما إلى الجامعة في إحدى السّيارات الملكيّة لاصطحاب أختيهما إلى الحوزة الأميريّة للغداء. يمتُّ الرئيس ديوان بهادور إلى أسرة رضا بقرابةٍ بعيدةٍ.قالت طلعت حين وصلوا جسر القوارب:

«أريد شراء سارٍ باناراسي وأساور كثيرةٍ لقمر النساء، ولرام دايا، وزوجة حسين، وسوزان، لذا أعطوني بعض النقود».

«أتظنّين أنّنا نقتني أموالاً طائلةً؟ أو أنّنا ندير بنكاً خاصّاً من نوعٍ ما؟ لسنا إلا تلميذين عازبين معدمين، يعيشان على الخيرات نفسها». قال هاري شانكار، وهو يتظاهر بالورع، ثم أضاف كمال: «ولكن رغم فقرنا نستطيع أن نكون سخيين مثل النّواب. وإذا أخبرتنا لمن كان ذلك الطّيف الذي رأيناه في تلك التعريشة الفوّاحة فسنشتري لك أساور باناراس بأسرها».

«ما هذا؟ ما الطّيف؟ أين التعريشة الفوّاحة؟» تساءلت طلعت، «أعطني بعض النّقود، أسرع».

«فقط إذا نجحت في اكتشاف أمرها أوّلاً». حاول هاري شانكار التفاوض معها.

قضوا يومهم وراء ستارٍ من الأعشاب الهنديّة في فيلا الرّئيس الواسعة يثرثرون مع بناته اللّائي جئن من مدرستهنّ التبشيريّة في نانيتال. لم يكن

هاري شانكار قد بلغ العشرين، غير أنه أصبح بالفعل الأعزب الأكثر لياقة، لذلك راحت زوجة الرّئيس تقترح أسماء فتيات ملائمات له، فهذا هو مجالها المفضّل: «في المنطقة الشرقيّة لدى الكثير من الملوك فتياتٌ بلغن سن الزّواج، ولكنّهنّ جميعاً من طبقة «ثاكور». ولكنّني على يقينٍ من أنّنا سنجد فتاةً طيّبةً لك من طبقة كائسته، ربّما بنت أحد كبار موظفي الخدمات التعاهديّة الإمبراطوريّة». لقد احتفظت طبقة كائسته بخصائص طبقتها، وتوظّف معظم أفرادها في الإدارة البريطانيّة.

عقب انتهاء الامتحانات، انطلقت البنات برفقة ماستر صاحب وديدي للتسوق في الزقاق الغامض من المدينة القديمة، وتمتّعن بركوب الزوارق في نهر غانغا ليلاً، وفي اليوم التّالي اتّجهن لزيارة مدينة سارناث تحت أشعة الشمس الملتهبة. ثمّة مصابيح نحاسيّةٌ صغيرةٌ أضاءت أرضية معبد بوذا الرخامية الجديد، وطوابير من تماثيل الأمير غوتام بوذا الذهبيّة تألّقت في القاعة شبه المظلمة.

«ما أروع الهدوء! السلام! هدوء بوذا!» كانت هذه ملاحظة طلعت، وهن يجلسن جميعاً على أرضيّة المعبد الرخاميّة الباردة.

«نعم..». أومأت بانو مبتسمةً ابتسامة حكيمٍ، كأنّها على وشك كشف الحقيقة: «وصلنا إلى هنا بعد أن تسكّعنا في الشمس الحارقة. لذا من البديهيّ أن نشعر بالراحة، إضافةً إلى أنّ أن القاعة باردةٌ». فجأةً هبّت طلعت واقفةً وراحت ترقص، ثم انضمّت إليها الأخريات.

قِبيل يوم من مغادرتهنّ إلى لكناؤ، نصب مسرحٌ صغيرٌ في فناء دار بندتاين، وزُين بأوراق «بلانتين» أي موز الجنة، وبسطت سجاجيد قطنيّةٌ على الأرض ليجلس المشاهدون عليها، كما عُلق قماشٌ قطني مدموغٌ في الخلفيّة. وبما أنه

لم يكن ثمة متّسعٌ من الوقت لإنتاج مسرحيّةٍ متكاملة، فقد قرّرن تمثيل قصّة ميرا بائي. استعضن عن الحوار في الحبكة بالأناشيد التعبديّة التي اشتهرت بها ميرا بائي، الأميرة المتنسّكة في القرن السادس عشر. ألّمت البنات بالحكاية الشعبيّةِ إلماماً مكّنهن من أن يمثّلنها ارتجالاً. لعبت شاهدة دور رانا زوج ميرا الحانق، الذي لم يكن راضياً عن انقطاع ميرا التامّ للإله كريشنا، وقد سقط شاربها بين حين وآخر أثناء العرض، ومثّلت كوسوم دور الإمبراطور أكبر، وقد أفسدت ضحكتها التي جاءت في غير محلّها المشهدَ بعض الشّيء، ولكنّها منحت المتفرجين متعةً كبيرةً. غيانواتي بهاتناغر كانت فنّانةً إذاعيّةً مشهورةً ومطربةً بارعةً، لذلك لعبت دور ميرا بائي بالتّأكيد.

قامت طلعت بدور المخرجة، واضطلعت بأدوارٍ أخرى أيضاً؛ فكانت تصعد المسرح إذا عرضت قلّةٌ مفاجئةٌ من الممثّلين. لعبت في أحد المشاهد دور رئيس وزراء الإمبراطور أكبر، وفي مشهدٍ آخر كان عليها أن تمثّل شخصية صديقة ميرا وأمينة أسرارها. وفي مشهد زواج ميرا من رانا، استعارت شارب الإمبراطور أكبر، ودخلت خيمة الزّواج في شكل بندت تهمهم بترانيم هندوسيّةٍ غامضةٍ. في المشهد النّهائي، غنّت العاشقات وتراقصن حول بانو التي انتصبت في هيئة كريشنا التقليديّة «عازف النّاي السماويّ». كان وجهاً فريداً زُيّن بنقاطٍ من معجون الأسنان فبدت كـ «رادها» بكلّ رزانتها وحشمتها. جلس المشاهدون تحت أديم السّماء المضاءة بالنجوم، كان كمال وهاري شانكار جالسين في الصف الأخير، ولم يتمكّنا من رؤية تشامبا التي جلست في الصفّ الأماميّ قبالة المسرح.

لقد استجيبت دعوات تشامبا، إذ حصلت على الدّرجة الأولى في ثانويّتها الوسطى في الفنون، ولم تواجه أيّ مشكلةٍ في حجز مقعدها المطلوب في كلّية

إيزابيلا ثوبورن بلكناؤ. سمع قريبٌ موسرٌ لها في لكناؤ بقدومها في الثالث عشر من تمّوز - يوليو. عكفت تشامبا على تجهيز حقائبها، ولكن لم يكن لديها الكثير لتجهيزه سوى نصف دزينةٍ سوارٍ قطنية، ابتاعتها لها أمّها بثلاث روبيّاتٍ أو أربع لكلّ قطعةٍ. وذات مساءٍ حين كان أبوها يتحدّث إلى عميله في غرفةٍ مطلّةٍ على الدّرب، دخلت أمّها غرفتها، وناولتها مظروفاً وصلها في بريد المساء، ثم انصرفت إلى المطبخ.

فتحت تشامبا المظروف المربّع الأزرق الرماديّ الرائع الذي حمل ختم مكتب بريد موسوري، ورسالةً بالإنجليزيّة تخاطبها «عزيزتي تشامبا» بلغةٍ غير رسميّةٍ. مفاد الرّسالة: «يسعدني أنّك ستلتحقين هذا العام بكليّتنا» تلاها تفاصيل عن تشاند باغ. ذكرت الرّسالة أنّ النّوادي المذكورة أدناه سترحّب بها بناءً على رغبتها واهتماماتها، فإذا كانت تحبّ الفضاء الخارجي فلا بدّ من أن تلقى جايالا أباسوامي، مدير الألعاب الرياضيّة. ويسرّ أمينة نادي التنس رادا شريناغيش انضمامها إلى النادي إذا كانت تلعبه، كما أنّ الجمعيّة المسرحيّة تنتظرها ببالغ الشّوق إذا أحبّت التمثيل على المسرح وهلمّ جرّاً. وعلمت أيضاً أنّها ستكون تحت رعاية كاتبة تلك الرّسالة، وهي طالبةٌ في السّنة النّهائية من البكالوريوس، ستكون مستشارتها الرسميّة طيلة العام المقبل. لذلك عند وصولها إلى الكلّية في الرابع عشر من يوليو في السّاعة الثامنة صباحاً، استقبلتها الكاتبة قرب أدراج قاعة فلورانس نيكولاس، وساعدتها في حلّ ما واجهته من مشكلات. حملت الرّسالة توقيع تهمينة رضا، قاعة أوكلاند بموسوري.

بُهتت تشامبا. من هي تهمينة رضا؟ وكيف حصلت على عنوانها؟ خُيّل إليها كأنّها جزءٌ من قصّةٍ خرافيّةٍ، عادة ما توجد تلك الرسائل في رواياتٍ

رومانسيّةٍ أرديّةٍ تكتبها سيّدات الطبقة الوسطى العليا من العهد السابق. تذكّرت نسخةً من الحكايات الخياليّة الأيرلنديّة، اشترتها مرّةً بأربع آناتٍ من محلّ الكتب القديمة، وقد اقتنتها قبلها طفلةٌ إنجليزيّةٌ تدرس في مدرسة الرّاهبة ماري التنصيريّة ببانارس عنوانها: «كلمة السر لولوج الأرض الخياليّة». هل كانت تلك الرّسالة من تهمينة الأجنبيّة كلمة السرّ مثلها؟ لم تصدّق أنّها أوشكت على ولوج دنيا النّخبة الأسطوريّة. وربما تستطيع أن تصبح واحدةً منهن إن حالفها الحظّ.

36

حديقة القمر

«نتعهّد بوفائنا لك يا تشاند باغ العزيزة خلال السّنوات المقبلة!»

اختيرت هذه الأنشودة للكلّية، ورُكبت كلماتها على لحن أغنية «اشرب معنا بعيونك فحسب»، وبينما استمتعت الطّالبات بإنشادها، جلست عازفة البيانو السّيدة ميوزك جاردان مستقيمة على كرسي بلا ظهر تضغط على لوحة المفاتيح بوقارٍ. تعزف جاردن على الأرغن في كنيسة الكلّية، ثبتت الجزء العلوي من ساريها بدبّوسٍ على كتفها الأيسر في أناقةٍ، وقد ارتفع عن الأرض أربع بوصاتٍ. كانت السيّدة ميوزك جاردن وسلفتها السيّدة إيكونوميكس جاردن كلتاهما من لكناؤ. وثمة سيّدتان بنغاليّتان من الطّبقة البرهميّة، بالإضافة إلى سيّدين دمثين لم تمسهما حداثة العالم الجديد، تُعلّمان الأرديّة والفارسيّة، وبندت جي أستاذ الهنديّة والسنسكريتيّة الشّفوق. أصبحت السيدة كونستانسي داس العميدة الهنديّة الأولى للكلية، وقد حلّت مؤخّراً محلّ العميدة الأمريكيّة المتقاعدة الدكتورة ماري شانون.

كانت السيّدة داس لطيفةً وجميلةً من الطّبقة المسيحيّة الهنديّة الرفيعة جِدّاً، وهي أخت السيّدة ماهاراج سينغ الصّغرى، تنحدر من الفرع المسيحيّ لأسرة سيخيّة ملكيّة في كافورثالا، في حين تنحدر نائبة العميدة الآنسة سارال تشاكو من كيرالا. شكّل المجتمع الهنديّ مزيجاً أو فسيفساء

من ثقافاتٍ متعددة متعايشة سلمياً بسعادةٍ، أمّا بقيّة موظفيّ الكلية فكانوا أمريكان بيضاً، ماعدا الآنسة داؤنز التي تلازم الابتسامةُ شفتيها، فهي ممرّضة سوداء، تتكفّل برعاية مستشفى بنت الملك التبشيريّة الميثوديّة. أما الآنسة إيزابيلّا ثوبورن، فقدمت من أوهايو عام 1862م، وأسّست هذه الكلّية في أمين آباد، التي تطوّرت إلى كلّية مستقلّةٍ تمنح الشّهادات عام 1895م، ونُقلت إلى تشاند باغ الواقعة على نهر غومتي عام 1922م.

لقد اشتهرت كلّية إيزابيلّا ثوبورن بين النّاس بتشاند باغ، قبل عام 1857م. كانت تشاند باغ جزءاً من رامنا أو المتنزّه الملكيّ، الذي احتضن الغزال والثّور الأمريكيين، جاء إليه حكّام أوده ليتفرّجوا على مصارعة الأفيال والتّيوس. سميت مختلف نواحي لكناؤ «باغ» أي الحديقة، رسمها النّائب وزير ومن تبعه من الحكّام، وأُطلق على الأحياء السكنيّة اسم «غنج» أي خزينة الكنز.

لاحت كلّية إيزابيلّا ثوبورن بمبانيها الفخمة، وصالات الاستقبال المؤثثة بمفروشات فاخرة، والملاعب والحدائق الأنيقة التّصميم، كرحاب كلّية تقع في مكانٍ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة. لقد ربطت بين المباني ممرّاتٌ طويلةٌ متلألئة.... وسمّيت حديقة «الأوكالبتوس» غابة أردن، كما سمّيت أروقة الكلّية الثلاثة: «نشاط محل»، و«ماوني هال منزل»، و«مايتري باون». اشتركت المقيمات الهندوسيّات المسلمات في الاحتفال بالأعياد كـ«ديوالي» عيد الأنوار. في الاحتفال بذكرى المولد النبوي تلبس بعض الطالبات الهندوسيات «غرارا» ويحرقن بإجلالٍ أعواد البخّور.

كان الأساتذة الأمريكان من أفضل المبتعثين الذين أرسلتهم أمريكا إلى الهند في زمن اعتزالها. نأى الأمريكان الأجانبَ بأنفسهم عن السّياسة الهنديّة، ومع ذلك، فإنّهم كانوا أحياناً يدعون شخصيّات هنديّة كبيرة مثل سروجني

نايدو، وشعراء الأردية البارزين، وبندت جواهر لال نهرو، عوضاً عن الحاكم البريطـانيّ وحريمه، لإلقاء كلماتهم أمام الطّالبات حول المواضيع السياسـيّة. انضمت الكلّية إلى جامعة لكناؤ، وتابعت المنهج التعليميّ الأمريكيّ. إلّا أنّ مصطلح «أمركة» لم يكن متداولاً على المستوى الاجتماعيّ، ولم يكن الهنود قد اكتشـفوا في الواقع القـارّة الأمريكية حينذاك باسـتثناء الفلّاحين من بنجاب الذين استقرّوا في كاليفورنيا في العشرينيّات.

في صباح الرابع عشر من تمّوز - يوليو عام 1941م، دهشـت تشـامبا حين وجدت أسـماء أربعين طالبةً مسـلمةً من بين مائتين وخمسـين طالبـةً في قائمةٍ معلّقةٍ على لوحة الإعلانات بينهنّ الفتاة الفارعة الفاتنة مهر تاج بنت فرونتير غانـدي خـان عبد الغفار خـان، الّتي بـدت كتمثال الحرّية، كـما كانت بينهنّ تشاندرا ليخا بندت بنت أخت جواهر لال نهرو.

لقد بدأت النسـاء المسلمات يخرجن من عزلتهن كنسـاء الطّبقات المثقّفة. سـكنت في لكناؤ أختان مسلمتان في متوسـط العمر، هما: الآنسة شاه جهان بيجوم، والآنسـة روشن جهان بيجوم، تخرّجتا في تشاند باغ في العشرينيّات، ثم درستا في بريطانيا. وقد أصبحت روشن جهان بيجوم عميدة كلّية كرامت حسين للبنات المسلمات الواقعة في أسفل الشارع، (كانت هذه الكلّية للبنات المحجّبـات وقـد اختفـت رحابهـا المتمـدة وراء الجـدران). كانـت الأختان عانسـين، تتنقّـلان أحيانـاً بالدّراجة ذهاباً وإيّاباً على شـارع فيـض آباد، وقد باتت الدرّاجة وسـيلة التنقل المفضّلة لدى طالبـات الكلّية الحديثات بلكناؤ كـما أضحـت علامة عـلى الحريّة الأنثويّة مثلـما كانت في بريطانيـا وأمريكا في وقتٍ سـابقٍ. لا بدّ أن نور جهان يوسـف ذات العينـين الظبائيّتين كانت فتاةً جذّابةً في شـبابها، وقد غدت الآن مفتّشـةً للمدارس، تعيش في شـارع فيض

آباد. عندما ذهبت إلى إنجلترا للدّراسة لازمتها أختها كمرافقة.

بحلول عام 1941م، حين انضمّت تشامبا إلى تشاند باغ، اكتسبت المرأة ثقة أكبر بذاتها أكثر من ذي قبل، كما أصبح المجتمع أكثر انفتاحاً. ومع ذلك ظلّت تشاند باغ كلّيةً محافظةً، ذات قواعد قاسيةً، فلم تستطع الطّالبات في الصفوف الأولى الذهاب إلى حضرت غنج إلّا برفقة طالبات الصّفوف العليا، وكان دخول مدينة لكناؤ محظوراً عليهنّ، أمّا مواعدة الفتيات فلم تكن معهودة. كانت الكلّية، تشاند باغ، ساحةً لتحقيق المساواة الاجتماعيّة، إذ ارتدت بنات الحكام الأمراء والعامّة الساري البسيط ذاته، لأن المبتعثين الأمريكان ليست لديهم الغطرسة الطبقيّة كما عند البريطانيين.

لقد حدث ما وعدت به الغريبة تهمينة رضا في رسالتها، لقد التقت فتاةٌ بسيطةٌ في الرابع عشر من تمّوز - يوليو في الساعة الثامنة صباحاً بالتوقيت الأمريكي الدّقيق بتشامبا أحمد المصابة بشيءٍ من الحيرة والارتباك على درج قاعة فلورانس نيكولاس؛ وهي شرفة كلّية إيزابيلّا ثوبورن ذات الطابع الكلاسيكيّ الجديد.

«مرحباً. هل أنت تشامبا؟» سألت بسرورٍ. أومأت تشامبا برأسها دون أن تتفوه بكلمة.

«أنا تهمينة رضا، مستشارتك لمدّة عام واحد. تعالي معي».

أصيبت تشامبا بخيبة أملٍ، فقد كانت تتوقّع أن تلتقي بأميرةٍ أنيقةٍ كتبت إليها من قاعة أوكلاند في موسوري. أمّا تهمينة فكانت طالبةً طيّبةً في السنة النهائيّة للبكالوريوس، أخبرتها أنّ مكتب الكلّية أرسل عناوين الفتيات المقبولات حديثاً إلى بعض كبريات الطّالبات لإعداد خطابات التّرحيب إلى جانب أحد أعضاء هيئة التّدريس. تعمل الطّالبات الكبريات كمستشاراتٍ

للفتيات الجديدات خلال سنتهنّ الأولى في تشاند باغ. انضمّت إليهن طلعت، شقيقة تهمينة الصغرى، كطالبةٍ جديدةٍ أيضاً، وقالت لتشامبا: «يا إلهي، تشامبا *باجي*، رأيناك في باناراس في أبريل، أليس كذلك يا نيرمالا؟»

دُعيت تشامبا من قبل «مستشارتها» إلى منزل غولفيشان. جلست بعد ظهر يوم السّبت في الحديقة الخلفيّة بالقرب من الورد تتحدّث إلى تهمينة، حينها رأت كمال وهاري يتقدّمان نحوهما. تلاقت العيون، دهشوا قليلاً، ثمّ انفجروا جميعاً في قهقهةٍ شبابيّةٍ مرحةٍ.

هل قابلت هؤلاء الأوغاد من قبل، يا تشامبا؟» سألتها تهمينة.

«لم ألتق بهم حقّاً. رأيتهم يركبون سيارة رولز رويس وتساءلت عنهم»، أجابت تشامبا بهدوءٍ، فهي وإن كانت إحدى فتيات الطبقة المحرومة فإنها الآن تعيش مرفوعة الرأس وسط نخبةٍ مختارةٍ، لذا لم ترغب في أن تكشف شعورها العميق بعدم الأمان والدونيّة. كانت مثل أي واحدة منهنّ، بل تستطيع أن تجاريهنّ في أيّ مجالٍ من المجالات، علاوةً على هذا، لديها عنوانٌ في لكناؤ: بنغلٌ قريبٌ غنيٌّ في شارع السير وزير حسن. لا داعي لأن تقلق، فلن يذهبن أبداً إلى الحيّ المكتظّ في باناراس لرؤية المكان الذي تعيش فيه.

حدّق كمال وهاري في وجهها وهي تتحدث معهما بطريقةٍ متعاليةٍ. أدركا أنها تكبرهما بسنواتٍ قليلةٍ، لذلك، بالطبع، لا مجال لعلاقة رومانسيّة معها، فضلاً عن أنها صديقة الأخت الكبرى تهمينة، ومن ثم، وجب احترامها.

راحت طلعت تناديها تشامبا باجي، فبدأ كمال وهاري أيضاً يخاطبانها بـ«باجي» أي الأخت الكبيرة، ولكنّهما استغربا لماذا لا تزال فتاةٌ في الثالثة والعشرين من عمرها في مرحلة البكالوريوس. كانت هذه مسألةً شخصيّةً لا يجوز لأحدٍ أن يستفسر عنها، لم يكن لها أن تخبرهم بأنّها بدأت تعليمها في

مرحلةٍ متأخّرةٍ بسبب الصّعوبات الماليّة التي واجهها والدها.

«نحن، إقطاعيّون أرثذوكس من الشّرق، لم أستطع الذهاب إلى المدرسة إلى أن توفّي جدّي»، قدمت هذه المعلومات بنفسها طواعيّةً. باشرت تشامبا أحمد مهنة الغزل من أجل مواكبة صديقاتها ونظيراتها.

طلبت تهمينة من تشامبا البقاء لتناول العشاء. شاهدها عامر بين حشدٍ من الضّيوف في الحديقةِ. مستعيناً بشخصيّته الجذّابة قدّم نفسه بطريقةٍ ساحرةٍ. أحضر طعامها عن طاولات البوفيه بأناقة، وبقي بجانبها طوال المساء. كان من الواضح أنّه أُغرِم بها، وعلى الرغم من أنه خطيب مرشدتها فقد توطّدت علاقتهما الغراميّة بسرعةٍ هائلةٍ. في الدّاخل، في غرفة الانتظار، كانت تهمينة المسكينة تعزف بشكلٍ حالمٍ على البيانو أغنية فيري والتز لستريبوغ. لمعت أشعّة البدر في سماءٍ مخمليّةٍ سوداء، وصارت الحديقة معطّرةً برائحةِ زهور ملكة اللّيل الفواحة.

بدأ ضيوف العشاء يغادرون.

سأل عامر تشامبا على الفور «هل يمكنني لقاؤك غداً؟»

«لا»

«لماذا؟»

«لأسبابٍ بديهيّةٍ».

«اللّعنة على الأسباب. نحن نولد مرّةً واحدةً فقط، وما إلى ذلك» قال ببراعةٍ، وكان على استعدادٍ لتحمّل المخاطر. إلى جانب ذلك بدا أنّه من النوع الذي يتحكّم في المواقف.

في المساء التّالي، قاد سيارته إلى تشاند باغ، وقدّم نفسه بوصفه ابن عمّ السيّدة تهمينة رضا.

كان مصطلح «أبناء العم» مصطلحاً خاصاً يتسخدمه زائرو نُزُل السيّدات، ولكنّ الملازم رضا، كما يعلم الجميع، كان قريباً حقيقيّاً. جاءت تشامبا إلى غرفة الزوّار، فابتسم ابتسامةً عريضةً وقال:

«إنّني مصاحبك في المساء»، ووقّع على السجلّ.

أخذها في سيّارته الرّياضية القرمزيّة إلى نادي محمد باغ في حيّ المعسكر، لكونه خاصّاً بالجيش، لا يرتاده المدنيّون. تناولا القهوة، وعادا قبل إغلاق البوّابة بوقتٍ طويل، فلو تأخّرت، لأغلقت البوّابة في وجهها، ولم يكن ليسمح لها بالخروج ثانيةً لتمضي مدّة معيّنة من الزمن.

أخذ عامر إجازة لمدة شهرٍ واحدٍ، فراح يخرج مع تشامبا كلّ ليلةٍ تقريباً. توغّلا في أعماق الريف، وذهبا أبعد من تشينهات أو باخشي كا تالاب، وهما موقعان مفضّلان للنزهة بالقرب من لكناؤ. تعاملا بشرفٍ ونزاهةٍ حتّى أنّهما لم يمسكا أيدي بعضهما بعضاً، واقتصرت علاقتهما على تبادل الأحاديث فقط. حكى لها عن طفولته، ومربّيته الرّهيبة نينا، وخطبته «القسريّة» لتهمينة. قال لها إنّه شابٌّ غير سعيدٍ. «كيف نستطيع أنا وأنت ألّا نؤذي تيم (تهمينة) المسكينة؟ أنا في الحقيقة في معضلةٍ كبيرةٍ... هذا يذكرنّي... بأنّني قد أُبعثُ إلى جبهة الحرب قريباً. أرجوك أن تعديني بأنك ستنتظرينني.. سوف نجد طريقة للخلاص من هذا الوضع الرّهيب، لا تقلقي».

اعتقد عامر وتشامبا أنّهما كانا حذرين بشأن لقاءاتهما السريّة، ولكن ذات يومٍ أفشى بانديت جواهر لال نهرو، دون قصدٍ، هذا السرّ. فقد جاء إلى تشاند باغ للحديث عن كتابه «اكتشاف الهند». وقف على خشبة المسرح في قاعة الجمعيّة، وألقى نظرةً حانية على الفتيات، وكأنهن جميعاً أفراد عائلته الممتدّة، كان حنوناً وغير رسميٍّ في تعامله مع الحضور. قال نهرو خلال محاضرته التي

ناقش فيها الجغرافيا الهنديّة ما قبل التّاريخ: «إذا كنت ترغب في الذّهاب إلى موسوري عليك ركوب سفينةٍ وعبور البحر للوصول إلى جبال الهيمالايا».

في اليوم التالي، أخذت تهمينة تشامبا معها إلى «إنديا كوفي هاوس» في حضرت غنج، وانضمّ إليهما هاري وكمال ولاج ونيرمالا وطلعت كالعادة راكبين درّاجاتهم، بدأت تهمينة ولاج تناقشان زيارة بانديت نهرو.

قالت نيرمالا بلهجةٍ مصطنعةٍ: «ما أجمله!»،

«نعم، ما أروعه!» قالت طلعت بلهجةٍ مصطنعةٍ أكثر.

فضحك كمال وهاري شانكار.

«نعم، لكنّه كشف انتماءاته الطبقيّة عندما تحدّث عن الذهاب إلى موسوري..». اعترضت تهمينة، فقد كانت يساريّةً.

قال هاري بحكمةٍ: «هيّا يا تيم. كان بانديت نهرو يخاطب فتيات تشاند باغ، لم يكن يخاطب المزراعين من جمعيّة الفلّاحين، ألا توافقينني يا تشامبا باجي؟»

«لم أسمع محاضرته. لقد كنتُ في المكتبة أستعدّ للاختبار»، أجابت تشامبا دونما اكتراثٍ.

تبادلت تهمينة ولاج وطلعت ونيرمالا نظراتٍ لم تخل من دلالةٍ، فمن الواضح أنّ تهمينة كانت مستاءةً للغاية. ظلّ جميعهم صامتين، وفي طريق عودتهم بينما كانوا ينزلون عن جسر القرد، تقدّمت تهمينة على البقيّة، وطلبت من تشامبا أن تتبعها. ذهبتا مباشرةً إلى تشاند باغ.

«دعينا نذهب إلى حوض السّباحة للدردشة»، قالت متجهّمة الوجه.

كان الحوض مهجوراً. لقد جاء الخريف، فتكدّست أوراق الحبور في أكوامٍ تحت الأشجار. جلست تشامبا بوهنٍ على منصّة وثبٍ، وظلّت تهمينة

واقفةً. «انظري، تشـامبا، لا تكذبي أبداً»، قالت تهمينة رافعةً صوتها. «لم تكن ثمـة حاجةٌ لتقولي أنّك كنت في المكتبة أمس عندمـا جاء بانديت نهرو. المكتبة مغلقـةٌ لمدّةِ أسـبوعٍ لأعمال التّجديـد. كان بإمكانك أن تقـولي إنّك ذهبت إلى الخارج».

«انظري، لسـنا أناسـاً من مدينةٍ صغيرةٍ، ولكنّنا نعيش في مجتمعٍ متماسكٍ نعـرف فيه بعضنا بعضـاً. لقد خرجتِ مع عامـر مرتديةً سـارياً بلون الببغاء الأخـضر. لعلّـك تعرفين أنّ سـيّارته الرياضيّـة أصبحت تُعرف الآن باسـم «السـجّاد الطائر للأمير الجـذاب؟»، ولقد انطلقت الألسـنة في الجامعة الآن تقول: إنّ «الحورية الخضراء» من تشـاند باغ اختطفت أمير منزل غولفيشـان الجذّاب».

«بعض الفتيات يصبحن موضوع الحديث في تشـاند باغ وبادشاه باغ كلّ سنةٍ، لا أريدك أن تكوني واحدةً منهنّ».

خيَّم صمت مشؤومٌ عقب ذلك الانفجار. وفجأةً حدث شيءٌ ما لتشامبا. «إنّهـا تصرخ في وجهي وكأنّني خادمتها، سـوزان. هـل كانت لتتحدّث بهذه القسـوة لو كنـتُ ابنة قاضٍ في المحكمة العليا أو مالـكٍ إقطاعيٍّ؟ على الرّغم من تظاهرها بالميول اليسـاريّة فإنها مثل البقيّة...؟» لقد أدركت تهمينة وضع تشـامبا المالي. لم يكن لدى تشـامبا لباسٌ خاصٌّ بالحفلات سـوى سارٍ واحدٍ مـن قماش الجورجيت بلون الببغاء الأخـضر، ترتديه كلما ذهبت إلى الخارج، وبسـببه سُـميت «سـابز باري» أي الحورية الخـضراء، بطلة مسرحيـة «إندرا سـابها». كانـت تهمينة تعطـي في كثيرٍ من الأحيان ملابسـها الرّائعة لتشـامبا لترتديهـا في المناسـبات الخاصّـة، والآن تتجرأ هـذه المعوزة حاملـة المنح على اختطاف خطيبها.

«لم أكن أتصوّر أنك ستبلغين هذا المستوى من الجحود ونكران الجميل!» صرخت تهمينة.

ارتعدت تشامبا غيظاً. «ناكرةً للجميل! إنّني مازلتُ آكل ملحها وأرتدي ملابسها، وكأنّني جزءٌ من عائلتها الأرستقراطيّة».

نهضت وقالت بتحدٍّ: «أنا لست إيزابيل، ولكن إذا أردتِ مني أن أتّخذ السيّدة شاه جيهان بيجوم والسيدة روشن جيهان بيجوم نموذجاً لي، فأنتِ مخطئةٌ للأسف. لن أمنحك فرحة مشاهدتي أركب الدرّاجة في شارع فيض آباد بعد عشرين سنةٍ من الآن كخادمةٍ مسنّةٍ ترتدي نظارة...............».

حدّقت تهمينة فيها غير مصدقة، فبعد انتصارها على عامر، اكتشفت تشامبا قوّتها الجنسية. وعوضاً عن شعورها بعدم الارتياح في محيطها الجديد، جعلت الفتيات الأخريات يشعرن إزاءها بالحسد وعدم الأمان، ولا يسعهن إلا أن يصنفنها بـ«مبتذلةٍ»، أمّا الأمير عامر فكان على استعداد لترك عائلته الوجيهة من أجلها. إن إحساسها بالقوة جعلها أكثر جرأةٍ.

أضافت تشامبا قائلةً: «ثمة احتمالٌ في تحوّلك إلى مناضلةٍ تقود التظاهرات أسفل جسر القرد كثوريّةٍ زائفةٍ». ثمّ أخذت تركض عبر العشب نحو سكنها.

واصل عامر لقاء تشامبا كلّما عاد إلى البيت في إجازةٍ، فيما بقي هاري وكمال من المعجبين المتحمسّين له. دُعيت تشامبا كالمعتاد، لكن بوتيرة أقلّ، إلى بيت غولفيشان وفيلا الكستناء المائي لحضور الحفلات. تعلّمت تهمينة أن تتصالح مع الظروف، وتعيش بهدوءٍ نفسيٍّ. سيُعتبر تصرفها غير لائقٍ إذا انفصلت عنها تماماً كما في فيلم هندي تتنازع فيها سيدتان، إحداهما البطلة الطيّبة، والأخرى المرأة الشّريرة الماكرة، على اكتساب ودّ البطل الوسيم الجميل. نعم، بقيت تهمينة على علاقةٍ وديّةٍ مع تشامبا خلال السنوات اللاحقة.

37

فوق الموجات

«أنـا مقتنعةٌ بـأنّ تشـامبا جعلته يأكل لحـم البومة»، قالت زوجة حسـين بشكلٍ جديٍّ، وهي تطرز بخيوطٍ فضيّةٍ على «دوباتا» وشاح الشيفون الأحمر للآنسة تهمينة. ومثل العديد من النّساء المسلمات من الطبقة العاملة في لكناؤ، كانت ماهرةً في أعمال التطريز بالإبرة والخيوط الفضيّة التي تسمّى «كامداني» وكذلك في تطريز «تشيكان» بالخيوط القطنيّة في أوقات فراغها. لقد تعلّمت هـذه الحرفة مـن والدتها، والآن ابنهـا البالغ من العمر عشر سـنواتٍ يراقبها بعنايةٍ. كانت زوجة السّائق مشغولةً بحياكة تنانير تحتية مخرمة للعزيزة تهمينة، وكان رام دايا يعمل كمسـاعدٍ لهنّ. جلسـت النّسـوة على الحصائر المصنوعة من الأسل تحت شجرة التّوت خارج مساكن الخدم. يُضاف إلى جهاز عرس تهمينة على مدار السّنة أشياء جديدة، منذ أن كانت تلميذةً في المدرسة، والآن وقعت هذه الكارثة.

«لحم البومة..». كرّرت زوجة حسين.

عـلى الرّغم مـن أنّ البومة طائرٌ نـادرٌ، فإن بإمكان المرء العثـور على بومةٍ جيّدةٍ للسـحر الأسـود في سـوق ناخاس المشـهورة للطيـور. بالطبع، كانت باهظـة الثّمـن، ولكن إذا اسـتطعت تـلاوة الأدعيـة الفيدية الخاصـة عليها، وصنعـت منها الكباب، وأعطيته للرجل الذي أردت اسـتعباده مدى الحياة،

وتناوله فسوف يصير غبيّاً مثل «ألّو» أي البومة[1]، هذه وصفةً مجرّبةً منذ قديم الزّمان.

«... وإلّا كيف يمكن للأخ الكبير المحترم عامر رضا أن يتخلى عن عزيزتنا تهمينة التي تشبه اللؤلؤة في جمالها. الآنسة تشامبا فاتنةٌ سوداء تفتن الرجال، بل هي ساحرةٌ سوداء من بلد الغرائب بلد الشّرق».

«لو لم يكن هؤلاء من المعجبين بالموضة الإنكليزيّة لنصحت المدام بالحصول على تعويذةٍ من مزار الشاه مينا صاحب للعزيزة تهمينة كمضادٍّ للسحر».

«لابدّ أنها نفذت السحر عليه في عيد ديوالي الأخير»، قال رام دايا، «ومرّةً أخرى في عيد ديوالي هذا».

«نعم بالطّبع»، وافقت سوزان، الخادمة، فهي الأخرى قلقةً جدّاً بشأن تهمينة العزيزة، لأنها كثيراً ما رأتها تذرف الدموع في غرفتها.

جاء عيد ديوالي وذهب. صنعت لاج ونيرمالا «رانغولي»[2] في فناء دارهما للترحيب بالإلهة لاكشمي. خرج رام أوتار وغانغا دين للعب القمار، لأنه إذا لم تنغمس في لعبة النّرد في ليلة ديوالي فسوف تولد زغبة في حياتك القادمة. حتى قدير قامر قليلاً ليجذب الحظّ السعيد لنفسه.

في ليالي المهرجان المظلمة كانت السيّدة راي زادا ربة بيت غولفيشان، لا تسمح لأطفالها بالخروج من المنزل خوفاً من السّحر الأسود الذي يمارسه أتباع «لونا تشاماري» سحرة الأيّام السالفة. ثمة أشياءُ عجيبةٌ غريبةٌ خطيرةٌ تحدث في هذه اللّيالي المظلمة؛ تُرمى قدور الطّهي على العدوّ لقتله، وتوضع

(1) البومة رمزٌ للنحس والغباء في الثقافة الشعبيّة الهنديّة.

(2) «رانغولي» أنماط وأشكال تقليدية هنديّة تُصنع على الأرض من بتلات الزهور والأرز والرمال الملونة بمناسبات الأعياد والزّيجات وغيرها.

الأوعيـة الطينيّـة المليئة بالحلاوى والسّـحر الأسـود على مفـترق طرق لنقل الأرواح الشّريرة إلى المارّة غير المرتابين.

تقـول العمّـة زبيـدا: «لا تجلس على العشـب، فربما لا تـزال حيّات المطر تترصّـد هنـاك»، وتضيف: «تذهب الثعابين للسـبات بعـد أن تلعق مصابيح ديوالي المحترقة».

لقد جاء شـهر رمضان المقدّس وانقضى، يتميّز هذا الشـهر بطابع خاص، له سـحره وقداسـته. النّاس يصومون ويصلّون في هذا الشهر ومع ذلك فإنه يحمل الكثير من المتعة والمرح أيضاً. يسـتيقظ الجميع في السّـاعات الأولى من الفجر، ويتناولون السّحور قبل طلوع الفجر. بعد الظهر يبدأ الطّهي للإفطار الـذي يبـدأ عند غـروب الشّـمس، تتكون وجبة الإفطـار من أطبـاقٍ منوّعةٍ لذيذةٍ. تطلق المدافع في المدينة للإعلان عن الوقت المحدد لكسر الصّيام.

ثمة جماعاتٌ من المتطوّعين تجول في شوارع المدينة معلنة للناس بصوتٍ ملحَّنٍ «استيقظوا من سباتكم وتسحّروا». في كلّ مساءٍ يذهب الحسينيّ أو قدير بدرّاجته بانتظامٍ إلى أقرب مسجد حاملاً علبةً من وجبات الإفطار. يهتم الناس بإرسال الوجبات الخفيفة إلى الفقراء وأبناء السبيل وأئمة المساجد لكي يفطروا بها. تتكدَّس أكوامٌ من المواد الغذائيّة المرسلة من مختلف العائلات في المساجد المضاءة خلال شهر رمضان.

تبـدو حفلات الإفطار رائعةً، في أمسـية آخر يـوم للصيام تبلغ إثارة رؤية هلال العيد ذروتها، وفي يوم العيد تضاف الملابس الجديدة، وبطاقات معايدة العيـد، والهدايـا، والأطعمة الشـهيّة، وأصناف الشـعيريّة الحلـوة إلى الإثارة والبهجـة. الجميـع من أغنياء وفقراء على حدٍّ سـواءٍ يرتدون ملابس وأحذيةً جديـدةً كالأطفـال، كان كمال وطلعت متحمّسـين جّـداً لحذائيهما الجديدين

اللّذين وضعاهما تحت وسادتيهما!

يذهب الرّجال إلى المسجد لأداء صلاة العيد مع الجماعة، ثم يعودون إلى بيوتهم يهنّئون بعضهم بعضاً بعبارة «عيدٌ مباركٌ». يذهب الأخ الأكبر لصلاة العيد مع كمال والوالد، مرتدياً لباس شيرواني بلونٍ أبيض كريميّ، وسروال «تشوري دار» أبيض، وحذاء سليم شاهي. فيغدو كأمير مغولي، غير أنه في هذا العيد، كان بعيداً عن الأهل، في غوّاصة ألمانية في البحار الغربيّة. دعا الجميع في بيت غولفيشان لعودته الآمنة. لقد أحبّوه حبّاً جماً. لماذا كان يتصرف بغباءٍ شديدٍ بشأن تشامبا؟

لقد صدمت طلعت حين اكتشفت أنّ جمال المرأة يحتل مرتبة أعلى لدى الرجال، إذ يعتبرون الجسم أكثرَ أهميّةٍ من العقل. كانت ترقد في زاويةٍ من الحديقة الخلفيّة، قطعت باقة من العشب الحلو-المرّ ذي البتلات الثّلاث وقضمتها متأمّلةً. كان بوسعها سماع أصوات السيّدات الخافتة الحزينة في البيوت الخارجيّة. ربّما كنّ أيضاً يتحدّثن عن مأساة تهمينة، وهنّ مشغولاتٌ بتفصيل ملابس لهذه البنت اليائسة.

ثم خيّم الصّمت هناك.

نظرت طلعت إلى السّماء ذات اللون الأزرق الغامق. ساد هدوءٌ ساطعٌ في كلّ مكانٍ. وضعت أذنيها على سطح الأرض البارد الهادئ. أنا مستلقيةٌ على الأرض وأذناي ترفرفان مثل يأجوج ومأجوج. مدّت يدها وقطفت باقة أخرى من العشب الحلو- المرّ واستمرّت في قضمها وكأنها غير سعيدةٍ.

كان كمال وهاري شانكار يمشيان على طريقٍ هادئ في دهرادون، وكان أحد معارفهما من الإنجليز قد تحوَّل إلى ناسك، فطلب أصدقاؤه من كمال وهاري شانكار العثور عليه خلال العطلة وإحضاره. لقد بحثا عنه دون

جدوى في الكهوف والمعابد وفي سفوح الجبال بالقرب من مدينة هاريدوار، عثرا عليه ذات يومٍ بالقرب من معبد «جوغ مايا» خارج مدينة ريشي كيش. التمس منهما أن يتركاه وحيداً، ثم قفز فجأةً في مجرى صغيرٍ، واختفى بين أشجار الصّنوبر.

بعد ذلك سار الشابّان على طريقٍ عبقٍ في دالانوالا، ونهر رينا يجري أمامهما.

«هارى شانكار... صديقي»، قال كمال بصوتٍ مرحٍ عالٍ

«نعم».

«في الواقع هذا الولد على حقٍّ. نحن أنفسنا في وضعٍ مأساويٍّ رهيبٍ، سامحني على كلامي».

في ذلك المساء، تأمّلوا كثيراً فلسفة نبذ الدنيا، وناقشوا الموضوع بعمق.

«كلّ هذا يبدو سوء فهمٍ كوني كبير»، لاحظ كمال.

«دعنا نقرأ أسماء الفيلاتَ..». أجاب هاري شانكار وبدأ يقرأ الأسماء.

«أشيانا!... آها».

«نهاية السّحب... هذا الاسم جميلٌ».

«نحن نعيش على حافّة سحابةٍ؛ لن نبني منزلاً أبداً، لأن الصّقر لا يصنع عشّاً»، قال كمال مستشهداً بشعر إقبال.

«ألا ترون أنّ النّاس قد بنوا بيوتاً ومنازل جميلةً من جميع الأشكال. العالم مليءٌ بالمنازل».

«نعم، أليس هذا غريباً؟»

«أُحسّ برغبةٍ جامحةٍ الآن في تغيير بعض لوحات الأسماء القابلة للفصل مثلما فعلنا مرّةً على طريق فيض آباد بلكناؤ، لكنّني أدركت أنّنا لم نعد مثيري

شغب. نحن فقط فيلسوفان».

«لقد كان ذلك عملاً فلسفيّاً»، لاحظ كمال، «لأنّ البيوت تبقى كما هي، وتتغيّر أسماء أصحابها فقط...».

جلسا على الجسر الصينيّ الصغير الذي يربط خيابان منزل كمال بالطريق، واستأنفا تفكيرهما، لقد أقلقهما تصرّف الإنجليزيّ الذي نبذ الدنيا؛ لقد استسلم وهرب إلى الغابة. لماذا؟

أما الناسك الإنجليزي فقد كان نائماً بهدوءٍ على صخرةٍ بجانب ريسبانا.

38

عاشت الثورة!

في الأسبوع الأوّل من شهر سبتمبر - سبتمبر عام 1943م، حين كان كمال على وشـك مغادرة كلكتا للمشـاركة في أعمال إغاثة المصابين بالمجاعة، تلقّى رسالةً من زوج لاج الذي كان يعمل موظّفاً في الحكومة المركزيّة في نيو دلهي. كان والدا لاج يبحثان عن خطيبٍ مناسب لابنتهما الصغرى نيرمالا. فكتب:

أنت الآن ذاهبٌ إلى كلكتا. سـمعت أنّ نجل السيّد ديب نارايان نيلامبار، غوتـام، أيضاً موجـودٌ هناك في هذه الأيام. نحن نفكّر في أن نخطب غوتام لنيرمالا. سـمعنا أنّه مشـغولٌ أيضاً في أعمال إغاثـة المنكوبين بالمجاعة، إلى جانب إنتاج المسرحيّات الماركسـيّة لمسرح الشّـعب الهنديّ. هذا أمرٌ مقلقٌ جـدّاً، كما أرى، يقال إنّه مرتبـطٌ بالفنون الجميلة بطريقةٍ ما، ويعيش راضياً في شـانتي نيكيتـان. تأكّـد من العثـور عليـه في كلكتا، واطّلع عـلى أحواله وتفاصيـل حياتـه؛ هل هو شـابٌّ مسـؤولٌ أم متـشرّدٌ آخر مثلـك وهاري شانكار؟ أعطني المعلومات المفصّلة عنه في أقرب وقت ممكن.

تبع ذلك تفاصيل ذات صلةٍ بعائلة الشاب.

وضع كمال الرّسـالة في جيبه وتأوّه. الآلاف يموتون جوعاً، البلادُ مقبلةٌ على كارثةٍ هائلةٍ، وماذا يعمل زوج أختي؟ إنّه مشـغولٌ بالبحث عن خطيبٍ لنيرمالا. كان كمال ناشـطاً طلّابيّاً ثوريّاً، وعلاوةً على هذا، كانت الأحاديث

عن الزّفاف تملؤه استياءً وغيظاً منذ أن فشلت خطبة أخته تهمينة. «هل يجب أن أحمل جثثاً في شوارع كلكتا»، قال لطلعت بفظاظةٍ، «أم أتجوّل بحثاً عن زوجٍ للآنسة نيرمالا؟»

ومع ذلك، فمن منطلق الإحساس بالواجب دوّن عنوان الشاب على ورقةٍ وغادر إلى البنغال مع مجموعةٍ كبيرةٍ من الفتيان والفتيات من جامعته. أمضوا وقتهم في أثناء هذه الرّحلة الطويلة المملّة في الغناء أحياناً والجدال أحياناً أخرى أو الإغفاء. شاهد كمال حقول الذّرة الخضراء حيث تحرّك القطار باتجاه الشّرق، وأخذ يفكّر: هذه بلادي غير السّعيدة، هذه بلادي بلاد الجائعين. أثار التوق إلى الثّورة موجةً من المشاعر المتوتّرة المؤلمة في قلبه اليافع. استند إلى الجدار الخشبيّ الصّلب في المقصورة. لم يكن معتاداً على السفر في الدّرجة الثالثة، لكنه لم يرغب في فتح حقيبة فراشه، والاستلقاء على فراشه الغالي، لأن نظراءه سيسمونه مخنّثاً. أغلق عينيه وحاول تحليل انتماءاته الطبقية ومصدر وطنيّته الشديدة. لقد انضم والده مؤخراً إلى الرّابطة الإسلاميّة، ولم يجد تفسيراً بسيطاً للأحداث الأخيرة - دوران في حلقة مفرغة...

ومثل أيّ امرئٍ آخر كانت له هند خاصّة به تتكون من أشياء كثيرةٍ، قرية نيلامبور الخلّابة، والمقبرة العائليّة القديمة الواسعة المحاطة بأشجار البانيان، يمرّ فيها نهرٌ شفّافٌ مثل «المياه الحيّة» في الكتاب المقدّس. وثمة مزارٌ صغير لصيقٌ بالمقبرة، يسكنه دراويش بسطاء، بوسعك أحياناً في منتصف اللّيل سماع أحدهم يصرخ: «الله-هو!» لم يتسنّ لأيّ أحدٍ أن يفهم أسرار تلك اللّيالي الصامتة والصرخات الوحيدة؛ ما سماه الصوفيّون رحلة من وحدة إلى وحدة.

ثمة مبنىً رمادي غامض آخر في قريته، وهو دير قديم زاره مرّةً في طفولته

مع والده. رأى فيه شاباً قصيراً وسميناً يرتدي لباساً بلون المغرّة، يجلس بهدوءٍ على أريكةٍ خشبيّةٍ في غرفةٍ خاليةٍ من الأثاث. كان الشابّ خرّيجاً جامعياً، وقد تولّى مؤخراً رئاسة الدّير. بقي صامتاً وأعطى كمال برتقالةً.

كانت حديقة الدّير غنيّةً بأزهار القطيفة والموز، وتفتحت أزهار اللّوتس الحمراء في خزّان ماءٍ، وغنّى طائر الكوئيل على أشجار المانجو.

إذن، كيف يمكن تحديد سمات هذا البلد؟ كانت الهند الأمّ العجوز لقدير، مرتديةً سارياً أصفر من القطن الخام. كانت امرأةً محترفةً، تشرف على الجناح النسائيّ في السّجن. لقد جاءت إلى محطّة القطار في ميرزابور ذات مرّةٍ، وأعطت كمال ألعاباً طينية، وطرق الأحياء الهادئة الرّاقية المعروفة بـ «سيويل لائنز» حيث عبيد الأسياد الإنجليز يتنزّهون مع حيواناتهم الأليفة، جزءٌ من الهند أيضاً. في المناطق الريفيّة، كان النّاس يطلقون على مرض الجدري وجدري الماء «ماتا» ويعدّونها مظهراً من مظاهر عقاب الإلهة «سيتالا»، طبّاخهم العجوز، بشارت حسين، ينتمي إلى قريةٍ في مقاطعة غازيبور، وهو يشبه علي بابا بلحيته البيضاء الطّويلة.

أصيب كمال في صغره بجدري الماء، وذات صباح، دخل بشارت حسين على رؤوس أصابعه إلى غرفة المرضى، ووضع على رأسه طاقيته من قطن الموسلين، ثم وقف على ساقٍ واحدةٍ، وطوى كفّيه مناشداً «الرّوح» الشّعبية: «أيّتها الأم «سيتالا»، اتركي الأخ كمال وشأنه وغادري. أتذرّع إليكِ، أطوي كفّي إليك وألتمس منك!» هذا الطبّاخُ أيضاً يمثل الهند.

مازالت أحداث ثورة عام 1857م تطارد جيل أجداده، حتّى دوّن الرجال الإنجليز أنّهم خاطوا الهندوس والمسلمين أحياء في جلد البقر والخنزير، عقاباً لهم.

كان والد جدّ كمال المغامر، كمال الدّين علي رضا بهادور، المعروف باسم

النّـواب كامان، قد ذهـب إلى إنجلترا في العام المشـؤوم 1856م. وعند عودته بعـد عامين، وجد لكناؤ في حالةٍ من الدمار والخـراب، فانتقل إلى كلكتا. أمّا أخلافه فقد عادوا إلى الشّمال.

كان لدى المسـلمين مشـكلةٌ عاطفيّةٌ. عندما طالب أحـد أصدقاء مولانا محمّـد علي الإنجليز في أوكسـفورد أن يقـترح عنواناً لصورةٍ التقطها لسـيّدةٍ متسـوّلةٍ في البرقـع الممزّق، وهي جالسـةٌ على درج المسـجد الجامع في دلهي، خربش محمد علي تحتها - هذا ما بناه والدها.

في عام 1901م، سافر اثنان من الإقطاعيّين الصغار من منطقة تيراي، جدا كـمال وهاري شـانكار، إلى دلهي، وقـد كان كلاهما من أحفاد فرسـان الملكة حـضرت محل، وقد كانا فخورين بحضـور الاحتفال باليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا.

كتب أكبر الله آبادي، الشاعر السّاخر، بهذه المناسبة:

كيف أحكي لك ما رأيته
في عرض الإمبراطوريّة
المبهرج بالفخفخة والأبّهة
كان نهر اليامونا المقدّس يجري في الجانب
الأعظم والأسمى بين الإنجليز
ملك كونت الشّهير
الأفيال والفرسان والمدافع والخيام والفرق العسكريّة،
الكلّ يتنافس في الحشد
ليقترب من مصدر القوّة

تحت شمس الحكم البريطانيّ السّاطعة
لم أر قط اللورد كورزون
المحفل والساقي كلاهما للإنجليز...
رقصت السّيدة كرزون حتّى الفجر
في قاعة شاهجهان الرخاميّة...
سمعت أنّ الحفلة كانت مثل جلسة «إنديرا»
كيف يمكنني الذهاب إلى هناك؟
لي نصيبٌ في المشاهدة عن بعدٍ، وحسب..
أنا لا أملك سوى عيني، وهم يملكون كلَّ شيء...

جلس كمال وشرع في قراءة القصيدة، ثم مال مرّةً أخرى إلى الوراء. «إنّه مجنونٌ، يا إلهي» قال أصدقاؤه بابتسامةٍ عريضةٍ. أغلق عينه واستأنف رحلته الخاصّة مروراً بمقاطعات ولاية أوترا براديش الفقيرة، استرجع كمال بعض وقائع طفولته. في عام 1934م، بدأ زعيم حزب المؤتمر السيّد رفيع أحمد قدوائي، حركةَ الامتناع عن دفع الضّرائب على الأراضي، فتوقّف الفلّاحون عن دفع الرّسوم على الأراضي، ممّا أثار حفيظة والد كمال وعمّه السير ذكي. أما خاله أسد فقد كان مبتهجاً، لأنّه كان قومياً صاحب رؤيةٍ، وهو ابن عمّ والدة كمال الذي سمّى ابنته خالدة على اسم الكاتبة التّركية خالدة أديب خانوم، وزيرة التعليم في الجمهوريّة التركيّة الجديدة. لقد أتى بمعلوماتٍ غريبةٍ: عندما زارت خالدة خانوم بومباي عام 1934م، أعطت الراقصة أنيت اسم «أزوري». كانت هذه الرّاقصة المانجلورية قد قدّمت عرضها في قاعة «ثري آرت سيركل» لبيجوم عطية الكائنة في منطقة مالابار هيل الراقية،

ووفقاً للبيانات التي جمعتها الحكومة عام 1921م، كان عدد الفتيات المسلمات في المدارس أكبر من عدد الفتيات الهندوسيّات.

إذن، لماذا يتخلّف هذا المجتمع عن الآخرين؟

لقد فرح الهنود بفوز اليابان على روسيا عام 1905م، لكنّهم لم يتمكّنوا من الاحتفال بأبطال ثورة عام 1857م، إذ وجدوا أبطالهم في تركيا وإيطاليا وأيرلندا. كتبت الرّوايات الصادرة باللّغة الأرديّة عن الحرب التركيّة الروسيّة عام 1878م، وسمّى المسلمون مواليديهم الجدد بأسماء أبطال حروب البلقان والحرب العالميّة الأولى. في جامعة لكناؤ ثمة أخوان، مدحت كمال قدواي، وشقيقه أنور جمال، سُمّيا على اسم الجنرالين التركيين مدحت وأنور باشا. كان كمال يُدعى كمال باشا، تيمّناً باسم كمال أتاتورك، مؤسّس تركيّا الحديثة...

دخل القطار إلى أراضي بيهار. فكّر كمال في أم قدير الضّعيفة...

تنتمي بدر النّساء إلى مقاطعة مونغير، وكانت مثل العديد من النّساء المسنّات مخزناً للأساطير والقصص غير المعروفة في منطقتها، كقصص «غول وصنوبر» طفلَي النّائب مير قاسم، ناظم البنغال، وبيهار وأوريسا. كان الأخ والأخت، أي غول وصنوبر، يتخفيان بجلد النّمر، ويجلبان الطّعام إلى والدهما الذي اختبأ بعد هزيمة بوكسار في غابة ما في بيهار. وذات ليلةٍ، قتلهما ضابطٌ إنكليزيٌّ بإطلاق النّار عليهما خطأً، إذ ظنّهما نمرين كامنين في الأدغال.

ظلّ كمال ينظر إلى الخارج من النّافذة. فكّر: لقد كان البريطانيّون مصدر الشرور، ومع ذلك، ثمّة حقيقةٌ لا جدال فيها: هي أنّ الإنجليز هم الذين صنعوا الهند الحديثة، حتّى المرشد العظيم كارل ماركس أيّد ذلك. حنى رأسه حين سقطت ذرة غبار في عينه، أثارتها الرياح.

عندما كنّا أطفالاً كنّا نقرأ الكتب التي تنشرها شركة «الأب توك، إي

سي 4» بلندن، ولكنّنا سمعنا أيضاً قصصاً روتها لنا جدّتي لأمي وخالاتنا وممرّضاتنا: حكايات الحكيم لقمان، وألف ليلةٍ وليلة، وملاحم إيران والعالم العربي. لقد صارت التلميحات من رامايانا جزءاً من الأمثال الأرديّة. ثمّ هناك قصص الأمير حمزة، وقصص النبيّ، وحكايات الصوفيّة، وأحداث ووقائع من عهود السّلاطين والملكات. اشتهر تانا شاه، سلطان دكن (حيدر آباد حالياً) في القرن السّابع عشر بحبّه البالغ للجمال وحساسيّته المفرطة. يُقال إنّه بمجرد مرور كناس على مسافةٍ منه كان يُغمى عليه، ومن هذا المنطلق أصبح تانا شاه رمزاً للحساسيّة.

يتألّف نمط الحياة الهنديّ – الإسلاميّ من الثقافات: المغوليّة، والفارسيّة، والتركيّة، والثقافات الإقليميّة الهندوسيّة الراجبوتيّة. إذن، فما هي «الهنديّة» أو العنصر الهنديّ الذي بدأت الرّابطة الإسلامية تعترض عليه؟ أيمكن أن يكون ثمة هندٌ بديلةٌ؟ ولماذا؟

تأثّر اللّيبراليّون الهنود بليبراليّة إنجلترا من القرن التاسع عشر، وفي العشرينيّات من القرن العشرين، أسّس رجلان إنجليزيّان، برات وبرادلي، الحزب الشيوعيّ الهنديّ.

لا توجد قوّةٌ استعماريّةٌ تضاهي القوّة الاستعماريّة البريطانيّة.

لقد أصبح الهنود ضحايا سياسات الطّبقة المتوسّطة الحضريّة. الحياة في القرى مختلفةٌ، هنا في القرية يُدعى كلّ إنسانٍ بالأخ، أو العمّ، أو الجدّ في دلالةٍ على أنّ القرية عائلةٌ كبيرةٌ مشتركةٌ مكتفيةٌ بذاتها مقسمة على أساس الطّبقة، وقد كان المسلمون فيها مجرّد طبقةٍ أخرى. صحيحٌ أنّهم لا يتناولون الطّعام معاً، ولكنّها من المحرمات التي شكّلت جزءاً من التقاليد؛ ولم تنطو على أيّ ضغينةٍ دينيّةٍ، فرجال الطّبقة العليا من الهندوس لا يتناولون الطّعام مع رجال

الطّبقات الدّنيا من الهندوس أيضاً.

لو كان العمّ ذكي على قيد الحياة اليوم، لأصبح زعيم الرّابطة الإسلاميّة.

حكى لنا الخال أسـد حكاياتٍ مثيرةً عن مولانا عبيد الله السّندي، وراجا ماهينـدر براتـاب، وحكومتهـما الهنديّـة الحـرّة، وحركتهـا المعروفـة بحركة «المنديل الأحمر» السرّية، فقد كان روّادها يخيطون رسائل سرّيةٍ داخل بطانات السّـعاة. قُبـض على زعيـم الحركة، مولانا محمود حسـن، رئيـس دار العلوم بديوبنـد، ورُحِّـل إلى مالطا. عاش العديـد من الثوريّين فقـراء، أو منفيين في أوروبا، أو ماتوا في منازلهم مُعوزين. أما رئيس مدرسة فرنغي محل الإسلاميّة الأسـطوريّة في القـرن السـابع عشر، فلم يتنـاول بعد عام 1857م، السّـكر أو الثّلـج المصنوع في المصانع الإنجليزيّة، ولم يسـتخدم البطانيّـات الإنجليزيّة؛ كان أوّل من قاطع السّلع البريطانيّة.

وبينـما كان كمال يمـرّ بأرياف بيهار المجدبة، تذكر فجأةً بيت شـعر لراجا رام نارايان ماوزان طالما ردَّده الخال أسد:

يا غزلان الصحراء! أخبرينا كيف مات مجنون ليلى
ماذا حدث للصّحراء بعد وفاة مجنون ليلى؟

ينحـدر راجـا الشـاعر الأردي مـن مدينـة باتنـا، كان نائباً لناظـم البنغال وبيهار وأوريسـا في حكومة سراج الدّولة. لما سـمع خبر هزيمة سراج الدّولة في معركـة بلاسي، تلا هذا الشـعر بطريقةٍ عفويّةٍ، ثم مـزّق ثيابه وركض نحو الغابـة، هاجـراً الدّنيا، ومنذ ذلك الحين لم يُرَ في أيّ مكانٍ، ولم يُسـمع أيّ خبرٍ عنه.

كان سراج الدّولة والراجا يمثلان الهند.

وهناك عمر سبحاني الذي طواه النّسيان، ملك القطن في بومباي، الذي موّل المؤتمر الوطنيّ الهنديّ. لقد خفضت الحكومة البريطانيّة سعر قطن لانكشاير كإجراءٍ عقابيٍّ له، وحوّلته إلى مفلس بين عشيّةٍ وضحاها. توفّي عام 1926م.

كان والد الرّفيق محمود الظفر من طبقة الباتهانية الأرستقراطيّة في رامبور، ذهبت ابنتا عمّه، عذراء وزهرة، إلى ألمانيا لتعلّم الرقص الحديث، وفي سنّ السّادسة، أرسل محمود إلى إنجلترا للدّراسة، وهو بالكاد يتكلّم الأرديّة. كان لديهم قصرٌ كبيرٌ على طراز تيودور في دهرادون فيه شلال خاص، وحدائق، وحديقة حيوانات. كنّا نحن الأطفال نذهب إلى هناك من منزل خيابان للّعب. أخته حميدة، جرّاحة عيونٍ، وقد وهبوا منزلهم الفخم للحزب. كانوا شيوعيّين حقيقيّين.

أما السيّد الوزير وابن السيّدة السّير حسن، سجاد ظهير، فقد قدم عام 1931م من أكسفورد إلى الهند لمدّة ستّة أشهرٍ، حيث نشر مجموعته القصصيّة المتمرّدة بالأردية «أنغاري» (الشعل). تزوجت الدكتورة رشيد جهان الكاتبة من محمود ظفر، وقد أسس والداها الشيخ عبد الله وبيجوم عبد الله، مدرسةً للبنات المسلمات في عليجراه عام 1907م، وهي الآن كليّةٌ مشهورةٌ للبنات. درست بنتا عبد الله في إنجلترا، وهو شيءٌ لم يسمع بمثله في ذلك الوقت. انضمّت إحداهما، وهي خورشيد، إلى جماعةٍ أخرى من الرّواد: ديفيكا راني، وهيمانشو روي، ورينوكا ديفي، نجمة مسرح بومباي «بومباي تاكيز». وكذلك السيّدة صاحب سينغ سوخي التي اشتهرت باسم «مانيكا» الرّاقصة. إنّه لمذهلٌ والله!

فرضت حكومة ولاية أترا براديش الحظر على المجموعة القصصيّة

«أنغاري». وفي عام 1935م، أسس سجاد ظهير ورفاقه في لندن جمعيّة الكتّاب التقدميّين الهنود، وقد كتب منشورها الدّكتور جيوتي غوش، والدكتور مولك راج أناند، وبرومود سين غوبتا، والدكتور محمد دين تيسير، وسجاد ظهير.

كانت كلكتا ولاهور ولكناؤ وجامعة عليجراه الإسلاميّة من أهمّ مراكز النشاط اليساريّ.

في عام 1937م حدث أمران مهمّان في لكناؤ: إحياء الرابطة الإسلاميّة لعموم الهند، وتأسيس حكم المؤتمر الوطنيّ. ووفقاً للخال أسد، عانى الإحياء من الانهيار بسبب التّنافس الشخصيّ بين اثنين من السّاسة المحلّيين، هما: شودري خليق الزمان، وسيّد علي ظهير.

ذات يوم، وبينما كان كمال يمرّ أمام غرفة المجلس، وهو يصفّر تصفيراً خافتاً، رأى السّيدة فيجاي لاكشمي بانديت تخرج من سيّارتها اللّيموزين السّوداء. كانت سيّدةً جميلةً تحيط بها هالةٌ من الرومانسيّة. سمع كمال من شيوخه أنّ سكرتير والدها الخاصّ الوسيم وقع في حبّها، لكنّه كان ينحدر من طائفةٍ دون طائفتها، فتمّ إبعادها على وجه السّرعة إلى أمريكا، ثمّ تزوّجت من رجلٍ برهميٍّ من مهاراشترا.

كانت بيجوم جهان آرا شاهناواز هي السيّدة الكريمة الأخرى التي رآها كمال في اليوم نفسه في ذلك الشتاء. كانت زعيمةً سياسيّةً معروفةً، مثلها مثل السيدة بانديت، تمثّل عائلةً سياسيّةً من الطّبقة العليا. لقد جاءت من لاهور لحضور الدّورة التاريخيّة للرابطة الإسلاميّة لعموم الهند.

وثمة أميرتا حيدر آباد: دُرّ شاهوار، ونيلوفر، المشهورتان بجمالهما التركيّ ووجهيهما اللذين كانا ينمّان عن الحزن، يجري في عروقهما الدّم الملكيّ، لقد

مثّلتا الوهج الأخير للسلطنة العثمانيّة وكانت لوحاتهما معلّقةً في الكثير من بيوت الطّبقة الوسطى المسلمة. مثّل ملك دكن بديلاً عاطفيّاً للإمبراطور المغوليّ الأخير بالنّسبة للمسلمين.

«لقد دمّر الحلفاء الإمبرياليّون السّلطنة العثمانيّة»، أكّد الخال أسد بقوّةٍ. «كيف استطاع عنصرٌ شرقيٌّ أن يحكم نصف أوروبا؟ لا يهمّ إن وصفتهم بالأتراك الرّهيبين، إذ لا يمكن إلّا للبيض المسيحيّين أن يكونوا العنصر الحاكم». قال الخال أسد لـ «تيم»، كانت المجلات النسائية الأرديّة تنشر صور كلّ أولئك الجميلات: السيّدة بانديت، والملكة ثريا من إيران، وملكات كونش بيهار، وكابورتالا، وبارودا. كما أنّ هذه المجلّات كانت تنشر بفخرٍ صور الكاتب القصصي الأردي حجاب امتياز علي من مدراس ولاهور. في عام 1936م، كنّا نجلس في شرفة منزل خيابان إذ وصلت المجلّة الأسبوعيّة للسيّدات على غلافها صورة لتهزيل نيسوان ترتدي فيها نظّاراتٍ واقيةٍ، وتجلس في مقصورة الطّيار!

كان بارادري في قيصر باغ بمثابة القصر الثقافي لواجد علي شاه، وكان فنانو «كاثاك» المهرة مثل: أشخان، وشامبو ماهاراج يرقصون هناك. تدفّقت الألحان من كليّة ماريس، وكان صوت الموسيقى لا ينقطع البتة.

وثمة الفنّان الماهر الذي قال النّاس عنه إنّه كان يستطيع علاج أيّ مرضٍ بإنشاد بعض الـ «راغا» (الألحان)، كما كان هناك من يستطيع استحضار الأشكال الروحيّة للألحان والملحّنين من خلال غنائه. ماذا يعني عندما يعزِف أحدٌ من الบانديت عالم ورجل دين من الطبقة البرهميّة المهاراشترية الموسيقى الهنديّة الكلاسيكيّة برفقة أحد المطربين المسلمين؟ هل يعني أنهما ينتميان إلى حضارتين مختلفتين؟ الآن يتمّ إعادة تعريف الثّقافة باعتبارها

هندوسيّةً خالصةً أو إسلاميّةً خالصةً من قبل «مهاسبها» و«مسلم ليغ» (الرّابطة الإسلامية).

كانت بيجوم شاهناواز ترتدي سارياً من الحرير، وكانت أقراطها الطويلة تومض أثناء حديثها أمام الميكروفون في قيصر باغ. لقد تمّ إحياء الرّابطة الإسلاميّة في الهند في تلك الجلسة على يدي محمد علي جناح وأمير محمد خان ملك محمود آباد الشاب.

«إنّه شابٌّ مثاليٌّ» قال والد كمال. موّل ملك الحركة الباكستانيّة الجديدة، وكان السيد جناح عضواً في المؤتمر الوطني، لُقّب سابقاً بسفير الوحدة بين الهندوس والمسلمين، وكانت زوجته الرائعة راتيباي ابنة رجل أعمال بارسي، السير دينشاو بيتيت. كان جناح يمثّل الطبقة الأرستقراطية العليا في المجتمع، وعندما توفّيت زوجته، نُشرت صورتها في مجلّةٍ مع عبارةٍ توضيحيّةٍ تقول «للأسف! اختفى هذا الوجه الجميل إلى الأبد!»

وفي عام 1938م أقيم معرضٌ صناعيٌّ على ضفاف نهر غومتي. جلس كمال على درج منزل غولفيشان، كانت أغاني الأفلام تذاع على مكبّرات الصّوت، وتنتشر في الأجواء عند المساء. تقول إحدى الأغاني «كايا ايك غهاروندا هاى» (الجسد بيتٌ من الطّين وحسب... بيتٌ من الطّين...) وقد غنّاها الممثّل السينمائيّ أشرف خان. ومثل اليهود في أمريكا، كان عددٌ كبيرٌ من الرّجال والنّساء المسلمين ينتمون إلى صناعة التّرفيه، وكانوا من بين الفنانين الروّاد في البلاد. حافظ عددٌ لا يحصى من البيوت (السلسلة) الموسيقيّة على تقاليد الموسيقى الكلاسيكيّة الهندوستانيّة. كان الخيط الإسلاميّ حاضراً في كلّ نمطٍ من أنماط النّسيج الثقافيّ الهنديّ، فهل سيُحذف كلّ هذا جراء المطالبة بإنشاء باكستان؟ كان هذا الفكر يقلق القوميّين القدامى مثل الخال

أسد، وكان الشّباب يحملون أحلاماً خاصّةً بهم لتأسيس هند اشتراكيّة.

كانت الصحافة الأرديّة تسمّي الشاعرة المشهورة ساروجيني نائيدو «بلبل الهند». لقد اتّخذت حكومة نظام خطواتٍ كثيرةً من أجل تعليم المرأة، وكانت ساروجيني نائيدو واحدةً من أولئك الكثيرين الذين ابتعثتهم الحكومة إلى إنجلترا في منحةٍ دراسيّةٍ حكوميّةٍ، لتصبح لاحقاً زعيمةً ثوريّةً لحزب المؤتمر، على الرغم من أنها في الوقت ذاته كانت مواليةً للنظام عاطفياً. إذن فكيف يمكن تحديد سمات الهند بشكلٍ عامٍّ؟ ذلك أن الولاء البشريّ يتسم بالتعقيد ولا يمكن سبر أغواره ببساطةٍ.

حقيقةً، لم يكن ثمة خلافٌ بين الهندوس والمسلمين في الولايات الأميريّة؛ برزت هذه المشكلة في الهند في مرحلة ما بعد ثورة عام 1857م. تميّزت ولايتا جايبور وجواليار، الولايتان الهندوسيتان باحتفالات محرّم الأكثر روعةٍ، تحت رعاية الماهارجا. «فهل يجب علينا أن نصوّت لصالح الإقطاع؟» هكذا جادلت تهمينة بشراسة قريباً لها رجع لتوّه من حيدر أباد. «لماذا تختار أن تتجاهل الفلاحين في تيلانغانا؟»

استقالت حكومة المؤتمر الوطنيّ عام 1939م، ونادت الرّابطة الإسلاميّة بالاحتفال بيوم الخلاص. قال والد كمال: «المسلمون يتوجسّون خيفةً من حكم الأغلبيّة. لقد كان بإمكان المؤتمر الوطنيّ التّعامل بشيءٍ من الحكمة والحسّ العامّ، وعدم تنفير المسلمين. انتبه لكلامي عزيزي أسعد، إنّ حركة الرّابطة الإسلاميّة سوف تبرز بقوةٍ».

كان ثمّة شعار إسلامي يقول: «أيّها المسلم لقد قمتَ بجولاتٍ بوعاء تسوّلك / إذا كنت مسلماً انضمّ إلى الرّابطة الإسلاميّة».

كان كمال يعتقد أنّه اشتراكيٌّ، ولكنّه عندما ذهب لمشاهدة إضاءات شاه

نجف في اليوم الثامن من محرّم وقرأ عبارة «جلالة الملك غازي الدين حيدر» مكتوبةً بخطٍّ بارزٍ على واجهة إمام بارا المهيبة، أخذت الدّموع تنهمر من عينيه، كان الموظفون في إمام بارا أو مزار الإمام يرتدون زي المملكة السابقة الرسمي أثناء مسيرة الحنّاء المذهلة. كان احتفالاً مبهجاً ورائعاً، استهلّه الملوك الشّيعة من لكناؤ. تمّت خطبة الشابّ القاسم ابن الإمام حسين على ابنة عمّه عشيّة استشهاده، وعليه جرى التّقليد الإسلاميّ الهنديّ بإرسال صواني مليئةٍ بالحنّاء والهدايا إلى بيت العروس. كانت هذه المسيرة جزءاً من طقوس عديدة مهيبة استهدفت تعميق دراما كربلاء ومأساتها، إذ خرج النّاس في مسيرة «تعزيةٍ» سوداء عملاقةٍ في صمتٍ تامٍّ في اليوم الأربعين من الحداد، وقد اصطف الضبّاط الهندوس وفرسان شرطة أترابراديش كدلالة احترامٍ للإمام الحسين، ورافقوا مسيرة التّعزية الصّامتة. تلك هي الهندُ والثقافة الهنديّةَ في ذلك العصر.

شملت دفعةُ الخرّيجين لعام 1937- 1938 شخصيّاتٍ مثل أنور جمال قدوائي، وسردار جعفري، ودي. بي. دهار، وعلي جواد زيدي، والإخوة العبّاسيّين وشانكار دايال شارما، أما مصطفى حيدر ذو المظهر الجذّاب بشكلٍ استثنائيٍّ، فقد كان يُشار إليه ببساطةٍ بمختصر T.D.H. أي طويل القامة (Tall) والأسمر (Dark) والوسيم (Handsome) من قبل فتيات بادشاه باغ وتشاند باغ. أثناء الحملة التنافسيّة في انتخابات رئاسة الاتّحاد، وزعت الفتيات منشوراتٍ باللّون الورديّ جاء فيها: *تقول إنديرا ونهرو: صوّتوا لصالح مصطفى حيدر.*

انضممتُ أنا وهارى شانكار إلى كلّية كانينج عام 1939م كشابّين مفعمين بالأمل، وأعجبنا بكوكبةٍ من الشابات اللامعات في الجامعة: تزين حبيب الله، ومايا ساركار، وشاكونتالا جاسبال، وسكينة علي ظهير، وريتا داي،

ونِشاط غلام حسن، وأخوات منهاج الجميلات: سلطانة، وأمينة، وخديجة. حتّى السيّدات العاهرات على غرار أمراؤ جان أداء اللواتي لا يحظين بسمعةٍ جيّدةٍ في المجتمع التقليديّ غدون متعاطفاتٍ مع الحزب، فقد أقام بعض الرّفاق اجتماعاتٍ سرّيةً في منزل أمراؤ جان أداء في الساحة، وباتت تسمى الرّفيقة حسني.

لقد صوّر شاعر المراثي الشّهير مير أنيس نهر الفرات وحوّله إلى نهر غومتي في مرثيّته الكربلائية. وفي عام 1878م صوَّر الروائي الأردي الباندیت راتان ناث سارشار بطله آزاد، وهو يقاتل إلى جانب الأتراك في الحرب التّركية الرّوسية، ونقل مدينة لكناؤ إلى ضفاف نهر الدّانوب. لقد جلب الرفاق آنذاك ملتقى نهر فولجا العظيم إلى نهر غومتي الذي أخذ يتدفّق بهدوءٍ في مدينة الحدائق.

كان الشعراء أمثال: مجاز، وسردار جعفري، ووامق جاونبوري، وكيفي أعظمي يقرؤون قصائدهم في المقهى. وفي صباح يوم رأس السّنة، يتّصل الرجال والنّساء الشبّان بعضهم ببعض، يتناقلون قصيدة سردار جعفري الأخيرة:

من اتّصل بي ليهنّئني في يوم رأس السنة؟
يودّ أن يرقص ويمرح ويغنّي ببهجةٍ
خرج الملّاحون الشباب المغمورون بالنّعيم
قوارب ملّاحي الأحزان تموج وتتمايل.

«انقلاب زنده آباد!» أوعاشت الثّورة، كانت تلك العبارة الأرديّة مكتوبةً باللّغة الإنجليزيّة في كلّ الأرجاء، حتى أصبحت هذه العبارة الجديدة

الصّيحة الحربيّة للشباب في جميع أنحاء الهند...

خلال رحلة القطار الطّويلة المملّة، ظلت أفكار كمال تغيّر مسارها. تجادل كمال مع أصدقائه، وظلّ يغلبه النّعاس، حتى دخلوا البنغال في منتصف اللّيل. كان نائماً عندما توقّف القطار في محطّةٍ صغيرةٍ. تحرّك عددٌ من الضبّاط الإنجليز جيئةً وذهاباً على المنصّةِ. لم تكن ثمّة أضواءٌ في القطار، وكان ذلك مخيفاً بعض الشّيء. قال حارسٌ أوروبيٌّ- آسيويٌّ للطلّاب من لكناؤ، «عودوا إلى نومكم، يا شباب. هذا القطار لن يتحرّك حتى يغادر الجيش. هذا هو الجيش، السيّد جونز..». أخذ يغنّي أغنيةً شعبيّةً من زمن الحرب: «هذا هو الجيش، السيّد جونز، لقد تناولت الفطور في السّرير من قبلُ، ولن تتناول الفطور من بعدُ...ترا-لا-لا».

سار الحارس الأوروبيّ -الآسيويّ إلى نهاية المنصّة الطويلة حيث تجمع حشدٌ صغيرٌ حول جثّةٍ. نزل قبطانٌ إنجليزيٌّ من قطارٍعسكريٍّ ليشاهد المنظر.

«ما المشكلة يا رجال، انصرفوا من هنا»، صاح الحارس الأوروبيّ- الآسيوي على الحشد.

«لقد مات رجلٌ يا سيّدي»، أجاب موظّف السّكك الحديديّة بجديّةٍ.

«قال لي الرّجل الجائع قبل أن يموت إنّ اسمه أبو المنصور. قال إنّه لا يستطيع أن يحافظ على جسده وروحه معاً، لذلك أعاد روحه إلى الله سبحانه وتعالى مع الشّكر».

قمع القبطان الإنجليزيّ ابتسامةً.

«وعلاوةً على ذلك، قال المتوفّى: سيّدي، أرجوك أن تبلغ زوجتي أمينة بيبي التي تعيش في قريةٍ صغيرةٍ، بأنّه بسبب وفاته المفاجئة لم يتمكّن من

الوصول إلى كلكتا، وأنّه يجب عليها أن تقبل الواقع على أنّها إرادة الله سبحانه وتعالى وتأكل الجذور. وقال أيضاً: إنّه كان لديه ولدان ماتا بسبب الجوع، وهو سعيدٌ لأنّ زوجته ستموت قريباً وسوف يجتمعون معاً في مقرّ النعيم الأبديّ في الجنّة».

«يا إلهي!»، صاح الشابّ الإنجليزي على محنته، لقد اعتاد رؤية حقول القتلى على الجبهة الغربية، لكنّه لم يرَ القتلى الذين يموتون جوعاً.

«والآن يا سيّدي، يجب أن أسلّم بقاياه إلى الشرطيّ المسلم من شرطة السكك الحديديّة، الذي سيقوم بالواجب؛ مراسم الدفن وما إلى ذلك، فقبل أن يموت المرحوم أبو المنصور....».

ابتعد الرجل الإنجليزيّ إذ أحسّ بالغثيان.

«سيّدي، الهنود لا يموتون، إنّهم ينتقلون..». أوضح الحارس الأوروبيّ-الآسيويّ معتذراً. كان القطار على وشك المغادرة. تنهّد الضابط الإنجليزيّ وقال: «أوه، حسناً. دعونا نمضي في طريقنا، لنموت في أدغال بورما. وداعاً أيّها السّادة».

تحرّك القطار العسكريّ في قلب الظّلام. وضع الموظّف طيّب القلب فانوساً بالقرب من جثّة الفلاح أبي المنصور، وراح ينتظر الشرطي. ولما غادر القطار المتّجه إلى مقاطعة هاؤرا خلا الرصيف من النّاس، ولاحظ الصبية فانوس السكة الحديديّة الأحمر بالقرب من جثّةٍ مغطّاةٍ بملاءةٍ ممزّقةٍ في أجواءٍ سادها صمت مخيف.

وبينما كان كمال نائماً أيقظه أحد أصدقائه، فقفز قفزةً سريعةً، وأخذ يتحسّس جيب معطفه، ثمّ صاح: «يا إلهي !! لقد فقدت الرّسالة وعنوان ذلك الشاب. ما اسمه... هذا الشاب...؟

39

غوتام نيلامبار من شانتي نيكيتان

اجتمع أعضاء جمعيّة مسرح الشعب الهنديّ وعمّال الحزب الشيوعيّ في منزل زعيم طلابيٍّ محليٍّ في شارع السيّد أمير علي. وقد حضرت فرقة لكناؤ إلى جمعية مسرح الشّعب الهندي، كانت التمرينات جاريةً على قدم وساقٍ تحضيراً لبرنامج ثقافيٍّ يهدف إلى جمع الأموال من أجل إغاثة المنكوبين بالمجاعة. وقف فنانٌ ناشئٌ أمام مسند لوح الرّسام، وهو يضع اللّمسات الأخيرة على صورةٍ بالألوان المائيّة. كان من المقرّر إقامة مزادٍ علنيٍّ في نهاية المسرحيّة. مشت شقيقة المضيف متمايلةً تجاهه، ثم توقّفت...

«دادا..». يا أخي

«ماذا؟» سأل حالماً.

«اذهب وابحث عن فرقة أوترا براديش». مرّت عليه وصاحت بأوامر متنوّعةٍ.

وضع فرشاته في الأسفل، ومضى سائراً إلى زاوية القاعة في لباسه الـ «دهوتي» الذي ارتداه بالطّريقة البنغاليّة. كان كمال وفرقته يتمرنون على أغنية جوقةٍ هندوستانيّةٍ، مرتدين قمصاناً وبيجامات بيضاء مصنوعه من قطن النول اليدويّ، بالإضافة إلى الجاكيتات النهروويه وشالات من الحرير الخام، هذه ملابس الشباب الطليعيّين الأنيقة من الطّبقة الوسطى اليساريّة

في البلاد. طوى الرّسام ذراعيه وانحنى على الحائط، محاولاً أن يبدوَ سامياً وجميل الطّلعة في الوقت ذاته.

كان الجميع يتحدّث بأعلى صوته بالبنغالية، وأضاف الغناء إلى الصخب العام. أخيراً وصلت الجوقة إلى نهايتها، فنظر المطرب الرئيس للأعلى، وقال: «آداب عرض كرتاهون» أي أقدّم تحياتي بالأردية الفصيحة، ثم أضاف بالإنجليزيّة الخالصة، «أنتم الشباب من لكناؤ؟»

«تحيّات... وتسليات! نعم. كمال رضا من كلية كانينغ حاضر في خدمتكم».

«غوتام نيلامبار من شانتي نيكيتان».

تصافح الاثنان.

«الفرشاة الصّاعدة والفرشاة الهابطة وثنائيّة الروح؟» ضحك كمال، مشيراً إلى شخصيّة الفنان المصطنعة إلى حدٍّ ما. عقصات شعره تلامس كتفيه، لديه لحيةٌ على طرف ذقنه، وعينان تدلّان على بعد نظره. هزّ رأسه وابتسم ابتسامةً ماكرةً.

هذا هو غوتام نيلامبار الذي جاء يبحث عنه في كلكتا، ها هو الآن أمامه! كان قد أخبره زوج أخته أنّه ابن قاضٍ في المحكمة العليا في إله آباد، جاء إلى البنغال من أجل تسكين روحه. كان والده ركناً مهمّاً من أركان الإمبراطوريّة البريطانيّة، وهو رجلٌ عصاميٌّ كرّمته الحكومة البريطانيّة ومنحته لقب «السير». كان من المعقول أن ينضمّ ابنه الوحيد إلى «الخدمة المدنية الهندية» المرموقة، التي تُعدّ أعلى خدمة مدنيّة في العالم. ولكنّ الفتى، مثل أقرانه، كان يحسب نفسه متمرّداً، لذلك رفض الانضمام للخدمة، واختار شانتي نيكيتان عوضاً عن ذلك، وهو مقيمٌ فيها منذ عامٍ، جاء إلى كلكتا مع طلّابٍ آخرين

للعمل في مجال إغاثة المنكوبين بالمجاعة. كان متوسّط الطول، ذا نظرة بعيدة، يبدو واعياً بذاته إلى حدٍّ ما، وسعيداً بنفسه في الزيّ البنغالي. حاول كمال إخفاء حماسته.

قال كمال لصديقه الجديد، وهو في طريقه مع الفنّان إلى الاستوديو المؤقّت: «لقد غنّيت بطريقةٍ سيّئةٍ وأحتاج إلى القليل من الشّاي، يا صديقي». لقد أقاما علاقةً فوريّةً، كما يفعل الشّباب عادةً.

«هل سمعت عن هاري شانكار راي زادا؟» سأل كمال بلهجةٍ لم تخلُ من الغموض.

«من هو؟» هزّ غوتام رأسه، ممسكاً سيجارته بين شفتيه مثل روبرت تايلور.

«صديقي من الطّفولة، مناظرٌ بارزٌ، مثلك تماماً». قال له غوتام: «اطلب منه أن يحضر إلى هنا»، بلهجةٍ آمرةٍ كالملك.

«إنّه الآن في المنزل في لكناؤ. إنّه قائد نادي القوارب، وقد سقط على ظهر القارب - ها ها ها - وكسر ساقه».

«لماذا تعيشون جميعاً في لكناؤ؟»

«أين يجب أن نعيش؟ في بلدةٍ ذات حصانٍ واحد مثل الله أباد؟ انظر، لقد رسمتَ الأنف بشكلٍ خاطئٍ».

«من الصّعب جدّاً رسم الشفتين».

«ربما تكون غير موقّر».

«خذ سيجارةً».

«هل أنت فنّانٌ؟»

«لا، قاطع عشبٍ». استخدم غوتام عبارة «قاطع عشبٍ» بالمعنى التقليديّ

الرّائج في أوترابراديش. سـوف يفعل ذلك، إنّه مجنون مثلنا تماماً. ابتسم كمال له موافِقاً.

«لقد كتب لي زوج أختي عنك..».

«من هو زوج أختك؟»

«زوج لاج أختي».

«ومن هي السيدة لاج أختك؟»

«توقّف عن هذا التصنّع، يعرف زوج أختي جيجاجي عنك كلّ شيءٍ».

«كثيرٌ من النّاس يعرفونني».

نظر إليه كمال باهتمامٍ، ثم ابتسم ابتسامةً عريضةً. يبدو هذا الشخص مرِحاً للغاية. كان مسروراً بلعِب دور شخص بوهيميّ ملتحٍ بلا قبّعةٍ فرنسيّةٍ، وقد تكلّم الإنجليزيّة بلكنة خريجيّ المدارس الأهليّة؛ ربما مدرسة نايني تال أو مدرسة دون، فضلاً عن أنه غير واقعيٍّ إلى حدٍّ ما.

«أنت متكبّر أيضاً» لاحظ كمال.

«نعم بالطّبع. ألست كذلك؟»

«بلى».

أخـذ غوتام فرشـاةً وبـدأ يضيف شـوطاً بعد شـوطٍ خلفيـة رأس الفتاة المشتعلة «سنتهال»[1] على اللوحة.

«إذا بقيتَ في شانتي نيكيتان لمدّة خمس سنوات أخرى أو ست، فقد تنجح في أن تصبح رسّـاماً مشـهوراً. ولكن الآن، ثمة أملٌ ضئيلٌ جدّاً»، علّق كمال بشكلٍ خطيرٍ. «لكنّك ستتحوّل إلى بنغاليٍّ فخريٍّ من دون شك».

«أَنـا ذاهب إلى الجنوب أيضاً، لكي أتعلّـم رقص «بهارات ناتيام» من رام

---

(1) قبيلةٌ مشهورةٌ في الهند.

جوبال. *نا دير دام، تانا دي رينا، نادير دام...*».

«كنت أنوي الانضمام إلى مركز أوداي شانكار الثقافيّ في ألمورا، لكن أخواتي صرفنني عمّا عزمت عليه، الفتيات زائفاتٌ، ببساطةٍ ليست لديهنّ القدرة على فهم الذّات الحقيقية للرّجل. هل لديك أخواتٌ؟»

«لا».

«بعد ذلك، انجذبتُ إلى فلسفة العدميّة لفترةٍ قصيرةٍ».

«هل أنتم من البوذيين في لكناؤ؟»

«عندما ذهبت أختنا الصغرى إلى بناراس لإجراء اختبارات، زرتُ سارناث. هناك جرّبتُ نوعاً من السّلام الداخلي، أ تفهم قصدي...؟»

«لا، أنا لا أفهم».

«على أي حالٍ، أعتقد أن ثمة شيئاً ما في البوذيّة. خطر ببالي أنّ الجوّ حارٌّ جدّاً في الخارج، وقاعة المركز البوذيّ باردةٌ ومظلمةٌ وهادئةٌ لذلك أحسستُ بالسّلام أيضاً. يمكن شرح الأسرار المزعومة بهذه البساطة، هل أنت في الحزب؟»

«لا».

«فكّرت كثيراً. أنا لا أراك ثوريّاً كبيراً، على أي حالٍ».

حدّق غوتام في كمال.

«هل تعلم ما قاله المهاتما غاندي لغوروديف رابندرا ناث طاغور...؟ إنّ منزلك يحترق وأنت مشغولٌ بالاستماع إلى العصافير أو شيءٍ من هذا القبيل» قال كمال، ثم أضاف: «يجب أن تلتقي أيضاً أخي المحترم، السيّد أمير رضا، ابن عمي. لقد أظهر موهبةً كبيرةً في طفولته وشبابه، ورسم الكثير من اللوحات بالألوان المائيّة، لكنّه رجل وسيمٌ جدّاً؛ طويل القامة، ذو رموشٍ

مجعّدةٍ، وما إلى ذلك، فترك الرسم».

«لماذا؟»

«كان يظنّ أن الناس قد يعتبرونه شاذّاً جنسيّاً».

«هل هو كذلك حقّاً؟»

«كلّا!. ولكنّه شخصٌ إنطوائي، لا يستطيع أن يقيم علاقةً مع النّاس بسهولةٍ. في هذا الوقت يوجد في مكانٍ ما في المحيط الهادئ، يحارب الفاشيّين كضابطٍ بحريٍّ. آمل أن يخرجه البحر من قوقعته. أوه! أوه! أخبرني بشيءٍ الآن. أنا أحرص على أن أحمل وجهاتِ نظرٍ واضحةٍ جدّاً عن كلّ شيء».

«اسألني».

«ما رأيك في الصّراع الطبقيّ؟ هل تؤمن بمستقبل البروليتاريا المجيد؟»

«نعم». وتصافحا مرّةً أخرى.

«إذا كنت مقتنعاً بأنّ المجتمع الإقطاعيّ سرعان ما سيموت موته الطبيعي، فإنّ نصف المعركة حُسمت. تعال نحتسي القهوة في مقهى فيربو».

أسرعا واستأجرا سيّارةً، اثنان من العائلات الغنيّة يقضيان وقتاً ممتعاً في كلكتا القديمة.

40

«كواليتي ستريت» (شارع الجودة)

شانتا، كتب غوتام على مهلٍ،

لقد جاء الخريف إلى غابات أوده الخصبة. تمرُّ ابنة البستاني بالقرب من هنا، وصوت خلخالها يملأ الأرجاء. تتدلّى الزهور الصفراء من الفروع الرقيقة مباشرةً من لوحةٍ مائيةٍ صينيةٍ. في صباحات يوم الأحد، تتحوّل النّساء الجامعيّات الرّاقيات إلى لوحات «رافي فارما» و«عبد الرحمن شوغتائي»، ينشرن الحصائر على الأرض، ويشّغلن «التامبورا»، ويغنّين المقطوعات الكلاسيكية. أكتب إليك من أحد بيوت السيّدات الشاّبات، يطلق عليه اسم «فيلا راي زاده الكستناء المائيّ»، يسكن الصّديق كمال رضا في بيتٍ اسمه غولفيشان ليس بعيداً من هنا. التقيتُ بهذا الرجل في كلكتا مؤخّراً. ومن ثم أحكي هذه الحكاية، لأنّه يوجد لديَّ اعتقادٌ قويٌّ أن والد كوماري نيرمالا راي زادا ووالدي تآمرا لإخراجي من شانتي نيكيتان. دبّر لي أبي وظيفة كاتب عمودٍ أسبوعيٍّ في الصّحيفة، التي كان يعمل فيها وينستون تشرشل في شبابه! حتى أنه رتّب لي إقامةً كضيفٍ في منزلٍ في شارع كلايد، لقد حدث كلّ شيءٍ بسرعةٍ لدرجة أنني أصبت بالحيرة.

لدى وصولي إلى لكناؤ اتّصلْت هاتفيّاً بكمال رضا. وفي اليوم التّالي أتى بي إلى هنا للقاء هاري شانكار وشقيقته نيرمالا. لا أعتقد أنّها تعرف عن هذه المؤامرة. على أي حالٍ، هي مشغولةٌ جدّاً في الحديث، فلا أظنّها تنتبه إليّ

كـزوجٍ محتمـلٍ. على الأقلّ هذا ما أعتقـده. إنّها فتاةٌ رائعـةٌ، مرحةٌ ومفعمةٌ بالحيويّـة وحقيقيّـةٌ، مثـل صديقتها طلعـت، كـما أنّ ثقافة لكنـاؤ القديمة متجـذّرةٌ ومتأصّلـةٌ في عائلتها. كلّ شيءٍ رائعٌ وعلى ما يـرام، إلّا أنّ العائق الوحيـد هـو أنّني لسـتُ في عجلـةٍ من أمري لعقـد القران، حتـى بعد عامٍ ونصفٍ عندما تتخرّج نيرمالا في الكلّيّة.

نيرمـالا وطلعت رفيقتـان حقيقيّتان. تضمّ جماعتها أيضاً امرأةً شـابّةً حالمةً تدعى تشـامبا بيجـوم. إنّه اسـمٌ مثيرٌ للإعجـاب، يذكرني بمنمنـةٍ مغوليه لسيّدةٍ راقيةٍ على الطّراز الفارسيّ في البيشواز، تقف تحت شجرة مانوليا.

لا تبتسمي، لستُ قذراً، هذا ما أثارته شانتي نيكتان في شخصيتيّ.

عـلى أيّ حالٍ، تشـامبا بيجوم جزءٌ مـن مجموعة رفاق كـمال، ولكنّها تبدو غريبةً بعض الشيء، متفرّجةً. هل تفهمين ما أقصده.

شـاهدتُ البارحـة عرضـاً ممتـازاً في الهـواء الطّلـق في شـارع الجـودة. أقيم العرض في بسـتان أشـجار الكينا الذي يسّـمى غابة أردن، في كلّيّة إيزابيّلا ثوبـورن. قامت شـاندرا ليخـا بانديت بـدور «فيبي»، ورانجانا سـيدهارثا بدور «البطل». وشـمل العـرض ممثّلات مثل: نيرمـالا، وطلعت، وأختها الكـبرى تهمينـة، جميعهـنّ من سـكّان شـارع الجـودة. في هذه اللّحظـة، أنا جالـسٌ على درج بيت نيرمالا المطلّ على النّهر، وهنّ مشـغولاتٌ بمناقشـة سياسـة الحزب الشـيوعيّ داخل البيت، ففكّرت أن أكتب بعض السـطور إليك...

«هـل انتهيـت مـن كتابة عمـودك؟» تسـاءلت نيرمـالا وهي تقفـز فوق الدرابزيـن، ثم تبعتها طلعـت. «دعيني أنظر، ما الأمر؟ تريد طلعت أيضاً أن تصبح صحفيّةً».

وضع غوتام على عجلٍ الرسالة غير المكتملة في حقيبته، وغمغم قائلاً «كنت أكتب إلى أحد الأقارب...».

قالت نيرمالا: «حسناً، ثمة نوعان من الرّسائل أحدها (أ) يكتب من مكانٍ جديدٍ، أتمنّى لو كنت هنا، والآخر (ب) ليس لدى الكاتب شيء ليكتبه إلى المنزل. أيّ نوعٍ منهما؟

«نيرمالا، لا تكوني فضوليّةً»، قالت طلعت موبّخةً واستطردت: «ذهب ابن عمّنا عامر لركوب الخيل في الثّالثة بعد الظهر. اتّصل هاتفيّاً من نادي ديلكوشا، سيصل إلى هنا في الساعة الرابعة والنصف لشرب الشّاي».

خرج كمال من المنزل، وشرح للوافد الجديد المرتبك قليلاً، «ابن عمّنا، ضابط البحرية الأنيق الوسيم. لقد حدّثتك عنه في كلكتا، أليس كذلك؟»

«آه، إذاً أنتم جميعاً من نمط أولئك الشّغوفين بالصيد. بحكم انتمائي إلى طبقةٍ متوسّطةٍ أصليّةٍ، يتملّكني الإعجاب الشّديد بكم!»

فجأةً ظهر عامر رضا في المشهد مثل «بيتر بان» كما لو كان واقفاً في الطّابور. كان غريباً بالفعل.

«هذه هي دقّة البحريّة!» قالت طلعت باعتزازٍ «لقد قال إنّه سيحضر إلى هنا في تمام الساعة الرابعة والنصف بالضبط، وهاهو الآن ماثلٌ هنا».

«تحيّات، أيّها الأخ المحترم» قالت جامونا مهري، وهي تقدّم الشّاي.

«تحيات بهيّا صاحب!» تعالت أصوات الجميع. كان الجميع يدعونه: بهيّا صاحب باستثناء تشامبا، وهو مصطلحٌ عامٌّ يُستخدم لإظهار الاحترام في أوترابراديش، لاحظ غوتام أنّها جلست ببراعةٍ على حصير الأسل، وصبّت الشّاي للشابّ الوسيم. لقد أصبحت فجأةً شديدة الوعي بذاتها.

آها! هذا هو الأمر. للأسف، فكر غوتام، حين شاهد «بيتر بان» يطلق

ابتسامته، وهو محاط بفريق «أركاديا»..

جلس كمال على المقعد بالقرب من تشامبا، وبعد لحظات صمتٍ قليلةٍ بدأ يتلو قصيدة الشاعر الأردي مير من القرن الثامن عشر:

«تنفّس بهدوء،
لأنّ الورشة الكونيّة
لمهمّة نفخ الزّجاج
دقيقةٌ للغاية»

لقد تحدّث الشاعر الكبير مير فيها عن العلاقات الإنسانيّة.

«أنا أعلم ذلك» أجابت بجدّيةٍ.

«حقاً؟، لماذا خدعتِ المسكينة البائسة تهمينة؟ هل فكّرت في حجم الإهانة التي ألحقتها بأختي الطيبة؟ لقد أصبحت الخطيبة المرفوضة والمخذولة، وأصبحتِ أنتِ المرأة المنتصرة القاتلة».

«أنت تتصرف بطريقةٍ ميلودراميةٍ يا كمال. أنا لم أذلّها عمداً، لقد صرخت في وجهي في ذلك اليوم بالقرب من حوض السباحة كما لو كنت خادمتها سوزان، والآن أنت تهينني» قالت وهي تستشيط غضباً.

تجاهل كمال احتجاجها، وقال بصوتٍ جديٍّ مثل صوت قاعة المحكمة: «تركتُ الأمر لك يا تشامبا باجي، هل كنت ستغرقين في الحبّ لأذنيك، وتشجعين عامر رضا على مبادلتك الحبّ لو كان كاتباً يعيش في حيٍّ فقيرٍ في نخاس؟»

حدّقت في وجهه، ولم تقدر أن تتفوّه بكلمةٍ.

«انظري، ما زلت أحترمك احتراماً كبيراً، لكن يجب أن أكون صادقاً

في قـولي. لهذا السـبب مازلـت أؤكّد لغوتام أنـه دجّالٌ. انظري، عامر شـابٌّ مستهترٌ وقد يخذلك».

«يبـدو لي أنّني محاطـةٌ بأناسٍ يتمنّون لي الخير، ولكنّني أسـتطيع أن أعتني بنفسي، شكراً لك. كنتَ في السابق مصرّاً على تحويلي إلى متعاطفة مع الحزب، والآن أنت تحاول أن تحلّ مشاكل حياتي العاطفيّة. لماذا لا تتركني وشأني؟»

«تشـامبا باجي»، واصل كمال بلهجةٍ مسـالمةٍ «لا ينبغـي أن يكون هدفك الوحيـد في الحياة أن تصبحـي راقصةً زخرفيّةً في قاعـة الرّقص. قومي بشيءٍ مبتكرٍ، علاوةً على التسكّع في تشاند باغ».

«على سبيل المثال؟»

«ارسـمي، كصولت رحمن وطلعت، اذهبي للرقـص في ألمورا، وانضمّي إلى عدي شانكار الثقافي. اذهبي مع كامالا وفيمالا».

«وَ؟»

«حسناً... باشري الكتابـة. اضبطـي حياتـك قليلاً، وحقّقي التوازن الدّاخلي...».

«الحياة فوضويّةٌ للغاية، كيف يمكنك أن تنظمها؟ بالإضافة إلى ذلك، هل الكتّاب متوازنون جدّاً؟ لا أعتقد أنّ كتابة غوتام وطلعت جيدة. إنهما يكتبان قصصـاً قصيرةً في غاية الغباء، كما أنهما ليسـا صادقين. قـرأتُ قبل أيّامٍ عمود غوتـام الصّحفـي بعنوان: «هؤلاء الأشـخاص السـاحرون» الّذين وصفهم بشكلٍ غير مباشر بــحرّاس مقبرة جريدة «تايمز» يرتدون معاطف وربطات عنـقٍ. وأضـاف أنّكم جميعاً تعتمدون عـلى جاذبيّتكم للبقاء. إنّـه يتظاهر بأنّه صديقك، ولكنّه يسخر منك في مقالاته».

«مازالت طلعت طفلةً، وغوتام صحفيٌّ لديه الحريّة في كتابة ما يشاء. على

أي حـالٍ، فهو ليس على خطأٍ كبيرٍ؛ فعلى الرغم مـن اهتمامنا بالجماهير يمكن وصفنا بأنّنا طبقةٌ من المتباكين على الماضي، وإنّ وسيلة ابن العم عامر رضا إلى النّجاح في الحياة هي وسامته الرّائعة».

«إنّ الكتّاب، بمن فيهم شـقيقتي الصّغيرة، ربّما لا يبلغون ذلك المسـتوى من الإنجاز، لكنّهم يحقّقون نوعاً من التّوازن الداخليّ أثناء العملية الإبداعيّة. حـاولي فقـط إيجاد تسـويةٍ بـين العقل والعواطف، وسـوف تحسـمين نصف المعركة».

«أنا لا أؤمن بهذه النّظريات المبهرجة الرنّانة».

«تشـامبا باجـي، احذري من التجـارب! فثمة منطقةٌ خطـرةٌ في الأمام!»

نهض من مكانه وعلّق إبهاميه في جيبَي معطفه ورجع إلى فيلا الكستناء المائي.

41

إندر سبها

ذهب عامر رضا بعد عودته إلى لكناؤ إلى موسوري للقاء أحد الأصدقاء، ثـم زار فيلا الكستناء المائـي، ليودّع أفـراد عائلة راي زادا، لأنّه سيغادر إلى الجبهة الشرقيّة في اليوم التالي.

وجـد عامـر غوتـام، وتشـامبا، وطلعـت، وكمال جالسـين كالعـادة على الشّرفـة المطلّـة عـلى النهر. كان غوتـام يدخّن بتأمّـلٍ، في حين كانت تشـامبا مشـغولةً بالحياكة، أما البقية فكانوا يناقشـون الماديّة الجدليّة. رحّب بهم عامر رضا، ثم جلس على الدرجة القريبة من غوتام، ومضى هاري وكمال وطلعت يفنّدون آراء أم. أن. روي وتروتسكي.

قـال غوتام بعد برهةٍ «هيـا لنتوقّف أيّها الزملاء، ولنتأمّـل النهر. هذا هو وقت المسـاء الذي قال فيه الشاعر مير أنيس: *هذا وقت الغسق، توقّف النهر عن الجريان*».

نظر إليـه كمال، وقال بوقارٍ: «لقد جعلتك عقصات شـعرك تبدو بمظهرٍ كاذبٍ. أنا سعيدٌ أنّك قصصت شعرك قبل مجيئك إلى لكناؤ».

رفعـت طلعـت يديهـا وقالـت: «توقّفـوا عـن الهجـمات الشـخصيّة من فضلكم».

واصـل كـمال قولـه مخاطبـاً غوتـام نيلامبـار «لـو أنَّ الأنبياء والفلاسـفة

والحكـماء والمتصوفة لم يتكلّموا منذ فجر التاريخ المدوَّن، لأصبحت المكتبات في العـالم إسـطبلات للخيـول. يجـب أن تكـون ممتنـاً لله أنّنا نتحـدث وأنت تستمع. سيأتي زمنٌ تحنُّ فيه إلى سماع أصواتنا».

«هل تعتقد أنّ الوقت فتّاكٌ؟»

«هذا واضح جدّاً»، أجاب كمال.

غابـت الشّـمس في النهر، وتحوّلت قباب منزل تشـاتر الذهبيّـة إلى اللّون البرتقاليّ، وأبحرت سفينةٌ عبر النّهر.

«هـل تؤمن بسرّ الرموز؟» سـأل غوتام كـمال. «هذه السّـفينة التي تمرّ بنا الآن تحمل دلالةً كبيرةً».

ابتسـم كمال. كان غوتام يضفي صبغةً دراميّةً على الأمور التّافهة، ويحوّل كلّ ما يقوله إلى شيءٍ عميقٍ. لقد أصبحت هذه الطّريقة مميّزةً وجذّابةً بالنسبة لغوتام، كما أعجب بها معظم الناس، فأحبّوا غوتام الحكيم.

«النّهـر هو الوقت، الذي يتدفّق»، اسـتطرد غوتـام في حديثه وهو يلتقط حجـراً. «إنّ الحجر رمزٌ لـــلوجود السرمـدي، وإنّ نهاية العـالم حتمية وغير مهمّةٍ تماماً مثل موت فأرةٍ، وفقاً لـ «أوبنشاد» الكتاب المقدس..».

«مـاذا يعني الوجود السرمديّ؟»، سـألت طلعت، «من فضلك لا تكون أبهى يا سيّدي غوتام».

هبَّ عامر واقفاً وقال: «معك حقٌّ. دعنا نذهب إلى نادي محمّد باغ لتناول العشاء. تشامبا بيجوم، سأعلّمك رقصة الفالز القديمة، تعالي».

أخذتـه طلعت جانباً وقالـت: «بهيّا صاحب، لقد رتّـب أصدقاء نيرمالا مأدبةً كبيرةً لغوتام. وطلبوا من حسينى وزوجته طهي الطّعام. لم يتمكّنوا من دعوتك لأنّك لم تكن في المدينة، أرجوك أن تبقى الآن للمشاركة في المأدبة».

صاح عامر رضا ببهجةٍ: «خطبة نيرمالا؟ المناسبة تقتضي شمبانيا وردية». مشى قليلاً واتّصل بنادي محمد باغ. وفي وقت قصيرٍ وصل حامل يرتدي بزة في سيّارة جيب مع سلّة سكوتش، وكلاريت أحمر، وخمورٍ.

بدا المحامي راي زادا مسروراً للغاية عندما رأى الحامل يجهز حانةً مؤقّتةً في الشّرفة الأرضيّة تحت إشراف عامر، بمساعدةٍ فعّالةٍ من هاري.

قال المحامي لعامر: «بارك الله فيك يا بنيّ». كان المحامي زميلاً قديماً لوالد عامر المحامي السير ذكي. «بوصفي ابناً حقيقيّاً من طبقة كائسته، أحبّ احتساء الخمر، لكنّني لا أستطيع تحمّله الآن. أنا ممتنٌّ جدّاً لأفضالكم».

قال عامر مطأطئاً رأسه: «هذا واجبي يا سيّدي، إنها خطبة أختي نيرمالا». (لقد اصطبغ بالصبغة الهنديّة بشكلٍ كافٍ ممّا يؤهّله ليدعو نيرمالا أخته). فُتحت زجاجة شمبانيا، وفُتحت بعدها فوراً زجاجة شراب.

أصبح الجو عاطفيّاً جداً. شعر غوتام بعدم ارتياح، لكنّه انضمّ إلى دورة الشراب مع الشّيخ المحترم وعامر وهاري. لم يشرب كمال، بل جلس مع الفتيات على درج النّهر.

رحّبت بهم السيّدة راي زادا في غرفة الطّعام الكبيرة في الطّابق الأرضيّ، وسكب نادل النّادي النّبيذ الأبيض في دوراتٍ.

استمر إحساس غوتام بالتعاسة.

أما هاري فقد كان صاخباً. «عاش حسيني!» صرخ والتفت إلى غوتام. «لعلمك، أسلاف حسين طبخوا الطّعام للملك واجد علي شاه».

تحدّثت حينئذٍ طلعت. «مثل الأخ المحترم، لم يقم إلّا بواجبه. أنا لا أعرف عن منطقة بهرائتش التي تنحدر منها يا غوتام، ولكن في منطقتنا عندما تُزوّج ابنة أحدٍ ما، فإنّ القرية كلّها تمدّ أيدي العون والمساعدة إلى والد العروس.

إنّـه نوعٌ من الواجب المقدّس. كان حسـيني أيضاً متحمّسـاً جدّاً لأن العزيزة نيرمالا يتم......».

كان كمال يجلس بجانبها فركلها تحت الطّاولة. أصبح غوتام مرتبكاً جدّاً. وسأل طلعت على عجل، «لماذا لم تحضر تهمينة إلى العشاء اليوم؟»

«بسـبب تلـك المرأة البشـعة. لقد اتّصلـت بي هاتفيّاً، فأخبرتهـا أنّ كليهما هنا، تهمينة تعرف ما سيحدث هنا مثل رقصة الفالز القديمة، وما إلى ذلك».

أجابت بنبرةٍ خافتةٍ، فوكزها كمال وكزةً أخرى.

«لماذا تسحق أصابع قدمي كمال» سألت طلعت بصوتٍ عالٍ.

أحـسّ كـمال أنه يجـب أن يهرب مـن هنـا، إذ أدرك أنّ غوتام ليـس مهتمّاً بـنيرمالا. نظر إلى الوجوه المشرقة؛ الفتاة الشابة، ووالدها، وشقيقها، وأدرك أنّ الأمر فاجع. كان ذلك خطأه هو. لماذا شغل نفسه وتوسَّط لهذا الزواج؟

بعد العَشـاء عادوا إلى الشّرفة. قدّم النادل الخمور، اعتذر المحامي القديم وصعد إلى الطابق العلويّ، وهو سكران جدّاً.

«يطفـو هذا البيت مثل سـفينةٍ، يا أمير البحر». قـال غوتام بنبرةٍ مخمورةٍ، وحيـا عامر رضا. «ونهر غومتي يجري إلى الوراء». مرّت سـفينةٌ، كان الملّاح ينشد قصيدة غزل من «إندرسبها».

«هذه هي لكناؤ، أسـتاذ غوتام»، أكّدت طلعت بقوّةٍ، «حيث مازال عامّة النّاس يتذكّرون قصيدة «إندر سبها» ويتغنّون بها...».

«دعونا نذهب ونرى ذلك» نهض غوتام بحماسٍ.

«ماذ سنرى؟» سأله كمال بجدٍّ.

«تعرض «إندر سبها» هناك. دعونا نذهب ونمسك الظّلال بشباكنا!»

خرجوا تحت ضوء القمر، وركبوا في عربة أسـفار عامر، التي سارت بهم

حتّى وصلوا إلى الجسر. سمعوا أصواتاً ونظروا إلى الأسفل. مرَّ موكبٌ من المراكب غريبة الشّكل أقلّت ركّاباً يرتدون أزياء برّاقةً. كانت أصواتهم غير مسموعةٍ. أحياناً يغرّدون كالطيور، وأحياناً أخرى يصدرون أصواتاً مثل الكمان القديم، وعلى الطّرف الآخر من النّهر في الغابة، نبحت الكلاب وعوّت الثعالب، وانبعث صوت انكسار الخشب في غوط المحرقة حين احترقت.

تأجج ضوء القمر حتّى بدت وجوههم بيضاء متوهجة فارغة، بلا ملامح.

«الجسور، لقد بنوا الجسور في كلّ مكانٍ، مثل المنازل»، غمغم غوتام بغضبٍ. تقدّموا إلى حيّ المعسكر. توقّفت عربة الأسفار بسبب هزة، ولاحت أمامهم كلية لا مارتينير عبر البحيرة الزجاجيّة.

«ما أعظم الكتب، والمعرفة، والحكمة التي علّموني إيّاها في هذه القاعات الرائعة..». قال كمال وهاري شانكار وعامر رضا في انسجامٍ تامٍّ.

«لماذا تقرأ؟» التفتوا إلى غوتام وسألوه صراحةً.

قالت نيرمالا: «لا فائدة من شرح ذلك له، فهو غبيٌّ جدّاً».

اقتربوا من مبنى «النّهضة الإيطاليّة»، واسترقوا النّظر إليه. كانت الفصول الدراسيّة مظلمةً وضبابيّةً. سيقرأ الطّلاب هناك مرّةً أخرى في الصّباح. لاحت ألوان النقوش الإيطالية الورديّة والزرقاء والخضراء البارزة على السّقف في ضوء القمر الباهت الذي دخل عبر النوافذ الطّويلة.

كانت لوحة «زوفاني» التي رسمتها سالي بيجوم، والتي تسمّى أيضاً «غوري بيبي»، النّسخة الهنديّة للجنرال كلود مارتن، معلّقةً في الفصل. وقف الابن المتبنّى للجنرال ذو الفقار مارتين إلى جانبها. ضغطت طلعت أنفها على

لوح النّافذة، ونظرت إلى اللّوحة، أمّا الآخرون فقد عادوا إلى البحيرة.

تبعتهم طلعت. «تعالي إلى هنا من فضلك».

استدارت طلعت. وقفت غوري بيبي قرب الماء، ونادت طلعت: «تحدّثي إليّ من فضلك»، ثم أردفت: «ثمة ضوضاء وغوغاء، وحشود من الناس تتحدّث طوال اليوم وتقرأ الكتب، وتلقي المحاضرات. لا أحد ينظر إليّ». بدأت بالبكاء. كانت طلعت مستاءةً.

«استمعي إليّ يا سالي بيجوم»، حاولت أن تتفلسف وفقاً لخطورة الموقف. «واصلي تركيزك على نقطة الخلود. هذه الأنماط المختلفة من الزمن هي في الواقع... أعني» لقد ازداد ارتباكها فتوقّفت بحماقةٍ. غير أنها تذكّرت شيئاً. «اسمعي، أردتُ دائماً أن أعرف هل أنت زوجة الجنرال مارتن أم ابنته التي تبنّاها خلال المجاعة الكبرى؟»

أجابت غوري بيبي: «استمرّوا في تخمينكم، هذا شيءٌ جيّدٌ، فالماضي يصبح غامضاً بسهولة!» ثمّ اختفت.

«تعهّد بأنك لن تقرأ مرّةً أخرى»، صرخ كمال في وجه غوتام على ضفة البحيرة. «استسلم رجلٌ إنجليزيٌّ شابٌّ، أستاذ كيمياءٍ، وهرب إلى جبال الهيمالايا، توارى عن الأنظار دونما سببٍ. لقد قطع أصابعه، ولا أدري إذا مازال على قيد الحياة، أو أنّه غدا لقمةً سائغةً لبعض النمور آكلة لحوم البشر في سلسلة جبال كوماؤن، أو بنت الطّيور أعشاشها في لحيته، وهو يستمع إلى موسيقى «ناراد موني» السماويّة...».

أوم. أوم. أوم. تعالى الصوت، ودوّى في المساحات المفتوحة المقمرة، هاري.. هاري... مشوا على الطّريق تحت الظلال. مدّت تشامبا يدها، ولمست فرع شجرة الكادامبا، فسقطت ورقة على الطّريق.

كان الإلـه فيشـنو حاضراً حتى في سـقوط ورقـة. «هاري، هـاري»، كرّر غوتـام. الجنرال يرقد في قـبره الرّخامي، وقد مرّت أحـداث العالم به، طارت بومةٌ على قبره. خرجت الكلمات من المكتبة، وانتشرت في كلّ مكانٍ، فلاحت معانيها مثل الوهج المستنقعيّ. صعدت إلى المدفع وجلست عليه تدلت رجلاها السـوداوان الرقيقتان مثل قلمي رصاص. قال المدفـع بصوت الرعد: *دُعيتُ باسم اللورد كورنواليس وصحبتُ الجنرال كلود مارتن إلى سيرينغاباتام. لقد أطلقتُ النار على تيبو سلطان. الآن اخترعوا أسلحةً جديدةً...*

عاد كمال الذي تركهم فجأةً في الطريق، وانضمّ إليهم قرب بوّابة ديلكوشا غاردن.

«أين كنت؟» سأل غوتام، وهو مازال جدّ ساخطٍ.

«ذهبت إلى فـرح باخش ورأيت الملك، وفي طريق العودة قابلت الضابط البريطـانيّ المقيـم. لقد جلـس في محفّةٍ، وارتـدى زيّاً هنديّـاً، وعمامةً وغيرها. سلّمت عليه فقال لي: إنّه ذاهبٌ لحضور حفل تتويج الملك».

«أيّ ملكٍ؟» سأل. «لقد رأيت للتوّ أحدهم من فرح باخش».

«اوه... ذاك الشـخص؟» قـال المقيـم، «لقـد مـات، وسـوف يعتـلي ابنُـه العرشَ».

«كـم هـذا مضحـكٌ. أليس مضحـكاً يا هاري شـانكار؟ يمـوت هؤلاء الملوك، أيضاً..». أنهى كمال كلامه، وبدا حزيناً.

دخلوا حدائق ديلكوشـا، التي طليت أشـجارها باللّون الأصفر الّلامع. هبّـت رياحٌ «زرقاء» خفيفةٌ هزّت أوراق شـجرة التشـامبا، نام طاووسٌ على العشب. سـاروا باتّجاه قبور الضباط البريطانيّين الذين سقطوا خلال حصار ديلكوشـا عـام 1857م. أزاحوا فروع نبـات القُرّاص وقرأوا شـواهد القبور:

«الملازم باول من «4 بنجاب رايفلز»، و«النّقيب ماكدونالد من نائنتي ثرد هائلاندارز»، و«الملازم تشارلس داشوود».

«مرحباً، كيف حالك؟» قال الملازم داشوود، وهو يبرز من وراء عشبة العُلَّيق حيث كان يلعب لعبة البريدج مع رفاقه الفائتين.

«مرحباً يا تشارلي»، عرض عليه غوتام سيجارةً.

خرج أمير قدسيا محل من بين أزهار الأقحوان.

قالت تشامبا بياتريس لغوتام: «دخلت الملكة ناصر الدين حيدر».

جلست الملكة على صخرةٍ، ثم نشرت البيجاما العريضة المصنوعة من الحرير المبهر على العشب.

«ذات مرّةٍ، أحضر فرنسيٌّ منطاده إلى هذه الحدائق»، بدأت الملكة كلامها الموجز لتسلية الحضور. «لقد تجمّعت حشودٌ كبيرةٌ هنا لمشاهدة طيران المنطاد. كان متعةً كبيرةً حقّاً! صعد الفرنسيّ في المنطاد، ونزل على مسافة اثني عشر ميلاً خارج المدينة. هل سبق لك أن ركبتَ منطاداً كهذا...، صعد إلى السّماء واختفى».

في الفضاء الواسع في قصر ديلكوشا غير المسقوف تحت ضوء القمر رقصت الزوجات الإنجليزيّات للملك ناصر الدين حيدر رقصة «مازوركا». جلست تشامبا على الدّرج. ثمة أوروبيٌّ رثٌّ وقف أمامه، وهو يغنّي أغنية السيّدات الميتات.

لكن أين ثلوج الأمس!

توقف فجأةً وقال: «تذكّري، تموت النساء الجميلات مرّتين. لذا استعدّي لمواجهة موتك الأول الذي سيأتي قريباً». وصرّح «اسمي دي روسيت،

حلّاق الملك ناصر الدّين حيدر المفضّل، أنا حلّاق من باريس، حكمتُ فعلاً هذه المملكة، والآن لا أحد يذكر اسمي. لذلك، اشكر الوقت الذي مازال في متناولك». ثم اختفى.

تقدّم إليها عامر رضا وقال: «هيّا نذهب إلى نادي تشاتار منزل سأعلّمك رقصة الفالز القديمة».

توجّهوا إلى طريق القلعة، وساروا نحو قيصر باغ.

«الجناح الفضيّ!» قالت تشامبا لغوتام بحماسٍ: «إنهم يمثّلون هنا مسرحيّة «إندر سبها». لقد كنت على حقٍّ!»

دخلوا بارا دري على رؤوس أصابعهم. في الدّاخل، تلألأ السّطح الفضيّ والأعمدة الفضيّة بشـّدةٍ في ضوء الثريّـات البلجيكيّة. لعب الملك واجد علي شاه دور راجا إندر، وغنّت الجنيّة الماسيّة في بلاط إندر:

اللآلئ في أذنيها
بجانب شعرها الأسود
تلمع مثل قطرات المطر
في سحب موسم المطر
صاح العملاق الأسود:
لقد أحضرت هذا الأمير من أرض إندر

غنّى الأمير غولفام:

الفجر هنا،
أنشد لحن «بهايرافين»، واغرق في الحبّ
قبل أن يتلاشى الخيال.

في الخـارج، تألّقت الزخارف على بوّابـة «ميرميد» والحديقة الصينيّة. لقد ارتدى الآن جلالة الملك واجد علي شـاه زيّ كريشـنا، و«الحلابات» رقصن رقصة «راس ليلا» في السّقيفة. رشّت النّوافير المياه المعطّرة. لقد كان مهرجان الخريف في أوجه.

خرجوا من قيصر باغ، واتّجهوا إلى شـاتار منزل، حيث اصطف عددٌ كبيرٌ مـن السّـيارات أمام هذا النـادي الأوروبي. لقد كانت ليلة السـبت، «الحاكم موجـودٌ هنـا. رأيتُ القبطـان فريزر يدخل قبـل قليل»، لاحـظ كمال. وعلى الدّرجـة الأخيرة من السـلّم الذي ينـزل إلى النهر جلس الملـك غازي الدين حيـدر حـافي القدمـين. ألقى فردة حذائـه في الماء، ولما رأى الحـذاء يبتعد عنه راقصاً، صفّق بيديه لاستدعاء غلامٍ، ولكن لم يحضر أيّ غلامٍ. مازال صوت موسـيقى الرّقص الغربيـة والضحكِ ينبعث من قاعـة الرقصِ، فانحنى على المـاء والتقط الحذاء الرّطب بنفسـه، ثـم ألقى فردة الحذاء الأخـرى في النّهر. قدّم غوتام له سيجارةً باحترام.

«لا، نحن ندخّن الشيشة فَقط. من أنت؟» قال الملك عابساً.

«فقط... أنا..». أجاب غوتام في حيرةٍ.

تركـوا صاحـب الجلالة يلعب بحذائـه الذهبيّ بجانب النهـر، وتوجّهوا نحـو المدينة القديمة، ووراء كليّة الملك جـورج الطبيّة (حيث الرجال يولدون ويموتون دون انقطاعٍ). جالوا حول المدينة وعادوا إلى بادشاه باغ.

كان مبنى مكتبة طاغور الحديث مطلاً على قناة الملك ناصر الدين حيدر.

«تعـال إلى الدّاخـل»، يبـدو أنّ المبنـى يقـول. «أغـرق أحزانـك في محيط الكتب».

قال كمال: «هذا هراء، وأنا أعلم بشكلٍ أفضل».

على بعد مسافةٍ، دقّت ساعة برج حسين آباد الواحدة، وتدفّقت أمواج النّهر، وطارت البومة تحت ضوء القمر.

فتح غوتام عينه اليسرى بكسلٍ، ونظر إلى النّهر. كان جالساً على درج منزل نيرمالا في حين جلست تشامبا وطلعت ونيرمالا على الدرابزين وأقدامهنّ مدلاة في الماء، مرّت سفينةٌ في الجوار، تلاشى صوت قصيدة الغزل في مسرحيّة «إندر سبها» على بعدٍ.

سأل غوتام وهو يفرك عينيه: «هل تخرّجتُ؟»

«نعم، لقد تخرجتَ»، أجابت فرقة *إندر سبها - شارع الجودة* في انسجامٍ تامٍّ.

42

بستان الحكماء

كان الأستاذ بانيرجي خبيراً اقتصادياً ذا سمعةٍ دوليّةٍ. خيم على الفيلا في الحرم الجامعي نوعٌ من الحزن الرّومانسي. عندما كان طلّابه يتوافدون عليه بعد الظّهيرة يجدون البروفيسور القديم جالساً تحت شجرة غارقاً في التفكير. كان تلاميذه يجلسون في شكل نصف دائرةٍ على العشب، وهو يتحدّث إليهم بصوتٍ خافتٍ حزينٍ. كان غوتام نيلامبار وتشامبا يترددان إليه كثيراً.

كانت الهند تنتقل من أزمةٍ إلى أخرى، فإضافةً إلى مجاعة البنغال التي أدّت إلى دمارٍ هائلٍ برزت على السّاحة طامّةُ السّياسة الطّائفيّة الكبرى. ذات ظهيرةٍ في يوم الأحد تجمّع الطّلاب بعددٍ أكبر من المعتاد، في ذلك اليوم نشرت الصّحف «نظرية الأمتين» لصاحبها السيد محمد علي جناح بالتفصيل. التفت كمال نحو تشامبا وقال: «سمعتُ يا تشامبا باجي، أنّك أصبحت من أتباع السيّد جناح؟»

«لا»، قالت تشامبا بهدوءٍ «عندما كنتُ طالبةً في جامعة باناراس، سمعتُ عن فير سافاركار والسيّد جناح. وقد قيل لي ذات مرّةٍ إنه لا حقّ لي في «كاشي» لأنّني لم أضع علامة الطّبقة على جبيني، توجهت والدتي بصلاتها إلى الله باللّغة العربيّة عوضاً عن عبادة الإله شيفا، ومن ثم ظهر أنّ ثقافتي وولاءاتي مختلفةٌ». عارضتهم بالسّؤال: «هل قرأتم قصيدة غالب الفارسيّة

«قصيدة إلى باناراس؟» قيل لي إنّ الفارسيّة لغةٌ أجنبيّةٌ. يؤلمني جدّاً أن أسمع ذلك. لهذا يمكن أن أقول لنفسي: لم لا باكستان...؟ لكن لم أفعل ذلك. بصراحةٍ، أنا في حيرةٍ من أمري تماماً».

«كنت أغنّي أنشودة «جانا غانا مانا» تحت علم الهند ذي الألوان الثّلاثة في كلية بيسانت، وكثيراً ما شعرت أنّني دخيلة تحت هذا العلم».

«هل أدركت» قال البروفيسور بانيرجي وهو يشاهد عصفوراً صغيراً يجلس على فرع شجرة سيمال، «أنّ الاضطرابات الطائفيّة بين الهندوس والمسلمين لم تكن معهودةً قبل وصول الإنجليز؟: كانت ثمّة حروبٌ كبيرةٌ داميةٌ، ولكنّها حروبٌ خاضتها قوى سياسية متنافسة التي كانت هندوسيّةً أو مسلمةً. ومن بين جميع الأباطرة المغول، كان جيش أورنغ زيب يضمّ أكبر عددٍ من الجنرالات الهندوس».

«سيّدي، لا يزال الفلّاحون في مقاطعتي يتغنّون بملحمة «رانا بني مادهو سينغ»، الذي لقي حتفه محارباً من أجل ملكته ووطنه. لقد كانت ملكته بيجوم حضرت محل، وحين كنتُ طفلاً، كنت أرى ابن حفيده يأتي راكباً فيلاً من بيته إلى منزلنا، يتحدّث دائماً باللّهجة المحليّة، إنه أثر من بقايا الماضي، وثمة طباخ برهمي يطبخ طعاماً خاصاً له، يأكله على حدةٍ في غرفة الذّكور في منزلنا. كلّ ذلك كان جزءاً من التعايش السلميّ»، قال كمال متجهّماً.

«لقد تعلّم البريطانيّون درساً مهمّاً من تمرّد عام 1857م؛ لن يُسمح للهنود بالبقاء على اتّحادهم، والنّتيجة هي ما نراه اليوم». تابع البروفيسور بانيرجي.

«الهنود هم الأكثر إثارةً في العالم». قالت تشامبا: «انظروا إلى حادث انفجار اليوم، يمكنهم أن يصلوا إلى أي حدٍّ باسم الدين».

«لقد خاط الإنجليز النبلاء المتمرّدين أحياءً في جلود الخنازير والبقر عام

1857م عقوبةً لهم»، ذكَّرها كمال.

ابتسم الأستاذ وقال: «ثمة عددٌ قليلٌ فقط من الإنجليز مجرمون ارتكبوا تلك الفظاعة. أوّل شيءٍ فعلناه نحن الطلاب عندما وطئت أقدامنا بريطانيا هو تلميع أحذيتنا على يد ماسح أحذيةٍ في بيكاديللي. لقد فعلتُ ذلك أيضاً».

«يمكن أن تكون لنا جنسيّاتٌ متعدّدةٌ مثل الاتّحاد السوفيتيّ»، صرّح كمال.

«هذه هي مشكلتك؛ كل حججك تؤدّي في النّهاية إلى موسكو»، ردّت تشامبا.

«تشامبا باجي، لا أريد الدّين. الهند تحتاج إلى السّلام والخبز».

«هل أنت قوميٌّ مخلصٌ جدّاً كمال؟» سألته تشامبا بإعجاب.

«نعم، كلّ إنسانٍ صادقٍ يجب أن يكون قوميّاً»، أجاب كمال. «لماذا نرى كلّ المثقّفين والعلماء المسلمين وعلماء الدّين الكبار في الهند قوميّين؟ هل باعوا أرواحهم للشّيطان؟ يجب أن تحملي قلباً تشامبا باجي!»

نهضوا جميعاً وراحوا يتجولون في الحديقة. «بالنسبة لك، الهند تعني فقط المدن. أنت لا تعرف حتّى أنّه لا يوجد أيّ توتّرٍ طائفيٍّ في القرى». استطرد كمال في قوله، أخبرني، «هل يمثّل صاحب السمو الآغا خان الفلّاحين والحرفيّين المسلمين؟ كيف يختلف عن بيرلا ودالميا؟

جاءت طلعت وانضمّت إلى الجماعة. «هل قرأت صحيفة اليوم؟» سألت شقيقها بهدوءٍ.

«نعم، أعلم»، أجاب كمال، وفجأةً أضحى مكتئباً جداً.

«ماذا حدث؟» سألت تشامبا.

«لقد انضمّ والدي، خان بهادور سيد تقي رضا من نيلامبور، إلى حزب

الرّابطة الإسلاميّة، لأن حزب الكونغرس أساساً يعارض ملّاك العقارات»، أجاب.

«كمال، إذا كان والدك يعتقد أنّ خلاص المسلمين يكمن في تأسيس دولة باكستان، فلا ينبغي أن يكون ثمة أيّ خلافٍ معه على الإطلاق. ألا تؤمن بحريّة الفكر؟» قالت تشامبا.

ردّ كمال قائلاً: «لا يمكنك التخلي عن وطنك مثلما تتخلّين عن المعطف القديم».

«هيّا يا فتيات، لنذهب للبروفات»، قال فيروز، وهو عند البوّابة بصوتٍ أعلى. استأذنوا الأستاذ للمغادرة وذهبوا إلى سكنهم. شاهدهم غوتام وكمال بحزنٍ وهما يغادران. كم من الأمسيات سيقضونها هنا في بستان الحكيم؟ كان العالم ينهار.

43

غابة أردِن

عرضت نساء الجامعة مسرحيتهنّ السنويّة في نزل «ليدي كايلاش». كان فـيروز مدرّباً على الحوار ومُلَقِّناً رئيساً، مثلت كـمالا دور «أناركلي»، ولعبت طلعـت دور «دل آرام»، وقـام إينيد راي بدور «الأمير سـليم». جلس رئيس الجامعة وكبار أعضاء هيئة التدريس في الصّفوف الأماميّة، وعزفت أوركسترا محطّة الإذاعة الموسيقى الخلفيّة، وبينما كانت نيرمالا تغنّي في قصر الإمبراطور أكـبر، وقفـت إينيد على النّافذة الشـبكيّة وهي تنظر إلى النّهـر وتغنّي: «يا أيّها الّمـلاح السّـعيد لنهر رافي..». قالـت أناركلي: «ولي عهد الهنـد غارقٌ في حبّ خادمـةٍ.. كم يبـدو هذا مضحـكاً!» كلّ هذا مرّ كالحلم، ثم أُسـدل السّـتار، وخرج الجمهور إلى الممرّ.

قال غوتام لتشامبا، «هل أنت غاضبةٌ من كمال؟ لقد كان قاسياً جدّاً معك في ذلك المساء، أنا أعتذر نيابةً عنه. لماذا أنت صامتةٌ هكذا؟»

«أنا فقط أدرس مواقف الحياة المختلفة»، قالت تشامبا باختصارٍ.

«هل أسـلّط بعـض الضوء على الموضـوع؟» تدخّلت طلعـت وانضمّت للمِجموعة بالقرب من شجرة الأثاب. كانت لا تزال ترتدي بِذلة «دل آرام» ولم تُـزل مكياجها بعـد. «لقد تلقيت إشـادةً بالغةً بتمثيلي هـذه الليلة لدرجة أنّني أفكّر في نوع التعبير الذي ارتسم على وجهي وأنا أتلقى الثناء: الوقار، أو

البشاشة...؟ المشكلة هي أنّ التّواضع يمكن أن يؤخذ مأخذ مركب النّقص. إذا لم يكن الشـخص متواضعاً، يُتّهم بالغطرسـة، وإذ تحدّثـت مع كلّ النّاس ببشاشةٍ، فأنت متطاولٌ وطائش؛ وإذا بقيت هادئاً متّزناً فأنت مملٌّ أو مغرورٌ».

خارج الفيلا، كان رئيس الجامعة مشغولاً بالحديث مع مشرف السّكن الجديد، الدكتور بارانجوتي، تابعت طلعت قائلةً «لنأخذ مثلاً قصّة هذه السيّدة الطيّبة من أقصى الجنوب. في أيّام الصيّف الحارّة، عندما تخرج ترتدي طاقية «سولا توبي» مع الساري. لا ترى حرجاً في أن يعتبرها النّاس غريبة الأطوار، إنّها تعرف أنّها ليست كذلك، لكنّها تجد طاقية «سولا توبي» أفضل من مظلّةٍ فاخرةٍ. لذا، وصلت إلى نتيجةٍ يا تشامبا باجي، على المرء أن يكون نفسَه، ولاينبغي له أن يجتهد لأن يكون غيره. على سبيل المثال، خذي صاحبنا غوتام...عندما يتحدّث تتخيّلين أنّك في سوق أثينيا لأفلاطون، أو أنّ خليل جبران يسير في غابة أرزِ لبنان... لا يا تشامبا باجي، عليك ألّا تكوني إلّا ذاتك. تصبحين على خيرٍ». ركضت تشامبا إلى سكنها.

ضحـك غوتام، ولاحـظ بمحبّةٍ: «أليسـت هـذه الطّفلة مثـل العقعق!» خرجوا من البوّابة، وبدأوا السّير في شارع الجامعة. توقّفت تشامبا عند تقاطع تشـاند باغ، وقالت: «لا يا غوتام، لسـتُ غاضبةً من كـمال. أنت تعرف أنّني لسـت مقبولـةً كثيراً في عائلـة رضا، وعلى أيّ حالٍ، لا حـّق لي في أن أغضب من أيّ شخصٍ».

«أنت تريدين أن تكوني شهيدةً أيضاً! تجنّبي الشّفقة على نفسك يا تشامبا، مشـكلتك شـخصيّةٌ للغاية. أنتِ غارقةٌ في حبّ عامر رضا، والباقي لا صلة له بالموضوع، مشكلتك الأخرى تتمثّل في الكلمات»، أضاف بنبرته الفلسفيّة المعتادة بلهجةٍ قاتمةٍ.

«الكلمات!» كرّرت تشامبا. «لقد كانت طلعت محقّةً. هنا النبيّ الزائف الذي يخطب تحت الأبنوس الكاذب لبادشاه باغ».

«تشامبا بيجوم، هل سنناقش كلّ هذا على فنجان قهوةٍ ساخنٍ لطيفٍ في منزلك؟» اقترحَ بشكلٍ وديٍّ.

عاشت تشامبا في كوخٍ خارج محيط «كليّة آي. تي». مشيا على طول جدار الحرم الجامعيّ، وسمعا صوت سينثيا نديوى يتصاعد من بستان الأوكالبتوس.

تحت شجرة غرينوود

من الّذي يحب أن يكون معي

قالت له تشامبا: «هنا، في غابة الأردِن يتدرّبون على الأغنية «آز يو لايك» (كما تحبّ).

«لقد كنّا قبل بضع دقائق في عالم الأحلام؛ عالم الإمبراطور أكبر وقلعة لاهور، والآن نحن في عصر إليزابيث...» لاحظ غوتام. «كلاهما معاصر!»

«من؟» سألت تشامبا بلهجةٍ لا مباليةٍ وهي تفتح باب كوخها.

«أكبر وإليزابيث». جلس غوتام على كرسيّ قصبٍ في الشّرفة، وبدأ الاستماع إلى أغنيةٍ حلوةٍ. ذهبت تشامبا إلى الداخل، وبعد بضع دقائق، عادت بالقهوة. أبحر القمر الكامل في مياه حمام سباحة الكلية الزرقاء عبر بستان الجوافة.

قال غوتام بعد أن أكملت سينثيا أغنيتها: «هذا كلّه مبهرٌ وفاتنٌ!. هل تتشاركين هذا المكان مع زميلٍ».

«نعم، مع سيتا ديكسيت. إنها معلّمةٌ، شقيقها زميل عامرٍ ضابطٌ في البحريّة».

عامر مجدّداً. أشعل غوتام غليونه. لقد أدرك مع قليلٍ من الانزعاج حقيقة أنّه بدأ يستاء من الملازم عامر رضا، الضابط في البحريّة الهنديّة.

تساءل ببراءةٍ مزيّفةٍ: «و هل ستذهبين إلى النادي وتلعبين الغولف إذا أصبحتِ حرماً لعامر رضا؟»

«نعم، لم لا؟» أجابت بصراحةٍ.

هبّ واقفاً، ومشى إلى رفّ القبّعات، ثم نظر إلى نفسه في المرآة. هل ستُغرَم أيّ فتاةٍ شابّةٍ بي، وتحبني حبّاً جمّاً؟ حقيقةً، أنا لست قبيح المنظر! قال في نفسه بمرحٍ.

«ألا تهتمّ بك شانتا بالقدر نفسه؟»

فوجئ غوتام بسماع ذلك وقال. «كيف تعرفين عنها؟»

«آه! لقد أخبرني الطّائر الصغير من غاتس الغربيّة، أوما باليكار زميلةٌ لي في الصّف في كلية تشاند باغ، تعرف شانتا... أنت تحبّها ولكنّها زوجة ابن عمّك الأول».

تعافى غوتام بسرعةٍ من أثر ما قالته.

«نعم فعلاً، كانت هي أيضاً تبغي مكانة اجتماعية. إنّها جميلةٌ جدّاً وروائيّةٌ معروفةٌ إلى حدٍّ ما في اللّغة المهاراتيّة. تزوّجت ابن عمي المبتذل، الذي كان يعمل في الخدمة المدنيّة الهنديّة في بلد المهاراتا. رأيتها بعد زفافها، وأدركت أنّنا كان يجب أن نلتقي في وقتٍ مبكّرٍ. لا يوجد طلاقٌ في القانون الهندوسيّ. إنّها سيّدةٌ متحرّرةٌ للغاية من النوع البوهيميّ، لم يكن لديها مانع أن تقيم علاقةٍ غراميّةٍ معي، لكنّني شخصٌ متديّنٌ ومحافظٌ من الطّبقة الوسطى. لا أحبّ النساء اللواتي يدخنّ ويشربن ويضاجعن الرجال..»، لقد أجبرته تشامبا بطريقةٍ ما على الاعتراف. «وإنّها تتمتّع بكونها سيّدة ضابط هيئة الخدمات المدنيّة الهنديّة».

«حسناً. شانتا خرجت من المشهد. ولكنّك لن تتزوج نيرمالا المسكينة أيضاً! ربّما تفضّل أن تتحوّل إلى مرشدٍ عازبٍ غريب الأطوار. أنت تحمل صفات معلّمٍ تحت واجهة التواضع الزّائف التي تتمسّك بها، والابتسامة العريضة الحلوة التي ترتسم على شفتيك يا غوتام. أشعر بتعبٍ شديدٍ، ويجب أن أعترف بأنّه على الرّغم من تمثيلك في المسرحيّات، أو بسبب ذلك، أجدك جذّاباً للغاية، آه! الآن سوف تعتقد أنّني لستُ امرأةً ملتزمةً برجلٍ واحدٍ. ربّما لست كذلك، لا أعرف، مثل شانتا، لا أستطيع الزواج منك وقد عرف كل منا الآخر. جماعة رفاقك تفتخر بصراحتها الكبيرة، يطلق كمال على دائرة أصحابه «مطبخ اللّصوص». تعتقدون جميعاً أنّ الرّجال من ذوي النزعة الماديّة هم فقط المنافقون، على الرّغم من أنّه لا يمكن لأحدٍ إلا المجنون أن يكون صادقاً تماماً، لكنّي الآن أعلم أيضاً أنّنا جميعاً مكشوفون تحت أضواءٍ شديدةٍ لتصوّرات بعضنا حول بعض. لن تجد أبداً نصف الإضاءة التي تمكنك من إخفاء نفسك. وهذا الضّوء الشّديد ينهال عليَّ أيضاً، وأنت تستشفّ ما بداخلي، وأنا أرى ما بداخلك، ولهذا السّبب أعرف...».

«... أنا أرى ما بداخلك!» رفع غوتام يديه وانفجر ضاحكاً. «حسناً. يجب أن أهرع إلى المنزل، وأكتب عمودي الذي سأتناول فيه مراجعةً مثيرةً مسرحية طلعت أناركلي». تذكري، في سياق عامر رضا، أن حبّ سليم لأناركلي سبّب كارثةً لكليهما. «تصبحين على خير!»

قفز من الشّرفة واختفى.

انتشرت ضحكاتٌ مرحةٌ في غابة الأردن. لقد انتهوا من بروفة «كما تحب»..

كانت الحرب في أوروبا في مرحلتها الأخيرة.

كان مركز تسوق لكناؤ التجاريّ الأنيق، حضرت غنج، مكتظّاً بفتياتٍ هنديّاتٍ وأوروآسيويّاتٍ. لقد أصبحت الطّبقة العليا من المجتمع أكثر حيويّة بوجود ضبّاطٍ هنود، وهم شباب أذكياء، في القوّات المسلّحة الملكيّة البريطانيّة. كانت المقاهي تعجّ بشبّانٍ متحمّسين يناقشون الوضع السياسيّ الأخير. كانت تهمينة في مرحلة البكالوريوس تدرس الحقوق، وقد أكملت تشامبا الماجستير واشتغلت مدرسة. كان ذلك عام 1945م.

عاد الملازم البحري عامر رضا إلى البيت في إجازةٍ، وذهب للقاء تشامبا في منزلها بالقرب من تشاند باغ. كانت في طريقها إلى مكتبة طاغور، لكنّها نزلت عن دراجتها وسارت معه. سألها عامر بطريقةٍ حواريّةٍ: «هل ترغبين في العيش في شقّةٍ جميلةٍ جيّدة التهوية في كولابا، بومباي، بصفتكِ سيدة عامر رضا؟»

احمرّ وجه تشامبا خجلاً.

ثمّة شيطانٌ صغيرٌ داخل كلّ إنسانٍ ذكيٍّ، يجعله يفعل كلّ ما يحلو له. هل الشيطان أم ضميرها الحيّ الذي منعها من أن تصل إلى قرارٍ؟ أيّهما كان؟ همس هذا الشيء في أذنها، «قولي لا». لقد أدركت أيضاً أنّ جميعهم، على الرغم من كونهم يساريّين أقحاح، كانوا في أعماقهم إقطاعيّ النزعة. لقد ظنّوا جميعاً أنّها متسلّقةٌ اجتماعيّةٌ. تذكّرت بغضبٍ كيف سخر منها كمال ذات مرّةٍ بسبب وقوعها في حبّ عامر بدعوى انتمائه إلى الطّبقة العليا، وكيف وصفها غوتام بأنّها تنشد منزلة اجتماعيّة. لقد خطر ببالها أيضاً أنّها وجدت غوتام نيلامبار أكثر جاذبيّة، بلونه الدّاكن، ومزاجه السّاخط. وبدا أنّ هالة الإعجاب التي تحيط بعامر تفقد بريقها.

بقيت صامتةً لبضع لحظاتٍ ثم قالت «لا».

«لماذا إذن قدتني إلى طريق الحديقة؟»

«أيّ طريقٍ للحديقة؟ آسفة، مستواي في الإنجليزيّة ضعيفٌ».

لقد دُهش. «هل يمكنكِ أن تقولي بصدقٍ إنك لم تغازليني، وأنت تعلمين جيّداً أنني كنت سأتزوّج من صديقتك تهمينة؟»

«لا يمكنك أن تساوي بين الأخلاق والنّزوات. لقد كانت تلك مرحلةً عابرةً، مجرّد افتتان».

قال عامر: «بعد كلّ القيل والقال في علاقتنا الرومانسيّة، كيف يمكنك أن تكوني ساخرةً إلى هذا الحد؟». كانا قد وصلا إلى بوابة بادشاه باغ. «لقد ظهر أنّك إنسانٌ عاديٌّ، وليس لديك شجاعةٌ أخلاقيّةٌ. كما أنّني أسمع شائعاتٍ عن غوتام وصاحب مطعم ثريٍّ يدعى شاهد ميرزا. إنّه أمرٌ مثيرٌ للاشمئزاز».

لكونه قليل الكلام لم يجادلها، فضلاً عن أنهما في مكان عام، ويعرفه الجميع. لقد اشتهر بلقب الأمير غولفام من بادشاه باغ. انتظر منها أن تقول شيئاً، لكنّها ظلّت صامتةً. ودّعها بكلماتٍ خاليةٍ من المشاعر، كأنّها تحيّةٌ ذكيّةٌ، كما لو كانت سفينةً حربيّةً تتأهّب للإبحار قريباً إلى ساحة حربٍ أخرى. ثم استدار بطريقةٍ ذكيّةٍ، وسار نحو منزل غولفيشان. بعد وصوله إلى البيت بدأ يحزم أمتعته بفظاظة.

كانت تهمينة قد عادت للتو من الجامعة بعد حضورها امتحان المادّة الأخيرة في الحقوق. عقدت اجتماعات عائليّة مكثّفة في المنزل، لأنّها أكملت تعليمها آنذاك، ولم يكن عامر رضا الذي سيغادر في المساء قد طلب يدها بعد. كان مزاج كلّ أفراد العائلة متعكّراً في منزل غولفيشان. تجنّب كمال وهاري

شانكار الآنسة تهمينة. كانت العطلات الصيفيّة قد هلّت، وعادت تشامبا إلى مدينة بانـاراس، أمّا أسرة تهمينة فقد اتّجهت إلى منتزه ناينيتال، وتوجّه هاري شانكار وكمال إلى موسوري للمشاركة في بطولة التزلّج على الجليد.

في يوليـو، عادت النّخبة من التّلال، وأُعيد فتح أبواب منزل غولفيشـان. أصـدرت الأشـجار الرطبة حفيفاً كلّما هبّ النسـيم. وذات يـوم، ظهر عامر رضا على نحوٍ غير متوقّعٍ وتوجّه مباشرةً إلى غرفة عمّته وقال لها:

«تهانينا، لقد أصبحت تهمينة بيجوم محاميةً».

بقيت زوجة السيّد تقي رضا صامتةً.

«أعتقد أنّه حان الوقت لتتزوج».

«ممن؟»

«منّي، بالطّبع».

«ألا تخجـل من نفسـك يـا بنيّ؟ لقد خذلـت ابنةَ عمّك مـن أجل تلك.. تلك الوقحة!»

«استميحك عذراً يا عمّتي الكريمة!» ردّ عليها بصوتٍ مصدوم.

«اسمع يا بُنيَّ»، حاولت العمّة ضبط نفسها، «في كانون الأوّل - ديسمبر الماضي عندما أتيتَ، دخلت سـوزان وغـولابيا غرفتـك لتنظيفها، فوجدت سـوزان ساري تشـامبا بيجوم في خزانة ملابسـك. لقد رأيناها جميعاً ترتدي ذلك السّـاري في كثيرٍ من المناسـبات. كيف يجوز لك أن تفعل هذا بنا، وبهذه الوقاحة؟» انهارت زوجة رضا.

صُعِـق عامر. لماذا تركت المرأة الغبيّة السـاري الخاصّ بها في غرفته، دون الأماكـن الأخرى؟ وكيف عادت إلى سـكنها دون سـاريها. أحَـسّ بالدّوار، ثـم تذكّر بسرعة البرق: ذات مرّةٍ في الشـتاء، ذهبت العائلـة كلّها، بمن فيهم

الخـدم، إلى مدينة كاليانبور لحضور حفل زفافٍ. كان الشـاطئ واضحاً، وقد أخذ تشـامبا معه لركوب السّـفينة على النّهر. وكانت قد جلبت معها ملابس إضافيّةً في حقيبةٍ، لأنّه قال لها إنه سيعلّمها السباحة.

كان المـاءُ بـارداً جدّاً، فبـدأت ترتعش وتعطـسُ. عاد بها عامـر إلى منزل غولفيشـان، حيـث غيّرت ملابسـها على عجـلٍ في غرفته، وتركت السّـاري الرطب بعصبيّة، لأنّها لاحظت شـخصاً قادماً إلى المنزل. روى عامرٌ الحادثَ لعمّتـه، لكنّهـا لم تقتنع. ومع ذلـك، فقد غُفِرَت له خطيئتُـه، وأخبرت تهمينة أن عامـر يريـد أن يتزوّجها على الفور، وأنّ هناك شـقّةً جمليةً جيّدة التهوية في كولابـا مومبائى تنتظرها. كانت تهمينـة غاضبةً. «لا»، صرخت تهمينة بأعلى صوتها، «طفح الكيل، كفى! وكفى!».

عـاد كـمال من موسـوري مع هاري شـانكار، أمّـا عامر فبقـي في لكناؤ، وعندمـا وصـل إلى منزله في شـار باغ قيل لـه إنّ تهمينة رفضـت طلب عامر يدها للزواج الذي طال انتظاره، وهذا قرارها النّهائيّ. كان كلّ فردٍ في المنزل هادئـاً جداً. ومن أجل الهروب من الأجـواء الحزينة، قرّر كمال أن يأخذ نصّ البرنامج الإذاعيّ «جامعة هوابور» إلى تشـامبا، فوجدها جالسـةً تحت مظلّة في الحديقـة، وكان ابن العمّ عامر موجوداً هناك، فقد جاء ليخبرها عن كارثة السّاري، ولكنه غادر حالما رأى كمال.

تحجّرت تشـامبا لفـرط الصّدمة، إذا وافقت على الـزّواج من عامر الآن، فسيثبت أنّها كانت تضاجعه. الحياة سخيفةٌ جدّاً فهي ليست على استعداد لأن تخِسر سـمعتها، وكلّ ما تبقّى منها. هؤلاء النّاس من الطّبقة الوسـطى العليا والمجتمع الإقطاعيّ من المستوى المتوّسط لديهم مدوّنةٌ أخلاقيّةٌ صارمةٌ تماماً مثل طبقتها البورجوازيّة الصغيرة. كانت بالفعل تُعدّ من بين الفتيات الثلاث

أو الأربع الرخيصات في الحرم الجامعيّ.

في اليوم التّالي، سمع كمال عن قصّة الساري المخفي، وقد طُلب منه إقناع أخته العزيزة تهمينة بتغيير رأيها.

لم تقل تهمينة «نعم» بعد أن قالت «لا» بكلّ قوّةٍ وتأكيدٍ من قبل.

استمرّت علاقة تشامبا بهم؛ لقد كانوا متحضّرين جدّاً، فلم يذكروا قصّة السّاري، لكنّ طلعت ونيرمالا بقيتا غاضبتين جدّاً. وفي ظهيرةٍ غائمةٍ بعد ظهر أحد الأيّام، كان الجميع يشربون الشاي في الحديقة الخلفيّة لغولفيشان، وفي الزّاوية البعيدة من الحديقة، انتصبت شجرة تشامبا صينيةً طويلةً متفردة بروعتها، وغطّت سجّادة من الزهور الصّفراء الصّغيرة العشب.

قال كمال بكلّ إخلاصٍ «كلما نظرت إلى هذه الشجرة يا تشامبا باجي، أستحضر جمال اسمك، كم هو عطِرٌ اسمك يا تشامبا باجي!» كيف مازال يثني هؤلاء الرجال الأغبياء على هذه الساحرة، فكّرت طلعت وهي ساخطةٌ.

مرّت الكانسة غولابية بالقرب، ورمقت طلعت بسخرية، ممّا دفع السيدة الشابة طلعت إلى حسم الأمر، فصرخت: «اسمعي يا تشامبا باجي. الآن بعد أن خرجت القطّة من الحقيبة، فلنتوقف عن الاستمرار في مهزلة الأخلاق الحميدة. هذا الأمر يحطّم أعصابي. هل فعلت أم لم تفعلي؟ قولي نعم أو لا فقط».

خيّم صمتٌ صادمٌ في الجوّ، وتغير لون تشامبا فغدا شاحباً مثل زهرة تشامبا متساقطةٍ.

حدّقت تهمينة في أختها الصّغرى، نظر كمال وهاري بعيداً، وهما محرجان للغاية.

«لا»، أجابت تشامبا ببرودٍ.

«معذرةً يا تشامبا باجي»، قال كمال. «أرجو أن لا يسوؤك ما قالته طلعت. أنت تعرفين أنّها حمقاءٌ».

«قال لي ابن عمّك العظيم السيّد عامر أنّه أخبركم جميعاً عن قصّة الساري المثير للجدل الذي تركته في غرفته، يجب أن تعرفوا أنّه طلبني للزواج من جديدٍ، ولكنّني رفضت ثانيةً من أجل العزيزة تهمينة. سامحوني عذراً». قالت صارخة ثم نهضت عن كرسيّها.

«طلعت، أنت مخلوقٌ فظيعٌ! يا لك من شقيّةٍ مدلّلةٍ، لا حقّ لك في إهانة ضيفك. قولي إنّك آسفةٌ!» صرخت تهمينة. «تشامبا، أنت تعرفين أنّها مجنونةٌ للغاية. من فضلك، لا تذهبي».

ولكنّ تشامبا كانت حينئذٍ قد عبرت الحديقة،واستقلّت دراجتها.

لم يتكلّم أحدٌ. انسابت أصوات حفيف أشجار أملتاس فوق رؤوسهم، وواصلت شجرة تشامبا الصينيّة بثّ عطرها في الأرجاء. أمّا طلعت فلم تكن نادمةٍ، وقالت غاضبةً «سأكون قاضيةً وسأكون محلّفةً»، قالت الفتاة الغاضبة الماكرة.

«اسكتي»، وبّختها تهمينة.

«لقد اكتشفنا جميعاً خلال السّنوات القليلة الماضية أنّها لا تقول إلا الأكاذيب، كما أنها تتخيّل نفسها أنثى فاتنةً»، لاحظت طلعت.

«هيّا، يا أصدقاء، إنّها ليست فاتنة الجمال أو «شهابان شهوري[1]»، قال هاري شانكار بهدوء.

---

(1) جاناكي بائي، مغنية جراموفون شهيرة من إله آباد، عاشت في العشرينات من القرن العشرين، تعرضت لـ 56 طعنة سكينٍ على يد عاشقٍ لها، ولكنّها نجت، وعرفت لاحقاً بـ«بهابان شهوري». كلمة شهابان تعني 56 وكلمة شهوري تفيد معنى السكين،أي ذات الـ 56 طعنة سكين.

«تعتقـد أنّهـا مارلـين ديتريـش» تدخلـت نيرمـالا، «إنّهـا سـيدة ماكـرةٌ، ومصمّمةٌ، وما إلى ذلك..».

لقـد كانتـا مواليتـين لتهمينة حتّـى النخـاع، أمّا تشـامبا فقـد تحوّلت إلى شخصيّةٍ شرّيرةٍ تقليديّةٍ كما في الأفلام الهنديّة.

نهضت تهمينة وعادت إلى المنزل. وبخ هاري وكمال الفتاتين الصغيرتين.

قـال كمال: «ألا تدركان كم تؤذيان تهمينة المسـكينة بإثارة قصّة السـاري المقيتة!».

«حسـناً. ولكن لـن تمضـوا في الدّفاع عن هذه السـيّدة الشّريـرة»، قالت طلعت، لقد شاهدوا فيلماً في اللّيلة السّابقة.

«لا، يجب إعطاؤها قرينة الشكّ»، قال هاري شانكار، ونهض من مقامه.

«لقد أجّلت المحكمة».

44

الآنسة تشامبا أحمد

(صورة حفل التخرّج، سي مول،حضرت غنج، لكناؤ)

تزوّجت أصغر بنات البروفيسور بانيرجي بعد أيّامٍ قليلةٍ من تقسيم الهند في حفلٍ بسيطٍ. ينحدر الأستاذ من دكا، ولم يتمكّن أقاربه من المجيء بسبب الاضطرابات الطائفيّة. لقد قرّروا البقاء في دكا كباكستانيّين. حدثت الأمور بسرعةٍ كبيرةٍ وبشكلٍ عنيفٍ جدّاً، وبدا أنّ العالم قد جنّ جنونه.

عجَّ منزل بانيرجي بالأشخاص الذين جاؤوا لحضور حفل الزّفاف. وكان كبار عائلة رضا وراي زاده قد وصلوا بالفعل. اختبأت تشامبا، التي لم تكن ترغب في أن يراها أفراد عائلة رضا وراي زاده، وراء الحشد الشبابيّ المحيط بالزّوجين. فجأةً خاطبها شابٌّ بنغاليٌّ بصوتٍ عالٍ: «مرحباً! كيف حال السيّد جناح؟ كيف ذهب إلى كراتشي تاركاً إياكِ وراءه هنا؟»

فوجئت تشامبا كثيراً. من كان هذا الغريب؟ كيف خمّن أنّها مسلمةً؟ هل كان مكتوباً على وجهها؟ هل سيتعرض المسلمون للإهانة مستقبلاً بهذه الطريقة؟ على الفور نال الرجل توبيخاً باللغة البنغاليّة من قبل شخصٍ ما، ثم خرجت تشامبا من الغرفة بسرعةٍ.

في طريق عودتها إلى كوخها، رأت طلعت ونيرمالا، في ملابس الزّفاف، تسيران في اتّجاه منازل الحرم الجامعيّ. لم تلاحظا تشامبا، لأنّهما كانتا مشغولتين بالحديث في أمور عاجلةٍ..

«بصراحةٍ، لا أرغب بالفرار إلى إنجلترا في مثل هذا الوقت، فالبلاد تمر بكارثةٍ هائلةٍ، لكنّ التعليم العالي ضروريٌّ أيضاً لإعادة بناء الهند. على الرغم من أنّه في الوقت الحالي يمثل نوعاً من الانتهازيّة البورجوازيّة، ألا تظنّين هذا؟» قالت طلعت «بالضبط»، أجابت نيرمالا بجدية. «ولكن من الصعب للغاية الحصول على قبول في كامبريدج. لقد نجحتُ في نيل القبول فقط لأنّ والدي درس فيها» ثم صمتت. لم يلمّح غوتام حتّى إلى أنه سيتزوّجها، لكنّ والديها كانا يأملان في ذهابه إلى إنجلترا أيضاً.

اختلطت الفتيات بحشد ضيوف الزفاف المتحرك.

وفي تلك الأثناء اقترب كمال من تشامبا.

«تشامبا باجي، تهانينا! لقد ظهرت دولة باكستان الخاصّة بك إلى حيّز الوجود، أخيراً» لقد منحت المرارة الشّديدة والسّخرية والحسرة صوته قوةً. بدت تشامبا مبهوتةً؛ لقد توقّعت منه أن يلقي خطاباً رنّاناً آخر، لكنّه كان هادئاً على نحو غريب، كما أن الوقت لم يكن مناسباً لأن يدخل في نقاشٍ حادٍّ، ويفقد أعصابه بالنتيجة. لقد انتهى عصر المناقشات. ينتظر الآن عالمٌ حقيقيٌّ للعمل. وقف كمال صامتاً برهةً، وهو يحدّق في بوابة بادشاه باغ الملكيّة، ثم سار في طريقه.

في مساء يوم الخميس، واجهت تشامبا طلعت في محطّة الإذاعة في استوديو منتجة البرنامج، بيجوم سعيدة رضا (لا علاقة لها بعائلة غولفيشان). كانت محطّة الإذاعة مكاناً مريحاً، يضمّ مرافق مثل «إنديا كوفي هاوس»، الذي يرتاده سكان «بلومس بري» و«بلغرافيا» في لكناؤ. في ذلك المساء عندما دخلت تشامبا غرفة بيجوم سعيدة رضا، كانت بعض النّسوة يناقشن تحوّل «أختري باي فيض آبادي». كانت أختري بمثابة «ديم ملبة» في الهند، ولكن

بعد زواجها الأخير من محامٍ شهير، بدأ الناس ينادونها باحترامٍ باسم بيجوم أختر... وصارت تقيّةً وورعةً جدّاً.

قالت السيدة مايا جميل لطلعت: «كانت ترتدي «غرارة» (لباساً كالتنّورة الطويلة) قطنيّةً مرقّعةً. وعندما سألتها عن سبب ذلك، أجابت أنّها سُنّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان الرسول يصلح ويرقّع ثيابه بسبب فقره».

«وهذا هو سبب ارتداء الدراويش الجلابيب المرقّعة! على أي حالٍ، ربّما تغيرت أختر بائي، لكن بعض الناس لا يتغيّرون!» لعنت طلعت تشامبا، وهي تنظر إليها؛ تشامبا الّتي خدعت تهمينة ونيرمالا، وتربّصت بعامر وغوتام في تتابعٍ سريعٍ. تشامبا قاطعة طريقٍ كبيرةٌ، وجريمتها لا تغتفر.

ثمّ أضافت طلعت بصرامةٍ «حسناً، لا بدّ لي أن أخرج سريعاً، لقد جاءت أختي سعيدة، وابن عمي عامر في إجازةٍ إلى المنزل، سيأخذنا إلى نادي محمّد باغ لتناول العشاء. هل ترغبين في المجيء يا تشامبا باجي، لتمارسي قليلاً من رقصة الفالز القديمة، لأجل أيّامنا الخوالي».

احتفظ الجميع في الغرفة بصمتهم، أمّا تشامبا فقد استشاطت غضباً.

وبعد ثلاثة أيّام ساد خلالها صمتٌ مخيفٌ في بادشاه باغ استذكرت تشامبا إهانة طلعت لها في محطّة الإذاعة. لقد سبق لها أن فعلت ذلك مرّةً في منزلها بعد حادثة السّاري. عضّت تشامبا على أسنانها بعزمٍ مفاجئٍ. سأعلّم هذه الكلبة الحقيرة المتغطرسة درساً لن تنساه..

بالطبع مازال عامرٌ مهتمّاً بها. لقد كتب إليها من أقصى البحار أنّه سوف يلتقي بها حين يزور لكناؤ. لقد اتّخذت قراراً مفاجئاً؛ ستذهب إليه وتقول له: أنا هنا، لقد انتهى زمن المشاكل، سننال راحةً وسكوناً وسندع الآخرين

يشدون شعورهم، ويبكون في وادي الحزن. سيأتي يوم يتعبون فيه ويحاولون العثور على ملجأٍ، وستنكّس رؤوسهم المتكبّرة. إنّهم منافقون وقحون. لقد كانوا جميعهم يساريّين مناهضين لبريطانيا، وهم الآن يصطفّون للذهاب إلى إنجلترا هاربين من الجماهير الكادحة التي كانت قلوبهم تنزف من أجلها. اللّعنة عليهم.

وصلت إلى طريق الجامعة، واستمرّت في المشي حتى توقّفت عند أبواب غولفيشان. وبجرأةٍ نادت رام أوتار الذي كان مشغولاً بإغلاق محرّك البئر الأنبوبيّ، وقد وقف غانغا دين بجانبه، يدخّن «بيدي»، سرعان ما رمى بها عندما رآها. «سلامٌ، عزيزتي»، قال غنغا دين.

«هل بهيّا صاحب موجودٌ؟ قل له أن يخرج للقائي»، أمرت بصوتٍ قويٍّ. من هؤلاء؟ مجرّد خدم. هل ستخاف أيضاً من البستانيين والمدرّبين في منزل غولفيشان؟ أغلقت عينيها للحظةٍ فشعرت أنّها تنمو وأصبحت في حجمها الكامل، أدركت، مثل «إيليس»، أنّ جميع هذه المخلوقات في بلاد العجائب مجرّد حزمةٍ من أوراق اللّعب، لكنّها صحت عندما سمعت غنغادين يردُّ عليها بقسوةٍ، «غادر بهيّا صاحب مبكراً هذا الصباح إلى باكستان، وقد ذهب الجميع إلى بادشاه باغ لحضور حفل الزّفاف».

نظر إليها غانغادين بكآبةٍ، وشعر أنّ الخبر قد نزل عليها كالصّاعقة. تكلّم ببطءٍ، «نعم يا ابنتي، أنا آسفٌ للغاية. لقد عرفته منذ طفولته، كان مولعاً جدّاً بي. كان يلعب معي، وكنت أخرج به في العربة التي تجرّها الدّواب كلّ مساءٍ إلى الهواء النّقي. كان عمره أربع سنواتٍ فقط عندما توفّيت والدته. لقد جاء يركض إليّ باكياً: غنغا دين! غنغا دين! أمّي نائمةٌ، وها هم يأخذونها بعيداً على نحوٍ غريبٍ، على سريرٍ، لماذا لا تذهب في عربتك؟ اركض وراءهم

وأحضرها!»

مسح غنغا دين جفونه المجعّدة، واستمرّ يروي بحزنٍ «لقد كره مربّيته، نينا. أنا متأكّدٌ من أنّ الإنجليز قتلوا المدام بالسمّ». توقّف وتنهّد عميقاً. «والآن، هجرني إلى الأبد. لديّ شعورٌ بأن الجميع سيغادرون إلى باكستان، وسنبقى هنا وحدنا. لقد انسلخت الأرض من تحت قدميّ ابنتي العزيزة...».

كان ردّ فعل رام أوتار مختلفاً بعض الشيء، لقد بدا عابساً، فهو مثقف يقرأ الصّحف الهنديّة، استحضر المقال الافتتاحيّ في جريدة ذلك الصباح الّذي وصف فيه جميع المسلمين الهنود بأنّهم خونةٌ وباكستانيّون محتملون. أبلغ تشامبا، «لقد ذهب إلى بومباي حيث ستقسم سفن البحريّة إلى سفن هندوسيّةٍ وإسلاميّةٍ. سوف يأخذ السّفن المسلمة معه ويبحر بها إلى كراتشي كما قال لي قدير !»... آخ...لا!... أطلق صوتاً عميقاً غاضباً من حلقه لتخويف الببغاوات، ورمى حجراً على أشجار الجوافة.

ظلّ غنغا دين هادئاً صامتاً تماماً.

وقفت تشامبا مبهوتةً. ظلّ رام أوتار وغنغا دين غارقين في التفكير. انصرفت بعيداً مثل عدّاء مسافات طويلة مهزوم. غادر عامر رضا لأنّه، إلى جانب الخيول والسيّارات الرياضيّة والنّساء الجميلات، أصبح لديه الآن اهتمامات جديدة في الحياة: بلدٌ جديدٌ، وترقياتٌ، والمزيد من الفرص والتحدّيات. الرجال لديهم عالمٌ مختلفٌ تماماً.

لقد أهدرتُ الكثير من الوقت على هذا الشخص... هكذا فكّرت.

كادت السّماء تمطر، وفجأةً حدث شيءٌ غريبٌ؛ شعرت تشامبا بغبطةٍ غامرةٍ لا يمكن تفسيرها. ثمة حريّةٌ في مهبّ الريح، لقد سرت قناعة مرحة

في حفيف الأوراق. هل جرّب الآخرون هذا الشّعور القويّ بالحريّة؟ تهمينة المسكينة على سبيل المثال، أو غوتام الغبيّ، الذي أحبَّ زوجة ابن عمه، شانتا؟

هههه... هههه... كم هو مضحكٌ، ضحكت لنفسها، وراحت تعدو. انبعثت رائحة حلوة من الأرض الواسعة المبتلّة بماء المطر، وملأت الأرجاء. قفزت فوق جدول ماءٍ واضح شفّاف، وركضت حول مجمّع غولفيشان حتى وصلت إلى شعريّةٍ كائنةٍ أمام المبنى الخارجيّ. وقع نظرها على ساري قمر النساء الأصفر من خلال أشجار التوت.

«سلامٌ، ابنتي العزيزة. هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟» خاطبتها قمر النساء قادمةً من البستان.

«سلامٌ، أنا طيّبة، يا زوجة السّائق»، أجابت وهي تلهث.

نظرت قمر النساء إليها بصمتٍ.

«هل يمكنني أن أجلس هنا، يا زوجة السّائق؟»

«بالتأكيد، تعالي يا ابنتي. سوف تمطر السّماء في أي لحظةٍ».

دخلت تشامبا الشّرفة. كان سطحها في غاية البرودة. لمعت الأوعية والأواني على الدرابزين، كانت قبّعة قدير السّوداء معلّقة بمسمارٍ على الحائط، ونُشر «باباد»[1] ليجفّ على ملاءةٍ فوق السرير.

«لا يحصل المرء حتّى على القليل من أشعّة الشمس في هذه الأيام لتجفيفها». بدأت قمر النساء تلاطفها بالحديث، فقد أدركت أن الأمور

---

(1) «باباد» طعام رقيق ومقرمش على شكل قرصٍ من شبه القارّة الهنديّة، يتكوّن عادةً من عجينةٍ محشوّةٍ مصنوعةٍ من دقيق الحمّص الأسود المقشّر (دقيق عدس اليوراد)، إمّا مقليٌّ أو مطبوخٌ بحرارةٍ جافّةٍ (عادةً ما يُقلب فوق لهب مفتوح). يمكن استخدام الدّقيق المصنوع من مصادر أخرى مثل العدس والحمص والأرز والتابيوكا أو البطاطس ونحوها.

ليست على ما يُرامُ. ثم قالت فجأةً: «ابنتي، أنت لا تعرفين ماهيّة الرجال؛ نحن نقوم بكلّ شيءٍ. إنهم سعداء ما دمنا نحبّهم، يطلبون منّا تضحياتٍ هائلةً، وإلّا غدوا غير سعداء. كيف يمكنني أن أشرح لتهمينة العزيزة أنّ الفتيات دائماً في وضعٍ أضعف؟ لماذا قالت له لا؟ والآن بعد أن رحل للأبد، تذرف الدّموع».

لم ترد تشامبا.

«المرأة مجرّد امرأةٍ في جميع الأحوال»، واصلت قمر النساء حديثها بحزنٍ. «إنّها خادمةٌ شخصيّةٌ للرجل برتبة زوجة أو أم. في شبابها تتعذّب على أيدي أقارب زوجها، وفي سنّ الشيخوخة تتنمّر عليها زوجات أبنائها، كأرملةٍ، وإذا كانت فقيرةً، يتجاهلها الجميع. هي مضطرّةٌ طوال حياتها إلى أداء الخدمة لا غير. ومع ذلك فإنّ الرجال غير راضين عنها. ماذا يريدون؟ الخضوع الكامل، مثل الخضوع لله». عرفت قمر النساء كلّ شيءٍ عن تشامبا وعامر. «هل أنت ذاهبةٌ إلى إنجلترا؟»

«إنّه ليس الرجل الوحيد في العالم، فثمة آلاف غيره. ليس كلّ الرجال سواء يا زوجة السائق»، قالت تشامبا بنبرةٍ ضعيفةٍ. هبّت موجةٌ من الرّياح الشرقية جلبت معها أمطاراً غزيرةً، سقطت على أشجار اللّيمون.

«كلهم سواءٌ يا عزيزتي، سواء أكانوا يعيشون في فيلات أو أكواخ الخدم، حتّى في إنجلترا ربّما لا يختلفون. كان والدي يعمل طبّاخاً لدى الضبّاط الإنجليز، كان بعضهم يضرب زوجته. هل أصنع لك ورقة تنبول يا عزيزتي؟»

«لا شكراً، يا زوجة السّائق، يجب أن أذهب. إلى اللّقاء، رام داي. نهضت عن السّرير وانصرفت.

«لماذا لا تفهم هؤلاء البنات العزيزات...؟» سألت قمر النساء رام داي بحزنٍ.

أجابت رام داي، وهي تهزّ رأسها قائلة: «إنهنّ خائفاتٌ، يعتقدن أنهنّ يعرفن كلّ شيءٍ لأنهنّ قرأن شيئاً من اللّغة الإنجليزية، لسن أفضل منّا على أي حالٍ».

عادت تشامبا إلى كوخها سيراً على قدميها، وهي عاقدة العزم على شيءٍ آخر. كانت قد تقدّمت من دون رغبةٍ حقيقيّةٍ بطلبٍ للحصول على منحةٍ دراسية إلى باريس، أعلنت عنها وزارة التّعليم الجديدة للمترجمين الفوريّين. لقد أخذت بعض الدّروس المسائيّة في اللغة الفرنسيّة خلال أيام غرامها الذهبية بعامر رضا. يجب أن تحصل على تلك المنحة. لقد فكّرت في كلّ الأشخاص الرائعين الّذين كانوا على وشك مغادرة الهند: عطية حبيب الله، ورانجانا سيدهانتا، وفيروز، وطلعت، ونيرمالا، ومذيع إذاعة عموم الهند الوسيم آل حسن، وحتى جوهر سلطان، مغنّي إذاعة عموم الهند، كلّهم سيرحلون، كما انضم أمالا روي، وهاري شانكار إلى وزارة الخارجية الهنديّة الجديدة. المسكينة تهمينة هي الوحيدة التي ستبقى في الهند مثل فيبي في شارع الجودة. إذا حصلت تشامبا على منحةٍ فستكون بالنسبة لها بمثابة كلمة السر لدخول العالم الغربي الحقيقيّ، الذي تخيلته ذات يوم...

كان النّزوح عن الهند قد بدأ.

دخلت غرفة الجلوس في دارها الصغيرة في تشاند باغ، ونزلت إلى الأسفل منهكةً، وجلست على الأريكة. لقد دخلت في سباقٍ طويلٍ مع الزّمن. نظرت عن غير قصدٍ إلى صورة حفل التّخرج التي تزيّن الصالة. احتفظت بعادتها القديمة، عادة أهل المدن الصّغيرة، وهي عرض صورها الخاصّة في غرفة

الضيـوف مـع مزهريّات الـورد عـلى جانبيها. لقـد التقط لها الصـورة المصوّر الشّهير، سي. مول في عام 1943 عندما أدت هي الأخرى الطّقس المثير وذهبت إلى حضرت غـانج مع زملائها الخرّيجين من كليّـة آي. تي. لقد ارتدت أفضل سـارٍ لديهـا، وكذلـك أفضـل قبعـة وجلباب، مـع لفائف عـلى حقيبتهـا، لقد بـدت النّجـوم في أعينهنّ عندما اسـتقبلهنّ المصور اللّبـق. كان ذلك قبل أربع سنواتٍ. في عام 1945م التقطت صورة أخرى لها عندما حصلت على الماجستير والبكالوريوس في الحقوق، وكان المصوّر هو نفسه سي. مول.

منـذ أعوامٍ ماضيـةٍ وحتّى ذلك الوقت، وهي تعمل محـاضرةً. لقد كانت في الثّلاثـين من عمرها. إن طلعت ونيرمالا أصغر منها بعشر سـنواتٍ. يجب عليهـا أن تسـتعجل، وتتوقّف عـن العبـث. لا مزيد من الذّهـاب إلى مقهى «إنديـا كـوفي هاوس» مـع الرّفاق المحلّيـين ذوي الشـعور الطّويلة ومدخني أنابيـب التّدخين. كانت تسـمّى «مول» العقلانيـين. وعندما كانت تخرج مع أحمد هاشم، مالك مطعم حضرت غنج، روز أوف شارون، المشهور بأنه زير نساء، كان يُشار إليها باسم «كونتيسّة شارون». ماذا كانت لتفعل؟ هل تهمل أبويها المسكينين المطمئنّين في الوقت الحالي، وتمضي قدماً في حياتها.

كانـت كليّة آي. تي يديرها المبشّرون الذين ربّما ينتمون إلى منظمة «الحزام الإنجيـلي الأمريكي». ولم يكن مسـموحاً هنـا للفتيات الصّغـيرات الخروج دون سـائقٍ؛ كانت تشامبا تُعتبر متحرّرةً جدّاً حتى بمعايير هذا المعهد. ليكن كذلك. وداعاً أيّها الأصدقاء.

45

آلة «الطنّبورة» المكسورة

للسلطان حسين شاه نايك من جونفور

أخذت طلعت طنبورتها، وخرجت إلى الشّرفة. «تعال إلى البيت في موسم المطر هذا»، حاولت أن تغنّي هذه الأغنية في لحن «ملهار»، ولكنّ صوتها اختنق في حلقها. لقد عاد عامر رضا من الحرب ورحل إلى باكستان للأبد. كانت تهمينة جالسةً في الداخل، مشغولةً بحياكة بلوزةٍ جديدةٍ على ماكينة الخياطة. دخلت طلعت الغرفة. لابدّ أنّ عامر رضا في كراتشي في هذه اللحظة. بدا كما لو أن عامر لمن يكن قطّ، ولم يعش في منزل غولفيشان. لقد انتهى المشهد الأوّل من المسرحيّة برحيله. كيف يمكنه البقاء هنا، ويواجه العواصف نيابةً عنّا، ويخوض معاركنا؟ جلست بالقرب من شقيقتها الكبرى، وبدأت بتحريك مقبض ماكينة الخياطة.

رفعت تهمينة رأسها، وباركت طلعت. ظلّت مروحة الطّاولة تصدر صوت الطّنين كعهدها. لطالما تضمنت الأشياء غير الحيّة دلالاتٍ أقرب إلى الإنسان؛ مروحة طاولةٍ تتحرّك تلقائيّاً من جانبٍ إلى آخر بطريقةٍ تبدو حمقاء، هكذا فكّرت طلعت.

في الخارج، كان طائر الكويل يغنّي كوهو...كوهو.... ورام أوتار يصيح على مسافةٍ. فجأةً استعادت ثقتها بنفسها، وراحت تتحدّث، «في الواقع، يا تهمينة، لا يمكن الوثوق بالعواطف، كما أن التّعاطف الفكري والمعادلات

الشخصيّة ليست مهمة. المرء في نهاية المطاف وحيد تماماً». ختمت حديثها بحزنٍ عميقٍ.

نظرت تهمينة إلى طلعت، وقالت: «وهل تأملين في أن تكوني خريّجة كامبريدج يوماً ما».

لقد جرح طلعت قولُ تهمينة. «هل تعتقدين أنّني حمارةٌ؟» سألت بحزنٍ.

«لا على الإطلاق، أنت ذكيّةٌ جدّاً. لكنّك امرأةٌ أيّتها الغبيّة».

صدمت طلعت، وقالت «تيم، أنت ثوريّةٌ. أقول لك: امضي قدماً، وكافحي، وحاربي، واعملي من أجل المساواة بين الرّجل والمرأة. لقد شجعتِ بهيّا صاحب على أن يكون متعالياً، كان يجب أن ترمي حذاءً على أنفه اليونانيّ!»

«طلعت! لا تكوني وقحةً».

«نعم، دافعي عنه الآن أيضاً. ما الفرق إذن بينك وبين رام دايا؟ إنّها تتعرّض للضرب بصورةٍ مستمرّةٍ على يد رام أوتار، وتقبل ذلك بخنوع. قبل أيّام، عندما أخذتها زوجة الحسيني جانباً ووبّخته، صاحت تلك الغبيّة: «لا تجرؤي على قول أيّ شيءٍ ضدّ زوجي». دُهشت طلعت وكادت تبكي.

خرجت من الغرفة، وصعدت على درّاجتها، وقادتها بأسرع ما استطاعت باتجاه فيلا الكستناء المائي. لقد وجدت كمال وهاري ونيرمالا على ضفة النهر، يلعبون لعبة الورق، ويغشّون كالعادة، وقد أدخل ذلك السّرور إلى قلبها، فانضمّت إلى اللّعبة. وصل غوتام مثل فكرٍ مزعج آخر. كانت نيرمالا مستاءةً، إذ بدا شقيقها وأصدقاء طفولتها غير مكترثين بها.

جلس غوتام إلى جوارهم وأشعل سيجارةً. لقد بدا متحمّساً لرحيله الوشيك إلى أمريكا. «سأغادر الأسبوع المقبل»، قال غوتام بحماسةٍ.

«من الآن فصاعداً ستصبح صحفيّاً في واشنطن، أليس كذلك؟» علّق كمال بجدٍ، وأضاف «سنشتاق لك حضرت غنج».

«أنا متأكّدٌ أنه سيشتاق لي، لقد كنت إنساناً مثيراً..». سأل بعد برهةٍ، «أين اختفت تشامبا؟»

«كان كوخها مغلقاً. فكّرت أن أودّعها أيضاً» حاول أن يظهر أنّه غير مهتمٍّ بها كثيراً.

«إنها متكتمة للغاية. ربّما ذهبت إلى المنزل، فقد حصلت على منحةٍ دراسيّةٍ إلى فرنسا، كما تعلمون»، أخبره كمال.

«واو! رائع جداً» قال غوتام. «أنا أقترح، أيّتها البنات، أن نتناول الشّاي *ثورا تشا، إيكدوم، جالدي، باندوباست*..(قليلٌ من الشّاي، بأسرع ما يمكن). كما اعتاد بهيّا صاحب أن يقول بأسلوب العقيد بليمب».

هبّت طلعت ونيرمالا واقفتين، واتّجهتا إلى المطبخ، لم تكن جامونا موجودةً. وضعت نيرمالا الغلّاية على فرن مبني من الطّوب، وأحرقت بعض الأوراق المهملة لإشعال الفحم، ثمّ مسحت عينيها.

«هل الدخان يبكيك أم أنك تبكين حقّاً؟» سألت طلعت مستظرفة.

«كلاهما».

«يا لك من حمقاءٍ. أعتقد أنّه إما مشوّش أو فيلسوف بحت في تعامله معك. أنت تعرفين مدى شغفه باختزال كلّ شيء إلى مفاهيم ميتافيزيقيّة».

«لا يهمّني... على حذائي».

«أو يعتزم أن يبقى عازباً، ويطمح أن يكون مرشداً، «أشاريا غوتام ديفا» أو الناسك المعلم غوتام، شيئاً من هذا القبيل».

«لا يهمّني مطلقاً»

«ومع ذلك، أنا متأكّدةٌ من أنّه في يومٍ من الأيّام سوف يذهب إلى إنجلترا، ويطوف بك حول النّار المقدّسة ليتزوّج منك».

«ثم استمرّي في المقارنة بيني وبين تشامبا باجي حتى أعيش في ظلّها. لا، شكراً لك»، وواصلت البكاء.

«لا تكوني بكّاءةً شكّاءةً يا حبيبتي نيرمالا». قالت طلعت بحكمةٍ «ينسى الرّجال حالات افتتانهم السّابقة بمجرّد زواجهم، وهذا ما لاحظته».

«أشعر بإهانةٍ كبيرةٍ» أجابت نيرمالا وانفجرت بالبكاء ثانيةً.

ذهبت تهمينة إلى النّافذة بعد مغادرة طلعت، وقالت في نفسها انتهى المشهد الأوّل من المسرحيّة. وإذا كتب شخصٌ ما مسرحيّةً حول هذا الموضوع، فسوف يصف شخصيّتي على هذا النحو: تهمينة بيجوم، حائزةٌ الماجستير، والبكالوريوس في الحقوق، بنت أسرية، حسّاسةٌ؛ تسعى إلى إخفاء تعاستها، مهذّبةٌ ومتواضعةٌ وفخورةٌ وقويّةٌ.

بينما كان بعض أطفال الأقارب الزّائرين يلعبون لعبة «كورا جمال شاهي» في الحديقة الخلفيّة، كانت سوزان تنشر الخُمُر الملوّنة بلون قوس قزح على حبل الغسيل. عاد كمال من فيلا الكستناء المائي، وأخذ يلعب مع الأطفال. طارد أحد الأطفال خارج دائرة اللاعبين الجالسين. كان يُسقط السّوط خلف لاعبٍ جالسٍ، ويضربه إذا لم ينتبه لذلك. بدأ كمال يركض حولهم. «مرحباً يا تيم»، صاح قائلاً: بعد ذلك، أخذ يردّد تيمة اللّعبة. «سوط.. سوط.. سوط الشاه جمال.. انظر إلى الخلف، واحصل على جلدة».

استندت تهمينة إلى الدرابزين فشاهدته. صاح كمال «*سوط الشاه جمال... حتى تشامبا باجي ستذهب بعيداً...... انظر إلى الخلف واحصل على جلدة*»

«كراتشي؟» صاحت تهمينة مرّةً أخرى دونما اكتراثٍ.

«باريس! *سوط الشاه جمال..*» ضرب كمال فتاةً صغيرةً بالسّوط فبدأت تطارده بدورها.

«كيف..». سألت تهمينة.

«إنّها طموحةٌ ومثابرةٌ، أليس كذلك؟ لقد دعاك غوتام إلى حفلة وداعه يوم السّبت». ركض كمال أسرع حتى أسقط السّوط خلف طفلٍ آخر، ثم وضع إبهاميه في جَيبَي معطفه، واتجه نحو مرأغسطس السيّارات.

كان مقهى «إنديا كوفي هاوس» يعجّ بالمناقشات السّاخنة. إلى جانب المرتادين القدامى، كان ثمة العديد من اللّاجئين الهندوس والسّيخ الجدد؛ شبابٌ وشابّاتٌ يرتدون أزياءً فاخرةً قادمين من وراء الحدود الجديدة. لم يسمع مواطنو لكناؤ قط عن الباثان الهندوس الذين كانوا يتجوّلون آنذاك في أزقّة أمين آباد، مشرّدين من المحافظة الحدوديّة الشماليّة الغربيّة. كان ثمة لاجئون أغنياء ولاجئون فقراء، ولكنّ تدفّقهم إلى المدينة لم يغيّر أجواء المدينة السلميّة. لم يكن ثمة توتّرٌ في منطقة حضرت غنج التي استقبلت الوجوه الجديدة.

شغل أصدقاء غوتام نصف المقهى. دُعي بعض شعراء الأردية للقاء لويس ماكنيس. «إذا وُجِد شاعرٌ حاكمٌ في ولاية أوترا براديش، فمن الطّبيعي انعقاد محافل الشّعر التي تسمى «مشاعره»، في قصر المحافظ راج بهافان. وبثقافتها الحيدرآباديّة الأرديّة وكرمها الواسع، كانت السّيدة نائيدو تطلب منّي خصيصاً أن أتلو قصيدتي على السيد ماكنيس» حسبما أعلن شاعر أردي بفخر.

«لقد جاء إلى الهند ليكتب عن الذّباب المستقرّ على الجثث»، قالت تهمينة بازدراءٍ.

«حسناً، لقد استقرّ الذّباب على الآلاف من الجثث في الوقت الرّاهن في البلاد»، أجاب أحد الصحفيين. «لاهور تحترق، دلهي تحترق».

«كان لدى الغرب ملايين الجثث المتناثرة على امتداد ما يزيد على نصف العالم قبل عامين فقط. لسنا وحدنا الوحوش». جادلت تهمينة بشدّةٍ.

همست طلعت إلى نيرمالا قائلةً «لقد عادت تهمينة إلى حالتها القديمة، سوف تتعافى قريباً».

«يشهد هذا العام أمطاراً أغزر»، واصل الشاعر الأرديّ «مونسون، الدّم، يهطل من السماء. ثمة دماءٌ على الزّهور، دماءٌ على أيدينا. النّاس عيونهم محمرّةٌ بالدّم...».

«ليس في لكناؤ»، قال كمال. «على الأقل يجب أن تكون ممتناً لأنّ الثّقافة التي أنشأها أسلافنا أثبتت أنّها أقوى من الجنون الحالي».

«الثّقافة والثّقافة في كلّ مكانٍ، وليس ثمّة قطرةٌ للشرب»، خاطب الشاعر الأرديّ المضيف.

«غوتام، هل ستأخذنا إلى حانة السيد كابور بعد هذا الاجتماع الغاندوي؟»

«لا»، تكلّم غوتام لأوّل مرّةٍ. لقد أصبح مدمناً على التّدخين وهادئاً جدّاً.

«بعكس الاضطرابات الطائفيّة، لدينا مجموعةٌ من المحافل الشعريّة لمساعدة اللّاجئين»، علقت طلعت.

«أنا أكره أن أدعى لاجئاً». هذا ما قاله محاضرٌ شابٌّ سابقٌ من الكليّة الحكوميّة في لاهور غاضباً: «هل تعرف ماذا يعني ذلك بالنّسبة لنا، أن نُشرِّدَ من مدينتنا، لاهور، أجمل مدينةٍ في العالم؟» كانت ثمّة دموعٌ تترقرق في عينيه.

«بينما كنت أدوزن آلة الطّنبورة في الصباح لأتدرب على غناء لحن خيال

جونبوري، انقطع وترٌ واحدٌ. غوتام، هل هذا يحمل إشارة بالنسبة لك.

«انكسرت طنبورة حسين شاه إلى جزأين» قالت طلعت بحزنٍ.

«الآلـة على ما يرام، ربّما ضبطتها بإحكامٍ شـديدٍ، أو أنّ الوتر لم يكن قويّاً جدّاً»، لاحظ غوتام..

«من هو حسين شاه؟» سأل أحدهم طلعت.

«لا يهمّ».

علّق شخصٌ آخر قائلاً «واجد علي شاه، وسلطان باز بهادور، وحسين شاه، جميعهم غير مهمّين اليوم».

«هـل أصبـح بيتهوفـين غـير مهـمٍّ في أوروبا خـلال الحـرب الأخيرة؟» تساءلت تهمينة.

«اسمعي، اسمعي»، قالت نيرمالا موافقة.

«إنّ العلمانيّة منصوصٌ عليها في فلسفة حزب الكونجرس» تابعت تهمينة بأسـلوب اتّحادهـا الجامعيّ. «أجلس بانديت نهرو سـيّدةً مسـنّةً وحيدةً، من السـلالة المباشرة للملك المغولي بهادور شـاه ظفر، بجانبه على أسـوار القلعة الحمراء في الخامس عشر من أغسطس - أغسطس يوم استقلال الهند»

«ما أحلى ذلك!» صاحت طلعت، ولكن هاري وكمال لم يعجبهما ذلك.

«يملـك بانديـت نهـرو رؤية للتاريـخ، وكانت هـذه لفتة رمزيـة مثيرة». ختمت تهمينة حديثها الوجيز. فجأة تخيّلت طلعت تهمينة تتحول إلى واحدة مـن قـادة الهند الجديـدة. لا، لن تكـون قطعة زخرفيـة عن طواعيـة. الفكرة نفسها لاحت للشاعر الأردي.

«يمكنك أن تصبحي مثل بيجوم إعزاز رسوئي[1]..» قال بصوت عالٍ.

---

(1) زعيمة مشهورة في تلك الحقبة من الزمن، زوجة إقطاعيّ من سانديلا.

«أستميحك عذرا؟» غضبت تهمينة.

«أقصد امرأة أخرى مثل بيجوم إعزاز رسوئي».

«إذن قـد تصبح محافظة أو سـفيرة في يـوم من الأيام، ويمكنهـا حينئذٍ أن تسخر من بهيّا صاحب»، همست نيرمالا إلى طلعت بالموافقة.

«هنـا هنـدُ الغد على وشـك الانطلاق، وهنـا الطّموحات السياسـيّة على وشـك التشـكّل»، علّق إس. بي. كوشـال سـاخراً. لقد كتب الشّـعر المجرّد باللّغـة الإنجليزيّـة، وكان مسـؤولاً عـن برامـج اللّغـة الإنجليزيّـة في محطّة الإذاعة.

«ليس لديّ أي طموحاتٍ سياسيّةٍ»، أجابت تهمينة بحدّةٍ. «سأعمل فقط للحزب كنصيرةٍ متعاطفةٍ معه».

على الجانب الآخر من الطّاولة، كانوا يناقشون آفاق الحياة الجديدة الرّحبة.

«لديهم بالفعل تلفازٌ في لندن».

علّق صديقٌ آخر قائلاً: «غوتام سيذهب إلى أمريكا عن طريق الجوّ».

قاطعته طلعت وقالت بلهجةٍ قاتمةٍ: «هل قرأت قصيدة فيض أحمد فيض الأخيرة صباح الحريّة؟ هذا الفجر المخدوش، وهذه الشّمس المظلمة».

قرأت القصيدة كاملة، كان الحضور يصغي إليها بصمتٍ مطبقٍ.

كـسر بوثـان أبراهـام المليـالي، الذي عمـل لـدى صحيفـة «ذي بائنيور» الإنجليزية، الصّمت. «الآن ترجميها إلى الإنجليزيّة المبسّطة، إذ لم أستطع فهم كلمةٍ».

«ترجمة الشـعر الأرديّ إلى اللغـة الإنجليزيّة؟ كيف يمكنك ترجمة «جِغار كي آغ» إلى الإنجليزيّة نار الكبد؟»

«حاولي»، قال أبراهام، وهو يدخّن أنبوبه حالماً.

فكّرت طلعت للحظةٍ، «حسناً» ثم بدأت:

هذا الفجر المخدوش، هذه الشمس المظلمة،
ليس هذا هو الصباح الذي انتظرناه.
خرجنا في صحراء السّماء، على أمل الوصول
إلى وجهتنا من النّجوم.
كنّا نأمل في مكانٍ ما،
أن نصل إلى الشّاطئ من نهر اللّيل الهادئ،
وأن ينهي قاربُ الحزن رحلته البحريّة.
من أين جاء نسيم الصّباح الباكر،
و أين ارتحل؟ مصباح الطّريق لا يعرف.
لم يتضاءل عبء الليل،
ولم تحن ساعة الخلاص للعين والقلب.
تقدّم إلى الأمام!
لأنّ وجهتنا لم تلح في الأفق بعدُ».

ساد صمت قاتم مرة أخرى. وفي هذه الأثناء، انشغل مالكولم بقلمه وكراسة الرسم. لقد كان شاباً مرحاً من لال باغ، وفناناً موهوباً اعتاد الجلوس في المقهى، ورسم الفتيات الجميلات اللائي يأتين إلى المقهى.

رسم حينها صورة لفيكتوريا مع حصانٍ مجنّحٍ، ظهرت فيها طلعت مع آلة الطنّبورة المكسورة. كانت فيكتوريا تنزل من جسر القرد، متّجهةً غرباً.

نظرت طلعت في الرسمة باهتمامٍ وقالت: «مالكولم، من فضلك أصلح

الطّنبورة، لا يمكن كسرها إلى الأبد».

«لعلّه هكذا، لعله هكذا، يا سيدتي العزيزة»، قال كاوشال بصرامةٍ.

سألت طلعت: «هل تقصد أنّ «هامبتي» لا يمكن إصلاحه من جديد؟»

«طلعت!» وبختها تهمينة كالعادة «نزلت من فيض أحمد فيض إلى «هامبتي دامبتي» اكبري!»

46

النبيل سيريل أشلي

من كلية ساسكس سيدني

نظر النبيل سيريل ديريك إدوين هوارد أشلي إلى الوقت مرة أخرى وهو يسير إلى الأعلى وإلى الأسفل تحت الساعة الدولية في محطة المترو في بيكاديللي، كان قد دعا تشامبا أحمد إلى رؤية فيلم «مياه القمر» الليلة، وراح يقلب صفحات أحدث إصدارات مجلة «نيوستيتسمان آند نيشن»، تضمن عدد الأسبوع خطاباً نارياً إلى المحرر كتبه غوتام نيلامبار حول موضوع تقسيم الهند والسلام العالمي. كان سيريل حريصاً على الذهاب إلى الراقصة الهندية سوريجا لمقابلة هذا الشخص وإنهاء المسألة معه، لكنها أخبرته أن نيلامبار الوافد حديثاً من موسكو إلى البيت الهندي- قد غادر إلى «بون».

كان سيريل الابن الأصغر للورد بارنفيلد أوف بارنفيلد هول سَري، جدُّه هو اللورد جورج توماس أشلي، الذي يسيطر على معظم تجارة الخيش والمطاط في المدينة. كان سيريل أشلي الجد الأكبر لسيريل من أسرة فقيرة، سافر إلى الهند في القرن الثامن عشر كعامل في شركة الهند الشرقية. تاجر في مسحوق الزهرة النيلية في البنغال وبيهار، وحقق ثروة كبيرة في بلاط ملك منطقة أوده. بعد وفاته عادت أرملته إلى إنجلترا مع ابنه الأصغر الذي مارس منذ البداية تجارة المطاط مُحققاً ثروة كبيرة، استطاع من خلالها مُجالسة اللوردات وشراء عدد من القرى، ليترك خلفه ثروة كبيرة. عمل الابن كدبلوماسي للإمبراطورية

في بؤر عديدة، فقد تميز بالدماثة والدهاء، كما كان خبيراً بشؤون الشرق الأدنى، ويجيد التعامل مع الأفغان المُزعجين والعثمانيين المتغطرسين. أما في الهند فقد تسامح مع عدد من مسلمي الطبقة العليا نظراً لثقافتهم ودماثة أخلاقهم. كان يلتقي حين يزور الهند بالنخبة الهندوسية البنغالية ذوي الثقافة الإنجليزية في فندق «غريت إيسترن» بكلكتا، أما غيرهم من شمال الهند فكان يلتقي بهم في فندق «إمبريال» في دلهي حين يزور الهند. كان الجد السير سيريل أشلي شخصاً رومانسياً، كما يبدو من تلك الصورة التي التقطها أحد فناني الأكاديمية الملكية لنابوب سيريل أشلي وبيبي، وقد علقت وسط غرفة الرسم في القصر في سرّي.

رحل اللورد جورج في عام 1940م، وخلَّدَ أولاده اللورد دافيد، وسيريل أشلي ذكراه. شهد العقد الثاني من القرن طفولة سيريل، وبحلول العقد الثالث شبَّ الفتى وصار يافعاً، ولقد توافدت جموع الفنانين والكتّاب إلى منزله بالمدينة في جنوب كينسينغتون لمقابلة زوجة الأب وإحدى رائدات الفن السيدة إيلين صاحبة اللوحات الغريبة. اعتادت السيدة إيلين أن ترسم وهي تدخن وتطالع صفحات مجلة: «ذا ديلي وركر».

كان بلومزبري معاديا للفاشية، وكان أودين وسبيندر رائديْن من رواد الفكر التقدمي، وقد قَدَّمَ مسرح «الوحدة» المسرحيات الشيوعية، أما مسرح «المجموعة» فَقَّدَمَ مسرحيات ليوس ماكنيس، وإودين، وأشرود. كانت الكتابة عن الحرب الأهلية الإسبانية، وكذلك الدعوة إلى اليسارية أمراً مألوفاً.

كان الشرق مصدر إلهام إليوت وعزراباوند بثرائه الفكري والحضاري الجديد، فقد استلهما كثيراً من اللغة السنسكريتية والصينية الكلاسيكية،

وساعدهما في ذلك ارتباط عائلتيهما القديم بالهند. ارتحل سيريل من وينشستر إلى سيدني ساسكس، ومنها إلى كامبريدج حيث قرأ التاريخ الهندي، لكن سرعان ما اندلعت الحرب والتحق بسلاح الجو الملكي. وفي عام 1945، عاد إلى كامبريدج مرة أخرى، وتابع القراءة عن حروب البريطانيين في الشرق، إذ كان متخصصاً في مشكلات الحوكمة الخاصة بشركة الهند الشرقية في الهند.

لم تَعد عائلة بارنفيلد قوية كسابق عهدها، فقد كان الشيوعيون يتربصون بمزارع المطاط في بارنفيلد في مالايا، كما ظهر «الموماو» في كينيا. أمّا اللورد ديفيد فما زال يمتلك حدائق الشاي في سيلهت، التي تقع الآن شرق باكستان. كان يفتح قصره للجمهور أيام الأحد، ولقد جعلته المخاوف المالية يخالط جميع الفئات والطبقات حتى العجزة والشيوخ وهو لا يزال بعد شاباً عازباً فَتياً في الأربعينيات.

واصل سيريل دراساته في كامبريدج ضارباً بمشكلات الحياة المادية عرض الحائط؛ فتزوج من فتاة يهودية من الطبقة المتوسطة تُدعى روزا لين التقى بها في حفلة خاصة في تشيلسي، كانت تعمل في مصنع سيراميك في ستافورديشير، وتحترف صناعة الخزف، لكنها لم تكن ناجحة، وهذا هو سر جمالها وبراعتها، فهو لا يحب النساء البارعات. كان سيريل بين الحين والآخر ينظر إلى الخاتم الذهبي بإصبعه الأيسر باندهاش، ذات مرة تذكر أنه متزوج ولديه زوجة متفهمة للغاية. كانا يقضيان عطلة نهاية الأسبوع في البلد أو في لندن مرة أو مرتين في الشهر، حيث تمتلك زوجته شقة في الطابق السفلي في سويس كوتيدج، فبادر على الفور إلى شراء تذكرة بشلن مع حشود الأحد، وذهب للتنزه ورؤية منزله في سري. لم يكن شقيقه هناك، ولم يتعرف الحارس الجديد عليه. دخل المنزل وأناره، وتنقل من غرفة إلى أخرى، وراح يتعجب

من نفسه قائلاً: إنه أمر مضحك، لقد ولدت هنا.

يقع القصر إلى جانب بحيرة صغيرة حفرت في القرن الخامس عشر، بجوار كنيسة صغيرة. يزخر القصر بالنوافذ الزجاجية المتداخلة الأشكال والألوان، وفي القرن الثامن عشر الميلادي الذي شهد نهضة وازدهاراً واضحين أُضيف جناح جديد. يحيط بالقصر من الخارج عدد من النوافير الرخامية والتماثيل الإيطالية أشهرها تمثال «بوذا الحزين» الذي يقبع في حديقة الصخرة ليجسد في صمت ذكرى أيام ازدهار الشرق في بارنفيلدز.

اعتاد سيريل في طفولته التنزه في الحديقة والتجول بين ربوعها، وكثيراً ما كانت قدماه تقودانه إلى مقبرتيْن مفتوحتيْن تعودان إلى العصور الوسطى، لكنهما اندثرتا وصارتا بركتيْن صغيرتيْن بعد هطول الأمطار، كان سيريل يجلس على حوافهما الرمادية الخشنة، ويتأمل أسرار الحياة والموت. لم يجد سيريل في ذلك القصر ما يثير شجونه على الرغم من أنه، أي القصر، كان مثيراً جذاباً لرواده، يعبق بالرومانسية والشجون، أضف إلى ذلك أنه لم يجد شيئاً يثير الاهتمام في حياة سلفة السيد «النوّاب سيريل أشلي» الذي لا بد أنه نهب الكثير من الهنود ليصيروا إلى ما صاروا عليه الآن.

في عام 1700م، اكتشف ميرزا أبو طالب استهاني من كلكتا مكتبة أمير منطقة مرشد أبادا لسيد «شير جانغ»، وكذلك مُقتنياته الثمينة في منزل قاض إنجليزي في لندن. لقد ظل سيريل حتى ثلاثينيات القرن العشرين يجهل أصحاب القطع الأثرية التاريخية الموجودة في قصره التي تنتمي إلى سلطنة المغول الهندية. شعر سيريل بحالة من الرضا بمجرد أن وطأت قدماه ساحة القصر، إذ أدرك أن مَنْ يُنكرُ سخافة هذه الحياة أحمق. وهنا ابتسم قائلاً في نفسه: «لابد أن ذلك هو طريق الخلاص من متع الحياة».

كان سيريل أشلي رجلاً عصرياً، وضحية لكل أوهام عصره وخيانته وشكوكه العاطفية والروحانية، عاش في بريطانيا في منتصف القرن، واستمتع بـقراءة سارتر، وقرأ للمفكر المحلي كولن ويلسون. وعلى الرغم من وجود الكثير من الشباب والفتيات في الجامعة، فإن سيريل لم يصادق سوى صديقيْن اثنين ؛أولهما: مايكل وكان يهودياً صهيونياً، والثاني: دينيس، أحد أبناء الطبقة الوسطى، يكتب الشعر التجريدي. وعلاوة على هذين الاثنين، يوجد كثيرون آخرون، الأولاد السود والبيض والسمر.

والبنات!

لكن لم ينجذب سيريل كثيراً إلى نساء من عرقه، وكان ينظر إليهن بعين سواء. لقد سادت أعقاب الحرب أجواء رائعة إذ عمَّ التسامح والتصالح الدوليين، ومن ثمَّ توافدت جموع الطلاب من جميع الجنسيات للدراسة في جامعات إنجلترا الأنيقة، منهم الصفر والسمر والسود. في هذه الأثناء استطاع سيريل أن يكسب بعض الأصدقاء نذكر منهم: السيدة يونيو كارتر من بلدته نفسها. تشبه السيدة أنجوس ويلسونيان امرأة في الجامعة البريطانية، ترتدي نظارات كبيرة، شعرها أجعد، درست اللغات السلافية. ثمة أيضاً محبوبته روز التي تزوجها بعد أن شعر بطيبة قلبها، ولقد تحملت معه الكثير والكثير، لكنها كانت تتحدث برتابة وملل، مما جعله لا يطيق الاستمرار معها، وانفصلا في نهاية الأمر.

استمع سيريل إلى الخطب الملتهبة التي يتشدق بها أعضاء اتحاد الجامعات وعلى رأسهم: كمال رضا ونيرمالا سريفاستافا اللذان وصلا في الآونة الاخيرة من لكناؤ البعيدة. جذب هذا الاسم انتباهه. كان سلفه النوّاب سيريل، يعيش في لكناؤ، وجمع ثروته هناك. لم يكن سيريل قد وصل في بحثه

إلى أوده، فقد كان لا يزال في معركة بلاسي.

وباعتباره اشتراكياً، بذل سيريل قصارى جهده لإخفاء حقيقة أنه كان ابناً لأحد الأقران، فتجنَّب مقابلة الهنود الوافدين حديثاً لبعض الوقت. وفي الجامعة تعرف على روشن كاظمي؛ فتاة سمراء، هادئة الطباع، ذات وجه مزعج، تبحث عن الله، تجاذبا معاً أطراف الحديث عن الفلسفة الهندية، ثم اكتشف أنها باكستانية.

وفي رحلته في عطلة نهاية الأسبوع إلى لندن، رافق إندوفيلز ودنيس ومايكل إلى معرض رسومات طاغور المرسومة بقلم الحبر الجاف في المنزل الهندي، وطلب من أحد معارفه البنغاليين ذوي الشعر الطويل الحضور إلى شارع إكستر لحضور برنامج ثقافي يحتفل بأسبوع طاغور في لندن.

وصل الجمع إلى مركز الطلاب الهندي، وقد امتلأت قاعته الصغيرة بالحضور. جلس الجميع القرفصاء على الأرض، وكأنهم يمارسون رياضة اليوجا. وجد سيريل وأصدقاؤه مكاناً بالقرب من منصة المسرح المنخفضة، لكن سيريل كان قلقاً بشأن الثنيات الموجودة في سرواله. نهض جوس، وأشعل البخور أمام صورة طاغور. وضعت آلة الهارمونيم الموسيقية على الطاولة. صعدت مُقدِمة الحفل إلى المنصة، وقدمتْ برنامجها بالإنجليزية ذات النكهة المحلية.

كانت مُقدِمة الحفل رائعة؛شابة ذات بشرة سمراء، يبدو عليها أنها ذات شخصية رائعة، بدت عيونها مُكتحلة، وشعرها مُزينٌ بالورد، وترتدي سارياً أحمر اللون زاهياً من مرشد أباد مع بلوزة خضراء زاهية متناسقة. كانت هذه نظرة «أجانتا» الجديدة التي تبنتها نساء هنديات ذهبن إلى الغرب بعد الاستقلال.

«واو» همست دينيس.

وقد أبدى مايكل إعجابه أيضاً بكل سرور.. حاول سيريل التفكير في لا شيء عوض النظر إليها، ثم فكر في عظمة الحكيم العظيم.

تكمن المشكلة في أنه في هذه الأيام فقد ثقته في الشرق..فقد كانت سفينته تبحر باتجاه بيزنطة، إذ أصبح مؤمناً بسيادة الحضارة المسيحية في أوروبا الغربية.

أعلنت السيدة إم. سي. «شريماتي شونيلا موخرجي»، الداعية الكبيرة لأغاني رابندرانث طاغور، عن بداية الحفل. لكن سيريل راح يتساءل: كل شيء هندي رائع، لماذا هم مغرمون بالمبالغة؟.

صعدت سيدة في منتصف العمر ذات خدين منتفخين وعينيْن لامعتيْن وابتسامة حالمة إلى المسرح، بدأت العزف على الهارمونيم، وغنت الأغاني البنغالية في حين كانت مقدمة الحفل تقرأ الترجمات باللغة الإنجليزية المنمقة، ثم أعلنت: شريماتي سوريخا ديفي عن عرض الممثلة الكبيرة للرقص الهندي بهاراتانيام.

دخل لاعبو الطبول الهنود الجنوبيون في زيهم الرسمي، تتبعهم الراقصة التي وصلت مع شعاع الإضاءة، كانت هي أيضاً مزينة بعينين ممدودتين وحاجبين مقوسين. كان مشهد الألوان السوداء مع السترات البيضاء والهتاف بلغة «التيلجو» مع دق الطبول ذات الوجهين مهيباً. يبدو أن الموسيقى تنبعث من بعض الأجواء الأخرى للكون، كان الرقص كذلك من عالم آخر، ما جعل سيريل أشلي مفتوناً.

انتهت فقرات الحفل، واختفت مُنظمته اللامعة، وتفرق الحشد، كانت السيدة شونيلا موخرجي تتحدث مع وليام كريغ الناشر بالقرب من المخرج

بحماس:

«يجب أن تقابل شونيلا ديبي، البنغالية ذات الشعر الطويل التي أحضرتهم إلى هنا».

«إنها ثيوصوفية، وهي سلالة سريعة التلاشي. لقد ساعدت العديد من الطيور المهاجرة الهندية، وهي نوع يمكن العثور عليه بشكل متزايد في هذه الجزيرة، كما أنها كاهنة مهاجرة عالية الثقافة. شهدت الهجوم الذي قُتل فيه زوجها المحامي البارز، لقد أخذتنا إلى المنزل لتناول المشروبات وكاري السمك ومشاهدة التلفاز، تعال من فضلك».

كتم سيريل أشلي ابتسامته، وقال في نفسه: هؤلاء الناس كانوا مضحكين للغاية، في حين همس دينيس: «هذه المثيرة جنسياً ستظهر هناك...»

«على أمل ذلك». قال له سيريل

«دعنا نذهب». انطلقوا مع الآخرين إلى محطة المترو.

وجد سيريل نفسه في لمح البصر في شقة فاخرة في تشيلسي، حيث كانت غرفة الرسم المصطنعة ممتلئة بدخان السجائر والمحادثات الصاخبة. أضاءت المضيفة الشموع أمام بوذا النيبالي العتيق، وأدت صلاة قصيرة بلغة بالي. كان التأثير العاطفي قد شابه ظهور باتريشيا كيركوود على شاشة التلفاز الصغيرة ذات اللونين الأبيض والأسود، عملت الخادمة البولندية اللاجئة على ضيافتهم وقدمت إليهم المشروبات.

قدمت السيدة سوريخا ديفي من لاهور إلى دلهي كلاجئة عام 1947م، وكان زوجها يدرس في كليه لندن للاقتصاد، اسمها الحقيقي أفيناش، وهي فتاه بنجابية متواضعة، حُرِمَت بشكل كبير من حياة الراقصة المشهورة ونمط حياتها. قدمتها السيدة موخرجي باعتبارها «آنا بافولوفا» الهند.

«ثمة ما هو أكثر من هذا البيان، أكثر مما تراه العين»، أبلغت السيدة ذات الشعر الطويل أصدقاءها الثلاثة من كامبريدج الذين يجلسون على أريكة عثمانية في زاوية بعيدة. «زوج سوريتا ديفي رجل أرثوذكسي محافظ، ومع ذلك فقد سمح لها أن تكون شريكة لهذا الراقص الشهير، لأنه مثل نيجينسكي...».

«من يشبه نيجنسكي، الزوج أم راقص الباليه؟»... سأل دينيس مرتدياً وجه البوكر.

رد، «الأخير» بالطبع. «هذا الشخص، ذو الشعر الطويل» أشار إلى صورتين، «هو الراحل السيد موخرجي. كي. سي، وهذا ابنه، أشوتوش، وهو فنان يعيش في باريس»

جلست المضيفة تحت اللّوحة الفنّية التبّتية، وذكرت حكايات الأصدقاء ثامبيوتو، ومحرر «بويتري لندن»، والدكتور مولك راج أناند، وكريشنا مينون، وزميلتها البنغالية، السيدة إيلا ريد.

التفتت السيدة موخرجي نحو سيريل، وسألت: «ماذا تفعل في كامبريدج، أيها الشاب؟»

أجاب بإيجاز: «إدارة شركة شرق الهند، سيدتي». كان يشعر بالخداع، إذ لم تأتِ السيدة المغرية بعد.

«أوه..». قالت شونيلا ديبي: «في هذه الحال يجب أن تشاهد وثائق سندات ملكية الأراضي التي في حوزتي وغيرها من الوثائق، التي قدمتها شركة جون إلى عائلة زوجي في منطقة راجشاهي في البنغال الشرقية، فقد تكون ذات فائدة لك».

حسناً، يمكن للمرء تجاهل مواعيد الصلاة في بالي، لكن السيدة كانت

صادقة وشفافة، فربما تخبره بمكان وجود الفتاة الساحرة باللون الأحمر.

في المرة التالية التي جاء فيها سيريل إلى لندن، أدرك أنه فقد رقم هاتف السيدة موخرجي، لكنه قرر أن يغتنم فرصة الذهاب إليها، والالتقاء بها.

قال السيد جين كينز، الحارس والجندي السابق في القوات المسلحة البشوش: «لقد ذهبت السيدة إلى باريس لمقابلة ابنها، وسوف تذهب أيضاً إلى البلدان المنخفضة لرؤية «ليتل ميستريس» ثم حدث ما حدث. لوحة أجانتا، التي أصبحت الآن تشبه إلى حد ما ماتيس، تجسدت أمامه في ذلك الوقت وذلك المكان. خرج من المصعد بهذه البساطة.

آه! لقد جاءت «الملكة العظمية»! تعجب السيد جن كينز. كانت تلك هي الأيام التي كانت تعتبر فيها كل امرأة ترتدي الساري أميرة هندية. ابتسمت في وجه سيريل تقديراً له، لأنها رأته جالساً على الأرض في مركز الطلاب بطريقة غير مريحة. لقد تعرف بعضهما على بعض بشكل غير رسمي، كما يفعل الطلاب.

أخبرته قائلة:

«لقد جئت لرؤية صديقتي كامالا من وزارة الخارجية الهندية. كانت تعيش في هذا المبنى، أنت لم ترافقنا إلى هنا في تلك الأمسية الخالدة».

ثم كذبت قائلة: «أنا في عجلة من أمري للعودة إلى باريس، فأنا أدرس في جامعة السوربون».

لاحظ سيريل عدم المبالاة في صوتها، ربما لأنها لاحظت خاتم الذهب العادي في إصبعه. فبادرها قائلاً:

«لا تشرب أي من الفتيات الهنديات الخمر في منزل السيدة موخرجي، فما زلن محافظات للغاية، أليس كذلك، لذا لا يمكنني أن أطلب منك تناول

مشروب معي قبل المغادرة».

أجابته بأدب:

«لا أمانع، لكن أخشى أنني في عجلة من جديد، ربما في وقت آخر!».

لقد سارا إلى محطة المترو، وودّعا بعضهما، ثم ذابا في الجموع السائرة.

شابة حديثة واثقة من نفسها، لن تمانع في تناول مشروب أو مشروبين مع الأصدقاء. يجب أن تكون باريس هي التي فعلت ذلك بها. لابد من متابعتها ومطاردتها، فقد تتجاهل حتى خاتم الذهب العادي بإصبعه.

ذهب إلى باريس، لكنه لم يستطع تحديد موقعها في جامعة السوربون. لم تكن المساعدة التي قدمتها أشوتوش موخرجي كبيرة، ولكن سيريل وجدها في نهاية المطاف في صالون السيدة شونيلا موخرجي في تشيلسي في إحدى الليالي، والتقى بها عدة مرات على مدار العام في شقة سوريخا ديفي في سانت جونز وود.

كذلك تعرف سيريل على كمال رضا، وهاري شانكار المقيم في الولايات المتحدة. لقد نقل غوتام نيلامبار مؤخراً من موسكو إلى بريطانيا، لكن سيريل لم يقابله بعد. في رسالته إلى كينجسلي مارتن، ألقت هذه الشخصية باللوم على حزب الرابطة الإسلامية بالكامل، وحمّلته مسؤولية تقسيم الهند، غير أن سيريل أشلي لم يوافقه على ذلك.

واصل التسكع في ظل الساعة الدولية، فقد شعر بحماقة إلى حد ما، وتساءل إذا كان قد وقع في حب تشامبا المغرية، أم لا.

47

الشباب الهنود في إنجلترا

في منتصف القرن التاسع عشر

كانـت نيرمـالا في طريقهـا إلى مكتبـة فيتزويليام عندما شـاهدت غوتام، الذي هرع إليها صائحاً:

نيرمـالا! لقـد بحثت عنـك في كل مـكان... كيف حالك؟، لقـد قابلت أسـتاذة رائعـة في كليتـك لم تفـدني تمامـاً في الوصـول إليك. كيـف حالك يا نيرمالا؟»

أغلقـت عينيهـا للحظة، إنـه غوتام الذي يقـف أمامهـا، ويتحدث معها بحماس، فسألته:

«ما الداعي لوجودك هنا؟»

«لقد جئت من لندن لرؤيتك».

«أعتقد أنك تعمل بشكل منتظم في هيئة خارجية الآن».

«هذا صحيح».

«هل تستمتع بالحياة؟»

همهم غوتام بصوت غير مسموع، وانتهت المحادثة فجأة. لاحظ غوتام أنِ نيرمالا لم تعد ثرثارة، بل أصبحت جادة وهادئة. بادرها قائلاً: «هيا... تعالي، لقد أخبرني كمال أنه سيجتمع بنا في منطقة الكوه نور».

«كان الطلاب يمرون بجانبي، وهم يرتدون ثياباً سـوداء» أشارت إليهم

قائلة «هذا دينيس... وهذا سيريل، الزميل الأشقر ذو المظهر الجميل، إنه ابن اللورد أشلي والصديق الجديد لتشامبا باجي. غالباً ما تأتي من لندن لمقابلته. يشار إليهما باسم «النوّاب سيريل» و«بيبي» بعد اللوحة الشهيرة لسلفه وزوجته الهندية».

بدا غوتام مصدوماً. غير أنه توقف متسائلاً: «هل وجدت الحب والسعادة أخيراً؟»

ضحكت نيرمالا ضحكة قصيرة، وهي تقول «أتذكر أن ثمة فيلماً إنجليزياً، أو أمريكياً اسمه *«إنه الحب، وأنا وراءه»*، ذهبنا لرؤيته في سينما «بلازا» في حضرت غنج. اعتاد الأولاد في الجامعة خلع ألقاب جديدة على الفتيات، وفي تلك السنة حصلت تشامبا باجي على لقب «إنه الحب وأنا وراءه»، وقد أتاحت لنفسها أن تصبح راهبة نوعاً ما، فسمحت لشعرها بأن ينسدل فوق كتفيها، وارتدت سارياً أصفرَ، وظلت على هذه الحال قرابة شهرين».

ظل غوتام صامتاً، قالت نيرمالا: «لدي شعور، بأن تشامبا باجي ستصبح في النهاية مثل السيدة شونيلا موخرجي. هل تعرف السيدة موخرجي؟»

«أجل أعرفها».

وهنا قالت نيرمالا، «الوقت يسرقنا، يجب أن تكون شونيلا ديبي امرأة في غاية الجاذبية، فثمة كثيرٌ من الرجال، يتمنون أن تتحدث إليهم ولو بكلمة واحدة، كان ذلك منذ عشرين عاماً، أما الآن فقد نالتها يد الزمن، وأصبحت عجوزاً بالية، تتعرف إلى الشبان، وتأخذهم إلى المنزل، لتناول سمك الكاري».

سقطت قطرة من المطر على عينها، ومسحت وجهها بمنديلها، ثم واصلت

قائلة: «بالنسبة إلى تشامبا باجي هذه هي حقبة النبيل سيريل أشلي، نجل اللورد بارنفيلد، كما أنك ابن السير ديب نارايان، وعامر ابن السير ذكي رضا».

قال غوتام بهدوء: «نيرمالا، أنت غير منصفة مع تشامبا».

«لا، غوتام، هذه حقيقة. لقد أصيبت تشامبا باجي بخيبة أمل، وقد خيبت آمالنا أيضاً. البارحة قال كمال: كيف فقدت تشامبا سحرها ببطء؟». وقالت طلعت: «بحق، تشامبا باجي كما هي، لقد كبرنا».

نظر غوتام إليها بحزن غير أن نيرمالا استمرت قائلة: «لقد كانت في باريس، وتركت كل ما كانت تفعله للقدوم إلى هنا. الآن تحاول الوصول إلى غيرتون. لا يبدو أنها قررت أي شيء بخصوص نفسها. أعتقد أنها واحدة من هؤلاء الناس الذين يحتاجون إلى بعض الدعم العاطفي».

ارتفع صوت البوق من شارع وسط كامبريدج، فتوقف غوتام عن المشي.

قالت نيرمالا: «لا أعرف مَنْ هو، غالباً ما يعزف أنغاماً حزينة للغاية». هطلت أمطار غزيرة أصابت شعرها بالبلل. «عامر أيضاً موجود في لندن، لقد جاء إلى هنا كدبلوماسي باكستاني، في الوقت الحاضر مشغول بعرض ألوانه المائية لروشن آرا».

لقد وصلا إلى كوه نور... سألت نيرمالا غوتام

«لماذا الناس من الدرجة الثانية؟» ظل غوتام هادئاً

مرت مجموعة من الطلاب الجامعيين.

«نيرمالا...» توقف غوتام مرة أخرى.

«نعم؟»

«هل تتزوجينني؟»

«لا».

«لماذا نيرمالا؟» لفظت كلماتها بصوت مختلف.

قالت بصوت واضح جداً وعميق:

«لأنك من الدرجة الثانية أيضاً. تعال، دعنا نذهب إلى الداخل».

لقد كبرت نيرمالا حقاً... دخلا المطعم. التقت روشن آرا كاظمي القائد عامر رضا في يوم عيد مشرق ومشمس فوق مروج مسجد «ووكينغ». كان المكان مكتظاً بالجالية المسلمة الصغيرة التي تعيش في لندن وما حولها، معظمهم من الهند وباكستان. ارتدت بعض الفتيات الإنجليزيات اللواتي تزوجن من طلاب مسلمين ملابس زاهية كالساري أو قميص الشالوار. ملأت الأجواء تلك السعادة الخاصة التي لا يجدها المسلمون كثيراً في أي احتفال آخر، مثلما يجدونها في عيد الفطر. لقد أتت روشن من كامبريدج مع صديقاتها، وتعرفت على عامر رضا من خلال معارف مشتركين. كان عامر يرتدي حلة أنيقة رمادية اللون، وقلنسوة سوداء من جلد الخراف تسمى «قبعة جناح». كان جواهر لال نهرو، نتاج الثقافة الإقطاعية الهندية-الإسلامية، في ولاية أوترا براديش، قد ارتدى الشيرواني الأسود والبيجاما التشوريدار البيضاء، وهو الزي الإسلامي الرسمي الأساسي للطبقة العليا، فضلاً عن أنه زي الدبلوماسيين الهنود. كان يجب على الباكستانيين أن يكونوا مختلفين، لذا استمروا في ارتداء الزي الغربي.

لقد فازت روشن بسلسلة من منح الكومنولث، وكانت تميل إلى أن تصبح أستاذة كبيرة في المستقبل. ومع ذلك، أسرها عامر رضا على الفور، ومن ثم تعطل فكرها عن العمل. بينما كانت تتحدث معه، جاءت طلعت مرتدية غرارة لكهنوية، تصدر خشخشة أثناء سيرها فوق العشب الإنجليزي.

ألقت التحية بحماس:

«أيها الأخ... عيدكم مبارك».تبعها كمال، التقى كلاهما روشن في كامبريدج. كانت ثمة بهجة متبادلة وبعض الأحاديث القصيرة.

«يا سلام... سيدي فيروز خان نون والسيدة آفترنون موجودان هنا! معذرة، يجب أن نذهب إليهما ونقول لهما عيدكما مبارك». ثم مضى عامر رضا على عجل.

«ومن هي السيدة آفترنون؟»

سأل علي حسن الذي انضم إليهم، ويعمل في الـ«بي بي سي»قسم اللغة الهندية. فأجابته طلعت:

زوجة السيد فيروزنون الثانية، إنها سيدة نمساوية.

قال السيد فيروز خان نون في خطاب ألقاه في لندن البارحة، نحن المسلمين أنجبنا رجالاً كباراً مثل جنكيز خان وهولاكو خان. لا يعلم الزميل المسكين أنهم كانو غير مسلمين!»

ضحك كمال، وعلي حسن.

لم يعجب روشن أن يتعرض زعيم بلدها وزوجته للسخرية من قبل الهنود. بقيت هادئة، لكنها كانت في حيرة من رحيل القائد الرائع المفاجئ، وهنا سألت طلعت.

«لماذا غادر بسرعة على هذا النحو؟»

فابتسمت طلعت ابتسامة عريضة وقالت: «انظري، نحن من الهند، وهو ينتمي إلى القوات المسلحة الباكستانية، لذلك يتجنبنا قدر المستطاع».

«لماذا يجب أن يفعل ذلك؟ أنت لن تحاولي سرقة أسرار الدفاع منه، أليس كذلك؟»

«روشن، هل لديك عائلة منقسمة؟ أقصد أقارب منقسمين بين الهند وباكستان؟»

«لا، أنا من مواليد لاهور».

وهنا أضافت طلعت بصوت مرتفع،

«لذلك لن تفهمي هذه المعضلة، على أي حال نحن أتباع نهرو، وننتمي إلى الهند. إننا نُسبب المشاكل لأشخاص مثل ابن عمي عامر».

قالت روشن كاظمي وهي متجهمة:

«أف...، هذا نوع من التعالي أيها الهنود يشعرنا بالاستياء». انطلقت عابرة المروج، وانضمت إلى المجموعة الصغيرة التي تحيط بالسيد فيروز والسيدة نون، ثم قادها عامر بشجاعة نحو أكشاك الشاي.

ضحكت طلعت، وقالت:

«كمال، هل ترى ما أراه؟»

«نعم».

«أعتقد أنها ستفعل ذلك. إنه مستمر ويحتاج إلى زوجة عاشقة. لقد جحظت عيناها من فرط الدهشة».

«لا تبدأ بالتوفيق بينهما، لأجل الله».

«لا شيء يمكن أن يكون اليوم أكثر حماساً من هذا اليوم»، أجابت طلعت بمرح.

تتشارك تشامبا شقة متواضعة مع رفيقيها جون كارتر ونيل بريج، تعرفت إليهما عن طريق سيريل. كان جون يُدرس بعض اللغات السلافية المهجورة في الجامعة، وكان نيل مهندساً. وكلاهما عضو في الحزب الشيوعي في بريطانيا العظمى. في عطلة نهاية الأسبوع، يجتمع الرفاق في بيت فيروز أو سوريخا، ويتحدثون حتى الساعات الأولى من الصباح.

لم تلتقِ تشامبا مع غوتام في أي مكان، لقد سمعت أنه أصبح شخصاً مهماً

مشـغولاً للغاية بشـكل دائم. كمال في كامبريدج، أما هاري شانكار فحصل على وظيفة في نيويورك.

لقـد وجـدت لها السـيدة شـونيلا موخرجي، التـي طالما تعاونـت معها، وظيفة قارئة في دار نشر صغيرة. تستيقظ في الساعة السادسة صباحاً وتستعد لعملهـا، ثم تخرج على الفور بعد أن تتناول كوباً من الشـاي، وتصعد الحافلة المتوجهة نحو مايدا فيل، لقد قابلت بيل كريغ عدة مرات، لكنها لم تر شـانتا. بدأ نجم السـيدة نيلامبـار أيضاً يلمع في لندن، فقـد تركت زوجها، وجاءت إلى بريطانيـا لنـشر روايتهـا، وهـي تعيش الآن مـع بيل، لأن الطـلاق لم يكن مسموحاً به بعدُ بموجب القانون الهندوسي.

كان الإلـه «غاناباتي» الهائل المصنوع من خشـب الصنـدل قابعاً على رف في غرفة رسـم ويليـام كريغ في منزله في منطقة وارويـك. كان بيل مضطجعاً على الأريكة، مسـتغرقاً في قراءة صحيفة «التايمز»، إنه رجل سـمين وأصلع في منتصف العمر.

«هـل بمقـدورك مراجعة ما أكتب؟ إنه أمر سـهل للغايـة». وضع حزمة من الأوراق الصفراء أمامها، ثم نهض ومشـى نحو المطبخ. نزلت شـانتا إلى الطابق السـفلي، مرتدية سـارياً يجمـع بين اللونين البنّـي والأصفر من الحرير الهندي الجنوبي الثري. ثمة فتاة طويلة قوية زرقاء العينين جالسة إلى طاولة في أحد الأركان تكتب بسرعة.

«صباح الخير، سيدتي!» حاولت تشامبا أن تلفت انتباهها.

«أهلاً، لقد سمعت الكثير عنك من غوتام. كيف حالك؟» قالت بصوت محايد، وهي لا تزال تكتب بسرعة كبيرة. كانت تشعر بالتأكيد بأجواء التفوق. كونها روائية هندية- إنجليزية ناجحة وشريكة ناشر بريطاني مشهور. لم تهتم

بالتحدث إلى تشامبا مرة أخرى.

جلب بيل لها فنجان قهوة. كان حسن المحيا، وعيناه تشعان سعادة. لم ترافقهما شانتا إلى المكتب. كانت على وشك أن ترحل إلى باريس بعد الظهيرة. وهنا سأل بيل موظفه الجديد أثناء استراحة الغداء،

«ما هو برنامجك في الحياة؟

«ليست لدي أدنى فكرة».

«هل أنت مرتبك إلى حد كبير؟»

«نعم فعلاً».

«هل قُبض عليك أيضاً في تلك الشبكة؟»

«نعم، فعلاً».

عاد بيل إلى الصمت القاتم؛ لقد تورطوا جميعاً في الشبكة بمن فيهم هو، وسيريل أشلي وجميع مثقفي أوروبا الغربية الآخرين. لقد علق ممثلو آسيا الجديدة الذين يعيشون في الغرب في منتصف الهواء، بين النيران المتنوعة، وقاست أرواحهم مسيحيين، ويهود، ومسلمين، وهندوس، وبوذيين جميع أنواع العذاب. لقد كتب أرنولد طوينبي عشرة كتب ضخمة عنهم، ولم يتوصل بعد إلى نتيجة مرضية. كان بيل تاجراً صحفياً مؤمناً بقوتهم وفوضاهم، وعمقهم.

شانتا أيضاً تورطت في الشبكة. كان جحيمهم، وسراديب موتهم الفردي والأكوان المنفصلة هو الأكثر إيلاماً، لأنه لم يكن ثمة مخرج، إلا لأولئك الذين أصبحوا ماركسيين، واعتقدوا أنهم توصلوا إلى الإجابة النهائية.

«لقد فقدنا إمبراطوريتنا الهندية مؤخراً، وسيتعاظم الطلب بشكل كبير على روايات الحنين إلى الإمبراطورية الهندية. اكتب، وسأدعمك بوصفك

فلورا آني ستيل الحديثة».

«من هي فلورا آني ستيل؟»

«لا يهم..... ابدأ بكتابة رواية عن لكناؤ على الفور».

بدؤوا بتناول الطعام. قال: «مولك راج آناند شيء قديم، نحتاج إلى شباب مثلك. اكتب رواية عن لكناؤ القديمة، يجب أن تعرف شخصاً ما من الأسرة المالكة السابقة لمنطقة أوده؟»

«أنا شخصياً أنتمي إلى أسرة أوده الملكية السابقة»...أجابت بتهور.

«رائع جداً!» صرخ بشدة: «والدي خبير في شؤون الهند، كان يزرع النيلة الزرقاء في شرق ولاية أوترا براديش، ثم طورت ألمانيا الصبغة الكيميائية الزرقاء فانتهت تجارة بريطانيا بصبغة النيلة. باع والدي عقاراته في منطقة غازيبور إلى أحد الإقطاعيين المسلمين، وعاد إلى إنجلترا، ولقد درست في موسوري. عدنا إلى منزلنا الرطب البارد في كوبهام، بمنطقة سري. لا يزال والدي يعيش هناك. سيرحب بمساعدتك، وسيمدك بذكرياته لتعينك في كتاباتك، فعلى سبيل المثال، يمكنه أن يخبرك عن السير هاركورت بتلر ومطربته المفضلة زهرا باي من لكناؤ. كان السير هاركورت ملازماً حاكماً للمقاطعات المتحدة عام 1920م، كان يسمى آخر «النوّاب» الإنجليز الذين اغتنوا من أعمالهم في الهند.

يمكنني أن آخذك إلى كوبهام لمقابلته على فترات. ستبقى شانتا في فرنسا لمدة شهر تقريباً. لنلتق في نادي الكتاب والفنانين في «هايماركت» مساء غد، ونناقِش هذا المشروع بشيء من التفصيل».

في النادي قدّم بيل كريغ الأميرة تشامبا إلى أصدقائه ونادها بأميرة الهند. قالت بتواضع، «لا حاجة إلى الألقاب من فضلكم، نحن دولة

ديمقراطيـة». لقـد أدركـت بقلق حـاد أن بيل يعـرف عصابة لكنـاؤ، إذ كان خيالهـا بعيـداً للغاية. أما عـن حياتها في باريس، فقد أخبرت الفرنسـيين بأنها ابنة شـقيق نظـام حيدر أباد، ثم صادفت بعض الأشـخاص مـن حيدر أباد، فتوقفت على الفور عن إدعائها بكونها ابنة شقيق أحد أفراد الأسرة الملكية.

في النـادي، نظر إليها الصحفي الإنجليزي بافـتـتان تام، ثم قال بحماس وعينـاه تلمعان: «أتعرفين أيتها الأميرة أن ماهاراني، الملكة الجميلة من ولاية بنجـاب الّتى توفيـت هنا مؤخراً، كانـت تلقب بـ« وردة الهنـد». أعتقد أنك أكثر روعة منها. فبماذا ينبغي أن نناديك؟»

«سأسـأل أبي عن الاسـم العلمي لهذه الزهرة». لنذهـب إلى كوبهام، يوم السبت في نهاية الأسبوع.

48

لا لة روخ

قال وهو يضع طرداً على الطاولة، آسف، لم أستطع القيام بذلك في وقت سابق، كنت مضطراً إلى الإسراع إلى روسيا. تفضلي بقبول هدية تذكارية صغيرة من موسكو.

فتحتها بفارغ الصبر، وأخرجت شالاً غجرياً، «أوه... غوتام كم هو جميل!» صرخت كما لو كانت لا تزال في فيلا الكستناء المائي.

حمل الشال وراح يلفّه حول كتفيها بعطف وحنان فاحمرت وجنتاها خجلاً. ثم قال لها: «في يوم من الأيام سوف آخذك إلى منغوليا الخارجية. أعلم أنك ترغبين بشدة في الذهاب إلى هناك، أليس كذلك؟»

أومأت نيرمالا بقوة وهي تهمس: «ومنطقة ألما آتا أيضاً». فبادرها قائلاً: «وألما آتا، وسمرقند وبخارى...هل تعرفين لا لة روخ توماس مور؟» ثم أمر بإعداد الغداء. كان صاحب مطعم كوهي نور زميلاً من طبقة كاياثتا، من عائلة ماثوربدلهي القديمة.

استأنف حديثه قائلاً: «لا لة روخ، هي ابنة الملك المغولي أورانغ زيب، وقد انطلقت في قافلة إلى كشمير لتتزوج ملك بخارى، أبحرت سفينتها في نهر السند. لماذا لا تقولين أيوه...أيوه...هذا هو التقليد، عندما تستمعين إلى قصة؟ واظبي على أيوه...أيوه.».

«نعم. لكن والدة طلعت أخبرتنا ذات مرة أنك إذا سمعت قصة في النهار وأنت مسافر فسوف تفقد طريقك». أجابت وهي مستمرئة بدفء الشال الملون.

دخلت فتاة جميلة، ذات أنف طويل، ترتدي نظارة راقصة باليه، تدخن سيجارة سوداء، ابتسمت لنيرمالا باقتضاب، ثم جلست إلى طاولة في إحدى الزوايا.

على الرغم من أن فتاة المرحلة الجامعية غير العادية كانت بعيدة عن الأنظار، فقد همست نيرمالا إلى غوتام «النور من بورلاند».

«نور ؟ دعيني أفكر..هم.. نور يعني روشني؟»

«روشن» أجابت نيرمالا بصوت منخفض، «الموضوع: الفلسفة، والمصلحة الحالية: «ع.ر» من البحرية المقدسة».

انفجر غوتام ضاحكاً، وهو يشعر بالارتياح الشديد، ثم قال: «لا، لم يتغير صديق تهمينة القديم وما زال يأمل».

ثم سألته قائلة، «هل قابلته في لندن؟»

«نعم، في حفلات الاستقبال الدبلوماسية، لقد كان ودوداً على نحو رائع، وكذلك كنت معه، لاحظت أن الباكستانيين أكثر ودية مع الهندوس».

«أنت تقصد أنهم لا يسقطون أسلافهم، ههه ههه ها».

«نعم. لكنهم يتجنبون زملاءهم من مسلمي الهند. والعكس صحيح. على أي حال، لقد أصبح عامر رضا مولعاً جداً بروشن وهي مفعمة بالإيجابية».

«عزيزتي»، قاطعها وهو يضحك، «سيعتبر انضمامك إلى «ام ايه فايف» إخفاقاً كبيراً».

«عاد بهيا صاحب إلى الرسم مرة أخرى. أتم صورة لها». واستمرت،

«على الرغم من ذلك، دعنا نواجه الأمر، إنها ليست لوحة زيتية». غمزت غوتام وضحكت، كما كانت تفعل طوال تلك السنوات الماضية في لكناؤ. بدا كأنهما عبرا جسر الزمن الشائك في لحظة.

تابعت نيرمالا. «عندما أظهر بهيّا صاحب تلك الصورة لطلعت قالت: إن عنوان الصورة يجب أن يكون فكّر وكن حزيناً».

صمتت. تُرك غوتام واقفاً وحيداً على ذلك الجسر الهش غير المرئي. قال خائفاً من الشعور بالوحدة، وبإلحاح كبير: «نيرمال، ألا يمكنك تغيير رأيك عني؟»

فجأة تذكرت المطبخ المملوء بالدخان في منزل الكستناء المائي، عندما تنبأت طلعت؛ بأنه في أحد الأيام سيكون في إنجلترا، وسيأخذك في طواف حول النار المقدسة. حسناً ياصديقتي القديمة طلعت.

آخر مرة قالت لا وهي غاضبة. لم تعد تستطيع الآن، لكنها ظلت هادئة على المنوال نفسه.

«أنت تعلمين أنهم يقولون إن الصمت علامة الرضا، أو نصف موافقة. هل أعتبرها كذلك؟»

كان الطلاب يتدفقون عبر الباب دخولاً وخروجاً.

«مرحباً!» صاح مايكل وهو يتقدم نحوهما. كان غوتام قد قابله في بيت سوريَا. تصافحا، ثم قدم غوتام له هدية، زجاجة فودكا صغيرة، فرد قائلاً:

«أوه! شكراً، الآن سأغرق في حالة سكر مثل اللورد، نعم تذكرت سيقيم اللورد المستقبلي أشلي حفلاً ضخماً الليلة. هل تهتم بالانضمام إلينا؟ إنه احتفال».

«شكراً، ولكن يجب أن أغادر مباشرة بعد الغداء. بماذا يحتفل؟»

«حصل سيريل على منحة للعمل في العلاقات الأنجلو فرنسية في الهند في القرن الثامن عشر، بعد معركة بلاسي 1756م وكل ذلك!».

«و 1066 وكل ذلك!» رد غوتام بمرح.

«نعم، وقد عين الآنسة تشامبا أحمد مساعدة له في مشروعه البحثي! بعد فترة وجيزة ستغادر مكتب بيل كريغ للمجيء إلى هنا. لقد حصلت على دبلوم لغة فرنسية من باريس، كما تعلمون، هكذا عثر سيريل على شخص يمكنه البحث في الوثائق الفرنسية، وغير ذلك».

عاد مايكل إلى طاولته، ولسبب ما أصبح غوتام شديد التوتر. عم الصمت. وصل الطعام، وبدأا في تناوله. ثم قال متأملاً: «أسفت لسماع ما أخبرتني به عن تشامبا في المرة الأخيرة. أنا متأكد من أنها ضحية أكثر من كونها مخطئة».

حاولتْ نيرمالا أن تقاوم الدموع المفاجئة... هذا الشخص مازال يفكر في تشامبا. هذا الرجل طلب يدها للزواج مرة أخرى، ومازال يفكر فيها.

«أنا شخصياً أعتقد أننا لا يجب ألا نناقش أمر تشامبا باجي مرة أخرى، لأن الموضوع أصبح مملاً بالفعل»، قالت وهي تحاول أن تبدو مشغولة بالعثور على شيء في حقيبة يدها، «بالنسبة إليك فإن تشامبا باجي أيقونة مثالية، لكن ربما نسيت يا سيد غوتام، أننا نعرفها منذ الطفولة، تقريباً».

«هذا مضحك جداً!» قال غوتام بغيظ. «لماذا يواصل كل منكم العزف على وتر طفولته؟ هل يعتبر من لا يعرفونك أنت أو تشامبا أحمد منذ الطفولة حميراً؟»

الآن وجدت نفسها تحت ضوء مصباح شديد وهي تواجه غوتام، فهذا

المعلم الناقد بلا هوادة للضعف البشري يعتبر أن شخصية زائفة مثل تشامبا أيقونة مثالية.

علّقت بحزن: «انظر، لقد بدأت تروي قصصاً في النهار... وضللت طريقك».

أجاب بشكل قاطع، «لم أفعل، اسمحي لي أن أنهي القصة».

أخذ نفساً عميقاً ثم قال: «لذا، وجدت ذلك الشاعر فرامروز ضمن حاشية لا له روخ، ووقعت في حبه، فحرمته من القافلة الملكية، لأنها كانت في طريقها للزواج من ملك بخارى، أتذكرين؟»

«أيوه».

«عندما وصلت إلى كشمير اكتشفت أن فرامروز هو خطيبها الملكي غير أنه كان متنكراً. لذلك، يا نيرمالا، لا تبعدي الشاعر المسكين وأنت في عجلة من أمرك».

«هل كان، وهل هو، أيضاً وقع في حبها؟»

«نعم فعلاً».

«هل أنت واثق؟»

«نعم، أنا متأكد تماماً».

«أيوه».

«نيرمالا! لا تسيئي فهمي، لا علاقة لي بتشامبا. لقد كنت على صواب حينما وصفتني بسيّد من الدرجة الثانية. من فضلك حاولي أن تفهميني...» قال كأنّه بطل فيلم هندي رديء.

«أوه، نيرمالا...» انسحب في الظلام مرة أخرى. لقد كان مجرد تلميذ. من قال إن جميع الرجال حكماء وذوو وعي؟...شعرت نيرمالا وهي جالسة

على تلك الطاولة أمامه، أنها تكبر كإحدى النباتات المتسلقة المزهرة، كشجرة ما، مثل الزئبق داخل «بارومتر». إنها تتعلم وتدرك الأشياء من حولها. والآن هـي أيضـاً سـتطفئ الأنـوار الاصطناعيـة، وتنسـحب إلى الظـلام. إن حالة الوجود في الظلام هي الأفضل بين جميع الحالات.

من الآن فصاعداً سـتجلس هناك وتدقق النظر، وسترتدي طاقية سليمان التي روتها لها أسطورة قدير، ذات مرة، خارج منزل غولفيشان.

لا يمكن لكل شـخص العثور على طاقية سـليمان[1] أنا ممتنة لك يا غوتام، لأنك ساعدتني على النضج، وأوضحت لي كيف أجد هذه الطاقية السحرية.

قال لها بلطف: «انتهي من الكأس يا نيرمالا».

راحت تلعب بملعقة القهوة، وهي منغمسـة في أفكارها ثم أجابت: «أنا غارقة في أشعار إيليوت الغرامية يا أستاذ غوتام فحسب».

فسألها: «هل يمكن أن آتي لرؤيتك الأسبوع المقبل؟»

«نعـم إذا أحببت». وضعت بعناية ثـلاث ملاعق قهوة على التوالي، وهي تقـول، «وهـذا يجعـل القياس قصـيراً إلى حـد ما».....أضافت وهي تبتسـم ابتسامة شاحبة... «في حياة المرء! أليس كذلك؟»

---

(1) وفقاً لمعارف المسلمين فإن من يرتدي هذه الطاقية، يصبح غير مرئي، رغم أنه يستطيع رؤية الآخرين.

49

الثوريون

جلس الهندي اليساري (الأحمر) على جذع شجرة، وراح يرسل إشارات الدخان تحت قمر الربيع المكتمل.

قالت طلعت وهي تتجول: «يا للهول، أنت تصنع حلقات دخان ممتازة».

قفز الهندي الأحمر، وانضم إلى المجموعة وهي في طريقها إلى قاعة الطعام. باشروا الغناء، «*سنجعل السيدة أستور تغسل الأطباق عندما تأتي الثورة الحمراء/ سنجعل السيد تشرشل يدخن خشباً عندما تأتي..*».

لقد استأجروا مزرعة في إحدى القرى لأجل المؤتمر السنوي لاتحاد الطلاب الهنود في بريطانيا العظمى. كانت الحرب الباردة في أوجها. أما في الداخل، فكان بعض الهنود الحمر يلقون خطابات عنيفة معادية للولايات المتحدة. كان الرفيق الأسكتلندي يعزف على غيتاره أغنية في مديح جوزيف ستالين.

سارت طلعت وفيروز إلى الصالة حيث جلس البروفيسور هيمان ليفي على أريكة جلدية محاطاً بالشباب والشابات المتحمسين. اكتشفت طلعت في هذا التجمع روشن كاظمي، فاستقبلتها بحرارة، وفي الخارج حول النار، كانت المجموعة تغني:

توحدنا رؤية واحدة عظيمة.

على الرغم من أن أرض ميلادنا بعيدة،
قد يهددنا الأعداء ويضربوننا ضربة شديدة
لكننا سنحقق السلام للعالم..

دعي حشد من الطلبة من جنسيات متعددة: الإنجليزية والويلزية، والاسكتلندية، والشرقية الباكستانية لحضور المؤتمر. كان الهنود المضيفون حمراً على اختلاف درجات الحمرة، معظمهم مثل طلعت وكمال، وأتباع نهرو. كانوا يمجدون فيض أحمد فيض، المسجون في باكستان، بوصفه أحد أبطالهم. توحد البنغال غرباً والباكستانيون شرقاً في تفانيهم للشاعر الثوري، قاضي نذر الإسلام. كان معظم الشبان من التقدميين في إنجلترا يعتقدون أن باكستان ستحقق قريباً الثورة الحمراء، لأن الظروف كانت سيئة مثلما كانت في روسيا قبل عام 1917م، وستتألق الهند كمنارة لبقية البشرية.

دعا الطلاب أيضاً عدداً قليلاً من البرلمانيين الاشتراكيين المؤيدين للهند، والمثقفين اليساريين مثل البروفيسور هيمان ليفي، مؤلف «الأدب في عصر العلوم». لقد جاء من اسكتلندا مباشرة مصدوماً بالشعر الأبيض والأنف السامي والنظرة المتوترة الحميدة، كان نموذجاً لليهودي اليساري المثقف. على شاكلة أولئك الذين امتلأت بهم مدرسة لندن للاقتصاد، وجميعهم كانوا أصدقاء للهند.

قال للشباب الذين تحلقوا حوله في نصف دائرة، «أشعر بالخجل من الطريقة التي عاملكم بها بلدي لمدة مائتي عام». قدمت روشن ملاحظة صغيرة إلى طلعت «نقطة للتفكير؛ بريطانيا بلده، وإسرائيل بلده أيضاً»، نظرت طلعت إليه نظرة محدقة.

التفت نحو روشن قائلاً: «أنا مسرور لرؤية الكثير من الشابات الهنديات الرائعات هنا الليلة».

أومأت روشن بشفتيها.

أنقذت طلعت هذه اللحظة الحرجة قائلة: «من المؤكد أننا سببنا لك خيبة أمل كبيرة يا سيدي، بسبب الطريقة التي تصرفنا بها عام 1947م، لم تستطع الإنسانية كلها أن تنقذنا».

ليس سهلاً التنبؤ بما ستفعله طلعت. ففي اليوم الحار في أبريل عام 1941م، نهضت فجأة بعد الظهر، وراحت ترقص أمام صف بوذا المتلألئ في مدينة سارناث. والآن وقفت وأعلنت كما لو كانت على خشبة مسرح «أولد فيك»، تشارك في مسرحية «*جريمة قتل في الكاتدرائية*».

طهّر الهواء! نظف السماء! اغسل الرياح،
خذ حجراً من الحجارة واغسلها.
الأرض كريهة، المياه كريهة،
نحن والوحوش مدنسون بالدم.
أمطار الدم قد أعمت عيوني.
أتجول في أرض الغصون القاحلة:
إذا كسرتها فستنزف،
أتجول في أرض الأحجار الجافة:
إذا لمستها فستنزف.
كيف يمكنني العودة
إلى مواسم الرقة والهدوء؟

ثم جلست مرة أخرى، فجأة كما وقفت.

كيف يمكنني العودة إلى مواسم الرقة والهدوء؟ كرر لنفسه، وهو يدخن بشره. كان يرتدي قبعة «فطيرة الخنزير»، مخفياً وجهه في ياقة معطفه المرتفعة، وبدا كأنه شخصية غامضة في رواية بوليسية زمن الحرب الباردة.

«أختي، هل هو عميل أمريكي!» شاب بنغالي همس إلى طلعت: «لقد لاحظته يتربص هناك أثناء إلقائك قصيدتك الملكية الرجعية، سأذهب وأرى. هيا أيها الرفاق!».

وهنا زجرته طلعت، وهي تسترق النظر، «لا تتصرف كتلميذ». فجأءة شاهدت ابن عمها عامر، واستوعبت الموقف في لحظة. لقد جاء إلى هنا لأخذ روشن المسكينة، لا يريد أن يراه الهنود.

في الواقع إنها مهمة حساسة وخطيرة! شعرت بزيادة في المودة نحوه، انسحبت من الصالة، وبادرته الحديث بمرح.

فبدا عليه الحرج.

«بهيّا صاحب! السلام عليكم! تعال. ثمة الكثيرون من أبناء بلدك يحضرون هذا المؤتمر. انظر، أنت دبلوماسي. لقد رأيت مفوضكم السامي وزوجته مع كريشنا مينون يتواصلون على قدم المساواة، لذلك لا تصعّب الأمور على نفسك. ادخل! لعلك ذهبت إلى كامبريدج لرؤية روشن، فقيل لك إنها هنا، أليس كذلك؟»

ابتسم وربت على رأسها، قائلاً بصوت حنون: «ذكية أنت يا أختي الصغيرة!»

تأثرت طلعت، فهو لم يظهر قط مع أسرته، لابد أن بهيّا صاحب أصبح أكثر حكمة وحزناً، قررت وقادته إلى زاوية منعزلة من الحظيرة. جلس على

أحد المقاعد. «سأطلب من زرينة أن تحضر لك فنجاناً من القهوة الساخنة. استرح». ذهبتْ ثم عادتْ وجثمتْ كقرد على كومة قش. «أتذكر بهيا صاحب، اعتدت أن تكون في الكتلة الأمامية في لكناؤ. من المحتمل أن يتغلب معظم هؤلاء الأشخاص على كل هذا عندما تنتهي أيام دراستهم. إنها مرحلة ضرورية لدى الشباب البالغين».

«نعم يا جدّتي. لقد كنت دائماً حكيمةالعشيرة».

أحضرت له زرينة القهوة ثم غادرت، بدأ يسترخي تدريجياً. شعر كأنه عاد إلى فناء كاليانبور.

سألها، كيف حال أختي التي ربطت لي «الراكهي»، أعني نيرمالا..أنا لا أراها هنا».

«إنها ليست على ما يرام دخلت المستشفى الجامعي لإجراء فحص طبي».

ذكّرته طلعت بآلام غولفيشان، وتهمينة، وتشامبا. كيف يمكن أن تكون الحياة بلا شفقة لدرجة أنها حولت تشامبا إلى متشردة؟ هل هذه زلّة بريئة لفتاة تعرف أنها تبالغ في تبسيط الأمور، وتتمسك بالإيديولوجيات السياسية الزئبقية؟ كيف يمكن للأذكياء تقسيم الحياة إلى أبيض وأسود؟

لقد كان طالباً هندياً منذ خمسة عشر عاماً، وكان ينظم مؤتمرات مماثلة. الليلة كان مختلفاً، وكأنه يسكن عالماً منفصلاً. في الواقع، لقد بات شخصاً مختلفاً جداً في ربيع عام 1953م. ومتعباً بشكل مخيف. كيف يمكنني العودة إلى مواسم الرقة والهدوء مرة أخرى؟

«الآن، خذ هذا المشهد، على سبيل المثال، أنت كفرد من أفراد جيش الخلِاص».

اقتحمت طلعت على الفور: «الجنود المسيحيون من الآن فصاعداً، يسيرون إلى الحرب».

«لـن تشـعري بهـذا الحنـين الشـديد إلى المـاضي إلا عندمـا تتذكرين هذه الأمسـيات والوجـوه في المسـتقبل. كل لحظة، كل موسـم يجلـب معه ذكرى الأوقـات الماضيـة. ومـع ذلـك، فأنت مازلـت تعقديـن المؤتمـرات، وتغنين الأغنيات المجتمعية، وتتابعين التنظيم».

رمشت طلعت بطرفها

وتابع، «أنت لا ترين أبداً الدراما الداخلية. أنت لا تعترفين بما يحدث بالفعل. أنت ببساطة لا ترين؛ كل ما تقومين به هو الحفاظ على التخطيط، والحفاظ على وضع الفخاخ. ولكني سأظل أهرب». توقف لحظة ثم أضاف، «لا يمكنك مراقبتي. يجب أن أكون دائماً منفصلاً وهائماً. والآن، اذهبي إذا سمحت، واتصلي بروشن، أشعر بالمسؤولية تجاهها، لقد تأخر الوقت».

غادرت طلعت، فأشـعل سيجارة أخرى، وراح يسـتمع إلى الأغنية التي كانوا يغنونها في القاعة، الطريق إلى أسفل على نهر سواني، بعيداً، بعيداً بشدة / هناك حيث يتحول قلبي باستمرارٍ، هناك حيث يقبع أقارب الأزمنة الممتدة. اعتـاد أن يغنـي أغنية الرقيق الأمريكيين المؤلمة حـول النيران في «لا مارتينير» هناك. عن غير قصد، انضم إلى الإنشاد.

كل العالم محزن ومتعب،
في كل مكان أتجول فيه.
أعيدوني إلى بلدي القديم...

فجأة لاحظ طلعت واقفة أمامه تنظر إليه باستغراب، هي حرفياً لم تستطع أن تصدق أذنيها، فتوقف خجلاً. أقبلت روشن، تحمل كيس النوم، وقالت: «تصبحين على خير يا طلعت»، ثم غادرت.

قال بفظاظة وهو يتقدم نحو سيارته، «هل تعرفين أنه أُرسل تقرير ضدك إلى المستشار التربوي؟ تذكري، أنت هنا في منحة دراسية حكومية موقرة».

«أنت»، قالت هي بتحدٍ، «غاضب كما لو أنك وجدتني منغمسة بالإثم والرذيلة. من تظن نفسك؟ سيناتور ماكارثي؟ ثمة العديد من الباكستانيين الشرقيين هنا، يحضرون المؤتمر بصفتهم مراقبين».

«نعم، لكنهم بنغاليون».

«ماذا تقصد؟ أليسوا باكستانيين مثلك ومثلي؟»

«بالتأكيد، لكنهم بنغاليون»، أجاب بعناد وهو يفتح باب سيارة الليموزين لها.

50

مطعم إذاعة بي بي سي

أدركت طلعت، وهي في طريقها إلى لندن لحضور مؤتمر فيدين، أن حذاءها تمزق، فنزلت من القطار، وذهبت إلى محل للأحذية، وبعد أن اشترت حذاءً جديداً، ركبت الحافلة المتجهة إلى سانت جونز وود، وما إن دخلت شقتها حتى رنَّ جهاز الهاتف.

لقد اتصل العم من إذاعة بي بي سي ليجري حواراً عاجلاً مع ساجدة بيجوم. «لقد جاءت إلى إنجلترا بعد مشاركتها في مؤتمر في أحد بلدان أوروبا الغربية، وتتهيأ الآن للعودة إلى الوطن». تولت الآنسة طلعت البالغة أربعاً وعشرين سنة والمفعمة بالحيوية والنشاط مسؤولية ترتيب الحوار.

وكالعادة، فقد عمَّ مطعم بي بي سي في شارع أكسفورد ضجيج مرح. كان أفراد طاقم شعبة خدمات الشرق الأوسطية والشرقية يتحركون داخل القاعة ذهاباً وإياباً. يجلس الهنود والباكستانيون عادة معاً، لأن معظمهم كانوا ينتمون إلى إذاعة عموم الهند ما قبل تقسيم الهند. ضمت شعبة اللغة الأردية صديق أحمد صديقي، الذي كان يُدعى «العم» بمودة، وتقي سيد وياور عباس، وعطية حسين، وهمراز فيض آبادي. كان إعجاز حسين البطالوي، وزرينة، وفيروز، وطلعت من المذيعين الأكثر تقديماً للبرامج الإذاعية.

لم تكن ثمة ملاعق شاي في المطعم. «وبما أنه لم تكن ثمة ملاعق شاي

في المطعم خلال الحرب، فلن توجد في المستقبل أيضاً؛ اشتهر البريطانيون بحبهم للتقاليد» قال العم ذات مرة ساخراً.

جلست سيدة بدينة عادية، ترتدي نظارة في زاوية، وراحت تحرك السكر في كوب الشاي بشوكة. كانت تتحدث مع فيروز التي جاءت قبل يوم من كامبريدج شاير. انضمت طلعت إليهن.

«لا ملاعق»، اشتكت السيدة.

«التقليد البريطاني، مدام» أجابت طلعت.

استأنفت ساجدة بيجوم حديثها مع فيروز. «في كوبنهاغن، أجرت إذاعة بي بي سي دانمارك مقابلة معي»، قالت السيدة، متجاهلة طلعت. قدَّمت فيروز، التي عرفت ساجدة بيجوم في مدينة عليجراه قبل أن تهاجر إلى البلد الجديد، إلى طلعت. ساجدة بيجوم أيضاً روائية.

«أخبرتني فيروز أنك تعملين في مكتب التلغراف»، قالت ساجدة بكبرياء

«نعم، مدام. الآن أنا في إجازة لمدة أسبوعين».

«إذن ستعودين إلى تسليم البرقيات من باب إلى باب؟»

«لا، مدام، أنا مراسلة مبتدئة في شارع فليت».

«لقد عثرت على حبكة قصتها الأولى»، حاولت فيروز أن تنقذ طلعت.

«أنت تكتبين القصص، أيضاً؟ رومانسية أم تقدمية؟»

استسلمت فيروز، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: «ستكتب رواية عن ابن عمها، القائد عامر رضا. حياة وعصر.. الـ... الـ».

حصلت طلعت على الفكرة. «سيكون عنوان الرواية «رومانس دي لا روز» يعني حب الوردة لأن منزلنا في لكناؤ يدعى غولفيشان، وعامر يتكلم الفرنسية».

لمعت عينا ساجدة بيجوم خلف نظارتها، وتغير موقفها من طلعت على

الفور.

«هل تقابلينه هنا بشكل منتظم؟»

«لا..عندما لا يغازل الفتيات الإنجليزيات من الطبقة العليا، يذهب إلى كامبريدج ويغني «ليديا، أو ليديا، أو إنسايكلوبيديا».

«لماذا؟»

«هل سمعت عن الآنسة روشن كاظمي؟ لهذا السبب...».

بدت ساجدة بيجوم قلقة. «حسناً، ليست لديَّ أي دوافع خفية أو أي رغبة شخصية فيه». قالت بخشونة. «شقيقي يعرفه وطلب منه أن يعتني بي أثناء وجودي هنا، ونظراً لأنني شابة وعديمة الخبرة، كما ترين، فأنا أشعر بالضياع أحياناً».

وفي طريقهما إلى استوديوهات الطابق الأرضي، همست فيروز إلى طلعت، «هل تعرفين كم عمرها؟ تبلغ من العمر 35 عاماً! إنها تقريباً بعمر عطية وتشامبا باجي».

«لقد باتت سانت جونز وود مثيرة أكثر فأكثر. استأجرت الأخت ساجدة شقة هناك، لأنه قيل لها إن جميع الكتاب والفنانين يعيشون في هذا الحي. والآن هي مشغولة بالتودد إلى بيل كريغ وشانتا، لأنها تريد منهما أن ينشرا روايتها الجديدة»، أبلغت طلعت صديقاتها في مطعم إذاعة بي بي سي بعد أيام قليلة.

ذات صباح، يوم الأحد، نزلت ساجدة بيجوم في «غريفيل بلاس»، وقالت لطلعت بسوداوية: «يبدو أن تشامبا أحمد هي الشخص الثاني في مكتب بيل، ولا تتمتع شانتا بأي مكانة فيه. أظن أن الأمر له دلالة أعمق مما هو بادٍ للعيان. طلعت، يجب أن تحذري شانتا، دعينا نلتقي بها هذا المساء،

لأن درهم وقاية خير من قنطار علاج...».

«نعم، اضرب الحديد وهو ساخنٌ، لكن هذا ليس من شأني، ساجدة آبا. علاوة على ذلك، سأجري مقابلة مع السيد ماكس فاكتور وزوجته لصفحة المرأة هذا المساء. لقد قدما من هوليوود، ويقيمان الآن في دورشيستر».

«لابد أنك تمزحين! ماكس فاكتور أحمر شفاه، وليس إنساناً. غداً ستقولين إنك تقابلين السيد ليبتون أو ملكة جمال بروك بوند! أنا لست من البسطاء، طلعت رضا».

حل الغسق على بارك لين. وقف الخدم عند مدخل فندق دورشيستر، معلنين وصول الضيوف. نجوم السينما المشاهير، وكبار كتاب الأزياء، وشخصيات مبهرة تظهر عادة على صفحات صحيفة «تاتلر وكونتري لايف». لمع عدد لايحصى من أحجار الألماس على معطف السيدة ماكس فاكتور عندما دخلت الغرفة الزرقاء.

«... أبوها مهاجر يهودي من البلقان، فتح متجراً صغيراً باسم هوليوود. لقد أصبح ماكس فاكتور إمبراطوراً في الوقت الحالي...، دونت طلعت بسرعة. تحدثت السيدة ماكس فاكتور إليها لمدة عشرين دقيقة في مقابلة حصرية، لقد كان لساري طلعت من نوع «كانتشي فارام» مفعوله.

طلعت إحدى سيدتين من شبه القارة الهندية اللتين وجدتا عملاً مؤقتاً، عملت طلعت كصحفية في شارع فليت، والأخرى سيدة من كيرالا متزوجة من رجل إنجليزي. عرفت طلعت بلقب «المراسلة ذات الساري»، أصبح ساري طلعت نوعاً من البطاقة الصحفية التي سهّلت لها الوصول إلى المشاهير.

في الأسبوع التالي تلقت طلعت اتصالاً متحمساً من ساجدة بيجوم.

«قابلـت عامـر رضا مرة أخرى. إنه أكثر وسـامةً من جيريجـيري بيك، أليس كذلـك؟ أنـت وكمال لا تتوقفـان عن الحديث بشـأنه، ولكنه شـخص يلتزم الصمت أكثر من اللازم، ويستغرب المرء ما يفكر فيه».

«حسناً أخت ساجدة، حسناً».

«حسناً، بدا لي متأملاً وحزيناً بعض الشيء لما تناولنا العشاء في إسطنبول مساء أمس».

«وعزف عازف كمان هنغاري أغنية «*ليلة في حديقة إسبانية*» لك».

«كيف عرفت؟»

«توقعت ذلك، ساجدة آبا. إذن ابن عمي هذا يأخذك إلى مطاعم فاخرة!»

«نعم، لقد حدث أن التقيت به في حفلة، وقال أحدهم: هيا بنا نذهب إلى إسـطنبول. سـألني عامر إن كنت راغبة في مرافقتهم. ظننتُ أنهم ذاهبون إلى تركيا، فقلت نعم! كيف كانت السيدة ماكس فاكتور؟ أهي شخص حقيقي؟ اسمعي، هذا يذكرني بصائغ ذهب إنجليزي - حدثتِني عنه قبل أيام- اخترق أذني الملكة للظهورعلى صفحة المرأة...».

«من أجل التتويج»،، صححتها طلعت.

توقفـت سـاجدة بيجـوم لحظـة ثـم قالـت: «ثم حـاورت خبـيرة تجميل الملكة؟»

«نعم، السيدة هنري هولاند؛ زوجة ابن أوسكار وايلد».

«لابد أنها مكلفة جداً».

«يجـب أن أتخيل هذا، على الرغـم من أنها أعطتني عرضـاً لتدليك الوجه مجانـاً في صالون التجميل الذي تملكه في شـارع بوند»، أضافت طلعت دونما اكتراثٍ.

اختفت ساجدة بيجوم عن المشهد برهة. «سأذهب إلى بريطانيا في رحلة دراسية لمدة ستة أسابيع» قالت قبل اختفائها. أما عبارة «الرحلة الدراسية» فهي عبارة غامضة.

دخلت سيدة نحيفة ترتدي نظارة عصرية وفستاناً حديثاً فوق «شالوار» مطعم بي بي سي بعد ظهر أحد الأيام. لم يستطع أحد أن يتعرف عليها، فقد حولت زوجة ابن أوسكار وايلد مظهرها تماماً.

«كونك جدية في السعي إلي، هل تعملين، الشخص....». قالت طلعت بسخرية.

«اسمعي، اسمعي! كم أصبح بعض الناس ساخراً هنا»، قالت فيروز بخِسّةٍ وحانت منها غمزة، فهي لم تتمكن بعد من تصديق ما قد رأته عيناها.

ومع ذلك، فشلت ساجدة بيجوم في حلتها الجديدة في إسعادهن، لأنه قبل أيام فقط شخصت نيرمالا بأنها مصابة بمرض السل في كامبريدج. اتصل كمال بعامر رضا على الهاتف وذهب كلاهما مع السيدة نيرمالا الخائفة جداً إلى مستشفى الصدر في لندن. لم يتمكنوا من الاتصال مع هاري شانكار هاتفياً في نيويورك.

كانت ساجدة بيجوم تتوقع الثناء على قصة شعرها الجديدة، التي لم تناسبها كثيراً، ثم أدركت فجأة سبب سكوتهم فتنهدت وقالت: «مؤسف للغاية. لقد اتصلت بالنقيب عامر رضا لأهنئه على ترقيته، ولكنه أخبرني بمرضها، وقال آمل أن لا يكون مرض السل عندها فتاكاً».

«لا تكوني مخيفة كالشبح، أخت ساجدة»، قالت طلعت غاضبة، «نيرمالا على ما يرام. سوف تنقل قريباً إلى مصحة ليدهورست، حتى تتعافى بالكامل».

«أصيبت عمة لي بمرض السل، فتوفيت في مصحة بهوالي»، علقت ساجدة بيجوم.

«تباً لك أخت ساجدة، لابد أنه حدث في عام 1853م. مرض السل قابل للشفاء التام هذه الأيام».

استمرت ساجدة بيجوم في حديثها، «بطلات روايات الأردية القديمة يمتن دائماً بسبب مرض السل، حتى في الروايات الفرنسية....... هل تستحضرين كاميلى؟»

«شو - شو، أخت ساجدة!» صرخت الفتاتان معاً بغضب. انتقلت إلى طاولة أخرى بهدوء، ولقيت ترحيباً من أعضاء وحدة الأردو.

«قال النقيب رضا لوالدتي ستخرج نيرمالا من مصحة وود قريباً، لقد زارنا أمس» قالت زرينة.

حملن فناجين القهوة عن الكاونتر، قالت زرينة لسوريخا وفيروز: «بدأ والدي ممارسة المحاماة بصفته مبتدئاً في مكتب السيد ذكي رضا في الله آباد، كانت زوجة السيد رضا صديقة لوالدتي. بعد وفاتها، حسبما أفادت والدتي، صار رضا يتردد إلى منزلنا مع مربيته، نينا، لكنه كان يكرهها. مازال يشعر باليُتم في أعماق قلبه، يأتي إلى لاوريلز للنصيحة والطمأنينة التي تمنحهما له والدتي بالقدر الموفور».

والدة زرينة سيدة إنجليزية طيبة رحبة الصدر خلوقة، يرجع إليها الجميع لحل مشاكلهم. حتى غوتام كان يأتي لرؤيتها كلما احتاج إلى ذلك، والده المحامي كان صديقاً للسيد ذكي في الله آباد.

«الآن، النقيب رضا قلق بشأنك كثيراً يا طلعت، لأن هاتين الشخصيتين الماكرتين أرسلتا لمطاردتك في بي بي سي».

«لقـد رفضت بي بي سي أن تخضـع للمطاردة، إذا صـح التعبير»، أجابت طلعت.

«نعـم... وهـو قلق على روشـن. لقد ذهبـت إلى رومانيا عـلى الرغم من أنـه منعها مـن الذهاب. امرأة غبيـة لقد أضاعت فرصـة الحصول على منحة فولبرايت من أجل الرقص في مدينة صغيرة مثل بوخارست».

«سمعت وقلت فقط أيوه، أيوه، يا سيدي».

«لقد جاءت إلى هنا على نفقة منحة حكومية، أبوها ضابط كبير في الجيش. هل تعلمين ما قالته لي؟ إنها ذهبت إلى مهرجان شبابي، لأنها أرادت أن تمارس التحليل النفسي على الشـيوعيين! فضلاً عن أنها سـافرت بوثائق سفر مزورة أصدرها الرومانيون، هل هذا عملٌ مشرفٌ؟ لقد لاحظ هذا».

«أيوه، أيوه، يا سيدي، وافقتُ على ذلك وقلت: لم يكن عملاً مشرفاً، لقد كان غاضباً».

«وبعد مغادرته، قالت أمّي إن روشن يجب أن تعتني بهذا الصبي الصغير الأزرق مثل الأم عوض أن تتصرف كامرأة مسـتقلة شـديدة الذكاء. الرجال لايعجبهـم ذلـك. ومع ذلـك، يـزداد تواتر المشـاجرات بينهما، مما يدل على أنهـما سـوف يتزوجـان قريباً. كـما قالت أمّي أيضـاً: إن نيرمالا سـوف تخرج من المستشـفى، وسـنذهب جميعاً إلى مسـجد «ووكينغ» لحضور حفل زفاف كاظمي - رضا في وقت أقرب مما تتوقعين إن شاء الله».

51

كتاب الرسم لجون وماري

«هـل تذكريـن كتـاب الرسـم ذاك يا طلعت» سـأل كـمال «حيث يجوب طفلان إنجليزيان الريف في سيارة حمراء صغيرة؟»

«نعـم، أذكره. إنهـما يقفان في الفنـدق الصغير الذي يحمل اسـم «تي» أي الشـاي، حيث يمـلأ جون خزان السـيارة بالبنزيـن... ويقطفـان التفاحات الحمـراء الطازجة من شـجرة خضراء جـداً، هذا هو المكان»، قالت طلعت ونظـرت حولهـا. كان بالقـرب نهـر أزرق، وقـارب أبيض بمحـرك صيني، وطاحونـة، وعربـات خيول، وأكواخ إنجلترا من عصر مـا قبل الحرب. إنني حتـى أذكر أسـماء الألوان التي اسـتخدمناها، الأزرق الغامـق، لون البحيرة القرمزيـة، والأخضر. لقد اعتدنا الحصول على عـدد كبير من هذه الكتب في أعيـاد ميلادنـا، نشرها رجل غامض «فادر توك، لنـدن، إي سي 4»، ما زالت هناك، في منزل خيابان.

جاءت النادلة بالفاتورة. «وقعت حرب عالمية أهلكت الحرث والنسـل، ولكن الريف الإنجليزي مازال على حاله ممتداً مثل كتاب رسم جون وماري، لم يتغير فيه شيء»، واصلت طلعت.

«نحن نشبهه، نحمل ماضينا معنا حيثما ذهبنا»، قال كمال.

كان غوتام يسـتمع إلى حديثهما بصمت. لقد أدرك أهمية الطفولة بالنسـبة

لهـؤلاء النـاس، بمـن فيهم نيرمـالا، وتذكّر بأسـى غضبه من نيرمـالا عندما تحدثـت عـن حياتهـا في ذاك الصبـاح في مطعـم كوهـي نـور. لم يلتـق بها إلاّ الآن، وهي مصابة بمرض السـل، لأنـه كان بعيداً عنها. لو تزوجها في لكناؤ لاختلفـت حياتهـا تماماً، وربما مـا رقدت الآن في مصحـة تتأرجح بين الأمل واليأس. سـيزال نصف رئتي نيرمالا تقريباً. هل كان افتتانه الفكري بتشـامبا ذا أهمية كبيرة بالنسبة له؟ ما الذي يريده الرجل حقاً؟

هاري شـانكار، الذي سـافر إلى نيويـورك، كان منهمكاً في دراسـة أنماط الصفصاف على الأواني الفخارية. قال: «هذه أنماط إنجليزية نوعية».

«هيـا ننـصرف» قال كمال فجأة، نهض عن كرسـيه، وبهدوء، مشـوا نحو سيارة غوتام الليموزين الأمريكية الأنيقة.

تقـع المصحة فوق تلة منخفضـة، محاطة بمنتزه رائـع. في الداخل، غطّت الزهور كل أرجاء المصحة، ثمة موظفون ذوو وجوه باسمة، وممرات لامعة، وغـرف جلـوس جميلـة. في هذا المـلاذ الصحي الفاخـر ينتظر بعـض الناس دورهـم للعـلاج، وهـم يشـاهدون التلفزيـون، وآخـرون تعافـوا، يتهيأون للرجـوع إلى العـالم الخارجـي ليعيشـوا مـا تبقى لهـم إلى أن يوافيهـم أجلهم المحتوم.

كانت غرفة نيرمالا محاطة بالحدائق من ثلاث جهات.

«أليسـت هذه الغرفة مثل غرفة الأخت كيشـوار في سـكن نشاط محل؟» قالت لطلعت بمرح. ابتسـم غوتام بحزن لمـا التفتت إليه. «كانت لدينا ثلاثة أنزال في تشاند باغ: نشاط محل، نونيهال منزل، ومايتري بهوان».

أومـأ غوتـام. لقد كانـوا مدمنين عـلى ماضيهم لأنـه أكثر أمناً، ولاسـيما بالنسـبة لكمال وطلعـت، لأن الماضي لم يتعـرض لخطر التقسـيم. «كنا طلاباً

نهاريين، كما تعلمون، ولكن كان لدينا كثير من الأصدقاء في السكن، أليس كذلك، طلعت؟ وأيضاً في سكن ليدي كايلاش» أقول. هل بدأت العمل على معرض المجلس الشعبي؟» سألت طلعت بحماسة.

«ستكونين معنا في المعرض الشعبي السنة القادمة، إن شاء الله» أجاب كمال.

«إن شاء الله»، رددت بابتسامة مبتهجة. بعد برهة قالت: «نقلني بهيّا صاحب إلى المستشفى، وقد جاء إلى هنا عدة مرات».

«لطيف جداً»، حاكى هاري الفتيات، فقهقه الجميع. واصلت نيرمالا، «لقد أخبر روشن، وجاءت معه في المرة الأخيرة». هذا ما يعنيه خيط «راكهي» على الرغم من قيام دولة باكستان. هذا جزء من ثقافة لكناؤ أيضاً. لقد حضر الجميع لعيادتي باستثناء الأخت تشامبا وسيريل. حسناً، لا أتوقع من سيريل أن يزورني، فأنا لا أكاد أعرفه، لكن تشامبا باجي...».

خيم الصمت في الغرفة. تحدث هاري مع آخرين وأضحك الجميع، ثم حان وقت المغادرة.

فجأة، انفجرت نيرمالا بالبكاء. «ستغادرون جميعاً وسأبقى وحيدة مرة أخرى، من الفظيع أن تتحول عائلة شخص ما وأصدقاؤه إلى زائرين».

جاءت ممرضة وابتسمت لهم ابتسامة عريضة.

52

المنزل العائم

«أصدقاؤك من لكناؤ موجودون هناك، تحت أشجار التفاح. إنهم يغادرون! هل يجب أن نتبعهم إلى ليدهورست؟» سأل سيريل، وهو ينظر إلى الخارج من نافذة الفندق الصغير، ثم أضاف «جئت إلى هنا بنية السير على الطريق إلى ليدهورست، ولكنك لست متحمسة جداً».

بدهاء، حاولت تحويل انتباهه. «انظر، ثمة ممثلون شكسبيريون!» فرقة سياحية وصلت تواً إلى الفندق يرتدي أعضاؤها ملابس إليزابيثية. كانوا أيضاً في طريقهم إلى ليدهورست لتمثيل بعض المشاهد أمام المرضى في المصحة.

لقد نُقِلت نيرمالا إلى المستشفى عندما بدأت تشامبا العمل مع سيريل أشلي في كامبريدج. لم تستطع تشامبا إخبار سيريل أنها تحمل ضغينة ضد نيرمالا. في الواقع، لم تخبره بأي شيء عن نفسها، ولم تأتمنه على أسرارها ومسائلها الشخصية بالقدر الذي أتمنت به غوتام على أسرارها ومسائلها الشخصية، لذلك لم تخبره عن غوتام أو عامر. الرجال الغربيون غير مهتمين بماضي الفتاة، وليسوا غيورين أيضاً. الحمد لله على ذلك.

ركبا قارباً وأبحرا باتجاه المصب. مرّ قارب «لويزا جين» بالأشجار المتدلية والنباتات الزاحفة التي شكلت أنفاقاً مائية مظلمة. أحس سيريل بالملل شأنه

شأن الأزواج. بدا كل شيء مملاً بعض الشيء، بما في ذلك سيريل أشلي نفسه. توقف القارب أمام المرفأ وخرجا إلى الشاطئ.

وقفت سيدة إسكندنافية ضخمة على الشرفة الخشبية العلوية، وسار عدد من الأشخاص عبر أزهار الربيع يحملون شص الصيد.

قضت تشامبا وسيريل عدة أيام في نزل على ضفة النهر، وذهبا في نزهة طويلة عبر الغابة. «تشامبا»، قال سيريل بعد ظهر أحد الأيام عندما كان جالساً على زورق مقلوب في المرفأ، «حدثيني عن بيئتك التي نشأتِ فيها». لقد اكتشف أن هذه المرأة القادمة من أرض بعيدة أصبحت تعتمد عليه بشكل غريب. كانت تشعر بالضياع، ففكر أنها ربما ترتاح قليلاً بالعودة إلى ماضيها.

لقد أصبح فضولياً!، «هل ستكتب رواية عني؟» سألت بحزن.

«لا. من هو؟»

«بيل- وليام كريغ».

«لا، لا أرغب في كتابة رواية عنك. أنت لست غريبة الأطوار، ثمة آلاف من الفتيات مثلك في كل مكان في العالم، حاذقات وحساسات وجميلات».

هذه الكلمات الثلاث تصفني تماماً. أغمضت تشامبا عينيها، وحاولت أن تستحضر عالمها الخاص في الحي القاتم في باناراس حيث عاشت؛ السرر الممددة في الفناء، الوالد يقرأ ملفات القضايا الجنائية المثيرة للاكتئاب. أخرجت باناراس من خيالها، واتجهت مباشرة إلى تشاند باغ، لكناؤ. أخبرت سيريل عن خدمة الفانوس، وغابة الأردن، وحمام السباحة، وأغاني المجتمع الأمريكي التي تُنشدُ حول المشعلة...

قاطعها سيريل وقال: «انظري من قدم من حديقة قمرك!».

رفعت بصرها. ظهر كمال من بين حشد المصطافين، وقال: «مرحباً، أخت

تشامبا وسيريل، رأيناكما قبل أيام في المقهى، ولكن كنا في عجلة للوصول إلى ليدهورست». جلس على زورق مقلوب آخر.

«كنت أحكي لسيريل قصة لكناؤ»، قالت وقد بدت حزينة.

«كم هذا مثير للفضول!»، ابتسم كمال بلطف.

أدركت تشامبا الحزن في صوته، فواصلت حديثها بسرعة وبشيء من التبجح: «كنت أحكي له عن الهند؛ رائحة الحشيش المجفف عند الظهيرة في مواسم الصيف في محيط منزلنا في باناراس، وصهيل الخيول، ومرور عربات العجول...عندما تصرُّ عجلتا عربة عجل من بعدٍ في الليل، كانت خادمتنا، تقول: إن صرير العجلات يرمز إلى غضب الإلهة بهافاني».

استمع لها كمال بصمت ووجوم.

«وفي أوقات الظهيرة اللاهبة، كان عمال التهوية يغفون في الخارج، فلدينا في منازلنا الريفية في مقاطعة باناراس تلك الشرفات الطويلة ذات الأعمدة الجورجية». وأضافت بسرعة، «والآن، بالطبع، البيوت متداعية، وقد تصبح أطلالاً قريباً. لا، يا سيريل، لن تفهم، طريقة تفكيرك مختلفة تماماً عن تفكيرنا».

«سأخبرك..». قال كمال، وهو يميل إلى الأمام. لقد دخل فجأة عالماً بعيداً عنه، ولكنه يحبه حباً شديداً. لقد أراد الهروب من توترات الحاضر، والانطلاق في رحلته الخاصة.

«صحة نيرمالا ليست على ما يرام، لابد أن والدتها في لكناؤ ذهبت إلى معِبد «هانومان» في علي غنج، ثم اتجهت إلى أحد الإمام بارات، وصلّت إلى الإمام حسين من أجل شفائها العاجل. كانت غيانواتي تغني على لحن وتر يامان:

بيت الرسول، أبناء علي،
كم أعشق حسن وحسين
أبناء زهرة...!».

هـل بمقدوري ترجمـة هذه النغمة الكلاسـيكية والعواطـف التي توحي بهـا إليّ إلى اللغـة الإنجليزية؟ خلال فصل الشـتاء، بمناسـبات حفل الزفاف في عائلاتنـا المشـتركة، كانت السـتائر المبطنة تسـدل على شرفة بيـت أجدادنا المصنـوع مـن الطـوب الطينـي في كاليانبـور، وكان المطربـون يغنـون، ليقع ظل علي على «شـيام سـوندر بانرا»[1]. هل يسـتطيع أي عـالم اجتماع غربي أن يسـتوعب تماماً جمال هذا المشـهد، هذا الاندماج الرائع بين تخيلات المسلمين والهنـدوس في أغنيـة تغنى في حفـلات الـزواج عند المسـلمين؟ كان فلاحو قريتي يغنون أنشـودة «أهما-أودال»، جلس أهما قرب جامونا، هرع السيد إلى الإمـام صائحاً، علي، علي، قال أودال: اسـمع، يا بني، لقد جاء الملك بريثفي بجيوشه الضخمة، اطرده من هنا».

«هـل تتذكرين، تشـامبا باجـي، لقد جئـت أنت وغوتـام ذات مرة إلى كاليانبـور في العطلة الشـتوية، وجلسـنا تحت مظلة مـسرح قريتنا الممزقة، حيـث عزفت فرقـة المسرحية الأغـاني التمثيليـة المفضلة لدينـا! لقد كانوا موسـيقين بارعـين. قدموا مسرحية مجنون ليلى من أجلنـا، قام ابن أخ قدير ماسـتر تشـاباتي بدور المجنون، وأنشـد: الحمـد لله، يا ليلى، لقـد جئت إلى حضورك. ثم غنّى:

(1) «بانا» أو «بانرا» يفيد معنى العريس، مشتق من «بان» أي الغابة، و«راج» يعني الغابة، وهو الأمير كريشنا، أو شيام سوندر، بمعنى كريشنا الداكن والوسيم.

ليلى، وجهك قبلتي
وخصلات شعرك إيماني،
لأدور حول الكعبة،
جئت إلى محكمتك.

«كان عامة الشعب يدركون المدلول الصوفي لهذه القصائد الغزلية. لايوجد لدى الغرب ثقافة تضاهي هذه الثقافة».

انتقلت تشامبا وكمال في خيالهما إلى خشبة المسرح، يحتسيان شاي الزنجبيل في أكواب فخارية، وكان الماستر شاباتي يغني:

مثل زليخة عندما وقعت في حبك، يا ليلى
جئت إلى سوقك لكي يبيعوني مثل يوسف

جلسا على مقاعد مقصبة، يشاهدان مسرحية مجنون ليلى على خلفية نافورة مرسومة بشكل رديء، بالإضافة إلى قصر وبدر. عزف الموسيقي لحن «كاهاروا» على الطبلة. مر زورق بخاري بالقرب مُحدثاً ضجة، فرجعا من كاليانبور. «لقد عرضت فرقتنا تمثيليتين: «نالا دامايانتي»، و«إندر سبها» ببراعة»، قال كمال بفخر، وأشعل سيجارةَ سيريل.

سألته تشامبا، «هل تستحضر أغنية فاسانتي،خرجت الراهبة للبحث؟»

لن تحصلي على أي شيء من هذا البحث، سيدتي الطيبة، أراد أن يقول لها بصراحة. «إنه نشاط لا طائل منه»، قال بصوت عالٍ، «أقصد، استحضار الأغِاني القديمة؛ أغاني بانكاج ملك على سبيل المثال».

«نعم، كنت ذاهبة لمقابلة رجلي، تزينت جيداً وضفرت جدائلي»، قالت: «كيف يمكنك أن تعرف يا سيريل، من هو بانكاج ملك، وآرزو لكناؤي،

وكلاّن قوال، والأستاد فياض خان، وما هي الأهمية التي تحتلها هذه الشخصيات في حياتنا... وجغار مراد آبادي الذي قال: مرت بنا مليون شمس وقضينا في انتظار الصباح. ويقول الأستاد فياض خان: مروراً بوندهيا وسيندهو بصحبة الغرانيق، وجدنا السحب تحمل الرسالة...»

أراد كمال أن يعود إلى أرض الواقع غير أن تشامبا جلست أمامه مثل ضمير العصر. أحس كمال أنها تتطاير مثل ريشة في مهب ريح الدهر، فعبس.

«اسمع يا كمال» قالت تشامبا، «لقد حل الليل، والكلاب تنبح، وساد الصمت المطلق في السوق، ونامت الطيور، وانشغل الحراس بحراسة حقول البطيخ، وخشخش البستاني مثل خشخشة أفاعي «غونـدني». باختصار ستبدأ المجالخ بالتحرك».

«سرشار؟»[1] سألها كمال. هزت رأسها وغرقت في التأمل مرة أخرى.

«اعتدنا أن نتجمع في غرفة برج هاري ونحل مشاكل العالم. كانت الحياة غير محددة المعالم. أحياناً نكون تحت أشعة الضوء القوية؛ وغالباً ما نكون محاطين بالضباب. أمضينا أيام شبابنا نتنقل بين الضوء والظل، نلعب لعبة الاختفاء الفكرية. لقد اكتسبنا نوعاً من التواضع الغاندي، غير أن شعورنا هذا لم يتولد من إحساسنا بالتفوق، فلقد شعرنا حينها أن دماء البشرية كانت على أيدينا، وتعيّن علينا أن نغسلها. ثم انظر ماذا حدث». مدَّ يديه أمام سيريل أشلي «في صباح أحد الأيام اكتشفنا أن أيدينا كانت ملطخة بالدماء، ورأينا أن كل هؤلاء الناس الطيبين: المفكرين، والمؤلفين، والقادة، الكثير منهم أياديهم ملطخة أيضاً. معظمهم ليس على استعداد للتكفير عن ذلك؛ لقد هربوا، أو تقمصوا أدواراً مختلفة، ولكن مازال ثمة بعض الناس الحقيقيين أيضاً».

(1) بانديت راتان ناث سرشار، روائي أردي من لكناؤ في القرن التاسع عشر.

«مثل قدير وقمرالنساء؟» سألت تشامبا بتواضع.

أخذ إذنها للتحدث عنهم. «لقد ظهروا كأناس مقدسين ومشرقين».

«نعم، قدير وقمرالنساء، ورام أوتار، ورام داي، الفلاحون، وبائعو أوراق التنبول، ومطرزو «شيكان» الذين يفقدون بصرهم وهم يقومون بأعمال الإبرة المعقدة لقاء أجر زهيد. إنهم يمثلون العمود الفقري الحقيقي بالنسبة لنا، سيريل».

مازالت تشامبا بعيدة. قالت: «كمال، اسأل غوتام هل مازال يتذكر هدة فواكه التفاح الخشبي المتساقطة الناعمة على العشب في بادشاه باغ...».

فكر كمال، كيف يمكنني أن أقول لها إن غوتام ربما نسيها؟ ولكن، هل يستطيع أن ينساها؟ لابد أنه يتذكرها كما يتذكر النهر والبيوت المطحلبة وأشجار التفاح الخشبي. نظر كمال بقلق إلى ساعته. «أوه... عذراً، الأخت تشامبا، لقد جئت للتو من منزل السيد رونالد غراي إنه الجراح، يعيش في قرية مجاورة، لأنه كان علي أن أتحدث معه بشأن نيرمالا. هل يمكنني أن أغادر؟ إلى اللقاء سيريل». نهض ومشى.

من الغريب أنه لم يتفاجأ حين وجدها مع سيريل في منزل عائم. لقد كانت واقفة على قمة مكشوفة تماماً، فباتت تفاصيل حياتها معروفة لدى الجميع. لماذا سمحتُ لهذا بالحدوث معي، لماذا؟ نظرت إلى سيريل وهي تشعر برعب شديد. لقد عادت إلى الوقت الحاضر مثل هدَّة سقوط تفاح خشبي ناعمة على عشب إنجليزي. إنها تعيش تحت رحمة الظروف، وربما فات الأوان.

53

البوّاق

لقـد اعتاد النافخ في البوق العـزف بانتظام مع بزوغ الفجر. كان يعيش في الشـقة المجـاورة، لكنها لم تره مـن قبل. كان الجو صباح ذلـك اليوم الصيفي هادئاً، مما جعلها تشعر بنذر سوء، لم يعزف أحد على البوق. ربما كان العازف طالباً، وقد ذهب إلى البيت. بدا الصباح هادئاً على نحوٍ غريب، فتشكّل لدى تشامبا شعور غريب بأنه عازف القدر الذي أعطى آخر إشارة له واختفى.

اكتمـل المشروع حول العلاقات الإنجليزية-الفرنسـية، وذهب سـيريل للقـاء زوجتـه في ستافوردشـاير. كان يعتـزم زيـارة المكتبة الوطنيـة في كلكتا للمزيد من العمل على اللورد كورنواليس. تطلعت تشـامبا إلى الحصول على قبول في «ميديل تامبيل». لا يمكن لهذه العلاقة الهندية الإنجليزية أن تستمر. فقد قال غالب عن حياة الإنسان: إنها تحتوي على بذور تدمير ذاتها.

أشرقت الشمس وأعدت الفطور لنفسها. ظهر رأس سيريل عند النافذة.

«مرحبا تشـامبا، أخبـار جيدة!» قال بصـوت عال. «أعطنـي أولاً كوب شاي ساخن».

فتحت الباب، فدخل.

«هي يا سيريل؟ هل عثرت لي على عمل مريح؟»

جلس إلى طاولة المطبخ، وابتسم ابتسامة عريضة. «خمني مرة أخرى!»

«ستصبحُ قطباً من الأقطاب؟» سكبت له الشاي. رشف رشفة وقال: «كما أخبرت مدبرة منزلنا السيدة بلات ذات مرة حفيدتها الضالة، جين: كفي عن العبث يا عزيزتي وتزوّجي!».

«الزواج؟ أوه...». صار وجهها شاحباً. لم يكن هذا متوقعاً، لم يناقشوا أمر الزواج قط.

أشعل سيجارة، وقال: «روز وأنا في طريقنا إلى الطلاق. الآن يمكننا أن نعقد قراننا كما يقولون في الهند».

«تطلق زوجتك من أجل الزواج منّي؟ هل أصابك الجنون، سيريل؟» قالت باندهاش.

فوجئ برد فعلها.

«هل حقاً... بسببي... أقصد»، تحدثت بصوت متهدِّج. «كيف يمكنك اتخاذ هذا القرار العظيم؟». لستُ قادرة على فهم أسرار صنع القرار. هل أنت عازم على الزواج، أم الانفصال، أم تغيير حياتك المهنية، أم تغيير بلدك، أم دينك، كيف يفعل الناس هذه الأشياء؟» لقد اتخذت قراراً ذات مرة بشأن عامر رضا، كيف فعلت ذلك؟

«كيف يمكنك..». كررت.

عبس سيريل، ثم قال ببرود: «في الحقيقة، أعاني من نوبات جنون من وقت لآخر، وأتصرف بطريقة غريبة مثلما تعرفين، أعطني سبباً مقنعاً لماذا لا؟»

«أساساً، لأنني لا أخطف الأزواج، وثانياً لا أستطيع أن آخذك إلى أهلي في الهند وأقول، مرحبا أبي، هذا زوجي الأبيض، أحضرته من بلد أجنبي».

«ولكن يمكن أن يكون لديك علاقة غرامية مع رجل أبيض!»

«هـذا الأمر لا يحدث في البلد، وإنما يحدث في الخارج. ستجد الكثير من الهندوس يتناولون لحم البقر هنا...».

«أتذكر أنك أخبرتني ذات مرة عن سيدة مسلمة ذكية من الطبقة العليا في لكناؤ، تزوجت رجلاً إنجليزياً، السيد ستانلي، كان ضابطاً في الشرطة الهندية، لقد قلت إن هذا الزواج لم يحدث ضجة»

«نعـم، لكنهـم يعيشـون الآن في بريطانيا. لن أترك والـديَّ العجوزين في الهند، ولا أستطيع أن آخذك إليهم في بناراس...».

«لماذا لا؟ لقد أفهمتينني أنك تنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية الحاكمة».

«نعم، فعلاً» ترددت. «إن شعبي عصري جداً لكنه محافظ في بعض الأمور». دخلت في حالة من الصمت. كيف يمكن أن تأخذه إلى منطقتها القذرة وبيتها البالي بعد كل الخيوط التي نسجتها عن عائلتها «النوّابية»؟ لا تريد أن يموت والدها البريء المتواضع جراء الصدمة.

«أوه، تشامبا، لما لا؟ ألا يمكنك ذكر مثال السيدة ستانلي لهم؟ لقد استمر».

توقفت، وقامت بمحاولة شجاعة أخرى «بعد قانون إلغاء الأرض الأخير، أضحى والدي فقيراً جداً، أنت تعرف كل شيء عن تسوية اللورد كورنواليس الدائمة، لقد تلاشى كل شيء في لمح البصر. لذلك يجب أن أعود إلى الوطن، وأحصل على عمل وأساعده».

وبينما كان سيريل يراقبها باهتمام، راحت تشامبا تنظف الموقد. بقي صامتاً برهة، ثم قال بحزن: «لقد اعتقدت دائماً يا تشامبا أنك ثرثارة، هذا ما جعلك مثيرة للاهتمام. الآن لا تدعي حماقاتك وأوهامك تلاحقك. أنا لا

أهتم بوضعك الاجتماعي، فكري في الأمر، اللحظات الفريدة لن تتكرر، هل تتخيلين يا تشامبا، أن هذه اللحظات يمكن استرجاعها؛ حياتك، نفسي، كل هذا فريد. لا يجوز لك الضحك على مأساة الماضي، فكري في الأمر، سأتصل بك صباح الغد». نهض وغادر.

قضت تشامبا اليوم كله في كرب، وسهرت طوال الليل. في الصباح الباكر اتصل بها سيريل بالهاتف. همس الشيطان الصغير، الذي دفعها إلى أن تكوني وقحة مع عامر رضا قبل سنوات مضت في شارع بادشاه باغ، شيئاً في أذنها. كان سيريل قد وصفها بأنها ثرثارة، لقد تخيلها على الفور. قالت ببرود: «لقد خطر لي يا سيريل، أنه ربما تريد زوجة تساعدك في بحثك حول مشروع كورنواليس في الهند. أنت ترغب في الشروع بهذا الترتيب، أليس كذلك؟ ربما لا يكون هذا حباً أعمى لامرأة غريبة أصلية مثيرة للاهتمام. هل أنا على حق؟»

«أرجو المعذرة..؟» بدا مذعوراً. «كل ما تقولينه مثير للغضب تماماً!» ارتجف صوته، وقال غاضباً: «كيف يمكنك أن تكوني هكذا... في غاية الفظاظة!»

«انتظر، اسمعني، مجتمعك لن يقبلني أبداً، فأنا مواطنة ذات بشرة داكنة. زوجتك روز قد تكون يهودية وفقيرة، لكنها بيضاء وغربية. لا أرغب في أن يُنظر إلي بازدراء، ويشار إلى أطفالي على أنهم مختلطون».

«في أحسن الأحوال، سأكون متسامحة ومتنازلة. لدينا خبرة كافية في النظرة الأنجلو ساكسونية يا سيريل، على أي حال حكمنا شعبك حقبة طَويلة جداً».

«لقد اخترت أن تكون شاباً متمرداً، ولكنك في النهاية ستعود إلى البنية

الاجتماعية السائدة وإلى الطبيعة. الناس يفعلون هذا عندما يكبرون، مثلما تعرف. وربما تطلقني بمجرد انتهاء إعجابك بالشرق، أليس كذلك يا سيريل؟ أنا آسفة، لن يحصل ذلك»، واختتمت قائلة: «آسفة إذا جرحت كبرياءك».

ساد صمت لفترة من الوقت. ثم قال بصوت جامد: «لقد أسأت فهمك يا تشامبا. أنا آسف للغاية. وداعاً وبالتوفيق».

وفي اليوم الذي غادرت فيه كامبريدج، ذهبت إلى غرفته، حيث وجدته جالساً عند النافذة، منشغلاً بالعمل على مسابقة نهاية الأسبوع لـ «نيو استتسمان ونيشان». كان الباب منفرجاً. بقي منهمكاً حتى بعد أن دخلت الغرفة. عندما جلست على كرسي، رفع رأسه وسألها عن فكرة محتملة للمسابقة. فكرت في الأمر ثم قدمت رأيها.

«شكراً».

لقد تفاجأت. كان هذا الشاب في الواقع فخامة السيد سيريل أشلي الذي استشارها بشأن إشارة غير مباشرة إلى كريستوفر مارلو، وشكرها رسمياً.

«متى ستأتي إلى لندن، سيريل؟»

«ليس لدي فكرة الآن. على أي حال، عندما آتي، قد لا أكون قادراً على رؤيتك. ثمة العديد من الأشياء التي يجب عليّ القيام بها، فمثلما تعرفين، عندما يكون المرء في لندن».

هطل المطر على زجاج النوافذ، كانت الغرفة مليئة بالهواء المنعش. تحدثا عن أصدقاء مشتركين لفترة، ثم قالت وهي تنظر إلى ساعة الحائط: «قد تمطر السماء. يجب أن أغادر».

نهض عن الأريكة الجلدية الدافئة.

ألقت تشامبا نظرة خاطفة على الغرفة مرة أخيرة ووقفت. مدت يدها عند الباب إلى سيريل. انحنى قليلاً وأفسح لها المجال للمغادرة. أبقت يدها ممدودة، صافحها مصافحة خفيفة عجلى. «لقد كان من دواعي سروري أن أتعرف إليك يا تشامبا. وداعاً». ورجع إلى الغرفة.

عندما وصلت إلى نهاية الساحة رباعية الزوايا، توقفت تشامبا ثم استدارت، كان لا يزال مشغولاً بحل لغز الكلمات المتقاطعة عند النافذة. كانت تعرف أنها لن تراه مرة أخرى.

54

جنازة الملكة ماري

كانت طلعت على وشك الخروج من مكتبها في مهمة عندما رن الهاتف. كانت ساجدة بيجوم على الطرف الآخر من الخط. «لقد عادت تشامبا إلى نقطة البداية؛ انضمت مرة أخرى إلى مكتب بيل كريغ. أريدك أن تسألي بيل كريغ عن روايتي قبل أن تبدأ هذه الخادمة القديمة المشاكسة في التدخل، إنها تكره النساء الأصغر سناً من أمثالنا، كما تعرفين. لذا اتصلي ببيل الآن».

ابتسمت طلعت. «أختي ساجدة، بيل كريغ يمكنه أن ينتظر، ولكن الملكة ماري لا تستطيع أن تنتظر»

«من؟»

«أنا ذاهبة إلى كنيسة ويستمنستر لأرى صاحبة الجلالة الملكة».

«إذن أنت تقابلين أعضاء العائلة الملكية هذه الأيام؟»

«الملكية الميتة، مما يجعلهم أقل ملكية كما أفترض. وداعاً».

كانت ساجدة معجبة بها تماماً، وقطعت الخط.

وقفت طلعت بقرب نعش الملكة ماري الراحلة في كنيسة ويستمنستر، وشاهدت صورة الموت عن كثب لأول مرة في حياتها. وجه الملكة الميتة الهادئ والهامد يظهر من خلال ضباب الزنابق والشموع. لقد رأت طلعت صورة الملكة في المجلات القديمة في منزل غولفيشان؛ صورة سيدة شابة

تجلس على حافة مستقيمة في حلتها الزجاجية المتعجرفة والمتغطرسة، الملكة وإمبراطورة الهند في «دربار» أي بلاط دلهي عام 1911. إذا كنت من العائلة الملكية فستتزوج في كنيسة ويستمنستر حيث تجري مراسم التتويج، لكن حتى الملوك معرضون للفناء، لذا أنت ترقد هنا... كان الوقت يمضي خارج جدران الكنيسة، مثل الأوراسي القديم الذي كان يعزف على مزمار القربة الأسكتلندية في لكناؤ. إنه يوم صيفي رائع والحشود تموج في الخارج تحت أشعة الشمس، كان يوم عطلة بالنسبة لهم، هنا الموت حاضر بكل مجده الأرضي، ليحدق به عامة الناس.

كان لا بد من تقديم القصة مباشرة. الموت أبدي لكن أخباره تتقادم سريعاً جداً. إنّ غياب شخص ما عن الوجود يحدث موجة من النشاط بين الأحياء ليوم أو يومين. مرت طلعت بصفوف الرجال والنساء الصامتين ذوي الوجوه الرزينة. أظهرت بطاقتها الصحفية للحراس عند الباب، وتوجهت إلى البرج حيث كانت هيئة الإذاعة البريطانية للخدمات الشرقية تبث تعليقاً مباشراً على مراسم الجنازة. كان البرج بارداً ورمادياً، تفوح منه رائحة الفراغ في الحياة. كان العم يبث تعليقه باللغة الأردية. ابتسم ابتسامة عريضة، وقال لطلعت: «لقد وجدت طباخ الملكة ماري الهندي في الخارج. اذهبي وأجري معه مقابلة هذا هو الشيء الأنسب لصفحتك النسائية...».

ركضت طلعت إلى مكتبها، وأبلغت رئيسة تحريرها «سيدة غارنيت... الملكة ماري كانت تعشق «بولاؤ» أعني بيلاف الأرز».

«أليس هذا مثيراً».

«وأحب الملك جورج الخامس وإدوارد الثامن الكباب الشامي

وجورج السابع... سيدة غارنيت، هذه أطباق هندية؛ أطباق مغولية لذيذة وفاخرة...».

«نعم، نعم؟» ثم أزاحت السماعة عن أذنها.

«لطالما أمرت الملكة الراحلة ماري طباخها المسلم»

«مسلم ماذا؟»

«الطباخ، يمكن أن يكون العنوان البارز، طباخ الملكة ماري الهندي يبكي».

«حسناً» ابتسمت السيدة غارنيت. «سوف تحب ربات البيوت القصة، تحدثي قليلاً عن تقاليد الملكة فيكتوريا أيضاً، كيف كانت تحب الهند وما إلى ذلك. لا تنسي ذكر طريقة التحضير».

عادت طلعت إلى غرفتها وبدأت الكتابة.

رنَّ الهاتفُ. اتصلت زرينة وقالت: «وقعت أزمة بسيطة في منزلك. جئت إلى هنا لمقابلة صولت رحمن فوجدتها تقرأ دانتي لغوتام بنسختها الأصلية، وتظاهر بأنه يفهم».

«هذه ليست أزمة. إنه يحب مثل هذه السخافات...».

«شانتا تقف في غرفة جلوسك، تشبه الإلهة «دورغا» بكل غضبها».

«زرينة، عليّ أن أرسل المقال في غضون عشرين دقيقة حول طريقة التحضير التي لا أعرفها مطلقاً.أخبريني كم كمية الـ «ياخني»(المرقة)».

«خرجت شانتا على بيل وخيّرته بينها وبين تشامبا - ماذا ترين؟»

«كم عدد حبات اللوز...».

«لقد طلبتك لتخبري غوتام أن يقول لتشامبا أن تترك بهيّا وشأنها. هل فهمت؟»

«لا. هل يمكنك أن تعطيني بسرعة طريقة تحضير «كباب الغلاوتي؟»»

قطعت زرينة الخط.

55

نهاية منفى

وَفَدَ الشيف براساد بهاتناغار رانجور بارابانكاوي من بارابانكي في ولاية أوترابراديش قبل عام 1939 للدراسة في أوكسفورد. ولما اندلعت الحرب بقي في إنجلترا، وتزوج لاجئة لاتفية سمّاها مايا ديفي. كان يطيل التفكير ويهتم بكتابة الشعر باللغة الأردية، أما زوجته فكانت تدير نُـزُلاً، لقد كانت تلك الوسيلة الوحيدة والمحدودة لكسب الدخل بالنسبة لهما. كلما عجز هندي أو باكستاني عن العثور على مسكن في أي مكان آخر توجه مباشرة إلى هذا المبنى القديم المكوَّن من ثلاثة طوابق في بلدية كامدين. كان السيد رانجور يرعى المستأجرين ويعتني بهم كما لو كانوا أقاربه المفقودين منذ فترة طويلة. غالباً ما يختفون دون أن يدفعوا الأجور، لكنه لم يشتكِ قط.

كان همراز فيض آبادي من هيئة الإذاعة البريطانية يقيم عنده مستأجِراً في شقة في الطابق الأول. كان رانجور بارابانكافي هندوسياً من الهند، أما السيد فيض آبادي فمسلم راسخ من باكستان. مع ذلك، كان كلاهما شاعراً أردياً من أوده، وكانا يتشاركان الثقافة الأردية نفسها. غالباً ما كان رانجو يخرج الكتِاب المقدس «رامايانا» باللغة الأردية، وبعد أن يشرب أكواب الشراب، يقول باكياً: «أنتم المسلمون النجسون قسمتم الأم الهند إلى جزئين». عندئذ، كان همراز الذي لم يشرب الخمر قط يصدر ملاحظات حادة بشأن ما فعله

الكفار مع المسلمين خلال أعمال الشغب التي اندلعت عند التقسيم.

ثم يقول شيف براساد، «حسناً، اسمعوا هذه القصيدة التي نظمتُها البارحة».

حضر جميع مستأجريه المنحدرين من ولاية أوترا براديش الجلسات المسائية في صالون السيد رانجور الأمامي، حيث قرأ كثيرون الشعر باللغة الأردية. حضر كمال مرة وأصيب بالدهشة بعد أن وجد همراز فيض آبادي الذي مازال يفتخر بثقافة أوترابراديش المجيدة. «بلدك هو باكستان، ما علاقتك الآن بولاية أوترا براديش؟»، سأل كمال.

«لا يزال قلب المرء مستقراً في فيض آباد، حتى لو أقام في كوئيتا، أو حصل على وظيفة في بيشاور. كل عام عندما يذهب شخص إلى فيض آباد للقاء أقاربه، يلاحقه مكتب التحقيقات المركزية في الهند. يقال في باكستان إن اللاجئين من أوترا براديش جاءوا إلى بلد حديث وجاهدوا فقط من أجل الفرص الجديدة. بالنسبة لبقية الناس، ما زالوا متعلقين بالوطن الأم الهند باعتبارها بلدهم الحقيقي. باختصار، لا يوجد أحد هنا ولا هناك».

قدم الأخ همراز التبغ المعطر إلى السيد رانجور الذي كان مشغولاً بتحضير ورقة التنبول بانهماك شديد. تعد ورقة التنبول شيئاً مقدساً، نقلت خصيصاً من كراتشي إلى لندن. كان همراز فيض آبادي يعطي السيد رانجور ورقتين، صباحاً ومساء كعرض مقدس. بعد انتهائه من طقوس تجهيز ورقة التنبول اتجه السيد همراز إلى كمال. «المشكلة، كمال صاحب»، قال بمرح، «أنك رجلٌ ذو بصيرة، من جهة جميع الشباب أمناء وصادقون ومن جهة أخرى لا يحبون مواجهة الحقائق غير المريحة. المشكلة تتمثل في أن العالم يديره سياسيون وليس شعراء. كونوا واقعيين من أجل التغيير، كمال صاحب، وتوقفوا عن

السخرية مني بسبب علاقتي بباكستان».

كانت مايا امرأة أسرية، هادئة وراضية عن نفسها، تطبخ الطعام دائماً. لابد أنها كانت جميلة عندما تزوجها السيد رانجور قبل خمسة عشر عاماً. كان السيد رانجور مشغولاً جداً في كتبه، ولا يولي زوجته أي اهتمام. ذات يوم، جاء طالب فارسي شاب للإقامة في منزل السيد رانجور. كان مجلس لندن بصدد تنظيم عرض متنوع لمساعدة الشاعر البنغالي المريض، قاضي نذر الإسلام، الذي جيء به إلى لندن للعلاج. أعلنت باكستان أيضاً أنه شاعر وطني. (توفي الشاعر الوطني الآخر، إقبال، عام 1938). كان نذر الإسلام من مواطني الهند، عاش في مدينة كلكتا، انتشرت شائعات تفيد بأنه كان منغمساً في ممارسة «التانتريك» أو السحر الذي أثر عليه سلباً. أصبح عقله مشلولاً منذ فترة، فلم يعرف حقيقة تقسيم شبه القارة، ربما لحسن حظه.

وفي ظهيرة أحد أيام السبت، قسم أعضاء مجلس لندن أنفسهم إلى عدة مجموعات، وخرجوا لجمع الأموال. ذهبت طلعت وفيروز إلى مدينة كامدين. التقيا همراز فيض آبادي على شرفة منزل السيد رانجور. طالبت طلعت الأخ همراز بدفع خمس جنيهات، كأنها بلطجية شريرة على غرار أهل شيكاغو.

وفي اللحظة نفسها وقعت كارثة في حياة رانجور بارابانكافي، الذي كان يعربد أمام منزله منهمكاً في نظم قصيدة غزلية.

في هذه الساعة عادة ما تكون مايا ديفي تحضر العَشاء في مطبخ الطابق السفلي. اكتشف رانجور اليوم شيئاً ما من خلال النافذة، أقنعه أن زوجته أقامت علاقة غرامية حميمة مع مستأجرهم الجديد هوشانغ ماتشيسوالا في عقر داره، فاندفع السيد رانجور نحو المنزل.

كانـت طلعـت وفـيروز تقفـان في القاعة مـع الأخ همراز عندما سـمعوا صراخاً عالياً في الطابق السـفلي. هرعوا إلى الأسفل، وذهلوا حين عثروا على مايـا ملقـاة على الأرض، تنزف بغـزارة، وابنتها ليلا التي تبلغ عشر سـنوات جالسـة بجانبها تصرخ بكامل قوتها. وقف السـيد رانجـور في المدخل هادئاً جـداً. «ماذا حدث؟» سـألت طلعـت لاهثةً. «لا شيء» أجـاب بهدوء. «لقد انزلقت على الدرج، لا تقلقي» ثم صعد إلى الطابق العلوي.

بعـد قليل سـمعوا صـوت صدمة أخـرى في الطابـق الأول، وفي الوقت الذي اتصلت فيه طلعت بالرقم 999 لطلب سـيارة الإسـعاف، كان رانجور بارابانـكافي قـد انتهى من ضرب هوشـانغ ماتشيسـوالا. سـارع الأخ همراز وغيره من المسـتأجرين إلى المكان للتدخل في الأمـر، وفي غمرة المعركة، لطم الـزوج المظلوم أذني همزار فيـض لطمة تلو أخرى خالطاً بينه وبين هوشـانغ ماتشيسـوالا، في الواقـع كانت تلك مبـاراة مصارعة حرة رائعة لمدة خمسـين ثانيـة مع همراز فيض آبادي. كان السـلم مظلماً تماماً حين حدث هذا الحادث الدموي.

اكتُشِف لاحقاً أن الأخ همراز ورانجور بارابانكافي تنافسا بعضهما مع بعض ليحل كل منهما محل هوشانغ ماتشيسوالا. طُلب من السيد رانجور أن يحضر قليلاً من الخمر من حانة زوجته المسكينة.

وبما أن السـيد رانجور لم يعد، أرسل كشـافٌ إلى الحانة، ولما عاد أخبرهم أن السـيد رانجور اسـتقر في الحانة، وهو الآن يشرب بسعادة وهناء. وصلت سيارة الإسعاف، ونقلت مايا ديفي إلى المستشفى للإسعاف الأولي. في الوقت ذاته حزم هوشانغ ماتشيسوالا أمتعته، ثم استأجر سيارة ورحل.

بـدأ عـدد قليل مـن نجـوم السـينما البارزيـن مثـل راج كابـور ونرجس

يتوافدون إلى لندن، لكنهم لم يستطعوا إثارة أي ضجيج إعلامي، لأن عدد السكان الهنود في المدينة مازال قليلاً.

«ملكة جمال السينما الهندية موجودة في المدينة هذه الأيام»، قال أحد أصدقاء مجلس لندن لطلعت، «لقد حددت موعداً لك ولفيروز للقائها. السيدة لديها الكثير من المجوهرات أهداها لها أربعة من كبار الماهارجا والنوّاب في الهند، وهي تقيم في شقة فاخرة في نايتسبريدج، ولابد أنها ستعطينا مبلغاً كبيراً لمساعدة نذرالاسلام».

تذكرت طلعت موعدها مع ملكة الجمال، وهرعت إلى نايتسبريدج مع فيروز.

غالباً ماتأتي ملكة الجمال إلى إنجلترا لزيارة أطفالها الذين يدرسون في مدرستين باهظتي التكلفة. «هذا يدل على التغيرات الاجتماعية التي تحدث في بلدنا». كالعادة، شرعت طلعت في مناقشة أكاديمية، وهي في طريقها إلى نايتسبريدج. «عندما يعود ابن وابنة ملكة الجمال اللذان يتعلمان في بريطانيا إلى الوطن، لن يشار إليهما على أنهما حفيدا الأخت كذا كذا».

«نعم»، وافقت فيروز، «لكن مثل هؤلاء الأخوات يحظين دائماً بمكانة خاصة في مجتمعنا الإقطاعي الذي يهيمن عليه الذكور. كانت تشاندا باي من دكن شخصية مؤثرة قوية في عصرها إبان القرن الثامن عشر المضطرب، لقد تبرعت بملايين للمؤسسات الخيرية. أملنا قوي بأن ملكة الجمال هذه ستتبرع بما لا يقل عن عشرين جنيهاً، طلبنا متواضع للغاية».

رحبت بهما ملكة الجمال نفسها بابتسامة، وقدمتهما إلى والدتها السمينة التي كانت مغنية مشهورة وربما جميلة أيضاً. ذات مرة، خلال الحرب العالمية الأولى، حضر لورنس العرب محفلها في دلهي. تحدثت المضيفة مع الفتاتين

بشكل ساحر، وعرضت عليهما أكلة شعبية «باكورا»، حضرتها الوالدة. ارتدت الأم وابنتها أحجاراً كبيرة من الزمرد والماس.

«تذكري مجوهرات الأميرة، واطلبي ثلاثين جنيهاً»، همست طلعت لصديقتها. تقدمت فيروز بالطلب.

ابتسمت لهما ملكة الجمال الأسطورية ابتسامة ساحرة، وقالت بصوتها الفضي، «لسوء الحظ بسبب قيود الصرف الأجنبي، لم يبق لدي ولا حتى فلس واحد. أفدي بقلبي وروحي قضيتكما النبيلة». ودعتهما عند باب المصعد المزخرف، وانحنت قليلاً لتقدم لهما تحية المجاملة، ووقفت هناك إلى أن نزلتا بالمصعد. ركبت طلعت وفيروز حافلة وشرعتا في مناقشة أكاديمية أخرى.

قالت طلعت بقلق: «أثبتت حادثة اليوم بعض الحقائق، (أ) كل ما تقوله الكتب عن سحر هؤلاء السيدات وثقافتهن وقواعد سلوكهن صحيح تماماً؛ (ب) ولهذا السبب يميل الرجال المسحورون إلى خلع تاج الملكة عليهن أو يخسرون تيجانهم في سبيلهن، (ج) لا أحد من الرجال يضربهن لكونهن غير وفيات، ربات البيوت، مثل مايا ديفي فقط هن اللواتي يتعرضن للضرب والإيذاء».

رجعتا إلى كامدين تاون العتيقة الرثة، ووجدتا جميع مستأجري السيد رانجور مجتمعين في غرفة ضيوف الأخ همراز فيض آبادي. أخبرته فيروز عن مهمتهما غير الناجحة فقال: «كان يجب أن تسأليني قبل الذهاب إلى هناك. الأم وابنتها مشهورتان ببخلهما. كانت الأم تغني في محطة الإذاعة حين كنت أشتغل في إذاعة عموم الهند في دلهي». كان على وشك أن يغرق نفسه في الحنين إلى أوضاع ما قبل التقسيم حين استأنف شخص النقاش حول الشجار عند المساء.

تحرك الستار، وظهر رانجور واقفاً على الباب «تفضل بالدخول» صاح مستأجروه بارتباك.

نظر المالك الحزين حوله، وقال: «لا، لا أريد أن أكون سبباً للإزعاج في مجلسكم هذا. جئت فقط لأقول لكم ليلة سعيدة» ثم اختفى مرة أخرى.

لم يرجع شيف براساد بهاتناغار إلى المنزل. استأنفت زوجته كدحها المنزلي، وضمدت رأسها، وتصرفت برزانة كعادتها: كانت سيدة ذات وقار وكرامة بالغتين. بعد أيام عديدة، عُثر على جثة الشيف براساد بهاتناغار رانجور بارابانكافي متجمدة على جسر.

56

الضوء على قمة التل

لمعت المصحة على قمة التل مثل نار مشتعلة أضاءها كشاف غير مرئي. قاد غوتام سيارته إلى أعلى التل، مروراً بصمت هائل. خرج من سيارته آلياً، وصعد سلسلة من السلالم، ومشى في ممرات صامتة، ثم دخل غرفة نيرمالا.

لمعت عيناها لما رأته. كانت مضطجعة، ووجهها نحو الحائط، بعيدة عن العالم الأناني المجنون، ما الذي تنتظره في هذا الهدوء المطلق؟ ارتجف قليلاً في حين استقرت هي في جلوسها.

صففت شعرها بأصابعها بسرعة، وانتابها قلق حيال أنفها، ماذا لو كان يلمع كثيراً.

«نيرمالا، أيتها السيدة القوية! سوف تبدين قريباً مثل لا لة روخ»، لاحظ بمرح مصطنع.

ابتسمت بلطف

نيرمالا، لم أنتبه لك قط ولم أعرك اهتماماً، والآن صرتِ جزءاً من عالمي. ربما فات الأوان. كانت تشامبا مثل نهر الغانغا الهائج بالفيضان في موسم المطر. أما نيرمالا فكانت دائماً مثل نهر غومتي المتدفق بلطف.على الرغم من ثرثرتها مثل تلميذة المدرسة، فإنها حافظت على تفردها بشكل أو بآخر، وظلت صامتة متعبدة للإله «كريشنا» أو سامية مثل سمو إلاهة مختبئة داخل معبد أبيض على قمة تل.

تمكـن بجهد كبير من إبعاد تشـامبا عن أفكاره، ونجـح في تجنب مقابلتها رغم أنهما يعيشان في البلد نفسه، ويتنقلان في الدائرة الاجتماعية ذاتها منذ عدة سنوات. امنحيني بعض السلام أيتها الإلهة. وضع يده على جبين نيرمالا.

«غوتام أستاذ، أخبرني بآخر المستجدات».

«لقد أتت شـخصية جديـدة من الهند، السـيد طغيان بهاغالبـوري»، بدأ غوتام.

«ها، ها، يا له من اسم مضحك. هل هو معتوه؟»

«تماماً».

«كيف تبدو شقة سوريخا الجديدة؟ أعتقد أنها غرفة مع حديقة رائعة».

وصـف الغرفة المذكـورة بالتفصيل، وأضاف «أتمنى لك الشـفاء العاجل لتشاهديها بأم عينيك».

«نعم، نعم، سأفعل ذلك» أجابت بحماس مزيف.

أخبرهـا بأحدث النكات عـن الملكة والأمير فيليـب. ضحكت بحرارة، وحكت له بعض النكات في المقابل.

انتهت ساعة الزيارة، ولم ينتبها إلى الوقت كيف مر.

«أوه، يا إلهي، اسمع، لقد نسيت أن أسألك... وفقاً لشهودي، فقد نزلت تشامبا في المدينة قادمة من كامبريدج. هل تعرف؟»

«لا»

فقالت نيرمالا ببسـاطة: «أوه، ظننتُ أن طلعت أخبرتك. يجب عليك أن تقابلها، المسكينة القديمة انجرفت كالسفينة دون ملاح».

تعاطفها الجديد مع تشامبا أزعج غوتام. إن الذين يستشرفون رحيلهم الوشيك من الدنيا يميلون إلى مسامحة كل من جرحهم. وضعت نيرمالا

رأسها على الوسادة، وهي مرهقة قليلاً. وبحاستها السادسة التي تتمتع بها المرأة فهمت نيرمالا أن غوتام كذب عليها بشأن تشامبا. أطفأت الضوء بعد أن غادر، وحولت وجهها إلى الجدار الأبيض الفارغ مرة أخرى.

اتصل غوتام هاتفياً بتشامبا قبل يوم. «معك غوتام»، قال، باضطراب طفيف. «هل معي تشامبا؟»

«آه، يا طارزان، أنا جين معك» أجابت متهكمة، مما جعله يشعر بالراحة، لقد أصبحت واقعية. لم تعرب عن دهشتها أو غضبها لظهوره فجأة بعد كل هذه السنوات. حدد لقاءً معها مساء السبت المقبل.

أتت إلى باب منزلها الصغير، وسلمت عليه. «آه، لم أرك منذ زمن طويل»، قالت بسلاسة كما لو أنهما اثنان من الإنجليز-الهنود اجتمعا بشكل عادي بعد ظهر يوم السبت في سوق «مال» في حضرت غنج. أعطاها بكل احترام باقة من الزهور وصندوقاً موسيقياً. رفعت الغطاء، فانبعثت من الصندوق أغنية «أولد لانغ سين». شعرت بأنها ستنفجر بالبكاء. بات رأي غوتام الآن في الاتجاه الآخر؛ لا، لم تصبح جيزابيل، بل هي تشامبا القديمة نفسها.

«هذا صندوق سجائر!» قالت، ماسحة دموع عينيها.

«أعلم أنك تدخنين».

«أتذكر أنك قلت ذات مرة أنك لا تحب امرأة تدخن وتشرب. أنا أفعل الاثنين».

«إنك تقومين الآن بأشياء كثيرة لا ترضينا إطلاقاً، لكن هذا ليس شأننا».

«وماذا تقصد بـ «نحن»؟» سألت رافعةً حاجبها.

«أصدقائي»

«عصابة لكناؤ؟»

«نعـم. لقد اهتممتِ دائـماً بذاتك، فلم تتركي المجـال للآخرين ليتعرفوا عليك».

شـق غوتام طريقه في الشـارع وهـو يقود سـيارة الليموزيـن الأمريكية.

«تشارلز ديكنز أقام هنا ذات مرة» قالت له.

«حقـاً؟» كان غوتـام هادئـاً جـداً، وهـو يفكـر في نيرمـالا، ويعـاني مـن الإحساس بالذنب نحوها. إنه بمثابة جحيم حقيقي لرجل ممزق بين امرأتين. توجها إلى الريف، وتناولا الشاي في مطعم بجانب الشارع.

«لقد اشـتريت سـيارة ماي فلاور»، أخبرته تشامبا، وكان ذلك موضوعاً آخر للحديث بينهما

«لماذا ماي فلاور؟ هيلمان دائماً أفضل».

«هل تدرك أننا التقينا بعد سـنوات عديدة، وبدأت تجادلني مجدداً» قالت بحزن.

«الرجل لا يتغير، كما تغيرتِ»

اعتراها شـحوب. لقـد حاول أن يخفف مـن حدة الأمـر، «أنت وزوجة أخي، شانتا، كلتاكما تجاوزت الحد، أصبحتما غريبتين تماماً».

«آه. من فضلك لا تذكر المرأة الهندية «ساتي سافيتري!»» أجابت بجفاء.

«لا، ولكن عندما أسمع أشـخاصاً ينادونك باسم سيدة النوّاب سيريل، أشـعر بالحزن. لقد كنت بعيداً في الولايات المتحدة طوال هذا الوقت، لذلك لم أكن أعرف تماماً ماذا تفعلين هنا...».

«لقد أصبحت مثل امرأة ثرثارة من الحي. ولمعلوماتك، أراد سيريل أشلي الزواج مني لكنني رفضت».

«يبدو أنه أصبح من هوايتك رفض طلبات الزواج».

«أراد أن يطلق زوجته ويتزوجني، لكنني لست من اللواتي يقطعن العلاقات، فقلت لا».

ابتسم غوتام بمودّة. تشامبا القديمة الطيبة، إقامتها الطويلة في بريطانيا لم تتمكن من تحسين مهارتها في اللغة الإنجليزية. «تقصدين مدمرة بيوت» قال بلطف.

«أنا آسف، لا أعرف ذلك».

«مرة أخرى، ضحيت بسعادتك الشخصية من أجل امرأة أخرى. أولاً، تهمينة، والآن السيدة أشلي، هذا لطف منك. أخبريني، إذن، لماذا تحاولين إغراء بيل المسكين؟»

«يبدو أنك جمعت كل المعلومات عني مسبقاً».

«شانتا نيلامبار قريبتي» قال لها غوتام.

«حسناً، أردت أن أوذيها: أولاً لأنها كانت تتعامل معي بغرور، ثانياً أنا أحسدها كثيراً. أعلم أنك مازلتَ تهتم بها كثيراً، وكنت أتساءل دائماً لماذا سمحت لها أن تتودد إلى بيل...».

«قلتُ لك، أنا شخص محافظ وهي لا تزال زوجة أخي. لا يمكنني الإعجاب بها إلا من مسافة بعيدة. إنها تمثل مزيجاً نادراً من الجمال والعقل، مثل السيدة عطية. تنتظر مشروع قانون هندوسياً ليصبح قانوناً لتتمكن من طلاق ابن عمي، وتتزوج ويليام كريغ. لذلك، أرجو منك يا تشامبا أن تدعي السيد ويليام كريغ وشأنَه، أكره التحدث إليك بهذه الطريقة».

«هل تظن أنني أصبحت متشردة».

اعترض غوتام على قولها وقال: «لا تستخدم السيدات مثل هذه اللغة، تشامبا».

«اترك هذا الأمر. حتى في تشاند باغ وبادشاه باغ اكتسبت سمعة سيئة

وهنا أيضاً الهنود يحبون نشر الفضائح، ولأجل ذلك لا أخالط إلاّ الأجانب».

راح غوتام يضحك. «تشـامبا، نحن الأجانب هنا، أشـلي، وكريغ، إلخ؛ هم الأصليون».

قهقهت تشامبا، وهي تشعر بفراغ داخل نفسها..

تدريجيـاً، تحول هذا إلى عمل روتيني؛ ففي مسـاء كل يوم سـبت يأخذها إلى خـارج المدينة في سـيارته، ويجـول بها حول غابـة «أوتومنـال وودز»، ثم يتنـاولان الشـاي والعشـاء في نـزل ريفي، وفي بعـض الأحيـان، عند حلول الظـلام يوصلهـا إلى منزلها. أحياناً تأخذه في سـيارتها ماي فـلاور إلى بعض الأماكن. سألته بانتظام عن صحة نيرمالا، لكنها لم تذهب لرؤيتها في المصحة الواقعة على التل.

57

لا بالوما

وصلـت الفعالية الثقافية لإعانة نذر الاسـلام التي أقامها مجلس الطلاب الهنـود بلنـدن إلى نهايتهـا. وأخيراً، بـدأوا النشـيد الوطني الهنـدي. خرجت روشـن من الباب الخلفي لمسرح «سـكالا»، حيث وجـدت عامر ينتظرها في البهو.

«رغـم تحذيـراتي الكثـيرة، لم تتوقفـي عـن الاختـلاط بالمجموعـة غـير الصالحة».

«وأنـا قلـت لك عامر أكثر من مـرة إنني غير مهتمة بسياسـتهم. بعضهم أصدقـاء حميمون جـداً، مجالسـتهم تبهجني كثـيراً، ومن الممتـع أن أقابلهم. مـن فضلـك لا تلاحقني مثـل عميل دائـرة التحقيقـات المركزيـة أو مكتب التحقيقات الفيدرالي».

«هيا نذهب إلى مطعم إسطنبول لتناول العشاء»، قال مسالماً.

في المطعـم، راح موسـيقار كونتيننتـال يعـزف أغنيـة «لا بالومـا» عـلى الأكورديون. «أنا متجهة إلى إسبانيا الأسبوع المقبل مع أصدقائي البنغاليين»، أخبرت روشن عامراً بلطفٍ.

«هـل مجموعة مـن البنغاليين الهنـود المتعجرفين والباكسـتانيين الشرقيين المجانين أهم لديك مني؟»

«لا».

«إذن؟»

«لعلك تريد أن تكون كاثوليكياً أكثر من البابا نفسه. ليست لدي أي مشكلة من هذا النوع، ولدتُ في أرض الوطن، فأنا ابنة الأرض...».

بُهت عامر بهذه الملاحظة غير المتوقعة من روشن، فوقف عاجزاً عن الكلام. كان ذلك شجاراً بسيطاً، أخبرها أنه أراد اصطحابها إلى قبر والده الذي يزوره كلما جاء إلى القارة. «أتذكر أنه عندما توفي والدي، واجهوا مشكلة في العثور على رجل دين مسلم، ثم، لحسن الحظ، عثروا على رجلين من ألبانيا قاما بأداء مراسم الجنازة، وساعدا في دفنه... ينبغي للمرء أن يموت على أرض بلده»، ثم صمت، لأنه تذكر فجأة ملاحظتها اللاذعة. لمح صديقاً ودعاه إلى طاولته، وأخبرها أنه سينتقل قريباً إلى شقة أكبر في حي أمال روي.

«عطية أيضاً تقيم هناك، هذا الحي سيُعرف من الآن فصاعداً باسم حي لكناؤ». ضحك الصديق.

كتبت له روشن من قرطبة، واقتبست كثيراً من شعر إقبال، فلقد تلاشى برلين إيشروود. سافرت بالسيارة عبر وادي الراين متصورة أن ألمانيا كلها هي ألمانيا فيكي باوم، والنمسا كلها كنمسا دودي سميث. تود الذهاب إلى سويسرا كي تزور قبر والده، لكنه لم يخبرها بموقع المقبرة بالضبط.

اشترت الكثير من الهدايا لجميع أصدقائها، وبعد عودتها، ذهبت أولاً إلى تشيلسي. مشت في الممر إلى شقة أمل في الطابق الأرضي، حيث وجدتها ونرجس كواسجي تضحكان بشدة على بعض حوادث الليلة السابقة. «أوه، جاءت دونا سبينوزا!» هتفت أمل. «هيا نذهب ونقول مرحباً لعطية».

بدا أن هذا المبنى في تشيلسي تسكنه سيدات ناجحات جداً؛ فنرجس

وريثـة غنيـة ومصممـة أزياء، أما أمـل فدبلوماسـية وراقصـة محترفة، دعت المشـاهير مثل: ديلان توماس، ولويس ماكنيس إلى حفلاتها، وعطية حسـين مؤلفـة لها مجموعة قصصية قصيرة، هي «فوينيكـس فليد» موضوعة بالقرب من سلة الأناناس على نافذة أمل.

«إنهـا تمثل مزيجاً نادراً من الجمال والعقـل. ثمة مثل قديم يقول إذا ذهبت إلى الهند وما رأيت تاج محل في آغرا، وعطية في لكناؤ، فما رأيت شيئاً..». قال لها عامر ذات مرة حينما كان يحدثها بشأن تفوق ثقافة أوترا براديش.

لقـد انتقـل مؤخـراً إلى هذا المبنـى، وبـما أن الفتيات الصالحـات لا يزرن الشـباب العازبـين في مسـاكنهم، فقـد سـلمت الهديـة التي أحضرتهـا لعامر للبواب عند مغادرتها. «هل أحتفظ بها من أجله، يا آنسـة، أم تودين تسليمها إليه بنفسك؟ لقد ذهب القبطان إلى كراتشي في إجازة عائلية».

«احتفـظ بها مـن أجله» . أعطت السـيد جـين كينز الهديـة الصغيرة التي أحضرتهـا له. غُمـر البـواب القديم العطوف بهـذه المحبة، لكنـه أدرك أيضاً عمق الإحباط والحزن في صوتها.

58

مجلة الخريف

تطفـو أوراق أوبورن مثل الأفكار عديمة الجدوى. لقد حّل الخريف على غابة هازلمير، العشـاق الشـباب يمشـون في الغابة، ويدوسون على الأغصان الجافـة بأقدامهم. يظهـرون على الجانـب الآخر حيث يواجهـون المتقاعدين وأصحـاب المعاشـات الذين يجلسـون في صـف واحد على مقاعـد منتظرين مـن أجل لا شيء. ينظر المتقاعدون إلى الأزواج الشـباب من خلال نظاراتهم السميكة، ويواصلون الانتظار من أجل لا شيء.

لقـد حصلت على شـهادة التخرج. قبل سـفرها إلى باكسـتان، تجولت في أنحـاء الغابـة، وألقـت نظرة أخـيرة على أشـجار البلوط الحمـراء المتوهجة. أوقفـت سـيارتها أمـام الكنيسـة القديمـة ذات السـقف الأحمـر، وشـعرت بالانجـذاب إلى النقـوش الغريبـة على شـواهد القبور. دفعت البـاب الثقيل ودخلـت. كانت الكنيسـة خاليـة من المصلين. لمسـت خط الحجـر الرمادي البارد. قرأت اللوحات النحاسـية التي تحمل أسـماء الإنجليز البواسل الذين وُلـدوا في هـذه المنطقـة، وسـقطوا ضحايـا في كانبـور ووزيرسـتان في الهند، مدِافعـين عـن الإمبراطوريـة البريطانيـة. تثاءبـت ووضعـت عـدة عملات معدنية في صندوق التبرع.

«مرحبـا يا طفلتي»، قال لها الكاهن المسـن بصوت هادئ ومرتعش. كان

قد أطلّ بهدوء من بستان الكرز، ومشى نحوها.

«مساء الخير، سيدي» ابتسمت باحترام، وطرحت المزيد من النقود في الصندوق، ثم خرجت.

يمكنك أن تتقدم وتصل إلى المدينة غير الواقعية، ستجد أصدقاءك مجتمعين في نزل «تشيكن إن»، يناقشون أحدث أخبار الصباح. تحدث الأشياء الأكثر فظاعة في أنحاء العالم، لماذا يجب أن تهتم بالأخبار عندما تتحول عناوين اليوم البارزة إلى أوراق مهملة في اليوم التالي؟ تتجمع الحشود في شارع بوند ستريت، وتستمتع بعطلة نهاية أسبوع مشمسة. ما شأنك أنت لترفض أن تكون جزءاً من هذه الاعتيادية؟

قادت سيارتها ماي فلاور في شارع الملك، ثم أوقفتها في فناء مبنى أمل. شخص ما كان يعزف على آلة «مريدنغام» في شقة أمل الصغيرة، في حين كانت طلعت رضا مشغولة بالغناء.

تراءت لها الغرفة من خلال النافذة ومن الصف الخلفي لمسرح النادي كأنها خشبة مسرح صغيرة ومريحة. كتب المسرحية مؤلف مقبول مثل كوكتو أو أنويله، أو حتى تينيسي ويليامز. كان المشهد هادئاً جداً. لن تفسد هذا الجو الهادئ. إنهن هناك، سعيدات وآمنات وسليمات، وحدها هي المتطفلة. قررت أن ترسل إليهن بطاقات بريدية مصورة من القاهرة. إن أبسط شيء في العالم هو إرسال بطاقات بريدية مصورة من القاهرة. أشعلت سيجارة وبقيت جالسة في السيارة.

خاطبت فيروز طلعت. «يا ملاح نهر رافي السعيد، بلاه بلاه، قال الأمير سليم. هل تتذكرين عندما مثّلنا «أناركالي» في سكن «كايلاش»، خريف عام 1946؟ لقد رُسمت صورة البدر على خلفية هذا المشهد...».

بقيت طلعت صامتة دون حراك.

«إنك تبدين فأرةً شربت نصف لتر من الرصاص السائل»، علقت فيروز، بعد توقف.

تحدثت طلعت، «هل تعرفين ماذا يحدث عندما تشرب فأرة ملء زجاجة من الرصاص السائل؟ إنها تقف على ذيلها وتبدأ في إلقاء خطبة، أو تشرع في الغناء، مثلما فعلت حقاً في «أناركالي» تغني بصفتها دل آرام على حافة سجادة الماء في ضوء القمر، كأس جامشيد بين يدي حبيبي... بلاه... بلاه...».

جلس رامانا بيلاي القرفصاء أمام طبله، وهو غارق في التأمل. نام الولدان الهولنديان- الإندونيسيان من فرقة سوريخا على الفرش الخشبي.

رنت روشن الجرس. فتح بلاي الباب، وابتسم ابتسامة عريضة، ثم دلفت إلى الداخل. «لقد سمعتك تغنين أخت طلعت»، قالت معتذرة. «آمل ألا أكون قد أفسدتُ عليك بروفاتك».

من الواضح أنهن يحضرن لأحد العروض.

«روشن آرا كاظمي، أهلاً بك»، أجابت طلعت بجدية، وشرعت في إنشاد أغنية أخرى مثل شخصية في مسرحية. كان ذلك وقت تفتح الزهور، ذهبنا إلى الغابة نغني ونفرح، وهاهو ذا قد انقضى الربيع، هذه أغنية إذاعة عموم الهند في لكناؤ، أنشدها المطرب طلعت محمود. متى كان ذلك، فيروز؟»

«1945»، أجابت فيروز على الفور. «وهو العام الذي مضى سريعاً، مثل كل السنوات السابقة...».

«لم أسمع هذه الأغنية مرة أخرى. في يوم من الأيام، سأعد قائمة بجميع الأغاني الجميلة التي سمعتها مرة واحدة فقط، وما زالت تطاردني. ماذا حدث لها؟ وأين اختفت؟ مثل أغاني الأفلام القديمة التي اختفت سجلاتها،

مات ملحنوها ومغنوها أو طواها النسيان، ولم يبق منها شيء إلا الألحان. يا له من أمر رهيب؛ وفاة الأغنية...».

رن الهاتف في الدهليز.

«كان المتحدث غوتام، يريد معرفة ما إذا كان بإمكانه إحضار راقصة باليه أمريكية ضيفة له هذا المساء» أعلنت سوريخا.

«راقصة الباليه الأمريكية؟» ذهلت طلعت. «ماذا عن الأميرة تشامبا، المشهد الثاني؟»

«الستائر»، أجابت سوريخا بلهجة قاطعة، وراحت تقفز قفزتها الشهيرة في الهواء. ثم أضافت، «لقد عاد إلى التداول».

التفتت طلعت نحو أمل التي درست فن الخطاب في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية، اقرئي قليلاً في مجلة الخريف لصديقك ماكنيس؛ لقد أحببت حبيبي بتذكرة الرصيف».

أسقطت أمل زي رقصة «بهاراتاناتيام» الذي أخذته من خزانة الملابس، وتقدمت إلى الأمام، وقفت مستقيمة مثل تلميذة وذراعاها إلى أسفل، وراحت تنشد بطريقة ميكانيكية،

أحببت حبيبي
بتذكرة الرصيف.
حقيبة يدوية،
زوج من جوارب باريس.
أحببتها طويلاً
أحببتها بين السطور
وأمام الساعة،

لا حتى الموت
لكن الحياة فرقت بيننا.
أحببتها بعيني الطاووس
وأدوات قرطاج.
مع الكفر،
والصداقة الحميمة،
والشجاعة
والكثير من الأشياء الأخرى.
أحببتها في لندن
وأسفل الدرج
المتحرك باستمرار.

جلست على الأرض. «لماذا هذا المساء كئيب إلى هذا الحد؟ هل تتذكر ولو مرة واحدة، جلستنا عند حلول الظلام على درج منزلي على طريق فيض آباد حيث كانت تتسكع مجموعة من الراهبات الغامضات؟ طلبن الصدقة، وتمتمن بشيء ما بلغة غريبة، واختفين في ظلال أشجار تشامبا، لقد أصبنا بالذعر».

«هل لاحظت أن بعض الأمسيات تكون حزينة جداً؟ عندما يلامس الليل النهار. عندما نضحك في غرف مضاءة بألوان زاهية، تغني الساعات السوداء غير المضاءة تحت الأرض في المناطق الداخلية من عالمنا المليء بالحزن. نلتقي بهؤلاء الراهبات على طرق مهجورة، إنهن يلعننا ويختفين في الظلال. لقد سمعتهن يبكين بصوت عالٍ في الليالي المعتمة».

«لقد قالت والدتي»، أجابت طلعت بصوت خافت كطفلة، «تقول

والدتي، حتى لو توفي أحدهم وقت الظهيرة، فسوف يحيط به الشفق، لذلك كل مساء، تستشرف روح المرء تلك اللحظات الأخيرة عندما يلتقي النهار بالليلة الأخيرة، لهذا السبب نشعر بالاكتئاب».

خاطبت سوريخا روشن بصرامة قائلة: «كفنانة تمثيلية أود أن أخبركم بالواقع. كل ذلك يتعلق بالإكسسورات، مشهد المسرح، والخلفية، والستائر، والأضواء. في النهاية لا يبقى سوى المنصة لا غير».

«سخيف»، قالت طلعت باختصار.

دخلت نرجس كوواجس الغرفة قادمة من ليدهورست بعد زيارة نيرمالا. لقد ذهبت إلى هناك مع خطيبها الإنجليزي، وفي الطريق التقطا بعض أوراق الخلنج من غابات هازلمير. أعطت روشن بعضاً منها، «مبروك حصولك على شهادة التخرج، مع تمنياتي لك بالتوفيق والنجاح عزيزتي».

«حان الوقت للمغادرة إلى مسرح الكوميديا، سيدتي»، أعلن بيلاي باحترام.

«هذه هي ساعة الصفر بالنسبة لي»، يرن الجرس للمرة الثالثة، وترفع الستائر، ونبدأ من جديد. ماذا سيحدث إذا رفعت ستائر خشبات المسرح في العالم دون توقف، ولم يبق المزيد لشخص مثلي ليرقص؟» تكلمت سوريخا بحزن عندما التقطت طقم مكياجها.

ارتفع صوت «المريدانغام» أعلى فأعلى نا-دير-دام-تا-نا-دي-ري-نا- رتّلت طلعت مع سيدتين من جنوب الهند تجلسان مع بيلاي ورانغاناثان على طرف خشبة المسرح. وصلت سوريخا مثل لمح البرق وبدأت «تيلانا».

الآن أنا أرقص كالمعتاد، قالت في نفسها، ثم سترقص أمل ورام غوبال، يجب أن يستمر العرض. يبقى السؤال؛ لماذا يجب أن يستمر العرض؟ كير-

تيك-تام-تيت-تـام- كـير- تيك-تاي-تيت-تـاي. يجـب أن أرقـص على التلفـاز غداً، سأسـافر يـوم الاثنين إلى هولنـدا للرقص أمام الملكـة جوليانا.

النهر يتدفق، دهيم-تا-نا-دي-ري-نا،تانا-دي-ري-نا.

العرض يجب........

كانـت القاعـة فارغة. بقـي زملاء سـوريخا الإنجليزيون مـن الأكاديمية الملكيـة للفنـون المسرحيـة بالقرب مـن المخـرج يتحدثون، وانتظـر عدد من المراسلات الصحفيات لمحاورة الراقصة الشهيرة.

«الرقص... هو حياتي..». قالت بحماس.

«ياإلهي، سوريخا»، صاحت طلعت مشتاقة للشاي.

جلست على أريكة ونامت. ذهب هذا الخنزير الصغير إلى السوق، وظل هذا الخنزير الصغير في المنزل، أكل هذا الخنزير الصغير قليلاً من اللحم، لم يفعل هذا الخنزير الصغير أي شيء. قال هذا الخنزير الصغير، وي، وي، وي، لا أستطيع أن أهتدي إلى بيتي.دهيم-تا-نا-دي-ري-نا-

مرَّ غوتام بالقرب حاملاً على ذراعيه عباءة راقصة الباليه الأمريكية ببسالة.

59

باقة من أوراق الخلنج

«في غرة ذي القعدة عام 1374هجرية، يوم الاثنين، تزوج سيد عامر رضا عابدي من الآنسة عالمة خاتون عبر الهاتف»، أعلن كمال بنبرة رسمية تشبه نبرة قاعة المحكمة، مضيفاً، «ولم يكن العريس قد رأى الآنسة حتى وصلت إلى كراتشي من الله آباد».

استجاب المستمعون للإعلان على نحو ملائم. تشاندر، التي نزلت ضيفة في الدار من واشنطن، هرعت من الحديقة إلى الداخل... توقفت طلعت وسوريحا عن تحضير السلطة السويدية، فقد نزل النبأ عليهم كالصاعقة. هاري، الذي وصل من نيويورك في طريقه إلى القاهرة، احتسى ما تبقى في كأسه من الشاي. جلس غلشان إلى المائدة يتحدث بفتور إلى الروائي الأردي الزائر، هارغوبند رائي طغيان باغلفوري. وقال مشيراً إلى هاري:

«يتجسد ابن بطوطة في هذا الرجل وغوتام»

«من الذي يتجسد؟»

«ابن بطوطة».

«وغوتام.. يتجسد فيه هويكانغ أيضاً، أحياناً يأتي لزيارتنا من الصين»، أضاف كمال من زاويته في غرفة الحديقة. كان ذلك صباح يوم أحد جميل، إذ غمرتهم السعادة جميعهم.

دخلت تشامبا المشهد، فاجتمع طاقم الممثلين بأكمله للمرة الأخيرة كأنه المشهد الأخير في المسرحية قبل إسدال الستار، بدت هي الأخرى مفعمة بالحيوية. كان غوتام قد أحيا صداقته معها بعد كل تلك السنوات، وبدا الأمر كله مثلما كان في السابق، إلا أن قدومها في تلك اللحظة أخمد حماس الجماعة الموفور. تابعها هاري متأملاً، كم تغيرت خلال هذه السنوات! باتت الآن تذكّرني بإحدى شقق الحي اللاتيني، أو المهرجان الموسيقي في سالزبورغ. تألقت بشرتها السمراء بلون الذهب، وحملت مجموعة من أوراق الخلنج في يدها، لا بد أنها قد التقطتها حين كانت تتجول صباحاً مع غوتام بين الأشجار، فكَّر هاري. داهمه كرب مؤلم حين تذكر أخته التي كانت طريحة الفراش في المستشفى، تتأرجح بين الحياة والموت. لقد خسر إيمانه بالإله منذ زمن طويل.... وتكوم لديه من الدلائل الكافية لإثبات عدم وجود إله من أي نوع كان.

همس السيد طغيان إلى غلشان متسائلاً،

«ماذا حل بهم؟ انعقدت ألسنتهم!».

أجاب غلشان بعدم اكتراث، «يعانون من تخمة الوعي... إنهم مدمنو فكر...»

استقبلوا تشامبا بطريقة عادية، وجاء هاري بكوب من الشاي لها.

«أهلاً أختي تشامبا!»

«أهلاً هاري».

«أوراق الخلنج! علامات مؤكدة للحظ السعيد بحسب اعتقاد مواطني هذه الجزيرة».

أدركت التهكم في نبرته، إلا أنها تجاهلته، وابتسمت برقة. حاول

التعويض عن لهجته، فجلس على السجادة أمامها قائلاً بجدية: «منذ مدة كنت أهم بالتكلم معك في بعض الأمور، يسرني أن أراك هنا. ثمة وظيفة في منظمة الأمم المتحدة في الحصة الخاصة بالهند، هل أسعى من أجلك؟»

مهما بدا الأمر غير منطقي، فقد داهمها إحساس مرعب بقرب النهاية. خيل إليها أن الغرفة بدأت تدور في جنون، وأن تشاندرا التي كانت ترتدي سارياً متعدد الألوان تحولت إلى مصباح صيني، وأن هاري وكمال بدأا يحدثان أصواتاً غريبة كأنهما يتكلمان من بطنيهما... وتحول السيد طغيان إلى علجوم كبير يقرقر بصوت خافت. امتلأت عيناها بالدموع، وبدا لها أنها على وشك أن تجن.

لاحظ السيد طغيان الدمعة في عينيها (كان ماركسياً في السابق ثم استحال صوفياً) فقال:

«يقول شيخنا: سلم نفسك لرضا الله وأمل بالأفضل».

«ماذا كتبت تهمينة، يا كمال؟» صرخت طلعت في حنق....

«كيف؟»

«عبر الهاتف... انظري... أخبرني قبل أن يغادر أنه بصفته عضواً في سلك الخدمة العسكرية للبلد، لا يمكنه الزواج من روشن لأنها، بسبب بلاهتها، باتت تشكل خطراً أمنياً عالياً على البلاد. وقد وردت تقارير سرية ضدها تفيد بأنها حليفة مقربة للهنود الحمر... الشيوعيون أوغاد... الشيوعيون الهنود... لا سمح الله..»

تساءلت طلعت غير مصدقة، «دونا سبينوزا شيوعية...؟ لا بد أنك تمزح!»

«على أي حال، طلب مني أن أكتب إلى الأم، لتبحث له عن فتاة لائقة

ساذجة، من المفضل أن تكون خريجة كلية كرامات حسين للبنات المسلمات، بلكناؤ، أو كلية عليجراه للبنات المسلمات، أو كلية السيدة إيروين للعلوم المنزلية في دلهي، بأسرع ما يمكن أي قبل حلول شهر محرم».

كانت تشامبا جالسة عند المدخل تلعب بهرة سوريخا السوداء الفارسية.

دارت دورة أخرى من الشاي.. أمسك كمال بسيجارته كما يمسك بها سائق شاحنة، أغمض إحدى عينيه، ونفض رمادها برجة... لتصعيد حالة الترقب والتشويق...

أخيراً استأنف: «الوضع الحالي هو أن معظم العازبين المؤهلين للزواج رحلوا إلى باكستان، في حين بقيت الفتيات في الهند، لذلك يأتي العازبون إلى الهند خلال الإجازات لاصطحاب زوجات إلى باكستان أو يُعقد الزواج عبر الهاتف. وجدت أمي الفتاة؛ لقد تخرجت في كلية إيزابيلا ثوبورن، وتعيش مع أسرتها في مدينة إله آباد... وهكذا، بعث أبي رسالة إلى أبيها يطلب فيها يدها بلغة أردية مزخرفة حسب العرف، «لو تتفضل جلالتكم بقبول ابن أخ هذا المرسل المتواضع كابن لكم.... وهكذا..» غير أن بيجوم إعجاز أجابت بترفع، «لسنا في عجلة من أمرنا، ولدينا العديد من الطلبات الرائعة التي ما زالت قيد النظر..».

وهنا توجه كمال إلى غلشان وسوريخا وتشاندرا قائلاً: «العرف لدينا نحن المسلمين أن عائلة العريس هي التي تتقدم بالطلب إلى عائلة العروس، والتي تتظاهر في بادئ الأمر بالاستعلاء والترفع. ولدينا مثل مأثور أن عائلة الفتاة لا توافق على الطلب حتى تهترئ عتبة منزلها بزيارات عائلة الشاب الكثيرة المتكَررة لطلب يد الفتاة.... ولكن رغم ملابسات الوضع السائد، كما كتبت لي تهمينة، تمكن بهيّا صاحب من عقد قرانه على كبرى بنات فخامة القاضي

إعجاز في غضون شهر».

«ولكن عبر الهاتف... يا صاحبي.... بحق السماء!» صاح هاري شانكار دهشاً.

«أتعرف المثل السائد بالأردية الذي يقول: «أنا في دلهي وأنت في آغرا، فكيف يمكن أن نلتقي. في هذه الأيام يجلس القاضي والشاهدان قرب الهاتف في باكستان، ومثلهم في الهند، فيقرأ القاضيان خطبة عقد الزواج عبر الهاتف، وتزف العروس إلى باكستان. وبما أن بهيّا صاحب يعمل في قوات الدفاع، لم يتمكن من الحصول على شهادة عدم ممانعة للسفر إلى الهند، لذلك فـ.....»

قاطعته تشاندرا متمنية، «لو كان بإمكاننا نحن أيضاً التطواف[1] حول الهاتف، لحلّ ذلك العديد من المشاكل اللوجستية بالنسبة لنا نحن المقيمين في أمريكا».

«سيعود إلى لندن مع زوجته في بداية الشهر المقبل».

بهذه الجملة الختامية أعلن كمال عن فترة استراحة. جاءت تشامبا من الحديقة لتقول وداعاً وغادرت.

«باحت لي روشن قبل أن تسافر إلى كراتشي بأنها ستتزوج موظفاً في الدوائر العليا المركزية الباكستانية، اختاره لها أبوها. كانت أمام خيارين: ضمان أو قانون الضمان[2]. وقد آثرت الأول كما قالت لي».

قالت سوريخا مضيفة، «والآن ستكون حياتها موزعة بين حضور حفلات كوكتيل وقطع شرائط افتتاح محلات الزهور. أحاول أن أتخيّل كيف سينتهي الأمر بنا جميعاً في المستقبل.... تشامبا كأستاذة متقاعدة أحلامها محطمة..... أنا راقصة كسدت سوقها، ونسيها الناس... طلعت كـ..... كـ...»

(1) يتم الزواج لدى الهندوس بسبعة طوافات يقوم بها العروس والعريس حول النار.

(2) قانون في باكستان، ينص على اعتقال شخص بمجرد مخالفته السياسية.

«ككاتبة فاشلة..». ساعدتها طلعت على إكمال الجملة.

«ربما، ولكن كيف سنكون مختلفين عن روشن إذن؟ إن الهرم عامل كبير لتحقيق المساواة، ولا سيما بالنسبة لمشاهير النساء»

قال هاري مخاطباً كمال: «البنات يمثلن قضايا شائكة يا صاحبي. كم يسهل جرح قلوبهن لأنهن يتسمن بالليونة... يليق بهن أن يُعامَلن معاملة آلهة ومعاملة دمى دريزدن!. كيف استطاع بهيّا صاحب أن يكون قاسياً إلى هذا الحد على روشن؟.... إنها فتاة طيبة القلب».

لقد بالغ هاري في وصف الأمر كعادته. عاودت طلعت ذكريات هاري المشاغب الصغير... الذي كان يمزق ما تملكه من دمى إرباً إرباً، فاستدارت إليه قائلة بغيظ:

«اسمع يا هاري شانكار، كل ما تفتقر إليه هو استقلالها المادي... لا يهمها أن تكون إلهة أو دمية!»

دحض هاري فكرتها قائلاً: «تتمتع الأخت تشامبا باستقلال مادي ومع ذلك فهي في أسوأ حال....»

«ردت طلعت، عامر رضا، وغوتام، وكايريل أشلي، وبيل كرايغ، وغوتام الثاني في الدورة الثانية، لقد ظلت تلعب لعبة الكراسي الموسيقية بكل بهجة....!».

قال كمال بصرامة: «ستبقين دائماً فتاة من مدرسة تاتير والا الثانوية للبنات في شارع بارو بلكناؤ... إنها حياتها... دعيها تعيش حياتها وفق تصوراتها، هل يروقك أن تلعبي لعبة الكراسي الموسيقية؟»

«كلا، حاشا لله». أسرعت طلعت في الرد بمكابرة.

كرر هاري، «استقلال المرأة مادياً لا يحل مشاكلها العاطفية».

عبست طلعت متجهمة، فحاول هاري شانكار التهدئة من حنقها، «انظري أيتها العزيزة... أتفق معك... عليك أن تواصلي دراستك حتى تحصلي على شهادة الدكتوراه، لأن الاستقلال الاقتصادي هو المهم في النهاية».

لم تكن طلعت لتهدأ بسهولة، «هل تجلب شهادة الدكتوراه حلويات «لادّو» كي أتناولها؟.... منصب المحاضر في الجامعة... براتب ثلاثمائة روبية كل شهر فحسب! ثلاثمائة فقط!!». لوّحت بثلاثة أصابع أمام أنف هاري.

وحين عادت طلعت إلى المطبخ قال كمال لهاري بصوت خافت، «لم أكاشف هؤلاء السيدات الفاضلات بما أسرّه لي بهيّا صاحب قبيل مغادرته من أنه لا يجب أن يشعر أبداً بأنه مهدد من قبل زوجته.... وقد تبين لنا ذلك».

وافق هاري، «معك حق، فقد تبين لنا ذلك. ولأقول لك الحقيقة إني أقدّر وجهة نظره هذه..»

تصافح الاثنان.

60

الغرفة المطلة على الحديقة

بدأت الثلوج تتساقط. أطل «اللاما» (الناسك البوذي) الأنجلوساكسوني من نافذة غرفة الجلوس في بيت السيدة شونيلا، ثم استدار وثبّت نظره على مستمعيه الأنجلوساكسونيين. كان حليق الذقن، في منتصف العمر، رأسه حليق، غطاه بقبعة تزلج، يرتدي لباساً كستنائياً، كالذي يرتديه النسَّاك التبتيين، ويمسك عجلة الصلاة بيمينه. بدا جذاباً للغاية. إنه الرجل الإنجليزي ذاته، الذي هرب من لكناؤ قبل خمسة عشر عاماً، كان كمال وهاري قد ذهبا إلى مدينة هاريدوار المقدّسة بحثاً عنه. ظهر للعالم المادي بوصفه لاما المأمور، واشتهر بوصفه مؤلف الكتاب الأكثر مبيعاً بعنوان «هيمالايا الروح».

وصل غوتام إلى نيل غوين كورت، فرأى كومة من أحذية الثلج ملقاة خارج مدخل شقة السيدة موخرجي الفاخرة. استرق النظر إلى الداخل من خلال فتحة الباب نصف المفتوح، وعاين الجماعة في الداخل. كاد أن يعود أدراجه لولا أن لمحته نارجيس كواسجي التي تقدمت إليه مبتسمة، تحمل حزمةٍ من عيدان البخور المتقدة، يرافقها خطيبها الإنجليزي.

تساءل غوتام عابساً: «نارجيس، ما وراء كل هذه الجعجعة؟»

«شش..». همست إليه، «كل هذا من أجل الثقافة، غوتام، من أجل

الثقافة، بلغني أن مؤتمر الحرية الثقافية قد عهد إليه بإلقاء محاضرة حول البوذية في الغرب. ألا يبدو أخاذاً! من الممتع جداً الاستماع إليه... يتحدّث قوتاشه إليه بالإنجليزية... ليس عليك إلا أن تكتشف الهيمالايا المخفية في نفسك.... ما الأمر يا غوتام، أراك مضطرباً. هل نيرمالا على ما يرام؟»

«نيرمالا.. ماذا عنها؟» عب هواء، أخبرته أنه

«تم استئصال نصف رئتها الأسبوع الماضي.... في عملية ناجحة...».

أضافت حين رأته باهت اللون:

«إنها بخير. زرتها أمس، وأفكر باصطحاب لاما إليها لكي يقوم بتوعيتها».

«أنا... كنت في موسكو طوال هذا الوقت.... وحالياً أبحث عن كمال... عثرت على هذا الظرف صباح اليوم، أُرسل إليه بواسطة البيت الهندي. لقد تقدم بطلب وظيفة شاغرة في المعمل الفيزيائي الوطني، وقد استُدعي لإجراء مقابلة شخصية في أقرب وقت ممكن. حاولت الاتصال به عبر الهاتف في أمكنة عديدة، ولكن لم أتمكن من الوصول إليه. لذلك حضرت إلى هنا، أظن أن السيدة موخرجي ربما تعرف مكانه».

«أوه.». اتجهت نارجيس إلى الدهليز، تتبعها المضيفة التي أقبلت على الروحانية منذ عهد قريب. أخبرها غوتام أيضاً عن سبب بحثه عن كمال.

«تفضل... تفضل بالدخول... الزعيم الروحاني الدالاي لاما له صلة وثيقة بشيوخ مختفين وكهنة مستورين عن النظر، وسيخبرنا في طرفة عين عن مكان وجود كمال. هل كمال أيضاً ينوي المغادرة؟ لقد رحل كايريل إلى شرق باكستان، في حين يهم مايكل بالهجرة إلى إسرائيل...»

قاطعها غوتام متبرماً، «الأخت سوجاتا، هكذا هي الحياة.... الناس يأتون ويغادرون..»

«نعم في الواقع، مثلما قال غوروديو طاغور: مسافراً يجب أن تكون...»

«اعذريني أخت سوجاتا، سأزور اللاما المحترم في وقت آخر».

اندفع غوتام إلى المصعد، فصاحت نارجيس خلفه بقلق، «حاوِل الاتصال بمطعم هيئة الإذاعة البريطانية وأيضاً بتشيكن إين».

خيم صمت غير عادي على تشيكن إين. جلست فتاة وحدها وراء المكتب، ترتدي بلوزة زرقاء، وتنورة سوداء، وتحتسي القهوة. تلك الفتاة كانت تشامبا.

«أهلا، اختفيت فجأة من جديد».

«انظري تشامبا، لقد استدعي كمال لمقابلة شخصية، إن تعيينه مؤكد، ولكن يجب أن يصل إلى دلهي بالطائرة».

«خبر سار جداً ولكن ما هذه الكآبة على وجهك...!»

«خضعت نيرمالا لعملية جراحية خطيرة الأسبوع الماضي.... ألم تعلمي بذلك؟ أنا لا أعرف لأنني كنت في موسكو».

اتصل بسوريخا عبر الهاتف الموضوع على المكتب، فأجابه غلشان «نعم... نعم... نيرمالا بخير، وكمال ذهب إلى مختبر السير روجار لتحصيل تقاريرها..... ستعود سوريخا من الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية متأخراً.... قال كمال إنه سيأتي إلى بيتنا مباشرة من شارع هارلي لأخذ بعض الكتب لنيرمالا.... اتجه أنت إلى هناك وانتظره... عليّ أن أسرع إلى الكلية، ولكن سأترك المفتاح لدى آشا».

خرجا من المطعم، فتوسلت تشامبا، وقد بدت هي الأخرى مهمومة، «هل يمكن أن أرافقك؟»

«بالطبع، أين أوقفت سيارتك ماي فلاور؟»

«بعتهـا لروشـن كاظمي... كنت في أمـس الحاجة إلى المـال، وكانت هي مقبلـة عـلى ملاحقة القائد عامر رضـا. وبما أنه لم يكن لـدي أحد ألاحقه فلا حاجة لي لأن أمتلك سيارة..»

همهم غوتام في شرود، وقال نقلاً عن لويس ماكنيس، «*فلنرجع إلى لندن وإلى سلالمها المتحركة*».

وصلا إلى منزل أروراز في شـارع سانت جان وود، أخذا المفتاح من آشا، واتجها مباشرة إلى الغرفة المطلة على الحديقة. فتحت تشامبا الباب الزجاجي، واتجهـت نحـو الهاتف، وبعد محـاولات اتصال بأرقام عديـدة لتحديد مكان كمال، جلست مستسلمة على أريكة في انتظار صديقها المراوغ.

في الخارج، أشـع نبات الخطمي في ضوء شـمس الشتاء الباهتة، وانبعثت الموسـيقى من مكان ما عبر سور الحديقة. كان الطقس مريحاً وممتعاً. أشعلت تشـامبا النار في المدفأة. استيقظت قطة سوريخا السوداء العدوانية التي كانت غارقة في النوم على الفرش، وماءت متجهمة.

جـال غوتـام ببصره في الأرجـاء.. روائع فنيـة... تمثال هائـل لناتراج... دمى من المجر وإسـبانيا...آلة وترية موسـيقية من روسيا... صور موقعة من مارجوت فونتين وروبرت هيلبمان، ماكينة خياطة على الأرض بجانب سـلة مملـوءة بالخـضراوات الطرية.. «إنهـا راقصة يملأ صيتهـا الدنيا، ورغم ذلك تبقى ربة بيت في الأسـاس... الحمد لله على ذلك... حقاً يفصح المسـكن عن أخلاق ساكنيه».

بـدأ غوتام يتحدث بإسـهاب عـن نظريته الخاصة بالغـرف في محاولة منه للتغلب على قلقه واضطرابه إزاء كمال ونيرمالا، وراقه أن يستمر في الحديث، «الآن في هذا المكان الذي تملكه سوجاتا ديوي تبدو كل قطعة كأنها قطع فنية جميلة....».

قاطعته تشـامبا متسـائلة، «كيف تستطيع أن تكشـف الفروق الدقيقة بين الفن وغير الفن؟ وقد كنت دائماً أقول يوجد فيك بعض الاصطناع».

«ربما أنا كذلك... ولكن في المجمل نادراً ما نسـتطيع أن ننزع شـخصياتنا مـن خلفياتها الأصليـة». صمت قليلاً ثـم أضاف، «أليس مـن الغريب أنك حين كنت جالسـة على كرسي بلا ظهر في ذلك المطعم في شـارع أكسـفورد لم يلحُ من سيماك أنك تنتمين إلى باناراس».

هزت رأسـها وقد اعتراها الملـل. «لقد أخبرتني بكل ذلـك حين التقيت بي أول مرة بعد سـت سـنوات طويلـة، حين جئت إلي بيتـي وأخبرتني بأنني تغيرت للأسوأ».

«وهـل أخبرتك بأنني كتبت لـك في العام الماضي رسـالة من الولايات؟ كنت أقضي الإجازة في ولاية نيوجيرسي خلال الخريف، وذات يوم وبينما أنا تحت شـجرة بنفسـية، حبرت لك خطاباً... كنت سـعيداً على غير العادة، ولم أفهـم قط سـبب تلك النشـوة التي كانت تنتابني بين حـين وآخر. حقاً كتبت لك رسـالة، لكن ربما لم تتسـلميها.. بل أظن أنني نسيت تماماً أن أرسلها لك بالبريد قبل أن أغادر إلى نيويورك».

«لم أتلق أي رسالة قط».

«ها قد عدتِ إلى تصرفاتك الدرامية».

شـخص مـا بدأ يغنـي أغنية بنغاليـة في دار آشـا المجاورة شـبه المنفصلة.

«غوتام، توقف من فضلك عن إيذاء غريبة تعيش في المنفى».

تِزاحمت الدموع في عينيها.

«تعيش في المنفى، من؟ أنتِ!». نظر إلى جواربها الشبكية السوداء الثمينة، ولباسـها الأنيـق الـذي اشـترته من ليبـارتي. «مـا يمنعك مـن أن تعودي إلى

وطنك، يا عزيزتي؟»

كان أجيت وتارونا يقودان جوقة غنائية في دار آشا، فعلقت ممتعضة، «سيستمرون في الصراخ والغناء إلى وقت متأخر من الليل، يخيل إلي أن مجلس لندن للطلاب الهنود قد اجتمع بأسره في ذلك المكان. سيرحلون جميعا غداً إلى بودابست للمشاركة في مهرجان الشباب».

اندفع إلى الخارج فأخبرته بأن كمال ليس هناك، وفي اللحظة التالية، قفز عن الجدار الخارجي، وانضم لحفلة آشا.

عاد إلى غرفة سوريجا المطلة على الحديقة بعد ساعة إلا ربعاً وسأل: «هل اتصل كمال؟»

«لا». أجابت تشامبا بجفاء، وهي تقرأ مستلقية أمام المدفأة.

لم يعتذر غوتام عن غيابه... ما زال الرجل الهندي يستخف بالمرأة، ولا يأخذها على محمل الجد، فكرت تشامبا بحزن. أو ربما لم يعد لي أي احترام. إنه لا يطيق أن يتصرف مع طلعت على هذا النحو.

رأى غوتام حقيبة سوريجا الآسامية الخالية على كرسي، فأودعها الظرف بحذر، ثم خاطب تشامبا:

«تبدو حانقة عليَّ لسبب ما...»

«لستَ إلا مرتزقاً خسيساً يا غوتام. بدأتَ فجأة تلاحقني بعد ست سنوات...جعلتني مطية لهواك من أجل إنجاز مهمة نيابة عن شانتا. طلبتَ مني أن أتنازل عن بيل، ففعلت، وعادت شانتا إليه، ثم أسقطتَنى من حسابك للمرة الثانية كما يسقط الطوب الساخن من اليد... هل هذا من بواعث الشرف بالنسبة إليك؟»

«لطالما قلتُ لك يا تشامبا، إننى لست كريماً». ردَّ غوتام بقسوة، ثم

أضاف، الساعة الثانية ظهراً، ولم أتمكن بشكل أو بآخر من الاتصال بنوّاب كمّان.

قالت تشامبا متهكمة: «هكذا هي حالات عدم اليقين التي تحيلنا إليها الحياة».

«تتصاعد النوتات الموسيقية تصاعد الأمواج... تبعث على الشعور بالسرمدية». نبس غوتام بعد هنيهة من الصمت، استمع خلالها إلى صوت الموسيقى المنبعث من بيت آشا. «على أنهم - يبدو لي - يتوقفون قبل أن يصلوا إلى نقطة الانسجام التام». هب قائماً، وعزف نغمة متتابعة (Arpeggio) على البيانو. «ينقص المقطوعةَ نوتة في «سي» الأسفل.. لابدَّ أن الفئران هي التي فعلت ذلك، تسكن أحياناً داخل البيانو، وتأكل اللباد.... في بلدي بهرائتش، ثمة فأر سمين متقدم في السن كان يعزف مثل هذه المقطوعات الصعبة، وهو يجري ذهاباً وإياباً على الأوتار، حتى في ظلمة الليالي الحالكة. ظنت أمي أن جناً سيطر على البيت، إلى أن اكتشف الخدام حقيقة العازف الفأر».

«عزف مقطوعة لڤاغنر في بهرائتش! أجد الأمر مستغرباً». عقّبت تشامبا.

شرح غوتام: «انظري، مثل أناس غولفيشان، أنتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا المتفرنجة. كان أبي قاضياً في المحكمة العليا في إله آباد، وقد وظف عازف بيانو من الطبقة الإنجليزية الهندية، لكي يعلمني العزف على البيانو. استمرَّ في تعليمي حتى الصف السادس، حين رحلتُ إلى شانتي نيكايتن....». إنها المرة الأولى التي يحدثها فيها عن حياته الشخصية. «أقام أبي في مسقط رأسنا بهرائتش بعد تقاعده من الخدمة، لقد أحببتها حباً جماً». أضاف غوتام بلهفة. قبل دقائق، نعى عليها عدم ولائها لوطنها باناراس، ولكن هل يستطيع هو بصفته دبلوماسياً أن يحس براحة البيت وشعور الوطنية في مدينة صغيرة متربة غير ممتعة.

طرحت عليه سؤالاً، «هل تود أن تعود إلى وطنك بهرائتش بعد التقاعد مثل أبيك؟ ألا تفضل أن تبقى في لندن أو نيويورك؟»

نظر إليها نظرة إعجاب... بزته بذهنها الذي انطلق بسرعة البرق، وهزم ذهنه.

ها نحن هنا... أنا وهي. أخيراً... أخيراً... بات متوتراً.. فاتجه إلى النافذة... يعيش بعضنا تحت رحمة الآخر، وقد قيدنا الوقت بسلاسل، وإن كان الوقت كائناً غير حقيقي أيضاً. نظر إلى تشامبا التي بدت غير مهمة تماماً وهي جالسة هناك أمام المدفأة... غير مهمة وتافهة مثله تماماً.

دخلنا من أحد الأبواب، وقد باتت الآن كلها مغلقة، وفقدتُ المفتاح كذلك.

«ماذا تريدين أن تفعلي الآن؟»

سأل وهو مقطب وجهه، فردت، «أوه، سأتناول العشاء في ميديل تيمبل».

«لا طائل من ذلك تشامبا، لن نستطيع العثور على المفتاح بالاعتماد على كلمة السر، دعي عنك هذا». ذرع الغرفة، وهو يدقق في تماثيل برونزية، وينقر على رؤوسها، ثم قال وهو يلمس أنف تمثال إلهة الهندوس في الجنوب، «لأنك أنت التي ستتورطين وليس أحد غيرك في كل مرة تظنين أنك وصلت إلى قرار وأن كل شيء سيصير على ما يرام. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، تشامبا العزيزة... ثمة المزيد من المشاكل في طريقها إليك».

عاد إلى النافذة... ظل الوقت يغزل نسيج الزمن، تصل دوامته إلى أقاصي الأرض... غرقت فيها بحار الخلود... ستهدأ رويداً رويداً، تتناوب بين الإشراق والخفوت مثل فانوس في ليلة عاصفة. تسللت الأنوار إلى الغرفة

وانزلقت على ثلوج تغطي الحديقة... ينبئ المشهد بكمال التصميم.... بقيت جالسة بجانب المدفأة دون حراك. في الخارج، مرت السيارات عبر شارع مايدا فيل... دخل المتسوقون محل البقالة وخرجوا منه... عكست الكنيسة القديمة المكسوة بالطحالب عند المنعطف ظلالاً مخيفة على الشارع.

الوجود كله كتاب بالنسبة لي، قرأته وسأظل أقرأه حتى أنفاسي الأخيرة. حدثت تشامبا نفسها مستسلمة.

قال غوتام، «عالمان يتميز بعضهما عن الآخر، يتعاركان في داخلي طوال الوقت، يضم أحدهما هؤلاء الناس»، أشار غوتام إلى الغرفة بصورها وكتبها، مضيفاً، «في النهاية نعيش نحن، أنا وأنت وحدنا... يربط بيننا جسر.. ماذا سيحدث إذا انهار هذا الجسر المتداعي؟»

أجابت تشامبا، «ستفجر الجسر بنفسك».

«كلا.... نصب هؤلاء الناس بنادق رشاشة في كل مكان بجانب المدافع المخفية وراء الشجيرات... إنها أفظع حروب الغابات التي يمكنك أن تتصوريها... والسحب ترعد في السماء فوقنا.... يخامرني إحساس أن هذا العالم الآخر سينزلق بين ليلة وضحاها إلى الهوة الفاغرة تحتنا، وسيتركني وحيداً خارجها، أجاهد لاستعادة نفسي.... يا له من خيال رهيب!»

«أنت تختفي وراء العوارض، تحمل المشعل، الذي تحوله في جهة أحد ما يظهر للعيان، فيفضح الضوء سر ذلك الشخص المسكين.. لطالما لجأت إلى هذه الوسيلة». تذكرت تشامبا الحوار الذي دار بينهما في كوخ «سيتا ديكشيت» منذ سنوات.

قال غوتام محتجاً، «ولكن أنا نفسي دائماً تحت الضوء».

«كلا... أنت تنكر نفسك بدهاء، وتخفيها بين نباتات الخطمي...

هـل يمكنـك تصـور ما سـيحدث لـو حُول الضـوء إليـك؟ أعرف أنـا ماذا ستفعل،.... ستقفز من مخبئك وتهرب! ستتسـكع وتحـاول التلصص علينا مـن النوافذ المضيئة، لتجدنا جالسـين حـول المواقد الدافئـة، نأكل ونتحدث ونطبخ العشـاء... سـتجيء وسـتمشي خلسة على قرميد السـقف مثل سنور متشرد رشـيق الخطى.... وسـنرى وجهك في زجاج النافـذة في ضوء القمر فنصيح.. «يا غول»».

«وفي تلك اللحظة، لن يخطر في بالك أبداً أنني موجود بينكم، أشـارككم في نقاشاتكم حول الموقد وعند الطبخ والأكل... لا... سترينني أتلصص من خلال النافذة.... «يا غولة»»

وبعد صمت قال غوتام، «يبدو أن كمال لن يعود أبداً».

«ها، ما زال سـؤال ماذا بعد قائماً. السؤال الذي سيمتد حتى الموت، وإلى الأبد... سيسـتمر أقوى من قبل... كانت تشـامبا تحدث نفسها... لن ننتهي أنا وهو إلى مصير.

ذهب غوتام إلى الحمام عبر ممر آخر للغرفة، خرجت تشامبا إلى الحديقة... وإذا بالهاتف يرن، عادت بسرعة، ولم يزل غوتام داخل الحمام. أخذت السماعة، فجاء صوت ممرضة من ليدهورست، «ممكن أن أتكلم مع السيدة أهوجا؟»، ثم انقطع الخط.. ماءت قطة سوريخا السوداء تحت الطاولة، وهرع غوتام إليها متسائلاً بفارغ الصبر:

«من المتصل؟»

ردت وهـي ترتجف مذعورة: «لا أدري. كان الاتصال من ليدهورسـت ولكن انقطع الخط».

وجـدت غوتـام يتحـول فجـأة إلى ناسـك رمـادي الوجـه... مخيـف...

مرعب... مثل آلهة «شيوا»، يوشك أن ينفجر في رقصته المدمرة...

«لقـد انقضى اليوم كلـه ومازلت معلقاً هنا.... مـاذا أفعل هنا... أتحدث عن سـفاهات فارغـة..». اندفع إلى الردهة. لمح عند البـاب طرداً من الكتب موضوعـاً عـلى طاولـة جانبيـة، كُتِـبَ عليـه، «إلى نيرمالا مـع خالص الحب والدعاء لشفائها العاجل من سوريخا».

أمسـك به بشكل عشـوائي، واندفع خارج الغرفة. ركب سيارته وساقها بجنون نحو ليدهورست.

مسـحت تشـامبا قطرات العرق الباردة عـن جبينها، وجلسـت منهارة. لمحت بعد دقائق الحقيبة الآسـامية التي وضع غوتام فيها الظرف المرسـل إلى كمال. وقد نسي أن يأخذه معه بسبب عجلته.

توقف الغناء فجأة في شـقة آشـا، وسـاد صمت مشـؤوم. حررت القطة الفارسـية السـوداء نفسـها من بين أسـلاك التلفون التي أوقعت نفسـها فيها بقفزة، ورمقت تشـامبا بنظرة شـزراء. التقطت الحقيبة الأمامية، ثم خرجت وأغلقـت الباب. وضعت المفتاح في صندوق بريد آشـا أمـام البيت المجاور، وانطلقت مسرعة إلى محطة الميترو.

على رصيف المحطة، التقت بجون كارتر التي كانت عائدة من حفلة آشا، بدت عليها أمارات الحزن. سألت، «هل بلغك..؟»

«لا.. ماذا؟»

«ماتـت نيرمـالا في السـاعة الثالثـة والنصـف اليـوم. حاولـوا الاتصال بسـوريخا، ولكـن لم يتلقـوا أي رد منهـا، فاتصلـوا بآشـا... تشـامبا، أنت في حاجة، وأنا كذلك، إلى جرعة كافية من براندي نابليون.. تعالي نذهب...»

ذُهِلَت تشامبا من الصدمة، وارتجفت رجلاها... وصل القطار وركبتاه...

شعرت تشامبا بالغثيان، فجلست ووضعت الحقيبة بجانبها على المقعد. وبعد مرور عدد من المحطات لكزتها جون، «لننزل في المحطة القادمة».

نهضت تشامبا وهي في شبه غيبوبة، نسيت الحقيبة على المقعد، تبعت جون بلا وعي إلى المصعد كالكلب الإسباني. خرجت الاثنتان من المحطة إلى الشارع، ثم دخلتا حانتهما المفضلة التي سمتاها «الدوقة وقطاع الطرق» تكريماً لزيارة دوقة كينت الحالية لمالايا المضطربة.

61

اللوريلز

تقـع اللوريلـز في نهاية ذلك المـكان الهادئ، حيث ترامـت أمامها حديقة الأحجار وبركة البط. اكتظت الردهة بلوحات رسـم كاملة وأخرى ناقصة، تضمنت لوحة ناقصة لنيرمالا، توحي بالغرابة.

ما زالت بيوت كثيرة في إنجلترا دون تدفئة مركزية. خلال فصل الشـتاء، تظهـر زرينـة بيجوم في بنطلـون جينز ولفاع يلف رأسـها الأشـقر، تتردد إلى سقيفة في فناء دارها الخلفي لإحضار الحطب للمدفأة. ما إن أشعلت النار في مدفأة صالة الاسـتقبال حتى عمت الحرارة المنبعثة من نار الحطب، فامتلأت الـدار دفئاً وأمناً. جاءت زرينة وإخوتها الصغار إلى إنجلترا لإكمال دراسـاتها العليا فور تقسيم البلاد. اشترى أبوهم بيتاً سماه «اللوريلز» (على اسم زوجته الإنجليزيـة لورا)، ثم عـاد إلى وطنه، الله آباد، والآن يـزور عائلته في إنجلترا كل ستة أشهر.

غطى الثلج المكان. مر أسـبوع على وفاة نيرمالا. ذات مسـاء حزين معتم بينـما كانـت زرينة تجلس في المطبخ، رّن جرس البـاب. كان إخوتها في أوروبا مـع زملائهم من المدرسـة، في حين كانت السـيدة حسـين تشـاهد التلفاز في الطابق العلوي. رّن الجرس بشـكل متواتر، فقامـت زرينة وأطلت من نافذة الشرفـة لتجـد غوتام نيلامبار يحـوم على درج الرواق بوجهه نصف المسـتور

باقـة معطفـه المطـري المرفوعـة. غطت الثلـوج الذائبـة حذاءه الشـتوي... مـن البديهـي أنه وصـل إلى هناك مشـياً عـلى قدميه. أوحـت هيئتـه بالغرابة والغموض. لأسـباب مبهمة، توجسـت زرينة منه خيفة، برغم ذلك فتحت الباب على حذر، لكي يدخل البيت.

«أهلاً بك أستاذ غوتام».

حيتـه وهـي تحاول أن تبدو على ما يرام. أنـزل حقيبته عن منكبه ورد على تحيتها بوقار.

«انزع حذاءك من فضلك غوتام» اقترحت عليه زرينة بلطف.

«لا... فأنا أنا مسافر إلى الأزل، لا أريد دخول غرفة الاستقبال. البيوت بالنسبة لي لا تحمل أي معنى». انحنـى قليلاً ليلتقط حقيبته، ثم قال لها بنبرة خطابية: «أنا البائع المقدر له السفر إلى الأبد، أحمل نماذج الحيوات المدمَّرة. هل تحبين أن تلقي نظرة؟»

«غوتام، أغلق الباب من فضلك»

فقال بقلق: «معي عدد كبير من الناس يقفون تحت الثلج في الخارج».

«ادعهم إلى هنا».

«و كيـف لي ذلك؟ لن تسـتطيعي أن تري وجوههـم في وهج هذا الضوء الساطع».

«ومن هم، غوتام؟»

«غيلان وجثث.. يتبعونني بإخلاص حيثما أذهب».

«لا بأس، ادعهم إلى الداخل، لن أخاف منهم».

«ولكـن يجـب أن تخـافي.. لأننا نحن أيضـاً آخذون في التحـول إلى جثث رويداً رويداً».

قالت برفق: «غوتام، أخيراً رجعتَ من المكان الذي رحلت إليه كان اختفاؤك المفاجئ محيراً للغاية. لقد قلقنا عليك قلقاً شديداً».

«أقدر لطفك وأنا شاكر جداً لك».

«أعني أنني أرحب بك غوتام في البيت... أينما كان ذلك البيت... وهو... مخيم المرور العابر بالنسبة لك عقب كل رحلة.... وهلم جرا...»

«لا عليك.... أنا أقبل ترحيبك».

قال متظاهراً بعدم الانفعال، ثم جال ببصره في أرجاء البيت وأضاف: «ليس هذا البيت الذي كنت تعيشين فيه من قبل.... بيت العمّة لورا».

«بل هو نفسه، أستاذ غوتام».

«حسناً.... لا بد أن يكون هو نفسه كونك قلت ذلك». ثم تساءل، «هل مسني الجنون؟»

«لا بالتأكيد... ولكن تبدو متعباً بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر».

ظهرت السيدة حسين التي هبطت الدرج، وهي ترتدي معطفها المنزلي الوردي وشبشب غرفة النوم. خيل إليه أنها الإلهة الرومانية الطويلة الجليلة بشعرها البني المسترسل. سلم عليها.

«يتعب الرجل حقاً بعد جري متواصل. أتعرفين كم مليون ميل طويت؟»

«أين كنت يا غوتام؟»

رد كطفل، «ولماذا يجب أن أخبرك؟ أمضيت عشرات الليالي في الغابات، نمت فى الحظائر المقفرة، اختفيت في الزوارق المهجورة، وربضت في صالات انتظار محطات القطار».

«أكيد أنت تبالغ كعادتك يا غوتام... لقد اختلقت كل هذا في غيبوبتك...»

«لا. كنت أحاول مراوغة الشرطة..... واليوم عزمت على الاستسلام

والإقرار..»

«الشرطة، يا أماه!» صرخت زرينة في فزع مفاجئ.

«ظللت أتخبط بحثاً عن ملجأ. قرعت باب كل صديق، تلصصت عليهم من خلال نوافذ بيوتهم، فوجدتهم جالسين حول المدافئ الحارة، يتجاذبون الحديث، أما أنا فبقيت واقفاً في الخارج، في المستنقع، مبهوراً بضوء الكشاف».

كرر بلا وعي منه حديثه مع تشامبا في ذلك اليوم المأساوي الثقيل الذي قضاه معها في غرفة سوريخا المطلة على الحديقة.

هبطت السيدة لورا وقالت:

«غوتام! إنه في حالة سكر.. اسكبي عليه إبريقاً من الماء... هيا أسرعي!»

أهرقت زرينة الماء عليه امتثالاً لأمر أمها. هز رأسه مثل كلب مبتل أشعث، ومسح قطرات المياه عن وجهه، سلم عليها مستديراً على قدم واحدة. «مساء الخير سيدتي!».

قالت السيدة حسين بصرامة: «كفاك أيها الشاب! نحن كلنا نحب في بعض الأحيان أن نتمتع بضرب من الاغتراب عن ذواتنا، ولكن يجب أن لا تسرف في التمثيل». لقد توصلت السيدة حسين إلى كنه الأمر... إثر وفاة نيرمالا، حاول إغراق شجونه في الكأس. قادته بخطى ثابتة إلى المطبخ.

«الآن خذ كأساً وحدثني برحلاتك الميتافيزيقية كلها، ولكن حذار أن تعتبر نفسك بطلاً لبعض التراجيديات الإسبانية».

«ولماذا الإسبانية. التراجيديا كونية، عمة لورا، لا تقيدها حدود». أعلن غوتام رافعاً سبابته. أطل من النافذة، ثم استدار وقال بنبرة خطيب:

«بذلك أعترف..». عاد إلى كلامه غير المترابط.

وبعد أن جمع شتاتِ كلماته في اعتراف متسق، هرعت زرينة إلى الممر

لتتصل بأصدقائها المقيمين في سانت جان وود. كان كمال، وطلعت، وهاري لحسن الحظ موجودين في البيت. ردّ كمال عليها فأخبرته بنبرة هامسة، «لقد جاء غوتام، ولكنه في حالة مشوشة مُقلِقة. يحاول أن يكون مضحكاً، يبدو أن لديه شعوراً مبالغاً فيه بأهميته الذاتية، كأنه بطل في مأساة مسرحية....»

«السكارى كلهم يتمادون أحياناً في الميلودراما». أجاب كمال متجهماً وأضاف، «هل تعرفين أنه اختفى فجأة من ليدهورست، تركني أنا وهاري نقوم وحدنا بترتيبات مراسم جنازة نيرمالا... الوغد!»

«والآن يتكلم عن الحيوات المدمرة وأمور كهذه. يقول إنه تركها تموت، وترك تشامبا لتصبح مدمنة على الخمر، وإنه ضيّع الظرف الذي يحتوي على خطاب استدعائك للمقابلة، ففوت عليك الوقت، وبذلك أصبح هو المسؤول تماماً عن ضياع فرصة وظيفة محتملة لك، لذلك هرب من ليدهورست. والأمر أنه حين كان يناقش الفلسفة السامية مع تشامبا باجى في غرفة سوريّا المطلة على الحديقة، تسلم مكالمة هاتفية من ليدهورست، ولما وصل إليها لم يجد إلا أربع شاشات بيضاء بجانب سرير نيرمالا الشقية.... استبد به إحساس بأنه هو الذي قتلها، فهرب إلى المدينة ليشرب حتى السكر، ثم اكتشف أنه قد قتل تشامبا أيضاً، ليس في الواقع وإنما على سبيل المجاز، فحين راح يشرب الخمر في «الدوقة وقطاع الطريق»، رأى تشامبا هناك. فبدت محطمة تماماً، وبدا له أنه أصاب عصفورين بحجر واحد. ضحكتُ في نفسي... ها ها...».

ضحكت زرينة ضحكة جوفاء، «كوميديا سوداء».

«مجرد هراء، يتكلم به سعياً للتستر على اختفائه الشائن من ليدهورست...

اطرحيه في بركة البط».

«بركة البط متجمدة».

«أوه لا بأس، سنصل إليك حالاً وسنرده إلى صوابه... إلى اللقاء».

قطع كمال المكالمة. حين وصلت زرينة إلى المطبخ وجدت غوتام غائباً عن الوعي.

62

الهاربة

«مـن الآن سـوف تنشر طلعت وجماعتها إشـاعة أننـي صرتُ مدمنة على الخمر».

«وهـل صرتِ حقـاً كذلـك؟» سـأل نيـل وهو منغمـس في إعـداد الخبز المحمص.

«لا أبـداً». ردت تشـامبا وهي تطـلي أظافر أصابعها. جلسـا صبيحة يوم الاثنين الذي خيمت عليه الكآبة في المطبخ المتهدم في بيت جون كاتر الصغير.

«مع أن طلعت رضا اتصلت بي قبل قليل هاتفياً معربة عن قلقها البالغ، وقد لّمحت لي، بشكل غير صريح، بأننى يجب أن لا أشرب وأنا وحدي».

«وهل تشربين وأنت وحدك؟». سألها نيل بنبرة طبيب.

«لا... نعـم... ولكـن بعـد أن سـمعت عـن... سـمعت أن نيرمـالا قد توفيت... وبعد أن أدركت أني ضيعت الخطاب المرسل إلى كمال بشأن إجراء مقابلـة شـخصية لشـغل وظيفة، وبسـبب ذلـك لم يتمكن مـن حضورها في الميعاد».

«عليك أن تخرجي إلى الدنيا وتواجهيها!... لا بد أن تلتقي بالأشـخاص أنفسهم الذين ظللت تحاولين تجنبهم مختبئة هنا منذ أسبوع»... «اذهبي!»

«اتصلت بي شـونيلا موخرجي مسـاء أمس تبلغني بأنها ستنظم نوعاً من

القداس الجنائزي لنيرمالا الراحلة، الساعة الحادية عشرة اليوم، في مركز غيتا، ومن المحتمل أن يحضروه جميعاً». «هل ينبغي أن أحضره أنا كذلك، يا نيل؟» سألت بخجل.

فكرر، «اذهبي... أعلني للدنيا أنك تشامبا أحمد، ولست خائنة وجبانة، وأنك فتاة طيبة القلب. كما يجب أن تعي أنه لا يوجد شخص بمفرده، ودون صديق، لا بد أن ثمة أشخاص يهتمون بك ويحتاجون إليك».

أعادت كلمات نيل المشجعة إليها بعض ثقتها بنفسها. انتهت من احتساء الشاي، ونهضت عن الكنبة المحشوة بشعر الخيل. ارتدت الساري الحريري الوردي القديم الذي تحبه، وهبطت الأدراج خارجة.

« لم يحضر أحد حتى الآن». شكت سوجاتا ديبي حين فتحت البوابة الأمامية. «لا بد أن أخا نيرمالا وأصدقاءها كلهم ملحدون. لقد قام لوما ديبيكاناند جي بكل الترتيبات، ولكن من الواضح أنهم لا يريدون أن يسلكوا طريق السعادة القصوى «نيرفانا». تعرفين ماذا يفعلون الآن؟ بلغني أنهم مجتمعون ومنغمسون في لعب الورق».

«عن ماذا تبحثين؟» خاطبتها امرأة أمريكية من كاليفورنيا كانت تطل برأسها من النافذة. «إنه هنا.... إنه يدعوك... يدعونا جميعاً إلى نفسه هو..». قالت مشيرة إلى صورة هائلة للإله «كريشنا»، في قاعة مركز غيتا. «إنك في حاجة إلى تلك العين الثالثة لرؤيته، العين الثالثة التي فقدتموها أنتم الهنود للأسف....»

اندفعت تشامبا خارجة، وما إن وصلت إلى حافة الطريق، حتى حاولت لمس جبينها بإصابعها برفق.. خيل إليها أن جميع المارة يحملون عيناً ثالثة على جباههم، تحدق فيها باستمرار... ركبت الحافلة لاهثة، ثم ترجلت قرب

مركز الطلاب الهنود في شارع إكزيتر.

جلست مجموعة جديدة من الطلاب في القاعة الصغيرة يتبادلون أطراف الحديث بسعادة.

«أنا تشامبا أحمد».أعلنت تشامبا عند المدخل.

جاءت إليها فتاة من جنوب الهند فسألتها بارتياب، «ماذا تريدين؟»

توقفت دقات قلبها... لم يحمل اسمها أي أهمية... كان نيل مخطئاً... لم يعرفها أحد، لا يوجد أحد في حاجة إليها.

تمتمت وقد باغتتها موجة مفاجئة من الذعر، «لا شيء... لا شيء مهم... لا بأس.. حضرت فقط لزيارة مركزكم الاجتماعي...»

نظر الجميع إليها بارتياب.

فى شارع إستراند، دخلت عبر بوابة البيت الهندي، التي زينها تمثال الفيلين.

«أنا تشامبا أحمد». أعلنت برزانة عند مكتب الاستقبال في المطعم. لم تتفاجأ قطعاً بتماديها في الحماقة.

سألتها سيدة مالايالية في أواسط عمرها جالسة وراء جهاز الحساب، بلهجة لائنز كورنر هاوس. «ماذا تبغين يا عزيزتي؟ لقد انتهى وقت الغداء، ولكن يمكنك طلب وجبة خفيفة إذا شئت».

«لا، شكراً». قالت وقد ازداد اضطرابها. في زاوية بعيدة لمحت غلشان، زوج سوريخا المتهكم، يحتسي القهوة منغمساً في صفحات «ذي إيكونوميست». هربت من البيت الهندي كذلك،متجهة إلى مطعم تشيكين إن.

وجدت فيه كمال الذي كان يهاتف مكتب توماس كوك. تفوه ببعض

كلمات المجاملة اللطيفة العادية، ثم غادر بسرعة. ظلّت واقفة قرب الباب الزجاجي تراقبه، وهو يختفي عند نهاية شارع أكسفورد. في اللحظة التالية، أطلت على مطعم هيئة الإذاعة البريطانية في أسفل الطريق. جلسوا كلهم حول الموائد غير المرتبة يتباحثون بحماس. «اسمي تشامبا أحمد» كادت أن تلفظ اسمها ولكنها توقفت.

ظلت تتفرج على المحلات لبعض الوقت وهي ساهمة، ثم تناولت وجبة خفيفة من السندويشات في لائنز كورنر هاوس الذي طغت عليه الكآبة. لقد استنزف الفراغ الذي واجهته قوتها، وأنهكها خواء كل ما كانت مقبلة عليه، فاتجهت إلى محطة مترو تحت الأرض، وبشكل آلي اشترت تذكرة لواررويك أفينيو. خرجت من مايدا فيل واستندت إلى شجرة بلا أوراق. عاشت سوريخا وآشا بجانب طلعت وكمال في ذلك الحي. أضيئت المصابيح داخل المنازل السامقة الفخمة، فبدا كأنه منظر شارع هادئ، رُسم على بطاقة عيد الكريسماس.

خرجت سوريخا من محل في زاوية، تحمل كيس مشتريات من البقالة، وما إن لمحتها حتى نادت، «أهلاً تشامبا، لماذا تقفين هناك؟ تعالي معي...».

تبعت سوريخا «الراقصة» مطيعة. دخلت سوريخا شقتها، واتجهت إلى الغرفة المطلة على الحديقة. ما زال ضوء خافت من النهار يشع خارج بابها الزجاجي. سقط عدد من الأوراق اللامعة واستقرت على الأدراج، وشكلت بقايا أشعة الشمس المائلة إلى الغروب دائرة ذهبية على العشب...

ما الذي يطلبه الإنسان في حياته حقيقةً؟

قالت سوريخا بتودد، «استريحي يا تشامبا وكأنك في بيتك».

لن تعود الغرفة إلى ما كانت عليه في ذلك اليوم حتى لو جلستُ على هذه

الأريكة. فكرت تشامبا دون أن تعي أنها كانت تفكر بصوت عال.

ذلك اليوم....؟.. «أي يوم، تشامبا؟ كيف كانت الغرفة؟» سألتها سوريخا وهي متجهة إلى المدفأة.

«لا أدري».

حل الظلام على الثلوج البيضاء النقية لدرجة القداسة، وبدا الوجود كأنه مجرد وخفيف. لفت سوريخا جسمها بشال كشميري ذي لون ذهبي، وأشعلت المدفأة قائلة: «كثيرون سيغادرون قريباً إلى وطنهم».

«من؟» تساءلت تشامبا دون اهتمام. فجأة اكتنفها شعور بأنها لم يعد يهمها أحد. ومثل الطقس النقي، أصبحت فوق كل شيء، وتخطت حدود كل الأمكنة... لم يعد بها حاجة إلى مواقف معينة وإلى شخصيات خاصة..... لم تعد تمت بصلة إلى شيء ولا إلى أحد.

جلست سوريخا على السجاد تقشر البطاطس، ثم ردت: «كلهم تقريباً. هاري سيغادر على طيران الهند حاملاً محرقة رماد جثة نيرمالا المتوفية، وكمال سيُسافر بحراً، أما غوتام فسيتجه إلى نيويورك، لقد استعاد نفسه من الخمر الذي انغمس فيه في ذلك اليوم، ربما أصيب حينها بانهيار عصبي».

دقت ساعة «بيغ بن» الهائلة على محطة الإذاعة البريطانية، وحل الظلام سريعاً على الحديقة، ظلام الليالي الشتوية، الذي ينقض على الدنيا دفعة واحدة. ذهبت تشامبا إلى المطبخ كي تساعد سوريخا. كان أثر بياض المساء قد غاب وحلت محله ظلمة الليل. عادت تشامبا إلى الغرفة لتجدها خالية. تغير كلِ شيء... الظلال وآلة الـ«بالالايكا» الموسيقية، والدمى المجرية، وتمثال الراقص ناتراج البرونزي... انقضى الوقت أسرع من ذي قبل.

عادت إلى زقاق جون كارتر، وصلت إلى باب الردهة، ومدت يدها

لإنـارة المصبـاح، وإذا بظـلام متمـوج يسـتقبلها. فكـرت أن الظـلام حتـى اللحظـة، كان ضدهـا، ولكن ربما يصبـح حليفها. تدفق إليهـا الهواء، موجة بعـد أخـرى، عبر سـقف البيت المعتـم. أصغت لحفيف الأعشـاب من بعد، وسـقوط الثلوج عـلى أوراق البلوط. مـرت مياه الليـل متدفقة على الأرض وقـد تفرقت مجاريها. أطلقت ضحكة، الأرض تحـت قدمي صلبة وحقيقية، يجب أن أواصل الدوس عليها حتى لحظتي الأخيرة. إلى أي مكان ستحملني قدمـاي؟ سـوف أبلغ ضوء النهار متشـبثة بحبل الظلام. أيا هـذا الليل، منذ هـذه اللحظة فصاعداً، أنت صديقي. لقد عرفتك منذ أزمان؛ خلال موسـم الأمطار، ووقت تفتح الأزهار، وتحت البدور المكتملة، وأثناء ساعات طوال قضيتهـا أحضر للامتحانات، أو في قطع أشـواط بالقطار عـبر المدن الغريبة، عهدتك بكل نزعاتك وبكل ألوانك. قضينا، أنا وأنت، أوقاتنا معاً.. يوماً ما سوف تُكلل أنت بالنجاح.

ثم خاطبت نفسـها قائلة: أتركك في صحبة أحلامك... أنا حقيقة، فأنت لن تتوقفي عن الحلم.

ازداد الليل عتمة واشتد البرد. ارتطمت أمواج الصمت بجدران البيوت عـلى نحو مسـتمر. قال الوقت: يجب أن تعرفيني، لـن أتوقف عن مطاردتك أبداً. ظننتِ أن اللحظات ستتوقف عند محطاتها، ولكنك كنت مخطئة. انظري إليّ، وتعـرّفي عليَّ جيـداً. أنا أمضي ثانيـة بعد أخرى، متخفيـاً وراء تضاعيف الستر الثخينة، متلاشياً تحت غياهب الديجور. أنا ظلمات بعضها فوق بعض، أمثّـل الحـد الفارق الـذي لا تطيقين تخطيـه. ارجعي، فقد وصلـتِ إلى الحد. البـاب أمامـك، بـلاد جديدة ستسـتقبلك. عليـك الحصول على مسـتندات جديـدة للسـفر، املأي اسـتمارات جديدة، ضعـي توقيعك عليهـا كلها من

جديد. فككتُ الكثير من العُقد السحرية، وكانت عقدتك أبسطها. اعرفيني فسأستمر في مصاحبتك، لن تستطيعي الهروب مني. سوف يخذلك الجميع، ولكن أنا لن أخذلك. انظري إلى السرعة التي وصلتِ فيها إلى نقطة تفتيش.. كنت تواجهين صعوبة في الوصول إلى قرار، وأنا أحل كل المشاكل. من أجلي أنا وعن طريقي أنا، تُصنع القرارات، وتتجسد العزائم في الأعمال.

سوف تلاقين المزيد من المصاعب، ولكن سأعلمك طريقة معالجتها... تصالحي معي، فما زلت موجوداً هنا.

رفرفت ستارة النافذة بشدة بسبب عاصفة هوجاء. لقد غطَّى الصقيع الفناء، أدركت أنها ترتجف من البرد، فأغلقت النافذة، وهرعت إلى غرفتها في الطابق العلوي.

63

جرة الرماد

كانت طلعت تحرر مقالة لجريدة «ذي إيسترن وورلد»، في حين كانت سوريخا تقرأ كتاباً في تصميم حركات الرقص، أما زرينة فكانت منكبة على الرسم. سارت الأمور بأمان وحياد كالمعتاد. في الحقيقة، منذ وفاة نيرمالا، سارت الأمور بهدوء أكثر من ذي قبل.

«ألا يجب أن نفعل شيئاً بشأن طقوس وفاة نيرمالا؟» سأل هاري شانكار كمال، تماماً مثلما كان يسأله سابقاً «ألا يجب أن نفعل شيئاً بشأن زواج نيرمالا؟» كان عليهما أخذ ما يلزم من مقتنيات نيرمالا. هيا، تعالوا، يساراً، يميناً، إلى الأمام... خذوا أسلحتكم المجربة والموثوقة، وهاتوا دروع نيرمالا وأمتعتها القديمة التي لم تعد في حاجة إليها.

اتجهوا، عقب تلك التمثيلية الصامتة، إلى ليدهورست، وفي طريق عودتهم توقفوا عند حانة على الطريق حملت اسم «الشاي»، حيث كانوا يأتون دائماً لتناول الشاي تحت شجرة التفاح. بعد عودته إلى شقته في حي سانت جان وود، وضع كمال حقائب نيرمالا في غرفته التي يتشاركها مع هاري شانكار، ثم خرجا من جديد. دخلت طلعت غرفة كمال وأدارت بصرها. كان الرف الجانبي مكتظاً بأشياء غير مفيدة. لوحة المنظر الطبيعي المعلقة على الجدار، التي اشترتها ببضعة شلنات من كامدن تاون، مجلات وصحف قديمة،

وخـردوات، تحيـط حقائب نيرمالا وأمتعتها. شـعرت طلعـت أن الحياة على طولها كأنها محل خردوات، والموت بطاقة السعر.

وُضعـت جـرة صغـيرة على الـرف الجانبـي، تحتـوي على رمـاد كوماري نيرمـالا راي زادا. وقد قرر هاري شـانكار راي زادا، أقرب أقاربها، أن يتجه إلى بلـده، لكي ينثر رمادها في نهر غانغا المقدس في كاشي. خرج هاري وكمال رضا لإنهاء الترتيبات قبل السفر: شهادة الوفاة، والطقوس الدينية وغيرها.

تـراءت تذكـرة الرحلة إلى دلهي عبر طـيران الهند عـلى الطاولة الأخرى. كل شيء كان حقيقياً ومادياً؛ القارورة حقيقية، وكذلك الكرسي، والأريكة، وفناجين الشاي التي ابتيعت من متجر بثمن زهيد.

ما الذي يمكن أن يكون أبخس من حادثة الموت؟

يبكـي الناس على وفاة غيرهـم، ثم يموتون هم أنفسـهم. قضت نيرمالا أيامهـا التي تمتعـت فيها بالصحـة والعافية، تخطط للمسـتقبل، تجلس طوال الليـل أحيانـاً، تحـضر لامتحانـات الكليـة، تدعـو بحـماس للفـوز بالدرجة الأولى.... وإذا لم تكـن الدرجـة الأولى، فالدرجة الثانية يـا رب، ربما بامتياز في موضـوع أو موضوعين... حسـناً، أتوسـل إليك أن أجتـاز الامتحان على الأقـل... بالإضافة إلى أن أمور الوطـن والبلاد قد أقلقتها. ظلت دائماً تجادل وتحتـج وتقود مسـيرات الاحتجـاج، وتناقش مشـاكل الشـعب الاجتماعية والاقتصاديـة... وحينـما فـازت بالدرجـة الأولى، لم ترض إلا أن تُرسـل إلى جامعة كامبريدج، وأخيراً حصلت على زمالة (منحة) فطارت فرحاً.

في أيامها الأولى في كامبريدج، لم تكد تصدق أنها تتنفس في فضاء كامبريدج، وسرعان ما أقبلت على التخطيط...سوف تعمل وتساعد أباها كي يستطيع تسديد القروض العائلية... ستبحث عن عروس جميلة لأخيها

هاري شانكار... وربما بعد وقت حين تدخر بعض المال، ستقوم بجولة حول العالم.. ستزور أولاً منغوليا الخارجية، ثم المكسيك، وتشيلي، وبيرو وغيرها من البلدان...كانت مهووسة بمنغوليا الخارجية، مصممة على زيارتها مهما بدت بعيدة وخارجة عن خريطة العالم... كما كان يراودها حلم غامض بامتلاك بيت خاص بها، فيه بركة زنبق، ستسميه «نيلبادام كنج».

وطبعاً، كانت تواقة لشراء الساري من الهند، وعزمت على اقتناء طقم مجوهرات من أحجار اللؤلؤ والفيروز مثل طقم مجوهرات أختها المتزوجة لاج. وأحياناً كانت تعد قائمة ضيوف حفل زواجها. حضر أصدقاؤها كلهم الليلة، ولكن ليس حفل زفافها... العشاء يُجهز في المطبخ، وقعت ظلال سوريخا المتنقلة على النافذة. جلست طلعت على الأرضية، تحاول تغليف مقتنيات نيرمالا: الساري التقليدي، بلوزات، أحذية، جوارب، أساور، كتب. فتحت حقيبتها اليدوية التى احتوت على عدد كبير من تذاكر الباص، أحمر شفاه، وورقة نقدية من فئة خمسة جنيهات، وبضعة بنسات، ودبابيس شعر وفواتير..... انزلق مظروف من بين أوراق كتاب نصف ممزق، حمل علامة ختم البريد بهرائتش المشوه 1943. ظهرت منه صورة لامعة لغوتام. كان المكتوب قد أُرسل إلى أبوي نيرمالا بعد ما تقدما بالخطبة إلى والد الفتى غوتام وفق تقاليد الهندوس.

حدقت طلعت في الصورة بشرود، ثم أخذت قلم رصاص أحمر، وكتبت على المظروف: «*مكتب بريد الرسائل الضائعة*». وضعته تحت ورقات أخرى في صندوق أمتعة نيرمالا، ثم عادت إلى غرفة الاستقبال.

64

أغنية الريح في المروج الخضراء

«بمناسبة حفل زفاف الأخت تهمينة، سألبس «لاهنغا غانغا جاموني» تنورة طويلة مطرزة بالذهب والفضة. قالت نيرمالا وهي مترعة بالثقة بالذات. قالت مالتي برزانة امرأة محنكة:

«وأنا سأرتدي سارياً حريرياً محاكاً في باناراس». تبلغ مالتي، ابنة عم نيرمالا، ستة عشر عاماً، نيرمالا أصغر منها بعامين. وأنا أصغر من نيرمالا بعام. استمعت إلى حديثهما بإعجاب، لأنه لم يكن لدي إلا فساتين....

صمتت طلعت قليلاً ثم خاطبت كمال: «ألا ترى أن هذا لا طائل منه؟ ماضيي يخصني وحدي، ليس فيه ما يهم الآخرين البتة».

كرر كمال: «ماضيي لا يخص أحداً سواي».

«والدنيا لا تهتم إلا بالحاضر»، دوى صوت هاري شانكار.

جاء رد طلعت: «ولكن الماضي هو الحاضر والحاضر هو الماضي وأيضاً المستقبل.. هذا ما ذكر في القرآن أيضاً حول الزمن، مثلما قال لي عالم مصري ذات مرة في المركز الإسلامي، وقد سألني أن أقرأ ما كتبه محيي الدين بن عربي، العالم الأندلسي المتخصص في فلسفة ما وراء الطبيعة. ولكن إلى أي حد يمكنك أن تستمر في اكتساب العلم؟ الوقت ذلك الفتّاك المحتال الذي يستمر في اضطهادي. لماذا لا يتقدم أحدكم لمساعدتي؟»

أجاب هاري شانكار بقسوة: «حتى آينشتاين لا يستطيع مساعدتك، طلعت بيجوم».

«ما الفائدة التي يتوخّاها العالم من سوابقي، أجبني أنت؟» ألح كمال متسائلاً، ثم هرع إلى التقويم، وجد أن التاريخ 15 ديسمبر 1954، كانوا جالسين حول المدفأة في شقة دافئة بنيت قبل الحرب في سانت جان وود. ترنحت ظلالهم على الجدران في أشكال غريبة. كانت موسيقى موزارت شائعة في فيينا، مرت قطارات المترو اللندنية تحت الأرض مثيرة ارتعاشاً خفيفاً تحت الأقدام، تنقل آلاف المسافرين إلى وجهات غير معلومة عبر غياهب الأنفاق.

وفي غياهب الوقت، جلست طلعت مستندة إلى حافة البلكون في فيلا الكستناء المائي في شهر يوليو عام 1939، تتحدث إلى نيرمالا راي زادا التي لم تختلف عن نيرمالا في سانت جان وود، ومع ذلك، فقد كانتا شخصيتين متمايزتين. لقد قال بوذا: إن الإنسان يتبدل كل لحظة، وله شخصيات مختلفة متمايزة في طفولته وشبابه وكهولته. لم تكن أنت هناك قبل هذه اللحظة، ثمة الاستمرارية فقط... تعوم الكتلات الجليدية في البحار الشاسعة، وتعصف الرياح الزرقاء عبر الجبال الرهيبة. الوقت سائل. الوقت مائع. الوقت مجمَّد.

قال هاري شانكار: «نريد طمأنة أنفسنا بترداد حكايتنا، لأن الخوف يغلّفنا كالجحيم».

قالت طلعت: «الوقت سوف يلتهمنا، والظلام سيكون آخر ملاذ لنا.. مما يبعث على الأسى التفكير بأن غوتام نيلامبار، رغم فلسفته المتعالية، تبين أنه ليس سوى فأر مذعور حقير».

«دعي عنك غوتام نيلامبار وإلا سنبتعد عن القضايا الأساسية. المهم أني

كنت هاري شانكار قبل أربعة عشر عاماً، وسأبقى هاري شانكار بعد أربعة عشر عاماً، وبعد كل اختبار سنخضع له عبر الوقت، سننتهى إلى الفناء دون أن نصرخ مثل خنازير غينيا».

أومأت طلعت بالموافقة، رغم أن آلاف الشخصيات مثل طلعت تعيش في أمكنة متعددة متشظية في قطع لا تعد ولا تحصى، فإن الوجه الواحد نفسه ينعكس في قطع المرآة المكسورة. بوسع الإنسان أن يسافر إلى الأمام، ولكن لا يسعه أن يرتد إلى الوراء.

تفحص كمال وجوه الجميع من خلال عين الذبابة: مايكل، بيل كريغ، غلشان، سوريجا... انتقل للمرة الثانية بسرعة وهو يطنُّ، فاستقر على رأس تمثال بوذا الضاحك.. ثم طار إلى التقويم، وراح يحّوم فوق تاريخ 15 ديسمبر 1954. لماذا نقلق نحن الذباب إذا مات أحدنا؟ هل سنذهب إلى الجنة أم الجحيم بعد ما نتوقف عن الطنين؟

سيسافر هاري شانكار إلى الهند صباح غد مبكراً، وقد قرر بعد مناقشات واسعة أن يحمل جرة رماد شقيقته نيرمالا في حقيبته اليدوية. استحالت نيرمالا بكل بساطة إلى قطعة متاع تحمل بطاقة طيران الهند. ستنقل الجرة إلى منطقة كاشي المقدسة بالقطار، وسينثر رمادها في نهر الغانج وينتهي الأمر.

كررت طلعت وهي تهز رأسها في حزن، «فأر مذعور حقير رغم كل تبجحاته المعروفة».

«وما هو غوتام؟ ليس إلا مجرد وهم».

أسرعت طلعت إلى مقاطعته بسأم: «أوه هاري، لا تشرع في التباهي بفذلكَاتك، الساعة الحادية عشرة صباحاً».

خيم الصمت برهة من الوقت... وخيل إلى طلعت أنهم كالدمى الخرساء.

شرطي يمسك بندقية من القصدير، إنه مايكل. فيلسوف شرقي عريق ذو وجه حزين وشعر رمادي، إنه هاري شانكار. راقصة ذات عينين لوزيتين من بلاط الإمبراطور تشاندر غوبت موريا، إنها سوريخا. النواب كمّان، حداثي النزعة ذو ثقافة تقدمية من بلاط الملك غازي الدين حيدر وواجد علي شاه، إنه كمال. انهمك الجميع في تزيين الكوات المنحوتة في الجدار؛ دمى الطين لعيد الأنوار «ديوالي»، تماثيل مصغرة نحتها الخزافون البارعون من لكناؤ القديمة، أحدها لنيرمالا، سقط وتحطم، فباتت إحدى الكوات خالية.

ثمة اعتقاد شائع وسط المسلمين في الهند، أنه إذا ضاع أحد ولم يعثر له على أثر، استدعوا عاملاً، أي مسلماً يمارس عمليات الرقية، إذ يأخذ قليلاً من سناج المصباح، ويخلطه بشيء من السمن، ثم يضعه على ظفر إبهام يمين طفل بريء، ويتلو آيات من القرآن الكريم، بعدها يرى الطفل على ظفره المكان الذي يوجد فيه الرجل الضائع. كان قدير يقول: «يأتي الكناس أولا لتنظيف الأرض، يتبعه سقاء يرتدي مريلة حمراء، يرزح تحت ثقل قربته، ويرش الماء عليها، ثم يُحضر عرش، فينزل ملك الجان ويجلس عليه، ويتاح للجميع أن يعرفوا كل ما أرادوا معرفته.»

حدقت طلعت في إبهام يدها، ولكنها لم تر إلا طلاء الأظافر من صنع «كوتيكس». فكرت وقد غمرتها السعادة. «أتمنى لو كنا في نيلامبور، لأخبر قدير المولوي في القرية أننا فقدنا نيرمالا، التي ما إن لبست الطاقية السليمانية[1] حتى اختفت عن العيون. أرجوك أن تبحث عنها. ربما سحرها أعداؤها بالسحر الأسود، لقد توفيت ولم تزل في شبابها».

شاهدت بيل ومايكل يتابعانها بقلق، حين حدقت في إبهام يدها اليمنى

(1) الطاقية المنسوبة إلى النبي سليمان عليه السلام.

وهـي في شـبه غيبوبة. قطبت جبينهـا. هل ينبغي أن أحدثهـم بهذه الأعراف السـحرية لدينـا؟ لا! لا لأنهم سيستهزؤون بنا. أحقاً تؤمنـين أنت بالرقية؟ وسـيفكرون، على أي حـال، أنها عادات شرقية رجعيـة متخلفة من العصور الوسطى، لا تستطيعون مسايرتنا نحن الغربيين المنتمين إلى عهد ما بعد حركة الإصلاح.

هـل ينبغي أن أخبرهم بحكايات السـحر الأسـود الذي يُـمارس في ليالي عيد الأنـوار غير المقمـرة؟ وعن مصاصـات الدماء الشـمطاوات بأقدامهن المعقوصـة، اللـواتي ينطقـن بأنوفهـن، ويعشـن في أجمـات البامبـو خـلال موسـم الأمطار، وعلى أشـجار بيبال في الظهيرة أثناء الحر، ويأكلن الشـباب الوسـيمين..... وأنـه يوجـد لدينـا كـون مـن الخلائـق البراقة، تسـمى آلهة وملائكـة، مصدر الفرح الأبـدي والنور السرمدي... لقـد تجاوزت نيرمالا الحد الفارق. فهل سـنح لها أن ترى ما لا يُرى. كانت واحدة منا وقد صارت واحدة من تلك.. الخلائق المضيئة الخيالية الطاهرة، أو ربما لا توجد حياة بعد الممات البتة.

بعـد مـا أعـادوا غوتام مـن بيت زرينـة في أوسـترلي، بقي مريضـاً طريح الفـراش لأسـبوع، وراح ينشـد قصائد أردية كلاسـيكية، وهـو في حالة من الهذيان. ذات مرة حين حضر الطبيب أنشـد قصيدة لأحد الشعراء من القرن الثامن عشر بكثير من الدراما:

هبت رياح من جهة غير معلومة
أحرقت حديقة الفرح.
إلا أن غصناً من شجرة الحزن،
يسمى «قلباً»، ما انفك أخضرا.

أترى حيرة الحب،
لقد غاب الجنون
واختفت الحورية كذلك،
وأنت لم تبق أنت،
وأنا لم أبق أنا،
وكل ما بقي هو اللاوعي.

تمدد من جديد متكئاً على الوسادة، وأغمض عينيه كأنه يمثل دور مجنون في مسرحية. كان الطبيب الكهل محتاراً، «ماذا قال حبيبك، يا سيدتي؟»

بوغتت طلعت، وبدا عليها الارتباك، قالت بلا هوادة: «إنه أخي بالتبني».

تذكرت أن لا وجود في الغرب لما يسمى الإخوة والأخوات والأعمام والعمات بالتبني.

«حسناً، ماذا كان ينشد أخوك بالتبني؟ هل هو ممثل؟»

«لا يا سيدي، إنه مفكر». قالت طلعت مشيرة إلى ملصق معلق على باب المطبخ يقول: «عرين المفكر». ابتسم الطبيب واسترجع ذكرياته أيام دراسته. «سيدي إن الشاعر يقول في الأشعار التي كان ينشدها»، وترجمت له الأشعار إلى الإنجليزية.

«لا بد أن ذلك من حكمة الشرق».

علق الطبيب الفاضل. كتب وصفة الأدوية، وهو واعٍ، ثم سارع في المغادرة، أراد أن يبتعد بأسرع ما يمكن عن تلك الغرفة التي حوَت الموت المتجسد في شكل المريض.

أصرَّ كمال وهاري أن يسترد غوتام صحته في غضون أسبوع، وبالفعل فلقد أصبح قادراً على العودة إلى وظيفته في الولايات المتحدة. وبعد أن

ودعه أصدقاءه في المطار عادوا إلى شقة طلعت للغداء. كانت الغرفة مكتظة بالحقائب الجاهزة، فقد كان كمال أيضاً على وشك مغادرة بريطانيا.

اقترح غلشان عقب تناول الغداء، «تعالوا نتنفس الهواء الطلق في الخارج».

في طريقهم إلى هامبستيد، مروا بالحدائق الصغيرة الخلفية، واجتازوا الأزقة الضيقة المعبدة وحانات الشاي نصف المضاءة. ورأوا الفتيات الموظفات يرجعن من أماكن عملهن. بدا منظر المدينة خلاباً كما في شعر إيليوت.

قال مايكل: «بعض المشاهد الهادئة تخيفني».

«حقّاً». أيدته طلعت. «يجب أن لا نجرّ الآخرين إلى عالمنا».

ثم أردفت: «ولا إلى أحلامنا كذلك. فإن ماضيي، ووقتي، وأحلامي كلها لي أنا، ومن غير الممكن أن تهم شخصاً آخر». وأضافت على عجل، «ولكن يجب أن لا تنسى أنني أتكلم على المستوى الشخصي فعلاً. فنحن سائرون إلى مستقبل مشابه، بل إلى المستقبل نفسه».

قال مايكل بانزعاج، «بالله عليك يا طلعت، لا تتمادي في انتهاج منهج الجماعة. المستقبل الجهنمي يتربص بنا هناك وراء الجبال بفوهاته الفاغرة، وهو على استعداد لابتلاع كل منا على انفراد... مثل إلهة هاري السوداء ذات الأذرع العشر. سأتجه إلى إسرائيل، وسيرحل كمال إلى الهند التي لا تعترف بإسرائيل، فأين هو ذلك المستقبل المتشابه للإنسانية جمعاء؟ وحده الفناء مشترك بيننا.

«كنتُ محقة تماماً» قالت طلعت، «أدركت فجأة أن عقول الناس وارتقاءهم الذهني ظل متفاوتاً عبر ملايين السنين».

«ثمة أشياء أخرى، زادتها رعباً؛ المنظر عقب هطول الأمطار، الأصدقاء، البيوت المريحة. حين أفتح حقيبتي، تتدفق منها أنواع شتَّى من الوثائق: رسائل البنك، وثائق الأسهم والبورصة، تقارير نصف سنوية للشركات المساهمة، أسماء غريبة صارت مألوفة بطريقة غير شخصية، دنيا مجلس المدراء: اللورد سينها، والسير بيرين موخرجي، وشري سي. ثابر، والدكتور ك. حميد. لقد اختفى عالم آخر وراء تلك الأسماء: مبان شاهقة، ومكاتب متطورة فاخرة، المال والمزيد من المال، إضرابات عن العمل، الجوع والبطالة، اجتماعات المدراء، نقابات العمال، مناجم أبيكس للألماس في جنوب أفريقيا، أحياء فقيرة، مدينة لندن، كاليورو، كلكتا، بوابة بيشوب، تشورينغي، تاتا ناغر، آندريو يولي، كلكتا، مارتين برنز، اسبانسرز، مدراس، شركة الهند للحديد والفولاذ المحدودة، شركة سيبلا المحدودة مومباي.

«تراءت توقيعاتي لي عبر الخطوط المنقطة. لقد امتلكت تلك الأسهم، التي أعطاني إياها أبي، كانت تلك الوثائق بمثابة الضمان الاقتصادي بالنسبة لي، تشهد لي على المكانة المرموقة التي أحتلها في المجتمع. ما الفائدة التي أجنيها من كل هذا وذاك؟ المال فوق المال. في عام 1947، فقدت كل شعوري بقيمة المال».

أضاف كمال، مستلهماً بعض ما قالته طلعت: «انكشف أن فوضى هذا الكون أشد مما تصورناها، وقد أصابه الهبل».

مرت فرقة جيش الخلاص تعزف موسيقى «*إلى الأمام الجنود المسيحية*».

استأنفت طلعت حديثها: «وقبل أن أدرك، انطلقت في... لا بد أن أقول... في رحلة فكرية خطيرة، أبحر في بحر من الكلمات».

عكست شمس خافتة ظلها على صفحة البحيرة. «ما هي الكلمات؟»

تساءلت طلعت. «ما هي الحقيقة؟ يقول الكتاب: إن الكلمات خاطئة، وليس ثمة معنى لها، والعلاقات لا طائل منها. أحياناً يخيل إلي أن الإله «بيراهسباتي» كان ينشر معرفته بين الشياطين. إبان العصور الوسطى في أوروبا كانوا يحرقون النساء على الأوتاد، وكثيراً ما كنت أرى نفسي في شكل ساحرة صغيرة تطير عشوائياً راكبة مكنسة معرفتها المزعومة».

«مرت مكانس كثيرة بقربي، تركبها فتيات أخريات لا حصر لهن... تهمينة، نيرمالا، سوريخا، فيروزا، نارجيس كوسواجي، شانتا، تشامبا، وغيرهن الكثيرات. وقد طارت تلك المكانس في علياء السماء مرتفعة إلى حد أنه أصبح من المستحيل إعادتها إلى الأرض. في الحقيقة، السماء الممدودة على العالم بأسره مليئة بمثل هذه المكانس، وإذا بتشامبا ترتكب خطأ الإغفاء. اسمعوا، أنا قاصة والحياة كلها تبدو للقاصة استعارة».

«وإذا ركبت المكنسة، وأصابك النعاس، فلا بد أن تضل الطريق وتهبط ساقطاً في مكان مجهول».

«في ظروفها التي تشبه الحلم، طارت الأخت تشامبا محلقة في السماء، تغني مثل عابدات «ويشنوا» من بنغال. لقد ظنت الأخت أنها باحثة، غير أنها اكتشفت أنه لا فائدة من البحث، فلن تجد ما تبحث عنه. كانت تغبط الراهبات الكاثوليكيات. عندما كنت مراهقة معتدة للغاية بنفسي، كرهتها كثيراً، لأني ظننت أنها تخطف الفرح، وتسرق سعادة الآخرين. أخذت عامر من تهمينة، وانتزعت غوتام من نيرمالا. وحين نزلت بحقيبتها المملوءة بالمسروقات، نزع شخص ما السلم النقال من تحت قدميها».

«تعالوا نتمشى وسأحدثكم أكثر بحماقات تشامبا».

قال مايكل وهو يمد يديه في الفضاء الحالك: «لديّ كذلك بعض الأفكار

حول رمزية الأشياء، وقد عانيت كثيراً جراء ذلك».

مرت طائرة فوقهم، وتلاشت وراء السحب، ظلوا يطاردونها بأنظارهم. استأنفت طلعت، «مدينة المجهول التي أنشأناها، بنينا حصونها بآجر الفلسفة. سطى عليها ذات يوم سارق الموت، وتسلل إلى أبراجنا».

«قبل عامين، زرنا معرض فارنبورو الجوي، حيث لقي المسكين جان ديري حتفه وكسر حاجز الصمت. تحطمت طائرته وسط الفضاء بانفجار راح ضحيته العشرات. في اللحظة التي رأيت محركها يهبط بسرعة من السماء في اتجاهي، أيقنت أن ساعتي قد دنت... وبدلاً من أن أهوي فوق الأرض على وجهي، انطلقت أبحث عن زرينة وتشاندرا. لم يهمني في تلك اللحظة إلا أمرهما، ولم يخطر ببالي أن أحاول إنقاذ نفسي، لذلك، أظن أن نيرمالا أيضاً لم تكن خائفة حين وافتها المنية».

انضم هاري شانكار إلى مجرى الحديث، وتمتم كالكاهن، «ذُكِر في الفيدا أربع مراحل للوجود: حالة اليقظة، والحلم، والنوم بلا حلم، والموت. الموت يمثل تجربة الإنسان الوحيدة التي لا يمكن مشاركتها، لذلك تركتنا نيرمالا، ومارست التجربة وحدها، فجرتها أمواج النهر العاتية، التي حاولت مكافحتها وسط الظلام الحالك».

«وقد قال الماهارجا جاناك: تحترق منطقة ميثالا بالنار، ولكن لا يمسني لهيبها. كلنا نحترق».

استدار هاري شانكار إلى مايكل متسائلاً، «ألم تصلك بعد حرارة ألسنة اللهيب؟»

نزل كمال عن التل وأخذ في الإنشاد.

أضاف هاري شانكار: «حين ماتت جدتي، أخبرني كاهن الأسرة أن الروح

تتسلل من اللهيب إلى الليل، ومنها إلى القمر، ومنه إلى عالم الآلهة، وإلى عالم الرياح، تمر بالفضاء، والدخان، والسحب، والأمطار، والنباتات. يتحول دخان القربان إلى بخار وصقيع، ثم إلى سحابة ومطر. تتبخر كل الأرواح في الفضاء.... أين ذهبت نيرمالا من محرقتها؟»

قالت طلعت «سوف تحمل الرياح أنفاسي، وستضع الشمس غشاوة على عينَيَّ، وسيجعلني القمر أخلد إلى النوم. سيتحول شعر بدني إلى أعشاب وقراص، وستنبت الشجيرات فوق رأسي، وسيصبح دمي ماء».

استطرد هاري شانكار، «نوم عميق، مياه عميقة وحلم عميق هي عناصر التأمل. خلدت الرياح للنوم، ولم يمكث إلا الموت. الجسد يفكر ويحس، وحين يتلاشى الجسد ينتهي كل شيء. النيران المشتعلة، المياه الباردة، الرياح العذبة، خرجت كلها من طبائعها الخاصة». رفع هاري يمينه، وأشار إشارة لم يعرفها هو نفسه. تراءى لطلعت في تلك اللحظة كأنه كاهن كالي بردائه الأحمر، الذي رأته في كالي غات.

قالت طلعت وهي غارقة في التفكير: «مازال ثمة أناس كُثر سيلقون حتفهم لا محالة. سأرحل قبلهم وربما أرحل معهم... أَنظر إلى الوراء، ماذا حدث للذين ماتوا من قبل؟ أنظر إلى الأمام، ماذا سيحدث للذين سيموتون من بعدي؟ نولد مرة ونموت مرة ولا عودة بعد الممات».

غنّى كمال أغنية شعبية باللهجة الهندية الشرقية، «تلك النملة الصغيرة تسلقت الجبال مع الفيل وهي في أذنه. صدف أن رأيت حدثاً غريباً، رأيت نهراً يغرق في زورق».

قال مايكل وقد تحول إلى حاخام، «تتناثر الأضواء على التلال كل صباح وأنا أكرر الأصوات السبعة مع الملك داؤود».

عاد كمال إلى إنشاده، وقال هاري شانكار: «وجدنا الدنيا معوزة. براءتنا هي سبب ويلاتنا.. نحن مرتبطون بعضنا ببعض بهذه البراءة المنحوسة. ويوم يتمكن أحدنا من فك الأسر سنتفرق جميعاً. إن أواصر ثقافتنا قد انحلت بالفعل، وقد أصبحنا عالقين في الهواء، كل يمسك بطرف من أطرافها».

وقال المادي غلشان، «دع عنك أشباحك، دع عنك أشباحك».

وواصل مايكل: «مهما فعلتُ، أشعر بأن كل ما أفعله له صلة مباشرة بدورة الكون. أتظاهر بالضحك من أجل إخفاء أهمية أفعالي التي قد تترك آثاراً سلبية على الآخرين. صوت اللورد، إلهنا يعلو المياه، صوته المخيف المدمر المبيد يكسر أرز لبنان إلى قطع».

أضافت سوريخا متحدثة عن عالمها السري الغامض: «ثمة صوت يتحول إلى رقصة «نتراج» الجنونية».

وقال هاري شانكار: «آلاف الكهنة جلسوا في الغابات يغنون، سمعت تراتيلهم».

وقال مايكل: «طفت مروج بابل ويهودا وأنا أعزف على قيثارتي».

وقالت طلعت: «سمعت صوتك كذلك، ولكنك التقطت رشاش برن».

عاد كمال وتكلم فجأة: «ثم انفتح الباب الزجاجي، كانت تشامبا من بين من دخلوا. قالت: أهلاً وبدأت تقترب مني. من هؤلاء الناس؟ ما هذا المكان؟ هذا روز آف شارون، وأنا أهاتف مكتب ثامبتون كوك. أنا في أمان حالياً، تحيط بي مبان شاهقة من الحجر، وأشعر أن تحت قدمي أرضية رخامية صلبة. أرى تشامبا أمامي، تسريحة الشعر نفسها، المظهر والأناقة والرزانة ذاتها، ترتدي ساريها الحريري باللون البرتقالي المفّضل لديها. تحمر وجنتاها بنيران مدفأة الزمن».

«لديّ إحساس محرج بأنني لم أكن مرتاحاً لرؤيتها. بل لم يكن لديّ أي إحساس تجاهها؛ إحساس بالحزن أو الانزعاج. لا شيء على الإطلاق. في الواقع، كنت أرغب في الهروب، في الابتعاد عنها. ماذا علي أن أفعل لو كنتِ تشامبا أحمد؟ لا يمكنني أن أساعدك. والحقيقة أنه لا يهمنى على الإطلاق إذ أنني لن أراك لعشر أو اثنتي عشرة سنة أخرى».

«تبدين اليوم أكثر جمالاً، أكثر حصافة، أكثر هيبة وثقة بالنفس. بلغني أختي تشامبا أنك ستسافرين إلى روما لتسجيل صوتك للنسخة الأردية من برنامج «بيتر رايز»، أخبرني بذلك شخص ما في هيئة الإذاعة البريطانية، قلت لها متظاهراً بالعفوية».

«أحسست أنها كانت ترغب في البوح لي بشيء مهم، ولكن تمالكت نفسها».

«في الخارج بدأت السماء تمطر رذاذاً. ماذا يعرضون في استوديو وَن، أخت تشامبا؟ حاولت بدء محادثة بسيطة. بدت على المشاهدين الخارجين من دور السينما أمارات الحزن العميق. كانت الأنوار باهتة، وكان العازف المتجول على حافة الرصيف يعزف مقطوعة لم يسبق له قط أن عزف مقطوعة أشد كآبة منها. بدت الحافلات ذات الطابقين والسيارات المارة كأنها تزحف مثقلةً بالألم. كان الوقت في شارع أكسفورد، يمر ببطء كالأعرج. ضغطت أنفها على زجاج النافذة، وهي تحدق في الخارج، تراقب منظر الشارع. ودّعتُها بشكل سريع، واندفعت خارج الباب».

«الآن تركتها بعيدة خلفي، واتجهت إلى وطني،أما هي فما زالت تقف في صخب دوامة الصمت اللامتناهي، تضغط أنفها على الباب الزجاجي. لماذا أشعر بهذا التعب المضني؟ دعوني أجلس هنا بهدوء، دعوني أتلاشى في

الهدوء»، قال كمال وجلس على صخرة.

قالت طلعت: «مثل اللصوص المؤمنين، دعونا آلهتنا الخاصة لكنهم خذلونا، فشحَّت منابع خيالنا».

قال كمال رافعاً وجهه: «أنا الآن لا أذكر شيئاً. تطفح السنوات الماضية أمامي كفقاعات الصابون. تتألق الأضواء على الطرق الممتلئة بماء الأمطار، ويمر القمر فوق المداخن النائمة منزلقاً إلى البحر. تصفر الرياح العاتية منتشية على القفار الجنوبية. وتحوم طيور الليل فوق المياه الهادئة الزيتية في الموانئ المتموجة».

«تمر الجماهير على الجسر، تبحر الزوارق في الأنهار المعتمة وأنا على الشاطئ. يجب أن أبحث عن سفينة؛ سفينة انطفأت مصابيحها، تستعد لاقتحام البحر القاتم بهدوء. سفينة تتجه إلى مكان ما. يغمرني شعور بأنه ليس ثمة أحد فيها سيقول: مرحباً بعودتك كمال رضا...! هبَّ واقفاً وسار نحو الشارع، ثم كرر من جديد: «لا يوجد أحد يقول: مرحباً بك في بيتك».

65

بلا وطن

بعد مرور أيام، سافرت طلعت في صباح شديد البرودة في أول قطار مترو متجه إلى تشيلسي. هبّت النسائم الدافئة في النفق المظلم في محطة المترو نصف الفارغة. خرجت طلعت إلى الشارع، وسارت نحو شقة أمل.

كان السيد جين كينز على مناوبته الصباحية. لقد شارك هذا العجوز المسكين في الحرب دفاعاً عن ملكته وبلده، إلا أنه خسر الإمبراطورية وإحدى ذراعيه. عاد الرجال الكبار إلى بلدهم، أصبح بعضهم جنرالات ودونوا مذكرات ضخمة، لكن عدداً كبيراً منهم لم يحالفهم الحظ، فصاروا متسولين مشلولين أو حمّالين.

بدا السيد جين كينز أحياناً كشخصية إليوتية هذا ما لاحظته النساء وهن غاديات ورائحات، يتحدثن عن أفلام «أبوت وكوستيل». هل عنده أطفال؟ لماذا لم يعتنوا به؟ في الغرب لا يُحبذ الاستفسار عن الحياة الشخصية.

قال لها مبتسماً، «الطقس رديء، أيتها الآنسة، إلا أننا سنسمع أول طائر وقواق يغني قريباً».

أومأت طلعت بالموافقة. لقد حافظ التفاؤل والمثابرة على صمود هذا البلد، وجعلاه ينبض بالحياة.

عُينت أمل في أوتاوا، ووقفت وسط حقائبها المحزومة، وبدأت تقرأ

سطوراً من دعاء «عيد أربعاء الرماد». ثم قالت: «هل تتذكرين كيف كان هاري يحاكي البروفيسور سيدهارتها. خمسة أعوام طويلة بفصولها الشتوية الخمسة الطويلة، لقد أمضيت سبعة أعوام في هذا البلد الجميل».

زارت نرجس كواسجي لتودّعها. ستتزوج قريباً خطيبها الإنجليزي.

قالت بسرور: «افرحوا وابتهجوا، الأفضل قادم».

أسرعت طلعت عائدة إلى سانت جونز وود لإنهاء حزم حقائب أخيها الذي سيغادر إلى الهند قريباً. حيّتها ناظرة الشقّة السيدة هاردينغ وهي في ردهة بيتها. تعيش السيدة هاردينغ في شقّة صغيرة في الطابق الأرضي مثل السيد جين كينز، وحيدة وصامتة مثل الجوقة الدرامية الصامتة.

قال لها كمال متجهماً، وهو يجهّز الفطور: «لماذا أنت عابسة في هذا الصباح الباكر؟»

فأجابت قائلة: «أنا بخير، مستر جاك!، كنت أفكر بأنني أيضاً مثل السيدة هاردينغ».

«أنت لم تصبحي سمينة إلى هذا الحد بعد...».

«قصدي أنني سأبقى دائماً مراسلة، ومراقبة، ومؤرخة».

«ستظلين دائماً غبية وحمقاء، وستظلين قلقة إزاء مشاكل الآخرين، ولا تهتمين بذاتك، أرى أنك ستفوتين سفينتك... وهذا يذكّرني... انظري فقط وقت مغادرة سفينتي، احزمي أمتعتي بشكل مناسب، وتوقفي عن التذمّر. إذا واصلت تذمّرك على هذا النحو فلن يقدم أحد على الزواج منك».

عزفت أوركسترا السفينة لحن الوداع. مال كمال إلى الدرابزين ونظر إلى رصيف الميناء، فاغرورقت عيناه، ظل ينفعل عاطفياً كالعادة، على الرغم من إقامته الطويلة في بريطانيا القارسة. وضع نبيل أوروبي وقف بالقرب منه

يده على ذراعه برفق، فنظر إليه ممتناً. عرّف الرجل نفسه على أنه البروفيسور هانس كرامار من فيينا. اصطحبه كمال إلى كابينته الخاصة، فوجد أن زميله في الكابينة أمريكي متخصص في الاقتصاد اسمه توماس سامسون ذاهب إلى الهند في منحة من مؤسسة فولبرايت.

جاء أصدقاء كمال كلهم إلى محطة يوستون، راح رفاقه البنغاليون يغنون أغنية نذر الإسلام، «يسمع صوت قرع الطبول في السماء...». تقدم جندي إلى الأمام للمشاركة في معارك لم تكن أهدافها واضحة.

كان وحيداً في مدخل الميناء. بدا العالم غريباً منذ اللحظة التي صعد فيها سلّم السفينة. خرج في المساء وراح يتجول في أرجاء السفينة، فرأى بين المسافرين أفراد أسر الدبلوماسيين الهنود والباكستانيين، والسياح الأمريكيين والطلاب العائدين إلى بيوتهم. التقى صدفة ببندت غور، وهو شاب من أتباع غاندي من أوترا براديش الغربية، تعرف عليه كمال في لندن، وعقدا صداقة مع مجموعة من المتخصصين الأوروبيين في علوم الهند. خطط بعضهم للإقامة هناك بضعة شهور، حتى يتمكنوا من حضور الذكرى الـ 2500 لميلاد بوذا، فقد أبدت حكومة الهند رغبتها في تنظيم مهرجان دولي احتفالاً بالحدث العظيم. كان الدكتور هانس كرامار عالماً نمساوياً متخصصاً في اللغة البالية (لغة بالي)، وثمة شاعر بريطاني يسافر إلى الهند في مهمة لهيئة الإذاعة البريطانية. أمضى الجميع أوقاتهم معاً.

ظلَّ راهب بوذي فرنسي معروف بالقديس «بريماناندا» منعزلاً عن الجميع منهمكاً في تأملاته، في حين حاول داعية باكستاني يقيم في ألمانيا الغربية من جماعة الأحمدية مرة أو مرتين أن يدعو الكفار البيض الضالين إلى الإسلام، لكنهم بدوا مشغولين جداً في بوذا حتى أنهم لم يعيروه اهتماماً. لقد

رأى كمال في إنجلترا نوعين من المستشرقين؛ النوع الأول يشمل المتخصصين في الدراسات الإسلامية ويميلون إلى باكستان، أما النوع الآخر فيشمل الباحثين في الهندوسية والبوذية الذين لا يبالون بالإسلام، بل يعادونه بشدة. بالتأكيد، لا يمكن لشخص أن يكون عالماً بكل شيء مثل أرنولد طوينبي، على هذا النحو طمأن كمال نفسه. الآن توفّر لهم المزيد من الوقت على متن السفينة لحسم هذه المسائل. لما اقتربوا من قناة السويس، أصبح الجو حاراً، وتراءى المشهد لهم كما رسمه الكاتب كيبلينغ. قبل عشرة أعوام فقط كانت الهيمنة السياسية في العالم للبريطانيين.

وبينما كانوا يعبرون قناة السويس، انتقل الحديث إلى إي. ام. فورستر. قال الشاعر الإنجليزي: «كتب فورستر روايته عام 1924، وخلق في ذلك الوقت شخصية الدكتور عزيز التي تمثل الرجل الهندي. ولكن الدكتور لم يعد هندياً، فقد بات المسلمون يُعرفون بهويتهم الباكستانية فقط». نظر إلى كمال وأضاف قائلاً: «والآن كمال رضا الذي يسافر معنا ليس هندياً نموذجياً، بندت غور وحده يُعد هندياً نموذجياً».

أثرت الملاحظة هذه في نفس كمال كثيراً، وبقي جالساً هناك بلا حراك، كأن صاعقة نزلت عليه. ظنّ أنه الآن بلا وطن. واصل الأصدقاء رشف البيرة، وتجاذب أطراف الحديث، مرت سفينتهم ببطء فوق المياه الموحلة التي تقع على جانبيها أشجار النخيل.

في زاوية أخرى على متن السفينة، بدأت سيدة مهاراشترية من ولاية مهاراشترا في الهند تغني أغنية ميرا التي يقول فيها الطفل الشرير كريشنا لأمه إنه لم يسرق الزبدة.

أمي! لم أسرق الزبدة،
أرسلتني في الصباح الباكر
مع الأبقار إلى غابة العسل،
لم أسرق.. يا أمي!.

نسي كمال ألمه المفاجئ الذي سبّبته ملاحظة البريطاني الواقعية والحادة، وانهمك سريعاً في الأغنية، أما بندت غور فراح يعزف لحناً بيديه، ثم مشى كلاهما نحو المغنية.

قال الشاعر البريطاني: «تحمل كل ثقافة لغتها السرية، كمال وبندت على سبيل المثال يتشاركان اللغة ذاتها، هذه هي النقطة الأساسية. إذا أراد غربي كتابة رواية عن الهند، فإنه ربما لن يدرك لماذا تأثر كلاهما بهذه الأغنية إلى هذا الحد».

انبعثت أصوات رقصة الفالز من قاعة الرقص، وفي الخارج كان الناس يشاهدون فيلماً قديماً لروبرت تايلور. خرج كمال، وتجول على متن السفينة بلا هدف، وألقى التحيات على بعض معارفه بصوت ضعيف قائلاً «آلو». كان رجال الأعمال من طائفة السيخ يغنون أغنية «هير»[1] على ظهر السفينة بأعلى أصواتهم. ثمة لغة سرية يتقاسمونها مع المسلمين والهندوس في البنجاب، ومع ذلك قتل بعضهم بعضاً في الاضطرابات الطائفية التي اكتسحت الهند عام 1947. لقد أثبتت السياسة دائماً أنها أقوى من الثقافة.

طلع البدر ببطء في الأفق، واتجهت السفينة إلى الأمام بهدوء وشموخ. جلس البوذي الفرنسي على كرسي في إحدى الزوايا. الآن دخلوا البحر الهندي.

(1) هير رانجها هي أغنية الرمز الصوفي للشاعر المتصوف وارث شاه، وتعتبر من الأدب البنجابي الكلاسيكلي، يتغنى بها الناس في بنجاب الريفية.

لمعت رغوة ثلجية بيضاء على سطح القمر. أبحرت كافة أنواع السفن في جميع محيطات العالم في الليالي المقمرة على هذه الكرة المائية التي تبدو كأنها بلا شواطئ. من بين تلك السفن المعروفة سفينة الدستور، وسفينة الملكة إليزابيث، وسفينة الولايات المتحدة، بالإضافة إلى يخوت الأثرياء، والسفن التجارية، والمدمرات، وحاملات الطائرات. يسافر كل أنواع الرجال في البحار العالية: الدبلوماسيون، الكرادلة، والسياح الأمريكيون، ورجال الأعمال، والغوجراتيون، والسنديون، والراقصات الهنديات. عاش بندت نهرو ومولانا أبو الكلام آزاد في نيو دلهي، كانت الأمور على ما يرام في العالم كله.

قال كمال بلطفٍ للراهب البوذي الفرنسي: «يا أخي أناندا! ربما أصبحتُ بلا وطن، وهذا لا يندرج في باب ما تسميه «سوخواتي» أي حالة السعادة». أغلق كمال الباب بعنف ثم مضى إلى مضجعه ولم ينزل للأسفل لتناول العشاء.

صارت السفينة نصف فارغة في مدينة كراتشي. تبادل المتخصصون في علوم الهند العناوين وأرقام هواتفهم مع كمال، ومضوا متجهين إلى ميناء مومباي.

لاحت منارة كولابا للعيون.

وصل كمال إلى لكناؤ التي تحولت إلى مدينة مقفرة وقذرة. وبدا منزل غلشان مهجوراً. لقد ذبلت الحديقة، وحُوّل المرأغسطس والأسطبل إلى مستودع. (جميع الأقارب الذين ذهبوا إلى باكستان ألقوا أمتعتهم الإضافية هنا، أخبرته والدته بهدوء). فتشت عيناه عن غانغا دين، وقدير، وقمرالنساء. نادى زوجة الحسيني، ورام أوتار، ورام داي! لكنهم ليسوا هنا. مات غانغا دين بسبب كبر السن، وعاد السائق إلى بيته في ميرزابور، وغادر حسين إلى

كراتشي مع السيدة عامر رضا، ووجد رام أوتار وظيفة ذات أجر أفضل في سكندر باغ.

أخيراً، دخل كمال إلى غرفته سقط على فراشه وانفجر بالبكاء. هل كان منزعجاً جداً بسبب عجز والده؟ لقد قضى حياته مكافحاً ضد النظام الإقطاعي. الآن، بعد أن ألغي النظام الإقطاعي، ماتوا جوعاً تقريباً في منزل غولفيشان. «عاشت الثورة!» أخبره تقي رضا بهادور بمرارة: «لابد أن تكون سعيداً برؤية ميان جان الذي أصبح فقيراً. لقد ألغوا الإقطاع أولاً في أوترا براديش، لأن معظم ملاك الأراضي مسلمون».

«أوه..لا، ميان جان، لا». اعترض كمال على قوله.

جاءت أخته تهمينة من جهانسي للقائه. أخبرته أن ملك نانبورا باع أوانيه، وأن الأم باعت نصف مجوهراتها. الأموال التي كنتَ ترسلها أنت وطلعت من بريطانيا أنفقت على علاج أمنا الباهظ التكلفة. بالطبع، لم تقبل ولو بيسة (فلساً) واحدة مني كوني ابنة متزوجة، ومع ذلك أرسلت هذه الفتاة لتطهو لهما الطعام».

ذهب كمال إلى فيلا الكستناء المائي وبكى كثيراً، وهو يتذكر نيرمالا. أصيب والداها العجوزان بصدمة كبيرة حطمتهما؛ لقد فقدا ابنتهما، ولكن أبويه لم يدركا أنهما فقدا بلداً عن غير قصد.

سأل والده، «ماذا تريد أن تعمل الآن؟ ستهاجر إلى العراق مثل ملك محمود أباد أم ستذهب إلى باكستان؟»

أجاب الرجل العجوز بهدوء: «سأبقى هنا. لماذا يجب أن أهرب؟»

أصيب كمال بحيرة، «لكنك يا أبتاه كنت من المتحمسين جداً للانضمام إلى العصبة الإسلامية».

«معك حق. دولة باكستان ظهرت إلى حيز الوجود، هذه حقيقة لا تُنكر. في تلك الظروف، لم يكن ثمة بديل لذلك. لقد استغل المسلمون اقتصادياً لفترة طويلة. هذا لا يعني أنه يجب علي أن أهرب من بلدي»، قال والتعب بادٍ على وجهه، ونظر إلى الساعة. كان عليه أن يبيع سندات تعويض حكومية أخرى بثلث قيمتها لأراضي كاليانبور، كانت تلك السندات مصدر دخلهم الوحيد في غولفيشان.

«هل تعتقد أنني سوف أذهب إلى باكستان، وأبقى في منزل عامر في كراتشي بصفتي أحد أقربائه؟ بالتأكيد لا!».

قالت والدته: «على الأقل نحن نعيش في منزلنا هنا».

بدأ كمال يبحث عن وظيفة. «حاوِل أن تحصلَ على خطاب توصية من شخص ذي نفوذ»، نصحه والده.

«لماذا يجب عليّ أن أفعل ذلك؟ ألا أثق بنفسي؟»

«نعم. لكنك تنتمي إلى الطائفة الملومة».

«هل يحصل الهندوس على وظائف جيدة في باكستان؟»

«لا. لكن باكستان لا تدعي أنها دولة علمانية».

الحجج نفسها. والإجابات نفسها.

كتب كمال إلى طلعت، «استمري في العمل في لندن. انضمي إلى الشتات الهندي، ولا تذهبي إلى باكستان».

أجابت طلعت، «لماذا أنت محبط للغاية؟ هذا هو بالضبط الوقت الذي ستُختبر فيه نزاهتك وثباتك على إيمانك. يجب أن تستمر في الكفاح».

تلقى رسالة من غوتام الذي كان في نيويورك، لكنه لم يرد عليه. عاد هاري شانكار من الخارج وعُين في بنغالور. لم يتصل به كمال أيضاً.

أرسل له عامر رضا عدة خطابات من كراتشي، «تعال هنا مرة واحدة. نحن بحاجة إلى علماء مؤهلين تأهيلاً عالياً مثلك. لا تكن غبياً. يجب أن يحتل مستقبل المرء الأهمية القصوى في حياته، لا تضيع المزيد من الوقت».

توقف عن فتح خطابات عامر.

اختار عامر رضا الهجرة إلى باكستان في عام 1947. أدرك أحد الموظفين في دائرة المشرف على الممتلكات الائتمانية للأشخاص الراحلين هذه الحقيقة بعد ثماني سنوات، وهكذا أصبح أحد أفراد أسرة رضا باكستانياً، فَعُدَّ منزل غولفيشان ممتلكاً تم إخلاؤه. رفعوا دعوى طعن في قرار مشرف الدائرة.

أمضى كمال معظم وقته متجولاً في المحاكم محاولاً إحاطة المحامين علماً بحقائق القضية وتحرير العرائض. لقد أصبح كمال معكَّر المزاج، ونادراً ما يضحك، حلّت المرارة والانزعاج محل البشاشة الطبيعية المعروفة عنه.

ذهب إلى دلهي بحثاً عن وظيفة. وكالعادة، أقام في منزل لاج في شارع بيلا. في صباح أحد الأيام بينما كان ذاهباً إلى مكتب بريد فندق مايدين، صادف توماس سامسون الذي سافر معه على متن السفينة من إنجلترا.

«مرحباً كيم! سعيد جداً بلقائك مرة أخرى!»

«نعم! لقد أخبرتني أنك ستقيم في مايدين. أردت الاتصال بك. هل زرت أنحاء دلهي؟»

«ليس بعد».

قال كمال بشغف: «سأرافقك في تجوالك حول دلهي». في لحظة استردَّ كمال شخصيته القديمة، وتحرر من مخاوف كسب القوت، عاد الابن الغيور والفخور بالهند الحرة. بعد الظهر، أخذ توم لرؤية المختبر الوطني الفيزيائي الجديد. وفي المساء، خطط للذهاب إلى سبرو هاوس لحضور حفلة سارود الموسيقية التي

سيقدمها الأستاذ علي أكبر خان. واتصل بغُلشان للقائه في مطعم آلب.

«ماذا تفعل هذه الأيام؟» سـأله توم وهما يشربان القهوة الباردة في مطعم في كونات سيركوس، وقد انضم غلشان إليهما.

أجاب: «لا شيء على وجه الخصوص، أبحث عن عمل»، محاولاً أن يبدو غير مهتم بالموضوع كثيراً.

«البطالة مشكلة كبيرة هنا»، لاحظ توم بجدية.

«إنها مشـكلة للجميع، ليس فقط بالنسـبة لي. عندما يعـم الرخاء البلاد، سـيعم الجميع، ولن يميز بين الهندوس والمسـلمين. سوف نغرق معاً ونسبح معاً. الآن، بفضل الخطة الخمسية الثانية...».

«أنـت أرسـتقراطي»، قاطعه غُلشـان بصراحته المعتـادة «لا يمكنك أبداً التبرؤ من طبقتك...».

«هذا غير صحيح يا غلشان. لقد اجتثت الطبقية، وأُمِمَ عدد لا يحصى من الإقطاعيين بخطوة واحدة بعد إلغاء النظام الإقطاعي، والآن أضحى هؤلاء يعانون من الفقر المدقع، ومعظم هؤلاء ينحدرون من طائفتي»، أجاب كمال.

«حتى أنت تتحدث مثل الطائفيين!»، لاحظ غلشان.

قـال توم: «يجب على المسـلمين الهنود أن يدفعوا ثمن تقسـيم الهند بطرق مختلفة».

«نعـم»، رد كـمال. «يجـب الاسـتمرار في إلقاء اللـوم على هيئـة المحلفين الدوليين بسبب صلب سيدنا المسيح».

لزم توم الصمت فقد كان يهودياً.

«لماذا لا تذهب إلى باكستان، إنهم بحاجة إلى علماء»، اقترح غلشان بحماس. «عادت جماعات الهنود من غير المسلمين المؤهلين تأهيلاً عالياً إلى

الهند غير أنها لم تجد عملاً مناسباً، وها هي الآن تعود إلى الغرب مرة أخرى للاستقرار هناك؛ وهذا ما يطلق عليه «هجرة الأدمغة». لن يكون ذهابك إلى باكستان حدثاً يهز العالم. أنا شخصياً ما كنت سأعود من لندن، لكن سوريحا تريد أن تؤسس لمهنة الرقص في الوطن. والآن وجدت البلاد تعج براقصات بهاراتاناتيام. على أي حال! لا تكن مثالياً يا صديقي الأحمق، اذهب».

توجه كمال إلى لكناؤ بالقطار الليلي، والتقى بالشاعر الأردي همراز على الرصيف. ذهب همراز إلى كراتشي قادماً من لندن، وهو الآن في طريقه إلى فيض آباد لزيارة والدته الهندية المريضة.

«كيف هي أحوالك، كمال ميان؟»

«طيبة، أخي همراز».

«الأمور لا تبدو جيدة كمال صاحب. ما المشكلة؟»

«لا شيء على الإطلاق، أخي همراز». وعلى عجل ودع كمال همراز فيض آبادي، وسارع نحو منزله.

أخيراً حصل كمال على تأشيرة زيارة من المفوضية العليا الباكستانية. كان قد قضى ليلة بلا نوم قبل صدور القرار. خلال الأيام القليلة الماضية، حاول إخفاء نفسه عن العالم. بدت الظلال ترقص في غرف غولفيشان الفارغة.. أجرى كمال حواراً رهيباً مع نفسه؛ أنت جبان، فأر. ماذا حدث لقوميتك؟ طلعت محققة. يجب على المرء أن يصبح قاطع عشب ويعمل من أجل الثورة، اللعنة عليك، أنت مرتزقة، وجبان، وانتهازي. اللعنة اللعنة اللعنة.

لا توجد أي شواغر في الوقت الحالي، حتى في جامعة عليجراه الإسلامية، مع ذلك، قرر أن لا يتخلى عن بلده؛ سيكون واحداً من ثمانين مليون مواطن مسلم هندي، لماذا يتم إقصاؤهم عن الهند؟

خسر أهل رضا القضية. تم الإعلان عن ممتلكات عائلة رضا خيابان في دهرادون، غولفيشان في لكناؤ بوصفها ممتلكات متنازل عنها... وفي صباح اليوم التالي عندما استيقظ كمال وجد نفسه في لكناؤ لاجئاً عاطلاً عن العمل وبلا مأوى. في صباح يوم الاثنين، وصل ضباط الشرطة لمصادرة الفيلا. طلب كمال منهم الانتظار حتى يتمكنوا من حزم حقائبهم. يوم الأربعاء، استقل كمال القطار مع والديه المسنين، ووصل القطار إلى دلهي يوم الخميس. في اليوم السادس عبر القطار الحدود، وفي اليوم السابع صار كمال في كراتشي بباكستان.

66

رسالة من كراتشي

كراتشي عاصمة خامس أكبر بلد في العالم. البيوت الجميلة في الأحياء الراقية تشهد على حقيقة أن طبقة المسلمين المتوسطة لم تحقق هذا الثراء من قبل، وأن حالتها لا تختلف كثيراً عن حالة الهند. لقد حكم محدثو النعمة هذه الأرض التي يسكنها في الغالب الفقراء، وهي دلالة على تميز سكان ولاية أترابرديش (في الهند) في هذه الأرض الأجنبية! تشكل طبقة المسلمين المتوسطة القوية العمود الفقري لمجتمع «المهاجرين» في باكستان. يزورون الهند مرة في السنة للقاء أفراد عائلاتهم الذين لا يزالون يسكنون في ذلك البلد، ولا يزالون يعتبرون الهند بيتاً لهم. ولربما تجد الباكستاني المتعصب والمحب لوطنه يقول إنه سيذهب إلى بيته أو ستذهب إلى بيتها في ديسمبر كانون الاول المقبل لمدة شهرين، و«البيت» في هذه الحالة هو مدينة سنديلة أو مراد أباد في الهند، والبلد الذي يسكنون فيه هو باكستان، عكس الجيل الأول من الأرمن والبولنديين والأمريكان الذين يعتبرون الأرض التي جاءوا منها «البلدة القديمة». هذه مشكلة إنسانية، لقد أوجدوا مدينة بانغلور في كراتشي، لكن الهند ستبقى «شيفرة» بالنسبة لأطفال المهاجرين الذين ولدوا في باكستان.

يجتمع المثقفون من معارفي في مقهىً لتناول الغداء، وفي المساء يجتمعون في غرفة استقبال أحد الأصدقاء الأثرياء لمناقشة أمور السياسة، إنهم معادون جداً للنظام.

لقد أصبح الإسلام مفيداً جداً للساسة، يُقدَّم الإسلام للعالم على أنه عدواني ومحارب وحتى معاد للثقافة، ولا يهتم القائمون على نشره بإبراز عنصر الإنسانية الإسلامية أو الليبرالية عند العلماء العرب من العصور الوسطى، والشعراء الإيرانيين، والهنود، والصوفيين. ثمة علامات مشجعة أيضاً تتمثل في غياب الحجاب قليلاً أو كثيراً، ودخول الفتيات مجال العمل، إذ صار بعضهن يتقلد مناصب عليا في الطاقم الطبي في قوات الدفاع، وبات مقبولاً أن تسافر الشابات للحصول على التعليم العالي، والأمر الذي أجده غريباً هو إقبال سيدات الطبقة العليا الجماعي على الرقص في قاعات الرقص.

أظن أننا لا ندرك العالم الرهيب الذي ورثه جيلنا عن آبائنا. انظروا إلى الوضع اليوم. ففي عام 1956، عندما كان يتخرج شاب مسلم بعد حصوله على درجة البكالوريوس في جامعة هندية، كان يذهب إلى باكستان حيث يصبح طياراً أو عضواً في هيئة الخدمة المدنية، لأنه يعتقد أنه لو استعد للاختبارات التنافسية لهيئة الخدمة المدنية لعموم الهند، فلن يتم انتخابه، وبعبارة أخرى، إن المسلمين الهنود المحبطين يجب عليهم أن يدفعوا ثمن إقامة باكستان بشكل مستمر، ولو أن معظمهم لا علاقة لهم بتأسيس باكستان.

أثناء قيام حركة المطالبة بباكستان، تم التصريح دونما تفكير أن اللغة الأردية هي اللغة الرسمية للدولة المسلمة المستقلة، ولذا تدفع هذه اللغة ثمن إنشاء «وطن» على اسمها، وفي الهند، آلت اللغة الأردية إلى لغة لا وجود لها تقريباً، وباتت كلمة «أردو» مرتبطة بباكستان، ومن ثم حدثت إشكالية عاطفية ونفسية لدى معظم الهندوس، ورغم أن الأردية لا تزال لغة السينما وأغانيها، فإنها تدعى «هندي»، وبإلغاء الأردية في المدارس أضروا بثقافتهم أيضاً.

هذه ليلة يوم السبت، وقد رجعتُ للتو من بيت مفكر محلي راقٍ له بعض الأصدقاء الأجانب المثيرين. وقد التقيت هناك بعالمين طيبين أمريكيين واسعي الثقافة، هما: جاكوب موريسون، وماري ريتشارد، يملك جاكوب حظاً وافراً من علم الأردو، وهو من أوسع الناس ثقافة ممن لقيتهم لحد الآن (وقد شاع أنهما ينتميان إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية). هذه المجموعة تشبه «مجموعة هايد بارك»، بعض هؤلاء الباكستانيين الشباب متمردون على النظام السائد، يذكرونني بأصدقائي القدماء، إنهم يحبون المجادلة، ويجادلون بشدة وبراعة، ولا ريب في أن هذا التجمع رائع، وأتمنى أن أرى الكثيرين مثلهم أثناء إقامتي هنا.

جاء مؤرخ أمريكي مسن هذه الليلة إلى نادي يوم السبت، وقد عزم على الذهاب إلى طوكيو بعد أن زار كراتشي. خاطبني بحزنٍ: «لو لم يحدث تقسيم شبه القارة الهندية لصارت إحدى الدول العظمى، ماذا كان سيحل بنا لو أن أمريكا انقسمت بعد الحرب الأهلية؟، لا تردد نظريتك الشهيرة أن السبب الحقيقي للتقسيم كان اقتصادياً، وهل كان السبب غير ذلك؟ أود البحث فيه...»، لوح بيده وحدق فيّ بعينيه الواسعتين الحزينتين.

«أود أن أعرف فقط السبب الحقيقي لانحطاط الشرق، سألتُ البروفيسور طوينبي أيضاً، لماذا سقطت الهند في القرن الثامن عشر؟» تساءل ماري ريتشارد بصوت عالٍ.

«لقد عانت الهند من نظام ري رديء»، رد جاكوب موريسون بوقار، «المشكلة زراعية بحتة».

«على نقيض عرب القرون الوسطى البحارين، كان المغول أصلاً فرساناً من السهول البرية، لم ينشئوا بَحرية لحراسة سواحلهم العريضة، وقد فعل ذلك السلطان تيبو، ولكن بعد فوات الأوان».

«العثمانيون الأتراك كانوا أيضاً فرساناً»، قاطعتُه قائلاً. «ولكن حتى نهاية القرن السابع عشر، اعتبروا البحر الأبيض المتوسط مجرد بحيرة تركية بوصفهم قوة بحرية أوروبية».

«حسناً، ما هو السبب الأساسي لانحطاط الإسلام؟» أصرت ماري.

«الأشاعرة»، رد تنوير المضيف بسرعة.

«من؟»

«الأشاعرة وفلسفتهم حول القدر التي حلت محل عقيدة المعتزلة العقلانيين الذين آمنوا بحرية الإرادة، فلقد أصبح مذهب القدر قوياً جداً بعد غارة المغول وسقوط بغداد عام 1256 على أيديهم». توقف تنوير مرة أخرى واستمرّ بانفعال أقل، «هل تعلم أن المغول ألقوا جميع كتب مكتبات بغداد في نهر دجلة، واستخدموها قنطرةً، واسودَّت مياه دجلة بالحبر».

«من هم الأشاعرة؟ بالله عليك»، كررت ماري سؤالها.

«زعم الناس بعد سقوط بغداد أن مشيئة الله أرادت تدمير كافة الإنجازات الفكرية للإسلام، والإطاحة بالخلافة على أيدي الهمجيين. القضاء والقدر مبدآن من صلب عقيدة الأشاعرة، ومازال أغلب المسلمين يؤمنون بهما».

«ثمة مفارقة أخرى تتمثل في أن راجا رام موهن روي تثقف في مدرسة عربية وتأثر بفلسفة المعتزلة، وهو أحد العقلانيين والمفكرين الهندوس الذين أجروا إصلاحات في المجتمع الهندوسي، حين تخلى عنهم المسلمون قبل ثمانية قرون».

«ولكن المذهب السني لم يعتنق عقيدة المعتزلة»، علق جاكوب بلهجة خبير. استمرت المناقشات مدة طويلة حتى تفرقنا في الساعة الواحدة والنصف ليلاً، واتجهنا إلى مقهى المطار لاحتساء القهوة لقد وصلتُ إلى البيت قبل ساعة واحدة فقط، ولم يغلبني النوم، فبدأتُ كتابة هذه الرسالة إليك.

الآن، سأخبرك بنبأ عظيم، بالأمس أنا، الدكتور كمال رضا الثوري والمؤمن القوي بمصير الهند المتحدة وعظمتها وما إلى ذلك، عينت في وظيفة بمرتب ألف ومائتي روبية شهرياً. وقد كُلفتُ بإنشاء مختبر في باكستان الشرقية، وقد يتم إرسالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية لشراء بعض الأجهزة. في الأسبوع المقبل سأتجه إلى الجناح الشرقي، وسأكتب إليك من دكا.

انبلج الصبح، قضيت الليلة كلها في كتابة هذه الرسالة التي تحوي أفكاراً مبعثرة، نزعت الستائر للتو، ونظرتُ إلى الخارج، لقد هبت كراتشي من نومها، وهي تتأهب الآن للذهاب إلى العمل، مئات الألوف من الناس يقودون الدراجات العادية والدراجات ذات الثلاث عجلات (ريكشا)، تتحرك الحافلات متجهة إلى المصانع وورش العمل. معظم هؤلاء من المهاجرين، وهؤلاء الذين يشار إليهم في حزبنا بمصطلح الحشود المحبوبة، هذا ليس خطأهم يا طلعت. هم يستحقون العيش بسلام والأكل والنوم تحت سقف على الأقل. أرى الحشود الهائلة من العمال في طريقهم إلى «شركة باكستان للتنمية الصناعية» وهي المرفأ الذي مازال قيد الإنشاء في الوقت الحالي.

إنه لمنظر خلاب حقيقةً؛ هؤلاء يمثلون طبقة البروليتارية الجديدة، التي ستحدث ثورة اجتماعية في باكستان. من الغباء أن نفكر أن الهند التي انقسمت يمكن توحيدها مرة أخرى، علماً أن خريطة العالم تتغير بعد كل حرب عالمية، وقد تغيرت بعد عام 1945م أيضاً.

ذات مرة استعرت كتاب لين يوتانغ «ورقة في مهب الريح» من هاري شانكار، انتهيتُ من قراءته وأنا جالس في غرفتي المريحة بغولفيشان.

فهل أعتبر نفسي مجرد ورقة مرتعشة طارت بها الرياح من حديقتي الوردية الواقعة في غولفيشان؟

تصوري مدى معاناة الفلسطينيين. لقد وجدتُ منزلاً لنفسي، أما هم فلم

يجدوا بيوتاً بعدُ، لقد حلمت دائماً بالبناء وليس بالتدمير، هل تظنين أنني سأسمح لنفسي أن تتيه في متاهة اليأس؟ لا، يا طلعت، لن أسمح أن يحدث معي ذلك.

سأبني من جديد.

أولاً، سأبني لنفسي بيتاً، ها، ها.

ثمة شركة مشهورة للمهندسين المعماريين الإيطاليين بنت قصراً لعامر رضا، زوجة السيد عامر رضا كلبة ملعونة. أخبار حفلات عشائها الباذخة تُنشَر في مجلة اجتماعية لامعة، اسمها «ذي ميرور». إنها مصممة على إعادة تأهيلي. (أختها الصغيرة تدرس في نيني تال، أوترا براديش). أخت زوجة أخي اللعينة رتبت شراء قطعة أرض لي بمساحة ألف ياردة مربعة بواسطة أحد أعمامها المؤثرين، وسوف أحصل على قرض لبناء البيت يبلغ ستين ألف روبية من القسم الذي أعمل فيه. عندما جاء السيد الإيطالي أمس لزيارتي حاملاً في يده مخطط البيت، أردت أن أنتّف شعري وأصرخ.

سيمكث والدانا في المبنى الملحق ببيت ابن العم عامر حتى يكتمل بناء بيتي. يقضي أبي نهاره في مطالعة الصحف، ولا يتكلم كثيراً، أما أمي فمازالت تزور صديقاتها وجيرانها الذين هاجروا من لكناؤ. أفهم مدى معاناة والديَّ. توفي الخال أسد بسبب كبر السن والوحدة في نيلامبور.

حبي لك

كمال

ملحوظة: لقيت روشن كاظمي في حفلة، إنها متزوجة وتبدو على ما يُرامُ، أصبحت ساجدة بيجوم زعيمة سياسية، لم تتغير. «هذه مأساة محزنة»، قالت لوكالات الأنباء في رسالة العزاء أمس عندما توفّي أحد الوجهاء. وددت أن أسأل الأخت ساجدة ماهي المأساة الجميلة؟ ربما سترد: «أنت يا عزيزي كمال».

67

الطريق إلى سيلهت

كانت الهند في العصور الوسطى تشمل مقاطعات: جونفور، وغوجرات، وبنغال، ومالوه من عهد السلاطين. يعود قصر هندولا لماندو وأربع وثمانون قبّة لكالبي إلى هند ما قبل العهد المغوليّ. وضع يده على الأحجار الرماديّة الباردة الّتي جمعت الماضي والحاضر في بوتقةٍ واحدةٍ. تأمّل زخارف مزيّنةً وأرابيسك، وأزهار اللوتس، وتماثيل الراقصات «غندهربهاس»، والأفيال. لمس طوب المنارات الممشوق، وسار بين المتاهات جيئةً وذهاباً، وأطال النّظر في قاعات قلاع العصور الوسطى التحتية المظلمة. لطالما مرّت بنتٌ قرويّةٌ بقوسٍ منكسرةٍ تهشّ على قطيع الماعز، أو قفز ولدٌ صغيرٌ من فوق شجرة البيبال في مياه بئرٍ قديمةٍ مظلمةٍ. ذات مرّةٍ وصل سائلٌ أعمى مِعْوِز إلى قصرٍ مهجورٍ، وجلس بين الأعمدة المتداعية، ودخّن الشّيشة. ألقت السّماء الصّافية الزرقاء ظلالها على القباب الفارسيّة اللّامعة والسّاحات الصّامتة، وتصاعدت السّحب من تلال غاتس الغربيّة المكسوّة بالضّباب، واصطدمت بمساكن الصوفيّين في بيجافور، واستحمّت هندُ العصور الوسطى الحزينة الصامِتة المهجورة بمياه المطر الغزيرة، وتنفّست الحشائش والأعشاب الصّعداء حين هبت الرياح الشديدة.

رجع إلى دار الضيافة داك بنغلا عند المغيب، وتناول كأس الشراب في

الحوش. جهَّز الطبّاخ عشاءً إنجليزيّاً لذيذاً، تلته حلويات بنكهة السّكر المحروق. كيف استطاع أن يطبخ هذه الوجبة في هذه الأماكن المهجورة وفي وقتٍ قصيرٍ؟ إنّها طبعاً إحدى عجائب الهند.

شعر بقليلٍ من الارتباك لأنّ الجمهور كان ينظر إليه بتوجّسٍ، حتّى المثقفين الهنود أصبحوا واعين جدّاً بذواتهم في حضوره. مازالت هالةُ الرّجل الأبيض تحيط بشخصيّته. شعر في بعض الأحيان أنّه شخصٌ استثنائيٌّ، لعلّ القبّعة الشمسيّة وتأثير المنطقة الاستوائية كان لهما أثر في ذلك، حينئذٍ أدرك ما قالته تشامبا في المرّة الأخيرة عبر التليفون عن عقدة الشّعور بالأفضليّة لدى الإنجليز.

في الولايات الأميريّة السابقة، وجد أنّ عامّة الجماهير تكن حباً وتقديراً لأسيادهم الإقطاعيّين، وهذا هو السّبب الذي جعل ملوكاً وسلاطين ونواب الملك الإنجليز يحكمونهم. لقد أحبّوا الفخامة والأبّهة بقدر ما أحبّوا الخضوع للسلطة.

دخل طبّاخ داك بنغلا، وقال بلهجةٍ مختلفةٍ قليلاً: «سيديّ، العربةُ جاهزةٌ لتقلّ حضرتكم إلى محطّة القطار». عاد إلى مدينة كلكتا، وأخذ طيّارة داكوتا المتّجهة إلى دكا، ثم سافر إلى سيلهت في قطارٍ مزدحمٍ جدّاً.

كانت سيلهت وجهته الأخيرة.

توقف القطار بهزّةٍ في محطّةٍ صغيرة بجانب الطّريق، وسمع أصواتاً متنوّعةً رغم أنّ النّعاس قد غلبه.

«بيض مسلوق.. شاي ساخن.. شاي ساخن.. بيض مسلوق.. موز.. موز...».

رفع مصراع النافذة، ونظر إلى الخارج. حمل النّسيمُ الباردُ أريج الأرض

المحروثة حديثاً. نزل هندوسيٌّ مسنٌّ أحدب يحملُ عدداً كبيراً من الأحزمة الصّغيرة وسار على الرصيف بسرعةٍ. ثمة سيدات هندوسيات يضعن «سيندور»[1] على مفارق شعرهنّ، بنات صغيرات في سوارٍ متعددة الألوان، وسادة هندوس في لباس «دهوتي» أبيض، ومسلمون في لباس السارنغ متعدّد الألوان، وأطفال نصف عراة، وحراس أنجلو - هنود، وحاملو المحفّات. تحرّك القطار، وتلاشى ضجيج الأصوات البنغاليّةِ في الظّلام المتنقّل، مرَّ القطار سريعاً بالبحيرات الصغيرة التي غطّتها زنابق الماء.

في بعض الأحيان، بالإمكان رؤية امرأة واقفة على باب كوخها المسقوف بالأوراق والأعشاب الجافّة في ثنايا بساتين الفواكه البريّة، وفي لحظةٍ، امتزج ساريها الأرجواني بالظّلمة. وقفت النسوة يحملن الفوانيس. ما هي قصص حياتهنّ؟ ورؤيتهنّ للعالم؟ وفلسفتهنّ؟ ومسافة الوقت التي قطعنها بين الحياة والمات؟ المعاناة..الحرمان.. المجاعة.

أغمض عينيه مرّةً أخرى.

أنزل علينا المطر يا الله، أعطنا الأرزّ... أعطنا الأثواب. طرقت كلمات الأغنية الشعبيّة البنغالية مسامعه، كان قد سمعها قبل أيّام في حفلةٍ ثقافيّةٍ في دكا. أعطنا الأرزّ يا الله... كيف نظر إلى البنغال نظرةً رومانسيّةً؟!

توقّف القطار في محطّةٍ أخرى، لاحت العمامة الأنيقة لحمّالٍ محترمٍ أمام عينيه النّاعستين..

«العشاء.. يا سيدي ؟» همس الحمّال باحترامٍ شديدٍ.

أومأ ورفع بطانيّته.

لقد اشتغل عمّالُ أوترا براديش الشرقيّة في مزرعة الشّاي التي يملكها في

(1) مسحوقٌ أحمر/ لونٌ أحمر تضعه السيّدة الهندوسيّة المتزوّجة على مفرق رأسها كدلالةٍ على كونها متزوّجة.

منطقة سيلهت. رام دايا، ورام أوتار، ولكشمن، وسيتا تريلوجن، وشمبيليا.. ثمة اسمان حظيا بالقبول، وشاعا لدى الهنود الشرقيّين هما: رام وسيتا.. رام وسيتا، هذان الاسمان يمثلان العهد الذهبيّ للهند.. العهد الكلاسيكيّ.. العهد البطوليّ.. أيودهيا لكشاناواتي.. شراوستي.. رام تشاندرا... أوده وجنك كماري سيتا من ميتهلا... رام وسيتا.. العمّال الذين يعانون من نقص التّغذية في مزرعة الشّاي التي يملكها.

«العشاء.. يا سيّدي. القهوة أم الشاي؟». وضع الحمّال الصينيّة أمامه.. جلس سيريل، وتذكّر أنّه كان عليه أن يصل إلى سريمانغال في الميعاد، وعليه أن يتجوّل في رانغا ماتي، وجندرا غهونا، وبندربن، ويجب عليه أيضاً أن يكسب المزيد من المال.

وصل القطار إلى سيلهت صباحاً، كان يورسين وبيتر جاكسون ينتظرانه حسب العادة في المحطة.

في ساعةٍ متأخّرةٍ من المساء، ركبوا مباشرةً باتجاه نهر سورما.

ركب الشيوخ والعجائز، الذين حملوا المصابيح الدّخانيّة، السّفينة المصنوعة في البلد، ووصل النّاس في جماعاتٍ إلى الضّفة. عادت السّفينة التي تعمل بالمحرّك من الضفّة الأخرى. تلا متسوّلٌ أعمى آيات قرآنية بصوت عالٍ حلو مؤثّر، وركب رجلان كفيفان السّفينةَ، في حين جلست سيّدةٌ كفيفةٌ تحت شجرةٍ دونما حركةٍ. ربطت الألواح الخشبيّة بسفينةٍ ذات محرّكٍ، وسيقت سيّارة المرسيدس إلى الرّصيف.

استأجر بيتر سفينةً، تحرّكت السّفينة وتركت ضفّة النهر وراءها. فجأةً هبّت رياحٌ عاتيةٌ، وبدأ الزّورق يتأرجح يميناً وشمالاً.

أخذ سيريل أشلي الفانوس في يده، ونظر حوله بقلقٍ: «بيتر.. هل هبّت

علينـا العاصفة؟»، ثمّ دعا المـلاح: «أقول، بماذا يدعونك هنـا! أيها الملّاح؟» سأل بالبنغاليّة المكسّرة.

«أبو المنصور.. سيّدي..».

«أبو المنصور.. دعني أساعدك بتحريك المجاديف».

«كلّ شيءٍ على ما يرام يا سيّدي. الله هو رُبّاني» ردّ عليه بهدوءٍ.

اسـترق سـيريل نظـرةً تحت السـقف. يحمـل الـزّورقُ كلّ أمتعة الشّـيخ أبي منصـورٍ كـمال الدّين الدنيويّـة: الفانوس، والسـجّادة، والأواني والمقالي، وشيشـة جوز الهند هذا كلّ متاع الملّاح العجوز ذي الشـعر الأبيض، أما هو فقد ارتجف في أمواج نهر بادما الغاضبة.

أحـسّ سـيريل بالغربـة. فـرك عينيه المتعبتـين، وحـاول إقناع نفسـه بأنّ هـذا حقيقـيٌّ، وأنّ سلسـلةً من الأحداث التـي لا معنى لها أتت بـه من أزقّة كامبريـدج إلى هذا القارب في هـذه الأرض الجميلة الأسـطوريّة التي تدعى بنغـال الشرقيّـة، باكسـتان. نظر حوله مـرّةً أخرى، فرأى أشـعّة مـن الضّوء الأصفر السّاطعة تمتدّ على المياه الدّاكنة. انبعثت من قارب كبير مرّ بسرعة، مما سبب الرعب. وطلع البدر ببطءٍ وراء أشجار الصّفصاف.

68

سركت هاوس

عـادت لذهنـه ذكريات الأيام السّـعيدة التي قضياها معاً. حدّق سـيريل أشـلي في الجبـال الزّرقاء البعيـدة الممتدّة الّتـي يقع خلفها بلدٌ غامض اسـمه بورما.

«هل يمكننا أن نذهب إليها على ضوء الشّمعة؟» استغرب سيريل.

«كم ميلاً إلى بابلٍ؟» ردّ كمال بالنّبرة نفسها.

تسلّل كلبٌ ضالٌّ جائعٌ إلى فناء البيت من فتحات السّياج الخشبيّ، فأعطى سـيريل الزّائر الجائـع قطعةً من اللّحم. «لعلّه فرّ مـن الصّين الحمراء» لاحظ كمال وهو ينظر إلى الكلب بجدّيةٍ. «هذا هو الكلب المناهض للشـيوعيّة، لقد جاء إلى هنا بحثاً عن الحريّة»..

«أنت مازلت تتحدّث كما كنت تتحدّث في كامبريدج!».

«لا أتـردّد في القـول إنّ ملاحظتـك قويّـةٌ وعميقـةٌ». ردّ كـمال، وأعطى الكلب شـطيرة دجاجٍ. «لا، يا سـيريل. أستطيع إثبات حسـن نيّتي». أخرج الجواز الأخضر اللّامع الجديد من جيبه وأراه لصديقهِ.

«هـل جئت إلى هنـا بهـدف التخطيط لمصنع الـورق في كرنفـولي، معظم النّاس يأتون إلى هنا لهذا الغرض».

«لقـد جئـتُ إلى هنـا لأقـوم بالمسـتحيل، مـا شـأنك أنـت؟ ألم تـأتِ إلى

هنا لتمتصّ دماء العمّال البنغاليين الفقراء البائسين.. كما فعل أجدادك المشهورون. واه.. حسناً.. أعترف بأنّني متمرّدٌ إلى حدٍ ما.. إذن؟»

سيتورّط في نوبةٍ أخرى من لعنة الذّات، فكّر سيريل بكآبةٍ، وأمسك كوب الشّاي.

وصل «صاحب المعالي النّبيل سيريل هاورد أشلي» إلى أراضي هضبة شيتاغونغ قبل يومٍ، عابراً الكثير من الأنهار والتّلال والآجام. لقد سافر من سريمانغل إلى شيتاغونغ حيث يتمّ تصدير الشّاي الذي تنتجه مزرعته إلى الأسواق العالميّة الكبرى.

ولمّا سمع أخوه اللورد أشلي خبر تطليقه السّيّدة روز، تنفّس الصّعداء، لقد رجع الضالّ عن حياته البوهيميّة. مازال اللورد أشلي يمتلك مزارع شاي في سيلهت. ذات مساءٍ، دعا سيريل إلى ناديه بالقرب من غرين بارك وقال: «هل تريد أن تصبح مُزارع شايٍ من أجل التّغيير فقط؟ سيكون لك الوقت الكافي لتتصرّف مثل اللّورد كورنواليس».

أومأ سيريل بالموافقة، فليس ثمّة مجال للجدل في الحياة.

زار مناطق هضبةٍ العمل، ورجع في المساء الأخير إلى رانغاماتي سركت هاوس، حيث رأى شابّاً متكئاً على سور الفناء المطلّ على نهر كرنفولي، وعندما سمع وقع قدميه، استدار الشابّ والتفت إليه، كان ذلك الشاب كمال رضا. «الدكتور ليونغستون، أعتقد؟» ابتسم.. وحكى لسيريل كيف اضطرّ للهجرة إلى باكستان، كما أخبره عن جولته في الجناح الشرقي لباكستان قبل أن يشرع في إنشاء المختبر في دكا. تحدّثا عن الأصدقاء القدامى. «أنا هنا منذ أكثر من ثلاث سنواتٍ». قال سيريل. «لقد انقطعت صلتي بهم».

«أصبحت تشامبا محاميةً، وقد عادت إلى الهند. تُزوّدني طلعت بكلّ

المعلومات بشكلٍ متواترٍ. فورَ إقرار مشروع القانون الهندوسيّ، تطلّقت شانتا من زوجها، وتزوّجت بيل كريغ. أما نرجس كواسجي فقد قتلت».

«قُتلت؟»

«حدث ذلك في شهر عسلها حين كانت تبحر في قاربها (اليخت) الشخصيّ. زُعم أنّ زوجها البريطانيّ هو الذي قتلها، ولعلّ ذلك من أجل المال».

تقع صالة السينما القصبيّة عند منحنى النهر، بالإمكان سماع الحوار الأردي في فيلم «بايجو باورا» الفيلم الهندي الرائج في سكوت الليل وهدوئه التام. دوّت أغاني المطربة الشهيرة لتا مانغيشكار، استمع إليها كمال بإمعانٍ. إن صوت لتا مانغيشكار هو الجسر الذي يصل بين الدولتين المتنازعتين. فكّر كمال في نفسه.

«هل أنت على علم بوجود لتا مانغيشكار»، سأل سيريل دون قصدٍ.

«لتا.. مانغ.. من.. ؟.». كرّر سيريل بعجبٍ.

جاء رئيس الطبّاخين بالشّاي الطّازج.

كان الحاكم العامّ لباكستان، الجنرال إسكندر مرزا العضو السابق في هيئة الخدمة السياسيّة الهنديّة والبريطانية، قد عاد إلى كراتشي من بانداربان بعد أن انتهى من مغامرة صيد الأفيال.

لقد جرى تجديد «سركت هاوس» القصبي بشكلٍ خاصٍّ من أجل القائد العسكريّ (الجنرال)، وقد ذكّرته الأبّهة التي رآها في هذه المناسبة بأيّام السير فريدريك بورني السعيدة في الماضي.

«لا بدّ أنّه كان ثمة احتفالٌ كبيرٌ في الأسبوع الماضي»، لاحظ كمال.

«نعم يا سيّدي، إنّ صاحب المعالي المبجّل رائعٌ ومبهرٌ شأنَ الحكّام

البيض الحقيقيّين في السابق. سيّدي، نظر الطباخ حوله وهمس، المكان يحفل بالمشاغبين، وهم موجودون هناك أيضاً. إنّهم في كلّ مكانٍ حقيقةً».

وهنا؟.. أحسّ كمال بأنّ الإرهابيين اليائسين يتربّصون بهما في الغابات المحيطة، ويمكن أن يهاجموهما في أيّ لحظةٍ ويقتلوهما، عندئذٍ قد يطلق عليهما لقب «الشّهيد». أدخلت الفكرةُ الطمأنينةَ إلى قلبيهما. أقام كمال وسيريل في رنغا ماتي أسبوعاً. حاكم هذه المنطقة هو رئيس قبائل تلال باكستان الشرقيّة، درس في أكسفورد، وقد دعا سيريل وكمال إلى العشاء في قصر السّلطان الكائن على حدود النهر، رأى كمال مشهداً مؤثّراً لإمارةٍ هنديّةٍ محتضرةٍ، زيّن مدفعٌ صغيرٌ الحديقة حيث يوجد بقربها معبدٌ مبنيٌّ بالحجارة البيضاء.

أُضيء القصر الملكيّ غير المبهرج بمصابيح كهربائيّةٍ باهتة الضوء، وزيّنت جدرانه بصور زيتية لأسلافه من الملوك في اللّباس المغوليّ، «إن بعض هؤلاء الحكام من بنغال وآسام في العهد المغولي». أخبر سيريل كمال سريعاً بصوتٍ خافتٍ عن مجلّدٍ مهترئٍ *لإمبريال غازيتيرس* حول هذه المنطقة موجود على رفّ غرفة استقبال سركت هاوس، «لذا فإن هذا الفتى نصف مغوليٍّ من النّاحية العنصريّة، يدين بالهندوسيّة البوذيّة، ومن النّاحية العرقيّة قد يكون مغولياً أو بورمياً تبتياً. لتاريخ الهند متاهاتٌ قد تدفع بالمرء إلى الضّياع فيها».

«هل جئت من باكستان؟». سألت راجماتا (الملكة) بمودّةٍ.

أصيب بالارتباك قليلاً. «أليست هذه المنطقة أيضاً جزءاً من باكستان؟» أم هي؟ فكّرَ في السؤال. ماذا تعني كلمة البلد بالتّحديد؟

البيت الملكيّ والعالم الخاص الذي يتضمّنه، ينتمي إلى أيّ البلدين الهند أم باكستان؟

«عليك أن تزور سيتاكوند». اقترحت الملكة، «يوجد هناك مخزون كبريت

في أعلى التلّ، تضرم النّار طيلة السّنة في معبدٍ هناك. إنّه مكانٌ جميلٌ».

عندما غادرا، طأطأ كمال رأسه بالتّحيّة الرسميّة، وبذلك أحيا المراسم الإقطاعيّة السّائدة في لكناؤ دون وعيٍ منه.

«وداعاً أيّتها الملكة... وداعاً يا جلالة الملكة..». قال مزهوّاً.

في الصّباح التّالي، عادا بالسّيارة إلى شيتاغونغ، وركبا قطاراً متجهاً إلى سيتاكوند. دخل مفتّش التذاكر المقصورة، وفحص تذاكرهم، ثم مال على الحائط.

«تفضّل بالجلوس. هل تدخّن؟» عرض عليه كمال سيجارةً. حدّق الشخص فيه بدهشةٍ، ثمّ جلس على حافّة المقعد بشيءٍ من التردّد.

«هل تنتمي إلى هذا الجزء من المحافظة؟» سأله كمال ليجعله يشعر بالرّاحة.

«نعم يا سيّدي. قريتي هنا بالضّبط على امتداد بستان جوز التنبول»، ردّ وهو يشير إلى خارج النّافذة. لقد اطّلع كمال خلال الرّحلة على أشياء كثيرةٍ تخص هذا المفتش، فاكتشف أنه يعاني من مرض السلّ، وأنّ راتبه زهيد، فضلاً عن أنه يكفل خمس أخواتٍ بلغن سنّ الزواج، وهو غير راضٍ البتّة عن الوزارة الحاليّة في دكا.

كانت بصيرته السّياسية مدهشةً. ناقَشَ كطالبٍ جامعيٍّ، وتحدّث الإنجليزيّة بطلاقةٍ. إنّه موظّفٌ حكوميٌّ عاديٌّ مصاب بمرض السّل، قضى حياته في تفتيش التّذاكر في أحد فروع شركة بنغال الشرقيّة للسّكك الحديدية.

«قبل إنشاء باكستان، نادراً ما كان المسلمون يسافرون بالدّرجة الأولى أو الثانية. المسلمون البنغاليّون ضعفاء جدّاً اقتصاديّاً». واصل الرجل حديثه بكلّ جدية.

«الآن أشعر بغبطة كبيرة حين أرى إخواننا المسلمين يسافرون في عرباتٍ مكيّفة الهواء».

وصل القطار إلى المحطّة التّالية.

«هل أقول لك شيئاً»، نهض مفتّش التذاكر عن المقعد، وخاطب كمال قائلاً: «أنا أسافر في هذا الطّريق منذ عام 1947م. أنت أوّل مسؤولٍ رفيع المستوى من باكستان الغربيّة يتكلّم معي بلطفٍ، ويطلب مني الجلوس. سأذكرك دائماً». نزل من المقصورة واختفى في الحشد.

«نودّ زيارة معبد سيتا». قال كمال لحمّالٍ عابرٍ عندما نزلا في محطّةٍ إلى جانب الطريق.

«لا تذهب إلى هناك في هذا الوقت يا سيّدي. يقع المعبد في أعلى التلّ، يوجد هناك نمورٌ وأفاعٍ كبيرة، سيكون الوقت قد تأخر كثيراً حينما تعود من هناك». قال ناظر المحطّة باحترام، وهو يتقدّم إلى الأمام.

«لا... يجب أن نذهب». ألحّ سيريل. سرعان ما انتشر خبر وصولهما في القرية. جيء بمحفّةٍ إلى الرّصيف، وأطلّت شابّةٌ تجلس فيها من خلال السّتارة الحمراء.

«هذه ابنة عالمنا (المولوي)، عائدة إلى بيت صهرها». أخبره الحمّال.

أقبل شرطيّ السّكك الحديديّة إلى الزّائرين. «تفضلا معي يا سيّدي. إن كنتما مصرّين على الذهاب إلى هناك سآخذكما إلى القرية». مشوا في المسار الطينيّ. كان النّسيم البارد يعبق بشذى الورد البريّة الجميلة. راح على الفور الشرطيّ يناقش الأمور السياسيّة كارتفاع الأسعار، والمجاعة المصطنعة، وحزب العصبة الشعبية «عوامي ليغ»، وإيه كيه فضل الحق. أحسّ كمال بالملل، بدا أنّ كل فردٍ في هذه المحافظة يحمل وعياً سياسياً متقدماً، ولم يعد

يخامره الشك أنّه الآن في بنغال.

لاحظ كمال على الفور أنّ ولداً صغيراً تبعهم طوال الطريق، وقد قال شيئاً للشرطيّ بلهجة شيتاغونغ.

«يقول برافلا: إنّه سيأخذكما إلى المعبد»، أخبر الشرطيّ كمال.

«مرحباً.. برافلا». صافح كمال وسيريل هذا الولد.

لقد رُشَّ شارع البازار الطينيّ بالماء مؤخّراً. اجتمع النّاس أمام الدّكاكين الصغيرة، يتجاذبون أطراف الحديث، ويقرأون الصّحف. دخل سيريل سوقاً صغيرةً، فبدا كعملاقٍ أبيض، توقّفا أمام مطعم صغير بُني من البامبو، جلس فيه بعض الرجال القرفصاء على دكّاتٍ خشبيّةٍ يقرأون الصّحف البنغاليّة. انبعثت أغنيةً لطاغور من غراموفون، غنّتها ليلى أرجمند بانو مطربة باكستان الشرقيّة الشهيرة. عرضت على جدران البامبو إعلانات لأفلام بنغاليّة حديثة من كلكتا. هذا عالمٌ آخر يختلف تماماً عن باكستان الغربيّة. «نريد شاياً ساخناً جدّاً لدى عودتنا». قال كمال لصاحب المطعم. «إنّنا ذاهبان إلى التل». لقد جلب القرويّون بالفعل الفواكه والحلويات لهما من بيوتهم.

«أنتما ضيفانا، ومن واجبنا إكرامكما». قال مسلمٌ ملتحٍ لكمال وقد أصرّ عليه أن يأكل الموز. «هل هؤلاء هم الذين تقاتلوا فيما بينهم عام 1947م؟» استغرب كمال واحتار.

«كلّ عقلٍ بشريٍّ هو نتاج تطوّر مليون سنةٍ» لاحظ سيريل، وأضاف: «أحياناً يغلب الجزء الحيوانيّ على ذهن الإنسان».

اتّجها إلى التلّ برفقة برافلا ذي القسمات الجدّية، بدأ الهندوس المحليّون استعدادات الاحتفال بعيد سرسوتي على الرغم من أنّ العيد كان مقرّراً بعد شهور. ثمّة تماثيل طينيّةٌ جميلةٌ هشّةٌ للإلهة ملقاة على العشب مطليّة باللّون

الأبيض اللّامع، وضعها الخزّافون القرويّون في الشمس لتجفّ. بعد أن قطعوا مسافة قصيرة، صادفوا خزّاناً من الحجر الأحمر محاطاً بالمعابد ذات الحجارة الحمراء أيضاً. مروا بمكانٍ آخر حيث كانت الفتيات الشابّات جالساتٍ يتجاذبن أطراف الحديث على ضفة بِركةٍ.

ومن خلال أوراق الأشجار الكثيفة، والسلالم المتعرّجة، وصلا إلى أعلى التلّة. اختفت المعابد الهندوسيّة القديمة ذات الشكل الجرسيّ بين الأشجار على طول الطّريق إلى القمّة. لقد دفن عددٌ كبيرٌ من اليوغيّين المجهولين في وضعيّة الجلوس في هذه المقابر، اشتعلت النار فوق مخزون الكبريت فوق التلّ.

«ترك الملكُ الشّريرُ، راون، الملكةَ سيتا هناك لعدّة أيّام قبل أن يختطفها ويأخذها إلى سيريلانكا». علق برافلا بطريقة مباشرة، وكأنّه يفيدهم بحقائق تاريخيّة. كان النّاسكون الهندوس يذهبون إلى أسفل التلّ. صعد سيريل وكمال السّلالم ثانيةً، فلاحت القمّة بالقرب، وصدر صوتٌ كالنّغمة من الشّلال تحت القوس المنكسرة، اختلطت أصوات صفّارة القعقع العائد، وحفيف الأوراق، وهدير المياه المنسابة، وحسيس لهيب الكبريت الخافت، وترتيل الآيات الفيديةّ بعضها ببعض، وتصاعدت ببطءٍ كالبخور الكثيف. تسلّق برافلا مثل قردٍ قانعٍ «سيّداي، كونا حذرين، لأنّ هذا المكان مليءٌ بالعقارب والحيّات».

بهت ضوء الشمس في الظّلمة المتسارعة. «لنرجع، علينا ركوب قطار السّاعة الحادية عشرة»، قال كمال لسيريل بعد دقائق.

كان الناس ينتظرون عودتهم في مقهى القرية بفارغ الصّبر، دخلاه كأنّهما من سكّان القرية، وجلسا على دكّةٍ خشبيّةٍ، ثم قدِّم إليهما الشايّ الحار،

والبسـكويت الرّخيص، والحلويات الشـعبيّة باحـترام. وقف المضيفون على مسـافةٍ خجلين متحمسين لإرضاء الضّيفين. لم يقبلوا أيّ مبلغٍ من «الزائرين المقدّسـين» لقاء الخدمـة، رافقهما عددٌ كبـيرٌ من أهل القرية إلى المحطّة. سـار برافلا معهما صامتاً مثل صديقٍ قديم.

لم يضايقهـما الصبيّـان بطلب البقشـيس، كما رفض برافلا أيضـاً قبول أيّ إكراميّةٍ، بل وبدا مجروحاً جدّاً عندما قدّم له كمال عملة خمس روبيّاتٍ.

«لترعاكم «بان بي بي» (سـيّدة الغابة)[1] في رحلتكما». قال الشرطي عندما وصل القطار.

(1) يعتقد المسلمون القاطنون في غابات البنغال الشرقيّة أنّ السيّدة فاطمة ابنة الرسول صلّى الله عليه وسلم هي حامية الغابات ومحافظتها.

69

مَزارِع الشّاي

بعـد أن عبر كمال وسـيريل الأنهار والغابات والمناطـق الخلّابة في مولوي بازار، وصلا أخيراً إلى مقرّ سـيريل أشلي بسريمانغل في مقاطعة سيلهت. يقع منزله على تلٍّ، استطاع رؤية ضوئه من بُعدٍ.

فجـأةً أحـسّ كـمال أن سـيريل أشـلي الأنيـس القديم قـد تحـوّل إلى «بُرَّا صاحـب» (المُـزارع الأبيـض التقليدي للشـاي) عـبر عملية تحـوّلٍ صوفيةٍ. دخلت سـيارته سـقيفةً فخمةً، وهو رافع رأسـه، وممسـكٌ منديلـه على أنفه، وينظر إلى الأمام. صعد سيريل درج الحوش، فهرع إليه عامله المنزلي ليمسك قبّعته الشّمسـية ونظّارته. طأطـأ بعض العمّال الواقفين في الخارج رؤوسـهم إجلالاً له، دعا سيريل بلهجةٍ آمرةٍ: عبد الرّحمن.. جيئ بالماء، ثم مشى بوقار نحو غرفة الضّيوف. «استحمّ أوّلاً... العشاء السّاعة التّاسعة». قال لكمال.

ازدان منزله بأثاثٍ ثمينٍ من خشـب الساج، زينت حيطانَه جلودُ الأسود ورؤوس اليحمور والبيسـون (الثور الأمريكيّ). أحسّ كمال أنّه عاد إلى هند عام 1938م. تذكّر الجوّ المماثل في غولفيشـان بلكناؤ، وفي خيابان بدهرا دون. أعاد عطاء الرّحمن ذكريات أمير خان، وعندما دعا سيريل السّائق، فكّر كمال للحظةٍ أن قدير سيأتي سيراً على قدميه..

«المنفـى، المنفى. يا إلهي. لماذا رميتني في المنفى». كان مسـتلقياً على كرسيٍّ

مريحٍ في غرفته، وقد غطى عينيه بيديه.

مـرَّ العمال برواقٍ مفـروشٍ بالجوت. حامَ المحاسـب البنغاليّ في الحوش، في حين جلس ممثّلُ العمّال على درج السّـقيفة. كان الجميع ينتظرون سـيريل، خيّم صمتٌ مهيبٌ على المنزل. وقف الحمّال والخدم والطبّاخ والولد والمحرر الأنجلو هنـدي، جوزيف لاوارنـس، والحجّاب جميعاً باحـترامٍ فائقٍ. رجع السّـيد سيريل بعد عدّة أسابيع وكانت بعض الشّـؤون المنزليّة تقتضي انتباهه بشـكل عاجل. كان سيريل أشـلي واحداً، ولكنّ طاقمه الشخصيّ ضم عدداً كبـيراً من الرّجال: البسـتانيّ، وقاطع العشـب، وراعي الفـرس، وحمّال الماء، والحارس. رُبط زورقه البخاريّ الشخصيّ في مرفأٍ قريبٍ.

كان هو سيريل هاورد أشلي نفسه الذي كان يشق طريقه قبل أيّامٍ في أزقّة كامبريـدج الصّامتة، في يده كتب بودلير ومالارميه، يأكل السّـمك والرّقائق في مطعمٍ برفقة مايكل ودينيز المملّة.

في الصّبـاح، تناولا الفطور في «غرفة الصّباح»، وبعد ذلك، لبس سـيريل قبّعته «سولا»، وركبا سيّارة المرسيدس، في حين ركب المحاسبون والمحرّرون الذين ترأّسـهم جوزيف لورانس وبيتر جاكسـون عدداً من سيّارات الجيب، اتجـه الموكب إلى مزارع الشّـاي، أطلع سـيريل كمالَ على مصنعـه، ثم ذهبا إلى نادي المزارعين حيث واصل سـيريل تثقيف كمال بالطّرق المختلفة للتمويل، ثمّ ناقش مع زملائه المزارعين سـوق الأسـهم في نارايين غنـج، وسرح النّظر في صفحات إحدى صحف «استيس مـان» الاقتصادية الصّادرة من كلكتا، وصحيفـة «أمريتا بـازار» البنغاليّة، وصحيفـة «مورنينغ نيـوز» الصّادرة من دكا، ثم انشغلوا بارتشاف البيرة، واختفى كمال.

«هل رأيت السّيد رضا؟» سأل سيريل بيتر جاكسون بعد برهةٍ.

«أظنّ أنّي رأيته يذهب إلى حدائق الشّاي مع نور الإسلام تشودهري، سيّدي.». جاء جوابه محمّلاً بمدلولات عميقة.

«نور الإسلام تشـودهري..؟» كرّر سيريل.. كان تشودهري ناطقاً باسم العـمّال، وقد جـاء للقائه في اللّيلة السّـابقة، وقد قيل لـه أن يحضر إلى المكتب صباحاً. ذهب سـيريل إلى مزرعته للبحث عن صديقه. أوقف سيّارته تحت الأشـجار الكثيفة، ومشـى إلى الشّـجيرات. دوّت الأشـجار بأغاني الطيور، وتسـلّل ضوء الشّـمس من بين الأغصان النّاعمة، وأحـدث أنماطاً جميلةً من الضّوء والظّلال على سطح حدائق الشّاي المتموّج.

سـمع رنين الأسـاور الزجاجيّة. كانت بنتٌ شرقيّةٌ تقطف أوراق الشّاي بمهارةٍ، وما إن رأته، حتّى جرّت طرف ساريها ووضعته على وجهها الدّاكن. كان «برا صاحب» واقفاً أمامها مباشرةً وهي تبتسـم. اقترب منها وهو ماضٍ في تأمّله، ثم سألها ببنغاليّة مكسّرة: «ما اسمكِ؟»

«اسمي؟ تشامبا».

«تشـامبا.». كـرّر، وكأنّه سـمع الاسـم لأوّل مـرّةٍ. تشـامبا. غمغم مرّةً أخرى، «اسـمٌ جميلٌ... تشـامبا..»، ثم ركض إلى السـيّارة. حدّقت البنت فيه بـشيءٍ من الذّهول، وهو يختفي في الضّوء والظلّ تحت الأشـجار المشـوقة. تشـامبا وجيـلٌ كامـلٌ مـن العـمّال التقوا بجميـع أنـواع البريطانيّـين في هذه المزارع.. الشـواذ، والمتغطرسـين، والطّيبـين، والسـكّيرين، وغيرهم، ولكنّ هذا الأبيض مجنونٌ.

عـاد سـيريل إلى النّـادي، ورمـى بنفسـه على كـرسيٍّ مريحٍ. ابتسـمت له إليزابيث الثانية من فوق رفّ الموقد. في صورةٍ أخرى، جلست سيّدةٌ إنجليزيّةٌ عـلى رأسـها قبّعة «سـولا»، ترتدي لباسـاً ذا ياقةٍ عاليةٍ، يعـود إلى ما قبل عام

1914م، على هودج فيلٍ بشـكلٍ غير مريحٍ، وجلس ماهارجا (الملك العظيم) كوتش بيهار إلى جانبها. ذكرته هيئة السـيدة الإنجليزيّة المتكلفة بجدّته ليدي بينولوب أشلي من بارنفيلد هال التي كانت تأتي إلى الهند أحياناً لصيد النمور.

«صبـاح الخير جدّتي»، همس بصوتٍ أجشٍّ، وفكّـر في مكان وجود كمال مرّةً أخرى.

رجع كمال إلى المنزل متأخّراً في الليل، انتظره سيريل في غرفة الاستقبال.

«أين كنت؟» سأل بنزقٍ عندما دخل كمال.

«في مكانٍ خاصٍّ؟» ردّ كمال غير مبالٍ.

«هل ذهبت إلى قرية العمّال؟»

«نعم».

«اسمع، أنت تنتمي إلى هذا النظام كما أنتمي إليه، لذا، لا تكن متعالياً».

«يحصل العمّال على روبيّةٍ واحدةٍ وأربع بيساتٍ يوميّاً».

«نعم».

«هل يحاول الشيوعيّون تنظيمهم».

«لا أعلم».

«أنـت تعلم حقّاً، أنت تعلـم كلّ شيءٍ جيداً، لأنّـك تقضي على محاولتهم لتشكيل نقابةٍ عمّاليّةٍ».

أشـعل سـيريل سـيجارةً وقال: «كمال أنـت تعلم أنّني كنـت أحمل طوق العـالم على كاهلي الضّعيـف، ولكن تبين لي أنه عديم الجدوى، فنزعتُه، عليك أن تتخلّص من هذا الطّوق أيضاً. تذكّر أنّنا سنغادر غداً في الصّباح الباكر إلى راجشـاهي لنلقي نظرةً خاطفةً على تمثال غبتا بهارفور. تناول عشـاءك الآن، واذهب إلى فراشك. تصبح على خير».

وفي مقاطعة راجشاهي كانت فيلات مالكي الأراضي الهندوس في البساتين صامتة، إذ هاجر ملّاكها إلى الهند.

«هذه المنطقة جنّةٌ لعالمٍ أنثروبولوجيّ». قال لهم منتج أفلامٍ وثائقيّة من الغرب في سركت هاوس براجشاهي. رافق كمال وسيريل وحدة الفيلم إلى أرجاء المقاطعة الجميلة.

«كان رجال طبقة سنتهال فقراء جدّاً، فاضطروا إلى أكل الجذور، ورغم ذلك، هم متشبّثون بكرامتهم»، أوضح المصوّر السينمائيّ.

«سنبقيهم على جوعهم وكرامتهم». قال الحارس البنغاليّ الشابّ وهو يسخر من كمال. «موضوعٌ ممتازٌ لقناة *ناشيونال جيوغرافيك* ».

«سيريل، باكستان الشرقيّة متأهّبةٌ للثّورة الاشتراكيّة» قال كمال مبتهجاً.

في اليوم الذي رجع فيه كمال وسيريل من بلدة سنتهال، اجتمع جميع سكّان القرية الأخيرة أمام سيّارة جيب، وتقدّمت شابّةٌ في غاية الجمال إلى الأمام، ثم قدّمت أكاليل زهرة القطيفة إلى الزوّار، وانحنت أمامهم برشاقةٍ، ولفّت يديها تحيّةً واحتراماً لهم. أما رئيس القرية فربط عصاً بجذع قدمه المكسورة، ولبس ثوبه الوحيد العتيق إكراماً لهم. لقد جاء إلى نهاية القرية وهو يعرج ليودّعهم. غطس ولد سنتهالي في بركةٍ، وقطف زهرة اللّوتس، وقدّمها إلى الضيوف المغادرين.

جرى نهر غنغا بمحاذاة سركت هاوس في منطقة سيفيل لانز من مدينة راجشاهي. وعلى الضّفة الأخرى، تقع مرشدآباد في الهند.

أمضى الصديقان اليوم في المتحف ينظران إلى تمثال غوبتا البديع. بعد العشاء، تجوّلا بجانب نهر استارلت.

«الشّرق يخفّف من كبرياء المرء، ويجعله متواضعاً». قال سيريل لكمال متأمّلاً.

«عندما جئتُ أوّل مرّةٍ إلى شبة القارة الرّائعة هذه، نزلتُ في داك بنغلو النّائية، أعجبتُ بكفاءة شركة جون، ثم علمت أنّ الخلفاء الأمويين ابتكروا الخدمة البريديّة على امتداد الإمبراطوريّة العربيّة في القرن الثامن، وكانت هناك مراكز بريد يبعد بعضها عن بعض مسافة أميال على امتداد في السّلطنة في الهند مزوّدةً بدار استراحة وآبار للسعاة والمسافرين. مازالت خدمة البريد الهنديّة تعمل في الهند وباكستان، لقد أضفنا فقط نظامنا إلى إدارة السّلطان المغوليّ أكبر».

«توجد في مكتبتنا ببرانفيلد هال، مخطوطةٌ نادرةٌ لـ«الأوبنشاد»، ترجمها الأمير دارا شكوه، تحمل صفحة الغلاف اسم بابو رادهي تشاران الذي أهدى المخطوطة إلى جدي النّائب سيريل، لقد خدم كمحاسِب في حكومة سراج الدّولة»..، أشار إلى النّهر في مرشد آباد.

ثمّة قاربٌ قادمٌ باتّجاه ضفة النهر، ظنّ كمال للحظةٍ أنّ بابو رادهي تشاران سيأتي إلى هنا راكباً. عوضاً عن ذلك، سمعا طلقةً ناريّةً، فقد ذهبت السّفينة مع دورية رجال الجيش، إن نهر غنغا يشكّل حداً طبيعيّاً بين الهند وباكستان الشرقيّة. عاد كمال وسيريل إلى الوراء باتّجاه سركت هاوس. واصل سيريل كلامه حول دارا شكوه؛ «هل تدرك أنت؟» سأل بتهكّم: «كيف أصبحتم معتمدين على المركزيّة الأوروبيّة؟ لقد اطّلعت أوروبا علىٰ «الأوبنشاد» من خلال كتاب دارا شكوه، ولكن من المؤسف أنه تم الاعتراف بالمستشرقين الّذين ترجموا الكتاب الفارسيّ فقط، ولم يتم الاعتراف بجهد الأمير المغوليّ الرّائع سيّء الحظّ».

جاء صوت طلقةٍ ثانيةٍ من على مسافةٍ.

«أطلقت النار على مهرّبٍ آخر، أو لعلّه حادثٌ آخر على الحدود». علّق سيريل متأمّلاً.

في طريق الرجوع إلى دكا، وقف القطار على رصيفٍ مشغولٍ لنهر غنغا، صعد الركّاب الباخرة المنتظرة. حملت حشود الحمّالين الشّبيهة بالنّمل البضائع من القطار إلى السفينة المحمّلة بأطنانٍ من الصناديق الثقيلة صعوداً على الألواح الخشبيّة الخطرة وسط ضجيجٍ ذي إيقاعٍ منسجم. ركب ركّاب الدّرجة الثالثة، وجلسوا على سطح الباخرة على امتداد الشّبيكة.

كان المكان يعجّ بالهندوس العجائز. جاء ركّاب الدّرجة الأولى، اتجه بعضهم إلى المقصورات، وبعضهم الآخر تسكع على الفرش اللّامعة. أُخرجت النظّارات والكاميرات، وطويت الصّحف. انهمكت سيّدتان باكستانيّتان أنيقتان من بنجاب الغربيّة بالحياكة، وراح عالمان بنغاليّان يناقشان سياسية حزب «عوامي ليغ» بحدّةٍ، واستراح ضابطٌ باكستانيٌّ رفيع المستوى من الجهة الغربية داخل الكابينة، وهو يشرب الجعة. كان عضواً سابقاً في هيئة الخدمة المدنيّة لعموم الهند، التي بات يطلَق عليها الآن «هيئة الخدمات المركزيّة العليا» في باكستان، أمّا في الهند فيطلق عليها «هيئة الخدمات الإداريّة الهنديّة». استعرض كمال وسيريل المنظر حيث وقفا في زاويةٍ بعيدةٍ على السطح. ما هذا الهراء؟ وأيّ نوعٍ من العالم جاء إلى حيّز الوجود؟ وكم مليوناً من البشر خسروا حياتهم في عمليّة إنشاء هذا العالم الخاص؟ وكم من البيوت دمّرت؟ وكم من الملايين شُرّدوا، فتحوّلوا إلى لاجئين أو منفيّين؟ وكم من الملايين جاعوا في السابق ومازالوا يموتون جوعاً...؟

ظهر المسؤول البنجابي رفيع المستوى من الكابينة، وقدّم سيجارة إلى كمال. تحوّل النّهر إلى ذهب مصهور، وأخذ يلمع لمعاناً شديداً في أشعّة الشمس الغاربة. مرّ قاربٌ ضخمٌ يحمل بضائع الجوت على مقربةٍ منهم. رآه كمال ساحراً وفاتناً، وأحسّ بإثارةٍ في نفسه.

«رائع». قال كمال.

«آه..». عقّب المسؤول البنجابي، «في الحقيقة، هذه المشاهد تبدو رائعةً عن بعدٍ فقط. لكن إذا عشتَ بينهم فعلاً فستبدأ بإدراك حقيقة الحياة هنا، ولا سيما عندما تتعامل مع المحلّيين. إنّهم كسالى، خبراء مؤامرة، وذوو رؤية ضيقة. يقتضي حكمهم قدراً عالياً من المثابرة من أجل منعهم من عمل الشرّ».

«أؤكّد لك أن البنغاليّين نوعٌ من البشر مكتفٍ ذاتياً، لا تتحدّث عن طاغور، أو الجوت، وكل الأشياء الأخرى. صدقني»، واصل المسؤول بحماسٍ: «في اليوم الذي ستنفصل فيه هذه المنطقة عن باكستان سأحتفل بالحدث السارّ، وسأهوي ثملاً أسبوعاً كاملاً».

كانوا متّجهين إلى ناراين غنج. لمعت الشّمس بين السحب الأرجوانية كعلامةٍ حمراء ملتهبةٍ. أبحر عددٌ لا يحصى من السّفن إلى الأفق البعيد حيث يتلاقى البحر والسماء. مرّت سيّدةٌ مسنّةٌ ضامرةٌ تجدّف في زورقها الصّغير بسرعةٍ هائلةٍ. لقد ابتُدع عالمٌ قويٌّ مميّزٌ فوق النّهر العظيم. سرعان ما أضيئت المصابيح في القوارب الصّغيرة. بدا أنّ النّهر يحتفل بعيد الألوان. أخذ الملّاحون المسلمون يصلّون ويرتّلون الأدعية على مراكبهم الشّراعية. هبّت الريح، وانتفخت ساريات السّفن، فراحت ترفرف كأنها أجنحة بيضاء براقة لآلاف طيور الغرنوق.

انهمك الشابّان في عملهما الخاصّ بعد عودتهما إلى دكا. التقيا في نادي دكا مساءً، ورجعا إلى دار الاستراحة معاً. ذهبا يوم الأحد، ليبحثا عن ممرّات القرون الوسطى، فصادفا عرباتٍ عتيقة الطّراز، تقودها أحصنة تتسكّع ببطءٍ خلال شوارع القرن السابع عشر الملتوية. اختفت باحة الكنسية خلف جدران وأقواس قرية أراماني الغامضة الملتوية. قرأا أسماء أرمنيّةً على شواهد

القبـور القديمـة، هاتـون، أرم، أراتون. من هـؤلاء؟ كيف عاشـوا؟ وكيف ماتوا؟ منهم السـيدة هسيبسـيما هـارلي، وأراتون جورج سـيمون، وكاتهيك ابيهتيك آرام تهوماس، وهاتهون آرام أراتون من شجرة الباغودا، كلكتا...

تجمّعت السحب الغزيرة ليلاً وغطّت السماء، جلس الصّديقان في غرفة استقبال دار الاستراحة. قرأ سيريل كتاباً مترجماً للأغاني الشعبيّة البنغالية في القرون الوسطى.

تتفتّح أزهار تشامبا حول البركة، وترعد السّحب السّوداء في السّماء، وتنسـاب المشـاعر في قلبـي مثل النّهر الفائض في شـهر أغسـطس - أغسـطس. أيها النهر! لماذا تتدفّق بهـذه السّرعة؟ لا تعلم وجهتك... أيها الإبريق! أغرق نفسك في الماء كقطرةٍ، فأنا أيضاً غارقٌ مثلك.

بدا ضوء مصباح المنضدة الأزرق الباهت ضئيلاً. لمع البرق على امتداد السّماء السوداء، وهاجت الأعاصير على بعد مسافةٍ.

قال كمال: «سأغادر إلى كراتشي عن طريق الهند غداً»، فرفع سيريل بصره.

«نعم. أعتقد أنّك ستغادر»

«سأقابلك بين الحين والآخر».

«آمل ذلك».

تنّفست أوراق شجرة أسوكا تحت الشّرفة.

«الغراب أسـود»، قرأ سـيريل، «طائر الكويل أكثر سـواداً، وماء نهر سنجاخالي أسود أيضاً... ولكنّ سواد شعرها حالك إلى المنتهى...».

عزف المطر لحن الماء «جل ترنغ» في بركة زهرة الزنبق في الخارج.

أضاءت الأشجار وأزهار أبراجيتا لحظة لمعان البرق، قرأ سيريل بصوتٍ أعلى: «يبكي نهر غنغا القديم دون جدوى وراء أشجار تشامباك. ثمّ رفع صوته بالقراءة بلهجةٍ غريبةٍ: «قل لها إني أغلقت أذني لئلا أسمع نداءهم، وربطت سفينتي بالشّاطئ. قل لها...».

«سأقول لها»، ردّ كمال بصرامةٍ.

غادر كمال إلى مطار تيج غاؤن في الصّباح التالي، وركب الطّائرة المتّجهة إلى الهند. ذهب من مطار دم دم إلى محطّة هاوره، نظر إلى الرّصيف، فلمح ضابطاً شرطيّاً يتقدّم نحوه بسرعةٍ.

بدأ يتحسّس جوازه ووثائق سفره في جيب معطفه دون توتر، ليؤكّد لنفسه أنّه لم يدخل الهند بشكلٍ غير قانونيٍّ. ذهب ضابط الشرطة في طريقه دون أن يراه، في حين ظلّ كمال يشعر بارتباك شديد.

بدأ القطار رحلته باتّجاه الغرب،: بردوان، آسنسول، بتنة، مغل سراي، بناراس، إله آباد... منطلقاً في الأرض المجهولة الغريبة. كان هذا بلده وأرض أجداده قبل سنةٍ فقط، واليوم هو أجنبيٌّ هنا. شعر كأنّ الناس ينظرون إليه بريبةٍ: «أنت باكستانيٌّ». بدا له أنّهم يقولون: «تعال إلى مركز الشّرطة، يجب أن تكون في المعتقل. أنت باكستانيٌّ مسلمٌ...جاسوسٌ مسلمٌ». عجلات القطار تكرّر العبارة المفزعة الرّهيبة نفسها: «جاسوسٌ... خائنٌ... جاسوسٌ... خائنٌ... جاسوسٌ... خائنٌ».

فتح عينيه مرتجفاً. دخل القطار كالعادة محطّة تشادباغ.

تشادباغ. لكناؤ.

لكناؤ؟

أقام في غولا غنج مع بعض الأقارب ليومين. كان يجب عليه الذهاب

إلى دهرادون لتوثيق عقود المنزل، كي يقدّم مطالبةً بالتّعويض عن الممتلكات المدنيّـة في كراتشي. غادر في اليوم الثالث، ولم تبق له أيّ علاقةٍ بلكناؤ مطلقاً. لماذا يمكث هنا بعد؟ بدا مختلفاً الآن. لقد تغيّر، وتغيّرت لكناؤ أيضاً. تحطّمت الآثـار التاريخيّة، وبدت منطقة حضرت غنج حيّاً من الأحياء الفقيرة. ملأت المواشي والدوابّ الضالّة السوقَ العامة. لقد ساءت حالة لكناؤ كثيراً.

70

شجرة الرمان

أخبرته طلعت من لندن أنّ تشـامبا عـادت إلى الهند، وهي تقيم مع عمّها في مـراد آباد حسـبما أفاد جون كارتر المقيم مع عمهـا في مراد آباد. تمكّن كمال من إدراج اسـم مدينة مراد آباد في تأشـيرته للهند قبـل مغادرته إلى دكا. أخذ عنوان تشـامبا في مراد آباد من سيتا ديكشت التي تعيش حتى الآن في الكوخ نفسه في تشاند باغ.

«لقـد أصبحـتُ مثـل تشـامبا زهـرةً جداريّـةً»، قالـت لكمال بـشيءٍ من الطمأنينة الداخليّة اللّاشعوريّة.

وصل القطار من لكناؤ إلى مراد آباد في منتصف الليل. كانت غرفة انتظار الدّرجـة الأولى بأثاثهـا القديـم مـن العـصر البريطـانيّ خاليةً من المسـافرين. اسـتحضر كـمال كيف كانـت العائلة تمرّ بمـراد آباد في طريقهـا إلى دهرادون، كان قديـر وحسـيني يهرعان من غرفـة الخدم، ويظهران كجنين باسـمين عند نافـذة المقصورة، تسـهر تهمينة وطلعت وكـمال منتظرين تحـف رصيف مراد آبـاد العجيبة إلى منتصف الليل. كانت الدّمى النحاسيّة الصّغيرة على شـكل أدوات مطبخ لطلعت، والخناجر الرامبورية الحادّة لكمال، والقبّعات المخمليّة للخـدم.. في كل محطّة من محطات القطار وجد هدايا طفولته: حلوى «بيتها»، وصـورةً مصغّرة لتاج محـل مصنوعةً من الحجر الأملـس، وحلويات «لادو»

مـن سـنديلا، وفواكه المانجو من مليـح آباد، والبرتقال مـن ناغفور، والدمى النحاسـيّة من بناراس. سـبحان الله، الهند، الهند، لماذا هجرتني؟ أحسّ بغصّةٍ في حلقه، فهزّ رأسه: لا، هذه النوستالجية المضحكة لا طائل منها. مدّد جسمه على كرسيٍّ مريحٍ ونام. ولمّا صحا من غفوته، تناول فطوره في مقصفِ الدّرجة الأولى، وتذكّـر اسـبينسر التـي مثّلـت ذروة الأناقـة والنّظافـة في فـترة ما قبل اسـتقلال الهند. «ولكن يجـب ألّا يُخيّل إليـك أنّني بدأت أشـتاق لروعة الهند المستعمرة؟» خرج من محطّة القطار واستأجر تونغا (عربةً يجرها الفرس).

«مركز الشرطة».. قال باختصارٍ. كان صاحب التونغا مسلماً. فَهِم مراده وذهب به إلى مركز الشّرطة حيث تسجّل تفاصيل قدوم الزوّار الباكستانيّين ومغادرتهـم. كان المسـؤول عـن مركز الشّرطة مسـلماً أيضـاً. دوّن الشرطي الهندوسيّ التّفاصيل اللّازمة بالخطّ الأرديّ فدهش كمال.. لقد أنسـته إقامته لمدة سنّةٍ واحدةٍ في باكستان كلّ شيءٍ عن الهند. قدّم ضبّاط الشّرطة له الشّاي الحار في كأسٍ، وناقشوا آخر مباراة لعبة كريكت بين الهند وباكستان.

أعطـى عنوانَ تشـامبا لصاحـب تونغا. شـق طريقه في السّـوق المزدحمة، بدت المدينة مكتظّةً بالمسـلمين. في الشوارع، صاح الناس بعضهم على بعض باللغة الأردية المحكية الجذّابة بمرحٍ. هل حلّ تقسيم البلد مشكلة المسلمين؟ إنّ الّذين هاجروا من الهند يمثلون نسبةً قليلةً من المسلمين. عرضت حيطان السّـوق لافتاتٍ بالأردية، تضمنّت إعلاناتِ «مشاعرات» (حفلات الشعر) و«قـوالي»[1]، ومهرجانات الأولياء، على الرّغم مـن هيمنة اللّافتات المكتوبة

---

(1) «قوالي» شكل من أشكال الموسيقى التعبديّة الإسلاميّة الصوفيّة التي نشأت في جنوب آسيا، وهو مقبول جدّاً بين المسلمين في شبه القارّة الهنديّة؛ وهو جزءٌ من تقليد الموسيقى العائد إلى أكثر من 700 عام.

يتم إنشاد «القوالي» في أضرحة الصوفيّة أو التّكيات في جميع أنحاء جنوب آسيا، =

باللغة الهندية الملصقة على المحلّات.

وصلت عربة التونغا إلى حيٍّ قذرٍ حيث لاحت شرفات مكسورة أمام أبواب مقوّسة. جلس نسرٌ نعسانٌ على حائط مسجد الشيعة المطليّ بالأبيض. هل هذا هو الحيّ الذي انحدرت منه تشامبا باجي (الاخت تشامبا) حقيقةً؟ لطالما أشارت إلى منزلٍ فاخرٍ في مراد آباد.

إنها لا تحتاج إلى أن فعل ذلك. لماذا تقضي نصف حياتها تتخيّل ذاتها؟.

فُتح شبّاكٌ صغيرٌ في بوّابةٍ خشبيّةٍ منحوتةٍ بشكلٍ رديءٍ. دفعها بلطفٍ ونظر إلى قاعةٍ هادئةٍ رطبةٍ قليلة الهواء مملوءةٍ بالقشّ. تحرّك هناك للحظةٍ دون هدف، ثمّ خرج عبر الفتحة، وصادف سلّماً. كان المكان معتماً وضيّقاً وملتوياً، وبدا أنّه من العصر السّابق. صاح عدّة مرّاتٍ ولكن لم يتلقّ أي جواب. بعد دقائق، استجمع شجاعته وصعد الدّرج البالي.

أشعل عود ثقابٍ في الظّلمة التي تشبه ظلمة النّفق، ووصل إلى فناء الطّابق الأوّل ثم دخل إلى غرفةٍ. كان الأثاث الوحيد الموجود فيها كرسيّاً مغبرّاً ذا ذراعين، وسريراً ذا قوائم. أطلّت الشّرفة المتشابكة على المسجد في الأسفل الذي كان يتلو فيه عالمٌ مسلمٌ القرآن الكريم.

جلس قرب خزّان الوضوء. ثمة صحنٌ مليءٌ بشيءٍ ما موضوعٌ قرب سجّادة الصلاة. نظر كمال محملقاً في الصحن الذي يحتوي كبداً مقلياً.

ظهر سريعاً رؤساء عصابات الأطفال على حائط المسجد. بدأ الأولاد يصيحون على وتيرةٍ واحدةٍ: «كبد الشّاة... كبد الشّاة... لترتجف قدما

= اكتسب شعبيّةً واسعةً في أواخر القرن العشرين. لقيت موسيقى القوالي رواجاً دوليّاً من خلال أعمال المطربين الباكستانيّين الراحلين نصرت فاتح علي خان وإخوة صبري وعزيز ميان، وقد باتت «القوالي» جزءاً من الموسيقى الشعبيّة في شبه القارّة الهنديّة، يتضمّن عددٌ لا بأس به من الأفلام الهنديّة نغمات القوالي.

العالم». من الواضح أنها مزحة صبيانيّة!. لعلّه كان يكره رؤية كبد الشاة، فوضع الصّحن قرب سجّادة الصلاة بناءً على رهان، وجد أن الحياة تمضي بهدوءٍ في هذا الحي الصّغير المجهول.

نزل كمال إلى الطّابق السفليّ، ثم خرج إلى الزقاق الذي ساده الصّمت مما حيّر كمال. لمح المقبرة المحليّة في الجزء المكسوّ بالعشب المجاور للمسجد، الأرواح الحيّة، والأرواح الميتة: أين أنت أيّتها الأخت تشامبا؟ ثغت الشّاة المربوطة تحت سقيفةٍ، وأطلّت بنتٌ من خلال شبّاكٍ عالٍ في حائطٍ قديم، تنحت حينما رأت كمال يحدّق فيها بوضوح. مشى متعباً حول المسجد، صادف باباً آخر بدا أنّه نسخةٌ مطابقةٌ لباب المنزل الّذي رآه سابقاً، وصل إلى شرفة واطئة، ثم هزّ السلسلة.

«من بالباب؟» صاح أحدٌ ما بصوتٍ أجشّ من الدّاخل. اختنق صوت كمال في حلقه العَطِش. لم يسبق له أن شعر بفزعٍ أكبر من هذا قطّ.

«من هذا؟» أطلّت امرأةٌ مسنّةٌ، ترتدي بيجامةً سوداء ضيّقةً، من نافذة الباب.

«هذا أنا.». قال كمال متلعثماً.

«ماذا؟ ما اسمك يا بنيّ».

«كمال رضا من باكستان»

ذهبت العجوز إلى الدّاخل، وعادت بعد دقائق لتفتح النّافذة.

«تفضّل... تفضّل يابنيّ». قالت بذهولٍ، وهي تمضغ التنبول في فمها الخالي من الأسنان.

دلف إلى الدّاخل مطأطئاً رأسه. رأى شجرة رمّانٍ وحيدةٍ وسط الفناء. ما سبب وجود شجرة الرمّان داخل بيوتهم من الأندلس إلى بيهار؟ ما أهميّة

ذلك؟ تحتضن معظم بيوت المسلمين البسيطة أو الفخمة شجرة رمّان. لقد كانت ثمة شجرة رمّانٍ أيضاً داخل القلعة في كليان فور. غرق كمال في التّفكير، ثم رأى تشامبا جالسةً على أريكةٍ خشبيّةٍ في الحوش.

«تشامبا باجي!»

«كمال!! يا إلهي!!!.» نهضت ببطءٍ، وراحت تسوّي لحافها الباهت.

«تسلّلت إلى الجزء الأماميّ من البيت» قال كمال، ثم أضاف «أنا آسف. لقد حضرتُ دون سابق إخطارٍ، ولكن لم يكن لديّ متسع من الوقت لإعلامك».

ذهب الجميعُ إلى بيت العمّ الأكبر. «هيّا بنا لنذهب إلى هناك، يجب أن نجلس معاً لنتحدث طويلاً». قالت تشامبا بهدوءٍ، أخذت ملاءةً خفيفةً عن حبل الغسيل، غطّت نفسها بها وتهيّأت للذهاب، ثمّ خرجا إلى الزقاق.

«لا نرتدي البراقع حديثة الطّراز ههنا، نفضّل ارتداء «تشادار» (ملاءةً) أو «دولايز» (الخُمُر) فهما أنسب لنا»، شرحت له تشامبا. ثمّ أخذت كمال إلى ممرٍّ جانبيٍّ يتفرّع من المسجد، وواصلا سيرهما نحو المنحدر الذي ينتهي إلى مقبرةٍ. علقت الحشائش وأغصان شجرة البيبال بالحيطان القديمة على الجانبين.

تابعها طائعاً إلى الفناء، حيث وُضعت بعض الكراسي والأسرّة في شكلِ نصف دائريٍّ، وانبعثت رائحة البهارات الحادّة المقليّة من المطبخ.

«أيّها العمّ الأكبر. هذا كمال رضا»، سمع صوت تشامبا قادماً من الظّلمة.

«أهلاً. مرحباً، مرحباً يا بنيّ»، قال الرّجل المسنّ الذي كان مستلقياً على سريرٍ بحرارةٍ، ثم استقام في جلسته وقال: «اجلس هنا على الكرسيّ. لا، لا، لا على هذا. هذا مريحٌ أكثر. لقد شرّفتنا بقدومك».

دخلت فتاةٌ المطبخ، في حين جلست الأخرى، تدرس في الشّرفة وأمامها كومة كتبٍ موضوعة على الطاولة. قالت تشامبا لكمال: «هاتان ابنتا عمّي، الّتي في المطبخ اسمها زيبن، أكملت درجة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة علي جراه الإسلاميّة، أما الأخرى التي تجلس هناك فهي مريم زماني تحضِّر الماجستير في العلوم الزراعيّة. كانتا طفلتين لما ذهبت إلى لكناؤ لدراسة البكالوريوس. لماذا أنت صامتٌ هكذا، يا كمال؟ ما المشكلة»؟»

«لا مشكلة، تشامبا باجي».

تحدّث عمّها بشيءٍ من التفصيل بنبرة بطيئةٍ حزينةٍ عن المواضيع القديمة نفسها: الحرب الوشيكة بين الهند وباكستان، والمشاكل الاقتصادية المؤلمة. أنهى كلامه قائلاً: «لقد دَمّرَنا إنشاء باكستان نحن المسلمين في ولاية أترابراديش».

خفت صوت كمال: «لماذا هذا المكان صامتٌ إلى هذا الحدّ؟ أين ذهب النّاس؟»

أجاب العجوز: «هناك، ذهبوا إلى هناك. معظم أفراد أسرتنا حزموا أمتعتهم، وغادروا تاركين وراءهم بعض المسنّين مثلي هنا، حيث ستسكن الأشباح بعد وفاتنا».

جابهه كمال قائلاً: «ولكنّني رأيت المدينة مزدحمةً بالمسلمين».

فردّ عليه العمّ الأكبر: «لزم عامّة الناس المدينة، أما النّبلاء فقد هاجروا بأعداد هائلةٍ».

شرحت تشامبا الوضع بصوتٍ خافتٍ للزائر الحائر: «مراد آباد هي إحدى مدن ولاية أوترابراديش، المسلمون فيها أغلبيّة، معظمهم حرفيّون»، واستطردت قائلةً عندما جاءت زيبن بصينيّةِ الشّاي: «جئتم إلى هنا لمدّةٍ

قصيرةٍ لا تكفي لفهم الوضع الاجتماعيّ - السياسيّ هنا. تعال! تناول الشاي معنا».

«مادام جواهر حيّاً، سيكون كلّ شيءٍ على ما يُرام، ولكن ما الّذي سيحدث بعد وفاته؟ الله وحده يعلم ذلك... ستواجه أجيالنا القادمة مصير مسلميّ إسبانيا».

ارتجف كمال، وفكّر في الأمر، هل مازالت صورة الأندلس تطارد أذهان المسلمين ولا سيما عند الأزمات؟ رأى شجرة الرّمان تهتزّ بنسيم المساء اللّطيف.

أخذ العجوز نفَساً من الشّيشة، وواصل حديثه: «الآن أخبرني عن باكستان. سمعت أنّ حثالة القوم المهاجرين من الهند ازدهروا هناك، وأصبح النسّاجون والجزّارون من أوترابراديش أسياداً هناك، وأهل بنجاب يعاشرون اللّاجئين».

رأى كمال تشامبا جالسةً اليوم على درجة سلم أخرى، في بيئةٍ مختلفةٍ، وعلى مجموعةٍ أخرى من الدّعامات. هذه هي بيئتها الحقيقيّة. أغمض عينيه. لقد عاشت تشامبا في الماضي في لكناؤ وباريس وكامبريدج ولندن والآن تعيش في هذا البيت الكئيب نصف المضاء في مراد آباد.

عبثت الرّياح المحمّلة بالأمطار التي هبّت عبر نهر راما غانغا بشعره. لقد كان شغوفاً بموسم المطر السّاحر في هذا البلد الذي لم يعد بلده، ستنتهي صلاحيّة تأشيرته، وسيغادر مدينة مرشد آباد إلى وطنه قريباً. أما هذا السلّم المظلم وتشامبا أحمد وزيبن ومريم والعمّ الأكبر، فسيبقون هنا كلهم. لماذا يسكب العبرات على هذه الحقيقة الثابتة؟ شعر بأنّه المسافر الوحيد مثل أبي الريحان البيروني الذي سافر في الطرق المغبرة الصخريّة عبر القرون، وشهد

الأوضاع فيها. في تلك اللحظة توقّف الصوفيّ الأندلسي ابن عربي عن السّفر معه، فأصبح حائراً ووحيداً.

سألت تشامبا بنبرتها السّابقة: «أين هاري شانكار؟»

فأجاب في سخطٍ: «هاري شانكار لم يعد صديقاً لي يا تشامبا باجي، فلماذا أعلم بمكان وجوده؟»

«ولم لا؟ ألا تكتب إليه؟»

ردّ عليها وهو جالسٌ على الّسرير: «عن ماذا أكتب إليه؟ ولماذا؟»

«مازلت شخصاً انفعاليّاً للغاية».

أجاب بمنتهى الصّبر: «ليس الأمر كذلك بالتّأكيد، لكن مللتُ من الميلودراما الهندية-الباكستانيّة هذه».

أجابت تشامبا بهدوءٍ: «حتّى الآن لم تصبح قويّاً. لماذا أتيت إلى هنا؟ أجئت للقائي؟ هل كانت رحلةً عاطفيّةً؟»

قال كمال متلعثماً: «حسناً، يريد النّاس زيارة أصدقائهم القدامى من حينٍ لآخر». ثم أضاف قائلاً وقد علت وجهه كآبةٌ: «أضيفي إلى ذلك أنني في مراد آباد في طريقي إلى دهرا دون».

تساقطت الأمطار على الشّرفة، فوصلت نكهة التربة المبلّلة إلى منخِري كمال الحسّاسَين. مرّت سيّدةٌ ترتدي بنطال «التشوريدار»، تبيع ثمار المانجو المنتجة في أمروها.

مازالت تشامبا جالسةً على عتبة الباب.

سألها: «ماذا تريدين أن تفعلي الآن؟»

أجابت: «سأمارس المحاماة في مدينة باناراس، وسأساعد والدي. هل تعرف الاسم الحقيقي لمسقط رأس أمّي؟»

«شيفبوري».

«نعم، اسمها الحقيقي مدينة النّعيم، وستكون مدينة النّعيم عاجلاً أم آجلاً مثل بقيّة المدن الصغيرة في شبه القارّة الهنديّة. مسؤوليتي هي أن أقوم بواجبي بإخلاصٍ، أما الآخرون فليفعلوا ما يشاؤون».

رُفِع الأذان لصلاة الظهر في المسجد الصّغير، فغطّت رأسها دون وعيٍ منها بطرف السّاري الذي ترتديه.

كانت الفتيات في الأسفل مشغولاتٍ بقلي الأطعمة الشهيّة في موسم المطر، وقد لبسن الساري والشّالات التقليديّة القطنيّة بلون قوس قزح تكريماً للمطر. نادتهنّ تشامبا من وراء الشباك قائلةً: «أرسلن لنا بعض المأكولات أيضاً».

صاحت إحداهنّ بسعادةٍ: «حسناً، يا أختي! انتظري لحظةً فقط»، ثم راحت تغنّي: «من الذي علّق الأرجوحة في أشجار المانجو؟». كتب الملك المغوليّ الهنديّ الأخير، بهادر شاه ظفر، هذا الشّعر الشهير، وكان ملكاً موسيقاراً أيضاً.

أصبح كمال متوتّراً، ظهرت زيبن على السلّم، لابسة «غرارة». تقدمت ووضعت طبقاً مليئاً بالطعمية الحارّة المتبلة على المائدة، ثمّ عادت، وهي تهمهم بأغنية المطر.

كانت تشامبا جالسة على عتبة الباب، فقالت بهدوءٍ: «ربّما تتعجّب، من سيزورني الآن في بيتي!، ولكن أنا يا كمال! كنت أوفر حظاً منك في تحقيق النّجاح الشخصيّ. وجدتُ المفتاح السحريّ. لقد قال لي غوتام مرّةً في لندن بطريقته الفلسفيّة الزّائفة إننا ضيّعنا المفتاح. لما وصلتني رسالة أختك تهمينة في موسم المطر عام 1941م في باناراس، ترحّب بي في كليّة تشاند باغ، وجدت

الرّسالة مفتاحاً للعالم الخياليّ».

هطلت الأمطار في البركة بالأسفل، فبدت الأشجار خضراء داكنةً، جرت الجداول الصّغيرة على الطّرق، ولمع خزّان المياه الصّافية في فناء الدّار، وتمايلت الشّتلات في المزهريّات الصّينيّة المتكسّرة في الهواء العليل، كما فاضت الشّلّالات الصغيرة من المزاريب. قالت تشامبا: «*هذا مكان المياه الخاصّ بي. وهنا يسيل تيار دموعي*».

سقطت أوراق تفاح الورد من الشجرة المتدليّة، فأزالت تشامبا ورقةً خضراء مبتلّةً عن شعرها، ثم قالت بعد تفكّرٍ: «كمال! هل تذكر تلك الرّسامة الباكستانيّة في لندن؟ لقد رسمت لوحاتٍ كثيرةً في السّنوات المنصرمة، وتنقّلت بين الاستوديوهات في كافّة أنحاء العالم الغربيّ، كما أقامت معارض فرديّة في لندن، وباريس، وروما، حضرت حفلات افتتاحها زوجات الدبلوماسيّين وسيّدات المجتمع الراقي. سُلِّطت أضواء الكاميرات عليها، واحتشد حولها الصحفيّون، وهي واقفةٌ في زاويةٍ تتحدّث وتبتسم بلطفٍ، عند المساء بعد أن يغادروا تصبح القاعة فارغة، تمكث وحيدةً مع لوحاتها الشهيرة، ثم تركب الحافلة الأخيرة عائدةً إلى بيتها وحيدةً، كمال! تناول هذه الطعميّة الحارة، وإلا ستبرد بسرعةٍ».

سافر في صباح اليوم التالي إلى مدينة دهرا دون، اقتربت تشامبا من شبّاك الباب الصغير العتيق، وتمنّت له الخير مبتهجةً: «في أمان الله»، في إشارةٌ إلى أنّها تصالحت مع الحياة، وعليه هو أن يفعل ذلك.

لقد ترك تشامبا وحيدةً كشبحٍ غامضٍ بعيدٍ ثانيةً، مثلما تركها ذات مرّةً واقفةً خلف بابٍ زجاجيٍّ في شارع أكسفورد، ومثلما وقفت في الشّارع الفارغ أمام غولفيشان عندما هاجر عامر رضا إلى باكستان. لكنّها ليست

وحيـدةً اليوم، لقد أصبحت جـزءاً من الجمهور، وقبلت أخيراً ودونها قيدٍ أو شرطٍ صداقة إخوانها في الإنسانيّة.

كان كـمال يفكّـر أنّه يمشي إلى الأمام، أما تشـامبا فقابعـة في الخلف، وأنه سيفتح عوالم ويكتشف رؤىً وآفاقاً جديدةً. أحسّ اليوم أنّه يتراجع ويتقهقر إلى الخلف، أما تشامبا، التي لم تعد وحيدةً، فتتقدّم إلى الأمام. إنّها تعيش برفقة إمام مسجدها ذي الشجون، وتقضي أيّامها بصحبة زيبن ومريم، والسيدات المحجّبات، والأطفال بملابسهم المتهرّئة في حارتها، والحمّالين المصابين بسوء التغذية بعرباتهم اليدويّة، لقد صارت تشـامبا باجي زميلتهم في المسيرة. عند هذه النقطة انقطعت شبكة فلسفة كمال العنكبوتيّة الخفيّة التشاؤميّة الجديدة.

مرّت عربة تونغا بقاسـم بازار، وتعالى صوت المؤذّن من خلال مكبّرات صـوت المسـجد، وأغلق أصحاب المحلّات المسـلمون محلّاتهـم لأداء صلاة العـصر، ورفرفت بعض الطّائرات الورقيّـة في الأفق. رأى كمال طائرةً ورقيّةً حمراء مقطوعةً هائمةً في السّماء الزّرقاء البعيدة. لو أن غوتام موجود هنا لقدر رمزية هذا المشهد ولبدا أجمل بكثير. ابتسم بحزنٍ وقال في نفسه: ماذا يمكنني أن أفعل، إن نهايتي مغمورة جداً.

71

الطّائر بعيد المنال في وادي دون

لاحت جبال شيفاليك للعيان، وظهر المشهد البانورامي المألوف؛ جداول الماء بين الجبال، والشلالات، والمعابد، والرهبان الهندوس، والصّخور، والقردة، والغابات، ومجموعات أشجار اللّيلاك، والزّعرور.

هذا هو وادي دون.

في محطّة القطار في مدينة دهرادون، أحاط به حمّالون بملابس رثّةٍ من طبقة «غارهوالي» عند مواقف عربات الخيول والسيّارات، فراحوا يردّدون: «سيّدي هل تريد السّفر إلى موسوري؟ هل تريد الذّهاب إلى راجفور؟ سأذهب بك إلى فندقٍ من الدّرجة الأولى تديره سيّدةٌ إنجليزيّةٌ...».

في طريقه إلى المدينة بينما كان يستقلّ عربة تونغا رأى سفوح الجبال المتعرّية والمحفورة حديثاً قبالة مدينة دهرادون، قال له صاحب تونغا: «إنهم يقطعون الأشجار للخشب، ويفجّرون الصخور للتعدين».

فكّر كمال في الأمر غاضباً ووجلاً: ما الذي يصنعونه ببلدي الجميل. هل يعرف بندت نهرو ما الّذي يحدث هنا؟ يجب أن أحيطه علماً بما يجري. في اللّحظة التّالية أدرك مفارقة الوضع؛ إذ لم تعد له علاقةٌ ببندت نهرو، وهذا ليس بلده. في الواقع جاء إلى هنا في مهمة خاصّة؛ تسوية القضايا المتعلقة بالعقارات، وقطع الرّوابط الأخيرة المتبقّية مع أرض آبائه.

أمضى بضع ساعاتٍ في مكتب مدير المقاطعة، وهو يفحص الوثائق المتعلّقة بالعقارات، وناقش وضع الممتلكات المنقولة وغير المنقولة، والبنود المتّفق عليها والمختلف فيها. عاد إثر ذلك إلى الفندق. في المساء خرج يتسكّع في المناطق الهادئة في دالان والا، وراح يقرأ لوحات الأسماء الموجودة على الأبواب. مازال نهر ريسبانا يتدفق.

صاح بصوتٍ عالٍ بعد حينٍ: هاري شانكار

«نعم».

«فلنفكّر بالأمر، إذا مات البروفيسور، فإنّنا سنقع في مشكلةٍ».

راحا يتفكّران في ذلك المساء في فلسفة التخلّي، وأظهرا معارفهما العميقة.

قال هاري شانكار، وهو يقف أمام باب الحديقة: «فلنقرأ أسماء المنازل، لأنّ الأسماء تكشف نفسيّة مالكيها».

قال كمال نقلاً عن الشّاعر إقبال: «يجب ألّا نبني بيوتاً، لأنّ الصقور لا تعيش في أعشاش».

«لو فكّرنا بأنّ النّاس بنوا جميع أنواع البيوت الجميلة، فهل يعني ذلك أن العالم كلّه مليءٌ بالبيوت».

«نعم، ألا يبدو الأمر غريباً؟»

جلسا على جسرٍ صينيٍّ صغيرٍ حيث ربط فيلٌ في ذلك المكان. قال هاري شانكار بجدّيةٍ: «لا بدّ أنّ يكون ثمة معنىً لهذا».

وافقه كمال: «لا بد أنّ يكون ثمة معنىً لهذا».

قرأا لوحات الأسماء الأخرى في ضوء الشّفق الدّاكن: «جيزمين، وشامروك، ودون هيوان، وروز ماونت، وآشيانه، وفيري كوتيج وخيابان».

مشيا بحزنٍ نحو شارع راجفور، ولاحظا المياه المتدفّقة في النّهر الشرقيّ، وشاهدا حذاءً مكسوراً يتأرجح صعوداً وهبوطاً في التّيار المتدفّق.

توقّفت سيّارة شيفروليه لامعة بالقرب منه. فرك كمال عينيه، وأجال البصر حوله. اختفى هاري شانكار من المشهد، ولم يكن ذلك عام 1942م، بل عام 1956م، في مدينة دهرادون، فرك عينيه ثانيةً. كان يجلس على جسر المشاة في منزله خيابان، حيث نزل رجلٌ سيخيٌّ مهندمٌ لطيفٌ من السيّارة، ألقى عليه نظرةً مريبةً، إذ ظنّه بلطجيّاً عصريّاً قد يهرب بجهاز الموسيقى الجديد الذي يمتلكه، فسأله: «ما خطبك؟»

«أنا... أنا..». تلعثم كمال وراح قلبه يخفق بسرعةٍ كبيرة، فبدا مرتبكاً. رأى اللّوح الرخاميّ مرّةً أخرى على البوّابة: *خان بهادر سيّد طارق رضا بهادر* من *كليان فور*. هذا منزله دون شكٍّ. وقف وأحسّ أنّ حنجرته قد جفّت، أخرج الوثائق من جيبه باضطرابٍ كدليلٍ على ملكيّته السابقة للبيت.

قال الرّجل السيخيُّ بحرارةٍ: «آه، لقد فهمت! جئت بشأن ممتلكاتك المنقولة، تعال يا أخي، المستودع مقفلٌ بأمانٍ. هل جئت بالمفاتيح؟»

أجاب كمال وهو ينظر إلى الحصى الزّرقاء تحت حذائه: «نعم».

قاده سردار جي السّيخي إلى الشّرفة الأماميّة، وقدّم له الشّاي. مالك منزل خيابان الجديد من مدينة لاهور، جاء إلى دهرادون كلاجئٍ معوزٍ أثناء الاضطرابات الطائفيّة التي تفشّت عقب تقسيم البلاد. لقد صار الآن مقاولاً ثرياً، وهو مشغولٌ بقطع غابات الألب، كاد يبكي وهو يتحدّث عن مدينة لاهور، وبدا مفعماً بحنينٍ شديدٍ إليها.

سـأله كمال على عجلٍ: «هـل يمكنني أن آتيَ غـداً في الصّباح لأفتح غرفة الصّندوق؟»

كرّر الرجل السـيخي جملة الضّيافة الهنديّة التقليديّة: «بالطّبع، أرجوك أن تعتبره بمثابة بيتك». عاد كمال إلى فندقه.

في الصّبـاح ذهـب إلى خيابان، وقادتـه قدماه إلى المسـتودع. أحسّ، وهو جالـسٌ على سـلّم الطوب الأحمـر، بأنّه فردٌ مـن الجيل الضائـع في الهند. لقد عاشـت أسرتـه الكريمـة وسـط غابـات الخريـف، والأكـواخ عـلى التلال، وجلسـات الشـاي الممتعة عند المساء. كانت السـيّدات الرّشيقات من أسرته يمشين أمامه على الطريق بين أشجار السّنديان مثل بطلات الرّوايات التركيّة أو الفرنسـيّة القديمة، يحملن في أيديهن الرقيقة المظلات البورميّة أو الحقائب الإيطاليّة الصغيرة المصنوعة من الخرز.

عندما كانوا يزورون هذا المكان خلال الشّتاء لرؤية الثّلوج في موسوري، تُحرق الأخشـاب في المواقد، وتتكدّس بطانيّات الحرير على السجّادات حيث كانوا يجلسـون ويشربون الشّـاي الأخضر. كانت طلعت تصنع من بطانيّتها كوخاً ثلجيّاً صغيراً، وتجلس داخلها مع كتاب «جون وميري» للرسم.

اشرأبّت هناك شجرة فاكهة الخبز الكبيرة بالقرب من المطبخ، كانت زوجة حسيني تعدّ ثمارها بعنايةٍ فائقةٍ كلّ صباحٍ لتتيقّن من أن طباخ الجار لم يسرقها. كانت ثمة لوحةٌ فنيّةٌ موجودةٌ في الشّرفة الأماميّة، تصوِّر مشـهد صيد يطارد فيه قطيع من الكلاب السـلوقيّة ظبياً بين قصبـات «تيراي». أظهر الإفريز في غرفة الاسـتقبال المغطّى بالنسـيج الأسـود والمطرّز بالخيوط الذهبية مجموعة صور عائلية في إطارات فضية. وُضعت أشـجار النّخيل الصّينيّة في أحواض الزهور النحاسيّة على الحوامل ثلاثيّة القوائم الطّويلة في زوايا الغرفة الأربع.

كانت المغسلة في غرفة الطعام تُملأ بأوراق شجرة النيم الجديدة كلّ صباحٍ، وكانت الطّاولة تُجهزُ على الطريقة الإنجليزيّة في المناسبات الرّسميّة، وتوضع شتلات الورد العائمة في بولة غسيل الأصابع. كان الخادم الصّامت، عامر خان، يرتدي معطفاً ناصع البياض، ووشاحاً قرمزيّاً، وقد علّق المونوجرام الفضيّ لاسم أبيه بالشّريط الأحمر على عمامته المنشاة جيّداً.

وفي أوقات المساء في فصل الصيف الحار حين ينام الجميع داخل الغرف البـاردة، كان كمال يتسلّل ليجلس في ظلّ أشجار الليتشي، إذ يسود العالم صمتٌ كونيٌّ عميقٌ يبعث في الجميع التّراخي والأفكار الهادئة، ويبكي طائرٌ وحيدٌ دونما توقّفٍ بين أشجار الأرز البعيدة، كان بكاؤه يشبه الكلمات «وأسفاه! كنت نائماً... كنت نائماً...». هذا الطّائر الخفيّ المتملّص موجود في وادي دون، حيث يبقى مختفياً بين الأوراق، ويبكي في ساعات المساء في الصّيف. وفقاً لأسطورةٍ جبليّةٍ، لما خلق الإله العالم قسّم نعماً متنوّعةً على خلقه، فوجد الطاووس ريشته، وطائر الوقواق صوته، وما إلى ذلك. كان هذا الطائر الأحمق نائماً في ذلك الوقت داخل غابات وادي دون، ومن ثمَّ لم يظفر بشيء، فظلَّت هذه شكواه منذ ذلك الوقت.

تنقّلت المرأة السيخيّة بين الغرف، وأغلقت باب غرفة المؤن بإحكام، وعاد كمال من مدينة دهرادون في عام 1936م.

فتح المستودع، ودخله، ثم فتح الدّواليب المغبرّة، وأغلقها دونما هدفٍ، حدّق في صناديقها وخزائنها، وفكّر في جدوى هذه الممتلكات، لقد رأى كومةً قمامة يسمونها النّاس «ممتلكاتٍ»، توجد قمامة تشبهها مخزنة في المستودع الموجود في جولفشان، وفي بيت ريفي في كاليان فور... وقف على جزيرةٍ صغيرةٍ بين القمامة وقال: «يستميت النّاس لأجل اقتناء الأشياء...لقد عرفت

الآن لماذا هربوا من العالم، ولاذوا بالغابات..». جلس على سكملةٍ (طاولةٍ صغيرةٍ)، وحاول أن يبدو منظّماً. فتح أوّلاً صناديق الصّلب الصّغيرة التي تحوي المستندات الأسريّة، لكنّه أغلقها مرّةً أخرى بوهنٍ، ثم ألقى نظرةً على كومةٍ من المجلّات الأرديّة القديمة النّادرة، والتقط حقيبةً باليةً على غير هدىً، وُضعت عليها علامة: «المراسلات»، فتحها بدافع الفضول، فوجد الرّسائل تحمل علامات البريد الغريبة: أورونغ آباد، 6 تمّوز- يوليو، 1933م، مدينة إندور، 24 تشرين الأوّل - أكتوبر، 1928م، ميسوري 3 مارس - مارس، 1937. راح يفكّر فيمن حمل هذه الرسائل وماذا كتبوا فيها؟ وأين هم هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟ أو في أيّ مقبرةٍ دُفنوا؟

على سبيل المثال، رأى الرسالة التي أرسلها الدكتور راس بيهاري لال، المؤرّخة في فيليبيت 29 تمّوز - يوليو، 1931م. من هو الدكتور راس بيهاري لال؟ أو ويشواناندان فاندي من رانيخيت، ومحمد أحمد عباس نائب قاضي غونده...؟ جلس على الأرض مستغرقاً في التّفكير. أعاد الحقيبة إلى الرفّ، وتوجّه نحو مجموعةٍ من الملفّات الموجودة تحت السجّادات، فوجد فيها الأوراق المتعلّقة بالدعاوى في كاليانفور، والأوراق المتعلّقة بالفصل القانونيّ بين العمة تشوني بيجوم وزوجها غير الصّالح مير باني (كلاهما قد توفّي منذ زمنٍ طويلٍ)، كما وجد نسخةً من كتاب *تاريخ أوده* باللغة الأرديّة كتبه السيّد كمال الدين حيدر، نشرته مطبعة المنشي نولكشور بلكناؤ قبل سنواتٍ. عندما التقط هذا الكتاب، تساقطت صفحاته الصفراء الصغيرة. فتحه برقّةٍ، فوجد صورةً مرسومةً بقلم حبر بشكلٍ غريبٍ على الصّفحة المواجهة لعنوان الكتاب «إلى جلالة الملك ماهارجا السيّد ديغ بيجي سينغ بهادر من منطقة بلرامفور وتلسي فور، الواقعة في محافظة أوده. بناءً على أمر جلالته، أُلِّف هذا الكتاب.

رأى أيضاً في الكتاب مقدّمةً كتبها جلالة الملك ماهارجا باللغة الأرديّة المنمّقة وراح يقرأها عشوائيّاً: «وباختصارٍ، شعر النوّاب في بنغال بخيبة أملٍ جراء هذه الأحداث، وبعد تأمّلٍ كبيرٍ، لبس ملابس الرّاهب الصفراء، وجلس على قطعة حصيرٍ، ولبس رجال البلاط أيضاً اللّباس المتواضع ذاته، وكان العالم الخسيس يتندر عليه...».

قلب كمال صفحةً أخرى:

«- وهكذا شعر الحكّام الإنجليز الكبار والنّبلاء أنّهم فتحوا أرض الهند كلّها في ذلك اليوم بالذّات، وأعلنوا عن ذلك في الشّرق والغرب، وسعوا إلى ترسيخ مكانتهم كوزراء للملك الإمبراطور، وكانوا على يقينٍ بأنّ الاستيلاء على الإمبراطوريّة المغولّية كلّها يمكن تحقيقه بسهولةٍ، وبأنّه من غير اللّائق أن يدخل المرء بيتَ أحدٍ فجأةً، بل يجب أن يتمهّل في ذلك. لقد بدا واضحاً لهم أنّ الهنود مقسّمون، فعملوا على إطفاء جميع المصابيح الهنديّة واحداً تلو الآخر..».

«الموت المحزن لميرزا علي خان في يونيو - يونيو، عام 1816م.

«- دُفن في منطقة كاسي باغ الواقعة في كلكتا حيث دُفن ابن السّلطان تيبو فيها أيضاً. شيّع الشّعب المتواضع في المدينة جنازته باعتباره رئيس وزراء الهند، وأمر الحكّام بأن يحرس الجنود البريطانيّون النّعش، حدث ذلك في عهدٍ كان فيه السّيد جون لامسدين المحافظ العام في لكناؤ، والسيد جون تشيري المحافظ العام في بناراس، وقد قتله النّائب تفضل حسين خان فيما بعد...».

«- وحاول ميرزا مظفّر بخت ابن الأمير ميرزا سليمان شكوه من دلهي الخروج من لكناؤ حيث تقاعد في بلاط أوده، بصحبة بعض فقراء المدينة.

ولّما عاد إلى لكناؤ خائباً وحزيناً، تزوّج من سيلي بيجوم إحدى أرامل الجنرال كلاوود مارتين، وعاش على راتب تقاعدها[1]، وبعد موتها واصل العيش في منزلها...».

«مغادرة السيّد الكولونيل دوبويس وفيرايل والمولويّ محمد اسماعيل إلى لندن مع الوفد والهدايا الغالية للملك، جورج الرابع، ملك الملوك...».

أعاد كمال الكتاب إلى الصّندوق، ونظر إلى الغبار الذي علق بيديه بحزن، لم ينفضه إلا بعد لحظات، وقال في نفسه: لا فائدة من أخذ هذه الأشياء، لتتملكّها الحكومة الهندية، وتبيعها إلى بائع خردة.

كان على وشك أن يغادر الغرفة، حين رأى صورةً جماعيّةً قديمةً في زاويةٍ، التقطها ونفض الغبار عنها؛ إنها صورة عمّه المكلّل بالزّهور، جلس في صفّ الوجهاء، الذين اكتسى الجِدّ وجوههم. التقطت الصّورة حينما نُقل بصفته محصّل ضرائب من مقاطعةٍ إلى أخرى، كان بعض الموظّفين الحكوميين في المقاطعة يجلسون بجانبه، ووقف آخرون خلفه، في حين استند بعضهم الآخر إلى مرافقهم فوق السّجادات الموضوعة أمامه. وقف عددٌ من العمّال برزانةٍ في أزيائهم الرسميّة في ظلّ خلفيّة شرفةٍ مقوّسةٍ عاليةٍ. قرأ الأسماء المطبوعة على دعامةٍ رماديّةٍ، السيد إيل ساكسينا، والسيد إس إيه رضوي، وثاكور راما ناراين، ومسعود الحسن نقوي.

لقد تذكّر بعضهم، إنهم يمثلون أنماطاً مختلفة من الشّخصيات، بينهم الأبرياء، والنّبلاء، والمتّحضرون، وآخرون بعيدون كل البعد عن الابتزاز والاحتيال، لكنهم كانوا جميعاً أناساً سذجاً. حملوا معهم أوهامهم وسخريتهم واهتماماتهم الغريبة القديمة. حضروا النّدوات الشعريّة، والدعاوى

(1) وكانت سيلي بيجوم تعرف أيضاً بـ غوري بيغم.

القضائيّة، وخرجوا للصّيد، وحضروا حفلات الموسيقى الكلاسيكيّة، وعاشوا حياةً هادئةً بسيطةً غير معقّدةٍ. نظر إلى هذه الجماعة لمدّةٍ طويلةٍ وفكّر كيف أثبتنا أنّنا أفضل منهم؟ وأنتم أيّها القدّامى المساكين! إنّني أخجل من نفسي أمامكم، ولأجل ذلك أهرب منكم، لأخفي نفسي في أماكن بعيدةٍ. وداعاً! ثم ألقى الصّورة على الأرض برفقٍ، وخرج من المستودع.

واصل الطائر بكاءه بين الأشجار، «*وأسفاه! كنت نائماً*». لم تضيّع شيئاً أيّها الطّائر الأحمق! همهم في نفسه وأقفل الباب وراءه.

72

سودارشان ياكشيني من المتحف الوطني

«مرحباً! لاج، أنا في مركز الشّرطة»، قال كمال لصديقته من عهد الطّفولة برقّةٍ، محاولاً أن يبدو مرحاً:

استغربت لاج من الأمر، إذ لم يزرها أي باكستانيٌّ قطّ في السّابق، وقالت: «في مركز الشّرطة؟ لماذا؟»

«لإبـلاغ الشّرطة بقدومي! لقد نزلتُ في فندق مايدينز، وسآخذ أمتعتي منه. لم أكن متأكّداً من وجودكم في البيت».

«كيم! إلى أين ستذهب؟ هل تتذكّر العنوان أم آتي إليك لآخذك؟»

وضع السّاعة قائلاً: «بالطّبع، أعرف العنوان». لمّا عاد إلى بهو الفندق، التقى مع أبناء عمٍّ له، يعيشون بالقرب من الفندق. كان لقاءً مرحاً بعد مدّةٍ طويلةٍ لم ير فيها بعضهم بعضاً، لقد جاؤوا مع مجموعة مستشارين من تكساس، يلبسون سراويل قصيرةٍ وشباشب. هذا البلد مثل باكستان يزخر بالمستشارين الأمريكيّين، قاده سيخي مرح إلى منطقة سيويل لاينز، التي بدت حتّى ذلك الوقت على الطراز الإنجليزي، وإن غادرها الإنجليز قبل عقدٍ من الزّمن. فكّر كمال بقوة المغول قبل قرنٍ من الزّمن، ومع ذلك فإن أثرهم ما زال باقياً، الحضارات لا تفنى بين عشيّةٍ وضحاها. قيّد مسؤول مركز الشّرطة لمنطقة سيويل لاينز تفاصيل قدومه بخربشةٍ سريعةٍ بخطّ

أردي، استغرب كمال ذلك، لأنّه رأى هيمنة الخطّ الهنديّ الرسميّ في كلّ مكانٍ.

كالعادة بدت منطقة سيويل لاينز هادئةً، وكان طائر الكويل يشدو على بعد مسافةٍ.

يسكن الأحفاد المثقّفون للمنشي جيفان لال، صديق الشاعر الأرديّ الشّهير غالب، في بعض المنازل. بعد عام 1857م، اشتغل المنشي جيفان لال بتعليم اللّغة الأردية للجنود البريطانيّين المقيمين في قلعة شاهجهان المنهارة، القلعة الحمراء.

لاحظ كمال لوحات الأسماء القديمة على أبواب المنازل. لقد جاء من بلدٍ مليءٍ بالمتشرّدين، هو نفسه واحدٌ منهم. وجد هنا عائلاتٍ تعيش في بيوتها التي عاشت فيها دائماً. تذكّر كيف قام مع هاري، كنوع من المزاح بين تلاميذ المدرسة، بخلط لوحات الأسماء على أبواب منطقة دالان والا، في دهرادون. لقد استبدل الآن عنوانه وهويّته بعنوانٍ وهويّةٍ جديدين كليّاً.

وصلت السيارة إلى أصص النباتات الموضوعة في بيت فخم رائع يقع في شارع بيلا، وقفت لاج على درجات الشّرفة تنتظر، ولمّا رأت كمال أسرعت إليه وبكت قائلة: «لا تذهب، كمان (كمال)، لقد توفّيت نيرمالا، وهاري دائماً خارج البلد، وأنت هربتَ إلى باكستان».

دخلا البيت وجلسا على أريكةٍ، فقال بهدوءٍ: «لماذا تبكين؟ من فضلك لا تبكي».

سيغادر قطاره إلى مدينة أمريتسار في المساء. كانت لاج تسيء الظنّ بغوتام، وليس لديها رقم هاتفه، لذلك راحت تبحث عن رقمه في دليل الهاتف في خانة أرقام موظّفي الحكومة المركزيّة. وجدت اسمين مألوفين: زرينة حسين،

هيئـة الإذاعة الهنديّة العامّة، البثّ الخارجي، وصولت رحمان، وزارة التعليم، ثمّ وجدت اسم غوتام في قائمة وزارة الإعلام والإذاعة الهنديّة.

اتّصل كمال بالرقم وقال: «مرحباً! أنت موجودٌ هنا..». لقد حاول جاهداً أن يعود إلى سابق عادته في مخاطبته «نعم، نعم... جئت هذا الصباح من دهرا دون...قبل ذلك ذهبت إلى دكا، وتوقفت في لكناؤ، ترسـل تهمينة حبها لك. إنها بخيرٍ وسـعيدة بزواجها من قريبٍ لهـا يعمل في الخدمات الهنديّة الإداريّة بصفته نائب المفوض في مكانٍ ما في ولاية أوترابراديش ويحكم المقاطعة، لقد نسيت حماستها الثّورية تماماً».

«الجميـع بخير ما عدا صديقيـك المخلصين...قدير وقمر... رحمهما الله!. أنـت تذكرهما! تذكـر كلّ شيءٍ،قلت كلّ شيءٍ؟ حسـناً، ذاكـرةٌ رائعةٌ. ذهب قديـر إلى ميرزا بور بعد أن باع سـيّارته. لماذا باع السـيّارة؟ يا صديقي! الحياة كلّهـا مباعـةٌ، ومرهونةٌ، مباعـةٌ في المزاد، وضائعةٌ، وأنت قلقٌ بشـأن سـيّارةٍ قديمةٍ».

«قلت إنّك لم تبع نفسك، لا، لا، كنت أتحدّث عن نفسي... وجدت سعراً جيّداً وكانت ظروف السّوق مناسبةً».

«لا، لا أسـتطيع لقـاءك، ليس لدي متّسـعٌ من الوقت. جـدولي مزدحمٌ. لا.. ما الفائدة من أن تنتظرني في جبال الألب؟ أنا الآن ذاهبٌ للّقاء الأمين... في «البلوك بي». حسناً، سأحاول أن آتي، لكن لا تنتظرني أكثر من خمس عشرة دقيقـةً. ربّـما لا آتي أبـداً. ربّما أمكث مدة أطـول في مكتب ذلـك الرجل، إلى اللقاء».

وضـع السّـاعة في مكانها قائلاً: «حسـناً! لاج! سـوف أركـب الدرّاجة الناريّة».

«كيم! ماذا أطبخ لسفرك بالقطار؟»

أجـاب باختصـارٍ: «الشيء نفســه الذي تطبخينـه دائماً. الآن سـتحاولين اسـتغلال عواطفي، فأنا أخوك على ربـاط الراكهي، ولكن كلّ ذلك لن يؤثّر في قلبـي، وقـد لا تتعثّر قدماي. أنا قويٌّ، صرتُ عجـوزاً مثقلاً بهموم العالم، حقّقت ضبط النفس، والتّوازن والسلام...».

في منطقة كونات سيركوس، رأى سيّدةً مارّةً، ظنّها سوريخا خطأً، فذهب إليهـا، لكنـه اعتذر إليها على الفور، ثم اسـتأنف تسـكّعه في الشّرفة، بدا قلقاً بعض الشيء وسـط أناس مرحين وسـعداء راضين عن أنفسـهم. تذكّر أيضاً أنّه يجب عليه أن يخبر مركز الشّرطة في سـيويل لاينز مرّةً أخرى قبل الذّهاب إلى محطّة القطار، ليبلغهم بمغادرته الهند.

لقـد أذته شـمس شـهر «بهـادون» الحارقة (شـهر التّقويم الهنـديّ) دونما رحمـة. أراد أن يعود إلى كراتشي على الفور، قرّر أنّه لن يزور الهند مرّةً أخرى، على الرغم من أنّ أخته تهمينة والأقرباء الآخرين يعيشون هنا.

«يـا لها من مفاجأةٍ سـارّةٍ»!، قال بمـودّةٍ متكلّفةٍ لمّا خـرج الدكتور هانس كرامير من محلّ بيع الكتب، تصطحبه فتاةٌ شابّةٌ كفوءةٌ تعمل في قسم الإعلام.

قالـت الفتـاة (التي عرّفهـا إليه الدكتـور كرامير المتحمّـس بأنّها كوماري أرونـا باجبائـي) لكمال: «اذهب مع البروفيسـور إلى المتحـف الوطنيّ، تعال معنـا». أغلـق عينيه لحظـةً، وبدأ يفكّـر ربّما لو بقيـت نيرمالا عـلى قيد الحياة لأصبحت تعمل مثلها.

قال البروفيسـور للسـيّدة باجبائي: «سـافرنا معاً في رحلةٍ من إنجلترا إلى الهند».

أخـذوا معهم مفكّرين فرنسـيّين من فندق إمبريـال هوتيل، وذهبت بهم

كوماري باجبائي إلى راشتربتي بهون (قصر الرّئاسة) في سيّارةٍ كبيرةٍ، يعيش الدّكتور هانس كرامير وزملاؤه في ذلك العالم الرّاقي الصّغير الذي كان ينتمي إليه كمال قبل زمنٍ غير بعيدٍ. إنهم يحملون نظرةً شاملةً حول الحياة، ويمتلكون خيالاً ومعرفة، أتوا جميعاً إلى الهند ليشاركوا في احتفالات ميلاد بوذا. سكن الدكتور كرامير منذ شهورٍ قليلةٍ ماضيةٍ في منزل عائم في سري ناغار، وهو يؤلّف كتاباً عن فنّ النّحت في عهد الملك غوبتا.

لقد أعيدت تسمية سكن نائب الملك براشترا بتي بهاون (قصر الرّئاسة) بعد الاستقلال، وحُوِّلَ جزء من القصر الرئاسيّ إلى متحفٍ. قالت كوماري أرونا باجبائي لكمال معتذرةً: «كما ترى فإنّ هذا الترتيب مؤقّتٌ. سيضاف متحفٌ خاصٌّ قيد الإنشاء إلى تراثنا العظيم».

جفل كمال من العبارة الشبيهة بالكليشة، وأجاب بلطفٍ قائلاً: «نعم، بالطّبع». تحدّث كمال مع توم قبل اثني عشر شهراً بالأسلوب نفسه، وقلبه يفيض بالفخر الوطني.

لم يجد كمال حاجةً إلى إخبارها بأنّه كان ينتمي إلى هذا البلد أيضاً.

وجدوا قاعات القصر الرئاسيّ الرخاميّة باردةً ومريحةً بعد أن قضوا وقتاً تحت الشّمس الحارقة في الخارج. حدّقت تماثيل الأزمنة الغابرة في كمال، في حين كان الزوّار الأجانب يتوقّفون أمام كلّ صندوق زجاجيٍّ، ويتبادلون آراءهم المعمّقة بأصواتٍ خافتةٍ. في قاعة دربار، حيث كان نوّاب الملك يعقدون الجلسات الفخمة والعظيمة مثل المغول، استبدل عرش نائب الملك بتمثالٍ ضخم لبوذا مع ستائر مخمليّة كستنائيّة اللّون في الخلفية.

جلس كمال على درجات العرش، وأحنى رأسه، وتذكّر قاعة بوذا الهادئة الأخرى التي زارها في شبابه لما اصطحب هو وهاري أختيهما إلى باناراس...

قبل سنواتٍ... في عام 1941 كان العالم حينها فتيّاً بالنسبة لهم، لأنهم كانوا شباباً مفعمين بالأمل والسعادة. حينها جلسوا جميعاً على الفرش الرّخامي في معبد بوذا، ثم وقفت طلعت فجأةً، وراحت ترقص أمام صورة بوذا المستنير البرونزية.

فكَّر كمال في ذهولٍ، ما الذي تنطوي عليه الاستنارة؟ مرّةً أخرى أزعجته كوماري باجبائي أثناء تفكيره، قالت: «تعالوا معي من فضلكم»، ثم قادت مجموعة الرّجال إلى غرفةٍ أخرى بسرعةٍ، وقالت: «هذه هي الرّاقصة لموهان جودارو، أقدم حضارة هنديّةٍ... عمرها خمسة آلاف سنةٍ».

أراد أن يصحّحها رسميّاً قائلاً: «هي أقدم حضارةٍ باكستانيّةٍ»، لكنّ الوضع كان مضحكاً جدّاً، فلم يتحدّث.

حدّقوا في تمثال صغير مسحورين، كانت المرأة التّمثال تبدو مثل امرأةٍ سوداء موجودةٍ على شاطئ مكران، تشتغل مع عاملاتٍ في كراتشي الحديثة. في هذه اللّحظة انكشفت لي أسرار الرّاقصة الشهيرة عالميّاً الموجودة في موهان جودوارو. لقد كانت مجرّد عاملةٍ مكرانيّةٍ. ابتسم بسخريةٍ.

توجّهوا إلى الأقسام المكتوب عليها: تشان هو دارو، ووادي سوات، وهارابا، وتاكسيلا، وروبير، ثمّ انتقلوا إلى قسم آخر حتّى وصلوا إلى صندوق زجاجيٍّ مضاءٍ يحتوي على منحوتة عتيقة لامرأةٍ سمينةٍ لها حاجبان مقوسان، كُتب في بطاقتها التعريفية: «عثر عليها في أنقاض شراوستي، يعود تاريخها إلى القرن الرابع قبل الميلاد».

ظهرت المرأة المنحوتة جالسةً القرفصاء، كانت ذات وجه منتفخ، وحاجبين مقوسين، وذقن مدبب. أحنت بإحدى يديها غصن شجرة كادامبا على رأسها المسرّح بإتقانٍ، وبدت قويّةً بدينةً عارية الصّدر، ترتدي مجوهرات ثقيلة.

علّق عليها مونس رول بمرحٍ: «كان الرّجال القدامى يحبّون النّساء السّمينات، ولم يكنّ يرتدين السّاري». احمرّت وجنتا السيّدة باجبائي حياءً. بدأ الدكتور كرامير يتحدّث بجدّيّةٍ: «تجذّرت النّظريات المستقبليّة الهنديّة حول الصّورة واللّاصورة، والشّكل واللّاشكل، والعمل العاطفيّ وغير العاطفيّ، وخاطب الجمهور قائلاً: لعلّ هذه القطعة الأثريّة أقدم من بهارهوت وماتهورا».

تكلّم الدكتور موريليند بنبرةٍ تشبه إلقاء المحاضرات: «ربّما المشكلة التي واجهها النحّاتون في ذلك العصر تتعلّق بإيصال الفكرة الخالصة من خلال الرّموز المعروفة، وقد شجعت هي والمملكة الإغريقيّة والبخترياتية، ورؤوس البوذا في غاندهارا عبادة الأصنام».

فكّر كمال مع من سيتحدّث عن أفكاره عن الشّكل واللّاشكل، والصّورة واللّاصورة، والعمل العاطفيّ وغير العاطفيّ. لقد تبيّن له أنّ هذه النظريّات كلّها غير مجديةٍ، وأن هذا التمثال لا يحمل أي رسالةٍ بالنسبة له.

سأل الدكتور موريليند كمال: «في الفلسفة الهندوسيّة لا يمكن فصل التّجربة الجماليّة الخالصة مثل البرق، ويمتزج النّاظر مع الخالق. ما رأيك؟»

أجاب وهو ينظر إلى ساعة يده قائلاً: «ليس لي رأيٌ حول هذا الأمر يا سيّدي».

قال الدكتور موريليند: «يكشف هذا التمثال قوّة الأرض، المتمثلة في الحياة عوضاً عن ما وراء الحياة، إنها مزيج يشمل الشعور بالسّلام والتّوازن والحركة التي يتولّد منها الجمال الرائع».

قال الدكتور كرامير: «أتمنّى لو أننا نعرف اسم النّحات الذي نحت هذه الفتاة تحت شجرة كادامبا، لكن التاريخ في الهند لا يعني شيئاً، والأحداث لا

تعتبر مهمّةً، فضلاً عن أن الحقيقة والأساطير (الميثولوجيا) والتقاليد ممتزجة معاً، لا وجود للزّمن التاريخيّ فيها. اللحظة أزليّةٌ، يبقى المرء دون اسم، وتضيع أعماله في هذا المحيط السرمديّ. لا تؤثّر أيّ أزمةٍ على الذّهن الهنديّ، لأنّ الأزمة هي أيضاً جزءٌ من الزّمان، والزّمان لا معنى له. لذلك نادراً ما كان يهتمّ الرسّامون في الشرق بذكر أسمائهم. أنتم تعرفون أنَّ الرّسّامين في إيران تركوا ورقةً صغيرةً لم يرسموها لأنّهم يعتقدون أنّ الله وحده هو الرّسّام الكامل». تسلّل كمال من ذلك المكان ودخل صالة العرض.

بينما كان مونس رول يقول: «... والشّعور بأنّنا نحن الزّمن نفسه».

تبع صوتُ الدكتور كرامير كمال الذي خرج من صالة العرض مسرعاً: «يمكنك أن تتحسّس المساحة، لكن لا يمكنك إلّا أن تفكّر في الزّمن».

بعد لقاء المحافظ في «البلوك بي»، لم يذهب إلى فندق الألب للقاء غوتام نيلامبار، بل ذهب مباشرةً إلى بيت لاج، وقال لها: «إذا اتّصل بك أحدٌ بالهاتف، فالرّجاء أن تقولي له إنني لسُت في البيت». بعد ذلك أغلق الغرفة من الدّاخل، وراح في النوم إلى أن أزفت ساعة مغادرة محطة القطار.

انتظر غوتام كمال نحو ساعةٍ في المطعم، ثم اتصل به هاتفيّاً من أمكنةٍ عديدةٍ، ولمّا فقد الأمل في لقاء صديقه، عاد إلى مكتبه.

بعد قليلٍ اتصل بنائبته، كوماري أرونا باجبائي، بشأن ملفٍ مهمٍّ، فأخبروه بأنّ الدكتورة باجبائي ذهبت إلى المتحف الوطنيّ مع الدكتور كرامير.

تمتم بغضبٍ قائلاً: «سحقاً». لقد كان كئيباً جدّاً، وغاضباً، لأنّه لم يتمكّن من لقاء كمال..

لقد كان غاضباً على هذا البلد، وعلى نفسه، وعلى كمال، وعلى كلّ شيءٍ في العالم، ولو أمكنه لالتهم الدكتور كرامير والسيّدة باجبائي والبقيّة أحياءً.

كان هذا الملّف سرّيّاً للغاية، ويحتاج إلى عملٍ فوريٍّ. ركب سيّارته وذهب إلى راشـتربتي بهـاون، ولّمـا وصل إليه، وجد أنّ السـيدة باجبائـي ومجموعتها تركت المكان، فراح ينتقل في غرف المتحف الخاوية شارد الذهن.

وجد بعض كتيبات قسـم الإعلام في قاعدة تمثال سودارشـان ياكشـيني. ربّما نسـيها زملاؤه هناك. التقطها، ثمّ نظر إلى التّمثال بفراغٍ، حدّقت منحوتة الفتاة من شراوستي بشكلٍ متحجّرٍ.

لقـد اعتُـبر التّمثال مثـالاً رائعاً للنحـت العتيق، فكّر في الأمـر مثل خبيرِ دعايات، يا حبّذا لو نشر مولك راج آنند مقالاً عنه في مجلّته «مرك»، كما كتب عنه كارل خاندالوالا في «*مسيرة الهند*».

خـرج كمال مـن بيت لاج عند مغيب الشّـمس. قال لـه جيجاجي: «لقد تجوّلـت تحت الشّـمس الحارقة طوال اليوم، سـينفعك الهـواء المنعش الآن». ركبا السيّارة وسارا حتى وصلا إلى التلال، لمح البلديّات المزدهرة الجديدة في دلهي ما بعد الاستقلال في الأفق. نزل الأصدقاء من الجبل، وتوجّهوا إلى نيو دلهي ومرّوا في الشّـوارع دونما هدفٍ. عزف الأستاذ الكبير غلام علي خان في حفلةٍ موسيقيّةٍ أقيمت في سابرو هاوس.

أخبرته لاج بحماسٍ: «ستمثل سوريخا دور هير الحبيبة في مسرحيّة «شيلا بهاتيا» اللّيلة».

قال كمال: «إنّه لرائعٌ».

«في الأسـبوع القادم، سـتمثّل دور المحظيّة فاسانتسينا في مسرحيّة «عربة الطـين». المسرحيـة من إنتاج بيجوم قدسـية زيـدي، وإخراج حبيـب تنوير. لكنّك لن تبقى هنا يومين آخرين».

أجاب كمال قائلاً: «يجب أن أعود إلى عملي في المختبر».

تباطأت السيّارة أمام معبدٍ جديدٍ، فرأى العبدة في السّجود منبطحين على الأرضيّة الرّخامية في المعبد، وتناهى إلى الأسماع صوت أغنيةٍ تعبّديّةٍ على الهارمونيوم، وجلس الرّجال والنّساء المحتشدون القانعون من الطّبقة الوسطى القرفصاء في قاعة العبادة. تمثّل الأصنام الفنّ الهابط الجديد.

حان وقت المغادرة، فودع مضيفه ومضيفته، ثم ركب في إحدى المقصورات، سار القطار ببطءٍ من محطته الواقعة في دلهي القديمة. رأى جسر نهر جمنا، وأسوار القلعة الحمراء، والبازارات، والشوارع، ومعابر السّكة، والبيوت ذات السقوف المسطّحة، والأشجار المزهرة، شاهد كلّ هذا وهو يغادره.

سيغادر جامعة ناغار، ونظام الدّين أولياء، ومقبرة لودهي، والأماكن الأخرى، ستستمرّ الحياة. إنّ سقوط شخصٍ لا يغيّر شيئاً، وهؤلاء أناسٌ مختلفون الآن، يسافرون على طرقٍ منفصلةٍ، لا يشترك معهم في شيءٍ، وقد لا تكون له علاقةٌ بهم البتة، وهم أيضاً لن يفتقدوه.

لابدّ أنّ مراسلي الصّحف العالمية سيستمرون كعادتهم في شرب الخمور في نادي الصّحافة، وقد ترقص سوريخا ديفي في المسرح الهنديّ لبيجوم قدسية زيدي، كما أن بندت نهرو سيلتقي وفداً من جمعية الأصدقاء الدينيّة (كويكرز) الفرنسيّة في مقرّ إقامته.

هبّ النّسيم اللطيف في روشن آرا باغ وشارع بيلا، وأزهرت الورد في البيوت القائمة في سيويل لاينز القديمة ونيو دلهي. دخل القطار الآن إلى الرّيفِ. قال غوتام مرّةً.

كان يتحدّث (كما قالت طلعت) على غرار المصطفى في كتاب جبران خليل جبران «يتمثّل رمز الهند كلّه في الرّحلة، وعادة السفر الدائم، والبحث

الدائم..». إشارة إلى سبنغلر. أخذ كمال كتاب إس رادها كريشنان ذا الغلاف الورقي الذي اشترته كوماري باجبائي من محّل بيع الكتب في محطّة القطار، وأهدته له عند مغادرته.

«في الفلسفة الهنديّة لا نرى أحداً يأمر الآخرين بأن يفعلوا كذا وألّا يفعلوا كذا... هنا جميع الناس أحرارٌ يفعلون ما يشاؤون».

«آه، نعم...؟»

أغلق الكتاب بعد أن قلّب بضع صفحات منه، ثم اضطّجع على المقعد. مرّت محطّات القطار عبر بنجاب الشرقيّة، حيث عرضت على جدرانها ملصقات متوهّجة باللّغة الأرديّة دعايةً لآخر الأفلام، كما نشرت سراويل حريريّة ملوّنة كتلك التي ترتديها السيّدات السيخيّات على رصيف محطّة جالندهار. كان البائعون المتجوّلون يبيعون الشّاي وطعمية «الباكورة».

أشرق الصّبح، واقترب القطار من مدينة أمريتسار. مشت النساء السيخيّات عبر الطرق الريفيّة، وبلغ المزارعون السّيخ حقولهم حاملين المحاريث معهم. كانت حشود المسلمات المحجّبات والمسلمين الملتحين المسنّين جالسة على الناحية الأخرى من الحاجز على رصيف محطة أمريتسار، ينتظرون فحص تأشيراتهم وأختامهم. سأل موظّف الشّرطة السّيخيّ السّمين امرأةً عجوزاً: «ما اسمك، يا أمّي؟»

أجابت بحزنٍ: «آمنة، ابنتي سكينة باكستانيّةٌ، جئت من دلهي لأستقبلها، أبوها على فراش الموت».

وقفت سكينة الباكستانيّة على الجانب الآخر حيث ينتظر المسافرون الباكستانيّون، وهي تنظر إلى موظّف الشّرطة بعينيها الخائفتين، تفصلها الحواجز الحديديّة عن أمّها الهنديّة. سألت أمّها موظّف الشّرطة بشيءٍ من

الأمل: «هل أوراقها صحيحةٌ، يا بني؟»

صعد موظّفٌ باكستانيٌّ من الشّرطة الحدوديّة إلى مقصورة كمال، ثم تحرّك القطار السّريع. ركب جنود البلدين مقصورة القطار الخلفيّة، كانوا حرّاساً مسلّحين معتادين من الهند وباكستان، يسافرون مع القطارات جيئةً وذهاباً.

حاول كمال خلال هذه الأيام أن يستجمع شجاعته ليبقى سالماً، وأخيراً انهار باكياً لمّا عبر القطار الحدود، ورأى للمرّة الأخيرة وجهاً مبتسماً مرحاً لجنديٍّ سيخيٍّ يقف في حالة تأهّبٍ مع بندقيّته تحت عمود التليغراف.

فجأةً دخل إلى بلدٍ آخر، وترك الجنود السيخيّين وراءه مدجّجين بالسلاح.

أنا الآن في باكستان، جئت من الهند لاجئاً، ومهاجراً، ومسلماً متشرّداً من أوترابراديش...كم يبدو الأمر مروّعاً...لاجئٌ... متشرّدٌ... بلا مأوى....

انفجر أبو المنصور كمال الدّين باكياً.

أحس بعد لحظاتٍ بأنّ زميله المسافر، موظّف شرطة الحدود الباكستانيّة، العائد من مدينة أمريتسار إلى لاهور ينظر إليه بانتباهٍ شديدٍ. بدا كمال مكتئباً، وشعر كأنّ موظّف الشّرطة يقول له: أنت لا تزال واقفاً في مفترق طرق الولاءات المتضاربة، أليس كذلك؟

كانت عيون العالم كلّها معلّقةً عليه: أنت مسلم هندي... جاسوس هندي... بدا الأمر كأنّ عجلات القطار تكرّر اللّازمة ذاتها: خائن... جاسوس... خائن... جاسوس... خائن... جاسوس....

فتح عينيه مرتجفاً، دخل القطار ببطءٍ إلى الجزء المحظورِ من محطّة القطار لمدينةِ لاهور، فتسارعت دقّات قلبه.

في المساء، ركب طائرة الخطوط الجويّة الباكستانيّة من مطار والتون في مدينة لاهور، وطار نحو مدينة كراتشي.

إنّه الآن مقبلٌ على حياةٍ جديدةٍ. أخرج كرّاسته ذات الجلد المغربي، يلزمه القيام بأمور كثيرةٍ عند عودته إلى العاصمة الفيدراليّة. أوّلاً، سيطلب من عمّه نذير أن يتناول الطّعام معه في نادي جيم خانة، فقد يساعده هذا القريب المؤثّر في شراء الاسمنت وغيره من الأشياء من السّوق السّوداء، وسيقوم بتشييد منزله في منطقةٍ فاخرةٍ في كراتشي. تزوج ابن عمّه بنت وزير الصّناعة، لذا عليه ألّا ينسى تقديم الدّعوة إليه. سأل نفسه: قل لي، أين أذهب؟ وكيف أتجنب أن أكون جزءاً من النظام؟

قدّمت له القهوةَ مضيفةُ طيرانٍ من طبقة بتان، تلبس زيّاً أخضر ناصعاً صمّمه المصمّم بيير كاردان. نظر إليها نظرة استحسانٍ سريعةٍ، وأحسّ بسعادةٍ للحظاتٍ، لقد بدا واثقاً من نفسه: أداؤنا ليس بسيءٍ على الإطلاق، رغم أننا أناس جدد في هذا البلد، شكراً لكم. حاول إلغاء أفكاره السلبيّة، وأخذ صحيفة «ذا دان» وسرعان ما انهمك في أخبار بلده السياسية... الأزمة في المجلس الوزاريّ. لقد استقال رئيس الوزراء، وهاهو رئيس الوزراء الجديد يخطب أمام الشّعب في متنزه جهانغير...

نظر من النّافذة بعد برهةٍ، فوجد السّماء ملبّدةً بالغيوم. ستمطر عمّا قريبٍ، السحب لا تحتاج إلى جواز سفرٍ. أسدل ستار النّافذة الخضراء، ومدّد رجليه، ومال إلى الخلف في مقعده.

73

الطريق الرئيسي إلى شراوستي

مـرّوا بجسر غولـوا غهات على نهـر سـارو، ودخلـوا مدينـة بهرايتش. أسرعـت سيّارة الجيـب الحكوميّة مخلّفةً وراءها سـحابةً سـوداء مـن أدخنة العـوادم، كان ثمـة فتىً قويٌّ يقـود عربة الثّور في الشـارع الرئيسي، صرخ في وجه سـائق السـيّارة الكبيرة التي تجاوزت سيارة الجيب قائلاً: «هلو مستر! كن أكثر حذراً، لقد أزعجت ثيراني».

صـوّر الصحفي الأمريكي الولد وهو يقـوم ببعض الإيماءات، إذ لم يهب الموظّفـين الحكوميّين الكبار. قال الصّحفي الأمريكي للسّـيدة نيليما بانرجي المحبّـة للفـن، التي اصطحبـت كبـار الشـخصيّات في رحلة إلى بـوذا: «ثمة ديمقراطيّةٌ جديدةٌ في الهند». لكنه استغرب تشبّثها بلقبها البريطانيّ.

كانت السـيّدة بانرجي تتحدث مع بروفيسـور يابانيّ متخصّصٍ في علوم الهنـد، وكانت الحافلـة خلفهم تحمل الحجّاج العاديّـين؛ البوذيّين والبوذيّات من أراضي هضبة شيتاغونغ ومنطقة كوكس بازار الواقعة في شرق باكستان، المتجهين إلى سـاهات ماهات، الاسـم الحاليّ لأنقاض شراوستي، وقد تبعت سـيّارات اللّيموزيـن الحافلـة الصّفـراء المغبرّة التـي تحمل المزيد مـن الوفود المشاركة في احتفاليّة ميلاد بوذا.

قال غوتام للسيّدة باجبائي: «أريد أن أنزل هنا، وأذهب إلى بيتي سيراً على

قدمي. ثمة طريقٌ قصيرةٌ من بين الحقول». لقد استمع إلى خطاب الدّكتور كرامير عن «زين» لمدة ثلاث ساعات، وهو الزمن الذي استغرقه السّفر من لكناؤ عبر نهر غهاغرا بالسّفينة، لذلك يريد قسطاً من الرّاحة. «إلى اللّقاء في صباح الغدّ الباكر، يا سيّدي! في سركيت هاوس، ومنها سنغادر إلى شراوستي. عفواً، مونس راول».

أوقف القائد السيخيّ السيّارة، فنزل غوتام منها، ومدّد رجليه. غابت السيّارات عن الأنظار خلف مجموعةٍ من أشجار البونسيانا المتفتّحة. نظر حوله، واستنشق هواء الرّيف النقي، كانت شجرة اللّهب مزهرةً، وأشجار البلوميريا محمّلةً بالزّهور الحمراء. بدت الغابة كلّها ملتهبةً، رعدت السّحب السّوداء في السّماء، وسقطت قطرة من المطر على أنفه. اتّجه نحو طريقٍ في الغابة وواصل سيره. حدث أن رسم هذه الأزهار البريّة أحياناً في شبابه، تذكّر لوحة رسمها ذات مرة بالألوان المائية للأمير الشابّ سيدارتها وهو واقفٌ تحت شجرة المانجو، ينظر إلى طائرٍ ميتٍ قتله سهم صيّادٍ. كم ألحّ غوتام أن يُرسل إلى سانتي نيكيتان، وكم يبدو الأمر بعيداً اليوم، كأنّه من الماضي السّحيق. كيف أصبح ذلك الحالم الشابُّ دبلوماسيّاً واقعيّاً؟ واصل المشي في طريقه، بدأت السّماء تمطر، فلاذ تحت شجرة البانيان، لسع الهواء الشرقيّ الرطب وجهه، وتحولت الأشجار إلى أوركسترا آلات هوائيّة. فكر غوتام في أنّها تعزف أغنية ماالهار، وديس، وغور.

توقّف هطول المطر فجأةً مثلما هطل فجأةً، تناهى إلى سمعه زمخرة نمرٍ خافتةٍ، التفت وراءه، فرأى طريقاً مليئةً بالوحل، أحسّ بأنه قد ضلّ طريقه. دخل في غابةٍ كثيفةٍ، وغطّى الطّين حذاءه الإيطاليّ الفاخر، لمعت أزهار الكادامبا مثل المصابيح الحمراء الصّغيرة، ورقص طاووسٌ وحيدٌ تحت شجرة الأبنوس الكاذب.

وقفت طيور الكرك التي بللتها الأمطار حزينةً قرب بحيرةٍ. تذكّر غوتام أن المجمّعُ الواسع لضريح سالار مسعود غازي، البطل الثقافيّ في المنطقة، يقع وراء هذه الغابة. ربّما يقع على مسافة أميالٍ. وجد طريقه، فراح يثب بين البرك والجداول المائجةِ، حتى وصل إلى الشّارع الرئيسيّ، وتلطّخ بنطاله بالوحل.

جلس في محطّةٍ ينتظر حافلة، وفكر بحزنٍ ربّما يأكله النّمر حيّاً، فتنتهي حياته المهنيّة المتميزة نهاية بشعة. حاول أن يفكّر في شيءٍ رائع، وتذكّر أيّام طفولته حينما كان والده يأخذه إلى أكواخ الصّيد التي بناها ملوك نانفارا وبياغفور، وقد كانا أكبر الإقطاعيّين في هذه المقاطعة.

زمجر النّمر مرّةً أخرى، وفي الوقت ذاته ظهرت جرارةٌ في نهاية الطّريق متّجهةٌ نحو المدينة، فجرى نحوها وصرخ طالباً المساعدة لإيصاله إلى غايته.

كانت الجرارة مكتظّةً بموكب زواجٍ. استقبلوه بحرارةٍ، ووسّعوا له ليجلس إلى جانب العريس. تحدّث غوتام معهم بلهجةٍ محليّة، فشعر بطمأنينةٍ وسعادةٍ. أنزله أصحاب الموكب المرافقين للزوج عند باب نيلامبار بهاوان، سيويل لاينز، بهرايتش.

كان أبوه بعيداً في لكناؤ. أما السيدة نيلامبار فكانت واقفةً في الحديقة الأماميّة تتحدّث مع البستانيّ. لم تستغرب البتة حين رأت ابنها ووريثها قادماً في جرارةٍ مليئةٍ بالمزارعين المنشدين، فلطالما فعل مثل هذه الأمور المجنونة.

وبّخته قائلةً: «انظر إلى نفسك! أكنت تتمرّغ في التراب، وهل عبرت الأنهار في طريقك؟»

ابتسم بخجلٍ ولمس قدميها.

«يا أمّي! لقد نسيت حقيبتي في السّيارة المتّجهة إلى سركيت هاوس». مضى

مسرعاً إلى غرفته في الأعلى وأخرج بعض ملابسه القديمة من خزانته، وسأل من خلال باب الحمّام نصف المغلق قائلاً: «كيف حال العمّة داميانتي؟»

أجابت أمّه من الشّرفة: «إنها بخيرٍ. هل أنت بخيرٍ يا بنيّ؟ وهل أنت سعيد؟»

«نعم يا أمّي، أنا بخير». دخل الصّابون منخريه، وصاح مرّةً أخرى قائلاً: «متى ستتزوج بوشبا؟»

أجابته: «في موسم ساهالاك[1] القادم...».

«هل أنهى العمّ براكاش بناء بيته؟»

«لا، هل تتذكّر المحامي المتقاعد، خان بهادر محمد حسين؟ لقد هاجر إلى باكستان، وبِيع منزله في المزاد، فاشتراه براكاش بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ».

ذكّرته كلمة باكستان بأنّ عليه شرح قضية كشمير في الصّباح التّالي أمام الزوّار الغربيين.

قال لأمّه بعد الغداء: «أريد أن أستريح وآخذ قيلولةً»، ثم ذهب إلى غرفته. لقد حافظت أمه على الأشياء التي كان يستخدمها في عهد طفولته في غرفة ملابسه: أحذية التزلّج، وريش الرسم، وكرّاسات الرسم. كُدِّست في إحدى زوايا الغرفة أوراق الموسيقى المصنّفة، وكومةٌ من مجلّات «بوائز أوون»، و«فيلم فن». كلّما عاد إلى بيته، نظر إلى هذه الأشياء وهو مفعم بالحنين إليها.

اضطجع على سريره، لكنّه ظلّ مستيقظاً، وبعد بضع دقائق وقف ثانيةً، وتوجّه نحو الكنز الدّفين في غرفة الملابس. أخذ نسخةً قديمةً من مجلة «فيلم فن»، وجلس بالقرب من النّافذة، رأى رسماً كاريكاتيرياً كُتِبَ عليه: تغني أغنية لاميبت واك...

توقّفت الريح، وبدت الغرفة خانقةً، لم تكن الكهرباء متوفّرةً، فأحسّ

(1) موسم الزواج.

غوتام بالاختناق، سقطت المجلّة من يده، وتملّكه الخوف فجأةً من الوجود. قام ومضى نحو غرفة أمّه.

قال لأمه وهو يرتجف إلى حدٍ ما: «أمّيّ أنا ذاهبٌ لأتنزه في الخارج بالسّيارة».

نظرت إليه بقلقٍ، ربّما ثمة شيءٌ يقلقه، ماذا عساه أن يكون؟

«لقد سافرت بالسيّارة من لكناؤ، ومن الأفضل لك أن تستريح».

«سأذهب إلى الشّارع الرئيسيّ المتجه إلى شراوستي، لأرى إن كان مناسباً لمرور السّيارات. سيمرّ به كبار الشخصيات. سأعود قريباً».

ركب سيارة بلايموث اشتراها لأبيه من جراج في أمريكا. قاد سيّارته بسرعةٍ في الشّارع المتّجه إلى غونده. تذكّر زمخرة النّمر إذ مرّ بالمناطق ذات الغابات الكثيفة، ألقى نظرةً على نهر ساريو اللّامع من خلال أشجار ماهوا. لقد ابتعد عن بهرايتش مسافة خمسة وعشرين ميلاً. ظهرت الأبراج البوذيّة الصّغيرة في المنطقة، وظهرت شمسٌ حارقةٌ من بين السّحب، كان الهواء ساخناً ورطباً. وقعت عيناه على حافلةٍ صفراء اللّون يركبها الحجّاج من شرق باكستان في ظلّ برجٍ بوذيٍّ بنيّ اللون، كان الرّجال والنّساء الصّغار مشغولين في التقاط التفّاحِ الخشبيّ الجافّ بوصفه شيئاً مقدساً، لقد مشى بوذا المستنير على هذه الأرض.

واصل قيادة السيّارة، حتى وصل إلى منعطفٍ في الشّارع. لم تكن شراوستي بعيدةً حينئذٍ. أوقف سيّارته تحت شجرةٍ، ومضى نحو النّهر الذي يحاصِر مقاطعة شراوستي من جميع أطرافها. وصل إلى الشاطئ العشبيّ، ونظر حوله ليجد مكاناً يجلس فيه، فرأى تلّةً صخريّةً على ربوةٍ بجانب النهر تبدو مثل معبدٍ. اندفع غزالٌ من بين الشجيرات. اقترب من المغارة آملاً ألّا

يكون النّمر داخلها. ربما خُصّص المعبد لبعض الطواطم أو الإلهة الأنثى لقبائل باهير «أديفاسي»، التي أعطت المدينة اسمها. صعد غوتام الصّخرة مثل السّلم نزولاً عند فضوله، ثم حدّق بداخلها، لقد غطّى سناج المصابيح الزيتيّة المحترقة عبر القرون جدرانها، فلم يستطع رؤية وجه الإلهة الأنثى، ربّما كانت صخرةً غير منحوتةٍ، وضع عليها مسحوق «السيندور» الأحمر، ففي بداية الأمر لم تكن ثمة صورةٌ للإلهة، بل فكرة الإلهة وحسب. ربّما شجعت المعابد الأصليّة كهذا المعبد المستوطنين الآريين الأوائل على عبادة الأصنام. اتّكأ على جدار المعبد، وبدا كلّ شيء هادئاً. كان يرغب في التجرّد من التفكير كليّةً، ولأوّل مرّةٍ في حياته طرأت له فكرة نيرفانا (طريق الخلاص من متع الحياة)، ونيرفانا تعني كلّ أشكال التجرّد من الخوف والشّعور بالعزلة والحزن والهزيمة واليأس والحقد والغضب والرّغبة في الهروب، ومفهوم الفضاء والنسبية، هذه هي فكرة نيرفانا (طريق الخلاص من متع الحياة) التي تتجاوز الحياة والموت والنّوم واليقظة والحبّ والتّعاطف والهدوء، وهي مع ذلك حقيقةٌ سرمديّةٌ...

سمع وقع خطىً، سأله صوت آت من الأسفل: «من أنت؟»

لهنيهةٍ لم يكن متأكّداً من هويّته: من هو أصلاً؟ فقال: «أنا...».

صعد الشابّ الآخر السّور الصخريّ الخشن.

«هاي»، هزّ هاري شانكار رأسه كما لو أن لقاءهما في غابةٍ مطيرةٍ في مكانٍ مجهولٍ وقت المساء الرّطب من أكثر الأمور اعتياداً.

سأله غوتام باقتضاب: «كيف...؟

«اتّصلت بي لاج هاتفياً، فأسرعت إلى دلهي، لكنّ كمال سبقني بالمغادرة، اتّصلتُ بمكتبك، فأخبروني أنّك خرجت في هذه الرّحلة الرّائعة، ثمّ عدت

إلى لكناؤ للقاء أبويّ، ففكّرت بأن ألقاك أيضاً».

«هذا لطفٌ منك». ربّما عفا عنه هاري بشأن نيرمالا، هذا أوّل لقاءٍ بينهما، في المكان الأقل احتمالاً، بعد ذلك الصّباح الكئيب في كانون الأوّل - ديسمبر من عام 1954م حينما ودّعوه في مطار هيثرو.

جلس هاري شانكار على آجرةٍ والتقط أنفاسه.

«لقد كانت محاولة يائسة ومضيعة للوقت (مثل مطاردة أوزة برية)، ذهبت أوّلاً إلى سركيت هاوس في بهرايتش حيث أخبرتني السّيّدة باجبائي بأن أذهب إلى نيلامبار بهون، ثم أخبرتني السّيّدة نيلامبار بأنّك ذهبت نحو شراوستي لتتفقد حال الشوارع، كأنك انضممت إلى إدارة الأشغال العامّة».

«سلكتُ هذا الطّريق، فرأيت سيّارتك واقفة على جانبه. هذه المنطقة مسكونة بالنّمور الخطرة يا صديقي! فلنخرج منها سريعاً». لكنّه لزم الجلوس.

همهمت الغابة بأغنية الطيور، فقال هاري دون أن يفكر بمغزى كلامه: «الآن تعود الطّيور إلى مأواها».

«نعم».

رأوا النّهر المتدفّق. «أخبروني بأنّ نهر سارجو صافٍ وشفّافٌ، وإذا ألقيت فيه عملةً، يمكنك أن تراها في قاع النّهر».

«نعم».

استلَّ محفظته، وأخرج منها عملة دولار فضية، ابتسم، ورماها في الماء، فرآها تلمع في الرّمال الرّمادية في قاع النهر.

صاح قائلاً: «هذا رائعٌ!».

لزم كلاهما الصّمت من جديدٍ، لقد كانا مكتئبين ومرهقين إلى حدّ أنّهما

لم يتحدّثا. آلت الشّمس للمغيب، وتغيّر وجه النهّر إلى اللون العنبريّ في الشّفق. وبعد حينٍ قال هاري: «يا صديقي! غوتام...».

«تكلّم».

«لقد خذلنا كمال، خذل أصدقاءه، ورحل عنّا للأبد. كنا نستطيع أن نتحدّى المجرّات معاً».

فأجابه غوتام بهدوءٍ: «لقد خدع بعضُنا بعضاً». هل يستطيع زوار شراوستي الغرباء هؤلاء أن يدركوا حجم الآلام في أرواحنا، وفي روح الهند، وروح كمال وروحي أنا؟»

شاهدا النهر يتدفق هائجاً. أصبحت الكلمات مؤقّتةً وعابرة، فالألسنة الجديدة تُبلي اللّغات وتحيلها إلى الفناء. يجيء النّاس ويروحون، حتّى الأنهار والغابات لا تخلد أبداً، فبعد مرور خمسين سنةً، قد تنشأ هنا غابةٌ خرسانيّةٌ.، وقد يجفّ النّهر، أو ينحسر، أو يغيّر اتجاهه مثلما يغيب الرّجال أو يغيّرون اتّجاه رحلاتهم.

يا غزلان الصّحراء! أخبرينا كيف مات مجنون ليلى
ماذا حدث للّصحراء بعد وفاة مجنون ليلى؟

أنشد هاري برقّةٍ، فامتزج لحنه الحزين بحفيف أوراق كادامبا.

قال غوتام باستخفافٍ: «أنت تتصرّف بعاطفيّةٍ مبالغ فيها، كمال ليس مثل سراج الدّولة. هو حيٌّ يُرزق، ربّما يرقص في هذه اللّحظة مع بعض النّساء الجميلات في جيم خانة في كراتشي».

«في الواقع أنت لا تفهمه... لقد عرفتُه منذ طفولتي». ردّ عليه هاري بأسلوب أخته نيرمالا التي وبّخت غوتام قبل سنواتٍ في مطعم كوه نور

في كامبرديج - «أنت لا تعرف تشامبا باجي، في الواقع، نحن نعرفها منذ طفولتنا». غلبته موجة ألمٍ مفاجئةٌ، فأمسك الصّخرة القريبة منه، وقد تملّكه شعورٌ بأنّه وحيدٌ في هذا العالم الذي يضمّ عدداً لا يحصى من المجرّات.

في هذا الفضاء سمع صوت هاري شانكار الحزين: «كان كمال مفرط الحساسيّة وعنيداً ومثاليّاً متشدّداً. خذله العالم القاسي، وقد مات شيءٌ ما بداخله، وإلّا لما أصرّ على تجنب لقائنا. هذا يدلُّ على أنه أضحى له وجود جديدٍ في بلدٍ آخر، وهو يرقص في جيم خانة في كراتشي في هذه اللّحظة بالذّات».

«أنت تحوّل الأمور إلى رعبٍ»، أجاب غوتام، وهو يحاول جاهداً أن يبدو عاديّاً. رفرف طاووسٌ بجناحيه، وطار صوب شجرة الكاكايا مترامية الأطراف ليبيت فيها اللّيلة. نظر هاري إلى ساعته وقال: «فلنذهب. على أي حالٍ، تقدم كوماري أرونا مأدبة عشاء هذه اللّيلة في نادي مقاطعة بهرايتش، ودعتنا خصّيصاً كوننا عازبين مؤهلين، وإن كنّا متعبين نوعاً ما».

سأل غوتام بخفّةٍ: «ألا يوجد حظرٌ على الطبقيّة؟»

فأجابه هاري شانكار، وهو ينزل إلى الأسفل قائلاً: «لقد أقمنا في الخارج مدة طويلةٍ، وتغيّر المجتمع الهنديّ». هذا الكهف مخيفٌ للغاية، حتى أبناء طبقة «أديفاسي» القديمة هجروه.

تبعه غوتام إلى الخارج، وشرعا يمشيان نحو الشّارع الرئيسيّ حيث أوقفا سيارتيهما.

ظهرت امرأةٌ قصيرة القامة بلباسٍ أبيض على مسافةٍ قريبةٍ. توقّف هاري فجأةً، وشحب لونه، تقدّم بسرعةٍ لكنّه عاد فوراً، وقال متلعثماً: «تلك... تلك المرأة هناك، ألا تشبه نيرمالا...؟ وجهها يشبه وجه نيرمالا، ومشيتها

وقامتها. لقد خُيّل إليّ للحظةٍ أن أختي الطفلة قد عادت. يا لحماقتي!».

مضت المرأة بخطىً سريعةٍ إلى الأمام بحذائها الثّقيل.

قال هـاري بعد لحظاتٍ: «حضرتُ مؤتمراً عن الهند وباكسـتان في لاهور العام الماضي، وذهبوا بنا بعد ذلك إلى تاكسيلا».

صاح غوتام قائلاً: «آه... أنت زرت تاكسيلا، كم أرغب بزيارتها».

تابـع هـاري حديثه: «هنـاك في المتحف، رأيت إفريـزاً للنّقوش من مملكة غاندهارا يصوّر المعجزة التي حدثت في شراوسـتي. هل تعرف أنّ الإله بوذا قدّم معجزةً لإقناع البراهمة المتغطرسين بشأن رسالته البوذيّة...»

ضحك بمرارةٍ وقال: «حسـناً، ليس ثمّة معجزاتٌ قدسـيّةٌ في شراوستي اليـوم، لهنيهةٍ ظننت أنّ أختي عـادت إلى الحياة، لكن كيف يمكن ذلك؟ لقد توفّيت المسكينة نيرمالا وغادرتنا للأبد».

لزم غوتام الصّمت برزانةٍ، بإمكانه أن يسمع وجيب قلبه. ارتجفت قدماه قليلاً.

ظهـرت النّسـاء الأخريـات بلباسـهنّ الأبيـض، يحملن عـصي الخيزران والمصابيـح في موكِـب يشـبه «الوهج المسـتنقعيّ» متجهات صـوب الأبراج البوذيّة، تتبعهنّ مجموعةٌ من رجال الدّين البوذيّين القادمين من كوكس بازار.

علّـق غوتام عليهـنّ بلهجة مجوفة: «هـؤلاء حجّاجٌ مـن شرق البنغال في طريقهم إلى المعبد».

أحدثـت صنـادل الحجّـاج الخشـبيّة صوتاً متناغـماً رائعاً حين مشـوا على الطّريـق المرصـوف. تراجع صـوت الطقطقة ببـطءٍ في عمق الغابـة البدائيّة، وخيّم الصّمت المطبق في الأرجاء.

نبذة عن المؤلِفة

قرة العين حيدر (1927-2007) روائية وقاصة هندية، وأكاديمية بارزة، بالإضافة إلى رائعتها «نهر النار» لها اثنتا عشرة رواية وأربع مجموعات قصصية، إلى جانب الكثير من المقالات الأدبية. ترجمت معظم أعمالها إلى كثير من اللغات الهندية والعالمية.

نالت قرة العين حيدر العديد من الجوائز من أهمها: جائزة «أكاديمية الأدب» المرموقة سنة 1967، وجائزة «جانابيث» أعلى جائزة أدبية في الهند، وجائزة «بادما شيري»، و«بادما بوشان» المرموقة من حكومة الهند.

نبذة عن المترجم

أ.د. مجيب الرحمن: أستاذ في مركز الدراسات العربية والأفريقية بجامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند. كاتب وباحث أكاديمي.

ترجم إلى العربية «فكرة الهند» لسونيل خيلناني، و«مواطن الحداثة» لديبيش شاكرابرتي، وقد صدرا عن مشروع «كلمة»، و «السير في الطريق السريع» لرام بوكساني، وله ما يزيد على 50 بحثاً منشوراً في مختلف الصحف والمجلات. وأشرف على ما يزيد على 30 رسالة جامعية.

حصل على جائزة رئاسية «مهارشي بادريان وياس سمان» للعلماء الشباب عام 2012 من رئيس جمهورية الهند.

نهر النار

تمر الجماهير على الجسر، تبحر الزوارق في الأنهار المعتمة وأنا على الشاطئ. يجب أن أبحث عن سفينة؛ سفينة انطفأت مصابيحها، تستعد لاقتحام البحر القاتم بهدوء. سفينة تتجه إلى مكان ما. يغمرني شعور بأنه ليس ثمة أحد فيها سيقول: مرحباً بعودتك كمال رضا...! هبَّ واقفاً وسار نحو الشارع، ثم كرر من جديد: «لا يوجد أحد يقول: مرحباً بك في بيتك».







السعر 140 درهماً

